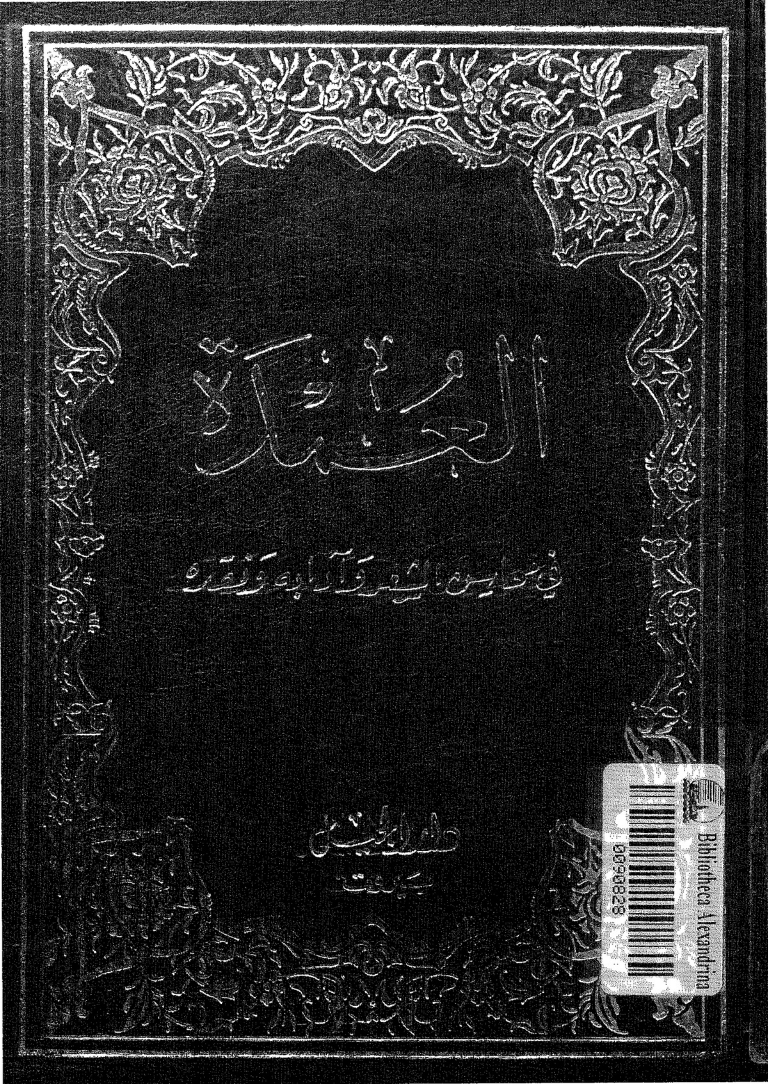

العمدة
في محاسن الشعر وآدابه ونقده
دار الجيل
بيروت
Bibliotheca Alexandrina



العمدة

في محاسن الشعر ، وآدابه ، ونقده

الجزء الأول

تأليف

أبي على الحسن بن رشيق ، القيرواني ، الأزدي

٣٩٠ — ٤٥٦ من الهجرة

حققه ، وفصله ، وعلق حواشيه

محمد محيي الدين عبد الحميد

عفا الله تعالى عنه !

دار الجيل

للنشر والتوزيع والطباعة

ص. ب. ٨٧٣٧

الطبعة الخامسة
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

يطلب هذا الكتاب من « دار الجيل » بناية صالحة وصمدي
- الطابق الثالث - شارع سوريا - ص.ب ٨٧٣٧ - تلفون ٢٥٨٦٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى دل على وُجُوده بجُوده ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد مَنَار الحق وعَمُوده ، وعلى آله وصحبه القائمين بالحق من بعْده .

أما بعد ، فهذا كتاب « العمدة ، فى محاسن الشعر وآدابه » تصنيف أبى على الحسن بن رشيق ، الأزدي : المولود فى عام ٣٩٠ من الهجرة (٩٩٩ م) والمتوفى فى ليلة السبت غرة ذى القعدة من عام ٤٥٦ من الهجرة[١] (١٠٦٤ م) وهو الكتاب الذى « جَمَع أحْسَنَ ما قاله كلُّ واحـــد ممن صنف فى معانى الشعر ومحاسنه وآدابه ، وعَوَّل مؤلِّفه فيه على قريحة نفسه ، ونتيجة خاطره ؛ خوفَ التكرار ، ورجاء الاختصار ، إلا ما تعلق بالخبر ، وضَبَطَته الرواية ؛ فإنه لم يغير شيئا من لفظه ولا مَعْناه ؛ ليؤتى بالأمر على وجهه »[٢] .

وقد صنفه كعادة أكثر العلماء لأبى الحسن على بن أبى الرجال الكاتب « زعيم الكرم ، وواحد الفَهم ، الذي نال الرياسة ، وحاز السياسة ، وانفرد بالبَسْط والقَبْض ، واتحد فى الإبرام والنقض . . . إلخ »[٣] وأبو الحسن هذا رجل فى نظر ابن رشيق قد جمع هذه الخلال ، وزاد عليها « سلامةَ طبعٍ واندفاعه ، وقُرْبَ لفظٍ واتساعه ، ورقةَ مَعانٍ وإرهافها ، وظهورها مع ذلك وانكشافها ، مع لطف مواقعها من القلوب ، وسرعة تأثيرها فى النفوس »[٣] ؛ فهو أديب

---

(١) اختلف العلماء فى تاريخ وفاة ابن رشيق ، فحكى ابن خلكان ثلاثة أقوال ، ونص ياقوت على هذا الذى ذكرناه ، وعبارته تدل على تحريه وقصده إلى التدقيق .

(٢) انظر (ص ٤) من الجزء الأول من هذا الكتاب، والأرقام التى نذكرها فى هذه الإحالات بوجه عام هى أرقام الطبعة الأولى بتحقيقنا

(٣) انظر (ص ٢٢٨ ج ٢) من هذا الكتاب .

وشاعر عظيم ، وابن رشيق مَفْتُون به و بأدبه ، وَقَلَّما خلا بابٌ من أبواب كتابه من غير أن يختار من شعره ما يناسب هذا الباب [انظر شاهد ذلك ص ١١٢ و ١١٣ من الجزء الأول ، وص ١٠٦ و ١٠٧ من الجزء الثانى] .

والذى يظهر أن هذا الكتابَ لقى — منذُ ظهر للناس بعضُه — إقبالا وذيوعاً جعل بعضَ خُصُوم المؤلف يَحْقِدون عليه و ينقصون من قيمته : تارة بالتخطئة ، وأخرى بادعاء الانتحال والسرقة ، حتى اضطر المؤلف إلى أن يَبْهَتَهم ، ويُزْرى عليهم ، وينال من أعراضهم ، ويدعوهم إلى الإتيان بمثله ، أو ببعضه ؛ فهو يقول[1] « وكم فى بلدنا هذا من الُحفَاثِ[2] قد صاروا ثَعَابين ، ومن البُغَاث قد صاروا شَوَاهين ، إن البغاث فى أرضنا يستنسر ، ولولا أن يُعْرَفوا بعد اليوم بتخليد ذكرهم فى هذا الكتاب ، ويدخلوا فى جملة من يُعَدُّ خَطَلُه ، ويُحْصَى زلله ؛ لذكرت من لحن كل واحد منهم ، وتصحيفه ، وفساد معانيه ، وركاكة لفظه ؛ ما يدلك على مرتبته من هذه الصناعة التى ادَّعَوْهَا باطلا ، وانتسبوا إليها انتحالا . وقد بلغنى أن بعض من لا يتورع[3] عن كذب ، ولا يستحيى من فضيحة ، زعم أنى أَخَذْتُ عنه مسائِلَ من هذا الكتاب لو سُئل عنها الآن ماعلمها ، والامتحانُ يقطع الدَّعْوَى ، كما قال بعض الشعراء :

مَنْ تحلَّى بغير ماهُوَ فـــيه فَضَح الإمْتِحَانُ ما يَدَّعِيـــه

وكنت غَنِيًّا عن تهجين هذا الكتاب بالإشارة إلى مَنْ أشرت إليه ، أنفاً من ذكره ، وعُزُوفاً بهمتى عن الانحطاط إلى مُسَاواته ، ولكنى رأيت السكُوت عنه عَجْزاً وتقصيراً » .

---

(١) انظر (ص ٢٢٨ ج ٢) من هذا الكتاب .

(٢) الحفاث — بوزن الغراب — حية تنفخ ولا تؤذى ، قاله الجوهرى .

(٣) لعله يريد ابن شرف القيروانى؛ فهو قرينه ؛ وكانت بينهما ملاحاة ومحاقدة على ما ستعرف فى ترجمته .

وأنت إذا قرأت هذا الكتاب استَدْللتَ على فضل الرجل ، وسَعَة اطلاعه ، وحسن تخريجه ، وإن كان يتقيد برأى قُدَامَى العلماء : لا يخرج عنهم ، ولا يرضى بنقدهم وإن ظهر له وَجْه النقد ؛ فهو يَجْرِى فى بحثه على قاعدة « كلامُ العقلاء مَصُون عن الخطأ » وهو ــ فى هذا الكتاب ــ رجلٌ هادىء النفس ، وَادِعُ الخلق ، طويل الأناةِ : يَعْرِض له الرأىُ يخالف فيه رأىَ المتقدمين بتخطئة ما صوبوا أو تصويب ما خطأوا أو بيان وَجْهٍ من التأويل فيه غاب عن أذهانهم فيَجْلُوهُ لك فى أسلوبٍ لا تكاد تقرأه حتى تلمَسَ رَزَانته وهدوء طبعه ، وهو ــ بعد ذلك كله ــ صاحبُ آراء لو شاء أن يدعى أنه منشئها وأبو عُذْرَتها ، ثم يباهى بأقلها شأناً وأهونها خطراً كدَأْب أكثر الأدباء فى عَصْرنا ودأب كثير من أدباء عصره ؛ لما أعْوَزَتْه الحجة ، ولا غاب عنه البرهان . انظر إليه وهو يقول[1] : « وقد نصَّ ابنُ الرومى فى بعض تسطيراته على محمد بن أبى حكيم الشاعر حين عاب عليه قولَه فى الفرس من قصيدة رثى بها عبد الله بن طاهر * فله شهامة . . . . البيت * وذكر قول حبيب [أبى تمام] :

بِحَوَافِرٍ حُفْرٍ وصُلْبٍ صُلَّبِ

فحفل به ، واعتذر له ، وخَرَّجَ التخاريجَ الحِسان ، وذكر أن الحافر الوأب والحافر المقعب ونحوهما أشرف فى اللفظ من الحافر الأحفر ، إلا أن الطائى عنده كان يطلب المعنى ولا يبالى باللفظ ، حتى لو تمَّ له المعنى بلفظة نَبَطِية لأتى بها ، والذى أراه أن ابن الرومى أبْصَرُ بحبيب وغيره منا ، وأن التسليم له والرجوعَ إليه أحزم ؛ غير أننى لو شئت أن أقول ــ ولست راداً عليه ، ولا معترضاً بين يديه ــ إن المعنى الذى أراده وأشار إليه من جهة الطائى إنما هو معنى الصنعة

---

(١) انظر (ج ١ ص ١١١) من هذه المطبوعة .

كالتطبيق والتجنيس وما أشبههما لا معنى الـكلام الذى هو رُوحُـه ، وإن اللفظ الذى ذكر أنه لا يبالى به إنمـا هو فصيح الـكلام ومستعمله ، ويدلك على صحة ما ادعيته على ابن الرومى قوله : إن الحافر الوأب والمقعب أشرف فى اللفظ من الحافر الأحفر ؛ فـكلامه راجع إلى ما قلته فى الطائى ، غير مخالف له ، وإن كان فى الظاهر على خلافه ؛ لينساغ ، إلا أن أكثر الناس على ما قال، وإنما هذا مَعْرض للكلام ،لا لمخالفة » اه ومثل ذلك فى أضعاف الـكِتاب كثير لا أحب أن أقفك على جميعه ، ولـكِنى أنبهك فى هذه الـكلمة إلى قوله « ولست راداً عليه ، ولا معترضاً بين يديه » وقوله فى آخرها « وإنما هذا معرض للـكلام، لا لمخالفة » بعد قوله « إلا أن أكثر الناس على ما قال » ثم أدَعُكَ بعد ذلك تستنبط من هذا الـكلام ما تشاء .

ولقد طبع كتابه هذا كاملا مرتين فى مصر ، وطبع نصفُه فى تونس ، وكل هذه الطبعات قليل الغَنَاء عديم الجَدْوَى ؛ فإن التصحيف والتحريف لَيَفْشُوَانِ فيها ، وإن نظام وضعها وتلاحُقَ مباحث الـكتاب — مع تَشَعُّبها وكثرة فنونها — ليباعد بينك وبين الإفادة منه ، وهذه العيوبُ فاشية فى مطبوعاتنا العربية ، وقلما يخلو منها — مع الأسف الذى يقطع نِيَاط قلوبنا — كتابٌ من كتب هذه اللغة المسكينة ، وبخاصة كتب أسلافنا المتقدمين ، وليس من علة لانصراف الناشئة العربية — فيما نعتقد — عن هـــــذا التراث الثمين إلا هذا التشويهُ الغريبُ الذى يُظْهِرُ الناشرون عليه كتبَ آبائنا الذين لم يُقَصِّرُوا فى تَوْرِيثنا أعظمَ تراثٍ علمى ، ولم يألُوا جَهْداً فى تَبْرِئة أنفسِهم ممـا جعل الله فى أعناقهم من ميثاق العلم أن يبينوه للناس ولا يـكتموه ، ونحن نعتقد عقيدة لا تداخلنا فيها خلجة شك أن الحرف الصغير والورق الأصفر وحِرْصَ التجار على ظهور الـكِتاب فى أقرب وقت وفى أقل ما يمـكن من عدد الصفحات ،

كل أولئك أكبرُ الفوارق بين الكتب العصرية الشيقة الأسلوب المتسلطة على قلوب النشء ، و بين كتب العصر القديم ، والآياتُ على ذلك كثيرة ، والشواهد أكثر من أن يحيط بها العد .

وقد خلق الله فى نفسى حب السلف ، والتفانىَ فى الدفاع عن علومهم وأفكارهم ، والحرصَ على إذاعة فضلهم وعظيم مِنَّتِهِمْ علينا وعلى من يأتى بعدمن الأجيال المتلاحقة ، ولست أدرى سرّ ذلك كله ، غير أنى لا أشك فى أن بين يدينا ثروة يحس بها المستشرقون أكثر مما نحس بها نحن أبناء هؤلاء المُوَرِّثين ، وأنا نضيع هذه الثروة بأحد سببين لا ثالث لهما : أولهما : الانصرافُ عنها إلى الافتتان بالغرب وعلوم الغرب ، وردّ كل نبوغ وفَوْقٍ إلى نبوغ الغرب وفَوْقِهِ ، وثانيهما : الاقتناع من باعة الكتب بأن يظهروا لنا كتبَ أسلافنا على صُوَر مشوهة ممسوخة لا تسد نَهْمَةً ولا تَبُلُّ أواما ، ولو أننا أرْغَمْنَاهم على أن يُظْهِرُوها موافقةً لروح العصر الحديث لاستطعنا أن نفيد ، وأن نجد فى ميراثنا النفع والغناء .

لهذا كله حرصت كل الحرص على مراجعة هذا الكتاب على أصوله التى أمكن الوقوفُ عليها ، ثم معاودة هذه المراجعة ، حتى أخرجته لك من بين فَرْثٍ ودم لبناً خالصاً سائغا للشاربين .

* * *

فى دار الكتب المصرية بالقاهرة نسختان خطيتان كاملتان من الكتاب إحداهما مكتوبة بقلم النسخ ، كتبها محمد بن أحمد الخوجة ، فرغ من كتابتها فى عصر يوم الأحد الثانى عشر من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ من الهجرة ، والثانية : مخطوطة بقلم معتاد بخط السيد أحمد بن محمد بن عبده . . . الديروطى فرغ من كتابتها ومقابلتها فى يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر ذى القعدة سنة

١٢٩٨ من الهجرة ، وهذه النسخة الثانية مكتوبة ومقابلة على النسخة الأولى ، ولم يُصلح كاتبها ومقابلها أُغْلُوطَةً واحدة من الأغاليط الكثيرة فى سابقتها . وفى الخزانة التيمورية نسخة خطية كاملة أقدم من هاتين عهداً ، وأسبق منهما تاريخاً، كتبت بخط معتاد ، وفرغ من كتابتها فى يوم الأربعاء الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٩٩٣ من الهجرة ، وهى أقل من نسختى الدار خطأ ، فلم يكن لى بد من مراجعة هذه المطبوعة على هذه النسخ الثلاث ، وعلى النسختين المطبوعتين بمصر ، ومراجعة النصف الأول — مع ذلك — على مطبوعة تونس، وكم وجدت فى هذه النسخ جميعها من أغاليط كانت تضطرنى فى أكثر الأحايين إلى مراجعة الأمهات والأصول التى نقل عنها المؤلف ، وإلى مراجعة دواوين الشعراء الكثيرة بنوع خاص ، ولو أننى أردت أن أحدثك عن المراجع التى استخلصت لك الصواب من بينها لَهَا لَكَ الأمر ، وخرج الحال فى نظرك عن حد المستساغ المقبول ، ولكنها على أية حال الحقيقةُ التى لا غُلُوَّ فيها ولا إغراق ، وستقف بنفسك حين تقرأ فى الكتاب بعد هذا آثارَ ما كابَدْتُ من العَنَاء والمشقة ، وكم كنت أحب أن أذكر لك عند كل تصويبة أصْلَهَا فى خطأ أصول الكتاب وكيف أصلحت ومصدر إصلاحها ، ولكنى اكتفيتُ بالتنبيه على بعض ذلك ، وتركتُ بعضَه لعلمى أن ذلك لا يعنى به غير نفر قليل من القراء ، وهؤلاء يكتفون باللمعة ، ويجتزئون بالخبر .

وكان لابد أن أجد فى بعض النسخ زيادةً عما فى بعضها الآخر ، أو أعثر على سَقْطَة فى كلام نَقَله المؤلف عن كتاب آخر بعد مراجعة هذا النقل ؛ فاهتممتُ لذلك ، ووضعت الزائد بين قوسين على هذه الصورة [ ] ثم قد أنبه على موطن الزيادة ، وقد أترك التنبيه مكتفياً بعلم القارىء ذلك من سِيَاقة الكلام.

ولست أدَّعِى — مع هذا كله — العِصْمَةَ من كل خطأ ، والبراءة من كل زَلَل ؛ فالله وحده الذى تفرد بالكمال ، ولو لم يكن فى عملى إلا أننى أصلحت أكثر من أربعمائة أغْلُوطة وقَعَتْ فى الطبعتين السابقتين لهذا الكتاب لكان ذلك عملاً جديراً بأن أفْخَرَ به .

والله المسئول أن يثيبنى عليه ، ويغفر لى ولوالدىّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ؟

ربيع الثانى ١٣٥٣
أغسطس ١٩٣٤

كتبه
محمد محيى الدين عبد الحميد

ترجمة المؤلف

(١)

قال صاحب الحلل السندسية فى كلامه على القَيْرَوان :

ومن بلغاء القيروان وأبنائها الحسنُ بن رَشِيق ، أحَدُ البلغاء الأفاضل ، الشعراء ، ولد بالمَسِيلَة ، وتأدَّبَ بها قليلا ، ثم ارتحل إلى القَيْرَوَان سنة سِتٍّ وأربعمائة . كذا قال ابن بسام ، وقال غيره : ولد بالمحمدية سنة تسعين وثلاثمائة ، وأبوه مملوك رومى من مَوَالِى الأزْدِ ، وتوفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة[1] ، وكانت صنعة أبيه فى بلده المحمدية الصِّياغة ، فعلَّمه أبوه صنعته ، وقرأ الأدب بالمحمدية ، وقال الشعر ، وتاقَتْ نفسُه إلى التزيُّدِ منه وملاقاة أهل الأدب ، فرحل إلى القَيْرَوَان ، واشتهر بها ، ومدح صاحبها [المعز بن باديس بن المنصور] ولم يزل بها إلى أن هَجَم العربُ عليها وقتلوا أهلها وخربوها ، فانتقل إلى صقلية وأقام بمازر إلى أن مات ، ومازر : قرية بجزيرة صقلية منها المازرى رحمه الله ، واختلف فى تاريخ وفاته . قال ابن خلكان: رأيت بخط بعض الفضلاء أنه توفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة ، قال : وقيل : إنه توفى ليلة السبت غرة ذى القعدة سنة ست وخمسين[1]. ومن شعره :

يا رَبِّ لا أقْوَى على دَفْعِ الأذَى ... و بكَ اسْتَعَنْتُ على الضعيف المؤذِى

ما لى بَعَثْتَ إلىَّ ألفَ بعوضةٍ ... وَ بَعَثْتَ واحدَةً إلى نمروذ

وكان بينه و بين أبى عبد الله محمد بن أبى سعيد بن أحمد المعروف بابن شرف القيروانى مُنَاقضات ومُهَاجاة ، وصنف عدة رسائل فى الرد عليه ، منها :

(١) الأكثرون على أن مولده فى سنة ٣٩٠ ، وقد حكى ابن خلكان (١/٣٦٦ بتحقيقنا) فى وفاته هذا القول ، وحكى قولين آخرين: أحدهما أنه توفى فى سنة ٤٥٦ بمازر ، وثانيهما أنه توفى فى ليلة السبت غرة ذى القعدة من سنة ٤٥٦ والفرق بين القولين أن الأول لم يحدد يوم الوفاة ولا الشهر ، وذكر ياقوت القول بأنه توفى فى سنة ٤٥٦ .

رسالة سماها ساجور الكلب ، ورسالة نجح الطلب ، ورسالة قطع الأنفاس ، ورسالة نقض الرسالة الشعوذية ، والقصيدة الدعية ، والرسالة المنقوضة ، ورسالة رفع الإشكال ودفع المحال ، وله كتاب أنموذج الشعراء شعراء القيروان ، ورسالة قراضة الذهب ، والعمدة فى معرفة صناعة الشعر ونقده وعيو به ،وهو كتاب جيد، وغير ذلك .

***

(٢)

وقال صاحب الوافى ما نصه :

وقد وقفت على هذه المصنفات والرسائل المذكورة جميعها ، فوجدتُهَا تدل على تَبَحُّرِه فى الأدب ، واطِّلاعه على كلام الناس ، ونَقْله لمواد هذا الفن، وتبحره فى النقد ، وله كتاب فى شذوذ اللغة ، يذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة فى بابها .

ومن شعره :

أحِبُّ أخى وإن أعْرَضْتُ عنه ... وقَلَّ على مسامعه كلامى
ولى فى وجهه تَقْطِيبُ راضٍ ... كما قَطَّبْتَ فى وَجْه المُدَام
ورُبَّ تقطبٍ من غير بغض ... وبغضٍ كامنٍ تحت ابتسام

ومنه :

إذا ما خَفَفْت لعهد الصِّبَا ... أبَتْ ذلك الخمسُ والأربعُونَا
وما ثَقُلَتْ كِبَرًا وَطْأتى ... ولكنْ أجُرُّ وَرَائى السِّنِينَا

ومنه :

وقائلة :ماذا الشُّحُوبُ وذ الضنَى؟ ... فقلت لها قولَ المشوق المتيم :
هواك أتانى ، وهو ضَيْفٌ أعِزُّهُ، ... فأطعمته لحمى ، وأسقيته دَمِى

ومنه :

ذمت لعينك أعين الغزلان ... قَمَرٌ أقَرَّ لحسنه القَمَرَانِ

ومَشَتْ فلا واللهِ ما حِقْفُ النقَا مما أرَتْكَ ولا قَضِيبُ البانِ
وَثنُ الملاحة غير أن دِيانَتِي تأبى عليَّ عبادةَ الأوثانِ

ومنه فى المديح :

يابْنَ الأعزَّةِ من أكابر حِمْير وسُلالَة الأملاك من قَحْطَان
من كل أبْلَجَ آمرٍ بلسانه يَضَعُ السيوفَ مَوَاضعَ التيجان

ومنه :

فى الناس من لا يُرْتَجَى نَفْعُهُ إلا إذا مُسَّ بأضرَارِ
كالعود لا يطمع فى طِيبِهِ إلا إذا أحْرِقَ بالنَّارِ

ومنه :

أقول كالمأسور فى ليلة ألقت على الآفاق كَلْكَالَهَا :
يا ليلةَ الهَجْرِ التى لَيْلُهَا قَطَّعَ سَيْفُ الهجر أوْصَالَهَا
ما أحسنت هند، ولا أجملَتْ جُمْل، وليس الحسْنُ إلاَّ لهَا

ومنه :

ومن حَسَنَاتِ الدهر عندىَ ليلةٌ من العُمْرِ لم تترك لأيامها ذَنْبَا
خَلَوْنَا بها نَنْفِى القذى عن عُيُونِنَا بلؤلؤة مملوءة ذَهَبًا سَكْبَا
ومِلْنَا لتقبيل الثغور ولَثْمِهَا كمثل جُنُوح الطير يَلْتَقِطُ الحبَّا

قال الأبيوردى : وما هذا بأحْسَنَ من قول ابن المعتز :

كم من عِنَاقٍ لنا ومن قُبَلٍ مُخْتَلَسَاتٍ حِذَارَ مُرْتَقِبِ
نَقْرِ العَصَافيرِ، وَهْىَ خائفة من النواطيرِ، يَانِعَ الرُّطَبِ

قال فى الوافى : قلت : مقام ابن المعتز غير مقام ابن رشيق ؛ لأن ابن رشيق ذكر أنه فى ليلة أمن ، وهى عنده من حسنات الدهر ؛ فلهذا حسن تشبيه التقبيل مع الأمن بالتقاط الطير الحب ؛ لأنه يتوالى دفعة بعد دفعة ،

وأما ابن المعتز فإنه كان خائفاً يختلس التقبيل ويَسْرِقه ، كما يفعل العُصْفور فى نقر الرطب اليانع ؛ لأنه يقدم جازعاً خائفاً من الناطور ، فلا يطمئن فيما يلتمسه ، ألا ترى الآخر كيف قال فأحسن :

أقبـــله على جَزَعِى كشُرْبِ الطائر الفَزِعِ
رأى ماءً فواقعـــه وخاف عواقبَ الطمع

ومن شعر ابن رشيق :

قد أحكمت منى التجا ربُ كلَّ شىء غير جودِى
أبداً أقول : لئن كسبـــت لأقبضَنَّ يَدَىْ شديدِ
حتى إذا أثريت عُدْ تُ إلى السماحة مِنْ جَدِيد
إن المقام بمثـــل حا لى لا يتم مع القُعُودِ
لا بُدَّ لى من رحلة تدنى من الأمل البعيد

ومنه :

مُعَتَّقة يعلو الحَبَابُ متونَها فتحسبُهُ فيها نَثِيرَ جُمَانِ
رأت من لجين راحة لمديرها فطافت له من عسجد ببنان

وذكر له فى المعجب (ص ٧٠) بيتين مشهورين ، وترى كثيراً من شعر ابن رشيق فى تضاعيف هذا الكتاب ، وفى عامة فنون القول ، نرشدك فى ذلك إلى (ج ٢ ص ١٥٢ و ١٥٤) .

* * *

(٣)

وله سوى ما ذكر هؤلاء المترجمون له من الكتب كتابٌ نادر فى بابه يصفه لنا فى كتاب العمدة (ج ٢ ص ٢٢٩) فيقول : « على أن المحدثين قد شاركوا القدماء فى كل ما ذكرته أيضاً ، إلا أن أولئك أَوْلىٰ به ، وأَحَقُّ بالتقدمة فيه ، كما خالطوهم فى صفات النجوم ومواقعها ، والسحب وما فيها من البروق والرعود ، والغيث وماينبت عنه ، وبكاء الحمام ، وكثير مما لا يتسع له هذا الباب ،

ولكنى أفرد له كتابا قائمًا بنفسه ، أذكر فيه ما انفرد به المحدثون ، وما شاركهم فيه المتقدمون » ويذكره مرة أخرى فيقول (ج ٢ ص ٢٩٢) « وأنا أقول : إن أكثر الشعراء اختراعا ابن الرومى ، وسيأتى برهان ذلك فى الكتاب الذى شرطْتُ تأليفه ، إن شاء الله تعالى » فهل عاقته الصروف عن تأليفه ؟ أو ألفه كما شرط ولكنه ضاع فيما ضاع من كتب المتقدمين ؟ علم ذلك عند الله تعالى ! .. ..

وأخذ ابن رشيق الأدبَ عن أبى عبد الله محمد بن جعفر القزاز القيروانى النحوى من أهل القيروان ، وعن الأديب أبى محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلى ، وله فى كتاب العمدة نقول كثيرة عنهما وعن غيرهما من أدباء عصره وعلمائه ، رحمهم الله تعالى .

***

(٤)

وإذا أحببت المزيد فى ترجمة ابن رشيق ــ وما نحسبك تجد إلا تكراراً لهذا الكلام أو بعضه ــ فارجع إلى المصادر الآتية :

(١) بغية الوعاة للسيوطى ٢٢٠ .

(٢) الحلل السندسية ١٠٠

(٣) شذرات الذهب لابن العماد ٣/٢٩٧

(٤) معجم الأدباء لياقوت الرومى ٨/١١٠

(٥) كشف الظنون لحاجى خليفة ١٨٥ و ٣١٠ و ٩٧٣ و ١٠٢٩ و ١١٦٩ و ١٩٠٧ و ١٩١٨

(٦) الإنباه للقفطى ١/٢٩٨

(٧) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٣٦٦ بتحقيقنا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم

الحمد لله أهل الحمد ومستحقه ، وصلاته على صفوته من خلقه : محمدٍ خيرته ، وعلى أبرار عترته ، وسلم تسليماً .

أما بعد ، فإن أحقَّ مَنْ جَنَى ثمر الألباب ، واقتطف زهر الآداب ، متنزهاً في عقول الحكماء ، متفكهاً في أقاويل العلماء ، بالغاً بهمته أعلى المراتب ، خاطباً لنفسه أسنى المطالب ، مستقرّاً في أرفع ذِرْوَة ، متمسكاً بأوثق عُرْوَة ، مَنْ عَرَفَ العلم حقّه وفضله ، وسلك به طرقه وسبله ، وأكرم في الله مثواه ونزله ، وخص بالقرب ذويه وأهله ؛ فاستوجب من جميل الذكر ، وجزيل الذُّخْر ؛ ما هو أزين في الدنيا ، وأبقى في الأخرى : كالسيد الأمجد ، والفذِّ الأوحد ، حَسَنَةِ الدنيا ، وعَلَم العليا ، وباني المكارم ، وآبي المظالم[1] ، رجل الخُطَب ، وفارس الكُتُب : أبي الحسن علي بن أبي الرجال الكاتب ، زَعيم الكرم ، وواحد الفهم ، الذي نال الرياسة ، وحاز السياسة ، وانفرد بالبسط والقبض ، واتحد في الإبرام والنقض ، عن سعي مشكور ، وفضل مشهور ، وعِلْم بالموارد والمصادر ، ونظر في الأوائل والأواخر ، وتتبع لآثار مَنْ سلف ، من أهل القدر[2] والشرف ؛ وتقلب في مجالس الحكم ، بين ذوي الأقدار والهمم ؛ إلى أن صار نسيجَ وَحْدِه ، وقَرِيعَ دَهْره ؛ غير مُدَافَع عن ذلك ، ولا منازع فيه .

فالحمد لله الذي اختصه بالجلالة ، واستخلصه لشرف الحالة ، وقدّمه على

---

(١) آبي المظالم : أي الممتنع عن قبولها ، وفي نسخة « وداريء المظالم » أي : دافعها .

(٢) في نسخة « الأخطار » وهو جمع خطر بفتحتين .

المتقدمين فى الرتب ، وأقام به سوق العلم والأدب ، وجعل ذكره باقياً ، وجَدَّه سامياً ، وأيده من النصر والتوفيق ، بما فيه رضا الخالق والمخلوق ، فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم .

وأنا — أطال الله بقاء السيد محروسَ النعمة ، مَرْهُوبَ النقمة ، مُوَقًى فى دنياه ودينه ، منتفعاً بظنه و بقينه ، قليل الأنداد ، كثير الحسّاد — وإن لم أعْلَقْ من العلم إلا بحاشية ، ولا أخذت منه إلا فى ناحية ؛ لسوء المكان ، وقلة الإمكان ، وَزَمانة الزمان ، وحدوث الحدثان ، قبل أن أعلق بحبل عنايته ، وأحفظ وأصير فى حرم حمايته ، فقد وجدت الشعر أكبر علوم العرب ، وأوفر حظوظ الأدب ، وأحرى أن تُقْبل شهادته ، وتُمْتثل إرادته؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من الشعر[1] لحِكَماً » وروى « لحكمة » وقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه « نعم ما تعلمته العربُ الأبياتُ من الشعر يُقَدِّمُها الرجل أمام حاجته : فيستنزل بها الكريم ، و يستعطف بها اللئيم[2] » . مع ما للشعر من عظيم المزية ، وشرف الأبية ، وعز الأَنَفَةِ ، وسلطان القدرة ، ووجدت الناس مختلفين فيه ، متخلفين عن كثير منه : يقدمون ويؤخرون ، ويقلون ويكثرون ، قد بو بوه أبواباً مبهمة ، ولقبوه ألقاباً متهمة ، وكل واحد منهم قد ضرب فى جهة ، وانتحل مذهبا هو فيه إمام نفسه ، وشاهد دَعْواه ، فجمعت أحسنَ ما قاله كلٌّ واحدٍ منهم فى كتابه ؛ ليكون (العمدة ، فى محاسن الشعر وآدابه) ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) قال ابن الأثير : « أى : إن من الشعر كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسفه وينهى عنهما ، قيل : أراد بها المواعظ والأمثال التى ينتفع بها الناس ، والحكم : العلم ، والفقه ، والقضاء بالعدل ، وهو مصدر حكم يحكم ، ويروى : إن من الشعر لحكمة ، وهى بمعنى الحكم» اهـ ، وانظر ص ٢٧ من هذا الجزء فقد فسره المؤلف.

(٢) فى التونسية « فيستنزل بها اللئيم ، ويستعطف بها الكريم » .

وعولت فى أكثره على قريحة نفسى ، ونتيجة خاطرى ؛ خَوْفَ التكرار ، ورَجاء الاختصار ، إلا ما تعلّق بالخبر ، وَضَبَطَتْهُ الرواية ، فإنه لا سبيل إلى تغيير شىء من لفظه ولا معناه ؛ ليؤتى بالأمر على وجهه ، فكل مالم أُسْنِدْهُ إلى رجل معروف باسمه ، ولا أَحَلْتُ فيه على كتاب بعينه ؛ فهو من ذلك ، إلا أن يكون متداولا بين العلماء ، لا يختص به واحد منهم دون الآخر ، وربما نحلته أحد العرب ، و بعض أهل الأدب ، تستراً بينهم ، ووقوعا دونهم ، بعد أن قرنت كل شكل بشكله ، ورددت كل فرع إلى أصله ، و بينت للناشىء المبتدىء وجه الصواب فيه ، وكشفت عنه لَبْسَ الارتياب به ، حتى أعرّف باطله من حقه ، وأميز كذبه من صدقه ، ولم أُسِمْ كتابى هذا باسم السيد — زاده الله تعالى سُمُوًّا — لأكون كجالب التمر إلى هَجَرٍ [1] ، ومهدى الوَشْىِ إلى عَدَن . [2] ولكن تزينا باسمه الشريف ، وذكره الطيب ، واستسلاماً بين يدى علمه الطائل وأدبه الكامل :

إنْ قَصَّرْتَ عَنْ غَرَضٍ رَمْيَةٌ ... أوْ زَلَّ فِكْرٌ أوْ نَبَا خَاطِرُ

لِأَنَّنِي فِيهِ عَلَى نِيَّةٍ ... يُخْبِرُ عَنْ بَاطِنِهَا الظَّاهِرُ

---

(١) هجر — بفتح الهاء والجيم جميعا — بلدة باليمن ، ولفظه مذكر مصروف ، وقد يؤنث ويمنع ، وقد يطلق هذا الاسم على جميع أرض البحرين ، وقال ابن الأثير : بلد معروف بالبحرين ، وقال غيره : هى قصبة بلاد البحرين ، والمثل الذى ذكره المؤلف مشهور ، وقد ذكره الجوهرى بلفظ « كمبضع التمر إلى هجر » ونحوه فى المعنى قولهم « كجالب الدر إلى البحر » .

(٢) عدن : مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن ، وهى بلدة تجارة ، وهى مرفأ مراكب الهند ، وهى أقدم أسواق العرب ، وإلى اليمن عامة تنسب برود وحبر وأنواع من الوشى .

ولما عدلت بي الحال عن حضور مجلسه الباهر ، ومنعني الإجلال من مناسمة خلقه الزاهر ، وطال اشتياقي إلى تلك الطلعة الكريمة ، واشتد حرصي على تلك المشاهد العظيمة ، وعلمت أن لا بد لي منه ، ولا غنى لي عنه ، إلا ما حجز دونه آنفاً من خدمة مولانا — خلد الله ملكه — لما غمرني من فضله ، وقيدني من إحسانه :

وَمَنْ وَجَدَ ٱلْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقَيَّدَا[1]

نفضت جِرَابَ صدري ، وانتقدت كنز معرفتي ، وأيقنت أن صورة الإنسان ، فضلَةٌ عن القلب واللسان[2] ، وأن استحقاقه للفضل ، إنما هو من جهة النطق والعقل ، فمثّلت له نفسي ، وأهديتها إليه ، ومَثَّلْت بها حقيقة بين يديه ؛ إذ كانت الأنفاس مَنُوطة بالأنفس ، والمرء لولاهما مَوَاتٌ مُلْقًى لا خير فيه ، ولا نفع عنده ، وأيضاً فإن النفس تفوت الحس ، وإنما تُدْرَكُ بالبصائر لا بالأبصار ، والسيد — أدام الله عزه — أعلم بمعذرتي ، وأقْوَمُ بحجتي ، من أن أعرض خَزَفي على جوهره ، أو أقيسَ وَشَلِي بأبْحُره ، بل أستقيله وأسترشده ، وأستعفيه وأستنجده ، ثم إني لا أظهر حرفا من كتابي هذا إلا عن أمره وبعد إذنه ؛ لأكون به أقوى ثقة ، وله أشد مِقَةً[3] ، فإن

---

(١) هذا عجز بيت لأبي الطيب المتنبي ، من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة بن حمدان ، وصدره :

* وَقَيَّدْتُ نَفْسِي فِي ذَرَاكَ مَحَبَّةً *

(٢) يشير بهذه العبارة إلى قول الشاعر :

لِسَانُ ٱلْفَتَى نِصْفٌ ، وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ صُورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ

(٣) المقة : الحب ، وفعله ومقه يمقه بوزن وعده يعده .

وقع منه بموقع ، وحل من قبوله فى موضع ؛ بلغت الإرادات ، ورجوت الزيادات :

وَأَزْرَقُ الْفَجْرِ يَبْدُو قَبْلَ أَبْيَضِهِ وَأَوَّلُ الْغَيْثِ قَطْرٌ ثُمَّ يَنْسَكِبُ

وإلا سترته سَتْرَ العورة ، وطرحته طرح القُلامة ، لعل الله يحدثُ بعد ذلك أمراً ، أسأله حسن التوفيق والهداية ، وأرغب إليه فى العصمة والكفاية ، بمنه وقدرته ، ولطفه ورحمته .

(١) ــ باب فى فضل الشعر

العرب أفضل الأمم ، وحكمتها أشرف الحكم ؛ لفضل اللسان على اليد ، والبعد عن امتهان الجسد ؛ إذ خروج الحكمة عن الذات ، بمشاركة الآلات ؛ إذ لا بد للانسان من أن يكون تَوَلّى ذلك بنفسه ، أو احتاج فيه إلى آلة أو معين من جنسه .

وكلام العرب نوعان : منظومٌ ، ومنثور . ولكلٍّ منهما ثلاث طبقات : جيدة ، ومتوسطة ، ورديئة ، فإذا اتفق الطبقتان فى القدر، وتساوتا فى القيمة، ولم يكن لإحداهما فضل على الأخرى ــ كان الحكم للشعر ظاهرا فى التسمية ؛ لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه فى معترف العادة ، ألا ترى أن الدر ــ وهو أخو اللفظ ونسيبه ، وإليه يقاس ، وبه يُشَبَّه ــ إذا كان منثوراً لم يؤمن عليه ، ولم يُنْتَفع به فى الباب الذى له كسب ، ومن أجله انتخب ؛ وإن كان أعلى قدراً وأغلى ثمناً ، فإذا نظم كان أَصْوَنَ له من الابتذال ، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال ، وكذلك اللفظ إذا كان منثوراً تبدد فى الأسماع ، وتدحرج عن الطباع ، ولم تستقر منه إلا المفرطة فى اللفظ وإن كانت[١] أجمله ، والواحدة من الألف ، وعسى أن لا تكون أفضله ، فإن كانت هى اليتيمة المعروفة ، والفريدة

(١) لعل الصواب « إن كانت أجمله » بدون واو .

الموصوفة ؛ فكم فى سَقَط الشعر من أمثالها ونظرائها لا يُعْبأ به ، ولا يُنْظر إليه ، فإذا أخذه سلك الوزن ، وعقد القافية ؛ تألفت أشتاته ،وازدوجت فرائده و بناته، واتخذه اللابس جمالا ، والمدخرُ مالا ، فصار قِرَطَةَ الآذان ، وقلائد الأعناق ، وأمانى النفوس ، وأكاليل الرءوس ، يقلّب بالألسن ، ويُخْبأ فى القلوب ، مَصونًا باللب ، ممنوعًا من السرقة والغصب .

وقد اجتمع الناس على أن المنثور فى كلامهم أكثر ، وأقل جيداً محفوظًا ، وأن الشعر أقل ، وأكثر جيدا محفوظا ؛ لأن فى أدناه من زينة الوزن والقافية ما يقارب به جيد المنثور

وكان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعْرَاقِها ، وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأنْجاد ، وسُمَحائها الأجواد ؛ لتهز أنفسها إلى الكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً ؛ لأنهم شعَروا به ، أى : فطنوا .

وقيل : ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ؛ فلم يحفظ من المنثور عُشْره ، ولا ضاع من الموزون عُشْره .

ولعل بعض الكتاب المنتصرين للنثر ، الطاعنين على الشعر ، يحتجُّ بأن القرآن كلامَ الله تعالى منثورٌ ، وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم غير شاعر ؛ لقول الله تعالى : (وما علمناه الشعر ، وما ينبغى له) ويَرَى أنه قد أبلغ فى الحجة ، وبلغ فى الحاجة ، والذى عليه فى ذلك أكْثَرُ مما له ؛ لأن الله تعالى إنما بعث رسوله أميًّا غير شاعر إلى قوم يعلمون منه حقيقة ذلك ، حين استوت الفصاحة ، واشتهرت البلاغة ؛ آيةً للنبوة ، وحجة على الخلق ، وإعجازاً للمتاطين ، وجَعَله منثوراً ليكون أظهر برهانًا لفضله على الشعر الذى من عادة صاحبه أن يكون

قادراً على ما يحبه من الكلام ، وتحدّى جميع الناس من شاعر وغيره بعمل مثله فأعجزهم ذلك ، كما قال الله تعالى : (قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) فكما أن القرآن أعجز الشعراء وليس بشعر ، كذلك أعجز الخطباء وليس بخطبة ، والمترسلين وليس بترسل ، وإعجازه الشعراء أشدُّ برهاناً ، ألا ترى كيف نسبوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم إلى الشعر لما غُلبوا وتبين عجزهم ؟ فقالوا : هو شاعر ، لما فى قلوبهم من هيبة الشعر وفخامته ، وأنه يقع منه مالا يُلْحَقُ ، والمنثور ليس كذلك ، فمن ههنا قال الله تبارك وتعالى : (وَمَا علّمناهُ الشّعرَ ، وَما يَنبَغِي له) أى : لتقوم عليكم الحجة ، ويصح قبلكم الدليل ، ويشهد لذلك رواية يونس عن الزهرى أنه قال : معناه ما الذى علمناه شعراً ، وما ينبغى له أن يبلغ عنا شعراً . وقال غيره : أراد وما ينبغى له أن يبلغ عنا ما لم نعلمه ، أى : ليس هو ممن يفعل ذلك ؛ لأمانته ومشهور صدقه . ولو أن كونَ النبى صلى الله عليه وسلم غيرَ شاعرٍ غضٌّ من الشعر لكانت أميته غضاً من الكتابة ، وهذا أظهر من أن يخفى على أحد .

واحتج بعضهم بأن الشعراء أبداً يخدمون الكتاب ، ولا تجد[1] كاتباً يخدم شاعراً ، وقد عُمِّيت عليهم الأنباء ، وإنما ذلك لأنَّ الشاعر واثق بنفسه ، مُدِلٌّ بما عنده على الكاتب والملك ؛ فهو يطلب ما فى أيديهما ويأخذه ، والكاتب بأى آية يَقْصُدُ[2] الشاعر فيرجو ما فى يده ؟ وإنما صناعته فضلة عن صناعته ، على أن يكون كاتبَ بلاغة ، فأما كاتب الخدمة فى القانون وما شاكله فصانع

---

(١) فى نسخة « يجدون » .

(٢) فى نسخة « يقصد » .

مستأجَرٌ ، مع أنه قد كان لأبى تمام والبحترى قَهَارمة[١] وكتاب ، وكان من عيان الشعراء كتاب أزمة كبشار[٢] وأبى على البصير ، وكان ابن الرومى من أكبر كتاب الدواوين ،فغلب عليه الشعر ؛ لأنه غلاَّب . وكما تجد من يمدح السوقة فى الشعراء فكذلك تجد للسوقة كتاباً ، وللتجار الباعة ، فى زمننا هذا وقبله .

ولم أهجم بهذا الرد ، وأورد هذه الحجة ، لولا أن السيد ــ أبقاه الله ــ قد جمع النوعين ، وحاز الفضيلتين ، فهما نقطتان من بحره ، ونُوَّارَتَانِ[٣] من زهره ، وسيرد فى أضعاف هذا الكتاب من أشعاره ما يكون دليلا على صدق ما قلته ، إن شاء الله تعالى .

ومن فضل الشعر أن الشاعر يخاطب الملك باسمه ، وينسبه إلى أمه ، ويخاطبه بالكاف كما يخاطب أقلّ السوقة ؛ فلا ينكر ذلك عليه ، بل يراه أوْكَدَ فى المدح، وأعظم اشتهاراً للممدوح ، كل ذلك حرص على الشعر ، ورغبة فيه ، ولبقائه على مَرِّ الدهور واختلاف العصور ، والكاتب لايفعل ذلك إلا أن يفعله منظوماً غير منثور ، وهذه مزية ظاهرة وفضل بيِّن

ومن فضائله أن الكذب ــ الذى اجتمع الناسُ على قبحه ــ حَسَنٌ فيه ، وحسبك ما حَسَّنَ الكذبَ ، واغتفر له قبحه ، فقد أوعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كَعْبَ بن زهير لما أرسل إلى أخيه بُجَيْر ينهاه عن الإسلام ، وذكر النبى صلى الله عليه وسلم بما أحفظه ،فأرسل إليه أخوه «ويحك! إن النبى صلى الله

(١) قهارمة : جمع قهرمان ــ بفتح القاف وسكون الهاء وفتح الراء ــ قال فى اللسان : هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل ، بلغة الفرس .

(٢) قال الجاحظ : «كان بشار خطيبا صاحب منثور ، ومزدوج ، وسجع ، ورسائل ، وهو من المطبوعين ، أصحاب الإبداع والاختراع، المتفننين فى الشعر ، القائلين فى أكثر أجناسه وضروبه » ا هـ

(٣) واحدتهما نوارة ــ بضم النون ، وتشديد الواو ــ والجمع نوار مثل رمان

عليه وسلم أوعدك لما بلغه عنك ، وقد كان أوعد رجالا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه فقتلهم ـ يعنى ابن خَطَلٍ[١] وابن حُبَابة[٢] ـ وإنَّ من بقى من شعراء قريش كابن الزِّبَعْرَى وهبيرة بن أبى وهب قد هربوا فى كل وجه ، فإن كانت لك فى نفسك حاجة فَطِرْ[٣] إلى رسول ألله صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه لا يقتل من جاء تائبا ، وإلا فانج إلى نجائك ؛ فإنه والله قاتلك ، فضاقت به الأرض ، فأتى إلى رسول ألله صلى ألله عليه وسلم متنكراً ، فلما صلّى النبىُّ صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر وضع كعب يده فى يد رسول الله صلى ألله عليه وسلم ثم قال : يا رسول الله ، إن كعب بن زهير قد أتى مستأمنا تائبا ، أفتؤمنه فآتيك به ؟ قال : هو آمن ، فحَسَرَ كعب عن وجهه وقال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله [هذا] مكانُ العائذِ بك ، أنا كعب بن زهير ، فأمَّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنشد كعب قصيدته التى أولها :

---

(١) ابن خطل ـ بفتح كل من الخاء والطاء ـ قيل : اسمه عبد الله بن خطل وقال الزبير بن بـكار : اسمه آدم، القرشى الأدرمى، وهو من ولدتيم بن غالب ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم أهدر دمه لارتداده مشركا ، وأنه كان يأمر قينتين له بأن تغنيا بهجاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد قتله أبوبرزة الأسلمى يوم الفتح وهو متعلق بأستار الـكعبة .

(٢) ابن حبابة ـ بضم الحاء المهملة ـ وكان فى الأصول بضاد معجمة ، وفى سيرة ابن هشام بصاد مهملة ، والصواب ما أثبتناه ، وهو مقيس ـ بزنة منبر ـ احد بنى كلب بن عوف من الديل ، وقد قتله نميلة بن عبد الله ـ وهو رجل من قومه ـ يوم فتح مـكة ؛ لأنه كان قد قتل رجلا من المسلمين ثم ارتد مشركا ، فأهدر النبى دمه .

(٣) فى نسخة « فصر » وهى رواية شرح قصيدة كعب لابن هشام ، ورواية السيرة كما أثبتنا .

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ   مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

يقول فيها بعد تغزله وذكر شدة خوفه ووَجَلِهِ :

أنبئتُ أن رســولَ الله أوعدنى   والعفو عنــد رسول الله مأمولُ

مَهْلاً هداكَ الذى أعطاكَ نافلةَ الـــقرآن فيـــه مواعيظٌ وتفصيلُ

لا تأْخُذَنِّى بأقوالِ الوشاةِ فلم   أذنبْ ، ولو كثرت فىَّ الأقاويلُ

فلم ينكر عليه النبى صلى الله عليه وسلم قولَه ، وما كان ليوعده على باطل ، بل تجاوز عنه ووهَبَ له بُرْدته ، فاشتراها منه معاوية بثلاثين ألف درهم . وقال العتبى(١) بعشرين ألفاً ، وهى التى يتوارثها الخلفاء يلبسونها فى الجمع والأعياد تبركا بها .

وذكر جماعة ــ منهم عبد الكريم بن إبراهيم النهشلى الشاعر ــ أنه أعطاه مع البردة مائة من الإبل ، قال : وقال الأحوص يُذَكِّرُ عمر بن عبد العزيز عطية رسول الله صلى الله عليه وسلم كعباً ، وقد توقف فى عطاء الشعراء :

وقبلك ما أعْطى هُنَيْدَةَ(٢) جلة   على الشعر كعباً من سَدِيس و بازِل

رســـولُ الإلٰهِ المستضاء بنوره   عليه السلام بالضُّحَى والأصائل

واعتذر حسان بن ثابت من قوله فى الإفك بقوله لعائشة رضى الله عنها فى أبيات مَدَحَها بها :

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ برِيبةٍ   وتُصْبِحُ غَرْثَى من لحوم الغوافل

يقول فيها :

فإن كنتُ قد قُلْتُ الذى قد زعمتمُ   فلا رفعَتْ سَوْطِي إلىَّ أنامِلِي

ثم يقول :

(١) فى نسخة « القتبى » .

(٢) هنيدة : اسم للمائة من الإبل ، ويقال « سديس » للناقة إذا كانت فى السنة الثامنة ، والبازل : فوق السديس .

فإن الذى قد قيل ليس بلائطٍ[(١)] ولكنه قولُ امرىء بِىَ ماحلِ

فاعتذر كما تراه مغالطاً فى شىء نَفَذَ فيه حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحدّ ، وزعم أن ذلك قولُ امرىء ماحِلٍ ، أى : مُكَايد ، فلم يعاقب لما يرون من استخفاف كذب الشاعر ، وأنه يحتج به ولا يحتج عليه .

وسئل أحدُ المتقدمين عن الشعراء فقال : ما ظنك بقوم الاقتصاد محمود إلا منهم ، والكذب مذموم إلا فيهم .

حكى أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين النيسابورى أن كعب الأحبار قال له عمر بن الخطاب وقد ذكر الشعر : يا كعب ، هل تجد للشعراء ذكراً فى التوراة ؟ فقال كعب : أجد فى التوراة قوماً من ولد إسماعيل ، أناجيلهم فى صدورهم ينطقون بالحكمة ، ويضربون الأمثال ، لا نعلمهم إلا العرب .

وقيل : ليس لأحد من الناس أن يُطْرِىَ نفسه ويمدحها ، فى غير منافرة ، إلا أن يكون شاعراً ، فإن ذلك جائز له فى الشعر ، غير مَعِيبٍ عليه .

وقال بعضهم — وأظنه أبا العباس الناشىء — العلم عند الفلاسفة ثلاث طبقات : أعلى ، وهو علم ما غاب عن الحواس فأدرك بالعقل أو القياس، وأوسط ، وهو علم الآداب النفيسة التى أظْهَرَهَا العقــلُ من الأشياء الطبيعية كالأعداد والمساحات وصناعة التنجيم وصناعة اللحون ، وأسفل ، وهو العلم بالأشياء الجزئية والأشخاص الجسمية ، فوجب — إذا كانت العلوم أفضلها ما لم تشارك فيه الجسوم — أن يكون أفضل الصناعات ما لم تشارك فيه الآلات ، وإذا كانت

(١) فى نسخة : ليس بمقولى ، وما أثبتناه هو رواية الديوان ، وقوله « ليس بلائط » معناه : ليس بلازم ولا لاصق ، وتقول : هذا القال لا يلوط بفلان ، بمعنى لا يلصق به ، والماحل : الذى يمشى بالنميمة ويسعى إلى السلطان ، وتفسير المؤلف له قريب من هذا .

اللحون عند الفلاسفة أعظم أركان العمل الذى هو أحد قسمى الفلسفة وجدنا الشعر أقدم من لحنه لا محالة ، فكان أعظم من الذى هو أعظم أركان الفلسفة ، والفلسفة عندهم علم وعمل . هذا معنى الكلام المنقول عنه مختصراً وليس نصاً .

فإن قيل فى الشعر : إنه سبب التكفف، وأخذ الأعراض ، وما أشبه ذلك؛ لم يلحقه من ذلك إلا ما يلحق المنثور .

ومن فضائله أن اليونانيين إنما كانت أشعارهم تقييد العلوم والأشياء النفيسة والطبيعية التى يخشى ذهابها ، فكيف ظنك بالعرب الذى هو فخرها العظيم وقسطاسها المستقيم ؟

وزعم صاحب الموسيقى أن ألذ الملاذ كلها اللَّحْنُ ، ونحن نعلم أن الأوزان قواعد الألحان ، والأشعار معايير الأوتار لا محالة ، مع أن صنعة صاحب الألحان واضعة من قدره ، مستخدمة له ، نازلة به ، مُسْقِطة لمروءته ، ورتبة الشاعر لا مَهَانة فيها عليه ، بل تكسبه مهابة العلم ، وتكسوه جلالة الحكمة.

فأما قيامه[1] وجلوس صاحب اللحون فلأن هذا متشوَّف إليه ، يحب إسماع مَنْ بحضرته أجمعين ، بغير آلة ولا مُعِين ، ولا يمكنه ذلك إلا قائماً أو مشرفاً ، وليدل على نفسه ، ويُعلم أنه المتكلم دون غيره ، وكذلك الخطيب ، وصاحبُ اللحونِ لا يمكنه القيام لما فى حجره كرامة منه[2] على القوم ، على أن منهم مَن كان يقوم بالدف والمزْهَرِ .

---

(١) يريد أن الشاعر ينشد شعره وهو قائم ، وصاحب الألحان يطرب وهو جالس .

(٢) هكذا فى الأصول كلها ، ونعتقد أن الصواب « لا كرامة به على القوم » .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكما » وقيل « لحكمة » : فقرن البيان بالسحر فصاحة منه صلى الله عليه وسلم ، وجعل من الشعر حُكما ؛ لأن السحر يخيل للانسان ما لم يكن للطافته وحيلة صاحبه ، وكذلك البيان يتصور فيه الحق بصورة الباطل ، والباطل بصورة الحق ؛ لرقة معناه ، ولطف موقعه ، وأبلغ البيانَيْنِ عند العلماء الشعر بلا مدافعة ، وقال[1] رؤبة:

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ ساحِراً رَاوِيَةً مَرًّا وَمَرًّا شَاعِراً

فقرن الشعر أيضاً بالسحر لتلك العلة ، ويروى أيضاً « لقد حَسُنْتَ » بسين مضمومة غير معجمة ، ونون ، والتاء مفتوحة .

(٢) — باب في الرد على من يكره الشعر

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنما الشِّعر كلامٌ مُؤلَّف فما وافق الحقّ منه[2] فهو حسن ، وما لم يوافِقِ الحقّ منه فلا خيرَ فيه » ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « إنّما الشّعر كلامٌ ، فمن الكلام خبيث وطيّبٌ » ، وقالت عائشة رضي الله عنها : الشعر فيه كلام حسن وقبيح ، فخذ الحسن واترك القبيح ، ويروى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم بَنَى لحسان بن ثابت في المسجد منبراً ينشد عليه الشعر ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه ، وقال

---

(١) في ديوان أراجيز رؤبة أرجوزة طويلة على هذه القافية ليس فيها هذا البيت .

(٢) في المصريتين «عنه» وليس بشيء .

على بن أبى طالب رضى الله عنه : الشعر ميزان القول ، ورواه بعضهم : الشعر ميزان القوم .

وروى ابن عائشة يرفعه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الشعر كلام من كلام العرب جَزْل ، تتكلم به فى بواديها ، وتَسُلُّ به الضغائنَ من بينها» وأنشد ابن عائشة قول أعشى بنى قيس بن ثعلبة :

قَلَّدْتُكَ الشِّعْرَ يَا سَلاَمَةُ ذَا فَايِشَ ، وَالشَّىْءُ حَيْثُمَا جُعِلاَ[(١)]

وَالشِّعْرُ يَسْتَنْزِلُ الْكَرِيمَ كَمَا يُنْزِلُ رَعْدُ السَّحَابَةِ السَّبَلاَ

ويروى عن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : مَرَّ الزبير بن العوّام رضى الله عنه بمجلس لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وحسان ينشدهم ، وهم غير آذِنينَ[(٢)] لما يسمعون من شعره ، فقال : مالى أراكم غيرَ آذِنينَ لما تسمعون من شعر ابن الفُرَيعة ؟ لقد كان ينشد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحسن استماعه، ويجزل عليه ثوابه ، ولا يشتغل عنه إذا أنشده .

ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بحسان وهو ينشد الشعر فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أرغاءً كرغاء البَكر ؟ فقال حسان: دعنى عنك يا عمر ، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد فى هذا المسجد مَنْ هو خير منك فما يغير علىّ ذلك ، فقال عمر : صدقت .

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرىّ : مُرْ مَنْ قِبَلك بتعلم الشعر ؛ فإنه يدل على معالى الأخلاق ، وصواب الرأى ، ومعرفة الأنساب .

---

(١) البيتان فى ديوان الأعشى (ص١٧٥) ويروى فى البيت الأول « يا سلامة ذا التفضال » ويروى « يا سلامة ذا التقصار » وهى القلائد ، ويروى فى الثانى « كما استنزل رعد » والسبل — بفتحتين — المطر بين السحاب والأرض .

(٢) غير آذنين : أى غير منصتين .

وقال معاوية رحمه الله : يجب على الرجل تأديب ولده ، والشعر أعلى مراتب الأدب .

معاوية تمنعه أبيات من الفرار

وقال : اجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر دأبكم ، فلقد رأيتني ليلة الهرير بصفين — وقد أتيت بفرس أغرّ مُحَجَّل بعيد البطن من الأرض ، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى — فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطنابة :

أَبَتْ لي همَّتي وأَبَى بَلاَئي ... وأَخْذِي الحمدَ بالثمنِ الربيح
وإقحامي على المكروه نفسي ... وضربي هَامَةَ البطلِ المُشيحِ
وقولي كلما جَشأَتْ وجاشتْ : ... مكانَكِ تُحْمَدِي أو تستريحي
لأدفعَ عن مَآثِرَ صالحاتٍ ... وأَحْمِي بَعدُ عنْ عِرْضٍ صحيح

بين علي وأعرابي

ويروى أن أعرابياً وقف على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : إن لي إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك ، فإن أنت قضيتها حمدتُ الله تعالى وشكرتك ، وإن لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك ، فقال له عليّ : خُطَّ حاجتك في الأرض ، فإني أرى الضر عليك ، فكتب الأعرابي على الأرض « إني فقير » فقال علي : ياقنبر ؛ ادفع إليه حلتي الفلانية ، فلما أخذها مَثَلَ بين يديه فقال :

كسوتني حُلَّةً تبلَى محاسنُها ... فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن الثناء ليحيِي ذكرَ صاحبِه ... كالغيث يُحيِي نداه السهلَ والجبلا
لا تزهدِ الدهرَ في عُرفٍ بدأت به ... فكلُّ عبدٍ سيُجزَى بالذي فعلا

فقال عليّ : ياقنبر ، أعطه خمسين ديناراً ، أما الحلة فلمسألتك ، وأما الدنانير فلأدبك ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أنزلوا الناس منازلهم »

سعيد بن المسيب يعيب من يكره الشعر

وقيل لسعيد بن المسيب : إن قوماً بالعراق يكرهون الشعر ، فقال : نسكوا نسكا أعجمياً

رأى ابن سيرين فى الشعر

وقال ابن سيرين : الشعر كلام عقد بالقوافى ، فما حسن فى الكلام حسن فى الشعر ، وكذلك ماقبح منه .

وسئل فى المسجد عن رواية الشعر فى شهر رمضان ــ وقد قال قوم : إنها تنقص الوضوء ــ فقال :

نُبِّئْتُ أنْ فَتَاةً كنتُ أخطبها عُرْقُوبُهامثلُ شهرِ الصومِ فى الطول

ثم قام فأمَّ الناسَ ، وقيل : بل أنشد :

لَقَدْ أَصْبَحَتْ عِرْسُ[1] الفرزدق ناشزاً

ولو رَضِيَتْ رُمْحَ أستِه لا ستقرت

العمرى يحض على رواية الشعر

وقال الزبير بن بكار : سمعت العمرى يقول : رَوُّوا أولادكم الشعر ؛ فإنه يَحُلُّ عُقْدَةَ اللسان ، ويشجع قلب الجبان ، ويطلق يد البخيل ، ويحض على الخلق الجميل .

ابن عباس يسخر بمن يكره الشعر

وسئل ابن عباس : هل الشعر من رَفث القول ؟ فأنشد :

وَهُنَّ يَمْشِين بنا هَميسا إنْ تَصْدُقِ الطيرُ نَنِكْ لميسا

وقال : إنما الرفث عند النساء ، ثم أحرم للصلاة .

وكان ابن عباس يقول : إذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه فى أشعار العرب ؛ فان الشعر ديوان العرب . وكان إذا سئل عن شىء من القرآن أنشد فيه شعرا .

عائشة كثيرة الرواية للشعر

وكانت عائشة رضى الله عنها كثيرة الرواية للشعر . يقال : إنها كانت تروى جميع شعر لبيد .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لاتدع العربُ الشعر حتى تدعَ الابلُ الحنينَ » .

---

(١) عرس الرجل ــ بكسر العين وسكون الراء ــ زوجه .

أبو السائب المخزومى وحبه للشعر

وكان أبو السائب المخزومى ـ على شرفه ، وجلالته ، وفضله فى الدين والعلم ـ يقول : أما والله لو كان الشعر مُحَرَّماً لوردنا الرحبة كل يوم مراراً . والرحبة : الموضع الذى تقام فيه الحدود ، يريد أنه لا يستطيع الصبر عنه فيُحَد فى كل يوم مراراً ولا يتركه .

الرد على حجة من يكره الشعر

فأما احتجاج مَن لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى : (والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون) فهو غلط ، وسوءُ تأول ؛ لأن المقصودين بهذا النص شعراءُ المشركين الذين تناولوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجاء ، ومَسُّوه بالأذى ، فأما مَن سواهم من المؤمنين فغير داخل فى شىء من ذلك ، ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل ونبه عليهم فقال : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ماظلموا) يريد شعراء النبى صلى الله عليه وسلم الذين ينتصرون له ، ويجيبون المشركين عنه ، كحسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رَوَاحة . وقد قال فيهم النبى صلى الله عليه وسلم : « هؤلاء النفر أشد على قريش من نَضْح[1] النبل » ، وقال لحسان بن ثابت « اهْجُهُمْ ـ يعنى قريشا ـ فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام ، فى غَلَسِ الظلام ، اُهْجُهُمْ ومعك جبريل روح القدس ، والْقَ أبا بكر يعلمك تلك الهَنَات » فلو أن الشعر حرام أو مكروه ما اتخذ النبى صلى الله عليه وسلم شعراء يثيبهم على الشعر ، و يأمرهم بعمله ، و يسمعه منهم .

وأما قوله عليه الصلاة والسلام : « لأن يمتلىء جَوْفُ أحدكم قَيْحاً[2] حتى

---

(١) نضح النبل : الرمى بها .

(٢) القيح : المدة ، وقد قاحت القرحة ، وتقيحت . وقال الجوهرى : ورى القيح جوفه يريه ، أكله ، وقال قوم : معناه أصاب رئته ، وأنكره آخرون ؛ لأن الرئة مهموزة فإذا بنيت منها فعلا قلت : رآه .

يَرِيَهُ خير له من أن يمتلىء شعراً » فإنما هو مَنْ غلب الشعرُ على قلبه ، وملك نفسه حتى شغله عن دينه وإقامة فروضه ، ومنعه من ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن ، والشعر وغيرهُ — مما جَرَى هذه المجرى من شطرنج وغيره — سواء . وأما غير ذلك ممن يتخذ الشعر أدباً وفكاهة وإقامة مروءة فلا جناح عليه وقد قال الشعر كثير من الخلفاء الراشدين ، والجِلَّةُ من الصحابة والتابعين ، والفقهاء المشهورين ، وسأذكر من ذلك طرفا يقتدى به فى هذا الباب ، إن شاء الله تعالى .

(٣) — باب فى أشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء

شعر ينسب لأبى بكر الصديق

من ذلك قول أبى بكر الصديق[1] رضى الله عنه — قالوا : واسمه عبد الله ابن عثمان ، ويقال : عتيق لقب له — قال فى غزوة عبيدة بن الحارث ، رواه ابن إسحاق وغيره :

أمن طيفِ سلمى بالبطاحِ الدمائثِ ... أرقت ، أوَأمرٍ فى العشيرة حادثِ ؟؟

ترى من لؤى فرقةً لا يَصُدُّهَا ... عن الكفر تذكيرٌ ولا بعثُ باعث

رسولٌ أتاهم صادقٌ فتكذَّبُوا ... عليه ، وقالوا : لستَ فينا بماكثِ

إذا ما دعوناهم إلى الحق أدبروا ... وهرُّوا هريرَ المُجْحَرَاتِ[2] اللواهثِ

(١) قال ابن هشام : « وأكثر أهل العلم بالشعر ينكر هذه القصيدة لأبى بكر رضى الله عنه » اهـ وقال السهيلى : « ويشهد لصحة من أنكر أن تكون له ماروى عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : كذب من أخبركم أن أبا بكر قال بيت شعر فى الإسلام » اهـ

(٢) كان فى الأصول المطبوعة « المحجرات » بتقديم المهملة ، والتصويب عن سيرة ابن هشام (ج ٢ ص ٣ بولاق) وعن الروض الأنف (ج ٢ ص ٥٥)

فكَمْ قد مَثَلْنَا[١] فيهمُ بقرابةٍ وتركُ التقى شىءٌ لهم غيرُ كارثِ

فإن يرجعوا عن كفرهم وعقوقهم فما طَيِّبَاتُ الحل مثْلَ الخبائثِ

وإن يركبوا طغيانَهم وضلالهُمْ فليس عذابُ اللهِ عنهم بلابثِ

ونحن أُناسٌ من ذؤابةِ غالبٍ لنا العزُّ منها فى الفروع الأثائثِ[٢]

فأُولِى برب الراقصات عشيةً حراجيجَ تخدى فى السريح الرثائث

كأُدْمِ ظباء حولَ مكةَ عُكّفٍ يردن حياض البئر ذات النبائثِ

لئن لم يفيقوا عاجلاً من ضلالهم ولستُ إذا آليتُ قولا بحانثِ

لَتبتَدِرنهم غارةٌ ذاتُ مصدق تُحَرِّم أطهارَ النساء الطوامثِ

تغادر قتلى تعصبُ الطيرُ حولهم ولا يرأف الكفار رأف ابن حارثِ

فأبلغ بنى سهم لديك رسالةً وكلَّ كفورٍ يبتغى الشرَّ باحثِ[٣]

فإن شعثوا عرضى على سوء رأيهم فإنىَ من أعراضهم غيرُ شاعثِ[٤]

أبيات تنسب لعمر بن الخطاب

ومن شعر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ وكان من أنقد أهل زمانه للشعر وأنفذهم فيه معرفة ـ ويروى للأعور الشَّنِّيِّ :

هَوِّن عليكَ فإن الأمورَ بِكفِّ الإلٰهِ مقاديرُها

فليسَ بآتيـــكَ مَنْهِيُّهَا ولا قاصرٍ عنكَ مأمورُها

ومن شعره أيضا ـ وقد لبس برداً جديداً فنظر الناسُ إليه ـ وقد روى لوَرَقة بن نوفل فى أبيات :

(١) فى المطبوعتين «مثانا» وهو خطأ، والتصويب عن السيرة فى المكان السابق

(٢) فى المطبوعتين « اللثائث » وهو خطأ .

(٣) فى المطبوعتين « ماجث » ،

(٤) رواية هذا البيت فى السيرة :

فإن تشعثوا عرضى على سوء رأيكم فإنى من أعراضكم غير شاعث

لاشيء مما ترى تبقى بشاشتُه ... يبقى الإلهُ ويفنى المالُ والولدُ
لم تُغْنِ عن هُرمزٍ يوماً خزائنُه ... والخُلْدَ قد حاولت عادٌ فما خَلَدُوا
ولا سليمان؛ إذ تجرى الرياحُ له ... والجنُّ والإنسُ فيما بينها ترد
حوضٌ هنالك موردوٌ بلا كذبٍ ... لا بد من وِردِه يوماً كما وردوا

ومن شعره أيضاً رضى الله عنه:

توعَّدَنى كعبٌ ثلاثاً يعــدُّها ... ولا شكَّ أن القول ماقال لى كعبُ
وما بىَ خوفُ الموت؛ إنى لميتٌ ... ولكنَّ خوف الذنب يتبعهُ الذنبُ

من شعر ينسب لعثمان بن عفان

ومن شعر عثمان بن عفان رضى الله عنه:

غنى النفسِ يغنى النفس حتى يكفها ... وإن عَضَّها حتى يضرَّبها الفقرُ
وماعُسْرَة ـ فاصبر لها إن لقيتها ـ ... بكائنـــة إلا سيتبعُها يُسْرُ

من شعر على بن أبى طالب

ومن شعر على بن أبى طالب رضى الله عنه ـ وكان مجوِّداً ـ ماقاله يوم صفين يذكر هَمْدَان ونصرهم إياه:

ولما رأيتُ الخيلَ ترجمُ بالقنا ... نواصيَّها حمـــرُ النحور دَوَامِى
وأعرضَ نقعٌ فى السماء كأنه ... عجاجةُ دَجْنٍ مُلْبَسٍ بقَتَامِ
ونادى ابنُ هندفى الكلاع وحمير ... وكندةَ فى لخمٍ وحىٍّ جذَام
تيممت هَمْدَان الذين همُ همُ ... ـ إذا ناب دهرٌ ـ جُنّتى وسهامى
فجاوبنى من خيل همدَان عصبة ... فوارسُ من همــدان غيرُ لئام
فخاضوا لَظَاها واستطاروا شرارها ... وكانوا لدى الهيجا كشَرْب مُدَام
فلو كنت بوابا على باب جنةٍ ... لقلتُ لهمدانَ: ادخلوا بسلام

وهو القائل بصفين أيضا:

لمن راية حمــراء[1] يخفق ظلها ... إذا قلتُ قَدِّمها حُضَيْنُ تقدما

---

(١) فى نسخة «سوداء».

فيوردها فى الصف حتى يَرِدْ بها حياضَ المنايا تقطرُ الموتَ والدمَا

فهؤلاء الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم : مامنهم إلا من قال الشعر ، وخامسهم الحسن بن على رحمه الله ، وهو القائل ـ وقد خرج على أصحابه مختضبا ـ رواه المبرد :

من شعر الحسن بن على

نسوِّدَ أعلاها ، وتأبى أصولها، فليت الذى يَسْوَدُّ منها هو الأصل[1]

ومن شعر معاوية بن أبى سفيان رحمة الله عليه ما رواه ابن الكلبى عن عبد الرحمن المدنى ، قال : لما حضرت معاويةَ الوفاةُ جعل يقول :

من شعر لمعاوية

إنْ تناقشْ يكنْ نقاشُكَ يا ر بِّ عذاباً ، لا طَوْقَ لى بالعذاب[2]

أوْ تجاوزْ فأنت رَبٌّ رَءوفٌ عن مسىء ذنوبهُ كالتُّرَابِ

وروى فى غير موضع واحد :

فَقَدْتُ سفاهتى ، وأرحْتُ غَيِّي وَفِيَّ عَلَى تَحَلُّمِيَ اعْتِرَاضُ

على أنى أجيب إذا دعتنى إلى حاجاتها الحدقُ المراضُ

ومن قوله أيضاً ، وهو لائق به ، دالّ على صحة ناقله :

إذا لم أجدْ بالحلم منى عليكمُ فمنْ ذا الذى بعدى يؤمِّلُ للحلم ! ؟

خذيها هنيئاً واذكرى فعلَ ماجدِ حباكِ على حرب العداوةِ بالسلم

وأما يزيد بن معاوية فَمَنْ بَعْدَه فكثير شعرهم مشهور .

ومن شعر الحسين بن على رضى الله عنهما ، وقد عاتبه أخوه الحسن رحمه الله فى امرأته :

من شعر الحسين بن على

لعمركَ إننى لأحِبُّ داراً تحُلُّ بها سُكَيْنة والرَّبَابُ

---

(١) يريد أنه يسود أطراف شعره والظاهر منه بالخضاب ، ولكن جذور الشعر تأبى إلا البقاء على الشيب ! !

(٢) لاطوق لى : أى لاطاقة لى ، يريد أنه لايحتمله .

أخبهما وأبذل جلّ مالى وليس لِلأئمى عندى عتاب

وليس من بنى عبد المطلب رجالا ونساء مَنْ لم يقل الشعر ، حاشا النبيّ صلى الله عليه وسلم : فمن ذلك قولُ حمزة بن عبد المطلب رحمه الله يذكر لقاءه أبا جهل وأصحابه فى قصيدة تركْتُ أكثرها اختصاراً :

من شعر حمزة ابن عبدالمطلب

عشيةً صاروا جاشدين وكلُّنا مَراجِلُهُ من غيظ أصحابهِ تَغْلِى

فلما تراءينا أناخوا فعقّلوا مطايا وعقلنا مدى غرضِ النَّبلِ

وقلنا لهم: حبل الإلهِ نصيرُنا وما لكمُ إلا الضلالةَ من حبلِ

فثار أبو جهل هنالك باغياً فخاب ، وردَّ اللهُ كيدَ أبى جهلِ

وما نحن إلا فى ثلاثين راكباً وهم مائتان بعد واحدةٍ فضلِ

من شعر العباس بن عبد المطلب

وأما العباس فكان شاعراً مفلقاً حسن التَّهدِّى : من ذلك قوله رحمه الله يوم حُنَيْن يفتخر بثبوتهِ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ألا هل أتى عِرْسى مَكَرِّى وموقفى بوادى حنين والأسنة تُشْرَعُ

وقولى إذا ما النفس جاشَتْ لهاقَدِى وهامٌ تدهْدَى والسَّواعد تقطع

وكيف رددت الخيل وهى مغيرةٌ بزوراء تعطى باليدين وتمنع

نصرنا رسول الله فى الحرب سبعة[1] وقد فرّ من قد فر عنه فأقشعوا

ومن شعر عبد الله بن عباس رضى الله عنه :

---

(١) أثبت التاريخ أن المسلمين فى غزوة حنين لما انهزموا أمام هوازن وثقيف ومن لف لفهم من الأعراب ، بقى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثمانية رجال ، هم : أبوبكر ، وعمر ، وعلى ، والعباس ، والفضل بن العباس ، وأبو سفيان ابن الحارث ، وأخوه ربيعة بن الحارث ، ومعتب بن أبى لهب ، وكان رسول الله أركبه بغلته ، والعباس آخذ بلجامها ؛ وأبو سفيان آخذ بالركاب .

من شعر عبد الله ابن العباس

إذا طارقات الهم ضاجعتِ الفتى وأعمل فكرَ الليل والليل عاكر
و باكرنى فى حاجة لم يجد بها سوایَ ولا من نكبةالدهرناصر
فَرَجْتُ بمالى هَمَّهُ من مقامه وزايله همٌّ طروقٌ مسامر
وكان له فضلٌ علىَّ بظنه بىَ الخير ؛ إنى للذى ظنَّ شاكر

من شعر جعفر بن أبى طالب

ومن شعر جعفر بن أبى طالب ذى الجناحين رضى الله عنه قوله يوم مُؤْتَةَ وفيه قتل رحمة الله عليه :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبةٌ وباردٌ شرابها
والروم رومٌ قد دنا عذابها علىَّ إذ لاقيتها ضرابها

وشعر أبى سفيان بن الحارث مشهور فى الجاهلية والإسلام . فأما أبو طالب ومَنْ شاكله فلم أذكر لهم شيئا ، خلا بيتين لعبد الله بن عبد المطلب أنشدها القاضى أبو الفضل ، وهما :

من شعر عبد الله بن عبد المطلب

وأحْوَرَ مخضوبِ البنان محجبٍ دعانى فلم أعرف إلى ما دعا وَجْهَا[1]
بخلت بنفسى عن مقامٍ يشينها فلست مريداً ذاك طوعاً ولا كرهاً

وكانت فاطمة رضى الله عنها تقول الشعر ، رويت لها أشياء كثيرة .

من شعر عمر بن عبد العزيز

ثم نرجع إلى الخلفاء المرضيين : قال عمر بن عبد العزيز ، رواه الأوزاعى عن محمد بن كعب :

أيقظان أنت اليومَ أم أنت حالمُ ؟ وكيف يطيق النوم حيرانُ هائم ؟
فلو كنت يقظان الغداةَ لحرَّقَتْ جفونا لعينيك الدموعُ السواجم
نهارك يامغرور سهوٌ وغفلةٌ وليلك نومٌ ، والردى لك لازم
وتشغل فيما سوفَ تكرَهُ غبَّه كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

ومما أثبته حماد الراوية من شعره :

(١) الأحور : الذى فى عينه الحور ، وهو شدة بياض العين مع شدة سواد سوادها ، وأراد امرأة ، ولكنه ذكر لكونه قصد شخصا .

إنْهَ الفؤاد عن الصّبا وعن انقيادك للهوى[1]
فلعمــر ربك إنَّ فى شيب المفارِقِ والجلا
لك واعظاً لو كنت تَتَّـــعظ اتعاظَ ذوى النهى
حتى متى لا ترعوى ؟ و إلى متى ؟ و إلى متى ؟
بَلِيَ الشبابُ وأنت إنْ عُمِّرْتَ رَهْنٌ للبلى
وكفى بذلك زاجراً للمرء عن غىٍّ ، كفى

ومن شعره أيضاً أنشده ابن داود القياسى فى كتابه :

ولولا النهى ثم التقى خشيةَ الردى لعاصيتُ فى حبِّ الصِّبا كلَّ زاجر
صبَاَ ما صبَاَ فيما مضى ثم لا تُرَى له صَبْوَةٌ أخرى الليالى الغوابر

من شعر عبد الله ابن الزبير

ومن قول عبد الله بن الزُّبير قوله ــ وقد ولى الحرمين مدة ، ودعى بأمير المؤمنين ما شاء الله حتى قتل ، رحمة الله عليه ــ وقد روى لعبد الله بن الزَّبير ــ بفتح الزاى وكسر البــاء ــ :

لا أحسبُ الشرَّ جاراً لا يفارقنى ولا أحزُّ على ما فاتنى الوَدَجَا
وما لقيتُ منَ المــكروهِ منزلةً إلاّ وَثِقْتُ بأَنْ ألقى لها فرَجا

ومن قوله المشهور عنه :

وكم من عَدُوٍّ قد أرادَ مَسَاءتى بغيبٍ ، ولو لاقيتهُ لتنــدما
كثيرِ الخنا حتى إذا ما لقيته أصرَّ على إثم وإن كان أقسما

وحسبك من القضاة شريحُ بن الحارث : كان شاعراً مجوِّداً ، وقد استقضاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كتب إلى مؤدب ولده ــ وقد وجده وقت

(١) فى المطبوعتين «وعن انقياده» ويلزمه سكون الهاء ــ وهى ضمير الغائب ــ فى غير وقف ، وليس بشىء ، والأفضل ما أثبتناه .

من شعر القاضى شريح

الصلاة يلعب بجرو كلب ، وأودع الأبيات رقعةً وأنفذها مع ولده مختومة إلى المؤدب ـ :

تركَ الصلاةَ لأَكْلُبٍ يسعى بها طَلَبَ الهِرَاش مع الغُواةِ الرُّجّس
فليأتينكَ غدوَةً بصـــحيفة كتبتْ له كصـــحيفةِ المتلمس
فإذا هممت بضربه فَبِــدِرَّةٍ وإذا بلغتَ به ثلاثاً فاحْبِسِ
واعــلم بأنك ما أتيتَ فنفسُه ـمع ما يُجَرِّعُنِى ـ أعزُّ الأنفسِ

من شعر الفقيه العتبى

فهذا شريح ، وهلم جرا إلى حيث شئت ، ومن الفقهاء عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود ، قال فى امرأة من هذيل قدمت المدينة ففتن بها الناس ورغبوا فيها خاطبين :

أحبكِ حباً لو علمتِ ببعضهِ لجدتِ ولم يصعب عليكِ شديدُ
وحبك يا أمّ الوليـــد مُوَكَّلِى شهيدى أبو بكر فنعم شهيدُ
ويعـــلم وجدِى قاسمُ بن محمد وعروة ما أخفى بكم وســـعيد
ويعـــلم ما ألقى سليمان علمه وخارجةٌ يبدى بنا ويعيـــد
متى تسألى عما أقول تُخَــبَّرِى فلله عنـــدى طارفٌ وتليد

هؤلاء الستة الذين ذكرهم : أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، وعروة بن الزبير بن العوام ، وسعيد بن المسيب ، وسليمان بن يسار ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، وعبيد الله صاحب هـذا الشعرِ هو سابعهم ، وهم فقهاء المدينة ، وأصحاب الرأى الذين هم عليهم المدار .

وقد كان جماعة من أصحاب مالك بن أنس يرون الغناء بغير آلة جائزاً ، وهو مذهب جماعة من أهل مكة والمدينة ، والغناء حُـلَّة الشعر إن لم يلبسها طُوِيَتْ ، ومحال أن يحرمَ الشعرَ مَنْ يُحِل الغناء به .

من شعر الإمام الشافعى

وأما محمد بن إدريس الشافعى فكان من أحسن الناس افتناناً فى الشعر ، وهو القائل :

ومُتْعِبِ العيس مرتاحاً إلى بلدٍ والموتُ يطلبهُ فى ذلك البلد
وضاحكٍ والمنايا فوقَ مفرقهِ لو كان يعلم غيباً مات من كَمَدِ
من كان لم يؤتَ علماً فى بقاء غد ماذا تَفكّره فى رزقِ بعد غد

ومن قوله أيضا فى غير هذا المعنى :

الجدُّ يدنى كلَّ شىء شاسعٍ والجدُّ يفتح كلَّ بابٍ مغلقِ
فإذا سمعت بأن مجدوداً حوَى عُوداً فأوْرَقَ فى يديه فَصَدِّقِ
وإذا سمعت بأن محروما أتى ماء ليشربه فجفَّ فحقِّقِ
وأحقُّ خلق الله بالهمّ امرؤ ذو همةٍ يُبْلَى برزقٍ ضيقِ
ولربما عَرَضَتْ لنفسى فكرةٌ فأوَدُّ منها أننى لم أخلقِ

وهذا باب لو تقصيته لاحتمل كتابا مفرداً، ولكنى طبّقت المفصل ، وذكرت بعض المشاهير من الناس .

(٤) — باب من رفعه الشعر ، ومن وَضَعَه

الشعر يرفع ويضع

إنما قيل فى الشعر « إنه يرفع من قدر الوضيع الجاهل ، مثل ما يضع من قدر الشريف الكامل ، وإنه أسنى مروءة الدنى ، وأدنى مروءة السرى » لأمر ظاهر غاب عن بعض الناس فتأوله أشد التأويل ، وظنه مَثْلبة وهو مَنْقبة ، وذلك أن الشعر لجلالته يرفع من قدر الخامل إذا مُدِحَ به ، مثل ما يضع من قدر الشريف إذا اتخذه مكسباً ، كالذى يؤثَرُ من سقوط النابغة الذبيانى بامتداحه النعمانَ بنَ المنذر ، وتكسبه عنده بالشعر ، وقد كان أشرف بنى ذبيان ،

هذا ، وإنما امتدح قاهر العرب ، وصاحب البؤس والنعيم [١] .. وكاشتهار عَرَابة الأوسى بشعر الشَّمَّاخ بنَ ضِرَار ، وقد بذل له فى سـنة شديدة وَسْق بعير تمراً ، فقال :

رأيتُ عَرابةَ الأوْسِيَّ يسمو إلى الخيرات منقطعَ القرين
إذا ما رايةٌ رفعت لمجد تَلَقَّاهَا عَرابة باليمين

حتى صار ذلك مثلا سائراً ، وأثراً باقياً ، لا تَبْلَى جِدَّتُه ، ولا تتغير بهجته ، وقدح ذلك فى مروءة الشماخ ، وحط من قدره ؛ لسقوط همته عن درجة مثله من أهل البيوتات وذوى الأقدار .

فأما من صنع الشعر فَصَاحةً وَلَسنا ، وافتخاراً بنفسه وحسبه ، وتخليداً لمآثر قومه ، ولم يصنعه رغبة ولا رهبة ، ولا مدحاً ولا هجاء ، كما قال واحدُ دهرِنا وسيد كتاب عصرنا أبو الحسن أحسن الله إليه وإلينا فيه :

وجدتُ طريق البأس أسْهَلَ مسلكاً وأحْرَى بنُجْح من طريق المطامع
فلستُ بمُطْرٍ ما حييت أخا نَدًى ولا أنا فى عرض البخيل بواقع

فلا نقص عليه فى ذلك ، بل هو زائد فى أدبه ، وشهادةٌ بفضله ، كما أنه نباهة فى ذكر الخامل ، ورفع لقدر الساقط ، وإنما فضل امرؤ القيس ــ وهو مَنْ هو ــ لما صنع بطبعه ، وعلا بسجيته ، عن غير طمع ولا جزع .

رأى لعلى فى امرىء القيس

حكى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال : لو أن الشعراء المتقدمين ضمهم زمان واحد ونصبت لهم راية فجروا معاً علمنا مَن السابقُ منهم ، وإذ لم

(١) فى ظاهر العبارة أن المؤلف يعتبر ممدوح النابغة صاحب يومى البؤس والنعيم ، وهذا باطل ؛ فإن ممدوح النابغة هو النعمان بن المنذر ؛ وصاحب اليومين هو المنذر بن ماء السماء .

يكن فالذى لم يقل لرغبة ولا لرهبة ، فقيل : ومن هو ؟ فقال : الكندى، قيل : ولم ؟ قال : لأنى رأيته أحسنهم نادرة ، وأسبقهم بادرة .

على بن الجهم يصف ما دعاه لقول الشعر

وقال على بن الجهم فى مدح المتوكل :

وما الشعرُ مما أستظلُّ بظله ... ولا زادنى قدراً ، ولا حطّ من قدرى

ثم قال :

ولكنّ إحسانَ الخليفة جعفرٍ ... دعانى إلى ما قلتُ فيه من الشعر

فذكر أنه لا يستظل بظل الشعر ، أى : لا يتكسب به ، وأنه لم يزده قدراً لأنه كان نابهَ الذكر قبل عمل الشعر ، ثم قال * ولا حط من قدرى * فأحسن الاعتذار لنفسه وللشعر ، يقول : ليس الشعر ضعة فى نفسه ، ولا صنعته فيمن دون الخليفة ، وما كفاه ذلك حتى جعل نفسه بإزاء الخليفة ، بل مكافئًا له بشعره على إحسان بدأه الخليفة به ، ولم يرض أن يجعل نفسه راغبا ولا مجتديا .

أبو تمام يقول فى المعنى

وقال الطائى[1] فى هذا المعنى لمحمد بن عبد الملك الزيات ، على ما كان فيه من الكبر والإعجاب ، وهو حينئذ الوزير الأكبر :

لقد زِدْتَ أوضاحى امتداداً ، ولم أكن ... بهيما ولا أرضى من الأرض مَجْهَلاَ

ولكن أيادٍ صادفتنى جِسامُها ... أغرَّ فَوَافَتْ بى[2] أغر محجلا

فطمح بنفسه إلى حيث ترى ، وجعل الغرة من كسبه ـ وهى فى الوجه مشهورة ـ والتحجيل من زيادات الممدوح ، وهو فى القوائم .

أبو نخيلة السابق إلى ذلك

وقد سبق إلى هذا المعنى أبو نخيلة السعدى فقال يمدح مَسْلمة بن عبد الملك :

(١) هو أبو تمام حبيب بن أوس، وانظر ديوانه (ص٢٥٢)

(٢) فى الأصل «فوفت فى» وهو خطأ ، وفى الديوان « فألفت بى » .

وأحييت من ذكرى ، وما كان خاملا ولكنّ بعضَ الذكر أنبهُ من بعض

سبب نفي امرىء القيس

وقد حكى أن امرأ القيس نفاه أبوه لما قال الشعر ، وغفل أكثر الناس عن السبب ، وذلك أنه كان خليعاً ، متهتكا ، شبَّبَ بنساء أبيه ، و بدأ بهـذا الشر العظيم ، واشتغل بالخمر والزنا عن الملك والرياسة ، فكان إليه من أبيه ما كان، ليس من جهة الشعر ، لـكن من جهة الغى والبطالة ؛ فهذه العلة ، وقد جازت كثيراً من الناس ومرت عليهم صَفْحاً[1] .

وأما تفسير القول الآخر فى السرىّ والدنىّ ؛ فإنه إذا بلغت بالدنى نفسه ، وطمحت به همته إلى أن يصنع الشعر ـ الذى هو أخو الأدب ، وتجارة العرب ، تُكافأ به الأيادى ، ويُحَلّ به صدر النادى ، ويرفع صوته على من فوقه ، ويزيده فى القدر على ما استحقه ـ فقد صار سرياً ، على أنه القـائل ، فإن كان المقولَ له فذلك أعظم مزية ، وأشرف خطة ومنزلة ، وإذا انحطت بالسرى همته ، وقصرت مروءته ، إلى أن يصنع الشعر ليتكسب به المال ويكافىء به الأيادى دون غيره ـ وهو يعلم أنه أبقى من المال ، وأنفس ذخائر الرجال ، وأنه إن خاطب به من فوقه فقد رضى بالضراعة ، وإن خاطب به كفأه ونظيره فقد نزل عن المساواة ، وإن خاطب به من دونه سقط جملة ـ ذلك على أن يكون شعره مَزْحًا[2] أو عتاباً، وأما أن يكون هجاء فأبقى لخزيه وأضل لسعيه .

وسأذكر ممن رفعه أو ممن وضعه ما قال أو قيل فيه من الشعر بعضَ من ذكر الناس ؛ لئلا أخلى الـكتاب من ذلك ، وإن كنت حريصاً على الإيجاز والاختصار.

بعض من رفعه الشعر

فممن رفعه ما قال من القُدَماء الحارث بن حِلِّزَةَ اليشكرى ، وكان أبرص ، فأنشد الملك عمرو بن هند قصيدته :

* آذَنَتْنَا بِبَيْنِهَا أسْماء *

---

(١) فى المطبوعتين « صلحا » وهو خطأ كما ترى .

(٢) ربما قرئت هذه الكلمة « مدحا » .

و بينه و بينه سبعة حُجُب ؛ فما زال يرفعها حجابا فحجابا لحسن ما يسمع من شعره حتى لم يبق بينهما حجاب ، ثم أدناه وقربه ، وأمثاله كثير .

ومن المخضرمين حسان بن ثابت رحمه الله ، لم تكن له ماتّة ولا سابقة فى الجاهلية والإسلام إلا شعره ، وقد بلغ من رضا الله عز وجل ورضا نبيه عليه الصلاة والسلام ما أورثه الجنة .

ومن الفحول المتأخرين الأخطل ــ واسمه غِياث بن غَوْث ، وكان نصرانياً من تغلب ــ بلغت به الحالُ فى الشعر إلى أن نادم عبدَ الملك بن مروان ، وأركبه ظهر جرير بن عطية بن الخَطَفَى ، وهو تقى مسلم ، وقيل : أمره بذلك بسبب شعر فاخره[١] فيه بين يديه وطَوَّلَ لِسانهُ ، حتى قال مجاهراً[٢] : لعنة الله عليــــه ، لايستتر فى الطعن على الدين والاستخفاف بالمسلمين :

ولستُ بصائمٍ رمضان طَوْعاً ولست بآكل لحم الأضاحى
ولست بزاجرٍ عَنْساً بكوراً إلى بطحاء مكةَ للنجاح
ولست مناديا أبداً بليــــلٍ كمثل العَير «حَىَّ على الفلاح»
ولـكنى سأشربها شَمُولا وأسجد قبل منبلج الصبـاح

وهذه غاية عظيمة ومنزلة غريبة حملت من المسامحة فى الدين على مثل مانسمع والملوك ملوك بزعمهم . وهجا الأنصار ليزيد بن معاوية ، لما شبَّبَ عبدُ الرحمن بن حسان بن ثابت بعمته فاطمة بنت أبى سفيان ــ قيل: بل بأخته هند بنت معاوية ــ قيل : ولولا شعره لقتل دون أقل من ذلك .. وقد رَدَّ على جرير أقبح رد ، وتناول من أعراض المسلمين وأشرافهم ، مالاينجو مع مثله عَلَوِىّ ، فضلا عن نصرانى .

ومن المحدثين أبو نُوَاس ، كان نديماً للأمين محمد بن زُبَيْدَةَ طولَ خلافته ..

---

(١) فى المطبوعتين « خايره » وهو غير مؤد إلى معنى
(٢) فى نسخة « مجاهد »

ومُسلِم بن الوليد صَريع الغوانى ، اتصل بذى الرياستين[١] ومات على جُرْجَانَ وكان تولاها على يديه . . والبحترى ، وكان نديما للمتوكل لا يكاد يفارقه ، وبحضره قتل المتوكل . وكثيرٌ ممن أكتفى بهؤلاء عن ذكره .

المتنبى وكافور

وقد خطب أبو الطيب هذه الرتبة إلى كافور الإخشيدى ، فوعده بها وأجابه إليها ، ثم خافه لما رأى من تحامله وكبره ، واقتضاه أبو الطيب مراراً ، وعاتبه فما وجد عنده راحة . . فمن ذلك قوله[٢] يقتضيه :

وهبتَ على مقدار كَفَّىْ زماننا　　　ونفسى على مقدار كفَّيْكَ تطلُبُ

إذا لم تَنُطْ بى ضيعةً أو ولايةً　　　فجودك يكسونى وشُغْلُكَ يسلبُ

وقوله[٣] يقتضيه أيضا ويعاتبه من قصيدة مشهورة :

وَلِى عند هذا الدهر حق يَلُطّه　　　وقد قلّ إعتاب وطال عتابُ[٤]

ثم قال بعد أبيات :

أرى لى بقربى منك عينا قريرةً　　　وإن كان قربا بالبعاد يُشاب

وهل نافعى أن ترفع الحجبُ بيننا　　　ودون الذى أمَّلْتُ منك حجاب

أُقِلُّ سلامى حبَّ ماخَفَّ عنكم　　　وأسكت كيما لا يكون جواب

وفى النفس حاجات وفيك فطانةٌ　　　سكوتى بيانٌ عندها وخطاب

(١) هو الفضل بن سهل ، وكان السبب فى توليته أن مسلما دخل على الفضل [illegible] شعرا ، فقال : أيها الكهل إنى أجلك عن الشعر فسل حاجتك ، فقال : بل [illegible] يدى بأن تسمع . . . ثم أنشده ، فقال له الفضل : إنى أجلك عن الشعر . قال : فأغننى [illegible] من عمالك ، فولاه البريد بجرجان.

(٢) انظر الديوان (ج ١ ص ١٢٧)

(٣) انظر الديوان (ج ١ ص ١٣٧)

(٤) يلطه : يجحده . وينكره ، ويمطله ، وقوله «قل إعتاب» معناه أنه لم يرضنا

وما أنا بالباغي على الحبِّ رشوة ضعيفٌ هوًى يُبْغَى عليه ثوابُ
وما شئتُ إلا أن أُدِلَّ عواذلى على أن رأيى فى هواكِ صوابُ
وأُعْلِمَ قوما خالفونى فشرّقوا وغرّبْتُ أنى قد ظَفِرْتُ وخابوا

فهؤلاء رفعهم ما قالوه من الشعر؛ فنالوا الرتب، واتصلوا بالملوك، وليس ذلك ببدع للشاعر ولا عجيب منه. وقد كنت صنعت بين يدى سيدنا عن أمره العالى زاده الله علواً:

الشعر شيء حَسَنٌ ليس به مِنْ حَرَجِ
أقلُّ ما فيه ذَها بُ الهم عن نفس الشجى
يُحكِمُ فى لطافةٍ حلّ عقود الحجج
كم نظرةٍ حَسَّنها فى وجهِ عذرٍ سَمِجِ
وحرقةٍ برّدها عن قلب صب منضج
ورحمةٍ أوقعها فى قلب قاسٍ حرج
وحاجةٍ يَسَّرها عند غزال غَنِجِ
وشاعر مطرح مغلق باب الفرج
قرّبه لسانه من ملك متوّج
فعلّموا أولادكم عُقَار طِبِّ المهج

بعض الذين لقبوا بشىء من الشعر قالوه

وطائفة أخرى نطقوا فى الشعر بألفاظ صارت لهم شهرة يلبسونها، وألقاباً يُدْعَوْنَ بها فلا ينكرونها[1]: منهم عائد الكلب، واسمه عبد الله بن مصعب، كان والياً على المدينة للرشيد، لقب بذلك لقوله:

مالى مرضتُ فلم يَعُدْنِى عائدٌ منكم، ويمرضُ كلبكم فأعود؟!

(١) ومنهم الأسعر بن أبى حمران الجعفى، وسيتعرض له المؤلف فى باب « الملقبين من الشعراء » وسنبين لك هناك اسمه والشعر الذى من أجله جرى عليه لقب الأسعر.

والممزّق ، واسمه شاس بن نهار ، لقب بقوله لعمرو بن هند :

فإن كنتُ مأكولا فكن أنت آكلِى وإلا فأدركنى ولما أمزّقِ

وقد تمثل بهذا البيت عثمانُ بن عفان رضى الله عنه فى رسالة كتب بها إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه .

ولقب مسكين الدارمى ــ واسمه ربيعة ، من ولد عمرو بن[1] عمرو بن عدس ابن زيد بن عبد الله بن دارم ــ بقوله :

أنا مسكينٌ لمن أبصرنى ولمن حاورنى[2] جِدُّ نطق

فلما سُمِّىَ مسكينًا قال :

وسميت مسكينًا وكانت لجاجة وإنى لمسكينٌ إلى الله راغبُ

وإنى امرؤ لا أسأل الناس مالهم بشعرى ، ولا تعمى علىّ المكاسب

وإنما هـذا لمكان الشعر من قلوب العرب ، وسرعة وُلُوجِهِ فى آذانهم ، وتعلقه بأنفسهم .

ومنهم من سمى بلفظة من شعره لشناعتها ، مثل النابغة الذبيانى ــ واسمه زياد ابن عمرو ــ وسمى نابغة لقوله :

* فَقَدْ نَبَغَتْ لَنَا مِنْهُمْ شُئُونُ *

---

(١) فى جميع الأصول « من ولد عمر بن عمر » بدون واو ، والتصويب عن الأغانى ، ويدل لصحته قول مسكين يخاطب الفرزدق :

فجئنى بعم مثل عمى أو أب كمثل أبى ، أو خال صدق كخاليا

كعمرو بن عمرو أو زرارة ذى الندى أو البشر ، من كل فرعت الروابيا

(٢) يروى « ولمن يعرفنى جد نطق » وبعد هذا البيت قوله :

لا أبيع الناس عرضى إننى لو أبيع الناس عرضى لنفق

وأما الجعدى ـ واسمه قيس بن عبد الله ـ فإنما نبغ بالشعر بعد أربعين سنة فسمى نابغة لذلك .

وجِرَانُ العَوْدِ، سمى بذلك لقوله :

عمــــدت لعود فالتحيت جِرَانَهُ وَلَلْكَيْسُ خيرٌ فى الأمور وأنجح

خُذَا حَــذَراً يا خُلّتَىّ[1] فإننى رأيت جران العود قد كادَ يصلح

يخاطب امرأتيه ، وقد تركتاه ونَشَزَتا عليه ؛ فلزمه هذا الاسم وذهب اسمه كرها .

وكذلك أبو العيال ، لا يعرف له اسم غير هذا ؛ لقوله :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقتراً من المال؛ يَطْرَحْ نفسه كلَّ مَطْرح

ليبلغ عــذرا أو يصيب رغيبة ومُبْلغ نفسٍ عُذْرَهَا مثلُ مُنْجح

وأمثالهم ممن ذكره المؤلفون لا يحصون كثرة ، وليسوا من هذا الباب فى شىء ؛ لأن غلبة هذه الأسماء عليهم ليست شرفا لهم ولا ضَعَة ، وإنما هى من جهة الشناعة فقط،ولكن الكلام [ذو]شجون .

ومن ههنا عظم الشعر ، وتهيب أهله ، خوفاً من بيت سائر تُحْدَى به الإبل ، أو لفظة شاردة يضرب بها المثل ، ورجاء فى مثل ذلك ؛ فقد رفع كثيراً من الناس ما قيل فيهم من الشعر بعد الخمول والاطراح ، حتى افتخروا بما كانوا يعيرون به ووضع جماعة من أهل السوابق والأقدار الشريفةحتى عُيِّروا بما كانوا يفتخرون به.

الأعشى والمحلق

فمن رفعه ما قيل فيه من الشعر بعد الخمول المحلق، وذلك أن الأعشى قدم مكة وتسامع الناس به ، وكانت للمحلق امرأة عاقلة ـ وقيل : بل أم ـ فقالت له: إن الأعشى قدم ، وهو رجل مُفَوَّه ، مجدود فى الشعر ، ما مدح أحداً إلا رفعه ،

---

(١) فى إحدى روايات الديوان «ياجارتى» تثنية جارة .

ولا هجا أحداً إلا وضعه ، وأنت رجل كما علمت فقير خامل الذكر ذو بنات ، وعندنا لَقْحَةٌ نعيشُ بها ، فلو سبقْتَ الناسَ إليه فدعوتَهُ إلى الضيافة،ونحرتَ له ، واحتلْتُ لك فيما تشترى به شراباً يتعاطاه ؛ لَرَجَوْتُ لك حسن العاقبة ، فسبق إليه المحلق ، فأنزله ونحر له ، ووجد المرأة قد خبزت خبزاً وأخرجت نِحْياً فيه سمن وجاءت بوَطْب لبن ، فلما أكل الأعشى وأصحابه ، وكان فى عصابة قيسية ، قدم إليه الشراب، واشتوى له من كبد الناقة ، وأطعمه من أطايبها ، فلما جرى فيه الشرابُ وأخذت منه الكأس سأله عن حاله وعياله فعرف البؤس فى كلامه ، وذكر البنات ، فقال الأعشى : كفيت أمرهن ، وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته :

أرقتُ وما هــذا السهاد المؤرِّقُ   وما بِىَ[1] من سُقْمٍ وما بِىَ مَعْشَقُ

ورأى المحلق اجتماع الناس، فوقف يستمع ، وهو لا يدرى أين يريد الأعشى بقوله ، إلى أن سمع :

نفى الذم عن آل المحلّق جَفْنَةٌ   كجابية الشيخ العراقِىِّ تفهقُ[2]

ترى القوم فيها شارعين ، وبينهم   مع القوم وِلْدان من النسل دَرْدَقُ

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة   إلى ضوء نارٍ باليفاعِ تحرّقُ

تُشَب لمقرورَين يصطليانها   وبات على النار النَّدَى والمحلق

رَضِيعَىْ لبانٍ ثدى أم تحالفا   بأسحمَ داجٍ عَوْضُ لا نتفرّقُ

ترى الجودَ يجرى ظاهراً فوق وجهه   كما زانَ متنَ الهندوانىِّ رَوْنَقُ

فما أتم القصيدة إلاّ والناس ينسلون إلى المحلق يهنئونه ، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جرياً يخطبون بناته ؛ لمكان شعر الأعشى ، فلم تُمْسِ منهن واحدة إلا فى عصمة رجل أفْضَلَ من أبيها ألف ضعف .

---

(١) يروى « أرقت » على الخطاب ، « وما بك » فى الموضعين ، وما أثبتناه رواية الديوان .   (٢) يروى « كجابية »

الحطيئة وبنو أنف الناقة

وكذلك بنو أنف الناقة ، كانوا يَفْرَقُونَ من هذا الاسم، حتى إن الرجل منهم يسأل : ممن هو ؟ فيقول : من بنى قريع ، فيتجاوز جعفراً أنف الناقة بن قريع بن عوف بن مالك ويلغى ذكره فراراً من هذا اللقب ، إلى أن نقل الحطيئة ــ واسمه جَرْوَلُ بن أوس ــ أحدُهم وهو بغيض بن عامر بن لؤى بن شماس بن جعفر أنف الناقة من ضيافة الزبرقان بن بدر إلى ضيافته وأحسن إليه فقال :

سيرى أُمامُ فإنّ الأكثرين حَصاً والأكرمين إذا ما يُنْسَبُون أبا
قومٌ هم الأنف ، والأذناب غيرهم ومَن يساوى بأنف الناقة الذَّنَبا ؟

فصاروا يتطاولون بهذا النسب ويمدون به أصواتهم فى جَهَارة .

وإنما سمى جعفر أنف الناقة لأن أباه قسم ناقة جزوراً ونَسِيه ، فبعثته أمه ولم يبق إلا رأس الناقة ، فقال له أبوه : شأنك بهذا ، فأدخل أصابعه فى أنف الناقة وأقبل يجره ، فسمى بذلك .

ومثل هاتين القصتين قصة عرابة الأوسى مع الشماخ ، وقد تقدم ذكرها .

جرير وبنو نمير

وممن وضعه ما قيل فيه من الشعر حتى انكسر نسبه، وسقط عن رتبته، وعيب بفضيلته ــ بنو نُمَير ، وكانوا جَمْرة من جَمَرات العرب، إذا سئل أحدهم : ممن الرجل ؟ فخم لفظه ومدّ صوته وقال : من بنى نمير ، إلى أن صنع جرير قصيدته التى هجا بها عُبَيد بن حُصَين الراعى، فسهر لها، وطالت ليلته إلى أن قال :

فغضّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

فأطفأ سراجه ونام، وقال : قد والله أخزيتهم آخرَ الدهرِ ، فلم يرفعوا رأساً بعدها إلا نُكس بهذا البيت ، حتى إن مولىً لباهلة كان يرد سوق البصرة ممتاراً فيصيح به بنو نمير : يا جُوَاذِبَ[1] باهلة ، فقصّ الخبر على مواليه وقد ضجر من ذلك ، فقالوا له : إذا نبزوك فقل لهم :

فغضّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بَلَغْتَ ولا كلابا

---

(١) الجواذب : شسع النعل ، وكان فى الأصول « ياجوداب » تحريف .

ومر بهم بعد ذلك فنبزوه ، وأراد البيت فنسيه ، فقال : غَمِّضْ وإلا جاءك ما تكره ، فكفوا عنه ولم يعرضوا له بعدها .

ومرت امرأة ببعض مجالس بنى نمير فأداموا النظر إليها ، فقالت : قبحكم الله يا بنى نمير أما قبلتم قول الله عز وجل :(قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم)ولا قول الشاعر:

فغضّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وهذه القصيدة تسميها العرب الفاضحة ، وقيل : سماها جرير الدمّاغة ، تركت بنى نمير ينتسبون بالبصرة إلى عامر بن صعصعة ، ويتجاوزون أباهم نميراً إلى أبيه، هربا من ذكر نمير، وفراراً مما وُسِمَ به من الفضيحة والوصمة .

الربيع بن زياد ولبيد

والربيع بن زياد ، كان من ندماء النعمان بن المنذر ، وكان فاحشاً عياباً بذيئاً سباباً لا يسلم منه أحدٌ ممن يَفِدُ على النعمان ، فرُمِيَ بلبيد وهو غلام مراهق فنافسه وقد وضع الطعام بين يدى النعمان ، وتقدم الربيع وحده ليأكل معه على عادته ، فقام لبيد فقال مرتجلا :

يا رُبَّ هَيْجَا هى خير من دَعَهْ نحن بنى أمِّ البنينَ الأربعه

ونحن خير عامر بن صَعْصَعَهْ المطعمون الجفنة المدعدعه

والضاربون الهام تحت الخيضعه مهلا أبيت اللعن لا تأكل معه

فقال النعمان : ولمه ؟ فقال :

* إنّ أسته منْ بَرَصٍ مُلَمَّعَهْ *

فقال النعمان : وما علينا من ذلك ؟ فقال :

* وإنه يولج فيها إصْبَعَهْ *

يولجها حتى يوارى أشْجَعَهْ كأنما يطلب شيئاً أوْدَعَهْ

ويروى « أطمعه »[1] فرفع النعمان يده عن الطعام ، وقال : ما تقول يا ربيع ؟ فقال : أبيتَ اللعن كَذَبَ الغلامُ . فقال لبيد : مره فليجب ، فقال النعمان : أجبه

(١) ويروى « ضيعه » .

يا ربيع ، فقال : والله لَمَا تَسُومنى أنت من الخَسْف أشدُّ علىَّ مما عَضَّهنى به الغلام ، فحجبه بعد ذلك ، وسقطت منزلته ، وأراد الاعتذار ، فقال النعمان :

قد قيل ما قيل إنْ حَقًّا وَ إنْ كَذِبًا   فَمَا اعتذارك من قول إذا قيلا ؟؟

النجاشى وبنو العجلان

و بنو العَجْلان ، كانوا يفخرون بهذا الاسم لقصة كانت لصاحبه فى تعجيل قِرَى الأضيافِ ، إلى أن هجاهم به النجاشى فضجِروا منه ، وسُبُّوا به، واستعدَوْا [عليه] عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين هجانا ، فقال : وما قال ؟ فأنشدوه :

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة   فعادى بنى عَجْلان رهطَ ابن مُقْبِلِ

فقال عمر بن الخطاب : إنما دعا عليكم ولعله لا يجاب ، فقالوا : إنه قال :

قُبَيِّلَةٌ لا يَغْدِرون بذمة   ولا يظلمون الناس حبة خَرْدَلِ

فقال عمر رضى الله عنه : ليتنى من هؤلاء ، أو قال : ليت آل الخطاب كذلك ، أو كلاماً يشبه هذا ، قالوا : فإنه قال :

ولا يَرِدُون المـــاء إلاّ عشيةً   إذا صدر الوُرّادُ عن كل مَنْهَلِ

فقال عمر : ذلك أقل للسكاك ، يعنى الزحام ، قالوا : فإنه قال :

تعَافُ الكلابُ الضارياتُ لحومَهُمْ   وتأكل من كعب بن عوفٍ ونهشل

فقال عمر : كفى ضياعاً مَن تأكل الـكلابُ لحمه ، قالوا : فإنه قال :

وما سمى العَجْـلاَنَ إلا لقولهم   خذ القَعْبَ واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر : كلُّنا عبدٌ ، وخيرُ القوم خادمُهم .فقالوا : يا أمير المؤمنين هجانا ، فقال : ما أسمع ذلك ، فقالوا : فاسأل حسان بن ثابت ، فسأله فقال : ما هجاهم ولـكن سَلَح عليهم ، وكان عمر رضى الله عنه أبصر الناس بما قال النجاشى ، ولـكن أراد أن يَدْرأ الحد بالشبهات ، فلما قال حسان ما قال سَجَن النجاشىَّ ، وقيل : إنه حَدَّه .

وهذه جملة كافية ، ونبذة مقنعة ، فيما قصدت إليه من هذا الباب .

٥ — باب من قضى له الشعر ومن قضى عليه

الرسول يدعو للنابغة الجعدى

أنشد النابغة الجعدى بين يَدَىْ رسول الله صلى الله عليه وسلم قصيدة يقول فيها :

عَلَوْنَا السماء عفّةً وتكرماً[١] وإنا لنبغى فوق ذلك مَظْهَراً

فغضب النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : أين المظهر يا أبا ليلى ؟ فقال : الجنة بك يا رسول الله ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : أجل إن شاء الله ، فقضت له دعوة النبى صلى الله عليه وسلم بالجنة ، وسبب ذلك شعره .

ويدعو لحسان ابن ثابت

وأنشده حسان بن ثابت حين جاوب عنه أبا سفيان بن الحارث بقوله :

هجَوْتَ محمداً فأجَبْتُ عنه وعند الله فى ذاك الجزاء

فقال له : جزاؤك عند الله الجنة يا حسان ، فلما قال :

فإن أبى ووالدَه وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

قال له : وَقَاكَ الله حَرَّ النار ، فقضى له بالجنة مرتين فى ساعة واحدة ، وسبب ذلك شعره .

الأعشى وعلقمة بن علاثة ، وعامر ابن الطفيل

ولما تنافر عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة أقاما عند هَرِم بن قطبة[٢] بن سِنَانٍ سنة لا يقضى لأحدهما على الآخر ، إلى أن قدم الأعشى — وكانت لعامر عنده يَدٌ — فقال :

عَلْقَمَ ما أنت إلى عامر الناقضِ الأوتارِ والواترِ

إنْ تَسُدِ الحوصَ فلَمْ تَعْدُهُمْ وعامرٌ ساد بنى عامر

حكمتموه فقَضَى بينكم أزهرُ مثلُ القمر الباهر

---

(١) يروى « علونا السماء مجدنا وسناؤنا » .

(٢) ويقال « هرم بن قطبة بن سنان » وفى الأصول « سيار » تصحيف .

لا يقبل الرشوةَ فى حكمه ولا يبالى غــبنَ الخاسر [١]

فرواه الناس ، وافترقوا وقد نفر عامر على علقمة بحكم الأعشى فى شعره ، وكان فى رأى هَرِم على قول أكثر الناس خلاف ذلك .

و إلى هذا وأشباهه أشار أبو تمام الطائى بقوله فى صفة الشعر :

يُرى حكمةً ما فيه وهو فــكاهةٌ ويُقْضَى بما يَقْضِى به وهو ظالمُ

أبو دلامة والقاضى ابن أبى ليــلى

وكانت لرجل شهادة عند أبى دُلاَمةَ، فدعاه إلى تبليغها عند القاضى ابن أبى لَيْلَى ، فقال له : إن شهادتى لا تنفعك عنده ، فقال الرجل : لا بد من شهادتك، فشهد عند القاضى وانصرف وهو يقول :

إذا الناسُ غَطَّوْنِى تغطَّيْتُ دونهم وإن بحثوا عنى ففيهم مباحث

فقضى القاضى على الخَصْمِ بشهادة أبى دُلامة ، وقبض المشهودُ له المــالَ ، وغرِمه القاضى للمشهود عليه تحرجا من ظلمه ، ويقال : إنما شهد لطبيب عالج ولده من علة به ، وأمره أن يَدَّعى على من شاء بألف درهم ، ففعل الطبيبُ وشهد أبو دلامة ، وهذا أشبه بمجونِهِ من الأول .

وذكر العتبى أن رجلا من أهل المدينة ادعى حقا على رجل، فدعاه إلى ابن حنطب قاضى المدينة ، فقال : مَنْ يشهد بما تقول ؟ فقال : زنقطة ، فلما ولى قال القاضى : ما شهادته له إلا كشهادته عليه ، فلما جاء زنقطةُ القاضىَ قال له : فداك أبى وأمى ، أحسن والله الشاعر حيث يقول :

من الحَنْطَبِيِّينَ الذين وجوههم دنانير ممــا شِيف فى أرض قيصرا

---

(١) يروى فى البيت الأول * علقم لالست إلى عامر * وروى فى البيت الثانى * سدت بنى الأحوص لم تعدهم * ويروى فى البيت الثالث * حكمتمونى فقضى بينكم أبلج * ويروى فى البيت الرابع * لا يأخذ . . . إلخ .

فأقبل القاضي على الكاتب، فقال: كبير ورب السماء، ما أحسبه شهد إلا بالحق فأجِزْ شهادته.

جرير والحانى الشاعر بين يدى قاضى اليمامة

وخاصَمَ جرير بن الخَطَفَى الحانىّ الشاعر إلى قاضى اليمامة، فقال فى أبيات رجز بها:

أعوذ بالله العلى القهَّارْ من ظلم حَمَّان وتحويل الدار

فقال الحانى مجيباً له:

مَا لِـكُلَيْبٍ مِنْ حِمًى ولا دار غَـيْرُ مقام أُتُنٍ وأعيـــار
* قُبٌّ البطون داميات الأظفار *

ويروى * قمس الظهور داميات الأظفار * فقال جرير: مقام أتنى وأعيارى لا أريد غيره، وقد اعترف به، فقال القاضى: هى لجرير، وقضى على الحانى بشعره الذى قال.

الحسن البصرى يفتى بقـول الفرزدق فى شعر له

وكان الفرزدق يجلس إلى الحسن البصرى، فجاءه رجل فقال: يا أبا سعيد، إنا نـكون فى هذه البعوث والسرايا فنصيب المرأة من العدو وهى ذات زوج أفتحلُّ لنا من قبل أن يطلقها زوجها ؟ فقال الفرزدق: قد قلت أنا مثل هذا فى شعرى، فقال الحسن: وما قلت ؟ قال: قلت:

وذاتِ حليلٍ أنـكحتنا رماحنا حَلاَلاً لمن يبنى بها لم تطلق

فقال الحسن: صدق، فحـكم بظاهر قوله، وما أظن الفرزدق — والله أعلم — أرادَ الجهاد فى العدو المخالف للشريعة، لـكن أراد مذهب الجاهلية فى السَّبَايَا. كأنه يشير إلى العزة وشدة البأس.

عمر يتعجب من بيت لزهير

وقيل: إن عمر بن الخطاب كان يتعجب من قول زهير:

فإن الحقَّ مَقْطَعُهُ ثلاثٌ أداء أو نفار أو جلاء

وسمى زهير « قاضى الشعراء » بهذا البيت، يقول: لا يقطع الحق إلا الأداء،

أو النفار — وهو الحكومة — أو الجلاء — وهو العذر الواضح — ويروى * يمين أو نفار * وهذه الثلاث على الحقيقة هي مقاطع الحق كما قال ، على أنه جاهلي، وقد وكّدها الإسلام .

٦ — باب شفاعات الشعراء، وتحريضهم

قتيلة بنت النضر تعتب على رسول الله

قال عبد الكريم : عرَضَتْ قُتَيلة بنت النضر بن الحارث للنبي صلى الله عليه وسلم وهو يطوف ،فاستوقفته وجذبتْ رداءه حتى انكشف منكبه ، وقد كان قتل أباها[1] ، فأنشدته :

يا راكباً أن الأثَيْلَ مَظنّةٌ … من صبح خامسة ، وأنت موفق

أبلغ به ميتاً بأن قصيدة … ما إن تزال بها الركائب تخفق[2]

مني إليه ، وعبرة مسفوحة … جادت لمائحها وأخرى تخنق[3]

فليسمعنّ النضر إن ناديته … أم كيف يسمع ميتٌ لا ينطق[4]

ظلتْ سيوفُ بني أبيه تَنُوشُه … لله أرحامٌ هناك تُشَقّقُ

قسراً يقاد إلى المنية متعباً … رَسْفَ المقيّدِ وهو عانٍ مُوثَقُ[5]

أمحمدٌ ها أنت نجل نجيبةٍ … من قومها والفحلُ فحلٌ مُعْرِقُ[6]

ما كان ضرك لو مننتَ ، وربما … منّ الفتى وهو المغيظ المحنقُ

---

(١) ويقال : إن المقتول أخوها .

(٢) يروى * بأن تحية . . . . النجائب . . .

(٣) يروى * جادت بدرتها . . . . (٤) البيت يروى هكذا :

هل يسمعن النضر إن ناديته … إن كان يسمع ميت لاينطق .

(٥) يروى * صبرا يقاد . . .. *

(٦) يروى * ولأنت ضنء نجيبة . . في قومها

والنضر أقربُ مَنْ قَتَلْتَ وسيلةً وأحقهم إن كان عتقٌ يعتقُ[(١)]

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لو كنتُ سمعتُ شعرها هذا ما قتلته.

علقمة يشفع عند الحارث بن أبي شمر

ولما قتل الحارثُ بن أبي شمر الغسانى المنذرَ بن ماء السماء ـ وهو المنذر الأكبر ، وماء السماء أمه ـ أسر جماعة من أصحابه ، وكان فيمن أسر شاس بن عَبَدَةَ فى تسعين رجلا من بنى تميم ، و بلغ ذلك أخاه علقمة بن عبدة الشاعر صاحب امرىء القيس ، وهو معروف بعلقمة الفحل ، فقصد الحارث ممتدحاً بقصيدته المشهورة التى أولها :

طَحَا بك قلبٌ بالحسان[(٢)] طَرُوبُ بُعَيْدَ الشباب عَصْرَ حان مشيب

وأنشده إياها ، حتى إذا بلغ إلى قوله :

إلى الحارث الوهاب أعملتُ ناقتى لكَلْكلها والقُصْرَيين وَجيبُ

إليك ـ أبيت اللعن ـ كان وَجيفها[(٣)] بمشتبهات هولهن مَهيب

هدانى إليك الفرقدان وَلاَحِبٌ له فوق أعلام[(٤)] المتان علوب

فلا تحرِمَنِّى نائلا عن جنايةٍ فإنى امرؤ وسطَ القباب غريب

وفى كل حَىٍّ قد خبطتَ بنعمةٍ فحُقَّ لشاسٍ من نَدَاكَ ذَنوبُ

فقال الحارث : نعم وأَذْنِبَةٌ ، وأطلق له شاساً أخاه ، وجماعةَ أسرى بنى تميم ، ومَن سأل فيه أو عَرَفه من غيرهم .

---

(١) يروى « والنضر أقرب من أخذت بزلة »

(٢) فى الديوان « فى الحسان »

(٣) هذه رواية الديوان ، وكان فى الأصول « وجيبها »

(٤) فى الديوان « أصواء المتان » وترتيب هذه الأبيات على ماهنا مخالف لموقعها من القصيدة مع أن المؤلف ترك كثيرا من الأبيات بين بعضها وبعض .

أمية بن حرثان يشفع عند عمر بن الخطاب

وكان لأمية بن حُرْثان[1] وَلَدٌ اسمه كلاب، هاجر إلى البصرة فى خلافة عمر رضى الله عنه، فقال أمية :

سأستعدى على الفاروق رَبًّا   له عَمَدَ الحجيج إلى بُسَاقِ[2]

إنِ الفاروق لم يَرْدُدْ كلاباً   على شيخين هامُهُمَا زَوَاقِ

فكتب عمر إلى أبى موسى الأشعرى بإشخاص كلاب، فما شعر أمية إلا به يقرع الباب.

وما زالت الشعراء قديماً تشفع عند الملوك والأمراء لأبنائها وذوى قرابتها، فيشفعون بشفاعاتهم، وينالون الرتب بهم.

العمانى يشفع عند الرشيد

ودخل العمانى الشاعر — وهو أبو العباس محمد بن ذؤيب الفقيمى — على الرشيد، فأنشده أرجوزة يقول فيها :

قل للامام المقتدى بِأَمِّهِ[3]   ما قاسمٌ دون مدى ابن أمه

* فقد رضيناه فقمْ فَسَمِّهِ *

فقال الرشيد : ما رضيتَ أن أسميه وأنا قاعد حتى أقوم على رجلى، فقال له: يا أمير المؤمنين، ما أردت قيام جسم لكن قيام عَزْمِ، فأمر الرشيد بإحضار القاسم

---

(١) أمية بن حرثان بن الأسكر الليثى، من ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة: شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وكان من سادات قومه وفرسانهم، وابنه كلاب أدرك النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم مع أبيه .. وكان ابنه قد سأل عمر رضى الله عنه أن يغزيه فأغزاه فى جيش، وكان أبوه قد كبر وضعف، فلما طالت عليه غيبة ابنه قال هذا الشعر.

(٢) فى المطبوعتين «سباق» بتقديم السين، وبساق — بزنة غراب — جبل بعرفات وبلد بالحجاز.

(٣) أمة — بفتح الهمزة وتشديد الميم — قصده، وأراد نهجه وسيرته.

ولده ، ومَرَّ العمانى فى إنشاده يَهْذِر، فلما فرغ قال الرشيد للقاسم : أما جائزة هذا الشيخ فعليك ، وقد سألنا أن نوليك العهد، فأجبناه.

الطائى يشفع عند المعتصم

وشَفَعَ الطائى للواثق عند أبيه المعتصم فى أن يوليه العهد ، فقال :

فاشدُدْ بهارونَ الخلافة ؛ إنه   مَسكَنٌ لوحشتها ودارُ قرار
بِفَتَى بنى العباس والقمرِ الذى   حَفَّتْهُ أنجمُ يَعْرُبٍ ونزارِ
كرمُ العمومة والخئولة مجُّه   سَلَفَا قريشٍ فيه والأنصار
هو نوْء يمنٍ منكمُ وسعادةٍ   وسراجُ ليلٍ فيكمُ ونهارِ
فاقمع شياطين النفاق بمهتدٍ   ترضى البريةُ هَدْيَهُ والبارى
ليسير فى الآفاق سيرة رأفة   ويسوسها بسكينةٍ ووقار
فالصين منظوم بأندلس إلى   حيطان روميةٍ فملك ذمار
ولقد علمت بأن ذلك مِعْصَمٌ   ما كنتَ تتركهُ بغير سوارِ

ويستعطف مالك بن طوق

واستعطف مالكَ بن طوق لقومه بنى تغلب ـ وكانوا أفسدوا فى عمله الطرقَ ، فخافوه واستشفعوا بأبى تمام ـ فقال فى قصيدة مشهورة يخاطب بها مالكا :

ورأيتُ قومك والإساءةُ منهمُ   جَرْحَى بظُفْرِ الزمان ونابِ
هم صيروا تلكَ البروقَ صواعقاً   فيهم، وذاك العفوَ سوطَ عذاب
فأقِلْ أسامةَ جُرمها ، واصفح لها   عنه ، وهَبْ ما كان للوهاب
رَفَدوك فى يوم الكُلاَب، وشققوا   فيه المزادَ بجحفلٍ كلاَّب
وهمُ بعين أباغَ راشوا للوغى   سَهْمَيْكَ عند الحارث الحرَّاب
وليالى الثرثار والحشَّاك قد   جلبوا الجيادَ لواحقَ الأقراب
فمضت كهولُهُمُ ، ودبَّرَ أمرَهُمْ   أحداثُهم تدبيرَ غير صواب
لا رقة الحضَرِ اللطيف غذتهمُ   وتباعدوا عن فطنةِ الأعراب

فإذا كشفتهمُ وَجَدْتَ لديهمُ ... كرمَ النفـوس وقلةَ الآداب
لك فى رسول الله أعظمُ أسوة ... وأجلها فى سـنّةٍ وكتاب
أعطى المؤلفةَ القـلوبِ رضاهمُ ... كرماً ، وردَّ أخائذَ الأحزاب

فذكر أصحابُ الأخبارِ أن هذه القصيدة وقعت من مالك أجَلّ موقع فأجزل ثوابه عليها ، وقبل شفاعته ، وردّ القومَ إلى رتبتهم ومنزلتهم ، من بعد اليأس المستحكم ، والعداوة الشديدة .

أبو قابوس يشفع عند الرشيد

وكان أبو قابوس الشاعر رجلا نصرانياً من أهل الحيرة منقطعاً إلى البرامكة، فلما أوقع الرشيد بجعفر صنع أبو قابوس أبياتاً وأنشدها الرشيد يشفع عنده للفضل ابن يحيى :

أمينَ الله هبْ فضل بنَ يحيى ... لنفسـك ، أيها الملك الهمام
وما طلبى إليكَ العفوَ عنه ... وقد قعد الوشاة به وقاموا
أرى سَبَبَ الرضا عنه قوياً ... على الله الزيادة والتمـام
نذرت علىَّ فيه صيامَ شهرٍ ... فإن تَمَّ الرضا وَجَبَ الصيامُ
وهـذا جعفر بالجسر تمحو ... محاسنَ وجهـهِ ريحٌ قَتَام
أما والله لولا خوفُ واشٍ ... وعينٌ للخليفـة لا تنام
لَطُفنا حول جذْعِكَ واستلمنا ... كما للناس بالحجر استلام
وما أبصرتُ قبلك يا ابن يحيى ... حُساما قدّه السيفُ الحُسَامُ
عِقابُ خليفةِ الرحمن فخرٌ ... لمن بالسيف عاقبه الحمام

وقد اختلط هذا الشعر بشعرين فى وزنه ورويه ومعناه : أحدهما لأشْجَعَ السُّلمى ، والآخر لسليمان أخى صريع، فالناس فيه مختلفون ، وهذه صحته . فانظر إلى تجاسره على مثل هذا الأمر العظيم من الشفاعة والرثاء .

واستعطف أبو الطيب سيفَ الدولة لبنى كلاب ـ وقد أغار عليهم فغنم الأموال

المتنبى يشفع لبنى كلاب عند سيف الدولة

وسَبَى الحريمَ ، فأتى بعضُهم أبا الطيب يسأله أن يذكرهم له فى شعره ، ويشفع فيهم ـ فقال فى قصيدة له مشهورة يخاطبه :

ترفّقْ أيها المولى عليهم ... فإن الرفق بالجانى عتاب

فإنهمُ عبيدُك حيث كانوا ... إذا تدعو لنائبةٍ أجابوا

وعَيْنُ المخطئين هُمُ ، وليسوا ... بأول معشر خطئوا فتابوا

وأنت حياتهم غضبت عليهم ... وهَجْرُ حياتهم لهمُ عقاب

وماجهلتْ أياديَكَ البوادى ... ولكن ربما خفى الصّواب

وكم ذنبٍ مُوَلِّدُهُ دلالٌ ... وكم بعدٍ مولّدهُ اقتراب

وجرمٍ جرّه سفهاء قوم ... وحلَّ بغير جارمه العذاب

وهذا من أفعال الشعراء قديم مشهور . وقد افتخر به البحترى فقال فى قصيدة له طويلة :

إن أبق أو أهلِكْ فقد نلتُ التى ... ملأَتْ صدور أقاربى وعداتى

وغنيت ندمان الخلائف : نابِهاً ... ذكرى ، وناعمةً بهم نَشَواتى

وشفعتُ فى الأمر الجليل إليهمُ ... بعد الجليل ، فأنجحوا طلباتى

وصنعتُ فى العرب الصنائعَ عندهم ... من رِفْدِ طلّاب وفكِّ عُناةِ

بين رسول الله وأبى عزة

وكان أبو عزة كثيراً مايستنفر المشركين، ويحرض قريشاً على قتال النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسر يوم بدر ، وجيء به إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فشكا إليه الفقر والعيال ، فرقّ له ، وخلّى سبيله بعد أن عاهَدَهُ ألا يعين عليه بشعره، وأمسك عنه مدة ، ثم عاد إلى حاله الأولى ، فأسر يوم أحد ، فخاطب النبى صلى الله عليه وسلم بمثل خطابه الأول ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا تمسح عارضيك بمكة تقول خدعت محمداً مرتين » ثم قتله صَبْراً ، وقال : « لا يلسع[1] المؤمن من جحر مرتين » .

(١) يروى « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » والمعنى واحد .

أوس بن حجر يحرض على بنى حنيفة

وقال أوس بن حجر يغرى النعمان بن المنذر ببنى حنيفة ؛ لأن شمر بن عمرو السحيمى قتل المنذر ، وهو حينئذ مع الحارث بن أبى شمر الغسانى ، وقال ابن جنى: إنما قتل ابن النعمان :

نُبِّئْتُ أنَّ بنى حنيفة أدخلوا أبياتهم تامور قلب المنـــذر

و يروى « أن بنى سحيم» فغزاهم النعمان ، وقتل فيهم وسبى، وأحرق نخلهم ، ويقال : إنما أغرى بهم عمرو بن هند .

سديف يحرض السفاح على بنى أمية

ودخل سَديف بن ميمون على أبى العباس السَّفَّاح ، وعنده سليمان بن هشام ابن عبد الملك وأبناه ، وفى رواية أخرى سليمان بن مروان وولدان له ، وفى رواية ثالثة إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك ، فأنشده سديف :

لا يَغُرَّنْكَ ما تَرَى من أناس إن بين الضلوع داءً دَوِيًّا
فَضَعِ السَّيْفَ وارفع السوط حتى لا تَرَى فوقَ ظهرها أُمَوِيًّا

فقال سليمان : قتلتَنِي ياشيخ قاتلك الله . ونهض أبو العباس فوضع المنديل فى عنق سليمان ، وقتل من ساعته .

شبل بن عبد الله يحرض على بنى أمية

ودخل شبل بن عبد الله على عبد الله بن على، وأنشده قصيدة له يقول فيها محرضاً على بنى أمية ، وعنده منهم ثمانون رجلا :

أقْصِهِمْ أيهـا الخليفة واقْطَعْ عنك بالسيف شأفةَ الأرْجاسِ
ذلها أظهرَ التودُّدَ منهـــا ولها منكم كحزٍّ المَوَاسِى
ولقد غاظنى وغاظَ سِــوَائى قربُهـا من نمارقٍ وكَرَاسى
أنزلوها بحيث أنزلهـــا اللـــه بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مَصْرعَ الحسين وزيدٍ وقتيـــلا بجانب المهراس
والقتيلَ الذى بحرّانَ أمسى ثاوياً بين غربةٍ وتناسى

فلما سمع بذلك تنكر، وأمر بهم فقتلوا ، وألقى عليهم البساط، وجلس للغذاء وإنّ بعضهم يسمع أنينه لم يمت بعد ، حكى ذلك جماعة من المؤلفين ، واختلفوا فى رواية الشعر وحده ؛ فأكثر الروايات موضع البيت الأول :

لاَ تُقيلَنَّ عبد شمسٍ عِثَـاراً   واقطَعَنْ كل رَقْـلةٍ وأواس

و يروى « وغراس » و بعضها على ما فى النسخة ، ولا أدرى كيف صحة ذلك ، وعبد الله لم يكن يدعى بالخلافة ، اللهم إلا أن يكون ذلك حين أراد خلع المنصور . وأكثر الناس يروى هذه الأبيات لسديف بن ميمون يخاطب أبا العباس السفاح ، غير أن فى الرواية الأولى :

نعمْ شبل الهراس مولاك شـبل   لو نجـا من حبائل الإفلاس

وهو يشهد لما روى [أولا] .

العبدى يغرى ببنى أمية

وحكى غيرهم قال : دخل العبدى الشاعر على عبد الله بن على بفلسطين ، وقد دُعِىَ به ، وعنـده من بنى أمية اثنان وثمانون رجلا ، والغمر بن يزيد بن عبد الملك جالس معه على مُصَلاَّه ، قال العبدى : فاستنشدنى عبدُ الله بن على فأنشدته قولى :

* وَقَفَ المتيَّمُ فى رُسُومِ ديارِ *

وهو مُصْغٍ مطرق حتى انتهيت إلى قولى :

أما الدُّعاة إلى الجنان فهاشمٌ   و بنو أمية من دعاة النـار

و بنو أمية دوحة[1] ملعونة   وَلِهَاشِمٌ فى الناس عُودُ نُضار

أأمَىَّ مَالَكِ من قرارٍ فالحقى   بالجنِّ صـاغرة بأرض وَبَارِ

ولئن رحلتِ لترحَلِنَّ ذميمة   وكـذا المقام بذلة وصَغار

قال : فرفعَ الغمر رأسه إلىَّ ، وقال : يابن الزانية مادعاك إلى هذا ؟ وضرب عبدُ الله بقلنسوة كانت على رأسه الأرضَ ، وكانت العلامة بينه و بين أهل

(١) فى نسخة « دولة » .

خراسان ، فوضعوا عليهم العمد حتى ماتوا ، وأمر بالغمر فضربت عنقه صبراً .

الأحوص يغرى بآل ابن حزم

وكان ابن حزم أميراً على المدينة ، فتحامل على الأحوص الشاعر تحاملاً شديداً ، فشخص إلى الوليد بن عبد الملك، فأنشده قصيدة يمتدحه فيها ، فلما بلغ إلى قوله كالذى يشتكى ابن حَزم وظلمه :

لاترثينَّ لحزمىّ ظفرتَ به   يوماً ولو أُلقِىَ الحزمىُّ فى النار
الناخسين لمروانٍ بذى خشبٍ   والداخلين على عثمان فى الدار

فقال له الوليد : صدقت والله ، لقد غفلنا[1] عن حزم وآل حزم ، ثم كتب عهداً لعثمان بن حيان المرّى على المدينة ، وعزل ابن حزم ، وأمر باستئصال أموالهم ، وإسقاطهم جميعاً من الديوان .

ابن الزيات يغرى المأمون بعمه إبراهيم ابن المهدى

ولما وثب إبراهيم بن المهدى على المأمون اقترض من التجار مالًا كثيراً ، فكان فيه لعبد الملك الزيات عشرة آلاف دينار ، فلما لم يتم أمره لَوَى التجار أموالَهم ، فصنع محمد بن عبد الملك قصيدة يخاطب فيها المأمون ، منها قوله :

تَذَكَّرْ أميرَ المؤمنين قيامه   بأيمانه فى الهزل منه وفى الجد
إذا هزَّ أعوادَ المنابرِ باسته   تَغَنى بليلى أو بميَّة أو هند
ووالله ما من تَوْبَةٍ نَزَعَتْ به   إليك، ولاميل إليك ، ولاوُد
وكيف بمن قدبايع الناس،والتقت   ببيعته الركبانُ غَوْراً إلى نجد !؟
ومن صكَّ تسليمُ الخلافة سمعَه   ينادى بها بين السماطين عن بعد
وأى امرىء سمّى بها قطُّ نفسه   ففارقها حتى يغيَّب فى اللحد ؟

وعرضها على إبراهيم ــ وهو حينئذ خامل الذكر لم يتعلق بعدُ بالخدمة تعلقاً ينفع ــ فسأله [إبراهيم] كتمانها ، واستحلفه على ذلك ، وأدى مال أبيه دون سائر التجار، ومثل ذلك كثير لو تُقُصِّىَ لطال به الكتاب

(١) فى نسخة « شغلنا »

(٧) — باب احتماء القبائل بشعرائها

من مظاهر تمجيد العرب للشعراء

كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعون فى الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ؛ لأنه حماية لأعراضهم ، وذبّ عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم . وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج :

زياد الأعجم والفرزدق

فمن حمى قبيلته زياد الأعجم ، وذلك أن الفرزدق همّ بهجاء عبد القيس ، فبلغ ذلك زياداً وهو منهم ، فبعث إليه : لا تعجل وأنا مُهْدٍ إليك هدية ، فانتظر الفرزدق الهدية ، فجاءه من عنده :

فما ترك الهاجون لى إنْ هجوته ... مُصَحّاً أراه فى أديم الفرزدق

ولا تركوا عظماً يرى تحت لحمه ... لِكاسِرِهِ أبقـوه للمتعرق

سأكسر ما أبقوا له من عظامه ... وأنكت مخّ الساق منه وأنتقى

فإنّا وما تُهدى لنا إن هجوتنا ... لكالبحر مهما يُلْقَ فى البحر يغرق

فلما بلغته الأبيات كفّ عما أرادَ ، وقال : لا سبيل إلى هجاء هؤلاء ما عاش هذا العبد فيهم .

عبد الله بن الزبعرى وبنو قصى

وهجا عبد الله بن الزِّبعرى السهميُّ بنى قُصَى ، فرفعوه برمته إلى عتبة بن ربيعة ؛ خوفاً من هجاء الزبير بن عبد المطلب ، وكان شاعراً مفلقاً شديد العارضة مُقْذِع الهجاء ، فلما وصل عبدُ الله إليهم أطلقه حمزة بن عبد المطلب وكساه ، فقال:

لعمرك ما جاءت بنُكْرٍ عشيرتى ... وإنْ صالحت إخوانها لا ألومها

فردَّ جُناةَ الشر ؛ إنَّ سيوفنا ... بأيماننـا مسلولةٌ لا نَشِيمها

فإن قصيًّا أهل مجـد وعزّة ... وأهـلُ فَعَالٍ لا يرام قديمها

همُ منعوا يومَىْ عكاظ نساءنا ... كما منع الشولَ الهجانَ قُرُومُهَا

وكان الزبير غائباً بالطائف ، فلما وصل إلى مكة و بلغه الخبر قال :

فلولا نحن لمْ يلبس رجالٌ ثيابَ أعِـــزَّةٍ حتى يموتوا
ثيابُهم سمـــالٌ أو طِمارٌ بها وَدَكٌ كما دَسِمَ الحميت
ولـكنّا خلقنـــا إذ خلقنا لنا الحبرات والمسك الْفَتِيتُ

بنو حرام والفرزدق

وهجا رجل من بنى حرام الفرزدق ، فجاء به قومه يقودونه إليـه ، فقال الفرزدق :

ومن يك خائفاً لأذاةِ شعرى فقـد أمن الهجاء بنو حَرام
هم قادوا سفيههمُ ، وخافوا قلائدَ مثـلَ أطواق الحمام

الأحوص ورجل من الانصار

وهجا الأحوص بن محمد الأنصارى رجلا من الأنصار يقال له ابن بشير ـ وكان مكثراً ـ فاشترى هدية ، ووفد بها على الفرزدق مستجيراً به ، فأجاره ، ثم قال : أين أنت من الأحوص بن محمد ؟ فقال : هو الذى أشكو ، فأطرق الفرزدق ساعة ثم قال : أليس الذى يقول :

ألاقِفْ برسم الدار فاستنطق الرسْمَا فقد هاج أحزانى وذكَّرنِى نُعْمَى

قال : بلى ، قال : والله لا أهجو شاعراً هـذا شعره ، فاشترى ابن بشير أنفَسَ من الهدية الأولى وقدم بها على جرير ، فاستجاره فأجاره ، ثم قال له : ما فعل ابن عمك الأحوص بن محمد ؟ قال : هو صاحبى الذى هجانى ، قال : أليس القائل :

تمشى بشتمى فى أكاريس مالك يَشيد به كالكلب إذ ينبح النجما(1)

قال : بلى ، قال : والله لا أهجو شاعراً هذا شعره ، فاشترى أكثر من الهديتين وأهداها إلى الأحوص وصالحه

ولهذا وأمثاله قال جرير لقومه يعاتبهم فى قصيدة خاطب فيها أباه وجده الخطَفَى ممتناً عليهم بنفسه :

---

(١) الكرس ـ بكسر الكاف وسكون الراء ـ الجماعة من أى شىء كان ، ويجمع على أكراس ، وجمع الجمع أكارس وأكاريس .

بأيِّ نِجَادٍ تحمل السيف بعدَ ما ... قطعت القوى من محمل كان باقيا؟
بأيِّ سنان تطعن القِرْنَ بعد ما ... نزعت سناناً من قَنَاتِكَ ماضيا؟
ألا لا تخافا نَبوتى فى ملمَّة ... وخافا المنايا أن تَفُوتَكُمَا بيا
فقد كنت ناراً يصطليها عدوكم ... وحِرْزاً لما ألجأتم من ورائيا
وباسطَ خيرٍ فيكُمُ بيمينه ... وقابضَ شرٍّ عنكمُ بشماليا
وإنى لعَفٌّ الفَقْر مشتركُ الغنى ... سريع ـ إذا لم أرض جارِى ـ انتقاليا
جَرِىءُ الجنان لا أهاب من الردى ... إذا ما جعلت السيف من عن شماليا
ولَيْسَتْ لسيفى فى العظام بقية ... وَلاَ السَّيفُ أشْوَى وقعة من لسانيا .

وهذا الباب أكثر من أن يستقصى ، ورغبتى فى الاختصار ، وإنما جئت منه ومن سواه بلَمْحَة تدل على المراد ، وتبلغ فى ذلك حدَّ الاجتهاد .

(٨) — باب من فأل الشعر ، وطيرته

حسان يتفاءل بفتح مكة

تفاءل حسان بن ثابت للنبى صلى الله عليه وسلم بفتح مكة فقال فى كلمته المشهورة يخاطب بذلك مشركى أهل مكة ويتوعدهم :

عدِمنا خيلنا إن لم تروها ... تثيرُ النقع موعدها كداء
يُبَارِينَ الأعنَّة مُصْغيات ... على أكتافها الأسَلُ الظِّماء
تظل جيادنا مُتَمَطِّرات ... يلطمهنَّ بالخُمُرِ النساء[(١)]

[ورأيت من يستحسن « يلطمهن » من لطمت الخبزة إذا نفضت عنها الرماد] ، فلما كان يوم الفتح أقبل النساء يمسحن وجوه الخيل ، وينفضن الغبار عنها بخمرهن ، فقال قائل : لله در حسان إذ يقول[(٢)] ، وأنشد الأبيات . وروى قوم أن الناس أمروا بالسير إلى كداء تفاؤلا بهذا البيت ليصح ؛ فكان الأمر كما قال .

(١) متمطرات : مسرعات يسبق بعضها بعضا .
(٢) ويروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « قد صدق الله حسان فى هذا »

كان رسول الله يتفاءل ولا يتطير

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتفاءل ، ولا يتطير ، ويحب الاسم الحسن ، وقال : « ثلاثة لا يسلم منهن أحد : الطِّيَرَة ، والظن ، والحسد » قيل له : فما المخرج منهن يا رسول الله ؟ قال : « إذا تطيرت فلا ترجع ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا حسدت فلا تبغ » .

أبو الشمقمق يتفاءل لخالد بن يزيد

ومن مليح ما وقع فى التفاؤل ما حكى محمد بن الجراح ، وذلك أن أبا الشمقمق شَخَصَ مع خالد بن يزيد بن مزيد ، وقد تقلَّدَ الموصل ، فلما مر ببعض الدروب اندقّ اللواء ، فاغتم خالد لذلك وتَطَيَّر منه ، فقال أبو الشمقمق :

ما كان مندقُّ اللواء لطيرةٍ تخشى ، ولا سوء يكون معجلا
لكن هذا العودَ أضعف متنه صِغَرُ الولاية فاستقلَّ الموصلاَ

فسُرِّي عن خالد ، وكتب صاحبُ البريد بخبر ذلكْ إلى المأمون ، فزاده ديار ربيعة ، وأعطى خالدٌ أبا الشمقمق عشرة آلاف درهم .

موسى بن عبد الملك وجماعة من الكتاب

وبغى جماعة من الكتاب على موسى بن عبد الملك ، فأمر المتوكل بحبسه ، قال : فرأيت فى النوم قائلا يقول :

أبشر فقد جاءت السعود أباد أعداءكُ المُبيـــدُ
لم يظفروا بالذى أرادوا بل يفعل الله ما يريد

ووقف المتوكل منهم على أمر أوجب إيقاعه بهم ، وأمر بإطلاقى وإعادتى إلى أشرف رتبة .

ولا بد من ذكر ما يتطير منه فى باب غير هذا .

مجنون ليلى

وقال قيس المجنون :

قضاها لغيرى وابتلانى بحبها فهلاَّ بشىء غيرِ ليلى ابتلانيا

فما مات حتى بَرِصَ ، ورأى فى منامه قائلا يقول له : هذا ما تمنيت .

ويقال : إن المؤمل بن أميل لما قال :

المؤمل بن أميل

شفَّ المؤملَ يومَ الحيرةِ النظرُ   ليتَ المؤملَ لم يُخْلَقْ له بصرُ

نام ذات ليلة صحيحاً ، فأصبح مكفوف البصر .

أبو الهول وجعفر بن يحيى

وتطيَّر أبو الهول على جعفر بن يحيى البرمكى ، فقال :

أصبحت محتاجاً إلى ضرب   فى طلب العُرْفِ من الكلب

إذا شكا صبٌّ إليـه الهوى   قال له : مالى وللصب

أعنى فتى يطعن فى ديننا   يشبُّ معه خَشَبُ الصَّلْبِ

فكان من أمر جعفر ما كان .

ابن الرومى وتطيره

وكان ابن الرومى كثير الطيرة : ربما أقام المدة الطويلة لا يتصرف تطيراً بسوء ما يراه ويسمعه ، حتى إن بعض إخوانه من الأمراء افتقده فأعلم بحاله فى الطيرة ، فبعث إليه خادمًا اسمه إقبال ليتفاءل به ، فلما أخذ أهبته للركوب قال للخادم : انصرف إلى مولاك فأنت ناقص ، ومنكوس اسمك لاَبقا ..

وابن الرومى القائل : الفأل لسان الزمان ، والطيرة عنوان الحدثان . وله فيه احتجاجات وشعر كثير .

٩ ــ باب فى منافع الشعر ومضاره

قد أكثر الناس فى هذا الفن ، ولا بد مع ذلك أن آتى منه بنُبَذٍ يقتضيها ترسيم الكتاب وحق التأليف ، وليست علىّ مطالبة ، ولا قِبَلى حجة ، فى ذكر مضاره بعد منافعه أو معها ؛ إذ كانت الرغبة فى تحسين الحسن ليتزيد منه ، وتقبيح القبيح لينتهى عنه .

وقد فرَط فى أول الكتاب من قول عائشة رضى الله عنها وقول سواها من الصحابة ومن التابعين رحمة الله عليهم ورضوانه فى الشعر ما فيه كفاية : من أنه كلام يحسن فيه ما يحسن فى الكلام ، ويقبح منه ما يقبح فى الكلام ، وبقدر حسنه وقبحه يكون نفعه وضرره ، والله المتعال .

المأمون وبيت من شعر عمارة بن عقيل

حكى أبو العباس المبرِّد أن المأمون سمع منشداً ينشد قول عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير :

أأتركُ إن قلّتْ دراهم خالد زيارتَه ؟ إنى إذاً للئيم

فقال : أو قد قَلّتْ دراهم خالد ؟ احملوا إليه مائتى ألف درهم ، فدعا خالد بعمارة ، فقال : هذا مطر من سحابك ، ودفع إليه عشرين ألفا .

المنصور يعفو عن كاتب ببيت من الشعر

ووَجِد أبو جعفر المنصور على أحد الكتاب وأمر به ليضرب ، فقال :

ونحن الكاتبون وقد أسأنا فهبنا للكرام الكاتبينا

فخلى سبيله إعجاباً ببديهته .

يزيد بن معاوية يسوغ قاطع طريق بشعر له رواه

وحمل بعض العمال إلى يزيد بن معاوية مالا جليلا ، فقطع عليه قسيم الغنوى فأخذه ، وأمر يزيد بطلبه ، فلما حصل بين يديه قال : ما حملك على الخروج علينا وأخذ مال يحمل إلينا ؟ قال : إذنُك يا أمير المؤمنين أعزك الله ، قال : ومتى أذنت لك ؟ قال : حين قلت وأنا أسمعك

إعصِ العواذلَ وارم الليلَ عن عرض
بذى سبيب يقاسى ليله خببا
كالسِّيدِ لم ينقبِ البيطار سرّته ولم يَدِجْه ولم يقطع له لَبَبَا
حتى تُصَادِف مالا أو يقالَ فتى لاقى التى تَشْعَب الفتيانَ فانشعبا

فعصيت عواذلى ، وأسهرت ليلى ، وأعملت جوادى ، فأصبتُ مالا ، قال : قد سوغناكه فلا تعد .

أبو الشمقمق واثنان من عمال يحيى بن خالد

وكان جميل بن محفوظ وأبو دهمان من عمال يحيى بن خالد ، فوفد عليهما مرةً أبو الشمقمق — واسمه مروان بن محمد — فأكرمه أبو دهمان وأساء إليه جميل ، فقال :

رأيت جميلَ الأزد قد عقّ أمه فنالك أبو دهمان أمَّ جميل

وتناظرا بعد ذلك فى مال بين يدى يحيى بن خالد ، فاستَعْلَى جميل على أبى

دهمان فى الخطاب ، فقال له أبو دهمان : احفظ الصهر الذى جعله بيننا أبو الشمقمق ، فضحك يحيى بن خالد حتى فَحَصَ الأرض برجليه ، وترك المال الذى تشاجرا فيه .

مصعب بن الزبير وأسير من أصحاب المختار

وأتى مصعب بن الزبير بأسارى من أصحاب المختار ، فأمر بقتلهم بين يديه ، فقام إليه أسير منهم فقال : أيها الأمير ، ما أقبحَ بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة ووجهك المليح الذى يستضاء به فأتعلق بك وأقول : يارب ، سَلْ مصعباً فيم قتلنى ، فاستحيا مصعب وأمر بإطلاقه ، فقال : أيها الأمير ، اجعل ما وهبت من حياتى فى خَفْض ودَعَةٍ من العيش ، قال : قد أمرت لك بثلاثين ألف درهم ، قال:أشهدك أيها الأمير أن شَطْر هذا المال لعبد الله بن قيس الرقيات ، قال : ولم ذلك ؟ قال : لقوله :

إنما مُصْعَبٌ شهابٌ من الله تجلّتْ عن وجهه الظلماء

فضحك مصعب وقال : اقبض ما أمرنا لك به ، ولابن قيس عندنا مثله ، فما شعر عبد الله بن قيس إلا وقد وافاه المال .

يزيد بن عبد الملك يطلق الأحوص بسبب بيتين من شعره

وحكى عن ابن شهاب الزهرى قال : دعانى يزيد بن عبد الملك ، وقد مضى شَطْر الليل ، فأتيته فَزِعا وهو على سطح ، فقال : لا بأس عليك اجلس ؛ فجلست واندفعت جاريته حبابة تغنى :

إذا رمْتُ عنها سلوةً قال شافعٌ من الحبِّ : ميعاد السلوّ المقابر
ستبقَى لها فى مُضْمَر القلب والحشا سريرةُ حبٍّ يوم تُبلى السرائرُ

قال : لمن هذا الشعر ؟ فقلت : للأحوص ، قال : ما فعل الله به ؟ قلت : محبوس بدَهْلَكٍ ، فكتب من ساعته بإطلاقه ، وأمر له بأربعمائة دينار ، وقدم إليه فأحسن جائزته .

ومِمن ضره الشعر — وكل من عند الله عز وجل و بمشيئته ومقدوره —

موت ابن الرومى مسموما

علىّ بن العباس بن جريج الرومى : كان ملازماً لأبى الحسين القاسم بن عبيد الله أبن سليمان بن وهب ، مخصوصاً به ، فاتصل ذلك بعبيد الله وسمع هجاءه ، فقال لولده أبى الحسين : أحب أن أرى ابن روميك هـذا ، فجمع بينهما فرأى رجلا لسانه أطول من عقله ، فأشار عليه بإبعاده ، فقال : أخافه ، قال : لم أرد إقصاء، ولـكن بيت أبى حية النميرى :

فقلنا لها فى السرّ نفديك[1]لا يرح صحيحاً وإلاّ تقتليه فألمى

فحدَّثَ أبو القاسم ابنَ فراس بمـا كان من أبيه ــ وكان ابن فراس من أشد الناس عداوةً لابن الرومىّ ــ فقال له : أنا أ كفيكه ، فسمّ له لوز ينجة فمات ؛ وسبب ذلك كثرة هجائه و بذاءته .

موت دعبل وسببه

ودِعبل بن على الخزاعى : كان هَجّاء للملوك ، جسوراً على أمير المؤمنين ، متحاملا ، لا يبالى ما صنع ، حتى عرف بذلك ، وطار اسمه فيه ، فصنع على لسانه بكر بن حماد التاهرتى ، وقيل : غيره ممن كان دِعبل يؤذيه و يهاجيه :

ملوكُ بنى العباس فى الـكتْب سبعةٌ ولم تأتنا عن ثامنٍ لهمُ كُتْب
كذلك أهل الكهف فى الكهف سبعةٌ كرامٌ إذا عـــدُّوا ، وثامنهم كلب

وقال قوم : بل صنعها دِعبل نفسه ، وكان المعتصم يعرف بالثامن و بالمثمن أيضاً ، فبلغه ذلك ، فأمر بطلبه ، ففرّ منه إلى بلد بالسودان بناحية المغرب ــ وهى التى تعرف الآن بزويلة بنى الخطاب ــ فمات بهـا وهنالك قبره ، وإلى جانبه قبر عبد الله ابن شيخنا أبى عبد الله محمد بن جعفر النحوى رحمه الله ، هكذا يروى أصحابنا . وأما شعر البحترى فيشهد بخلاف هذا ، وذلك أنه رثى دعبلا وأبا تمام حبيباً الطائى فقال فى أبيات هجا فيها الخثعمى الشاعر :

---

(١) فى نسخة « سراً فديناك »

جدَثٌ على الأهواز يبعد دونه مسرى النعىّ ، ورمةٌ بالموصلِ

فالذى بالموصل أبو تمام حبيب لاشك ؛ لأنه مات بها وهو يتولى البريد للحسن بن وهب ، وكان يعنى به كثيراً ، والآخر دعبل ، ورأيت من يرويه :

شِلْو بأعلى عَقْرَ قُوفَ تلفّه هوج الرياح ، ورمة بالموصل

والأول أعرف وأشبه بالصواب .

والبة بن الحباب

ووالبة بن الحباب : ذكر أن الرشيد أو غيره سأل مَنِ القائل :

ولها ــ ولا ذنبَ لها ــ حُبٌّ كأطراف الرماح

فى القلب يجرح دائبا فالقلب مكلوم النواح

فقال له بعض من حضر من العلماء : ذلك والبة بن الحباب يا أمير المؤمنين ، وأين تذهب عن معرفته ؟ والله ما رأيت أرقّ منه شعراً ، ولا أطيب نادرة ، ولا أكثر رواية ، ولا أجزل معرفة بأيام العرب منه ، فقال : لم يمنعنى منه إلا بيتا شعر قالهما وهما:

قلت لساقينا على خلوة أدنِ كذا رأسك من راسيا

ونَمْ على وجهك لى ساعة إنى أمرؤ أنكح جلاسيا

أتحب أن ينكحنا لا أمّ لك ؟ قال : فغسلت أثوابى عرقا من شدة الحياء .

يزيد بن أم الحكم الثقفى

ويزيد ابن أم الحكم الثقفى : عهد له الحجاج على فارس ، فأتاه يودعه ، فقال له : أنشدنى ، وقدّر أنه يمدحه ، فأنشده :

وأبى الذى سَلَبَ ابن كسرى راية بيضاء تخفق كالعقاب الطائر

فاسترد العهد منه ، وقال لحاجبه : إذا رده عليك فقل له : أوَرَّثَكَ أبوك مثل هذا ؟ فقال له الحاجب ذلك ، فقال يزيد : قل للحجاج :

وورثت جَدّى مَجْدَه وفعاله وورثت جدّك أعنزاً بالطائف

الفرزدق مع نصيب وسليمان بن عبد الملك

وبمثل هذا السبب غضب سليمان بن عبد الملك على الفرزدق ، وذلك أنه استنشده لينشده فيه أو فى أبيه ، فأنشده مفتخراً عليه :

وركب كأنّ الريح تطلب عندهم ... لها تِرَةً من جَذْبها بالعصائب

سروا يخبطون الريح[1] وهيَ تلفهم ... إلى شعب الأكوارذات[2] الحقائب

إذا استوضحوا ناراً يقولون : ليتها ... ـ وقد خَصِرَتْ أيديهم ـ نارُ غالبِ

فتبين غضب سليمان ، وكان نصيب حاضراً فأنشده :

أقول لركبٍ قافلين رأيتهم[3] ... قَفَا ذات أو شالٍ[4] ومولاك قارب

قفوا خبرونى عن سليمان ؛ إننى ... لمعروفه من أهـل وَدَّانَ طالب

فعاجُوا فأثنوا بالذى أنت أهله ... ولو سكتوا أثنَتْ عليك الحقائب

فقال : ياغلام ، أعْطِ نصيباً خمسمائة دينار ، وألحق الفرزدق بنار أبيه ، فخرج الفرزدقُ مُغْضَبًا يقول:

وخير الشعر أكرمه رجالا ... وشرُّ الشعرِ ما قال العبيد

ممن ضره شعره سديف

وممن ضره الشعر وأهلـكه سديف ؛ فإنه طعن فى دولة بنى العباس بقوله لما خرج محمد بن الحسن بالمدينة على أبى جعفر المنصور فى أبيات له :

إنا لنأملُ أن ترتدَّ ألفتنا ... بعد التباعدِ والشحناء والإحَنِ

وتنقضى دولةٌ أحكامُ قادتها ... فينا كأحكام قومٍ عابِدِى وثَنِ

فانهض ببيعتكم نَنْهَضْ بطاعتنا ... إنّ الخلافة فيكم يا بنى الحسنِ

---

(١) فى نسخة « الليل » .

(٢) فى نسخة « من كل جانب » .

(٣) فى معجم ياقوت « قافلين عشية » وفى رواية أخرى « صادر ين لقيتهم »

(٤) أى : رأيتهم خلف ذات أو شال ، وذات أو شال : موضع . وقفاه : جانبه الخلفى ، وهو كما قال الشاعر :

خذا أنف هرشى أوقفاها فإنما ... كلا جانبى هرشى لهن طريق

فكتب المنصور إلى عبد الصمد بن على بأن يدفنه حياً ، ففعل ، ويقال : إن الأبيات لعبد الله بن مصعب نُسِبت إلى سديف وحُمِلت عليه فقتل بسببها ، وذلك أشد

وأحمق الشعراء عندى مَنْ أدخل نفسه فى هذا الباب أو تعرض له ، وما للشاعر والتعرض للحُتُوفِ ؟ وإنما هو طالب فضل ، فلم يضيع رأس ماله ؟ لاسيما وإنما هو رأسه ، وكل شىء يحتمل إلا الطعن فى الدول ، فإن دعت إلى ذلك ضرورة مجحفة فتعصُّبُ المرء لمن هو فى ملكه وتحت سلطانه أصوبُ ، وأعذر له من كل جهة وعلى كل حال ، لا كما فعل سديف .

مقتل المتنبى بسبب بيت من شعره

وأبو الطيب لما فرّ ورأى الغلبة قال له غلامه : لايتحدث الناس عنك بالفرار أبداً وأنت القائل :

الخيلُ والليلُ والبَيْدَاء تعرفنى والطعنُ والضربُ والقرطاس والقلم[1]

فكر راجعاً فقتل ، وكان سبب ذلك هذا البيت ..

حرمان كافور المتنبى الولاية

وكان كافور الإخشيدى قد وعد أبا الطيب بولاية بعض أعماله ، فلما رأى تعاظمه فى شعره وسموه بنفسه خافه ، وعُوتِبَ فيه ، فقال : يا قوم ، من ادعى النبوة مع محمد صلى الله عليه وسلم لا يدعى المملكة مع كافور ؟ ! حَسْبُكم .

تنبؤه

وزعم أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلى أن أبا الطيب إنما سمى متنبئاً لفطنته ، وقال غيره : بل قال : أنا أول من تنبأ بالشعر ، وادعى النبوة فى بنى الفصيص .

والأخبار فى هذا النوع كثيرة جداً ، وإنما جئت بأقربها عهداً ، وأشهرها فى كتب المؤلفين ، مما يليق بالموضع ذكره

(١) يروى عجز هذا البيت هكذا

* والسيف والرمح والقرطاس والقلم *

(١٠) — باب تعرض الشعراء

عمر والنجاشى

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه عالما بالشعر ، قليل التعرض لأهله : استعداه رَهْطُ تميم بن أبى [بن] مقبل[1] على النجاشى لما هجاهم ، فأسلم النظر فى أمرهم إلى حسان بن ثابت؛ فراراً من التعرض لأحدهما ، فلما حكم حسان أنفذ عمر حكمه على النجاشى كالمقلد من جهة الصناعة ، ولم يكن حسان — على علمه بالشعر — أبْصَرَ من عمر رضى الله عنه بوجه الحكم ، وإن اعتلَّ فيه بما اعتل ، وقد مضت الحكاية[2] .

عمر والحطيئة

وكذلك صنع فى هجاء الحطيئة الزِّبْرِقَانَ بن بدر : سأل حسان ثم قضى على الحطيئة بالسجن ، وقيل : بل سجنه لموافقته إياه وقوله : إن لكل مقام مقالا ، فقال له : أتهددنى ؟ امضوا به إلى السجن ، فسجنه فى حفرة من الأرض .

أبو عبيدة لا يحكم بين الشعراء الأحياء

وسئل أبو عبيدة : أى الرجلين أشعر : أبو نواس ، أم ابن أبى عيينة ؟ فقال : أنا لا أحكم بين الشعراء الأحياء ، فقيل له : سبحان الله كأنَّ هذا ما تبين لك ! فقال : أنا ممن لم يتبين له هذا ؟!!

أول من لقب قريشا سخينة

وقيل : إن أول من لقب قريشاً — على شرفها ، وبعد ذكرها فى العرب — سَخِينة لِحَسَاء كانت تتخذه فى الجاهلية عند اشتداد الزمان خداشُ بن زهير حيث يقول :

ياشدةً ما شَدَدْنَا غير كاذبة ... على سخينة لولا الليل والحَرَمُ

فذهب ذلك على أفواه الناس ،حتى كان من التمازح به ما كان بين معاوية

(١) أبى — بضم الهمزة ، وفتح الباء ، وتشديد الياء ، كما ذكره البغدادى فى شرح الشاهد الثانى والثلاثين ، وكان فى الأصل « تميم بن أبى مقبل » وتصويبه عن الخزانة ، ويؤكدها عندنا الأبيات التى هجاه بها النجاشى وقد سبقت .

(٢) انظر (ص ٥٢) من هذه الجزء .

ابن أبى سفيان و بين الأحنفِ بن قيس التميمى ، حين قال له : ما الشىء الملفف فى البجاد ؟ فقال له : السخينة يا أمير المؤمنين ، أراد معاوية قول الشاعر :

إذا ما مات مَيْتٌ من تميم فسَرَّكَ أن يعيش فجىء بزادِ

بخبز أو بلحم[1] أو بتمرٍ أو الشىء الملفف فى البجاد

يريد وَطْبَ اللبن ، وأراد الأحنف قول خداش بن زهير * ياشدة ما شددنا . . . البيتَ * وحتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكعب بن مالك الأنصارى : أترى الله نسى قولك ؟ يعنى :

زَعَمت سَخِينةُ أن سَتغلِبُ ربها وَلَيُغلَبَنَّ مُغالِبُ الغَلاَّبِ

الأشراف يتجنبون ممازحة الشعراء

ولسير الشعر على الأفواه هـذا المسير تجنَّبَ الأشرافُ ممازحة الشاعر خوف لفظة تسمع منه مزحًا فتعود جداً ، كما قال دعبل الخزاعى :

لاتعرضنَّ بمزح لامرىء طَبِنٍ ما راضَهُ قلبهُ أجراه فى الشَّفَةِ

فربَّ قافيـــة بالمزح جارية فى محفل[2] لم يُرَدْ إنماؤها نَمَتِ

إنى إذا قلت بيتاً ماتَ قائلهُ ومَن يقال له والبيتُ لم يمت

وقال رجل لابن الرومى يمازحه : ما أنت والشعر ؟ لقـد نلتَ منه حظاً جسيما وأنت من العجم ، أراك عربياً فى الأصل أو مدعياً فى الشعر ! قال : بل أنت دعىٌّ ؛ إذ كنت تنتسب عربياً ولم تحسن من ذلك شيئا ، وله يقول من أبيات :

إياكَ يابنَ بُويبٍ أن يستشارَ بويبُ

قد تحسنُ الروم شعراً ما أحسنَتْهُ العريبُ

---

(١) فى نسخة « أو بتمر أو بسمن »

(٢) فى نسخة « مشؤمة »

وهذا مثل قول الصيني[1] الشاعر لبعض الأعراب وقد أنشد عبدَ الله بن طاهر بحضرته شعراً ، فقال له الأعرابي: ممن الرجل ؟ فقال : من العجم ، قال : ما للعجم والشعر ؟ أظن عربياً نَزَا على أمك ، قال : فمن لم يقل منكم الشعر معشر العرب فإنما نزا على أمه أعجمي ! ! فسكت الأعرابي .

للشعراء ألسنة حداد

وأنشد أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ فقال :

وللشعراء ألسنةٌ حـــدادٌ على العورات موفيةٌ دلـــيله

ومن عقلِ الـكريم إذا اتّقاهُمْ وداراهم مداراةً جميله

إذا وَضَعُوا مكاويهم عليه ـ وإن كذبوا ـ فليس لهنّ حيله

والأبيات لأبي الدلهان[2] . . ولأمرٍ ما قال طرفة :

رأيت القوافي يَتَّلِجْنَ مَوالجاً تَضَايَقُ عنها أن تَوَلَّجها الإبر

وقال امرؤ القيس * وجُرْحُ اللسان كجرح اليد * ومع ذلك كله فلا ينبغي للشاعر أن يكون شَرِساً شديداً ، ولا حرجاً عِرِّيضاً ؛ لما يدل به من طول لسانه وتوقف الناس عن مخاشنته .

فهذا الفرزدق كان شاعر زمانه ورئيس قومه ، لم يكن في جيله أطْرَفُ منه نادرة ، ولا أغرب مدحاً ، ولا أسرع جواباً : اجتاز بنسوة وهو على بغلة فهمزها فحبقت ، فتضاحكن ، وكان عريضا ، فقال : مايضحككن وما حملتني أنثى قط إلا فعلت مثل هـذا ؟ قالت إحداهن : فما صنعت التي حملتك تسعة أشهر ؟ فانصرف خجلا .

ومر به رجل فيه لين ، فقال له : من أين أقبلت عمتنا ؟ فقال : نفاها الأغر ابن عبد العزيز ، فكأن الفرزدق صُبَّ عليه الماء ؛ لأنه عرض له بقول جرير فيه حين نفاه عمر بن عبد العزيز من المدينة :

نفاكَ الأغرُّ بنُ عبد العزيز وحَقُّكَ تنفى من المسجد

وكان الفرزدق مرة ينشد ، والكميت صبي ، فأجاد الاستماع إليه ، فقال

(١) كذا ، ولم يستقم لنا .

(٢) لعله «أبو دهمان» والشعر في البيان ١/١٥٩ منسوبا لبعض المولدين من غير تعيين

له : يا بنى أيسرك أنى أبوك ؟ قال : أما أبى فلا أرى به بدلا ، ولكن يسرنى أنك أمى ، فأفحمه حتى غص بريقه ، وزعم قوم أن هذه الحكاية إنما وقعت مع كثير .

الفرزدق ومضرس الفقعسى

ومر يوما بمضرس الفقعسى ، وهو غلام حديث السن ، ينشد الناس شعره فحسده على ما سمعه منه ، فقال له بعد كلام طويل فيه تعريض وتصريح : أدخلت أمك البصرة ؟ وفهم عنه مضرس ما أراد ، فقال : كلا ولكن أبى ! ورجع إلى إنشاده ، فاستحيا الفرزدق ، حكى ذلك شيخنا أبو عبد الله ، و إنما أراد الفرزدق أنها إن دخلت البصرة فقد وقعتُ عليها فأنت ابنى ، قال مضرس : بل أبى وقع على أمك .

الفرزدق والحطيئة

ومثل هذا بعينه عرض للفرزدق مع الحطيئة ؛ فإن الحطيئة قال له وقد سمعه ينشد شعراً أعجبه : أنجدت أمك ؟ قال : بل أنجد أبى ! ! ونظم ذلك جرير ، ونعاه عليه ، وادعى أنه صحيح فقال :

كان الحطيئةُ جارَ أمك مرةً ... واللهُ يعلم شأنَ ذاكَ الجارِ

من ثَمَّ أنت إلى الزناء بعلة ... بأشر شيخ فى جميع نزارِ

لا تفخرنّ بغالب ومحمد ... وافخر بعَبْسٍ كل يوم فخار

وكان يزعم أن الحطيئة جاور لينة بنت قرطة فأعجبته فراودها فوقع عليها وزوجها أخوها العلاء غالبا أبا الفرزدق وقد تبين حملها فولدت الفرزدق على فراشه .

أبو السمط وعلى بن الجهم

واحتذى هذا الحذو سواء أبو السمط مروان الأصغر بن أبى الجنوب بن مروان بن أبى حفصة فقال يهجو على بن الجهم بن بدر :

لعمرك ما الجهم بنُ بدر بشاعرٍ ... وهذا علىٌّ بعده يصنعُ الشعرا

ولكنْ أبى قد كان جارا لأمه ... فلما تعاطى الشعر أوهمنى أمرا

والشاعر أولى من كفّ منطقه ، وأقال عثرات اللسان ؛ لما رزق من القدرة على الكلام ، والعفو من القادر أحسن ، و به أليق (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك

ما عليهم من سبيل ؛ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ، و يبغون فى الأرض بغير الحق ، أولئك لهم عذاب أليم ، ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور) .

(١١) — باب التكسب بالشعر ، والأَنَفَةِ منه

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنهاكُم[1] عن قيل وقال ، وعن كثرة السؤال ، و إضاعة المال ، وعقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنع وهات »..

ما كانت العرب تتكسب بالشعر

وكانت العرب لا تتكسب بالشعر ، و إنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر إعظاماً لها ، كما قال امرؤ القيس [بن حُجْر] يمدح بنى تيم رهط المعلى :

أقرَّ حَشَا أمرىء القيس بن حُجْر ... بنو تَيم مصابيحُ الظـــلام

لأن المعلى أحسن إليه وأجاره حين طلبه المنذر بن ماء السماء ، لقتله بنى أبيه الذين قتل بدير مرينا ، فقيل لبنى تيم « مصابيح الظلام » من ذلك اليوم لبيت امرىء القيس . وقال [أيضاً] لسعد بن الضباب :

سأجزيك الذى دافعتَ عنى ... وما يجزيك عنى غيرُ شكرى

فأخبره أن شكره هو الغاية فى مجازاته كما قدمت .

أول المتكسبين النابغة الذبيانى

حتى نشأ النابغة الذبيانى ؛ فمدح الملوك ، وقبل الصِّلَةَ على الشعر ، وخضع للنعمان بن المنذر ، وكان قادراً على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته أو من سار إليه من ملوك غسان ، فسقطت منزلته ، وتكسب مالا جسيما ، حتى كان أكله وشربه فى صحاف الذهب والفضة وأوانيه[2] من عطاء الملوك .

---

(١) فى نسخة « إن الله ينهاكم » .

(٢) فى نسخة « وأوانيها » .

وتكسَّبَ زهير بن أبي سُلمى بالشعر يسيراً مع هَرِم بن سنان.

الأعشى جعل الشعر متجرا

فلما جاء الأعشى جعل الشعر مَتْجَراً يتجر به نحو البلدان ، وقصد حتى ملك العجم فأثابه وأجزل عطيته علماً بقدر ما يقول عند العرب ، واقتداء بهم فيه، على أنَّ شعره لم يحسن عنده حين فُسِّر له ، بل استهجنه واستخفَّ به ، لكن احتذى فعل الملوك ملوك العرب .

وأكثر العلماء يقولون : إنه أول من سأل بشعره ، وقد علمنا أن النابغة أسَنُّ منه وأقدم شعراً ، وقد ذكر عنه من التكسب بالشعر مع النعمان بن المنذر مع ما فيه [من] قبح : من مجاعلة الحاجب(١)، ودس الندماء على ذكره بين يديه ، وما أشبه ذلك .

وذكر أن أبا عمرو بن العَلَاء سُئل : لم خضع النابغة للنعمان ؟ فقال : رغب في عطائه وعصافيره .

عمر يتحدث عن زهير

وأما زهير فما بلغه الطائي قط معرفة باجتداء(٢) من يمدحه ، ويدلك على ذلك ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه لابنة زهير حين سألها : ما فعلت حُلَلُ هَرِم بن سنان التي كساها أباكِ ؟ قالت : أبلاها الدهر ، قال : لكن ما كساه أبوكِ هرماً لم يُبْلِهِ الدهر ، وقال [عمر رضي الله عنه] لبعض ولد هرم بن سنان : أنشدني ما قال فيكم زهير ، فأنشده ، فقال : لقد كان يقول فيكم فيحسن، قال : ياأمير المؤمنين إنا كنا نعطيه فنُجْزِلُ، قال عمر : ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم .

الحطيئة أكثر السؤال بالشعر

ثم إن الحطيئة أكثر من السؤال بالشعر ، وانحطاط الهمة فيه ، والإلحاف ، حتى مقت وذَلَّ أهلُه وهلم جرا ، إلى أن حُرِم السائل وعُدِم المسئول .

(١) في نسخة «معالجة الحاجب» .
(٢) كذا في جميع الأصول ، ولم يبن لنا وجهه .

إلاّ بقـــايا من أناس بهمُ إلى سبيل المَكرُماتِ يُهتدى

كالسيد أبى الحسن أحسن الله إلى الدنيا ببقائه .

وأما أكثر من تقدم فالغالب على طباعهم الأَنَفةُ من السؤال بالشعر ، وقلة التعرض به لما فى أيدى الناس ، إلا فيما لا يُزْرِى بقدرٍ ولامروءة كالفلتة النادرة والمهمة العظيمة ، ولهذا قال عمر رضى الله عنه : نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته .

الوليد بن عقبة مع لبيد بن ربيعة

ألا ترى أن لبيد بن ربيعة لما بعث إليه الوليد بن عقبة مائة من الإبل ينحرها كعادته عند هبوب الصبا ، وقد أسنّ وأقَلّ[1] ، وكان يطعم الناس ما هبت الصَّبا ، قال لابنته : اشكرِى هذا الرجل فإنى لا أجد نفسى تجيبنى ، ولقد أرانى لا أعْيا بجواب شاعر ، فقالت هذه الأبيات :

إذا هبتْ رياحُ أبى عقيل دَعَوْنَا عنـــد هَبَّتها الوليدا

أغرّ الوجه أبيض عَبْشَمِيًّا أعان على مروءته لبيـــدا

بأمثال الهِضَاب كأنّ ركبًا عليها من بنى حامٍ قُعُودا

أبا وَهْبٍ جزاك الله خيراً نحرناها وأطعمنـــا الثريدا

فَعُدْ إنّ الـكريم له مَعَادٌ وظَنِّى بابن أروى أن يعودا

وعرضَتْهَا عليه فقال : لقد أجدتِ لولا أنك استعدتِ ، كراهية فى قولها :
* فَعُدْ إن الـكريم له مَعَاد * ويروى : لولا أنك استزدت .

الشعر أعلى أو الخطابة ؟

وقالوا : كان الشاعر فى مبتدأ الأمر أرفع منزلةً من الخطيب ؛ لحاجتهم إلى الشعْر فى تخليد المآثر ، وشدة العارضة ، وحماية العشـــيرة ، وتهيبهم عند شاعر غيرهم من القبائل ؛ فلا يقدم عليهم خوفاً من شاعرهم على نفسه وقبيلته ، فلما تكسبوا به وجعلوه طُعْمة وتولوا به الأعراض وتناولوها صـارت الخطابة

(١) أقل : صار قليل المـال .

فوقه ، وعلى هذا المنهاج كانوا حتى فَشَتْ فيهم الضّراعة ، وتطعموا أموال الناس ، وجشعوا فخشعوا ، واطمأنت بهم دارُ الذلة ، إلا من وقر نفسه وقارها، وعرف لها مقدارها ، حتى قبض نقىّ العرض مَصُونَ الوجه ، ما لم يكن به اضطرار تحــــلُّ به الميتةُ ، فأما مَن وجد البُلغة والكفاف فلا وجه لسؤاله بالشعر .

من كبر نفس ابن ميادة

فقد حكى عن ابن مَيّادة أنه مدح أبا جعفر المنصور بكلمته التى يقول فيها :

فوجدتَ حين لقيت أيمن طائر ووليتَ حين وليتَ بالإصلاح
وعفوتَ عن كسر الجناح ولم يكن لِتَطِيرَ ناهضــــةٌ بغير جناح
قومٌ إذا جُلبَ الثنــــاء إليهمُ بيع الثنــــاء هناك بالأرباح

وأتاه راعى إبله بلبن فشرب ثم مسح على بطنه وقد عزم على الرحلة فقال : سبحان الله أأفد على أمير المؤمنين وهذه الشربة تكفينى ؟!! وصرف وجهه عن قصده ، فلم يَفِدْ عليه ، هذا على أنه ساقة الشعراء ، فأنت ترى كبر نفسه ، و بُعْدَ همته.

صلات الملوك

على أن عبد الله بن عمر على جلالته ، والحسن البصرى ، وعكرمة ، ومالك ابن أنس المدنى وجملة من أهل العلم غير هؤلاء ، كانوا يقبلون صِلاَتِ الملوك .

وقد سئل عثمان بن عفان رضى الله عنه عن مال السلطان ، فقال : لحمُ طير زكى

والشعراء فى قبولها مالَ الملوك أعذرُ من المتورّعين وأصحاب الفُتْيَا؛ لماجرت به العادة قبل الإسلام وعلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم و بعده إلى أيام المنصور الذى أنِفَ ابنُ ميادةَ أن يفد عليه .

لم يمدح جميل ابن عبد الله أحدا قط

وهكذا يروى عن جميل بن عبد الله بن معمر أنه ما مدح أحداً قط إلا ذَويه وقراباته ، وأنه صحب الوليدَ بن عبد الملك فى سفر ، فكلفه أن يرجز به ، وظن أنه يمدحه ، فأنشأ يقول :

أنا جميـــل فى السنام من مَعَد فى الذِّروة العلْياء والركن الأشـد

فقال له الوليد : اركب لاحملت .

يقال مدح جميل عبد العزيز ابن مروان

وزعم محمد بن ســـلام الجمحى أنه مدح عبد العزيز بن مروان بقوله فى شعره :

أبا مروانَ أنتَ فتى قريش وكهلُهم إذا عُدَّ الـكهولُ

توليه العشـيرةُ ما عنَاهَا فلا ضَيِّقُ الذراع ولا بخيل

كِلاَ يوميه بالمعروف طَلْقٌ وكلٌّ بلائه حسنٌ جميـل

عمر بن أبى ربيعة وابن الأحنف

وعمر [بن عبدالله] بن أبى ربيعة المخزومى ، وكان يُشَبَّه به من المولدين العباسُ ابن الأحنف ، فإنه ممن أنف عن المدح تظرفاً ، وقال فيه مصعب الزبيرى: العباس عمر العراق ، يريد أنه لأهل العراق كعمر بن أبى ربيعة لأهل الحجاز ، استرسالا فى الـكلام ، وأنَفَةً عن المدح والهجاء ،واشتهر بذلك ، فلم يكن يكلفه إياه أحد من الملوك ولا الوزراء ، وقد أخذ صلة الرشيد وغيره على حسن التغزل ولطف المقاصد فى التشبيب بالنساء .

وهذا باب قد احتذاه الـكتاب فى زماننا هذا إلا القليل ، وقوم من شعراء وقتنا أنا ذاكرهم فى كتاب غير هذا ، إن شاء الله .

وعلى كل حال فإن الأخذ من الملوك كما فعل النابغة، ومن الرؤساء الجِلَّةِ كما فعل زهير؛ سَهْلٌ وخفيف .

فأما الحطيئة فقبح الله همته الساقطة على جـلالة شعره وشرف بيته ، وقد كانت الشعراء ترى الأخذ من دون الملوك عاراً ، فضلا عن العامة وأطراف الناس.

ذو الرمة يهجو ابن أبى حفصة

قال ذو الرمة يهجو مروان بن أبى حَفْصَـة بذلك ، ويفتخر عليه بأنه لا يقبل إلا صلة الملك الأعظم وحده ، هكذا رواه عبد الـكريم وأنشده ابن عبد ربه أيضاً :

عطايا أمير المؤمنين ولم تكن مقسمةً من هؤلا وأولائكا
وما نلتَ حتى شِبْتَ إلا عطيةً تقوم بها مصرورة فى ردائكا

وأنشد له أو لغيره :

وما كان مالى من تراث ورثتـــه ولا دِيَة كانت، ولا كسب مأثم
ولـكن عطاء الله من كل رحلة إلى كل محجوب السُّرَادق خِضْرِم

قال صاحب الـكتاب[1] : والذى أعرف أن سَلْم بن عمرو الخاسر كتب إلى مروان بن أبى حفصة :

بين سلم الخاسر ومروان بن أبى حفصة

من مبلغ مروان عنى رســـالة مُغَلْغَـــلة لا تنثنى عن لقائكا
حَبَانى أمير المؤمنـــين بنفحة ثمانين ألفاً طأطأتْ من حِبائكا
ثمانين ألفاً نلت من صلب ماله ولم تك قسما من أولىٰ وأولائكا

فأجابه مروان عن ذلك فقال :

أسَلْمُ بن عمرو قد تعاطيت خطةً تقصّر عنها بعــد طول عنائكا
وإنى لسباق إذا الخيل كُلِّفَتْ مدى مائة أو غايةً فوق ذلــكا
فدَعْ سابقاً إن عاودتك عجاجة سنابكه أوْهَيْنَ منك سنابكا
رأيتَ امرأ نال السُّها فحسدته فلم يبق إلا أن تموت بدائــكا
طلبتَ من المهدىِّ شَطْرَ حبائه فقال لك المهدىُّ لست هنالــكا
فما أعولت أم على ابن ، ولا بكى على يوسفٍ يعقوبُ مثلَ بكائــكا
عضضت على كَفَّيْكَ حتى كأنما رزئت الذى أعطيتُ من صلب مالكا
حبيتُ بأوقار البغـــال ، وإنما سرابُ الضحى ماتدعى من حبائكا
وما نلتَ حتى شبتَ إلا عطية تقوم بها مصرورة فى ردائــكا
وما عبتَ من قَسم الملوك لشاعر به خص عفواً من أولى وأولائــكا

(١) فى نسخة « أبو على » .

وأقسم لولا ابن الربيع ورِفْدُهُ لما ابتلَّتِ الدلو التى فى رِشائِكا

الأنفة من عطاء غير الملوك

ومن قول مروان أيضاً :

ولقد حُبِيتُ بألف ألف لم تكن إلا بكفِّ خليفةٍ ووزير

مازلتُ آنف أن أؤَلف مدحة إلا لصاحبِ منبر وسرير

ماضرنى حسدُ اللئام ، ولم يزل ذو الفضل يحسده ذوو التقصير

وقال آخر فيما يناسب هذا ويشاكله ، ويشد على يد من تمذهب به أو اعتقده :

وإذا لم يكن من الذل بدٌّ فالق بالذل إن لقيت الكبارا

وافتخر بشار بن برد فقال :

وإنِّى لنهَّاض اليدين إلى العلا قَروعٌ لأبواب الهمام المتوَّجِ

ويروى « وإنى لسوار اليدين » أى : مرتفع .

(١٢) — باب تنقل الشعر فى القبائل

كان الشعر فى ربيعة

ذكر أبو عبدالله محمد بن سَلاَّم الجمحى فى كتاب الطبقات ، وغيرُه من المؤلفين، أن الشعر كان فى الجاهلية فى ربيعة ، فكان منهم مهلهل بن ربيعة — واسمه عدى، وقيل : امرؤ القيس — وإنما سمى مهلهلاً لهلهلة شعره ، أى : رقته وخفته ، وقيل : لاختلافه ، وقيل : بل سمى بذلك لقوله :

لما تَوَقَّلَ فى الكُراع شَزِيدهم هلهلت أثأر جابراً أو صِنْبِلاَ[1]

ويروى * لما توعر فى الكلاب هجينهم * قال أبو سعيد الحسن بن الحسين

---

(١) ويروى :

لما توغل فى الكراع هجينهم هلهلت أثأر مالكا أو صنبلا

من أخبار مهلهل بن ربيعة

السكرى : يعنى بقوله « هجينهم » امرأ القيس بن حمام[1] الذى ذكره امرؤ القيس فى شعره حيث يقول :

عُوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابنُ حمام

وكان مهلهل تبعه يوم كُلاَب ففاته ابن حمام بعد أن تناوله مهلهل بالرمح ، وقد كان ابن حمام أغار على بنى تغلب مع زهير بن جَنَاب فقتل جابراً وصنبلا ، ويروى « لأننّا » بمعنى لعلنا ، وهى لغة فيما زعم بعضُ المؤلفين ، والذى كنت أعرف « لعننا » بالعين ونونين ، وكذلك أعرف « ابن حذام » بذال معجمة ، كذا روى الجاحظ وغيره ، ويروى « خذام » بالخاء والذال المعجمتين . وكان مهلهل أول من قَصَّد القصائد ، قال الفرزدق بن غالب :

* ومهلهل الشعراء ذاك الأولُ *

وهو خال امرىء القيس بن حُجْرٍ الكندى الشاعر ، وجد عمرو بن كلثوم الشاعر أبو أمه .

المرقشان

ومنهم المرقّشَانِ ، والأكبر منهما عم الأصغر ، والأصغر عم طَرَفَةَ بن العبد ، واسم الأكبر عوف بن سعد ، وعمرو بن قَمِيئة ابنُ أخيه ، ويقال : إنه أخوه ، واسم الأصغر عمرو بن حَرْملة ، وقيل : ربيعة بن سفيان ، وهذا أعرف .

جملة من شعراء ربيعة

ومنهم سعد بن مالك الذى يقول :

يا بؤسَ للحربِ التى وضَعت أراهطَ فاستراحوا

ولا أدرى هل هو أبو عمرو بن قميئة الشاعر والمرقش الأكبر أم لا ؟ ؟ وطرفة بن العبد ، وعمرو بن قميئة[2] ، والحارث بن حِلِّزَة ، والمتلمس — وهو خال طرفة ، واسمه جرير بن عبد المسيح — والأعشى — واسمه ميمون بن

(١) المعروف أنه ابن حذام ، كما ستقف عليه فى كلام المؤلف ، ولعله من تصحيف النساخ فيما اطلع عليه المؤلف من كتاب السكرى (٢) تكرر ذكره .

قيس بن جندل — وخاله المسيب بن علس ـ واسم المسيب زهير ـ

من شعراء قيس

ثم تحول الشعر فى قيس : فنهم النابغتان ، وزهير بن أبى سُلْمى ، وابنه كعب لأنهم ينسبون فى عبد الله بن غطفان ، واسم أبى سُلْمى ربيعة ، ولبيد ، والحطيئة ، والشماخ ـ واسمه معقل بن ضرار ـ وأخوه مزرد ـ واسمه جزء بن ضرار ، وقيل : بل اسمه يزيد وجَزء أخوهما ـ وكان المزرد شريراً يهجو ضيوفه ، وهجا قومه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

تَعلّمْ رسولَ الله أنّا كأنما أفأنا بأنمار ثعالب ذى محل
تعلم رسولَ الله لم أر مثلهم أجَرّ على الأدنى وأحرم للفضل

ومنهم خداش بن زهير .

من شعراء تميم

ثم استقر الشعر فى تميم ، ومنهم كان أوْس بن حَجَر شاعر مُضَرَ فى الجاهلية ، لم يتقدمه أحد منهم ، حتى نشأ النابغة وزهير فأخْمَلاَه ، وبقى شاعر تميم فى الجاهلية غير مدافع ، وكان الأصمعى يقول : أوس أشعر من زهير ، ولكن النابغة طأطأ منه ، وكان زهير راوية أوس ، وكان أوس زوجَ أمِّ زهير .

أشعر الناس

وسئل حسان بن ثابت رضى الله عنه : من أشعر الناس ؟ فقال : أرجلا أم حيًّا ؟ قيل : بل حَيًّا ، قال : أشعر الناس حيًّا هذيل . قال ابن سلام الجمحى : وأشعر هذيل أبو ذؤيب غير مدافع ، وحكى الجمحى قال : أخبرنى عمر بن معاذ المعمرى قال : فى التوراة مكتوب أبو ذُؤَيْب مؤلف زورا ، وكان اسم الشاعر بالسريانية ، فأخبرتُ بذلك بعضَ أصحاب العربية ـ وهو كثير بن إسحاق ـ فأعجب منه وقال : قد بلغنى ذلك ، وقال الأصمعى : قال أبو عمرو بن العَلاَء : أفصح الشعراء لساناً وأعذبهم أهل السروات ، وهن ثلاث وَهى الجبال المطلّةُ على تهامة مما يلى اليمن : فأولها هذيل ، وَهى تلى السهل من تهامة ، ثم بجيلة [فى] السراة الوسطى ، وَقد شركتهم ثقيف فى ناحية منها ، ثم سراة الأزد أزد شنوءة

وهم بنو الحارث بن كعب بن الحارث بن نَصْر بن الأزد ، وقال أبو عمرو أيضاً : أفصح الناس عليا تميم وسفلى قيس ، وقال أبو زيد : أفصح الناس سافلة العالية وعالية السافلة ، يعنى عَجُزَ هوازن ، قال : ولست أقول « قالت العرب » إلا ما سمعت منهم ، وإلا لم أقل « قالت العرب » . . . وأهل العالية أهل المدينة ومَنْ حولها ومَن يليها ودَنَا منها ، ولغتهم ليست بتلك عنده .

منزلة اليمن فى الشعر

وقوم يرون تقدمة الشعر لليمن : فى الجاهلية بامرىء القيس ، وفى الإسلام بحسان بن ثابت ،وفى المولَّدِينَ بالحسن بن هانىء وأصحابه : مسلم بن الوليد ، وأبى الشِّيص ، ودِعْبِل ، وكلهم من اليمن ، وفى الطبقة التى تليهم بالطائيين : حبيب ، والبحترى ، ويختمون الشعر بأبى الطيب ، وهو خاتمة الشعراء لا مَحَالَةَ ، وكان ينسب فى كِنْدَةَ ، وهى رواية ضعيفة ، وإنما ولد فى كندة بالكوفة فيما حكى ابن جنى ، وإلا فكان غامضَ النسبِ ، فيقولون : بُدِئَ الشعر بكندة ـ يعنون امرأ القيس ـ وختم بكندة ـ يعنون أبا الطيب ـ وزعم بعض المتأخرين أنه جُعْفِى ، وقوم منهم الصاحب بن عَبَّاد يقولون : بدىء الشعر بملك وختم بملك ، يعنون امرأ القيس وأبا فِراس الحارثَ بن سعيد بن حَمْدان ، وقال آخرون : بل رجع الشعر إلى ربيعة فختم بها كما بدىء بها ، يريدون مهلهلا وأبا فراس ، وأشعر أهل المَدَر بإجماع من الناس واتفاقٍ حسانُ بن ثابت . . . وقال أبو عمرو بن العَلاَء : ختم الشعر بذى الرمة ، والرَّجَزُ برؤبة بن العجاج ، وزعم يونس أن العجاج أشعر أهل الرجز والقصيد ، وقال : إنما هو كلام فأجودهم كلاماً أشعرهم ، والعجاج ليس فى شعره شىء يستطيع أحد أن يقول : لو كان فى مكانه غيره لكان أجود ، وذكر أنه صنع أرجوزته :

* قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الإلَهُ فَجَبَرْ *

فيها نحو مائتى بيت وهى موقوفَةٌ مقيدة ، قال : ولو أطلقت قوافيها وساعد فيها

الوزن لكانت منصوبة كلها . . وقال أبو عبيدة : إنما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك ، إذا حاربَ أو شاتَمَ أو فاخَر ، حتى كان العجاج أول مَن أطاله وقصَّده ، ونسب فيه ، وذكر الديار ، واستوقف الركاب عليها ، ووصف ما فيها ، و بكى على الشباب ، ووصف الراحلة ، كما فعلت الشعراء بالقصيد فكان فى الرُّجَّاز كامرىء القيس فى الشعراء . . . وقال غيره : أول مَن طول الرجز الأَغْلَبُ العِجْلى ، وهو قديم ، وزعم الجمحى وغيره أنه أول مَنْ رَجَز ، ولا أظن ذلك صحيحاً ؛ لأنه إنما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نجد الرجز أقدمَ من ذلك . . . وكان أبو عبيدة يقول : افتتح الشعر بامرىء القيس ، وختم بابن هَرْمَةَ ، ولم أر أنقد من الذى قال : أشعر الناس من أنت فى شعره[1] . . .وأنشد مروانَ بن أبى حَفْصة يوماً جماعةٌ من الشعراء ،وهو يقول فى واحد بعد واحد : هذا أشعر الناس ، فلما كثر ذلك عليه قال : الناس أشعر الناس .

١٣ — باب فى القدماء والمحدَثينَ

المحدث والمولد

كل قديم من الشعراء فهو مُحْدَثٌ فى زمانه بالإضافة إلى مَنْ كان قبله ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد أحسن هذا المولد حتى هممتُ أن آمر صبياننا بروايته ، يعنى بذلك شعر جرير والفرزدق ، فجعله مولداً بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين ، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين .

قال الأصمعى : جلست إليه ثمانى[2] حِجَجٍ فما سمعته يحتج ببيت إسلامى ، وسئل عن المولدين فقال : ما كان من حسن فقد سُبِقوا إليه ، وما كان من

---

(١) كذا (٢) وفى نسخة « عشر حجج » .

قبيح فهو من عندهم ، ليس النمط واحدا : ترى قطعة ديباج ، وقطعة مسيح[1] » وقطعة نطع ، هذا مذهب أبى عمرو وأصحابه : كالأصمعى ، وابن الأعرابى ــ أعنى أن كل واحد منهم يذهَبُ فى أهل عصره هذا المذهَبَ ، و يقدم مَنْ قبلهم ــ وليس ذلك الشىء إلا لحاجتهم فى الشعر إلى الشاهد ، وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون ، ثم صارت لجاجة .

فأما ابن قتيبة فقال : لم يَقْصُر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خَصَّ قوماً دون قوم ، بل جعل الله ذلك مشتركا مقسوماً بين عباده فى كل دَهر ، وجعل كل قديم حديثاً فى عصره .

لولا أن الكلام يعاد لنفد

ومما يؤيد كلام ابن قتيبة كلامُ على رضى الله عنه « لولا أن الكلام يُعاد لنفدَ » فليس أحدنا أحق بالكلام من أحد ، وإنما السبق والشرف معا فى المعنى على شرائط نأتى بها فيما بعد من الكتاب إن شاء الله . وقول عنترة * هَلْ غادر الشعراء من مُتَرَدَّمِ * يدل على أنه يعدُّ نفسه محدثاً ، قد أدرك الشعر بعد أن فرغ الناس منه ولم يغادروا له شيئاً ، وقد أتى فى هذه القصيدة بما لم يسبقه إليه متقدم ، ولا نازعه إياه متأخر . وعلى هذا القياس يحمل قول أبى تمام ــ وكان إماما فى هذه الصناعة غير مدافع ــ :

يقولُ مَن تقرع أسماعَه كم ترَكَ الأول للآخــــر

فنقض قولهم « ما ترك الأول للآخر شيئاً » وقال فى مكان آخر فزاده بيانا وكَشْفاً المراد :

فلو كان يَفْنَى الشعرُ أفناه ما قَرَتْ حياضك منه فى العصورِ الذواهبِ
ولكنه صوبُ العقول : إذا انجلت سحائب منه أعقبتْ بسحائبِ

(١) المسيح : المنديل الخشن ، وكان فى الأصل « مسخ » .

مثل القدماء والمحدثين

وإنما مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين : ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه ، فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن .

وسمعت القاضى أبا الفضل جعفر بن أحمد النحوى ــ وقد سئل عن ذى الرمة وأبى تمام ــ فأجاب بجواب يقرب معناه من هذا لم أحفظه .

وقال أبو محمد الحسن بن على بن وكيع وقد ذكر أشعار المولدين : إنما تروى لعذوبة ألفاظها ، ورقتها ، وحلاوةْ معانيها ، وقُرْبِ مأخذها ، ولو سلك المتأخرون مسلك المتقدمين في غلبة الغريب على أشعارهم ووصف المَهَامه والقفار ، وذكر الوحوش والحشرات ـ ما رويت ؛ لأن المتقدمين أولى بهذه المعانى ، ولا سيما مع زهد الناس فى الأدب فى هذا العصر وما قاربه ، وإنما تكتب أشعارهم لقربها من الأفهام ، وأن الخواصّ فى معرفتها كالعوام ، فقد صار صاحبها بمنزلة صاحب الصوت المطرب : يستميل أمّةً من الناس إلى استماعه وإن جهل الألحان وكسر الأوزان . . وقائل الشعر الحُوشِيِّ بمنزلة المغنى الحاذق بالنغم غير المطرب الصوت : يُعرِض عنه إلاَّ مَنْ عرف فضل صنعته ، على أنه إذا وقف على فضل صنعته لم يصلح لمجالس اللذات ، وإنما يجعل معلماً للمطربات من القَيْنَات : يقومهن بحذقه ، ويستمتع بحلوقهن دون حلقه ، ليسلمن من الخطأ فى صناعتهن ، ويطربن بحسن أصواتهن .

وهذا التمثيل الذى مثله ابن وكيع من أحسن ما وقع ، إلا أن أوله من قول أبى نُوَاس :

صفةُ الطلول بلاغـــة القُدْمِ فاجعل صفاتك لابنة الكَرْمِ
لا تُخْدَعَنَّ عن التى جعلت سقم الصحيح وصحة السقمِ
تَصف الطلول على السماع بها أفذو العيان كأنت فى الحكم ؟؟
وإذا وصفت الشىء مُتَّبعا لم تَخْلُ من غلط ومن وَهْمِ

قد يصلح فى وقت مالا يصلح فى آخر

ولم أر فى هذا النوع أحسن من فَصْلٍ أتى به عبد الكريم بن إبراهيم فإنه قال : قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد فيحسن فى وقت مالا يحسن فى آخر ، ويستحسن عند أهل بلد مالا يستحسن عند أهل غيره ، ونجد الشعراء الحُذَّاق تقابل كل زمان بمـا استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله ، بعد أن لا تخرج من حسن الاستواء ، وحد الاعتدال ، وجودة الصنعة ، وربما استعملت فى بلد ألفاظ لا تستعمل كثيراً فى غيره : كاستعمال أهـل البصرة بعض كلام أهل فارس فى أشعارهم ، ونوادر حكاياتهم ، قال : والذى أختاره أنا التجويد[1] والتحسين الذى يختاره علماء الناس بالشعر ، ويبقى غابره على الدهر ، ويبعد عن الوَحْشِى المستكره ، ويرتفع عن المولد[2] المنتحل ، ويتضمن المثـل السائر ، والتشبيه المصيب ، والاستعارة الحسنة .

قال صاحب الكتاب : وأنا أرجو أن أكون باختيار هذا الفصل وإثباته ههنا داخلا فى جملة المميزين ، إن شاء الله ؛ فليس من أتى بلفظ محصور يعرفه طائفة من الناس دون طائفة لا يخرج من بلده ولا يتصرف من مكانه كالذى لفظُه سائرٌ فى كل أرض ، معروف بكل مكان ، وليس التوليد والرقة أن يكون الكلام رقيقاً سَفْسَافاً ، ولا بارداً غثاً ، كما ليست الجزالة والفصاحه أن يكون حُوشياً خشناً ، ولا أعرابياً[3] جافياً ، ولـكن حالٌ بين حالين . .

بم يتقدم القديم والمحدث ؟

ولم يتقدم امرؤ القيس والنابغة والأعشى إلا بحلاوة الكلام وطلاوته ، مع البعد من السخف والركاكة ، على أنهم لو أغربوا لكان ذلك محمولا عنهم ؛ إذ هو طبع من طباعهم ، فالمولَّد المحدَثُ ـ على هـذا ـ إذا صح كان لصاحبه الفضل البين بحسن الاتباع ، ومعرفة الصواب ، مع أنه أرقُّ حَوْكاً ، وأحسن ديباجة .

(١) فى الأصلين المطبوعين « التجريد » بالراء المهملة .

(٢) فى نسخة « المؤلف » .

(٣) فى نسخة « ولا غريبا حافيا » .

(١٤) — باب المشاهير من الشعراء

والشعراء أكثر من أن يحاط بهم عدداً ، ومنهم مشاهير قد طارت أسماؤهم ، وسار شعرهم ، وكثر ذكرهم ، حتى غلبوا على سائر مَنْ كان فى أزمانهم ، ولكل أحد منهم طائفة تفضله وتتعصب له ، وقَلّ ما يجتمع على واحد ، إلا ما روى عن عن النبى صلى الله عليه وسلم فى امرىء القيس « أنه أشعر الشعراء وقائدهم إلى النار » يعنى شعراء الجاهلية والمشركين . قال دِعْبِل بن على الخزاعى : ولا يقود قوماً إلا أميرُهم . . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه للعباس بن عبد المطلب رحمه الله وقد سأله عن الشعراء : امرؤ القيس سابقهم : خَسَفَ لهم عَيْنَ الشعر فافتقر عن معانٍ عُورٍ أصحّ بصر .

سر تقديم امرىء القيس

قال عبد الكريم : « خسف لهم » من الخَسِيفِ وهى البئر التى حفرت فى حجارة فخرج منها ماء كثير ، وجمعها خُسُف ، وقوله « افتقر » أى : فتح ، وهو من الفقير ، وهو فم القَنَاة ، وقوله « عن معان عور » يعنى أن امرأ القيس من اليمن ، وأن اليمن ليست لهم فصاحة نِزَارٍ ، فجعل لهم [معانى] عوراً فتح منها امرؤ القيس أصح بصر . . قال : وامرؤ القيس يمانى النسب ، نزارى الدار والمنشأ ، وفضّله على رضى الله عنه بأن قال : رأيته أحسنهم نادرة ، وأسبقهم بادرة ، وأنه لم يقل لرغبة ولا لرهبة .

وقد قال العلماء بالشعر : إن امرأ القيس لم يتقدم الشعراء لأنه قال مالم يقولوا ، ولكنه سبق إلى أشياء فاستحسنها الشعراء واتبعوه فيها ؛ لأنه قيل أولُ من لطف المعانى ، واستوقف على الطُّلُول ، ووصف النساء بالظباء والمها والبَيْضِ ، وشبه الخيل بالعِقْبَان والعِصِىّ ، وفرق بين النسيب وما سواه من القصيد ، وقرب مأخذ الكلام ؛ فقيد الأوابد ، وأجاد الاستعارة والتشبيه .

روى الجمحى أن سائلا سأل الفرزدق : مَنْ أشعر الناس ؟ قال : ذو القُرُوح ، قال : حين يقول ماذا ؟ قال : حين يقول :

وَقَاهُمْ جَدُّهم بينى أبيهم وبالأشْقَيْنَ ما كان العقابُ

وأما دعبل فقدمه بقوله فى وصف عقاب :

وَيْلُمِّها من هواء الجو طالبةً ولا كهذا الذى فى الأرضِ مطلوبُ

وهذا عنده أشعر بيت قالته العرب .

أقوال العلماء فى السابقين من الشعراء

وسئل لبيد : مَنْ أشعر الناس ؟ قال : الملك الضِّلّيل ، قيل : ثم من ؟ قال : الشاب القتيل ، قيل : ثم من ؟ قال : الشيخ أبو عقيل — يعنى نفسه — .

وكان الحذّاق يقولون : الفحول فى الجاهلية ثلاثة ، وفى الإسلام ثلاثة متشابهون : زهير والفرزدق ، والنابغة والأخطل ، والأعشى وجرير .

وكان خَلَفٌ الأحمر يقول : الأعشى أجمعهم . وقال أبو عمرو بن العَلَاء : مثله مثل البازى يضرب كبير الطير وصغيره . وكان أبو الخطاب الأخفش يقدمه جداً لا يقدمُ عليه أحداً .

وحكى الأصمعى عن ابن أبى طرفة : كفاك من الشعراء أربعة : زهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب ، وعنترة إذا كلب ، وزاد قوم : وجرير إذا غضب .

وقيل لكثير — أو لنصيب — : مَنْ أشعر العرب ؟ فقال : امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا شرب .

وكان أبو بكر رضى الله عنه يقدم النابغة ؛ ويقول : هو أحسنهم شعراً ، وأعذبهم بحراً ، وأبعدهم قعراً .

وسئل الفرزدق مرة : مَنْ أشعر العرب ؟ فقال : بشر بن أبى خازم ؛ قيل له : بماذا ؟ قال بقوله :

ثوى فى مَلْحَدٍ لابد منه كفى بالموت نأياً واغترابا

ثم سئل جرير فقال : بشر بن أبى خازم ، قال : بماذا ؟ قال : بقوله :

رهين بِلىً ، وكلُّ فتى سَيَبْلَى فَشُقِّى الجيب وانتحِبِى انتحاباً

فاتفقا على بشر بن أبي خازم كما ترى .

المعلقات وأصحابها

وقال محمد بن أبي الخطاب فى كتابه الموسوم بجمهرة أشعار العرب : إن أبا عبيدة قال : أصحاب السبع التى تسمى السمط : امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة ، والأعشى ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم ، وطَرفة . قال : وقال المفضل : مَنْ زعم أن فى السبع التى تسمى السمط لأحد غير هؤلاء فقد أبطل . . فأسقط من أصحاب المعلقات عنترة ، والحارث بن حِلِّزة ، وأثبت الأعشى ، والنابغة.

وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت فى القبَاطى بماء الذهب وعُلِّقت على الكعبة ؛ فلذلك يقال : مذهبة فلان، إذا كانت أجود شعره ، ذكر ذلك غيرُ واحد من العلماء ، وقيل : بل كان الملك إذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول : علقوا لنا هذه ، لتكون في خزانته .

جرير يتحدث عن أشعر الناس

وقال الجمحيُ في كتابه : سأل عكرمة بن جرير أباه جريراً : مَنْ أشعر الناس ؟ قال : أعن الجاهلية تسألنى أم الإسلام ؟ قال : ما أردت إلا الإسلام فإذ ذكرت الجاهلية فأخبرنى عن أهلها ، قال : زهير شاعرهم ، قال : قلت : فالإسلام ؟ قال : الفرزدق نبعة الشعر فى يده ، قلت : فالأخطل ؟ قال : يجيد مدح الملوك ويصيب صفة الخمر ، قلت : فما تركت لنفسك ؟ قال : دعنى فإنى نحرت الشعر نحرا

وقتيبة ابن سلم

وكتب الحجاج بن يوسف إلى قتيبة بن مسلم يسأله عن أشعر الشعراء فى الجاهلية وأشعر شعراء وقته ، فقال : أشعر شعراء الجاهلية امرؤ القيس ، وأضربهم مثلا طرَفة ، وأما شعراء الوقت فالفرزدق أفخرهم ، وجرير أهجاهم ، والأخطل أوصفهم .

والحطيئة

وأما الحطيئة فسئل عن أشعر الناس ، فقال : أبو دؤاد حيث يقول :

لا أعدُّ الإقتارَ عُدْماً ، ولكن فَقْدُ مَن قد رُزِئْتُه الإعدام

وهو وإن كان فحلا قديماً وكان امرؤ القيس يتوكأ عليه ويروى شعره فلم يقل فيه أحد من النقاد مقالة الحطيئة .

وسأله ابن عباس مرة أخرى ، فقال : الذى يقول[1] :

ومن يجعلِ المعروفَ من دونِ عرضه يَفِرْهُ ، ومن لا يَتَّقِ الشتمَ يُشتم

وليس الذى يقول[1] :

ولستَ بمستبق أخاً لا تلمه على شعث ، أىُّ الرجالِ المهذب؟

بدونه ، ولكن الضَّرَاعة أفسدته كما أفسدت جَرْوَلا ، والله لولا الجشع لكنت أشعر الماضين ، وأما الباقون فلا شك أنى أشعرهم ، قال ابن عباس : كذلك أنت يا أبا مليكة

أقاويل مختلفة فى أشعر الناس

وزعم ابن أبى الخطاب أن أبا عمرو كان يقول : أشعر الناس أربعة : امرؤ القيس ، والنابغة ، وطَرَفَةُ ، ومهلهل . قال : وقال المفضل : مثل الفرزدق فقال : امرؤ القيس أشعر الناس ، وقال جرير : النابغة أشعر الناس ، وقال الأخطل : الأعشى أشعر الناس ، وقال ابن أحمر : زهير أشعر الناس ، وقال ذو الرمة : لبيد أشعر الناس ، وقال الكميت : عمرو بن كلثوم أشعر الناس ، وهذا يدلك على اختلاف الأهواء ، وقلة الاتفاق .

وكان ابن أبى إسحاق ــ وهو عالم ، ناقد ، ومتقدم مشهور ــ يقول : أشعر الجاهلية مرقش ، وأشعر الإسلاميين كثير ، وهذا غلو مفرط ، غير أنهم مجمعون على أنه أول من أطال المدح . .

وسأل عبد الملك بن مروان الأخطل : من أشعر الناس ؟ فقال : العبد العَجْلانى ، يعنى تميم بن [أبى بن] مقبل ، قال : بم ذاك ؟ قال : وجدته فى بطحاء الشعر والشعراء على الحرفين ، قال : أعرف ذلك له كرهاً .

وقيل لنصيب مرة : من أشعر العرب ؟ فقال : أخو تميم ، يعنى علقمة بن

(١) قائل البيت الأول زهير بن أبى سلمى ، وقائل الثانى هو النابغة الذبيانى .

عبدة ، وقيـل : أوس بن حجر ، وليس لأحد من الشعراء بعد امرىء القيس ما لزهير والنابغة والأعشى فى النفوس .

والذى أتَتْ به الرواية عن يونس بن حبيب النحوى أن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس ، وأن أهـل الـكوفة كانوا يقدمون الأعشى ، وأن أهل الحجاز والبادية كانوا يقدمون زهيراً والنابغة ، وكان أهل العالية لايعدلون بالنابغة أحداً ، كما أن أهل الحجاز لايعدلون بزهير أحداً .

رأى عمر فى زهير

وروى ابن سـلام يرفعه عن عبد الله بن عباس أنه قال : قال لى عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أنشدنى لأشعر شعرائكم ، قلت : مَنْ هو يا أمير المؤمنين؟ قال : زهير ، قلت : ولم كان كذلك ؟ قال : كان لايُعَاظل بين الـكلام ، ولا يتتبع حُوشيه ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيـه ، ثم قال ابن سلام على عقب هذا الـكلام : قال أهل النظر : كان زهـير أحْصَفَهم شعراً ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لـكثير من المعانى فى قليل من المنطق ، وأشدهم مبالغة فى المدح .

قال صاحب الـكتاب : وإذا قوبل آخر كلام عمر بآخر هـذا الـكلام تناقض قول المؤلف — أعنى ابن سـلام — لأن عمر إنما وصَفَه بالحذق فى صناعته ، والصدق فى مَنْطِقِه ؛ لأنه لايحسن فى صناعة الشعر أن يعطى الرجل فوق حقه من المدح ؛ لئلا يخرج الأمر إلى التنقص والإزراء ، كما أخذ ذلك على أبى الطيب وغيره آنفاً ، وقد فسد الوقت ، ومات أربابُ الصناعة ، فـما ظنك والناس ناس والزمان زمان ؟ وسيرد عليك فى مكانه من هذا الـكتاب إن شـاء الله ، وقد استحسن عمر الصدق لذاته ، ولمـا فيه من مكارم الأخلاق ، والمبالغةُ بخلاف ما وصف ، ويشهد لقول[1] عمر رضى الله عنه فى زهير أنه

---

(١) فى المطبوعتين « ويشهد قول » وهو كما ترى .

لا يمدح الرجل إلا بما فيه استحساناً لصدقه ماجاء به الأثر أن رجلا قال لزهير : إنى سمعتك تقول لهرم :

ولأنت أشجعُ من أسامةَ إذ دُعِيَتْ نَزَالِ ولج فى الذُّعر

. وأنت لا تكذب فى شعرك ، فكيف جعلته أشجع من الأسد ؟ فقال : إنى رأيته فتح مدينة وحده ، وما رأيت أسداً فتحها قط !! فقد خرج لنفسه طريقاً إلى الصدق ، و بعداً عن المبالغة .. والذى أعرف أنا أن البيت المتقدم ذكره لأوس ابن حجر ، والحكاية عنه ، ومثلها عن عمران بن حِطّان الخارجى لما سألته امرأته كيف قلت :

فهُنَاكَ مَجْزأةُ بن ثو رٍ كان أشجعَ من أسامَهْ

وصدر بيت زهير بن أبى سلمى :

ولنعم حَشْـوُ الدرع أنتَ إذا دعيتْ نزالِ ولج فى الذُّعر

إلا أن تكون الأخرى رواية فلا أبعدها ؛ لأن زهيراً كان يتوكأ على أوس فى كثير من شعره ، وهى رواية الجمحى لا أظن غير ذلك ، فأما بيت زهير فى هذا المعنى فهو :

ولأنت أشجع حين تتجه الـــأبطـالُ من لَيْثٍ أبى أجْرِ [1]

وأما النابغة فقال من يحتج له : كان أحسنهم ديباجة شعر ، وأكثرهم رَوْنَقَ كلام ، وأذهبهم فى فنون الشعر ، وأكثرهم طويلة جيدة، ومدحاً، وهجاء ، وفخراً ، وصفة .

وقال بعض متقدمى العلماء : الأعشى أشعر الأربعة ، قيل له : فأين الخبر

(١) الليث : الأسد ، والأجرى : جمع جرو ـ بفتح فسكون ـ وأصله أجرو ـ بضم الراء ـ فقلبت الضمة كسرة لتنقلب الواو ياء ، ومثله دلو وأدل .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن امرأ القيس بيده لواء الشعراء ؟ فقال : بهذا الخبر صح للأعشى ما قلت ، وذلك أنه ما من حامل لواء إلا على رأسِ أميرٍ ، فامرؤ القيس حامل اللواء ، والأعشى الأمير .

وقالت طائفة من المتعقبين : الشعراء ثلاثة : جاهلى ، و إسلامى ، ومولد ؛ فالجاهلى امرؤ القيس ، والإسلامى ذو الرمة ، والمولد ابن المعتز . وهذا قول من يفضل البديع [و] بخاصة التشبيه(١) على جميع فنون الشعر .

وطائفة أخرى تقول : بل الثلاثة الأعشى والأخطل وأبو نُوَاس . وهـذا مذهب أصحاب الخمر وما ناسبها ، ومن يقول بالتصرف وقلة التكلف .

وقال قوم : بل الثلاثة مهلهل وابن أبى ربيعة وعباس بن الأحنف ، وهـذا قول من يؤثر الأَنَفَةَ ، وسهوله الكلام ، والقدرة على الصنعة والتجويد فى فن واحد ، ولولا ذلك لكان شيخ الطبع أبو العتاهية مكان عباس . لكن أبا العتاهية تصرف .

وليس فى المولدين أشهر اسما من الحسن أبى نُوَاس ، ثم حبيب والبحترى، ويقال : إنهما أخملا فى زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد ، ثم يتبعهما فى الاشتهار ابن الرومى وابن المعتز ، فطار اسم ابن المعتز حتى صار كالحسَنِ فى المولّدِينَ وامرىء القيس فى القُدَمَاء ؛ فإن هؤلاء الثلاثة لا يكاد يجهلهم أحد من الناس ، ثم جاء المتنبى فملأ الدنيا وشَغَلَ الناس .

والاشتهار بالشعر أقسام وحدود ، ولولا ذلك لم يكن نصر بن أحمد الخبزرزى أشهر من منصور النمرى وكلثوم العتابى وأبى يعقوب الخريمى وأبى سعيد المخزومى .

وفوق هؤلاء كلهم طبقة فى السن أشهرُهم وأشعرهم بشار بن برد ، وليس يفضل على الحسن مولد سواه ، وكذا روى الجاحظ وغيره من العلماء . . ومن

(١) خص التشبيه بالذكر لأن ابن المعتز كان ذا فوق فيه .

طبقة بشار مروانُ بن أبى حَفْصة ،وأبو دلامة زند بن الجون[١] الأعرابى ، وقيل: زبد ، بالباء معجمة بواحدة ساكنة ومتحركة حكاه المرزبانى ، والسيد الحميرى، وسَلْم الخاسر ، وأبو العَتَاهية ، وجماعة يطول بهم الشرح ليس فيهم مثله .

ومن طبقة أبى نُوَاس العباسُ بن الأحنف ،ومسلم بن الوليد صريع الغوانى ، والفضل الرقاشى ، وأبَانُ اللاحقى ،وأبو الشِّيص ، والحسين بن الضحاك الخليع ، ودِعْبِل ، ونظراء هؤلاء ساقتهم دِعبل ليس فيهم نظير أبى نواس .

وأما طبقة حبيب والبحترى وابن المعتز وابن الرومى فطبقة متداركة قد تلاحقوا ، وغطوا على من سواهم ، حتى نسى معهم بقية من أدرك أبا نواس كابن المعذل ، وهو من فحول المحدثين وصدورهم المعدودين ، غَمَره حبيب ذكراً واشتهاراً ، وكأبى هفان أيضاً، أدرك أبا نواس ، ولحق البحترى فستره ، وكذلك الجماز ، وللجماز يقول أبو نواس :

أسقنى يابن أذين من سلاف الزرجون

وديك الجن ، وهو شاعر الشام ، لم يذكر مع أبى تمام إلا مجازاً ، وهو أقدم منه ، وقد كان أبو تمام أخذ عنه أمثلةً من شعره يحتذى عليها فسرقها ، ودعبل ما أصاب مع أبى تمام طريقاً على تقدمه فى السن والشهرة ، ولم يذكر من أصحاب ابن الرومى وابن المعتز إلا من ذكر بسببهما فى مكاتبة أو مناقضة ، وأما أبو الطيب فلم يذكر معه شاعر إلا أبو فراس وحده ، ولولا مكانه من السلطان لأخفاه ، وكان الصنوبرى والخبزرزى مقدمين عليه للسن، ثم سقطا عنه ، على أن الصنوبرى يسمى حبيباً الأصغر لجودة شعره ، ولقيه مرة بالمصيصة — أو غيرها — فقال له يهزأ به : أنت صاحب بغادين ؟ يريد قصيدته :

شربنا فى بغادين على تلك الميادين

---

(١) فى جميع الأصول « زيد » بالياء المثناة من تحت ، وهو خطأ .

لما فيها من المجون والخلاعة ، فقال له الصنوبرى : أنت صاحبُ الطرطبة ؟ يريد قصيدته :

ما أنصف القوم ضَبَّهْ وأمَّه الطُّرْطُبَّـــهْ

لما فيها من الركاكة ، ولكل كلام وجهٌ وتأويل ، ومن التمس عيباً وجده ، وقيل : بل قال له : أنت صاحب جاخا ؟ قال : نعم ، قال : أنت شاعر بلدك ، يريد قوله فى صفه الوَعِلِ :

ذاك أمْ أعْصَمٌ كأنْ مِدْرَيَاهُ حين عاجا على القذَالين جاخا (١)

١٥ — باب المقلين من الشعراء ، والمغلبين

ولما كان المشاهير من الشعراء ـ كما قدمت ـ أكثر من أن يُحْصَوْا ذكرت من المقلين وأصحاب الواحدة مَنْ وسع ذكره فى هذا الموضع ، ونبهت على بعض المغلّبين منهم ؛ لما تدعو إليه حاجة التأليف ، وتقتضيه عادة التصنيف ، غير مُفَرِّط ولا مُفْرِط ، إن شاء الله .

ذكر جماعة من المقلين

فمن المقلين فى الشعر : طَرَفَةُ بن العبد ، وعَبيد بن الأبرص ، وعلقمةُ بن عَبْدَةَ الفحلُ ، وعَدِيُّ بن زيد ، وطرفة أفضلُ الناسِ واحـــدة عند العلماء ، وهى المعلقة :

* لخولة أطلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ *

وله سواها يسير ؛ لأنه قتل صغيراً حول العشرين فيما روى ، وأصَحُّ ما فى ذلك قولُ أخته ترثيه :

عَدَدْنَا له ستاً وعشرين حجة (٢) فلما توفّاها استوى سيداً ضخما

(١) يقال « جاخ السيل الوادى » أى : اقتلع أجرافه .

(٢) الذى فى ديوان الخرنق أخت طرفة * عددنا له خمساً وعشرين حجة *

فجعنا به لما رجونا إيابه على خيرِ حال لاوليداً ولا قحما

أنشده المبرد ، والقَحْم : المتناهى فى السن . وعبيد بن الأبرص قليل الشعر فى أيدى الناس على قدم ذكره ، وعظم شهرته ، وطول عمره ، ويقال : إنه عاش ثلاثمائة سنة ، وكذلك أبو دُوَاد ، وعبيد الذى أجاب امرأ القيس عن قوله حين قتلت بنو أسد أباه حُجراً :

وأفلتهُنّ علباءُ جَريضاً ولو أدركنه صفر الوطاب[1]

فقال له عَبيد وقرعه بقسم من شعره :

فلو أدركت علباء بن قيس قنعت من الغنيمةِ بالإيابِ

لأن امرأ القيس قد كان قال :

وقد طوّفتُ فى الآفاقِ حتى رضيتُ من الغنيمة بالإياب

وقتل عبيداً النعمان[2] بن المنذر يوم بؤْسه ، وقيل : عمرو بن هند . وعلقمة ابن عبدة حاكم امرأ القيس فى شعره إلى امرأته ، فحكمت عليه لعلقمة ، فطلقها ، وتزوجها علقمة فسمى الفحل لذلك ، وقيل : بل كان فى قومه آخر يسمى علقمة الخصى[3] من ربيعة الجوع .

ولعلقمة الفحل ثلاث قصائد مشهورات إحداهن :

* ذَهَبْتَ من الهجران فى كل مذهب *

ويروى « * فى غير مذهب * » وفى هذه القصيدة وقع الحكم له على امرىء القيس ، والثانية قوله :

---

(١) أفلتهن : فاتهن ، وعلباء : هو ابن الحارث الكاهلى أحد قتلة حجر أبى امرىء القيس ، وجريضا ــ بالجيم الموحدة ــ هو الغاص بريقه ، وصفر الوطاب : كناية عن انتهاء الأمر وخلو النفس من الحقد (٢) لا ، بل المنذر بن ماء السماء كما سبق ذكره .

(٣) واسم علقمة الآخر : علقمة بن سهل .

* طَحَا بِكَ قَلْبٌ فى الحِسَانِ طَرُوبُ *

والثالثة قوله :

هَلْ مَا عَلِمْتَ ومَا اسْتُودِعْتَ مَكْتومُ

وأما عدى بن زيد فلقربه من الرِّيفِ وسكناه الحيرة فى حيز النعمان بن المنذر لانت ألفاظه فحمل عليه كثير ، وإلا فهو مقل ، ومشهوراته أربع : قوله :

* أرواحٌ مُوَدِّعٌ أم بكورُ ؟ *

وقوله :

* أتعرفُ رسم الدار من أمِّ معبد؟ *

وقوله :

* ليس شىء على المنون بباقى *(1)

وقوله :

لم أر مثلَ الفتيان فى غِيَرِ الـــأيام ينسَوْنَ ما عواقبها

وقال بعض العلماء — أحسبه أبا عمرو — : وعدىٌّ فى الشعراء مثل سُهَيْل فى النجوم : يعارضها ولا يجرى معها . هؤلاء أشعارهم كثيرة فى ذاتها ، قليلة فى أيدى الناس ، ذهبت بذهاب الرواة الذين يحملونها .

ومن المقلين المحكمين سلامة بن جندل ، وحصين بن الحمام المرى ، والمتلمس ، والمسيب بن علَس : كل أشعارهم قليل فى ذاته جيد الجملة .

---

(1) فى المطبوعتين « من المنون بباقى » وهو واضح الخطأ ، والتصويب عن عدة كتب ، وتمام البيت :

* غير وجه المسبح الخلاق *

ويروى عن أبى عبيدة أنه قال : اتفقوا على أن أشعر المقلين فى الجاهلية ثلاثة: المتلمس ، والمسيب بن علَس ، وحُصَين بن الحُمَام المرى ، وأما أصحاب الواحدة فطَرَفَة أولهم عند الجمحى، وهو الحكم الصواب.

ومنهم عنترة ، والحارث بن حِلِّزَة ، وعمرو بن كلثوم ، من أصحاب المعلقات المشهورات ، وعمرو بن معدى كرب ، صاحب :

* أمِنْ رَيْحَانَةَ الداعى السميعُ *

والأسعر[1] بن أبى حمران الجعفى صاحب المقصورة :

* هل بان قلبك من سليمى فاشتفى ؟*

وسُوَيد[2] بن أبى كاهل، صاحب :

* بَسَطَتْ رابعةُ الحبلَ لنا *

والأسود بن يَعْفُر ، صاحب :

* نام الخلىُّ فما أحسُّ رقادى *

وله شعر كثير ، إلا أنه لا ينتهى إلى قصيدته هذه .

وكان امرؤ القيس مُقِلاًّ ، كثير المعانى والتصرف، لا يصح له إلا نيف وعشرون شعراً بين طويل وقطعة ، ولا ترى شاعراً يكاد يُفْلِتُ من حبائله ، وهذه زيادة فى فضله وتقديمه .

---

(١) كان فى الأصول « الأشعر بن حمدان » وهو خطأ من ثلاثة أوجه : الأول أنه « الأسعر » بالسين مهملة ، والثانى أن اسم أبيه « أبو حمران » بتقديم الأب وبالراء مهملة ، والتصويب عن القاموس وشرحه ، والأسعر لقبه ، واسمه مرثد ، وإنما لقب بذلك لقوله :

فلا تدعنى الأقوام من آل مالك إذا أنا لم أسعر عليهم وأثقب

(٢) فى الأصول «وسهيل » وهو واضح الخطأ .

معنى المغلب في الشعراء

وأما المغلبون فنهم نابغة بني جَعْدَةَ ، ومعنى المغلب : الذي لا يزال مغلوباً .
قال امرؤ القيس :

فإنَّكَ لم يَفْخَرْ عليكَ كَفاخرٍ ضعيفٍ ، ولم يغلبكَ مثلُ مغلَّبِ

يعني أنه إذا قدر لم يُبق، فإذا قالوا : غَلَّبَ فلان فهو الغالب . وقد غلبَ على

النابغة الجعدي

الجعدي أوسُ بن مَغْرَاء القريعي ، وغُلِّبت عليه ليلى الأخيلية ، قال[١] الجمحي :
وقد غلب عليه مَنْ لم يكن إليه في الشعر ولا قريباً منه : عقال بن خويلد[٢] العقيلي
وكان مفحماً بكلام لا بشعر ، وهجاهُ سوَّار بن أوفى القشيري ، وهاجاه وفاخره[٣]
الأخطل ، وله يقول عُبَيْد بن حُصَين الراعي يتوعده :

فإني زعيمٌ أن أقولَ قصيدةً مبينةً كالنقب بين المخارم
خفيفةَ أعجازِ المطيِّ ، ثقيـــلة على قربها ، نزَّالةً بالمواسم

وقد علم الكافة ما صنع جرير بالأخطل والراعي جميعاً ، وقيل : إن موت
الجعدي كان بسبب ليلى الأخيلية : فر من بين يديها فمات في الطريق مسافراً ،
والأصح أنها هي التي ماتت في طلبه . قال الجمحي : كان النابغة الجعدي أقدم
من الذبياني ؛ لأنه أدرك المنذر بن مُحَرِّق ، ويشهد بذلك قوله :

تذكرتُ والذكرى تهيج على الفتى ومن عادةِ المحزونِ أن يتذكرا
نداماي عنـــد المنذرِ بن محرِّق فأصبحَ منهم ظاهرُ الأرضِ مقفرا

والذبياني إنما أدرك النعمان ، وقال غيره : إن النابغة الذبياني شفع عنـد

---

(١) انظر طبقات الشعراء (ص ٤٤)
(٢) في الطبقات « بن خالد »
(٣) في الطبقات : « وهجاه سوار بن أوفى القشيري وفاخره، وهجاه الأخطل بأخرة » ، ولعل ما في الأصل محرف عن ذلك .

الحارث بن أبى شمر الغسانى حين قتل المنذر فى أسارى بنى أسد فشفعه ، وإياه عنى علقمة بن عبدة بقوله :

وفى كل حىّ قد خَبَطْتَ بنعمة فحق لشاسٍ من نَدَاكَ ذَنُوبُ

قال الجمحى : وكان الجَعْدِىُّ مختلف الشعر ، سئل عنه الفرزدق فقال : مَثَلُه مثل صاحب الخُلْقَان : ترى عنده ثوب عصب ، وثوب خز ، وإلى جنبه شَمْلَة[1] كساء . وكان الأصمعى يمدحه بهذا ، وينسبه إلى قلة التكلف ، فيقول : عنده خمار بِوَافٍ ، ومُطْرَف بآلاف ـ بواف : يعنى بدرهم وثلث .

من المغلبين الزبرقان بن بدر

ومن المغلبين الزبرقان ، غلبه عمرو بن الأهتم ، وغلبه المخبل السعدى ، وغلبهُ الحطيئة ، وقد أجاب الاثنين ولم يجب الحطيئة .

وقال يونس بن حبيب : كان البعيث مغلباً فى الشعر ، غلاباً فى الخطب .

ذكر جماعة من المغلبين

ومنهم تميم بن أبى [بن] مقبل : هجاه النجاشى فقهره وغلب عليه ، حتى استعدى قومُه عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه ، ولم يكن من أشكاله فى الشعر فيقرن به ، وهاجى النجاشىُّ عبد الرحمن بن حسان فغلبه عبدُ الرحمن وأفحمه .

وحدثنا أبو عبد الله محمد بن جعفر ، قال : هجا الأعور بن براء بنى كعب ، ومدح قومه بنى كلاب ، فأتت بنو كعب تميم بن أبى [بن] مقبل ينتصرون عليه به ، فقال : لا أهجوهم ، ولكنى أقول فاروا فقد جاءكم الشعر ، وقال :

ولستُ وإن شاحنتُ بعضَ عشيرتى لأذكُرَ ما الكهلُ الكلابىُّ ذاكرُ

فكم لىَ من أمٍّ لعبتُ بثديها كلابيَّةٍ عادتْ عليها الأواصرُ

فأتت الأعور بن براء بنو كعب فعنفوه ورجعوا عليه ، فقال :

ولستُ بشاتمٍ كعباً ، ولكن على كعبٍ وشاعرِها السلامُ

---

(١) فى الطبقات « سمل كساء » .

ولستُ ببائعٍ قوماً بقــــومٍ هم الأنفُ المقدَّم والسنامُ
وكائنْ فى المعاشر من قَبيل أخوهم فوقهم وهُمُ كرام

فتسالما ، وكان سبب ذلك إغضاء ابن مقبل وإعطاؤه المَقَادة هرباً من الهجاء ، وقوم يرون ذلك منه أنفة .

جماعة من مغلبى المولدين

ومن مغلبى المولدين ــ على جلالته ، وتقدمه ــ بشار بن برد ، فإن حماد عجرد ــ وليس من رجاله ، ولا أكفائه ــ هجاه فأبكاه ، ومَثّل به أشد تمثيل .

وعلى بن الجهم : هاجى أبا السِّمْطِ مَروان بن أبى الجنوب فغلبه مروان ، وهاجاه البحترى فغلب عليه أيضاً ، على أن علياً أقذع منه لساناً ، وأسبق إلى ما يريده من ذلك ، وأقدم سناً .

ومنهم حبيب : هاجى السراج وعتبة[1] فما أتى بشىء ، وهجاه ابن المعذَّل حين أراد وجهته فقال : أما هذا فقد كفى ناحيته ، ولم يقدم عليه ، على أن حبيباً أطول منه ذكراً وأبعد صوتاً فى الشعر ، والذى قال له :

أنتَ بين اثنتين ، تبرز للنا س لكلتيهما بوجه مذال
لستَ تنفكُّ طالباً لوصال من حبيب أو راغباً فى نوال
أىُّ ماء لحرّ وجهك يبقى بين ذلِّ الهوى وذلِّ السؤال ؟

ورأيت فى شعر ابن المعذل فى رواية المبرد أن عبد الصمد اجتمع بحبيب عند بعض بنى هاشم ، فكتب فى رقعة هذه الأبيات المذكورة وألقاها إليه ، وهاجى دعبلا فاستطال عليه دعبل أيضاً .

---

(١) كان أبو تمام يهجو عبد الله الكاتب ، وعتبة بن أبى عاصم ، ومقران المباركى ، وعياش بن لهيعة ، وأبا المغيث موسى بن إبراهيم الرافقى ، ويوسف السراج .

(١٦) ــ باب من رغب من الشعراء عن ملاحاة غير الأكفاء

الزبرقان ابن بدر

منهم الزِّبْرِقانُ بن بدر: لمـّا هجاه المخبَّلُ السَّعْدِيُّ جاوبه بعتاب؛ لأنه رآه أهلا لذلك من أجل شرف بيته وجلالته فى نفسه، فلما هجاه الحطيئة لم يره مكافئاً للجواب، على أنه ابن عمه وجاره فى النسب لأنهما جميعاً من مضر، بل استعدى عليه عمر رضى الله عنه فأنصفه.

سحيم بن وثيل

وسُحيم بن وَثيل يقول للأحوص والأبيرد بن[١] المعذَّرِ ــ وهما شاعران مفلقان، وقال عبد الكريم: الأبيرد ابن أخى الأحوص:

عَذَرْتُ البُزْلَ إن هى خاطَرَتْني ... فما بالى وبالُ ابْنَيْ لَبُونِ!

فأنت ترى هذا الاحتقار.

الفرزدق وعمر بن لجأ

ومثل هذا ــ وإن لم يكن من هذا الباب بحتاً ــ قولُ الفرزدق لعمر بن لجأ لما أعانه الفرزدق على جرير بشعر، وفطن له جرير، فدهش عمر ولم يجد جواباً، فقال الفرزدق حين بلغه ذلك يستضعفه ويستوهن عز

وما أنتَ إن قَرْما تميمٍ تساميا ... أخا التيم إلا كالوشيظة فى العظم

فلو كُنْتَ مولى العزِّ أوفى طلابه ... ظلمتَ ولكن لا يدَيْ لك بالظلم

الفرزدق والطرماح

والفرزدق قال فيه الطرماح من شعر هجا فيه بيوتَ بنى سعد[٢]:

واسأل فقيرة بالمرّوت هل شهدت ... شوطَ الحطيئة بين الكَسْر والنضَدِ

أو كان فى غالب شعر فيشبهَهُ ... شِعْرُ ابنه فينال الشعر من صدد

جاءتْ به نطفةً من شرِّ ماءِ صرى ... سيقت إلى شر واد شقَّ فى بلد

(١) فى المطبوعتين « ابنى المعذر » وهو واضح الخطأ؛ فإن الأحوص هو أبو محمد الأحوص بن عبد الله بن ثابت بن أبى الأقلح، من بنى ضبيعة بن زيد ثم من الأوس. والأبيرد: هو الأبيرد بن المعذر بن عبد قيس الرياحى، من رياح بن يربوع، ويظهر أن المؤلف يقصد إلى ما اعتبرناه خطأ ولكنه بحيث ترى

(٢) فى التونسية: « بيوت معد »

فقال الفرزدق يتهاون بأمره و يستحقره :

إن الطرمّاح يهجونى لأرفعهُ   أيهات أيهات عيلت دونه القضب

« عيلت دونه القضب » أى : رفعت عنه القصائد ، من قولهم : عالت الفريضة ، أى : ارتفعت ، والقضيب : القصيدة لأنها تقتضب .

جرير وبشار

وجرير هجاه بشار بن برد بأشعار كثيرة فلم يجبه ، قال بشار : ولم أهجه لأغلبه ، ولكن ليجيبنى فأكون من طبقته ، ولو هجانى لكنت أشعر الناس .

بشار وحماد

وهجا حمادُ عجرد بشاراً ، فلم يجبه أنفةً واحتقاراً ، إلى أن قال فيه :

له مقلةٌ عمياء واستٌ بصيرةٌ   إلى الأير ، من تحتِ الثياب تُشيرُ

على وده أنَّ الحميرَ تنيكه   وأن جميع العالمينَ حميرُ

فغضب وهجاه . قال الجاحظ : ما كان ينبغى لبشار أن يضاد حماد عجرد من جهة الشعر ؛ لأن حماداً فى الحضيض و بشاراً فى العيُّوق ، وليس مولد قروى يعدله شعر فى المحدث إلا و بشار أشعر منه ، ولا نعلم مولداً بعد بشار أشعر من أبى نواس .

ابن الرومى والبحترى

وهجا ابن الرومى البحترى ، وابن الرومى من علمت ، فأهدى إليه تخت متاع وكيس دراهم ، وكتب إليه ليريه أن الهدية ليست تَقِيَّةً منه، ولكن رقة عليه، وأنه لم يحمله على ما فعل إلا الفقر والحسد المفرط :

شاعرٌ لا أهابه   نَبَحَتْنى كلابه

إنَّ مَنْ لا أُعِزُّه   لَعزيزٌ جوابه

أبو تمام ومخلد بن بكار

وأبو تمام : هجاه دعبل وغيره من الأكفاء فجاوبهم ، وابتدأ بعضهم ، ولم يلتفت إلى مخلد بن بكار الموصلى حين قال فيه (وكانت فى حبيب حبسة شديدة إذا تكلم) :

يا نبيّ الله فى الشعـــر ويا عيسى بن مريم
أنت من أشعر خلق الله مالم تتكلم

وقال فيه أشعاراً كثيرة منها :

أُنظرْ إليــه وإلى خبثه كيف تطايا وهو منشور
ويحك من دلاّك فى نسبة قلبك منها الدهرَ مذعور
إن ذكرت طالا على فرسخ أظلم فى ناظرك النـــور

بل رآه دون المهاجاة والجواب ، ولو هجاه لشرفت حالُه ونَبُهَ [1] ذكره .

المتنبى وابن حجاج

وكذلك فعل المتنبى حين بلى بحماقات ابن حجاج البغدادى : سكت عنه اطّراحاً واحتقاراً ، ولو أجابه لما كان بحيث هو من الأنفة والكبر ؛ لأنه ليس من أنداده ، ولا من طبقته .

ابن هانى وشعراء إفريقية

ولما وصل أبو القاسم بن هانىء إلى إفريقية هجاهُ الشعراء ، فقال : لا أجيب منهم أحداً إلا أن يهجونى علىّ التونسى فإنى أجيبه ، فلما بلغ قوله علياً قال : أما إنى لو كنت ألأم الناس ما هجوته بعد أن شرفنى على أصحابى وجعلنى من بينهم كفئًا له .

ومن الشعراء من يتزيّا بالكبر ، ويظهر الأنفة فى الجواب عن هجاء من هو مثله أو فوقه خوفًا من الزِّرَاية على نفسه ، كما وقع من جماعة أعرفهم من أهل عصرنا ، وهم يتسرّعون إلى أعراض السوقة والباعة ، ويستفحلون على الصبيان وَمَنْ ليس من أهل الصناعة ، ولو كانت لهم أنفة ـ كما يزعمون ـ إلا عن الأكفاء لكانوا عمن لا يحسن شيئًا بالجملة ولا يُعدُّ فى الخاصة أشدَّ تنزهاً .

من الشعراء من لا يهجو

ومنهم من لا يهجو كفئًا ولا غيره ؛ لما فى الهجو من سوء الأثر ، وقبح

(١) فى المصريتين والتونسية « وانتبه ذكره »

السمعة : كالذى يحكى عن العجاج أنه قيل له : لم لا تهجو ؟ فقال : ولم أهجو ؟ إن لنا أحسابا تمنعنا من أن نُظلَم ، وأحلاما تمنعنا من أن نَظْلِمَ ، وهل رأيتم بانياً لا يحسن أن يَهْدِم ؟ ثم قال : أتعلمون أنى أحسن أن أمدح ؟ قالوا : نعم ، قال : أفلا أحسن أن أجعل مكان « أصلحك الله » « قبحك الله » ومكان « حياك الله » « أخزاك الله » . وقد رد ابن قتيبة هذا القول على العجاج بأن الهجاء أيضاً بناء ، وليس كل بانٍ لضرب بانياً لغيره . ورده الجاحظ بأن من الشعراء من لا يجيد فناً من الشعر ، وإن أجاد فناً غيره ، كما يوجد ذلك فى كل صناعة . ومعنى الجاحظ وابن قتيبة واحد ، وإن اختلف اللفظان ، والصواب ما قالا إلا أن يُعْرف من الشاعر أَنَفٌ عن قدرة لا تدفع ، وبعد تجربة لا تُستراب ، فحينئذ . وسئل نصيب عن مثل ذلك فقال : إنما الناس أحد ثلاثة : رجل لم أعرض لسؤاله فما وجه ذمه ، ورجل سألته فأعطانى فالمدح أولى به من الهجاء ، ورجل سألته فحرمنى فأنا بالهجاء أولى منه ، وهذا كلام عاقل منصف ، لو أخذ به الشعراء أنفسهم لاستراحوا واستراح الناس .

وقد كان فى زماننا من انتحل هذا المذهب ، وهو أبو محمد عبد الكريم ابن إبراهيم ، لم يَهْجُ أحداً قط . ومن أناشيده فى كتابه المشهور ، لغيره[١] من الشعراء :

ولستُ بهاجٍ فى القِرَى أهلَ منزلٍ ... على زادِهم أَبْكى وَأُبْكى البواكيا

فإما كرامٌ مُوسِرُونَ أتيتهم ... فحسبيَ مِن ذو عندهم ما كفانيا

وإما كرامُ معسرونَ عذرتهم ... وإما لئـــامٌ فادَّخَرْتُ حيائيا

وهذا مثل كلام نصيب فى المنثور الذى تقدم ، وإنما ذكرت هؤلاء لأنهم

(١) الأبيات لمنظور بن سحيم الفقعسى والبيت الثانى من شواهد النحاة على مجىء « ذو » موصولة بمعنى الذى ، وأنها مبنية ، وليست معربة كذى بمعنى صاحب التى من الأسماء الخمسة .

يمدحون ولا يرضون بالهجاء ، وأما مَنْ لا يمدح فأحْرَى أن لا يهجو أحداً ، على أن منهم من لم يقل قَطُّ إلا هجواً أو شبيهاً به : كيحيي بن نوفل ، ذكره دِعْبِلُ في طبقاته ، ونجدُ له من أهل عصرنا نُظَراء عِدَّة .

(١٧) — باب في الشعراء والشعر

طبقات الشعراء أربع

طبقات الشعراء أربع : جاهلي قديم ، ومُخَضْرَمٌ ، وهو الذي أدرك الجاهلية والإسلام ، وإسلامي ، ومُحْدَث . ثم صار المحدَثون طبقات : أولى وثانية على التدريج ، وهكذا في الهبوط إلى وقتنا هـذا ، فليعلم المتأخر مقدار ما بقي له من الشعر فيتصفح بمقدار من قبله لينظركم بين المخضرم والجاهلي ، وبين الإسلامي والمُخَضْرَم ، وأن المحدَث الأول ـ فضلا عمن دونه ـ دونهم في المنزلة ، على أنه أغْمَضُ مسلـكا وأرقُّ حاشية ، فإذا رأى أنه ساقة الساقة تحفظ على نفسه ، وعلم من أين يُؤْتَى ، ولم تَغْرُرْهُ حلاوة لفظه ، ولا رشاقة معناه ، ففي الجاهلية والإسلام من ذهب بكل حلاوة ورشاقة ، وسبق إلى كل طلاوة ولباقة .

اشتقاق المخضرم

قال أبو الحسن الأخفش : يقال : ماء خِضْرِمٌ ، إذا تناهى في الـكثرة والسَّعَة ، فمنه سمي الرجل الذي شهد الجاهلية والإسلامَ مُخَضْرَماً ، كأنه استوفى الأمرين ، قال : ويقال : أذُنٌ مُخَضْرَمَةٌ ، إذا كانت مقطوعة ، فكأنه انقطع عن الجاهلية إلى الاسلام .

وحكى ابن قتيبة عن عبد الرحمن[1] عن عمه ، قال : أسلم قوم في الجاهلية على إبل قطعوا آذانها ، فسمى كل من أدرك الجاهلية والإسلام مُخَضْرَماً ، وزعم أنه لا يكون مخضرماً حتى يكون إسلامه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وقد أدركه كبيراً ولم يُسْلِمْ ، وهذا عندي خطأ ؛ لأن النابغة الجعدي ولبيداً قد وقع عليهما هذا الاسم ، وأما عليُّ بن الحسين كراع فقد حكى : شاعر محضرم ـ بحاء

(١) عبد الرحمن : هو ابن أخي الأصمعي ، فعمه الأصمعي .

غير معجمة ـ مأخوذ من الحضرمة ، وهى الخلط ؛ لأنه خلط الجاهلية بالإسلام .

الشعراء أربعة

وأنشد بعض العلماء ولم يذكر قائله[1] :

الشعراء فاعْلَمَنَّ أرْبَعَــهْ   فشاعرٌ لا يُرْتجى لمنفعه

وشاعرٌ يُنْشِد وسط المجمعه   وشاعر آخر لا يجرى معه

وشاعر يقالُ خمر فى دعه

وهكذا رويتها عن أبى محمد عبد العزيز بن أبى سهل رحمه الله ، وبعض الناس يرويها على خلاف هذا .

وقد قيل : لا يزال المرء مستوراً وفى مَنْدُوحة ما لم يصنع شعراً أو يؤلف كتاباً ؛ لأن شعره تَرْجُمان علمه ، وتأليفه عنوان عقله .

وقال الجاحظ : من صنع شعراً أو وضع كتاباً فقد استهدف ؛ فإن أحْسَنَ فقد استعطف ، وإن أساء فقد استقذف .

قال حسان [بن ثابت] ، وما أدراك ما هو ؟ :

أشعر بيت

وإن أشعرَ بيتٍ أنت قائله   بيتٌ يقال إذا أنشدته : صَدَقَا

وإنما الشعر لبّ المرء يعرضه   على المجالس إن كيساً وإن حمقا

وقال محمد بن مُنَاذر وكان إماماً :

لا تقلْ شعــــرا ولا تَهْمُمْ به   وإذا ما قلت شعــــراً فأجِدْ

وقال شيطان الشعراء دعبل بن على :

سأقضى ببيت يَحمد الناسُ أمره   ويَكثرُ من أهل الروايات حامِلُهْ

يموت رَدِئُ الشعر من قبل أهله   وَجَيِّدُه يبقى وإن مات قائله

بيان الشعراء الأربعة

وقالوا : الشعراء أربعة : شاعر خِنْذِيذ ، وهو الذى يجمع إلى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره ، وسئل رؤبة عن الفحولة ، قال : هم الرواة ؛ وشاعر

(١) تنسب هذه الأبيات للحطيئة .

مُفْلِق ، وهو الذى لا رواية له إلاّ أنه مجوِّد كالخنذيذ فى شعره ؛ وشاعر فقط ، وهو فوق الردىء بدرجـــة ؛ وشُعْرُورٌ ، وهو لا شىء . قال بعض الشعراء لآخر هجاه :

يا رابع الشعراء كيف هَجَوْتَنِى   وزعمتَ أنى مُفْحَمٌ لا أنطق

وقيل : بل هم شاعرٌ مفلقٌ ، وشاعرٌ مطلقٌ ، وشُوَيعرٌ ، وشـعرورٌ ، والمفلقُ : هو الذى يأتى فى شعره بالفَلَقِ ، وهو العجب ، وقيل : الفَلَق الداهية

قال[1] الأصمعى : فالشويعر مثل محمد بن حمران بن أبى حمران ، سماه بذلك امرؤ القيس ، ومثل عبد العزّى المعروف بالشويعر ، وهو الذى يقول :

فَنلتُ به ثأرى ، وأدركت ثورتى   إذا ما تناسى ذَحْلَهُ كل غيهب

وهو الضعيف عن طلب ثأره ، وروى بالغين معجمة وبالعين غير معجمة .

قال[2] الجاحظ : والشوَيعر أيضاً [صفوان بن[3]] عبد ياليل من بنى سعد ابن ليث ، وقيل : اسمه ربيعة بن عثمان ، وهو القائل :

وأفلتنا أبو ليـلى طفيلٌ   صحيحَ الجلدِ من أثر السلاح

وقال بعضهم : شاعر ، وشويعر ، وشعرور .

وقال العبدى فى شاعر يدعى المفوف من بنى ضبة ثم من بنى حَميس :

ألا تنهى سَراةُ بنى حَميسٍ   شُوَيْعِرَها فُوَيْلِيةَ الأفاعى

فسماه شويعراً ، و«فالية الأفاعى» : دوَيبة فوق الخنفساء ، فصغرها أيضاً تحقيراً له

وزعم الحاتمى أن النابغة سئل : مَنْ أشعر الناس ؟ فقال : من استُجِيدَ جيده ، وأضحك رديئه ، وهـذا كلام يستحيل مثله عن النابغة ؛ لأنه إذا

(١ ، ٢) انظر هذه العبارة بنفسها فى البيان والتبيين (ج ٢ ص ٩) .

(٣) الزيادة عن البيان والتبيين .

أضحك رديئُه كان من سِفْلَةِ الشعراء ، إلا أن يكون ذلك فى الهجاء خاصة ، وقال الحطيئة :

الشعرُ صَعْبٌ وطَوِيل سُلَّمه والشعرُ لا يستطيعه من يظْلِمُهُ
إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه زلتْ به إلى الحضيص قَدَمهْ
يريد أن يعربه فيعجمه

بم سمى الشاعر شاعرا ؟

وإنما سمى الشاعر شاعراً ؛ لأنه يَشْعُرُ بما لا يشعر به[1] غيره ، فإذا لم يكن عند الشاعر توليدُ معنى ولا اختراعه ، أو استظراف لفظ وابتداعه ، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعانى ، أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ ، أو صَرْف معنى إلى وجه عن وجه آخر ؛ كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة ، ولم يكن له إلا فضل الوزن ، وليس بفضل عندى مع التقصير..

ولقى رجل آخر فقال له : إن الشعراء ثلاثة : شاعر ، وشويعر ، وماصّ بَظْرَ أمه ، فأيهم أنت ؟ قال : أما أنا فشويعر ، واخْتَصِمْ أنت وامرؤ القيس فى الباقى .

وقال بعضهم : الشعر شعران : جيد محكك ، وردىء مضحك ، ولا شىء أثقل من الشعر الوسط والغناء الوسط .

ابن الرومى يهجو شاعرا

وقد قال ابن الرومى يهجو ابن طيفور :

عدمتك يا ابن أبى الطاهر وأُطعمت ثُكْلَكَ من شاعر
فما أنتَ سُخْنٌ ولا بارد وما بينَ ذين سوى الفاتر
وأنت كذاك تُغَثِّى النفو سَ تغثية الفاتر الخاثر

وقد يجوز أن يكون النابغة أشار -فيما حكى عنه الحاتمى من الردىء المضحك- إلى هذا النحو .

(١) فى نسخة « بما لا يشعر له »

صعوبة عمل الشعر

وقيل : عملُ الشعرِ على الحاذق به أشدُّ من نقل الصخر ، ويقال : إن الشعر كالبحر أهون ما يكون على الجاهل أهول ما يكون على العالم ، وأتعب أصحابه قلباً مَنْ عرفه حق معرفته ، وأهل صناعة الشعر أبصر به من العلماء بآلته من نحو وغريب ومَثَل وخَبَر وما أشبه ذلك ولو كانوا دونهم بدرجات ، وكيف إن قاربوهم أو كانوا منهم بسبب ؟

نقدة الشعر أبصر به

وقد كان أبو عمرو بن العلاء وأصحابه لا يجرون مع خلف الأحمر فى حَلْبَةِ هذه الصناعة ـ أعنى النقد ـ ولا يشقون له غباراً ، لنفاذه فيها ، وحذقه بها ، وإجادته لها

وقد يميز الشعر من لا يقوله ، كالبزاز يميز من الثياب مالم ينسجه ، والصيرفى يخبر من الدنانير مالم يسبكه ولا ضرَبه ، حتى إنه ليعرف مقدار ما فيه من الغش وغيره فينقص قيمته .

وحكى أن رجلا قال لخلف الأحمر : ما أبالى إذا سمعت شعراً استحسنتُه ما قلتَ أنتَ وأصحابك فيه !! فقال له : إذا أخذت درهما تستحسنه وقال لك الصيرفى إنه ردىء هل ينفعك استحسانكَ إياه ؟ .

وقيل للمفضل الضبى : لم لا تقول الشعر وأنت أعلم الناس به ؟ قال : علمى به هو الذى يمنعنى من قوله ، وأنشد :

وقد يقرض الشعرَ البكىُّ لسانهُ ... وتُعْيِى القوافى المرء وَهْوَ لبيب

والشعر مزلّة العقول ، وذلك أن أحداً ما صنعه قط فكتمه ولو كان رديئا ، وإنما ذلك لسروره به ، وإكباره إياه ، وهذه زيادة فى فصل الشعر ، وتنبيه على قدره وحسن موقعه من كل نفس .

من شعر الأصمعى

وقال الأصمعى على تقدمه فى الرواية وميزه بالشعر :

أبى الشعر إلا أن يفىء رديئه ... علىَّ ، ويأبى منه ما كان محكما

فياليتنى ـ إذ لم أُجِدْ حَوْكَ وشْيِهِ ... ولم أكُ من فرسانه ـ كنت مُفْحَمَا

الشعر أربعة أصناف

وقال عبد الكريم : الشعر [أربعة] أصناف : فشعر هو خير كله ، وذلك ما كان فى باب الزهد ، والمواعظ الحسنة ، والمثل العائد على من تمثل به بالخير ، وما أشبه ذلك ؛ وشعر هو ظرف كله ، وذلك القول فى الأوصاف ، والنعوت والتشبيه ، وما يفتنُّ به من المعانى والآداب ؛ وشعر هو شر كُلُّهُ ، وذلك الهجاء ، وما تَسَرَّعَ به الشاعر إلى أعراض الناس؛ وشعر يتكسب به ، وذلك أن يحمل إلى كل سوق ما يَنفقُ فيها ، ويخاطب كل إنسان من حيث هو ، ويأتى إليه من جهة فهمه .

وذكر الجمحى فى الشعراء المقاحم والثنيان قال : والمقحم : الذى يقتحم سنًّا إلى أخرى ، وليس بالبازل ولا المستحكم ، وأنشد لأوس بن حجر :

وقد رام بَحْرِى قبل ذلك طامياً   من الشعراء كل عَوْد ومقحم

قال : والثنيان : الواهن العاجز ، وأنشد لأوس بن مَغْرَاء :

ترى ثنَاَنا ــ إذا ما جاء ــ بَدْأَهم   وبدؤهم إن أتانا كان ثنيانا

قال غيره : الثنيان : الذى ليس بالرئيس ، بل هو دونه ، وأنشدوا لنابغة بنى ذبيان يخاطب يزيد بن الصَّعِق :

يَصُدُّ الشاعر الثنيان عــنى   صدود البِكْرِ عن قَرْم هِجَان

الشعر صناعة وثقافة

قال الجمحى : وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهلُ العلم كسائر أصناف العلم والصناعات : منها ما تثقفه العين ، ومنها ما تثقفه الأذن ، ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما يثقفه اللسان ، من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يعرف بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يُبصره ، ومن ذلك الْجَهبذة بالدينار والدرهم لا تعرف جودتهما بلون ولا مَسّ ولا طراوة ولا دنس ولا صفة ، ويعرفه الناقد عند المعاينة فيعرف بهْرَجَها وزائفها وستوقها ومفرَغها ، ومنه البصر بأنواع المتاع وضروبه وصنوفه مع تشابه لونه ومسه وذَرْعه واختلاف بلاده حتى يَرُدّ كل صنف منها إلى بلده الذى

خرج منه ، وكذلك بصر الرقيق فتوصف الجارية فيقال : ناصعة اللون ، جيدة الشطب ، نقية الثغر ، حسنة العين والأنف ، جيدة النهدين ، ظريفة اللسان ، واردة الشّعر ، فتكون بهــــذه الصفة بمائة دينار و بمائتى دينار ، وتكون أخرى بألف دينار وألفى دينار ؛ ولكن لا يجد واصفها مزيدا على هذه الصفة ؛ وتوصف الدابة فيقال : خفيف العنان ، لين الظهر ، جيد الحافر ، فتى السن ، نقى من العيوب ؛ فيكون بخمسين ديناراً أو نحوها ، وتكون أخرى بمائتى دينار وأكثر ، تكون هذه صفتها ، ويقال للرجل والمرأة فى القراءة والغناء : إنه لندِى الحلْقِ ، حسن الصوت ، طويل النفَس ، مصيب اللحن ، ويوصف الآخر والأخرى بهذه الصفة و بينهما بَوْنٌ بعيد، يعرف ذلك أهل العلم به [عند المعاينة والاستماع ، بلا صفة ينتهى إليها ، ولا علم يُوقف عليه، وإن كثرة المدارسة للشيء لتعين على العلم به][1] ، وكذلك الشعر يعرفه أهْـلُ العلم به .

وسمعت بعض الحذاق يقول : ليس للجودة فى الشعر صفة ، إنما هو شىء يقع فى النفس عند المميز : كالفِرِنْدِ فى السيف، والملاحة فى الوجه ،وهذا راجع إلى قول الجمحى ، بل هو بعينه ، و إنما فيه فضلُ الأختصار .

١٨ — باب حد الشعر و بنيته

حد الشعر

الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء ، وهى : اللفظ ، والوزن ، والمعنى ، والقافية ، فهذا هو حَدُّ الشعر ؛ لأن من الكلام موزوناً مقفّى وليس بشعر؛ لعدم القصد والنية ، كأشياء اتزنت من القرآن ، ومن كلام النبى صلى الله عليه وسلم ،

(١) هذه العبارة كلها ساقطة من التونسية .

وغير ذلك مما لم يطلق عليه أنه شعر ، والمتزن : ما عرض على الوزن فقبله ، فكأن الفعل صار له ، ولهذه العلة سمى ما جرى هذا المجرى من الأفعال فعل مُطَاوعة ، هذا هو الصحيح ، وعند طائفة من أصحاب الجدل أن المنفعل والمفتعل لا فاعل لهما، نحو : شَوَيْتُ اللحم فهو مُنْشَوٍ ومُشْتَوٍ ، وبنيت الحائط فهو مُنْبَنٍ ، ووزنت الدينار فهو مُتَّزِن ، وهذا محال لا يصح مثله فى العقول ، وهو يؤدى إلى مالا حاجة لنا به ، ومعاذ الله أن يكون مراد القوم فى ذلك إلا المجاز والاتساع ، وإلا فليس هذا مما يغلط فيه مَن رقّ ذهنه وصفا خاطره ، وإنما جئت بهذا الفصل احتجاجاً على مَن زعم أن المتزن غير داخل فى الموزون ، وإذا لم يعرض المتزن على الوزن فيوجد موزوناً فمن أين يعلم أنه متزن ؟ وكيف يقع عليه هذا الاسم ؟

أركان الشعر — وقال بعض العلماء بهذا الشأن : بنى الشعر على أربعة أركان ، وهى : المدح ، والهجاء ، والنسيب ، والرثاء .

قواعد الشعر — وقالوا : قواعد الشعر أربع : الرغبة ، والرهبة ، والطرب ، والغضب : فمع الرغبة يكون المدح والشكر ، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموُجِع .

أغراض الشعر — وقال الرمانى على بن عيسى : أكثر ما تجرى عليه أغراض الشعر خمسة : النسيب ، والمدح ، والهجاء ، والفخر ، والوصف ، ويدخل التشبيه والاستعارة [فى] باب الوصف .

وقال عبد الملك بن مروان لأرطاة بن سُهَيَّة : أتقول الشعر اليوم ؟ فقال : والله ما أطرب ، ولا أغضب ، ولا أشرب ، ولا أرغب ، وإنما يجىء الشعر عند إحداهن . قال أبو على البَصِيرُ :

مدحتُ الأميرَ الفتحَ أطلبُ عُرْفَهُ وهـــل يستزاد قائل وهو راغب
فأفنى فُنُونَ الشعر وهي كثيرةٌ وما فنيت آثاره والمنـــاقبُ

فجعل الرغبة غاية لا مزيد عليها .

وقال عبدالكريم : يجمع أصناف الشعر أربعة : المديح، والهجاء ، والحكمة، واللهو ، ثم يتفرع من كل صـــنف من ذلك فنون ؛ فيكون من المديح المراثى والافتخار والشكر ، ويكون من الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء ، و[يكون] من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ ، ويكون من اللهو الغزل والطرد وصفة الخمر والخمور .

وقال قوم : الشعر كله نوعان : مدحٌ ، وهجاء ؛ فإلى المدح يرجع الرثاء ، والافتخار ، والتشبيب ، وما تعلق بذلك من محمود الوصف : كصفات الطلول والآثار ، والتشبيهات الحسان ، وكذلك تحسين الأخلاق : كالأمثال ، والحكم ، والمواعظ ، والزهد فى الدنيا ، والقناعة ، والهجاء ضدُّ ذلك كله ، غير أن العتاب حالٌ بين حالين ؛ فهو طرف لكل واحد منهما ، وكذلك الإغراء ليس بمدح ولا هجاء ؛ لأنك لا تغرى بإنسان فتقول : إنه حقير ولا ذليل ، إلاَّ كان عليك وعلى المغرى الدركُ ، ولا تقصد أيضاً بمدحه الثناء عليه فيكون ذلك على وجهه .

تشبيه بيت الشعر ببيت البناء

والبيت من الشعر كالبيت من الأبنية : قراره الطبع ، وسمكه الرواية ، ودعائمه العلم ، وبابهُ الدُّرْبة ، وساكنه المعنى ، ولا خير فى بيت غير مسكون ، وصارت الأعاريض والقوافى كالموازين والأمثلة للأبنية ، أو كالأواخِىِّ والأوتاد للأخبية ، فأما ما سوى ذلك من محاسن الشعر فإنما هو زينة مستأنفة ولو لم تكن لاستغنىَ عنها .

رأى الجرجانى

قال القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى صاحبُ كتاب الوَسَاطة : الشعر

علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدُّرْبَةُ مادة له ، وقوة لكل واحد من أسبابه ؛ فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، و بقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان . وقال : ولست أفضل فى هذه القضية بين القديم والمحدث ، والجاهلى والمخضرم ، والأعرابى والمولد ، إلا أنى أرى حاجة المحدث إلى الرواية أمَسَّ ، وأجده إلى كثرة الحفظ أفقر ، فإذا استكشفت عن هذه الحال وجدت سببها والعلة فيها أن المطبوع الذكى[1] لا يمكنه تناول ألفاظ العربى إلا روايةً ، ولا طريق إلى الرواية إلا السمع ، وملاك السمع الحفظ .

رأى دعبل

قال دِعبل فى كتابه : مَن أراد المديح فبالرغبة ، ومن أراد الهجاء فبالبغضاء ، ومن أراد التشبيب فبالشوق والعشق ، ومن أراد المعاتبة فبالاستبطاء ؛ فقسَّم الشعر كما ترى هذه الأقسام الأربعة ، وكان الرثاء عنده من باب المدح على ما قدمت ، إلا أنه جعل العتاب بدلا منه .

آراء مختلفة

وقال غير واحد من العلماء : الشعر ما اشتمل على المَثَلِ السائر ، والاستعارة الرائعة ، والتشبيه الواقع ، وما سوى ذلك فإنما لقائله فضل الوزن .

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى : قلت لأعرابى : من أشعر الناس ؟ قال : الذى إذا قال أسرع ، و إذا أسرع أبدع ، و إذا تكلم أسمع ، و إذا مدح رفَعَ ، و إذا هجا وضَعَ .

وسئل بعض أهل الأدب : من أشعر الناس ؟ فقال : من أكرهك شعره على هَجْو دويك ومدح أعاديك ، يريد الذى تستحسنه فتحفظ منه ما فيه عليك وَصْمَة ، وخلاف للشهوة ، وهذا [ذَوْبُ] قول أبى الطيب :

وَأَسْمَعُ من ألفاظه اللُّغَةَ التِى ... يَلَذُّ بهاسَمْعِى ولو ضُمِّنَتْ شَتْمِى

(١) فى المصريتين المطبوعتين « الذى » وما أبعده من الصواب ! !

أخذه من قول أبي تمام :

فإن أنا لم يمدحكَ عَنِّيَ صاغراً عدوُّك فاعلم أننى غَيْرُ حامد

وأُتبِّعه البحترى فى ذلك فقال :

لَيُو اصِلَنَّكَ رَكْبُ شعرى سائراً يرويه فيك لِحُسْنِهِ الأعداء

وقال عبد الصمد بن المعذل : الشعر كله فى ثلاث لفظات ، وليس كل إنسان يحسن تأليفها : فإذا مدحت قلت أنت ، و إذا هجوت قلت لست ، و إذا رثيت قلت كنت .

وقال بعض النقاد : أصغر الشعر الرثاء ؛ لأنه لا يعمل رغبة ولا رهبة .

قال ابن قتيبة : قال أحمد بن يوسف الكاتب لأبي يعقوب الخرَيمى : أنت فى مدائحك لمحمد بن منصور كاتب البرامكة أشعر منك فى مراثيك له ، فقال : كنا يومئذ نعمل على الرجاء ، ونحن [نعمل] اليوم على الوفاء .

قال صاحب الكتاب : ومن هذا المنثور — والله أعلم — سرق البصير بيته المتقدم فى الفتح بن خاقان(١) .

وقيل لبعضهم : ما أحسن الشعر ؟ فقال . ما أَعْطَى القِيَادَ ، و بلغ المراد .

وقال أبو عبد الله وزير المهدى : خير الشعر ما فهمته العامة ، ورضيته الخاصة.

وسمعت بعض الشيوخ يقول : قال الحذاق : لو كانت البلاغة فى التطويل ما سبق إليها أبو نُوَاس والبحترى .

وقال بعض الحذاق من المتعقبين : أشعر الناس من تخلص فى مدح امرأة ورثائها.

وقال ابن المعتز : قيل لمعتوه : ما أحسن الشعر ؟ قال : ما لم يحجبه عن القلب شيء .

---

(١) هما بيتان سبقا فى أول ص ١٢١ .

(١٩) — باب فى اللفظ والمعنى

الارتباط بين المعنى واللفظ

اللفظ جسم ، وروحُه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم : يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختلَّ بعضُ اللفظ كان نقصاً للشعر وهُجْنة عليه ، كما يعرض لبعض الأجسام من العَرَج والشَّلَل والعَوَر وما أشبه ذلك ، من غير أن تذهب الروح ، وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ ، كالذى يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح ، ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ ، وَجَرْيه فيه على غير الواجب ، قياساً على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح ، فإن اختل المعنى كلهُ وفسد بقى اللفظ مَوَاتاً لا فائدة فيه ، وإن كان حسن الطلاوة فى السمع ، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شىء فى رأى العين ، إلا أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة ، وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى ؛ لأنا لا نجد روحاً فى غير جسم البتة .

أيهما آثر ؟

ثم للناس فيما بعد آراء ومذاهب : منهم من يؤثر اللفظ على المعنى فيجعله غايتَهُ ووُكْده ، وهم فرق : قومٌ يذهبون إلى فخامة الكلام وجَزَالته ، على مذهب العرب من غير تصنع ، كقول بشار :

إذا ما غضبنا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً هتكنا حجاب الشمسِ أو قطرتْ دما
إذا ما أعرنا سَيِّداً من قبيلة ذُرَى مِنبَرٍ صلَّى علينا وَسلما

وهذا النوع أدل على القوة ، وأشبه بما وقع فيه من موضع الافتخار ، وكذلك ما مدح به الملوك يجب أن يكون من هذا النحت .

رأى فى ابن هانى

وفرقة أصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل معنى إلا القليل النادر : كأبى القاسم ابن هانىء ومن جرى مجراه ؛ فإنه يقول أول مذهبته :

أصاخت فقالت : وَقْع أجْرَد شَيْظم وشامت فقالت : لمع أبيض مِخْذَم[١]
وما ذُعِرَتْ إلاَّ لِجَرْسِ حُلِيِّها ولا رَمَقَتْ إلاَّ بُرًى فى مخدَّم[٢]

ولَيْس تحت هذا كله إلا الفسادُ ، وخلافُ المراد ، ماالذى يفيدنا أن تكون هـذه المنسوب بها لبست حليها فتوهمته بعد الإصاخة والرَّمْقِ وَقْعَ فرس أولمع سيف ؟ غير أنها مغزوة فى دارها ، أو جاهلة بما حملته من زينتها ، ولم يخف عنا مراده أنها كانت تترقبه !! فما هذا كله ؟ وكانت عند أبى القاسم مع طبعه صنعة ، فإذا أخذ فى الحلاوة والرقة ، وعمل بطبعه وعلى سجيته ؛ أشبه الناس ، ودخل فى جملة الفضلاء ؛ وإذا تكلف الفخامة ، وسلك طريق الصنعة أضَرَّ بنفسه ،وأتعب سامع شعره . ويقع له من الكلام المصنوع والمطبوع فى الأحايين أشياء جيدة ، كقوله فى المطبوع يصف شجعاناً :

لايأكل السِّرْحَانُشِلْوَ عقيرهم[٣] مما عليـــه من القَنَا المتكسر

« العقير » ههنا منهم ، أى : لم يمت لشجاعته حتى تحطم عليه من الرماح مالا يصل معه الذئب إليه كثرة ، ولو كان العقير هو الذى عقروه هم لـكان البيت هجواً ؛ لأنه كان يصفهم بالضعف والتكاثر على واحد . وقوله فى المصنوع :

وجنيتم ثمـــرَ الوقائع يانعاً بالنصر من ورق الحديد الأخضر[٤]

فهذا كله جيد بديع ، وقد زاد فيه على قول البحترى :

---

(١) الأجرد : أراد به الفرس القصير الشعر و« شيظم » أى : طويل الجسم ، ومخذم ، أراد به السيف القاطع

(٢) الذى فى ديوان « من مخدم » والمخدم : محل الخلخال

(٣) فى الديوان « شلوطعينهم » والمعنى واحد

(٤) فى الديوان « بالنصر من ورق إلخ » .

حملت حمائله القديمة بقلةً من عهد عاد غضة لم تَذْبُلِ

ويروى :

* من عهد تبع *

من يؤثر سهولة اللفظ

ومنهم من ذهب إلى سهولة اللفظ فعُنِيَ بها ، واغتفر له فيها الركاكة واللين المفرط : كأبي العتاهية ، وعباس بن الأحنف ، ومَنْ تابعهما ، وهم يرون الغاية قول أبي العتاهية :

يا إخوتى ، إن الهوى قاتلى فيسِّروا الأكفان من عاجل

ولا تلوموا فى أتباع الهوى فإننى فى شُغُلٍ شاغل

عينى على عتبةَ مُنْهَلَّةٌ بدمعها المُنْسَكِبِ السائل

يامن رأى قبلى قتيلاً بكى من شدة الوجدِ على القاتل

بَسَطْتُ كفى نحوكم سائلا ماذا تردون على السائل ؟

إن لم تنيلوه فقولوا له قولا جميلا بَدَلَ النائل

أو كنتمُ العام على عُسْرة منه فَمَنُّوهُ إلى قابل

رأى فى أبى العتاهية

وقد ذكر أن أبا العتاهية وأبا نواس والحسين بن الضحاك الخليع اجتمعوا يوماً، فقال أبو نُوَاس : لينشد كل واحد قصيدة لنفسه فى مراده من غير مدح ولا هجاء ، فأنشد أبو العتاهية هذه القصيدة ، فسلما له وامتنعا من الإنشاد بعده ، وقالا له : أما مع سهولة هذه الألفاظ ، وملاحة هذا القصد ، وحسن هذه الإشارات ؛ فلا ننشد شيئا ، وذلك فى بابه من الغزل جيد أيضاً لا يفضله غيره .

من يؤثر المعنى

ومنهم من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ، ولا يبالى حيث وقع من هُجْنة اللفظ وقبحه وخشونته : كابن الرومى ، وأبى الطيب ، ومن شاكلهما : هؤلاء المطبوعون ، فأما المتصنعون فسيرد عليك ذكرهم إن شاء الله تعالى .

حجة من آثر اللفظ

وأكثر الناس على تفضيل اللفظ على المعنى ، سمعتُ بعض الحذاق يقول : قال العلماء : اللفظ أغلى من المعنى ثمناً ، وأعظم قيمة ، وأعز مطلبا ؛ فإن المعانى موجودة فى طباع الناس ، يستوى الجاهل فيها والحاذق ، ولكن العمل على جَوْدة الألفاظ ، وحسن السبك ، وصحة التأليف ، ألا ترى لو أن رجلا أراد فى المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبهه فى الجود بالغيث والبحر ، وفى الإقدام بالأسد ، وفى المَضاء بالسيف ، وفى العزم بالسيل ، وفى الحسن بالشمس ، فإن لم يحسن تركيب هذه المعانى فى أحسن حُلاها من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة والعذوبة والطلاوة والسهولة والحلاوة لم يكن المعنى قَدْر .

وبعضهم ــ وأظنه ابن وكيع ــ مثل المعنى بالصورة ، واللفظ بالكُسْوَة ؛ فإن لم تقابل الصورة الحسناء بما يشاكلها ويليق بها من اللباس فقد بخست حقها ، وتضاءلت فى عين مبصرها .

وقال عبد الكريم ــ وكان يؤثر اللفظ على المعنى كثيراً فى شعره وتآليفه ــ : الكلام الجزل أغنى عن المعانى اللطيفة [مِنَ المعانى اللطيفة] عن الكلام الجزل ، وإنما حكاه ونقله نقلا عمن روى عنه النحاس .

ومن كلام عبد الكريم : قال بعض الحذاق : المعنى مثال ، واللفظ حَذْوٌ ، والحذْوُ يتبع المثال ؛ فيتغير بتغيره ، ويثبت بثباته .

ومنه قول العباس بن حسن العَلوى فى صفة بليغ : معانيه قَوَالِبُ لألفاظه ، هكذا حكى عبد الكريم ، وهو الذى يقتضيه شرط كلامه ، ثم خالف فى موضع آخر فقال : ألفاظه قوالب لمعانيه ، وقوافيه مُعَدّة لمبانيه ، والسجع يشهد بهذه الرواية الأخرى ، وهى أعرف .

والقالب يكون وعاء كالذى تفرغ فيه الأوانى ، ويعمل به اللَّبِنُ والآجُرُّ ،

وقد يكون قدراً للوعاء كالذى يقام به اللوالك[1]، وتصلح عليه الأخفاف، ويكون مثالا كالذى تحذَى عليه النعال، وتفصل عليه القلانس، فلهذا احتمل القالب أن يكون لفظًا مرةً ومعنى مرةً .

للشعراء ألفاظ معروفة

وللشعراء ألفاظ معروفة ، وأمثلةٌ مألوفة ، لا ينبغى للشاعر أن يعدوها ، ولا أن يَستعمل غيرها ، كما أن الكتّاب اصطلحوا على ألفاظ بأعيانها سموها الكتابية لا يتجاوزونها إلى سواها، إلا أن يريد شاعر أن يتظرَّف باستعمال لفظ أعجمىٍّ فيستعمله فى النُّدْرَة ، وعلى سبيل الخَطْرَة ، كما فعل الأعشى قديمًا ، وأبو نواس حديثًا ، فلا بأس بذلك ، والفلسفة وجرُّ الأخبار باب آخر غير الشعرِ ؛ فإن وقع فيه شىء منهما فبقدر ، ولا يجب أن يُجْعَلَا نُصْبَ العين فيكونا متكئًا واستراحة ، وإنما الشعر ما أطرب ، وهزّ النفوس ، وحرّك الطباع ، فهذا هو باب الشعر الذى وضع له ، وبنى عليه ، لا ما سواه .

ومن مُلَح الكلام على اللفظ والمعنى ما حكاه أبو منصور عبد الملك بنُ إسماعيل الثعالبى ، قال : البليغ مَنْ يحوك الكلام على حسب الأمانى ، ويخيط الألفاظَ على قدود المعانى .

وقال غيره : الألفاظ فى الأسماع كالصور فى الأبصار .

وقال أبو عبادة البحترى[2] :

وكأنها والسمع معقودٌ بها ... وَجْهُ الحبيب بَدَا لِعَيْنِ مُحِبِّهِ

---

(١) فى التونسية « الأوالد » .

(٢) البيت فى وصف آثار قلم الممدوح من قصيدة يمدح فيها الحسن بن وهب ، وأولها قوله :

من سائل لمعذل عن خطبه ... أو صافح لمقصر عن ذنبه

وقبل البيت قوله :

وإذا دجت أقلامه ثم انتحت ... برقت مصابيح الدجى فى كتبه

باللفظ يقرب فهمه فى بعده ... منا ، ويبعد نيله فى قربه

كالروض مؤتلقا بحمرة نوره ... وبياض زهرته وخضرة عشبه

(٢٠) — باب فى المطبوع والمصنوع

حد المطبوع والمصنوع

ومن الشعر مطبوع ومصنوع ، فالمطبوع هو الأصل الذى وضع أولا ، وعليه المَدَار . والمصنوع و إن وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفاً تكلف أشعار المولدين ، لكن وقع فيه هذا النوع الذى سموه صنعة من غير قصد ولا تَعَمُّل ، لكن بطباع القوم عفواً ، فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل ، بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره ، حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف : يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفا من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملها فى ساعة أو ليلة ، ورُبما رَصَدَ أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك ، والعرب لا تنظر فى أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل ، فتترك لفظة للفظة ، أو معنى لمعنى ، كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرها فى فصاحة الكلام وجَزَالته ، و بسط المعنى و إبرازه ، و إتقان بنية الشعر ، و إحكام عقد القوافى ، وتلاحم الكلام بعضه ببعض حتى عَدُّوا من فضل صنعة الحطيئة حسنَ نسقِهِ الكلامَ بعضه على بعض فى قوله :

فلا وأبيك ما ظلمتْ قُرَيعٌ ... بأن يبنوا المكارم حيث شاءوا
ولا وأبيك ما ظلمت قُرَيع ... ولا بَرِمُوا لذاك ولا أساءوا
بعَثْرَةِ جارهم أن ينعشوها ... فيغبر حوله نعمٌ وشاء
فيبنى مجـــدهُمْ و يقيم فيها ... و يمشى إن أريد به المُشَاء
و إن الجارَ مثلُ الضيف يغدو ... لوِجهته و إن طالَ الثَّوَاء
و إنى قد علقتُ بحبل قوم ... أعانهمُ على الحسب الثراء

وكذلك قول أبى ذؤيب يصف حمر الوحش والصائد :

فوَرَدنَ والعَيُّوقُ مَقْعَدَ رابِىء الـــضُّرَبَاء خَلْفَ النجم لا يَتَتَلَّعُ
فكَرَعْنَ فى حَجَرات عذبٍ بارد ... حَصِبِ البطاح تغيب فيه الأكْرُعُ

فشربن ثم سمعن حساً دونه شَرَفَ الحجاب، وريب قَرع يقرع
فنكرنه فنفرن فامترست به هوجاء هادية وهادٍ جُرْشُعُ
فرمى فأنفذ من نَحُوصٍ عائطٍ سهما فخرّ وريشه متصمِّعُ
فبدا له أقراب هادٍ رائغاً عنه فعيّث فى الكنانة يُرْجِع
فرمى فألحق صاعديًّا مِطْحَراً بالكشح فاشتملت عليه الأضلع
فأبَدَّهُنَّ حتوفهن فهاربٌ بذمائه أو باركٌ متجعجع

فأنت ترى هذا النسق بالفاء كيف اطَّرد له ، ولم ينحلّ عقده ، ولا اختلّ بناؤه ، ولولا ثقافة الشاعر ومراعاته إياه لما تمكن له هذا التمكن .

واستطرفوا ما جاء من الصنعة نحو البيت والبيتين فى القصيدة بين القصائد ، يستدل بذلك على جودة شعر الرجل ، وصدق حسه ، وصفاء خاطره ؛ فأما إذا كثر ذلك فهو عيب يشهد بخلاف الطبع ، وإيثار الكلفة ، وليس يتجه البتة أن يتأتى من الشاعر قصيدة كلها أو أكثرها متصنع من غير قصد ؛ كالذى يأتى من أشعار حبيب والبحترى وغيرهما . وقد كانا يطلبان الصنعة ويُولَعَان بها : فأما حبيب فيذهب إلى حزونة اللفظ ، وما يملأ الأسماع منه ، مع التصنيع المحكم طوعا وكرهاً ، يأتى للأشياء من بُعْد ، ويطلبها بكلفة ، ويأخذها بقوة . وأما البحترى فكان أملح صنعة ، وأحسن مذهباً فى الكلام ، يسلك منه دَمَاثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ ، لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة . وما أعلم شاعراً أكمل ولا أعجب تصنيعا من عبد الله بن المعتز ؛ فإن صنعته خفية لطيفة لا تكاد تظهر فى بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر ، وهو عندى ألطف أصحابه شعراً ، وأكثرهم بديعا وافتنانا ، وأقربهم قوافى وأوزانا ، ولا أرى وراءه غاية لطالبها فى هذا الباب ، غير أنا لا نجد المبتدىء فى طلب التصنيع ومزاولة الكلام أكثر انتفاعا منه بمطالعة شعر حبيب وشعر مسلم بن الوليد ؛ لما فيهما من الفضيلة لمبتغيها ، ولأنهما طَرَقَا إلى الصنعة ومعرفتها طريقا سابلة ، وأكثرا منها فى أشعارهما تكثيرا

رأى فى أبى تمام والبحترى

رأى فى ابن المعتز

ر ى . سلم
ابن الوليد

سَهَّلها عند الناس ، وجسَّرهم عليها . على أن مسلما أسهل شعراً من حبيب ، وأقل تكلفا ، وهو أول من تكلف البديع من المولدين ، وأخذ نفسه بالصنعة ، وأكثر منها ولم يكن فى الأشعار المحدثة قبل مسلم صريع [الغوانى] إلا النبذ اليسيرة ، وهو زُهَيْر المولدين : كان يبطىء فى صنعته وتجيدها .

أول من فتق البديع

وقالوا : أول من فتق البديع من المحدثين بشار بن برد ، وابن هَرْمَةَ ، وهو ساقة العرب وآخر من يستشهد بشعره . ثم أتبعهما مقتديا بهما كلثوم بن عمرو العَتَّابى ، ومنصور النمرى ، ومسلم بن الوليد ، وأبو نواس . واتبع هؤلاء حبيب الطائى ، والوليد البحترى ، وعبد الله بن المعتز ؛ فانتهى علم البديع والصنعة إليه ، وختم به . وشبه قوم أبا نواس بالنابغة لما اجتمع له من الجزالة مع الرشاقة ، وحسن الديباجة ، والمعرفة بمدح الملوك . وأما بشار فقد شبهوه بامرىء القيس ؛ لتقدمه على المولدين وأخذهم عنه ، ومن كلامهم : بشار أبو المحدثين .

الأعشى وبشار

وسمعت أبا عبد الله غير مرة يقول : إنما سمى الأعشى صَنَّاجة العرب لأنه أول من ذكر الصنج فى شعره . قال : ويقال : بل سمى صناجة لقوة طبعه ، وحلية شعره ، يخيل لك إذا أنشدته أن آخرَ ينشد معك . ومثله من المولدين بشار بن برد ، تنشد أقصر شعره عروضا وألينه كلاما فتجد له فى نفسك هزة وحلاوة من قوة الطبع ؛ وقد أشبهه تصرفا وضربا فى الشعر وكثرة عروض مدحا وهجاء وافتخارا وتطويلا . انقضى كلام أبى عبد الله ورجعنا إلى القول فى الطبع والتصنيع .

متى يكون التصنيع مقبولا

واستقر فى أن البيت إذا وقع مطبوعا فى غاية الجودة ثم وقع فى معناه بيت مصنوع فى نهاية الحسن لم تؤثر فيه الكلفة ولا ظهر عليه التعمل كان المصنوع أفضلهما ، إلا أنه إذا توالى ذلك وكثر لم يجز البتة أن يكون طبعا واتفاقا ؛ إذ ليس ذلك فى طباع البشر . وسبيل الحاذق بهذه الصناعة — إذا غلب عليه حب التصنيع — أن يترك للطبع مجالا يتسع فيه ، وقيل : إذا كان الشاعر

مصنعا بان(١) جيده من سائر شعره : كأبى تمام؛ فصار محصورا معروفا بأعيانه ، وإذا كان الطبع غالبا عليه لم يبن جيده كل البينونة ، وكان قريبا من قريب : كالبحترى ومَنْ شاكله . وقد نص ابن الرومى فى بعض تسطيراته على محمد بن أبى حكيم الشاعر حين عاب عليه قوله فى الفرس من قصيدة رثى بها عبد الله بن طاهر :

فله شهامة سودنيق باكر وحوافرٌ حُفْرٌ ورأسٌ صنتع

وذكر قول حبيب :

بحوافر حفر وصُلْبٍ صُلَّبِ(٢)

فحفل به ، واعتذر له ، وخَرَّج التخاريج الحسان ، وذكر أن الحافر الوأب والحافر المقعب ونحوهما أشرف فى اللفظ من الحافر الأحفر ، إلا أن الطائى عنده كان يطلب المعنى ولا يبالى باللفظ ، حتى لو تم له المعنى بلفظة نبطية لأتى بها ، والذى أراه أن ابن الرومى أبصر بحبيب وغيره منا ، وأن التسليم له والرجوع إليه أحزم ، غير أننى لو شئت أن أقول ــ ولست راداً عليه ، ولا معترضاً بين يديه ــ إن المعنى الذى أراده وأشار إليه من جهة الطائى إنما هو معنى الصنعة كالتطبيق والتجنيس وما أشبههما ، لا معنى الكلام الذى هو روحه ، وإن اللفظ الذى ذكر أنه لا يبالى به إنما هو فصيح الكلام ومستعمله ، ويدلك على صحة ما ادعيته على ابن الرومى قوله «إن الحافر الوأب والمقعب أشرف فى اللفظ من الحافر الأحفر» ؛ فكلامه راجع إلى ما قلته فى الطائى ، غير مخالف له ، وإن كان فى الظاهر على خلافه ؛ لينساغ ذلك ، إلا أن أكثر الناس على ما قال ، وإنما هذا معرض للكلام ، لا مخالفةٌ .

---

(١) فى التونسية والمصريتين « فان » ولا معنى لها ، والتصحيح من المقابلة فى كلام المؤلف .

(٢) هذا صدر بيت من قصيدة له يمدح فيها الحسن بن وهب (الديوان ٢١١ بيروت) والبيت بتمامه مع بيت سابق عليه قوله :

ما مقرب يختال فى أشطانه ملآن من صلف به وتلهوق
بحوافر حفر وصلب صلب وأشاعر شعر وخلق أخلق

رأى الجاحظ فيما يجب أن يكون الكلام عليه

وقال الجاحظ : كما لا ينبغى أن يكون اللفظ عامياً، ولا ساقطاً سُوقياً؛ فكذلك لا ينبغى أن يكون وَحْشياً ، إلا أن يكون المتكلم به بدوياً أعرابياً ؛ فإن الوحشى من الكلام يفهمه الوحشى من الناس ، كما يفهم السوقى رَطَانة السوقى .

قال: وأنشد رجل قوماً شعراً فاستغربوه ، فقال : والله ماهو بغريب ، ولكنكم فى الأدب غرباء .

وعن غيره : أن رجلا قال للطائى فى مجلس حفل وأراد تبكيته لما أنشد : يا أبا تمام ، لم لا تقول من الشعر ما يفهم ؟ فقال له : وأنت لم لا تفهم من الشعر ما يقال ؟ ففضحه .

[ويروى أن هذه الحكاية كانت مع أبى العَمَيْثَل وصاحبين له خاطباه فأجابهما][1]

موازنة بين المتنبى والطائى

وقال بعض من نظر بين أبى تمام وأبى الطيب : إنما حبيب كالقاضى العدل : يضع اللفظة موضعها ، ويعطى المعنى حقه ، بعد طول النظر والبحث عن البينة ، أو كالفقيه الورع : يتَحَرّى فى كلامه ويتحرج خوفاً على دينه . وأبو الطيب كالملك الجبار : يأخذ ما حوله قهراً وعنوة ، أو كالشجاع الجرىء : يهجم على ما يريده لا يبالى مالقى ، ولا حيث وقع .

عبيد الشعر

وكان الأصمعى يقول : زهير والنابغة من عبيد الشعر ، يريد أنهما يتكلفان إصلاحه ويشغلان به حواسهما وخواطرهما .

ومن أصحابهما فى التنقيح وفى التثقيف والتحكيك طُفَيْلٌ الغَنَوِى . وقد قيل: إن زهيراً روى له ، وكان يسمى « محبراً » لحسن شعره .

ومنهم الحطيئة ، والنمر بن تَوْلَب ، وكان يسميه أبو عمرو بن العلاء الكَيِّسَ .

وكان بعض الحذاق بالكلام يقول : قُلْ من الشعر ما يخدمك ، ولا تَقُلْ منه ما تخدمه ، وهذا هو معنى قول الأصمعى ، وسأحلى هذا الباب من كلام السيد

---

(١) هذه الزيادة ساقطة من التونسية .

من شعر أبي الحسن

أبي الحسن بحلية تكون له زينة فائقة ، وأختمه بخاتمة تكسوه حلة رائقة ؛ لأوفى بذلك بعض ما ضمنت ، وأقضى به حق ما شرطت ، إن شاء الله .

فمن ذلك قوله بتاهَرْتَ سنة خمس وأربعمائة يتشوق إلى أهله :

ولى كبد مكلومة من فراقكم أطامنها صبراً على ما أجنّتِ
تمنّتكم شوقا إليكم وصبوةً عسى الله أن يدنى لها ما تمنّتِ
وعينٌ جفاها النومُ واعتادها البكى إذا عنَّ ذكرُ القيروان استهلتِ

فلو أن أعرابياً تذكر نجداً فحنّ به إلى الوطن ، أو تشوق فيه إلى بعض السَّكَن ؛ ما حسبته يزيد على ما أتى به هذا المولّد الحضرى المتأخر العصر ، وما انحط بهذا التمييز فى هَوَاىَ ، ولا أتنفقُ بهذا القول عند مولاى ، ولا الخديعة مما تظن به ، ولا فيه ، ولكن رأيت وجه الحق فعرفته ، والحق لا يتلثم ، وما هو فى بلاغته وإيجازه إلا كما قال الأحيمر السعدى فى وصيته :

من القول ما يكفى المصيب قليلهُ ومنه الذى لا يكتفى الدهرَ قائلُهْ
يصد عن المعنى فيترك ما نحا ويذهبُ فى التقصير منه يطاولُهْ
فلا تك مكثاراً تزيد على الذى عنيتَ به فى خطب أمرٍ تزاولُهْ

(٣١) — باب فى الأوزان

الوزن ركن الشعر المهم

الوزن أعظم أركان حد الشعر ، وأولاها به خصوصية ، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة ، إلا أن تختلف القوافى فيكون ذلك عيباً فى التقفية لا فى الوزن ، وقد لا يكون عيبا نحو المخمسات وما شاكلها .

المطبوع يستغنى عن معرفة الوزن

والمطبوع مستغن بطبعه عن معرفة الأوزان ، وأسمائها ، وعللها ؛ لنبُوّ ذوقه عن المزاحَف منها والمستكره . والضعيف الطبع محتاج إلى معرفة شىء من ذلك يعينه على ما يحاوله من هذا الشأن

وللناس فى ذلك كتب مشهورة ، وتواليف مفردة ، وبينهم فيه اختلاف ، وليس كتابى هذا يحتمل شرح ذلك ، ولا هو من شرطه ؛ فراراً من التكرار والتطويل ، ولكنى أذكر نُتَفاً يحتاج إليها ، ويكتفى بها مَنْ نظر مِنَ المتعلمين فى هذا الكتاب ، إن شاء الله .

أول من ألف فى الموازين

فأولُ من ألف الأوزان وجمع الأعاريض والضروبَ الخليلُ بن أحمد فوضع فيها كتاباً سماه « العروض » استخفافاً ، والعروض : آخر جزء من القسم الأول من البيت ، وهى مؤنثة ، وتثنى وتجمع ، إلا أن يكون لهذا الجنس من العلم ، والضَّرْبُ : آخر جزء من البيت من أى وزن كان.

ثم الجوهرى

ثم ألف الناس بعده ، واختلفوا على مقادير استنباطاتهم ، حتى وصل الأمر إلى أبى نَصْر إسماعيل بن حماد الجوهرى ، فبين الأشياء وأوضحها فى اختصار ، وإلى مذهبه يذهب حُذّاق أهل الوقت ، وأرباب الصناعة : فأول ما خالف فيه أن جعل الخليل الأجزاء التى يوزن بها الشعر ثمانية : منها اثنان خماسيان ، وهما : فعولن ، وفاعلن ، وستة سباعية ، وهى : مفاعيلن ، وفاعلاتن ، ومستفعلن ، ومفاعلتن ، ومتفاعلن ، ومفعولات ، فنقص الجوهرى منها جزء مفعولات ، وأقام الدليل على أنه منقول من « مستفع لن » مفروقَ الوتِدِ ، أى : مقدم النون على اللام ؛ لأنه زعم [أنه] لو كان جزءاً صحيحا لتركب من مفرده بحر كما تركب من سائر الأجزاء . يريد أنه ليس فى الأوزان وزن انفرد به مفعولات ، ولا تكرر فى قسم منه ، وعَدَّ الخليل أجناس الأوزان فجعلها خمسة عشر جنساً ، على أنه لم يذكر المتدارك ، وهى عنده : الطويل ، والمديد ، والبسيط ، فى دائرة ؛ ثم الوافر ، والكامل ، فى دائرة ؛ ثم الهزَج ، والرجَز ، والرمَل ، فى دائرة ؛ ثم السريع ، والمنسرح ، والخفيف ، والمضارع ، والمقتَضَب ، والمجتث ، فى دائرة ؛ ثم المتقارب وحده فى دائرة .

وذكر أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاج اختلاف الناس فى ألقاب الشعر ؛ فحكى عن الخليل شيئاً أخذتُ به اختصاراً وتقليداً ؛ لأنه أول من وضع علم العروض وفتحه للناس ، وغادرتُ ما سوى ذلك من قول أبى إسحاق الزجاج وغيره لا على أن فيه تقصيراً .

علة تسمية بحور الشعر

ذكر الزجاج أن ابن دُرَيْد أخبره عن أبى حاتم عن الأخفش قال : سألت الخليل بعد أن عمل كتاب العروض : لِمَ سميتَ الطويل طويلا ؟ قال : لأنه طال بتمام أجزائه ، قلت : فالبسيط ؟ قال : لأنه انبسط عن مَدَى الطويل وجاء وسطه فَعِلُن وآخره فَعِلُن ، قلت : فالمديد ؟ قال : لتمدُّد سباعيه حول خماسيه ، قلت : فالوافر ؟ قال : لوفور أجزائه وَتِداً بوتدٍ ، قلت : فالكامل ؟ قال : لأن فيه ثلاثين حركة لم تجتمع فى غيره من الشعر ، قلت : فالهزَجُ ؟ قال : لأنه يضطرب ؛ شُبه بهزج الصوت ، قلت: فالرجز؟قال : لاضطرابه كاضطراب قوائم الناقة عندالقيام ، قلت: فالرمل؟ قال: لأنه شُبه برمل الحصير لضمّ بعضه إلى بعض ، قلت: فالسريع؟ قال : لأنه يسرع على اللسان ، قلت:فالمنسرح ؟ قال : لانسراحه وسهولته ، قلت: فالخفيف ؟ قال : لأنه أخف السباعيات ، قلت : فالمقتضب ؟ قال : لأنه اقتضب من السريع ، قلت : فالمضارع ؟ قال : لأنه ضَارَعَ المقتضب ، قلت : فالمجتثّ ؟ قال : لأنه اجتُثَّ ، أى : قطع من طويل دائرته ، قلت : فالمتقارب ؟ قال : لتقارب أجزائه ؛ لأنها خماسية كلها يشبه بعضها بعضاً .

وجعل الجوهرى هذه الأجناس اثنى عشر باباً ،على أن فيها المتدارك : سبعةٌ منها مفردات ، وخمسةٌ مركبات ، قال : فأولها المتقارب ، ثم الهزج ، والطويل بينهما مركب منهما ، ثم بعد الهزج الرمَلُ ، والمضارع بينهما ، ثم بعد الرمل الرجز ، والخفيف بينهما ، ثم بعدالرجز المتدارك ، والبسيط بينهما ، ثم بعدالمتدارك

المديد ، مركب منه ومن الرمل ، قال : ثم الوافر والكامل ، لم يتركب بينهما بحر لما فيهما من الفاصلة .

وزعم أن الخليل إنما أراد بكثرة الألقاب الشرحَ والتقريب ، قال : وإلاَّ فالسريع هو من البسيط ، والمنسرح والمقتضب من الرجز ، والمجتث من الخفيف؛ لأن كل بيت مركب من مستفعلن فهو عنده من الرجز طال أو قصر ، وكل بيت ركب من مستفعلن فاعلن فهو من البسيط طال أو قصر ، وعلى هـــذا القياس سائر المفردات والمركبات عنده . والمتدارك الذى ذكره الجوهرى مقلوب من دائرة المتقارب ، وذلك أن فعولن يخلفه فاعلن ويُخْبَنُ فيصير فَعِلن ، وشعر عمرو الجنى منه ، وهو الذى يسميه الناس اليوم الخبَب .

كيفية تقطيع الأجزاء

وليس بين العلماء اختلاف فى تقطيع الأجزاء ، وأنه يراعى فيه اللفظ دون الخط؛ فيقابل الساكن بالساكن ، والمتحرك بالمتحرك ، ويظهر حرف التضعيف ، وتسقط ألف الوصل ولام التعريف إذا لم تظهر فى دَرْج الـكلام ، وتثبت النون بدلا من التنوين ، ويعد الوصل والخروج حرفين ، وهذا هو الأصل المحقق ؛ لأن الأوزان إنما وقعت على الكلام ، والـكلام لا محالة قبل الخط ؛ لأن الألف صورة هوائية لا مستقر لها ، ولأن المضاعف يجعل حرفاً واحداً ، ولأن التنوين شكل خفى ، وليس فى جميع الأوزان ساكنان فى حَشْوِ بيت إلا فى عروض المتقارب ؛ فإن الجوهرى أنشد ، وأنشده المبرد قبله :

وَرُمْنَا القِصَاص وكان التَّقَاصُّ فَرْضاً وحتما على المســـلمين

قال الجوهرى : كأنه نوى الوقوف على الجزء ، وإلا فالجمع بين ساكنين لم يسمع به فى حشو بيت .

قال صاحب الـكتاب : إلا أن سيبويه قد أنشد :

كأنه بعد كلاَلِ الزاجر ومسحِه مرّ عقاب كاسر

بإسكان الحاء وإدغامها فى الهاء والسين قبلها ساكنة .

أجزاء التفاعيل

وجميع أجزاء الشعر تتألف من ثلاثة أشياء : سبب ، ووتد ، وفاصلة ؛ فالسبب نوعان :خفيف ، وهو متحرك بعده ساكن ، نحو : مَا ، وهلْ ، وبَلْ ، ومَنْ ، وثقيل ، وهو متحركان ، نحو : لِمَ ، وبِمَ ، إذا سألتَ ، وقد أنكره بعض المحدثين : والوَتِدُ أيضاً نوعان : مجموع ، وهو متحركان بعدهما ساكنٌ ، نحو : رَمَى ، وسَعَى ، ومفروق ، وهو ساكن بين متحركين ، نحو : قال ، وباع . والفاصلة فاصلتان : صغرى ، وهى ثلاث متحركات بعدها ساكن ، نحو : بَلَغَتْ ، وما أشبه ذلك ، وكبرى ، وهى أربع متحركات بعدها ساكن ، نحو : بلغَنِي ، وبَلَغَنَا ، وماأشبهذلك ، وهى تأتى فىجزءمن الشعر بعينه ، وهو : فَعِلَتُنْ ، ولاتأتى البتة بإجماع من الناس بين جزءين فتكون حرفين متحركين فى آخر جزء ومثلهما فى أول جزء آخرَ يليه ، ولايجتمع فى الشعر خمس متحركات البتة .

ومن الناس مَنْجعل الشعر كلهمن الأوتاد والأسباب، خاصة يركب بعضهما على بعضفتتركب الفواصل منهما، و بعض المتعقبين ـ أظنه الملقب بالحمار ـ يسمى الفاصلتين وتداً ثلاثياً ، ووتداً رباعياً ، والسبب عنده نوعان : منفصل نحو مَنْ ، ومتصل نحو لِمَنْ ؛ فاللام عنده وحدها سبب متصل ، والميم والنون سبب هو منفصل لما كان لحركة الميم نهاية وهى النون الساكنة ، ولو كانت متحركة لم تسكن نهاية .

الزحاف

وأما الزحاف فهو مايلحق أى جزء كان من الأجزاء السبعة التى جعلت موازين الشعر من نقص أو زيادة أو تقديم حرف أو تأخيره أو تسكينه ، ولا يكاد يسلم منه شعر .

ومن الزحاف ماهو أخف من التمام وأحسن ، كالذى يستحسن فى الجارية من التفاف البدن واعتدال القامة ، مثال ذلك مفاعيلن فى عروض الطويل التام تصير مَفَاعِلُن فى جميع أبياته ، وهذا هو القَبْض ، وكل ماذهب خامسه الساكن فهو مقبوض وفاعلن فى عروض البسيط التام وضربه يصير فَعِلُنْ ، وذلك هو الخَبْن ، وكل ماذهب ثانيه الساكن فهو مخبون .ومُفَاعلتن فى عروض الوافر التام

وضرب به حذفوا منه التاء والنون وأسكنوا اللام فصار مُفَاعَلْ ، فخلفه فَعُولُنْ ، وهذا هو القَطْفُ ، وليس فى الشعر مقطوف غيره . ويخف على المطبوع أبداً أن يجعل مكان مستفعلن فى الخفيف مفاعلن يظهر له أحسن .

من الزحاف ما يستحسن قليله

ومنه ــ أعنى الزحاف ــ ما يستحسن قليله دون كثيره ، كالقَبَلِ اليسير والفَلَج واللثغ[1] مثال ذلك قول خالد بن زهير الهذلى لخاله أبى ذؤيب :

لعلك إما أمُّ عمرٍو تبدلت سواكَ خليلا شاتمى تَسْتَحِيرُها[2]

فتقص سا كناً بعد كاف سواك ؛ وهو نون فَعُولن ، وهذا هو القبض ، ومن رواه « خليلا سواك » قبض الياء من مفاعيلن ، وهو أشد قليلا . ومنه مايحتمل على كره ، كالفَدَعِ والوَكَع والكَزَم[3] فى بعض الحسان ، ومثاله فى الشعر كثير وكفاك قول امرىء القيس بن حُجْر :

وتعرف فيه من أبيه شمائلا ومن خاله، ومن يزيد ، ومن حُجُرْ
سماحةَ ذا ، وبرَّ ذا ، ووفاء ذا ، ونائلَ ذا : إذا صحا ، و إذا سكرْ

فهذا أجمع العلماء بالشعر أنه ماعمل فى معناه مثله ، إلا أنه على ما تَرَاه من

---

(١) القبل ــ بفتحتين ــ إقبال سواد العين على الأنف ، أو مثل الحول ، أو حسن منه ، أو إقبال إحدى الحدقتين على الأخرى . والفلج فى الأسنان ــ بفتحتين ــ تباعد ما بين الثنايا والرباعيات ، وبابه طرب . واللثغ : أن يصير الراء لاما أو غينا أو يصير السين ثاء ، وبابه طرب أيضا .

(٢) تستحيرها : تستعطفها حتى تعود إليك ، وفى الأصول « تستجيرها » بالجيم ، وهو تصحيف ، وفى شرح السكرى « تستحيرها » بالحاء المعجمة .

(٣) الفدع ــ بفتحتين ــ اعوجاج الرسغ من اليد أو الرجل حتى ينقلب الكف أو القدم إلى إنسيها ، أو هو المشى على ظهر القدم ، أو هو ارتفاع أخمص القدم حتى لو وطىء الأفدع عصفورا لم يؤذه . والوكع ــ بفتحتين ــ إقبال الإبهام على السبابة من الرجل حتى يرى أصله خارجا كالعقدة . والكزم ــ بفتحتين ــ قصر فى الأنف والأصابع .

الزحاف المستكره ، حكى ذلك أبو عبيدة .

ومنه قبيح مردود لا تقبل النفس عليه ، كقبح الخلق واختلاف الأعضاء في الناس وسوء التركيب ، مثاله قصيدة عَبيد المشهورة :

* أقفرَ مِن أهلِهِ مَلْحُوبُ *

فإنها كادت تكون كلاماً غير موزون بعلة ولا غيرها ، حتى قال[1] بعض الناس : إنها خطبة ارتجلها فاتزن له أكثرُها .

وقال الأصمعي : الزحاف في الشعر كالرخصة في الفقه ، لا يقدمُ عليها إلا فقيه .

وينبغي للشاعر أن يركَبَ مستعمل الأعاريض ووطيئها ، وأن يستحلي الضروب ويأتي بألطفها موقعاً ، وأخفها مستمعاً ،وأن يجتنب عويصها ومستكرهها؛ فإن العويص مما يشغله ، ويمسك من عِنانه ، ويُوهِنُ قواه ، ويَفُتُّ في عضده ، ويخرجه عن مقصده .

الخرم

وقد يأتون بالخرم كثيراً ـ وهو ذهاب أول حركة من وتد الجزء الأول من البيت ـ وأكثر مايقع في البيت الأول ، وقد يقع قليلا في أول عجز البيت ، ولا يكون أبداً إلا في وتد ، وقد أنكره الخليل لقلته فلم يُجِزْهُ ، وأجازه الناس ، أنشده الجوهري :

قدَّمت رِجلاً فإن لم تزع قَدَّمْتُ ٱلأُخْرَى فنِلْتُ القرار

وأنشد أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري لامرىء القيس :

---

(١) وفيها يقول أبو العلاء المعري :

وقد يخطىء الرأي امرؤ وهو حازم * كما اختل في نظم القصيد عبيد

وعبيد : هو ابن الأبرص بن جشم بن عامر بن هر ، وانظر ديوانه المطبوع في أوربا (ص ٥) .

لقد، أنكرتنِي بعلبكُّ وأهلها وابن جريج كان فى حِمْصَ أنكرا

هكذا روايته ، ورواه غيره * ولاَبْنُ جريج * بغير خرم . فإذا اجتمع الخرم والقبض على الجزء فذلك هو الثرم ، وهو قبيحٌ . وهذان عيبان تدلك التسمية فيهما على قبحهما ؛ لأن الخرم فى الأنف ، والثرم فى الفم ، وإنما كانت العرب تأتى به لأن أحدهم يتكلم بالكلام على أنه غير شعر ، ثم يرى فيه رأياً فيصرفه إلى جهة الشعر ؛ فمن ههنا احتمل لهم وقبح على غيرهم . ألا ترى أن بعض كُتَّاب عبد الله بن طاهر عاب ذلك على أبى تمام فى قوله :

* هُنَّ عوادى يُوسُفٍ وَصَوَاحِبُهْ *

على أنه أولى الناس بمذاهب العرب .

الخزم

ويأتون بالخزم ـ بزاى معجمة ـ وهو ضد الخرم ـ بالراء غير معجمة ، الناقص منهما ناقص نقطة ، والزائد زائد نقطة ـ وليس الخزم عندهم بعيب ؛ لأن أحدهم إنما يأتى بالحرف زائداً فى أول الوزن ، إذا سقط لم يفسد المعنى ، ولا أخل به ولا بالوزن ، وربما جاء بالحرفين والثلاثة ، ولم يأتوا بأكثر من أربعة أحرف ، أنشدوا عن على بن أبى طالب رحمه الله تعالى ورضى عنه :

أُشْدُدْ حيازيمك للموت فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت إذا حلَّ بِوَادِيكا

فزاد « اشدد » بياناً للمعنى لأنه هو المراد . قال كعب بن مالك الأنصارى يرثى عثمان بن عفان رضى الله عنه :

لقد عجبتُ لقومٍ أسلموا بعد عزهم إمامَهُمُ للمنكرات وللغدرِ

فزاد «لقد» على الوزن . هكذا أنشدوه . وأنشد الزجاج ـ وزعم أصحاب الحديث أن الجن قالته :

نحن قتلنا سيدَ الخزر ج سعد بنَ عباده
رميناه بسهمين فلم نُخْطِ فؤاده

فزاد على الوزن « نحن » وأنشد الزجاج أيضاً :

* بل لم تجزعوا يا آل حرب مَجْزعاً *

فراد « بل » وأنشد أيضاً :

يا مطرَ بن خارجةَ بن مَسْلَمَ إننى أُجْفَى وتُغْلَقُ دونىَ الأبوابُ

و إنما الوزن «مطر بن خارجة» والياء والألف[1] زائدة . . ومما جاء فيه الخزم فى أول عجز البيت وأول صدره ، وهو شاذ جداً ، قول طرفة :

هل تذكرون إذ نقاتلكم إذ لا يضر معدماً عدمه

فزاد فى أول صدر البيت « هل » وزاد فى أول العجز « إذ » والبيت من قصيدته المشهورة :

أشجاك الرَّبْعُ أم قِدَمُهْ أم رماد دارس حُمَمُهْ

وقال جريبة[2] بن الأشيم أنشده أبو حاتم عن أبى زيد الأنصارى :

لقد طال إيضاعى الخدَّم لا أرى فى الناس مثلى من معد يخطب
حتى تأوبْتُ البيوتْ عشية فوضعت عنه كُورَهُ تتثاءبُ

فاللام فى «لقد» زائدة ، وصاحب هذا الشعر جاهلى قديم ، وقالت الخنساء :

أقَذًى بعينك أم بالعين عُوَّارُ أم أوحشت إذ خَلَتْ من أهلها الدار

---

(١) صوابه أن يقول « ويازائدة » .

(٢) هكذا فى بعض النسخ بالجيم والراء المهملة ، وفى بعضها « خزيمة » بخاء وزاى موحدتين ، وفى بعضها « حريثة » بحاء وراء مهملتين ، وكل هذه النسخ مخالف لما فى نوادر أبى زيد (ص ٧٢) فإن فيها « خريبة » بخاء معجمة وراء مهملة وبعد الياء باء موحدة .

فزادت ألف الاستفهام ، ولو أسقطتها لم يضر المعنى ولا الوزن شيئاً ، وروى أن أبا الحسن بن كيسان كان ينشد قول امرىء القيس :

* كأنَّ ثَبِيراً فى عَرَانين وبله *

ثما بعد ذلك بالواو فيقول : * وكأن ذُرَى رأس المجيمرِ غُدْوَةً *

* وكأنَّ السباع فيه غَرْقَى عَشِيَّةً *

معطوفا هكذا ؛ ليكون الكلام نسقاً بعضه على بعض

وقال عبد الكريم بن إبراهيم : مذهبهم فى الخزم أنه إذا كان البيت يتعلق بما بعده وَصَلُوه بتلك الزيادة بحروف العطف التى تعطف الاسم على الاسم والفعل على الفعل والجملة على الجملة ، وأخذ الخزم من خزامة الناقة ، ومن شأنهم مد الصوت فجعلوه عوضاً من الخرم الذى يحذفونه من أول البيت .

وقد قال غيره : إنما أسقطوه كأنهم يتوهمون أنه فى السكتة ؛ فلذلك جعلوه فى الوتد المجموع ؛ لأن المفروق لو أسقطوا حركته الأولى لبقى أوله ساكنا ، ولا يبتدأ بالساكن ، فيسقط أيضاً ، والسكتة لا تحتمل عندهم إلا حرفا واحداً ؛ وهذا اعتلال مليح بين جداً .

الإقعاد

ومن التزحيف فى الأوساط الإقعاد[1] ، وهو أن تذهب مثلا نون متفاعلن أو مستفعلن فى عروض الضرب الثانى من الكامل ، وتسكن اللام ، فيصير عروضه كضربه فعلاتن أو مفعولن ، كما قال الشاعر ، وهذا هو القطع عند أصحاب القوافى :

أفبعدَ مقتلِ مالكِ بن زُهَيْرٍ ترجو النساء عواقبَ الأطهار

فجاء هذا على معنى التصريع وليس به ؛ فهو عيب ، وأقبح منه قول الآخر :

---

(١) فى التونسية « الإقعاء » فى الموضعين .

إنى كَبِرْتُ وإنَّ كل كَبِيرِ   مما يضنّ به علىّ ويقـتر

لأنه أتى بالعروض دون الضرب بحرف ، لا لتوهم تصريع ولا إشكال، وإنما نذكر مثل هـذا ليجتنب إذا عرف قبحه . وجاء منه فى الطويل قول النابغة الذبيانى :

جزى الله عبساً عَبْس آل بَغِيضٍ   جزاء الـكلاب العاويات وقد فعل[1]

أنشده النحاس . وقول ضباب بن سبيع بن عوف الحنظلى :

لعمرى لقد برَّ الضبابَ بَنُوهُ   وبعض البنين حُمَّـةٌ وسُعَال

هكذا روايته بالحاء غير معجمة ، وهو الصحيح ، وبعضهم يرويه « غمة » بالغين معجمة .

وزعم الجمحى أن الإقعاد[2] لا يجوز لمولد ، وقد أتى به البحترى فى عروض الخفيف فقال يهجو شاعراً :

ليس ينفك هاجياً مَضْرُوباً   ألفَ حَدّ ومادحا مصفوعا

قياسا على قول الحارث بن حِلِّزة اليشكرى :

أسدٌ فى اللقاء ذو أشْبَالٍ   وربيعٌ إن شَنَّعَتْ غَبراء

وابن قتيبة يسمى هذا الزحاف إقواء ، وسأذكره فى أبواب القوافى إن شاء الله تعالى .

مهمات الزحاف

ومن مهمات الزحاف أربعة أشياء : ابتداء ، وهو ما كان فى أول البيت مما لا يجوز مثله فى الحشو : كالثَّلْم فى الطويل ، والعَصْب فى الوافر ، والخرم فى

---

(١) فى إحدى روايات الديوان * جزى الله عبسا والجزاء بفعله * ومن العلماء من يروى البيت بالألفاظ التى رواه المؤلف بها ولـكنه يصغر لفظ «بغيض» بضم الباء وفتح الغين وتشديد الياء مكسورة ، وعلى هذين فلا شاهد للمؤلف فيه .

(٢) فى التونسية « الإقعاء » فى الموضعين .

المزج ؛ وفصل ، وهو ما كان ملتزما فى نصف البيت الذى يسمى عروضاً ، مثل مفاعلن فى عروض الطويل ، وفعلن فى عروض المديد ، وما جرى مجراها ، هذا هو الحقيقة ، وأما ما كان من جهة التوسع والمجاز ومعنى التقريب فقد مر ذكرهما آنفا ؛ واعتماد ، وهو ما كان من الزحاف الجائز فى الحشو ولا مثل الجزء[1] الذى قبل الضرب ، كقول امرىء القيس :

أَعِنِّى على برقٍ أراه وميضِ   يضىء حبيا فى شَمَاريخَ بيضِ

فأثبت ياء « شماريخ » وهى مكان النون من فعولن ، وكان الأجود أن يسقطها بالقبض ؛ لمكان الاعتماد ؛ لأن السبب قد اعتمد على وتدين : أحدهما قبله ، والآخر بعده ، فقوى قوة ليست لغيره من الأسباب ، فحسن الزحاف فيه ، والاعتماد فى المتقارب سلامة الجزء من الزحاف ؛ وغاية ، وهو ما كان فى الضرب الذى هو جزء القافية ملتزما مخالفا للحشو : كالمقطوع والمقصور والمكسوف[2] ، والمقطوف ، وهذه أشياء لا تكون فى حشو البيت ..

قالوا : وأكثر الغايات معتل ؛ لأن الغاية إذا كانت فاعلاتن أو فعولن أو مفاعيلن فقد لزمها أن لا تحذف سواكنُ أسبابِها ؛ لأن آخر البيت لايكون متحركا ، هذه حقيقة ما ذكر ، وأما المجاز والاتساع فكثير ...

ويتصل بالغايات أنواع أخر : فمن ذلك معرفة ما يلزمه حرف المد واللين الذى هو الردف مما لا يلزمه[3] ذلك ؛ أجمع حُذَّاق أهل العلم من البصريين والكوفيين على أن كل وزن نقص من أتمِّ بنائه حرف متحرك عوض حرف

(١) هكذا فى المصريتين ، والعبارة غير مستقيمة ، وصوابها : « ما كان من الزحاف الجائز فى الحشو فى الجزء الذى قبل الضرب » .
(٢) فى الأصول كلها « والمكشوف » بالشين المعجمة ، وهو تصحيف .
(٣) كذا فى جميع الأصول ، والصواب حذف كلمة « ذلك » .

المد واللين من ذلك الحرف فلم يجىء إلا مُرْدَفاً بواو أو ياء أو ألف . ولا يحتسب في ذلك بما يقع للزحاف ، مثل مفعولن(١) فى الخفيف . ألا ترى أنه يعاقب فاعلاتن ؟ فهو لا يوجب الردف ، فإن ذهب منه أكثر من حرف متحرك أو ما يقوم مقامه ، وهو حرف ساكن مع حرف آخر متحرك ؛ لم يلزمه الردف ، و إذا التقى ساكنان ألزموه الردف : فما سقط فألزم حرف المد فعولن المحذوف في الطويل ، لم يعتدوا بالنون لما يدركها من الزحاف فكأنما ذهبت اللام فقط ، ومن المديد فاعلاتن المقصور ، ومن البسيط فعلن المقطوع . والفرق بين القطع والقصر أن القصر فى الأسباب والقطع فى الأوتاد ، وهما جميعاً ذهاب ساكن من آخر الجزء وحركة متحرك قبله ملاصقه . والردف إنما يكون عوضاً مما بعده لا مما قبله . ومن الكامل فعلات(٢) المقطوع ، ومن الرجز مفعولن(٣) المقطوع ، ومن الرمل فاعلاتن المقصور ، ومن المتقارب فعولن المقصور .

ومما التقى فيه ساكنان وألزموه الردف مستفعلان المذال فى البسيط ، وفيه اختلاف : أما من ألزمه الردف فلا لتقاء الساكنين ، أقاموا المد منهما مقام الحركة ؛ وأما من لم يلزمه الرِّدف فلأنه قد تم وزيد على تمامه . والإرداف إنما يأتى عوضاً من النقصان لا من الزيادة . وفى الكامل متفاعلان المذال ، وفى الرجز شاذ ، أنشده أبو زهرة النحوى فى كتاب العروض ، وهو :

كأننى فوق أقبَّ سَهْوَقٍ جَأْبٍ إذا عشَّرَ صَاتِى الْإِرْنَانْ(٤)

---

(١) فى جميع الأصول « مفعلن » بلا واو ، وهو غير صحيح .

(٢) أصله « متفاعلن » : حذفت النون وسكنت اللام قبلها فصار « متفاعل » فنقل إلى « فعلاتن » .

(٣) أصله « مستفعلن » فبعد حذف النون وإسكان اللام نقل إلى « مفعولن »

(٤) البيت للمرار الأسدى ، وأصل السهوق الطويل من الرجال ، وقد يستعمل فى غيرهم كما هنا . والجأب : الحمار الغليظ من حمر الوحش . والصاتى : المصوت ، والإرنان : الصوت ، وأراد الرفيع الصوت

وفى الرمل فاعلاتن وحدها ، والقول فيها كالقول فى مستفعلان المُذَال فى البسيط ، وفاعلات فى السريع ، وهو مذيّلٌ من البسيط عند الجوهرى ؛ فأما على ما عند مَنْ سواه فهو موقوف من مفعولات مطوية ـ أى ساقطة الواو ـ ومفعولات فى مشطور السريع أيضاً ، وفى مَنْهُوك المنسرح يلزمها حرف اللين ؛ فعلى هـذا إجماع الحذاق ، إلاَّ سيبويه فإنه رَخص فيـه لموافقة الوزن مُرْدفاً وغير مردف ، وأنشد قول امرىء القيس :

ولقد رحلتُ العيس ثم زجَرْتُهَا وَهْنَاً وقلتُ : عليْكِ خَيْرَ مَعَدٌّ

وقول الراجز :

* إنْ تُمنعِ اليومَ نساءٌ يُمْنَعْنْ *

بإسكان العين والنون . وكان الجرْمى والأخفش يَرَيَان هذا غلطاً من قائله، كالسناد والإكفاء ، يحكى ولا يعمل به ، إلا أن أبا نواس فى قوله :

* لا تَبْكِ لَيْلى وَلاَ تَطْرَبْ إلَى هِنْدِ *

أخذ بقول سيبويه ، وهو قليل ، والقياس الأول حسن مطرد ، وهو المختار .

المطلق والقيد من القوافى

ومن أهم أمور الغايات معرفة ما يُنشد من الشعر مطلقاً ومقيداً . قال أبو القاسم الزّجاجى وغيره من أصحاب القوافى : الشعر ثلاثة وستون ضرباً ، لا يجوز إطلاق مقيد منها إلا انـكسر الشعر ، ما خلا ثلاثة أضرب : أحدها فى الـكامل :

أَبُنَيَّ لا تَظلم بمكةَ لا الصغيرَ ولا الـكبيرْ

وهذا هو الضرب السابع يسمى مُذَالا ، و إن شئت قلت : * ولا الـكبيرا * فأطلقته وهو الضرب السادس منه يسمى المرفَّلَ ، والضرب الثانى فى الرمل وهو قول زيد الخيل :

يا بَنى الصَّيْدَاء رُدُّوا فرَسِى   إنما يُفْعَل هـــــذا بالذليلْ

وهو الضرب الثانى منه ، فإن أطلقته صار أول ضرب منـه ، والضرب الثالث فى المتقارب ، أنشد الأصمى وأبو عبيدة :

كأنى ورحلى إذا زُعتها   على جَمَزَى جَازِىءٍ بالرِّمَالْ

. غير أن سيبويه أنشد فيما يجوز تقييده وإطلاقه :

صَفِيَّةُ قومى ولا تعجزى   وبَـكِّى النساء على حَمْزَةْ

وهو من المتقارب : إن أطلق كان مجذوفا ، وإن قيد كان أبتر . وقد أنشد أبو زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصارى لعمرو بن شاس ، قال : والشعر مقيد

وما بيضة بات الظليمُ يَحُفُّها   إلى جُؤجؤ جاف بميثاء محلال

بأحسن منها يوم بطن قرَاقِرٍ   تخوض به بطن القطاة وقد سال

لطيفة طىِّ الـكشح مضمرة الحشا   هَضِيم العِناق هَوْنَةٌ غير مجبال[1]

تميل على مثل الـكَثِيبِ[2] كأنها   نقًا كلما حركْتَ جانبه مال

هذا شىء لم يذكره العروضيون ، وهو عندهم مطلق محمول على الإقواء ، كما حمل قول امرىء القيس :

أحنظل لو حاميتمُ وصبرتُمُ   لأثنيتُ خيراً صالحًا ولأرْضان

ثِيَابُ بنى عوف طَهَارى نقية   وأوجههم عنـد المشاهد غُرَّان

عوير ومن مثل العوير ورهطه   وأسعد فى ليل البلابل صفوان

فقد أصبحوا والله أصْفَاهُمُ به   أبرّ بأيْمَان[3] وأوفى بجيران

(١) فى النوادر (ص ٤١) : « هونة غير متفال »
(٢) فى النوادر « على ظهر الـكثيب » ويروى « على ظهر الضجيع » .
(٣) رواية الديوان « أبر بميثاق » .

إلا الأخفش والجرمى ؛ فإنهما يرويان هذا الشعر موقوفا ، ولا يَرَيان فيه إقواء ، وهذا عند سيبويه لا بأس به .

وقد صَوَّبَ الناسُ قولَ الخليل فى مخالفة هذا المذهب ، وأنشد بعضُ المتعقبين أظنه البازى العروضى :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

بالتقييد على أنه من الضرب المحذوف المعتمد ، قال : إلاَّ أنه يدخله عيبٌ لترك حرف اللين ، وهو كثير جداً .

وليس الابتداء والفصل والاعتماد والغاية بعلل ، ولكنها مواضع العلل ؛ فأقيم المضاف إليه مقام المضاف .

زحاف الحشو (المعاقبة)

وأما زحاف الحشو فمن أهمه معرفة المعاقبة والمراقبة : فأما المعاقبة فهى أن يتقابل سببان فى جزءين ، فهما يتعاقبان السقوط : يسقط ساكن أحدهما لثبوت ساكن الآخر ، ويثبتان جميعاً ، ولا يسقطان جميعاً ، والمعاقبة بين سببى جزءين من جميع الأوزان فى أربعة أنواع : المديد ، والرمل ، والخفيف ، والمجتَثّ ، وهو عند الجوهرى ضرب من الخفيف ، فإذا كان السبب فى أول البيت أو كان قبله وتد دخله الزحاف فهو برىء من المعاقبة ؛ إذ ليس قبله ما يعاقبه ، ولأن الوتد لا يعاقب السبب ، فإذا زوحف ثانى الجزء لمعاقبة ما بعده فهو عجز ، فإن زوحف أوّله لمعاقبة ما قبله وآخره لمعاقبة ما بعده فهما طرفان ، وياء مفاعيلن فى الطويل والهَزَج يعاقب نونها ، وكذلك سين مستفعلن فى الكامل[1] تعاقب فاءها .

المراقبة

والمراقبة : أن يتقابل السببان فى جزء واحد فيسقط ساكن أحدهما ، ولا يسقطان جميعا البتة ، وكذلك لا يثبتان جميعا ، وهى من جميع الأوزان فى المضارع والمقتضب ، والجوهرى يعدُّ المقتضب من الرجز كما قدمت ، فهى من

(١) لعله « فى الرجز » فإن الكامل « متفاعلن » وهو من سبب ثقيل وسبب خفيف بعدها وتد مجموع ، ووض كلامه فى سببين خفيفين

المضارع فى سببى مفاعيلن ـ أعنى الياء والنون ـ إما أن يأتى مفاعيلن مقبوضا أو مفاعيلن مكفوفا ، ومن المقتضب فى سببى مفعولات ـ أعنى الفاء والواو ـ إما أن تخبنَ فتصير مفاعيل[١] و إما أن تطوى فتصير[٢] فاعلات ، ولا يجوز أن يكون هذا ولا الذى قبله ـ أعنى المضارع ـ سالما البتة .

والفرق بين المراقبة والمعاقبة أن سببى المعاقبة يثبتان معاً ، وأن سببى المراقبة لا يثبتان معاً ، وأن المعاقبة فى جزءين ، إلا ما كان من مفاعيلن فى الطويل والهزج ومستفعلن فى الكامل[٣] وأن المراقبة فى جزء واحد .

وسأفرد لباقى الزحاف باباً أذكره فيه مع المشطور إن شاء الله تعالى .

ولست أحمل أحداً على ارتكاب الزحاف إلا ما خَفَّ منه وخَفِىَ ، ولو أن الخليل ـ رحمه الله ـ وضع كتاب العروض ليتكلف الناس ما فيه من الزحاف و يجعلوه مثالاً دون أن يعلموا أنها رخصة أتت بها العرب عند الضرورة لوجَبَ أن يتكلف ما صنعه من الشعر مُزَاحَفاً ليدل بذلك على علمه وفضل ما نَحَا إليه .

ولسنا نرى الزحاف الظاهر فى شعر محدث ، إلا القليل لمن لا يتهم كالبحترى ، وما أظنه كان يتعمد ذلك ، بل على سجيته ؛ لأنه كان بدو يا من قُرَى مَنْبِجَ ، ولذلك أعجب الناس به ، وكثر الغناء فى شعره ؛ استطرافا لما فيه من الحلاوة على طبع البداوة . وذكر ابن الجراح أنه من أهل قنسرين والعواصم .

وقد ذكرت ما يليق ذكره بهذا الموضع ليعرفه المتعلم إن شاء غير متكلف به

---

(١) خبنها : حذف ثانيها الساكن ، وهو الفاء ، فتصير : « معولات » فتنقل إلى « مفاعيل »

(٢) طيها : حذف رابعها الساكن ، وهو الواو ، فتصير « مفعلات » فتنقل إلى « فاعلات »

(٣) لعله « فى الرجز » فإن الكامل « متفاعلن » وهو من سبب ثقيل فسبب خفيف بعدهما وتد مجموع ، وفرض كلامه فى سببين خفيفين

شعراً إلا ما ساعده عليه الطبع ، وصحّ له فيه الذوق ؛ لأنى وجدت تكلّفَ العمل بالعلم فى كل أمر من أمور الدين أوفق ، إلا فى الشعر خاصة ؛ فإن عمله بالطبع دون العروض أجود ؛ لما فى العروض من المسامحة فى الزحاف ، وهو مما يُهَجِّنُ الشعر ، ويذهب برَوْنقه .

٢٢ — باب القوافى

منزلة القافية من الشعر

القافية شريكة الوزن فى الاختصاص بالشعر ، ولا يسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية ، هذا على [رَأْيِ] من رَأَى أن الشعر ما جاوز بيتاً واتفقت أوزانه وقوافيه ويستدلّ بأن المصرّع أدخل فى الشعر ، وأقوى من غيره ، وأما ما قد أراه فقد قدمته فى باب الأوزان .

حد القافية

واختلف الناس فى القافية ماهى؟ فقال الخليل : القافية من آخر حرف فى البيت إلى أول ساكن يليه من قبله ، مع حركة الحرف الذى قبل الساكن ، والقافية ــ على هذا المذهب ، وهو الصحيح ــ تكون مرةً بعض كلمة ، ومرة كلمة ، ومرةً كلمتين ، كقول امرىء القيس :

* كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ *[1]

فالقافية من الياء التى بعد حرف الروى فى اللفظ إلى نون « من » مع حركة الميم ، وهاتان كلمتان . وعلى وزن هذه القافية قوله :

* إذا جَاشَ فيه حَمْيُهُ غَلْىُ مِرْجَلِ *[2]

فالقافية « مِرْجل » وهى كلمة ، وعلى وزنها قولُه:

---

(١) صدر هذا البيت : * مكر مفر مقبل مدبر معا *

(٢) صدر هذا البيت : * على العقب جياش كأن اهتزامه *

* وَيَلْوِى بأثواب العَنِيفِ الْمُثَقَّلِ *(١)

فالقافية من الثاء إلى آخر البيت ، وهذا بعض كلمة . وتابعه على هذا أبو عمر الجرمىّ وأصحابه ، وهو قول مضبوط ، محقق يشهد بالعلم . وقال الأخفش : القافية آخر كلمة من البيت ، واستدلّ على صحة ذلك بأنه لو قال لك إنسان : ا كتب لى قواف قصيدة لكتبت له كلمات ، نحو : كتاب ، ولعاب ، وركاب ، وصحاب ، وما أشبه ذلك ، وهو المتعارف بين الناس اليوم ، أعنى قول الأخفش ، وكل كلمة من قوله « عل » وقوله « مِرجَلِ » وقوله « المثقل » فى شعر امرئ القيس قافية بذاتها عند الأخفش ، فعلى هذين القولين مدار الحذاق فى معرفة القافية .

ترجيح رأى الخليل

ورأىُ الخليل عندى أصوب ، وميزانه أرجح ؛ لأن الأخفش إن كان إنما فرّ من جعله القافية بعض الكلمة دون بعضها فقد نجد من القوافى ما يكون فيها حرف الروى وَحْده القافية على رأيه ، فإن وَزَنَ معه ما قبله فأقامهما مقامَ كلمة من الكلمات التى عدها قوافى كان قد شرّك [فى] القافية بعض كلمة أخرى مما قبلها ، فإذا جاز أن يشترك فى القافية كلمتان لم يمتنع أن تكون القافية بعض كلمة، مثال ذلك ماشاكل قول أبى الطيب :

طوى الجزيرة حتى جاءنى خبر   فَزِعْتُ فيه بآمالى إلى الكذب

حتى إذا لم يَدَعْ لى صدقهُ أملاً   شرقْتُ بالدمع حتى كاد يشرق بى

فالقافية فى البيت الأول على قوله « الكذب » لولا أن الألف فيه ألف وصل نابَتْ عنها لام « إلى » فإن قال : [إن] القافية فى البيت الثانى «يشرق بى» رجع ضرورة إلى مذهب الخليل وأصحابه ؛ لأن القافية عنده فى هذا البيت من الياء التى للوصل ــ وهى ههنا ضمير المتكلم ــ إلى شين « يشرق » مع حركة الياء

(١) صدر هذا البيت : *يزل الغلام الخف عن صهواته*

التى قبلها فى أول الكلمة . وإن جعل القافية باء الخفض التى فى موضع الروى وياء الضمير التى قامت مقام الوصل رجع إلى قول مَن جعل القافية حرف الروى وهو خلاف مذهبه ، وليس بشىء ؛ لأنه لو كان صحيحا لجاز فى قصيدةٍ واحدةٍ فجر ، وفجار ، وفاجر ، وفجور ، ومنفجر ، وانفجار ،ومُفَجَّر، ومتفجر ، ومفجور ، وهذا لا يكون أبداً، إلا أن الفراء يحيى بن زياد قدنصَّ فى كتاب حروف المعجم أن القافية هى حرف الروى ، واتبعه على ذلك أكثر الكوفيين : منهم أحمد ابن كَيْسَان ، وغيره ، وخالفه من أهـــل الكوفة أبو موسى الحامض ، فقال : القافية مالزم الشاعر تكراره فى آخر كل بيت . وهذا كلام مختصر مليح الظاهر ، إلا أنه إذا تأملتــه كلام الخليل[1] بعينه لا زيادة فيــه ولا نقصان .

رأى آخر فى القافية

ومن الناس مَنْ جعل القافية آخر جزء من البيت : قال أبو القاسم عبدالرحمن الزجاجى : بعض الناس من العلماء يرى أن القافية حرفان من آخر البيت ، وحكى أنهم سألوا أعرابيا وقد أنشد :

* بنَاتُ وطَّاء عَلَى خَدِّ الليل *

ما القافية ؟ فقال : « خدُّ الليل » . ولا أدرى كيف قال أبو القاسم هـذا ؟ لأن « خد الليل » كلمتان وليستا حرفين إلا اتساعا ، وهذا هو آخر جزء من البيت على قول من قاله ، ولو قال قائل : إن الأعرابى إنما أراد الياء واللام من « الليل » على مذهب مَنْ يرى القافية حرفين من آخر البيت لكان وجهاً سائغاً ؛ لأن الأعرابى لا يعرف حروف التهجى فيقول القافية ألياء واللام من «الليل» فكرر اللفظ ليفهم عنه السائل مراده .

---

(١) لا ، بل هو قول الفراء إذا تأملت بعين النصفة ؛ لأن الذى يلزمك تكراره فى آخر كل بيت هو حرف الروى ، وأما ماعداه فليس لازما بنفسه أبداً

آراء أخرى

ومنهم من جعل القافية فى الجزء الآخر من البيت ، وقال : لايسمى بيتاً من الشعر ما دام قسيا أول .

ومنهم من قال : البيت كله هو القافية ؛ لأنك لاتبنى بيتاً على أنه من الطويل ، ثم تخرج منه إلى البسيط ، ولا إلى غيره من الأوزان .

ومنهم من جعل القافية القصيدة كلها ؛ وذلك اتساع ومجاز .

لم سميت القافية

وسميت القافية قافية لأنها تقفو إثْرَ كل بيت ، وقال قوم : لأنهـا تَقْفُو أخواتها ، والأول عندى هو الوجه ؛ لأنه لو صح معنى القول الأخير لم يجز أن يسمى آخر البيت الأول قافية ؛ لأنه لم يقفُ شيئاً ، وعلى أنه يقفو أثر البيت يصح جداً ، وقال أبو موسى الحامض : هى قافية بمعنى مَقْفُوة ، مثل « ماء دافق » بمعنى مدفوق ، و « عيشة راضية » بمعنى مَرْضِية ، فكأن الشاعر يقفوها ، أى يتبعها ، وهذا قول سائغ متجه .

حروف القافية وحركاتها

وسأذكر مما يلزم القافية من الحروف والحركات مالا غنى عن ذكره فى هذا الموضع مجملا مُخْتَصَر البيان والإيضاح ، إن شاء الله تعالى .

فأقول : إن الشعر كله مطلق ومقيد ؛ فالمقيد ما كان حَرْف الروى فيـه ساكناً ، وحرف الروى الذى يقع عليه الإعراب ، و تبنى عليه القصيدة ، فيتكرر فى كل بيت و إن لم يظهر فيه الإعراب لسكونه ، وليس اختلاف إعرابه عيباً كما هو فى المطلق إقواءً ، وحركة ماقبل الروى فى المقيد خاصة دون المطلق على رأى الزجاج وأصحابه توجيهٌ ، وقال غيره : فى المطلق والمقيد جميعاً يسمى التوجيه ، ما لم يكن الشعر مُرْدَفاً ، و يجوز فى التوجيه التغيير ؛ فيكون سناداً عند بعض العلماء ، وكان الخليل يجيزه على كره من جهة الفتحة ، فأما الضمة والكسرة فهما عنده متعاقبتان كالواو والياء فى الردف ، والفتحة كالألف ، وأنشدوا :

* أحَارِ بْنَ عَمْرٍو كأنِّى خَمِرْ *

وفى القصيدة :

* وكندةُ حولى جميعاً صُبُرْ *

وفيها :

* تحرَّقتِ الأرضُ واليومُ قَرْ *

فاختلف التوجيه : بالكسر ، والضم ، والفتح . وقد سمّى ابن قُتَيْبة وأبو عبيدة وغيرهما هذا العيبَ إجازة ، إلا أن منهم من جعل الإجازة اختلاف حركة الروى فيما كان وصله هاء ساكنة خاصة ، وأنشدوا:

الحمـــدُ لله الذى يَعْفُو ويشتدُّ انتقامُهْ
فى كرهِهِمْ ورضاهُمُ لا يستطيعون اهتضامَهْ

وأنشد آخرون فى مثل ذلك ، إلا أن منهم مَنْ أطلق الهاء :

فديتُ من أنصفنى فى الهوى حتى إذا أحْكَمَهُ مَلَّهُ
آمنَ ما كنتُ ، ومن ذا الذى قَبْلى صَفَا العَيْشُ له كُلُّهُ ؟

وكان ابن الرومى يلتزم حركة ماقبل الروى فى المطلق والمقيد فى أكثر شعره اقتداراً : صنع ذلك فى قصيدته القافية فى السَّوْداء ، وفى مطولته :

* أَبَيْنَ ضُلُوعِى جَمْرَةٌ تتوقّدُ ؟ *

قال شيخنا أبو عبد الله : الإجازة ـ بالزاى معجمة ـ اختلاف حركات ما قبل الروى ، وهو مأخوذ من إجازة الحبل ، وهو : تَرَاكب قُوَاه بعضها على بعض ، فكأن هذا اختلفت قُوَى حركاته . وقد حكى ابن قتيبة عن ابن الأعرابى مثل قول أبى عبد الله ، وقال : هو مأخوذ من إجازة الحبل والوتر .

والمطلق نوعان : أحدهما : ما تبع حرفَ رويهِ وصلٌ فقط . والوصل أحد أربعة أحرف : الياء ، والواو ، والألف ، والهاء ، ينفرد كل واحد منها بالقصيدة حتى تكمل ؛ فما وَصله ياء :

قِفَا نَبْكِ من ذِكرى حَبيبٍ ومنزلِ

فبعد اللام ياء فى اللفظ ، لايقوم الوزن إلا بها ، ومما وصله واو :

أمِنَ المنون وريبها تتوجَّعُ

فبعد العين فى اللفظ واو كذلك ، ومما وصله ألف :

* أيَّتُهَا النفس أجْمِلِي جَزَعَا *

فبعد العين ألف ثابتة فى الخط ، وإنما أثبتوها دون الياء والواو لخفتها مرة وكونها عوضاً من التنوين مرة ، ومما وصله هاء :

* أشَجَاكَ الرَّبعُ أَمْ قِدَمُهْ *

وكلُّ وصلٍ ساكن ماخلا الهاء ، فإنها تكون ساكنة ومتحركة ، وسيرد عليك ذكرها إن شاء الله تعالى . . وإذا كان ما قبل الواو والياء والهاء ساكناً أو كانت مضاعفة لم تكن إلا حروف روى لا غير ؛ لأن الوصل لا يكون ما قبلها ساكنا ، ولعلة أن المقيد لا وصل له[1] فأما الألف فلا يكون ما قبلها ساكنا لأنها أخف من ذلك ؛ وإذا انفتح ما قبل الواو والياء الساكنتين لم يكونا إلا رَوِيا عند سيبويه ، وإذا انكسر ماقبلهماأوانضم كنت فيهما بالخيار ، وكذلك الألف، إذا كانت أصيلةً أنت فيها بالخيار . وأما الياء المشددة المكسور ما قبلها مع الياء المشدَّدة المفتوح ما قبلها فرأيُ القاضى أبى الفضل جعفر بن محمد فيهما أن يكون المكسور ماقبلها ردفا ويكون المفتوح ماقبلها إما ردفا لما بقى فيها من المد وإما غير ردف لذهاب أكثر المد منها ؛ فتكون على المذهب الأول مثل « قَضَيْنَا» مع « رَضِينَا » وهذا سناد ، وعلى المذهب الثانى مثل إرداف بيت وترك إرداف الآخر ، كقول حسان بن ثابت * ولاتوصِهِ * فى بيتٍ ، ثم

---

(١) فى التونسية : «لأن ما يكون ماقبله ساكنا مقيد ، والمقيد لا وصل له »

قال فى الآخر : * ولا تَعْصِهِ[1] * وهذا أيضاً سناد . وله رأى ثالث ، وهو أن تـكون الياءان لما أدغمت إحداها فى الأخرى صارتا بمنزلة حرف واحد ، وصار التزام التشديد اختياراً من الشاعر ، وإلا فترك التشديد جائز له . وهذا قول الخليل والأخفش جميعاً ، وقد أنـكره الجَرْمى وأبو سعيد السِّيرافى ، وكل هاء تحركْ ما قبلها فهى صِلَة ، إلا أن تـكون من نفس الـكلمة ؛ فإنك تـكون فيها بالخيار : إن شئت جعلتها رويا ، وإن شئت سمحت بها فصيرتها صلة والتزمت ما قبلها فجعلته رويا . وكثيراً ما يسقط الشعراء فى هذا النوع ، قال أبو الطيب :

أنا بالوشاة إذا ذكرتكَ أشبهُ تأتى الندى ويُذَاع عنك فتـكره

وإذا رأيتُكَ دون عِرض عارضا أيقنتُ أن الله يبغى نصره

فغلط فى التصريع لأنه التزام فيه الهاء ولولا ذلك لـكان البيتان رائيين وسمح بهاء « تـكره » فصيرها صلة وإن كانت من نفس الـكلمة . وقد وقع ابن المعتز فى مثل حال أبى الطيب فقال :

أفنى العـــداةَ إمامٌ ماله شَبَهُ ولا ترى مِثْلَهُ يَوْماً ولم تَرَهُ

ضارٍ إذا انقضَّ لم تُحْرَم مخالبه مُسْتَوْفِزٌ لاتّباع الحقِّ مُنْتَبِهُ

ما يحسن القطرُ أن ينهلَّ عارضهُ كما تَتَابَعُ أيام الفتـــوح لهُ

---

(١) البيتان اللذان يشير المؤلف إليهما :

إذا كنت فى حاجة مرسلا فأرسل حكيما ولا توصه

وإن باب أمر عليك التوى فشاور لبيبا ولا تعصه

غير أن نسبتهما إلى حسان بن ثابت لم تصح عندنا ؛ فإن ديوانه خال من الشعر على هذه القافية ، وسيأتى قريبا (ص ١٦٨) ذكر ذلك مرة ثانية

وقال أيضاً يصف كلاب الصيد فى أرجوزة :

إن خرطتْ من قدها لم ترها إلا وما شاءت من الصيد لَهَا
تمسكه عضا ، ولا يَدْمى به غريزةً منهن أو تَفَقُّها

ووقع بشار بن برد ــ على تقدمه عليهما ــ فى مثل ذلك ، فقال :

الله صورهــا وصيرها لاقتك أو لم تلقها ترها
نصبا لِعَيْنِكَ لا ترى حَسَناً إلا ذكرت لها به شَبَها

ولا أعلم أن أحداً من العلماء تسامح فى مثل هــذا ، بل هو عندهم عيب كالإكفاء ، وروى بيت بشار « نزها » بالنون والزاى ، جمع نزهة ، ولا عيب فيه على هذا . وهاء حمزة وطلحة لا تكون إلا صلة ، و إذا تحركت هاء التأنيث كنت فيها بالخيار : إن شئت التزمت ما قبلها وجعلتها كالصلة مجازاً ، و إن شئت التزمتها فكانت على حقها رويا . وهــذا رأيهم فى كاف المخاطب مع التأسيس : إذا شاءوا جعلوها رويا فلم يلتزم ما قبلها ، و إن شاءوا جعلوهامقام الصلة والتزموا ما قبلها مجازاً ، وهو الأجود ؛ لاختيار الشعراء إياه قديما على اتساعهم فى تركه . قال القاضى أبو الفضل : مَنْ زعم أن التاء والكاف يكونان وَصْلا فإنما حمله على ذلك أنه رأى بعض الشعراء قد لزم فى بعض شعره حرفا لم يفارقه فظن ذلك الحرف رويا . و إنما لم يجز عنده كونهما صلة لأنهما ليس فيهما من مضارعة حروف المد واللين ما فى الهاء . وقال من جعــل التاء صلة كالهاء : إنها تجىء للتأنيث مثلها ، وتكون اسما كما تكون الهاء اسما ، وتزاد كما تزاد الهاء ، و إن الهاء تنقلب تاء فى دَرْج الكلام ، وشَبَّهَ الكاف بالهاء لأنها حرف إضمار مثلها ، وأنها تكون اسما للمجرور والمنصوب كالهاء .

والنوع الآخر من المطلق ما كان لوصْلِهِ خروج ، ولا يكون ذلك الوصل إلا هاء متحركة ، نحو قول الشاعر :

والشيخُ لا يَترُكُ أخــــلاقه حَتّى يُوارى فى ثرَى رَمْسِهِ

فالسين حرف الروى ، وحركتها مجرى ، و إن شئت إطلاق ، كلاهما يقال ، والهاء وصل ، وحركتها نفاذ ، و بعدها فى اللفظ ياء هى الخروج ، ولو كانت الهاء مضمومة كان الخروج واواً ، أو مفتوحة كان الخروج ألفا . ولا يكون حرف الروى إلا فى أحد ثلاثة مواضع : إما متأخراً كقول طرفة :

* لخولَةَ أطْلاَلٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ *

فالدال روى ، و إما قبل المتأخر ملاصقا له كقول عمرو بن كُلْثُوم :

* ألا هُبِّى بصحنك فاصْبَحِينا *

فالنون حرف الروى ، أو قبل المتأخر بحرف كقول لبيد :

* عفَتِ الدّيار محلها فمقامُهَا *

فالميم حرف الروى ، وهذه المواضع المذكورة إنما هى فى اللفظ لا فى الخط ، ولا يكون حرف الروى ـ إذا كان بعده شىء ـ إلا متحركا ؛ لأن المقيد لا شىء بعده ، وأنشد بعضهم :

* شَلَّتْ يدَا فَارِيَةٍ فَرَتْهَا *

على أن التاء حرف روى ، فرَد ذلك العلماء بالعلة التى ذ كرتها ، وقالوا : إنما التزم التاء والراء قبلها اتساعاً ، و إلا فالهاء هى الروى .

وكل شعر فلابد أن يكون : مطلقاً ، أو مقيداً ، ثم لا بد أن يكون : مُرْدَفاً أو مؤسَّساً ، أو معرّى منهما مجرداً .

فالمُرْدف نوعان : تشترك الياء والواو فى أحــــدهما ، نحو قول علقمة الفحل :

طَحا بكَ قَلْبٌ فى الحسانِ طَرُوبُ بُعَيْدَ الشباب عَصْرَحانَ مَشيبُ

فالياء فى «مشيب» مقام الواو فى « طَرُوب»

وتنفرد الألف بالنوع الآخر نحو قول امرىء القيس :

* ألا عم صَبَاحاً أيها الطَّللُ البالى *

لا يشركها غيرها ، والحركة التى قبل الردف — ياء كانت أو وَاواً أو ألفاً — تسمى الحذْوَ ، وقد تَجُرُّ الضمة واواً فى اللفظ ، والكسرة ياء ، وذلك مع هاء الضمير ، فتكون ردفا ، وإن لم تثبت فى الخط ، نحو قول ابن المعتز :

صَمَّخُوا عَارِضَهاَ بالْـــمِسْكِ فى خَدٍّ أسِيلِ
تحت صُدْغَيْنِ يُشيرا ن إلى وجــه جميلِ
عندىَ الشوق إليه والتناسى عندهُ لى

ومن المردف ما تكون حركة الحَذْوِ فيه مخالفة للردف ؛ فيجعل شعراً على جهته ؛ فإن دخل مع غيره كان سِناداً ، وذلك مثل هَوْلٍ وَسَيْلٍ يكونان فى قصيدة ، ولا يكون معهما سُول وفِيل .

وقياس المردف فى الوصل والخروج وغير ذلك من حروف الروى وحركته جار على ما تقدم فى المجرد من الردف ، إلا الحَذْو والتوجيه ؛ فإن المقيد يختص بالتوجيه ، وهو الروى ، والمردف يختص بالحَذْو ، وهو حركة ما قبل الردف ، وإن كان المردف مقيداً سقط التوجيه وبقى الحـــــذو ؛ لأن الردف قد سد موضع التوجيه .

وقد يلتبس بالمردف ما ليس بمردف فيجتنبه الشعراء ، مثل « فيهم » مع « منهم » وهو جائز ؛ لأن الهاء ليست رويّا فتكون الياء ردفا ، وإنما الروى الميم ، ويجتنبون « منكم » مع « منهم » وذلك جائز لا عيب فيه ؛ لما قدمت آنفاً .

وكان ابن الرومى خاصة من بين الشعراء يلتزم مالا يلزمُه فى القافية ، حتى إنه لا يعاقب بين الواو والياء فى أكثر شعره قدرةً على الشعر واتساعا فيه .

والأجود أن يكون الردف والروى جميعاً فى كلمة واحدة ، فإذا كانا فى كلمتين فلا بأس .

المؤسس

والمؤسس من الشعر: ما كانت فيه ألفٌ بينها و بين حرف الروى حرفٌ يجوز تغييره ؛ فذلك الحرف يسمى الدخيل ، وحركته تسمى الإشباع ، ويجوز تغييرها عند الخليل ، ولا يجوز عند أبى الحسن الأخفش ، مثال ذلك ما أنشده أبو زكريا الفراء :

نهوى الخليط وإن أقمنا بعدهم إنَّ المقيم مكلفٌ بالسائر

إن المطىَّ بنا يَخِدْنَ ضُحى غدٍ واليوم يومٌ لبانةٍ وتَزَاوُرِ

وهو جائز غير معيب ، وأما القاضى أبو الفضل فرأيه أن حركة الدخيل مادامت إشباعا جاز فيها التغيير بالنصب والخفض والرفع ؛ فإذا قيد الشعر وصار موضع الإشباع التوجيه لم يجز الفتح مع واحد منهما ، واعتلَّ فى ذلك بحال المطلق غير المؤسس أن ما قبل رويه جائز تغييره ، فإذا قيد لم يجز الفتح فيه إلا وحده ، فهو سناد ، ويشارك الضم والكسر ، وهذا قول واضح البيان ، ظاهر البرهان ، والناس مجمعون على تغيير الدخيل حتى إن بعضهم لم يسمه لتغيره واضطرابه لكن عَدَّه فيما لا يلزم القافية فسكت عنه .

وأما الإشباع فالقول فيه ما قدمت ، وإذا كان ألف التأسيس فى كلمة وحرف الروى فى كلمة أخرى لم يعدوها تأسيساً لبعدها ، إلا أن يكون حرف الروى مع مضمر متصل أو منفصل ، فإن الشاعر بالخيار : إن شاء جعل الألف تأسيساً ، وإن شاء لم يجعلها تأسيساً ؛ فالتى لا تكون عندهم تأسيساً قول عنترة :

* والنَّاذِرَيْنِ ــ إذا لم أَلْقَهُمَا ــ دَمِى *

لما كان الاسم ظاهراً ، وقد أنشد بعضهم فى أبيات اللغز والمعاياة :

أقول لعمرو حين خود رأله ونحن بوادى عبد شمس وهاشم (١)

وَهَى : من الوَهْى ، وشِمْ : من الشَّيم للبرق . . وقول الآخر :

أقول لعبد الله لما لقيته ونحن بوادى الروم فوق القَنَاطِرِ

فالقَنَا : جمع قَنَاة ، وطِرْ ، أمر من طار يطير ، فرخص فيه لما انكسرت حركة دخيله على متعارف الشعر ، وهو كلام حسن الظاهر ، إلا أنه خلاف لما قال العلماء ، والتي تكون تأسيساً لكونها مع المضمر قول الشاعر :

تزيد حسى الكأس السفيهَ سفاهةً وتترك أخلاق الكريم كما هيا

وقول جرير :

فرُدّى جِمَالَ الحيِّ ثم تحمَّلى فمالك فيهم من مُقَامٍ ولا لِيَا

فهذا ضمير متصل ، والذى قبله ضمير منفصل . .

ومما جاءت الألف فيه غير تأسيس مع المضمر قول الشاعر ، وهو من شواهد أبى الفتح عثمان بن جنى النحوى:

أيَّةُ جاراتك تلك المُوصِيَهْ قائلةً لا تَسْقِيَا بحَبْلِيَهْ

لو كنتُ حَبْلاً لسقيتها بِيَهْ أو قاصراً وَصَلْتَهُ بِثَوْبِيَهْ

فالألف فى «سقيتها» غير تأسيس ، فإذا كانت الهاء والكاف التى للمخاطب دخيلا لم يخلط الشعراء بها غيرها اتساعا ، وإلا فهو جائز .

وأنشد الجرمى لعوف ابن عطية بن الخرع :

---

(١) أحفظ هذا البيت هكذا :

أقول لعبد الله لما سقاؤنا ونحن بوادى عبدشمس وهاشم

على أن أصل الكلام : « لما وهى سقاؤنا ونحن بوادى عبد شمس » وشم : فعل أمر من شام البرق ، ويجوز أن يكون أمرا من قولهم «وشم» إذا غرز الإبرة فى الجسد ؛ فيكون المراد الأمر بخرز السقاء ، وهو ظاهر

وإن شئتما ألقحتما ونُتِجْتُمَا … وإن شئتما عَيْناً بعين كَمَا هما
وإن كان عَقْلاً فاعقِلاَ لأخيكما … بناتِ المَخاضِ والفصالَ المقاحما

ومن المؤسس والمردف ما يلتبس على المبتدىء فلا يميزه إلا عن كلفة وبعد فترة ، فأوردت منه ما يكون له مثالا يستدل به ويعمل عليه إن شاء الله تعالى .

فمن ذلك تغيير ما قبل الكاف فى القافية المؤسسة لأنه دخيل ، والكاف روى ، والتزامه يعد اتساعا ، فإذا كانت موضع الكاف هاء صار الشعر مردفا موصولا ولم يجز تغيير ما قبل الهاء ؛ لأنك لو غيرته لكنت قد غيرت حرف الروى ، مثال ذلك قول كُثيِّر أو غيره :

تَرَاغَتْ لو شَكْتُ البين بُزْل جِمالك … ولو شئت ما فَجَّعْتِنى بارتحالك

فالتزم اللام فى القصيدة كلها أو فى أكثرها ؛ اتساعا ، ولو غير كما فعل ذو الرمة فى قوله :

أما استحلبت عينيك إلا محلةٌ … بجمهور حُزوى أو بجرعاء مالك
أناخت رَوَايَا كل دلو بهبهِا … وكلٌّ سِمَاكِيٌّ أجشٌّ المبارِكِ

لم يكن عيباً ؛ لأن الكاف رَوِيٌّ وصلتها الياء التى بعدها فى اللفظ ، والدخيل راء « المبارك » ولام « مالك » وقد التزمه كثير كأنَّ القافية عنده لامية مردفة ، فالكاف مقام الهاء صلة على المجاز لا على الحقيقة ، وقال كثير فى المردف :

عَلَى ابن أبى العاصى دِلاَصٌ حَصينة … أجاد المُسَدِّى سَرْدها وأذالها

فاللام روىٌّ ، والألف التى قبلها ردفٌ ، والهاء صلة ، والألف التى بعدها خروج ، ولا يجوز أن يقال لهذه القافية مؤسسة ؛ لأن الهاء إذا تحرك ما قبلها وليست من نفس الكلمة لم تكن إلا صلة ، وإذا كانت الهاء صلة لم تكن اللام إلاَّ رويًّا ، ولا يجوز تغييرها .

حروف القافية وحركاتها

وجميع ما يلحق القوافى من الحروف والحركات ستة أحرف وست حركات، فالأحرف : الروىُّ ، والردف ، والتأسيسُ ، والوصلُ ، والخروج ، والدخيل ؛ والحركات:الإطلاق ، والحذْو ، والرسُّ ، والتوجيه ، والنفاذُ، والإشباع ، والذى يجتمع منها فى قافيةٍ واحدة خمسة أحرف ، وهى : التأسيس ، والرّوى ، والصلة ، والخروج ، والدخيل ؛ وكلها يلزم تكراره بعينه إلا الدّخيل ، وأربع حركات ، وهى:الرسُّ ، والإشباع ، والإطلاق ، والنفاذ ، وذلك مثل قول الشاعر[1] :

يُوشِكُ مَنْ فَرَّ من مَنِيَّتهِ ... فى بعض غِرّاته يُوَافقهـا

ولا يجتمع فى قافيةٍ الحذْوُ والرس ، كما لا يجتمع الردف والتأسيس ، وكذلك لا يجتمع أيضاً التوجيه والإشباع، فيسقط التوجيه إذا كان المؤسس مطلقاً ، و يسقط الإشباع إذا كان المؤسس مقيداً

وقد أنكر الجرمىُّ والأخفش وأصحابهما على الخليل تسمية الرس ، وقالوا : لا معنى لذكر هذه الفتحة ؛ لأن الألف لايكون ما قبلها إلا مفتوحاً ، و إنما احتيج إلى ذكر الحذو قبل الردف لأن الحذو قد يتغير فيكون مرة فتحة قبل ألف ومرة كسرة قبل ياء ومرة ضمة قبل واو ..

عيوب الشعر

ومما يجب أن يراعى فى هذا الباب الإقواء ، والإكفاء ، والإيطاء، والسناد، والتضمين ؛ فإنها من عيوب الشعر .

فأما الإقواء والإكفاء فاختلف العلماء فيهما وفى اشتقاقهما . . وأما السناد

---

(١) هذا البيت من شواهد سيبويه (ج ١ص ٤٧٩) وهو من شواهد الأشمونى (ج ٢ص ١٧٤) وشرحناه فى شرحنا عليه شرحا وافيا. وهو لأمية بن أبى الصلت ، وبعده :

من لم يمت عبطة يمت هرماً ... الموت كأس والمرء ذائقها

والإيطاء فاتفقوا فيما دون اشتقاقهما .

الإقواء

وعند أكثر العلماء : اختلاف إعراب القوافى إقواء ، وهو غير جائز لمولد ، وإنما يكون فى الضم والكسر ، ولا يكون فيه فتح، هذا قول الحامض .. وقال ابن جنى : والفتح فيه قبيح جداً ، إلا أن أبا عبيدة ومن قال بقوله كابن قتيبة يسمون هذا إكفاء ، والإقواء عندهم : ذهاب حرف أو ما يقوم مقامه من عروض البيت ، نحو قول الشاعر — وهو بجير بن زهير بن أبى سُلْمَى :

كانت علالة يوم بطن حنَيْنٍ وغداةِ أوطاس ويوم الأبرق[1]

واشتقاقه عندهم ـ فيما روى النحاس ـ من « أقوت الدار » إذا خَلَتْ ، كأن البيت خلا من هذا الحرف . وقال غيره : إنما هو من « أقْوَى الفاتلُ حَبْلَه » إذا خالف بين قُوَاه فجعل إحداهن قوية والأخرى ضعيفة ، أو مرة والأخرى سَحِيلة ، أو بيضاء والأخرى سوداء ، أو غليظة والأخرى دقيقة ، أو انحلّ بعضها دون بعض أو انقطع ، وهذا يسميه الخليل المقعد ، وهو من باب الوزن ، لا من

---

(١) قال ابن هشام (ج ٣ ص٢٦) : « ولما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف بعد القتال قال بجير بن زهير بن أبى سلمى يذكر حنينا والطائف ثم ذكر تسعة أبيات أولها هـذا البيت » اهـ وقال السهيلى (ج ٢ ص ٣٠٥) : « وقوله كانت علالة يوم بطن حنين : هذا من الإقواء ، وهو أن ينقص حرفا من آخر القسم الأول من الكامل ، وهو الذى كان الأصمعى يسميه المقعد ، والعلالة : جرى بعد جرى ، أو قتال بعد قتال . يريد أن هوازن جمعت جمعها علالة فى ذلك اليوم . وحذف التنوين من علالة ضرورة ، وأضمر فى كانت اسمها وهو القصة . وإذا كانت الرواية بخفض يوم فهو أولى من التزام الضرورة القبيحة بالنصب ، ولكنى ألفيته فى النسخة المقيدة . وإذا كان اليوم مخفوضا بالإضافة جاز فى علالة أن يكون منصوبا على خبر كان ؛ فيكون اسمها عائدا على شىء تقدم ذكره ، ويجوز الرفع على أن تكون كان تامة » اهـ كلامه .

باب القافية ، والجمهور الأول من العلماء على خلاف رأى أبى عبيدة فى الإقواء .

الإكفاء

وأما الإكفاء فهو الإقواء بعينه عند جِلّةِ العلماء : كأبى عمرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب ، وهو قول أحمد بن يحيى ثعلب ، وأصله من «أكفأت الإناء» إذا قلبته ، كأنك جعلت الكسرة مع الضمة وهى ضدها ، وقيل : من مخالفة الكفوة صواحبها ، وهى النسيجة من نسائج الخِبَاء تكون فى مؤخِّره ، فيقال : بيت مكفأ ، تشبيهاً بالبيت المكفأ من المساكن إذ كان مشبهاً به فى كل أحواله .. قال الأخفش البصرى : الإكفاء القلب ، وقال الزجاجى وابن دريد : كفأت الإناء إذا قلبته ، وأكفأته إذا أملته ، كأن الشاعر أمال فمه بالضمة فصيرها كسرة ، إلا [أن] ابن دريد رواهما أيضا بمعنى قلبته شاذاً ، وقيل : بل من المخالفة فى البناء والكلام ، يقال «أكفأ البانى» إذا خالف فى بنائه ، و«أكفأ الرجل فى كلامه» إذا خالف نظمه فأفسده ، قال ذو الرمة :

وَدوِّيّة قَفْرٍ ترى وَجْهَ ركبها إذا ما عَلَوْهَا مُكْفأً غيرَ ساجع

وَقال المفضل الضبى : الإكفاء اختلاف الحروف فى الروى ، وَهو قول محمد ابن يزيد المبرد ، وَأنشد :

قُبِّحْتِ من سالفةٍ ومن صُدُغْ كأنها كُشْيَةُ ضَبٍّ فى صُقُعْ

فأتى بالعين مع الغين ، وَاشتقاقه عنده من المماثلة بين الشيئين ، كقولك : فلان كُفْءُ فلان ، أى : مثله ، قال : ومنه كافأتُ الرجل ، كأن الشاعر جعل حرفاً مكان حرف ، وَالناس اليوم فى الإكفاء على رأى المفضل ، وَهو عيب لا يجوز أيضا لمحدث ، وَلا يكون إلا فيما تقارب من الحروف ، وَإلا فهو غلط بالجملة ، هذا رأى الأخفش سعيد بن مسعدة ، وَالخليل يسمى هذا النوع : الإجازة .

الإجازة و الإجارة

قال الفراء : الإجازة فى قول الخليل : أن تكون القافية طاء وَالأخرى

دالاً ، وقال أبو إسحاق النجيرمي : الإجارة بالراء لا غير وهى من الجوار ، وهو الموج ، قال ابن السكيت : وهو الماء الكثير ، وأنشد للقطامى يذكر سفينة نوح عليه السلام :

* وَلَوْلاَ اللهُ جَارَ بِهَا الجِوَارُ *

قال المهلبى : ورأيته بخط الطوسى والسكرى بالراء ، وهو قول الكوفيين ، فاما البصريون فيقولون « الإجازة» بالزاى ، حكى ذلك ابن دريد . .

وقال بعض شيوخنا : الإجارة فى القوافى مشتقة من الجوار فى السكنى والذِّمام ، ألا ترى أنها فيا تقارَبَ من الحروف ، فكأن الحرف جاور الآخر ودخل فى ذمامه ، وقال قوم : بل هى من الجور ، كأن القافية جارت ، أى : خالفت القصد ، وأجارها الشاعر ، أى : صيرها كذلك ، وعلى هذا يصح قول النجيرمى

فإذا تأملنا أقاويل العلماء وجدنا الإجازة — بالزاى — اختلاف التوجيه ، وهو حركة ، والإجارة — بالراء — اختلاف الروى ، وهو حرف ، وليس هذا من هذا فى شىء ، فكأن العلماء لم يختلفوا حينئذ ؛ لأن التسمية اختلفت باختلاف المسمى .

الإصراف

ومثل الإجازة الإصراف ، حكاه شيخنا أبو عبد الله ، قال : وهو أن تكون القافية دالاً والأخرى طاء ، والقصيدة مصرفة ، ولذلك قال الشاعر :

مُقَوَّمةً قوافيها ولَيْسَت بمصرَفةِ الروىِّ ولا سناد

السناد

وأما السناد فأنواع كثيرة : منها ـ وهو المشهور ـ أن يختلف الحذو ، وهو حركة ما قبل الردْف ، فيدخل شرط الألف ـ وهى الفتحة ـ على الياء والواو كقول الفضل بن العباس اللهبى :

* واملئى وَجْهَكِ الجميلَ خُمُوشا *

ثم قال :

* وَ بنا سميت قريشٌ قُرَيْشاً *[١]

وَهو كثير [جائز] للعرب غير جائز للمولدين، وَمنها اختلاف الإشباع ، كقول النابغة:

* يزرن ألالاً سَيرهنّ التدافعُ *

وَالقصـــيدة كلها إشباع ، وَمنها إرداف قافية وَتجريد أخرى ، كقول[٢] حسان بن ثابت فى قافية :

* فأرْسل حكيما ولا تُوصِهِ *

وَقال فى أخرى :

* وَشاوِرْ لبيبًا وَلا تَعْصِهِ *

وَمنها تأسيس قافية دون أخواتها ، كقول العجاج :

* فخندِفٌ هامةُ هذا[٣] العالِمِ *

وَأول هذه الأرجوزة :

* يا دَارَ سَلْمَى يا اسْلَمِى ثم اسْلَمِى *

وَ كلها غير مؤسسة إلا هذا البيت وَحده ، وَيقال : إن لغته الهمز ، فإذا همز لم يكن تأسيسا . وَمنها اختلاف التوجيه ، نحو قول امرئ القيس بن حجر :

---

(١) فى خزانة الأدب (ج ١ ص ١٨٩ السلفية) نسبة هذا البيت إلى الشمرخ ابن عمرو الحميرى ، ورواه هكذا :

وقريش هى التى تسكنُ البحـــر بهـا سميت قريش قُريشا

ورواية البيت فى لسان العرب كروايته فى الخزانة غير أنه لم ينسبه

(٢) انظر (ص ١٥٧) من هذا الجزء

(٣) وأكثر علماء العربية يروونها هكذا * فخندف هامة هذا العألم * مهموزا ؛ فلا شاهد للمؤلف فيه ، وسيذكر المؤلف بعد ذلك هذه المقالة

لا وأبيكِ ابنةَ العامرىّ لا يَدّعِى القومُ أنى أفِرْ

ثم قال:

تميمُ بن مرّ وأشياعها وكندةُ حولى جميعا صُبُرْ

إذا ركبوا الخيل واستلأموا تحرّقت الأرض واليوم قَرّ

فما قبل الراء فى البيت الأول مكسور ، وفى الثانى مضموم ، وفى الثالث مفتوح ، وليس هذا بعيب شديد عندهم .

قال الزجاجى : السناد : كل عيب يلحق القافية ، ماخلا الإقواء والإكفاء والإيطاء ، وهذا قول فيه بيان واختصار .

وقال على بن عيسى الرمانى : السناد : اختلاف ما قبل حرف الروى أو بعده على أى وجه كان الاختلاف : بحركة كان ، أو بحرف ..

وقال ابن جنى : السناد : كل عيب يحدث قبل الروى .

واشتقاق السناد من « تساند القوم » إذا جاءوا فرقًا لا يقودهم رئيس واحد ، وقيل : بل هو من قولهم « ناقة سناد » إذا كانت قوية صلبةً ؛ لأن الياء الصلبة أقوى فى النطق من الياء اللينة . . وقالوا : بل السناد الناقة المشرفة ، كأن إحدى القوافى أشرفت على أخواتها .

الإيطاء

وأما الإيطاء فهو أن يتكرر لفظ القافية ومعناها واحد ، كما قال امرؤ القيس[1] فى قافية * سَرْحة مَرْقَبِ * وفى قافيـــة أخرى * فَوْقَ مَرْقَبِ * وليس بينهما غير بيت واحد . . وكلما تباعد الإيطاء كان أخف ، وكذلك إن خرج الشاعر من مدح إلى ذم ، أو من نسيب إلى أحدهما ، ألا ترى إلى

---

(١) البيتان هما :

عظيم طويل مطمئن كأنه بأسفل ذى ماوان سرحة مرقب

له أيطلا ظبى وساقا نعامة وصهوة عير قائم فوق مرقب

ووقع فى الأصول *سرح مرقب* والسرحة : الشجرة العظيمة، والسرح : جمعها

قولهم « دَعْ ذا » و « عَدِّ عن ذا » فكأن الشاعر فى شعر آخر ، وأقبح من هذا الإيطاء قول تميم بن أبى [بن] مقبل :

أو كاهتزاز رُدَيْنِيٍّ تَدَاوله أيدى التِّجَار فزادوا متنه لينا

ويروى * تذاوقه * ثم قال فى القصيدة غيرَ بعيدٍ :

نازعْتُ ألبابَهَا لبى بمقتصد من الأحاديث حتى زِدْنَنِى لينا

فكرر القافية والمعنى مع أكثر لفظ القسيم ، وأشدُّ من ذلك قولُ أبى ذؤيب فى بنيه :

سبقوا هَوَىَّ وأعْنَقُوا لهواهُمُ فتخُرِّمُوا ، ولكلِّ جنب مصرع

ثم قال فى صفة الثور والكلاب :

فصرعنه تحت العجاج فجنبه متترب ، ولكل جنب مصرع

فكرر ثلث البيت . . وإذا اتفق الكلمتان فى القافية واختلف معناهما لم يكن إيطاء عند أحد من العلماء ، إلا عند الخليل وحده ، فإن « يزيد » عنده بمعنى الاسم و « يزيد » بمعنى الفعل إيطاء ، وكذلك « جَوْن » للأبيض والأسود ، و « جَلَل » للكبير والصغير ، وإذا كان أحد الاسمين نكرة والآخر معرفة لم يكن إيطاء ، وكذلك « ضَرَبَ » للواحد و « ضربا » للاثنين ، و « لم تضرب » للمذكر و « لم تضربى » المؤنث ، و « من غلام » و « من غلامى » مضافاً ، كل هذا ليس بإيطاء . . وأما اختلاف الحروف على الاسم كقولك « لزيد » و « بزيد » وعلى الفعل كقولك « أضرب » و « يضرب » و « تضرب » فى مخاطبة المذكر والحكاية عن المؤنث ؛ فكلُّ ذلك إيطاء . .

والايطاء جائز للمولدين ، إلا عند الجمحى وحده ؛ فإنه قال : قد علموا أنه

عيب . . وقال الفراء : إنما يواطىء الشاعر من عِىٍّ ، وإذا كرر الشاعر قافية للتصريع فى البيت الثانى لم يكن عيباً ، نحو قول امرىء القيس :

* خليليَّ مُرّا بى على أم جُنْدُبِ *

ثم قال فى البيت الثانىَ[1] * لدى أم جندب * واشتقاقه من الموافقة ، قال الله عز وجل : « لِيُوَاطِئوا عِدَّةَ ما حَرَّمَ الله » أى : ليوافقوا . . وقال قوم : بل الإيطاء من الوطء ، كأن الشاعر أوطأ القافية عقب أختها ، كما قال توبة يخاطب بعل ليلى الأخيلية :

لعلك يا تَيْساً نزَا فى مَرِيرَة تُعاقبُ ليلى أن ترانى أزورها
علىَّ دماء البُدْن إن كان بَعلها يرى لىَ ذنباً غير أنى أزورها

التضمين

والتضمين : أن تتعلق القافية أو لفظة مما قبلها بما بعدها ، كقول النابغه الذبيانى :

وَهُمْ وَرَدوا الجِفَارَ على تميم وهم أصحاب يوم عكَاظَ، إنّى
شهدت لهم مواطنَ صالحاتٍ وثقت لهم بحسن الظن منى

وكلما كانت اللفظة المتعلقة بالبيت الثانى بعيدة من القافية كان أسهل عيباً من التضمين ، ويقرب من قول النابغة قول كعب بن زهير :

ديار التى بَتَّتْ حبالى وصَرَّمَتْ وكنت إذا ما الحبل من خلةٍ صُرِمْ
فزعت إلى وَجْنَاءَ حَرْفٍ كأنما بأقرابها قارٌ إذا جلدها استحم

---

(١) البيتان هما :

حليلى مرابى على أم جندب لنقضى حاجات الفؤاد المعذب
فإنكما إن تنظرانى ساعة من الدهر تنفعنى لدى أم جندب

وقد روى عجز البيت الأول على عدة وجوه أفضلها ما أثبتناه ، على أن اللام فى « لنقضى » لام التعليل ، والفعل بعدها منصوب بالفتحة الظاهرة .

وأخف من هذا قول إبراهيم بن هَرْمَةَ :

إما تريني شاحباً متبذّلا كالسيف يَخلق جَفْنه فيضيع
فلرب لذة ليـــلة قد نلتها وحرامها بحلالهـــا مدفوع

وليس منه قول متمم بن نويرة :

لعمري وما دهري بتأبين هالكٍ ولا جزعا ممـــا أصاب فأوجعا
لقد كَفَّنَ المِنْهَالُ تحت ردائه فتًى غـــير مِبْطَانِ العشيات أرْوَعَا

وربما حالت بين بيتي التضمين أبيات كثيرة بقدر ما يتسع الكلام وينبسط الشاعر في المعاني ، ولا يضره ذلك إذا أجاد .

ألقاب القوافي

ويجمع القوافي كلها خمسة ألقاب : المتكاوس ، وهو : أربع حركات بين ساكنين ، وله جزء واحد وهو فعلتن ، والفراء لا يعده ؛ لأنه عنده من المتدارك؛ لأن فعلتن إنمـــا هي مستفعلن مُزَاحَفَ السببين ؛ والمتراكب ، وهو ثلاث متحركات بين ساكنين ، ولها جزءان مفاعلتن وفعلن ؛ والمتدارك ، وهو : حركتان بين ساكنين ، وهو نحو مفاعلن ومتفاعلن ومستفعلن وفاعلن ؛ والمتواتر ، وهو : ما توالى فيـــه متحرك بين ساكنين ، نحو مفاعيلن وفاعلاتن وفعلاتن ومفعولن ؛ والمترادف ، وهو : ما اجتمع في آخره ساكنان نحو فاعلانْ ومتفاعلانْ ومستفعلانْ ، وما أشبه ذلك .

ولا يجتمع نوعان من هذه الأنواع في قصيدة ، إلا في جنس من السريع ؛ فإن المتواتر يجتمع فيه مع المتراكب ، إذا كان الشعر مقيداً كقول المرقّش في بيت[1] :

* وأطرافُ الأكفِّ عَنَمْ *

(١) هو بتمامه :

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم

وفى بيت[١] آخر :

* قد قلتُ فيه غيرَ ما تَعْلَمْ *

(٢٣) — باب التقفية والتصريع

هـذا باب يُشكل على كثير من الناس علمه ، ويلحقه عيب سماه قدامة التجميع ، كأنه من الجمع بين رويّيْن وقافيتين ، ورأيت من يقول : التخميع — بالخاء — كأنه من الخَمَع فى الرجل ، وسأذكره فى موضعه ، إن شاء الله تعالى.

التصريع

فأما التصريع فهو ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه : تنقص بنقصه ، وتزيد بزيادته ، نحو قول امرىء القيس فى الزيادة :

قفانَبْكِ من ذكرى حبيبٍ وعِرْفَانِ ورسمٍ عَفَتْ آياتُهُ منذ أزمان

وهى فى سائر القصيدة مفاعلن ، وقال فى النقصان :

لمن طَلَلٌ أبصَرْتُهُ فَشَجَانى كخطِّ زَبورٍ فى عَسيبِ يمانى

فالضرب فعولن ، والعروض مثله لمكان التصريع ، وهى فى سائر القصيدة مفاعلن كالأولى ؛ فكلُّ ما جرى هـذا المجرى فى سائر الأوزان فهو مُصَرَّع .

التقفية

والتقفية : أن يتساوى الجزءان من غير نقص ولا زيادة ، فلا يتبع العروض الضرب فى شىء إلا فى السجع خاصة ، مثال ذلك قوله :

---

(٢) لم يتيسر لى الوقوف على نسخة كاملة من شعر المرقش الأكبر ، ولم أقف فى المختار من شعره على البيت الذى عجزه هذا الذى ذكره المؤلف، ولكنى وجدت فى معاهد التنصيص للعباسى (ح ١ ف١٦٢) كثيرا من أبيات القصيدة التى منها هذان البيتان ، ومن أبياتها التى يستشهد بها على نحو ما ذكره المؤلف قوله:

الدار قفر والرسوم كما رقش فى ظهر الأديم قلم

ليس على طول الحياة ندم ومن وراء المرء مايعلم

قال العباسى : «وهى قصيدة طويلة ليست بصحيحة الوزن ، ولا حسنة الروى، ولامتخيرة اللفظ ، ولا لطيفة المعنى . قال ابن قتيبة : ولا أعلم فيها شيئاً يستحسن إلا قوله * النشر مسك . . . البيت » اهـ كلامه .

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدَّخولِ فحومل

فهما جميعاً مفاعلن ، إلا أن العروض مقفّى مثل الضرب ، فكل ما لم يختلف عروض بيته الأول مع سائر عروض أبيات القصيدة إلا فى السجع فقط فهو مقفى .

اشتقاق التصريع

واشتقاق التصريع من مصراعى الباب ، ولذلك قيل لنصف البيت «مصراع» ، كأنه باب القصيدة ومدخلها ، وقيل : بل هو من الصرعين ، وهما طَرَفا النهار ، قال أبو إسحاق الزجاج : الأول من طلوع الشمس إلى استواء النهار ، والآخر من مَيْل الشمس عن كبِد السماء إلى وقت غروبها . قال شيخنا أبو عبد الله : وهما العصران . وقال قوم : الصرع المثل ، وسبب التصريع مبادرة الشاعر القافية ليعلم فى أول وَهْلة أنه أخذ فى كلام موزون غير منثور ، ولذلك وقع فى أول الشعر ، وربما صَرَّع الشاعر فى غير الابتداء ، وذلك إذا خرج من قصة إلى قصة أو من وصف شىء إلى وصف شىء آخر فيأتى حينئذ بالتصريع إخباراً بذلك وتنبيهاً عليه ، وقد كثر استعمالهم هذا حتى صَرّعوا فى غير موضع تصريع، وهو دليل على قوة الطبع ، وكثرة المادة ، إلا أنه إذا كثر فى القصيدة دل على التكلف ، إلا من المتقدمين ، قال امرؤ القيس :

تروح من الحىّ أم تبتكرْ وماذا عليك بأن تنتظرْ؟

أمَرْخٌ خيامهمُ أم عُشَرْ أم القلب فى إثرهِمْ مُنْحَدِرْ

وشاقكَ بين الخليط الشُّطُرْ وفيمن أقام من الحى هِرْ.[1]

---

(١) تروح : تسير وقت الرواح ، وهو آخر النهار . ويروى الشطر الثانى * وماذا يضرك لو تنتظر * والمرخ : شجر قصار ينبت بنجد ، والعشر : شجر طوال بالغور ، وعرضه بهذه العبارة أن يقول : أهم منجدون أم متغورون ، أى . أيقيمون فى نجد أم فى غور ؟ والشطر : جمع شطير ، وهو القريب ، ويروى البيت الثالث هكذا :

وفى من أقام من الحى هر أم الظاعنون بها فى الشطر

فَوَالَى بين ثلاثة أبيات مصرعة فى القصيدة ، وقد يجعلون أولها :

أحارِ بنَ عَمْرٍو كأنى خَمِرْ   ويَعْدُو على المرء ما يأتمر

وقال عنترة العبسى :

أعياكَ رسمُ الدارِ لم يتكلم   حتى تكلم كالأصمِّ الأعجم

ثم قال بعد بيت واحد :

هــل غادرَ الشعراء من مُتَرَدَّم   أم هل عرفت الدار بعد توهُّمِ ؟

يا دار عَبْــلة بالجِوَاء تكلمى   وعِمِى صباحاً دارَ عبلة واسلمى

فصرع البيت الأول والثالث والرابع .

وقولنا فى شعر امرىء القيس وعنترة وغيرهما مما يستأنف مصرع إنما هو مجاز وجرى على عادة الناس ؛ لئلا يخرج عن المتعارف ، و إلا فقد بينت ذلك أولا.

ومن الناس من لم يصرع أول شعره قلة اكتراث بالشعر ، ثم يصرع بعد ذلك ، كما صنع الأخطل إذ يقول أول قصيدة :

حلت صبيرة أمواهَ العداد وقد   كانت تحل وأدنى دارها ثــكد

وأقفر اليوم ممن حَـــلّهُ الثمدُ   فالشعبتان فذاك الأبلق الفرد

فصرع البيت الثانى دون الأول .. وقال ذو الرمة أول قصيدة :

أداراً بحُزْوَى هِجْتِ للعين عَبْرَةً   فماء الهوى يَرْفَضُّ أو يترقرقُ

ثم قال بعد عدة أبيات :

أمِنْ مَيَّةَ اعتادَ الخيالُ المؤرِّقُ ؟   نعم ؛ إنَّهَا مِمَّا على النأى تَطْرُقُ

وكان الفرزدق قليلا ما يصرع أو يُلْقِى بالا بالشعر ، كقوله :

ألَمْ تر أنى يوم جوِّ سويقةٍ   بكيتُ فنادتنى هُنيدةُ ماليا

فجاء بمثل هذه القصيدة الجليلة غير مُصَرَّعة . وكذلك قوله يرد على جرير

تكاثر يربوعٌ عليك ومالك على آل يربوع فمالك مَسْرَحُ

وأكثر شعر ذى الرمة غير مُصَرَّع الأوائل ، وهو مذهب الكثير من الفحول وإن لم يعد فيهم لقلة تصرفه ، إلا أنهم جعلوا التصريع فى مهمات القصائد فيما يتأهبون له من الشعر ، فدل ذلك على فضل التصريع . وقد قال أبو تمام وهو قدوة :

وتقفو إلى الجَدْوى بجَدْوَى ، وإنما يروقُكَ بيتُ الشعرِ حينَ يُصَرَّعُ

فضرب به المثل كما ترى .

والتصريع يقع فيه من الإقواء والإكفاء والإيطاء والسناد والتضمين ما يقع فى القافية : فمن الإقواء ما أنشده الزجاجى ، وهو قول بعضهم :

ما بال عينك منها الماء مُهْرَاقُ سَحًّا فلا غارب منها ولا راقى

ومن الإكفاء قول[1] حسان بن ثابت ، وأنشده الجاحظ :

ولستَ بخيرٍ من أبيك وخالكا واستَ بخير من معاظلةِ الكلب

ومن الإيطاء قول عبد الله بن المعتز :

يا سائلا كيف حالى أنت العليم بحالى

ومن السناد قول إسماعيل بن القاسم أبى العتاهية :

---

(١) انظر على أى وجه يتحقق الإكفاء مع التصريع فى هذا البيت ؟ ! نعم إنه ليتصور فيه ذلك النوع من التصريع الذى سماه التجميع وسيأتى ذكره قريباً ، ولكن لا يتصور فيه الإكفاء على وجه من الوجهين اللذين سبق له ذكرهما ، ولو كانت العبارة هكذا « والتصريع يقع فيه من الإقواء والإقعاد . . إلخ ثم يقول: ومن الإقعاد قول حسان . . . إلخ » لكانت أقرب وأحسن ، على أننى لم أجد هذا البيت فى ديوان حسان .

ويلى على الأظعان وَلَّوْا عـــنى بعتبة فاسْتَقلُّوا

ومن التضمين قول البحترى :

عَذِيرِى فيك من لاحٍ إذا ما شكوتُ الحبَّ قَطَّعنى مَلاَما

التجميع

ومن ابتداء القصائد التجميع ، وهو : أن يكون القسم الأول متهيئاً للتصريع بقافية ما ، فيأتى تمام البيت بقافية على خلافها ، كقول جميل :

يا بُثْنَ إنك قد ملكت فأسْجِحِى وخذى بِحَظِّكِ من كريم واصل

فتهيأت القافية على الحاء ، ثم صرفها إلى اللام .

ومثله قول حُمَيْد بن ثَوْر الهلالى :

سلِ الرَّبْع أنىَّ يَمَّمَتْ أمُّ سالم ؟ وهل عادةٌ للربع أن يتكلما ؟ ! !

فتهيأت له قافية مؤسسة لو شاء ، ثم أتت فى آخر البيت غير مؤسسة ، ويروى * أمُّ أسْلَمَا * فخرج عن التجميع .

ومن أشد التجميع قولُ النابغة الذبيانى :

جزى الله عبساً عبسَ آل بغيضٍ جزاء الـكلاب العاويات وقد فعل[(١)]

وإنما التجميع فيما شابه الإطلاق ، أو قارب ذلك ، كقول جميل فيما تقدم وقول حُمَيْد ، وهو كالإكفاء والسناد فى القوافى ، إلا أنه دونهما فى الـكراهية جداً . . وإذا لم يصرع الشاعر قصيدته كان كالمتسور الداخل من غير باب .

الداخل

والمداخَلُ من الأبيات : ما كان قسيمُهُ متصلا بالآخر ، غير منفصل منه ، قد جمعتهما كلمة واحدة ، وهو المدمجُ أيضاً ، وأكثر ما يقع ذلك فى عروض[(٢)]

(١) انظر (ص ١٤٤) من هذا الجزء

(٢) مثاله قول أبى العلاء المعرى :

أبنات الهديل ، أسعدن أوعد ن قليل العـــزاء بالإسعاد

أبـكت تلـكم الحمامة أم غنـــت على فرع غصنهـــا المياد

الخفيف ، وهو حيث وقع من الأعاريض دليل على القوة ، إلاّ أنه فى غير الخفيف مستثقل عند المطبوعين ، وقد يستخفونه فى الأعاريض القصار : كالهزج ومربوع الرمل وما أشبه ذلك .

ومن الشعر غير المصرع ما لا يجوز أن يظن تجميعاً ، وذلك نحو قول ذى الرمة واسمه غيلانُ بن عُقْبَةَ :

أأنْ ترسَّمْتَ من خرقاء منزلةً ماء الصبابةِ من عينيكَ مَسْجُومُ

لأن القافية من عروض البيت غير متمكنة ، ولا مستعمل مثلها ، وإن كان استعمالها جائزاً لو وقع .

القواديسى من الشعر

ومن الشعر نوع غريب يسمونه القواديسى ، تشبيها بقواديس السانية ؛ لارتفاع بعض قوافيه فى جهة وانخفاضها فى الجهة الأُخرى ، فأول مَنْ رأيته جاء به طلحة بن عبيد الله العونى فى قوله من قصيدة له مشهورة طويلة :

كم للدُّمَى الأبكار بالـــخبتين من منازلِ
بمهجتى للوجد من تذكارها منازلُ
مَعَاهــدٌ رعيلُها مُثْعَنْجِرُ الهواطلِ
لما نأى ساكنها فأدمـــعى هواطِلُ

وهو مربوع الرجز تعمد فيه الإقواءَ وأوطأ فى أكثره قصداً كما فعل فى البيتين الأولين من هذه .

ومن الشعر جنس كله مصرع ، إلا أنه مختلف الأنواع ، وأنا منبه عليها إن شاء الله تعالى .

المسمط

فمن ذلك الشعر المسمَّطُ ، وهو : أن يبتدىء الشاعر ببيت مصرع ، ثم يأتى بأربعة أقسمة على غير قافيته ، ثم يعيد قسما واحداً من جنس ما ابتدأ به ، [و] هكذا إلى آخر القصيدة ، مثال ذلك قول امرىء القيس ، وقيل إنها منحولة :

توهمتُ من هند معالمَ أطلالِ عَفَاهُنَّ طُولُ الدهر فى الزمن الخالى
مرابعُ من هند خلت ومصايفُ يصيح بمغناها صَدًى وعوازفُ
وغيرَّها هُوجُ الرياح العواصف وكل مُسِفٍّ ثم آخر رادف
* بأسحم من نوء السماكين هَطَّالِ *

وهكذا يأتى بأربعة أقسمة على أى قافية شاء ، ثم يكرر قسيا على قافية اللام ، وربما كان المسمط بأقل من أربعة أقسمة كما قال أحدهم :

خيالٌ هاج لى شَجَنَا فبت مُكَابِداً حزنا
عميدَ القلب مرتهناً بذكر اللهو والطرب
سبتنى ظبيةٌ عُطُلُ كأن رُضابها عَسَلُ
ينوء بخصرها كَفَلُ ثقيل روادف الحقب

وربما جاءوا بأوله أبياتاً خمسة على شرطهم فى الأقسمة ، وهو المتعارف ، أو أربعة ، ثم يأتون بعد ذلك بأربعة أقسمة ، كما قال خالد القناص ، أنشده الزجاجى أبو القاسم :

لقد نكرت عينى منازل جيران كأسطار رَقٍّ ناهج خَلَقٍ فانى
توهمتها من بعد عشرين حجة فما أستبينُ الدار إلا بعرفان
فقلتُ لها : حييتِ يادارَ جيرتى أبينى لنا أنَّى تبدَّدَ إخوانى
وأىَّ بلاد بعد ربعك حالفوا فإن فؤادى عند ظبيةِ جيرانى

فجاء بأربعة أبيات كما ترى ، ثم قال بعدها :

رما نطقت واستعجمت حين كلمت وما رجعت قولا وما إن ترمرمت
وكان شفائى عندها لو تكلمت إلىَّ ولو كانت أشارت وسَلَّمَتْ
* ولكنها ضَنَّتْ على بِتِبْيَانِ *

وهكذا إلى آخرها ، وقد جاء هذا الشاعر فى قصيدته بخمسة أقسمة

مرة واحدة ، ولم يعاودها ، ولو عاودها لم يضره ، وكذلك لو نقص ، إلا أن الاعتدال أحسن .

اشتقاق التسميط

والقافية التي تكرر في التسميط تسمى عمود القصيدة ، واشتقاقه من السمط ، وهو : أن تجمع عدة سلوك في ياقوتة أو خرزة ما ، ثم تنظم كل سلك منها على حِدَتِه باللؤلؤ يسيراً ، ثم تجمع السلوك كلها في زبرجدة أو شبهها[1] أو نحو ذلك ، ثم تنظم أيضاً كل سلك على حدته وتصنع به كما صنعت أولا إلى أن يتم السمط ، هذا هو المتعارف عند أهل الوقت .

وقال أبو القاسم الزجاجي : إنما سمي بهذا الاسم تشبيهاً بسِمْطِ اللؤلؤ ، وهو سلكه الذي يضمه ويجمعه مع تفرق حَبِّه ، وكذلك هذا الشعر لما كان متفرق القوافي مُتعقباً بقافية تضمه وترده إلى البيت الأول الذي بنيت عليه في القصيدة صار كأنه سمط مؤلف من أشياء مفترقة .

المخمس

ونوع آخر يسمى مخمساً ، وهو : أن يؤتى بخمسة أقسمة على قافية ، ثم بخمسة أخرى في وزنها على قافية غيرها كذلك ، إلى أن يفرغ من القصيدة ، هذا هو الأصل ، وأكثروا من هذا الفن حتى أتوا به مصراعين مصراعين فقط ، وهو المزدَوجُ ، إلا أن وزنه كله واحد وإن اختلفت القوافي ، كذات الأمثال ، وذات الحلل ، وما شاكلهما ، ولا يكون أقل من مصراعين ، وكل مشطور أو منهوك فهو بيت ، وإن قيل مصرع فعلى المجاز ، وما سوى ذلك مما لم يأت مثله عن العرب فهو مصاريع ليس ببيت ، ولم أجدهم يستعملون في هذه المخمسات إلاّ الرجز خاصة ؛ لأنه وَطِيء سهل المراجعة ، فأما المسمطات فقد جاءت في أوزان كثيرة مختلفة كما قدمت .

---

(١) في المصريتين « أو يشب » وهو مالا وجه له ، والتصحيح عن التونسية

المشطور والمنهوك

ونوعان من الرجز ــ وهما : المشطور ، والمنهوك ــ فأما المشطور فما بنى على شطر بيت ، نحو قول أبى النجم العِجْلِى :

الحمــــد لله الوهوب المجزِلِ   أعطى فـلم يَبْخَلْ ولم يُبَخَّلِ

وأما المنهوك فهو ما بنى على ثُلُثِ بيت ، ونهك بذهاب ثلثيه، أى : أضعف وهذا مثل قول أبى نُوَاس :

و بلدةٍ فيهـــا زَوَرْ   صعراء تخطى فى صعرْ

فأشبه بهما مشطور السريع ومنهوك المنسرح ، وسيأتيان فيما بعد إن شاء الله تعالى . .

وأنشد الزجاجى وزنا مشطراً مُخَيَّر الفصول لا أشك أنه مولدمحدث ، وهو:

سقى طللا بحُزوى   هزيمُ الودق أحوى
عهـــدنا فيه أروى   زمانًا ثم أقوى
وأروى لا كنود   ولا فيها صـــدود
لها طَرْف صَيُودُ   ومُبْتَسم بَرُودُ
لئن شـــط المزار   بهـا ونأت ديار
فقلبى مُسْتَطَارُ   وليس له قرار
ســـتدنيها ذَمول   جَلنفعةٌ ذَلول
إذا عرضت هجول   تقصِّر ما يطول

وهذا وزن ملتبس : يجوز أن يكون مقطوعا من مربع الوافر ، ويجوز أن يكون من المضارع مقبوضاً مكفوفا ، ذكره الجوهرى . .

وأنشد لبعض المحدثين :

أشاقَك طَيْفُ مامَهْ   بمكةَ أمْ حَمَامَهْ

أشاقك : مفاعل ، وحقه فى أصل الوزن مفاعيلن .

المتقدمون لا يخمسون ولا يسمطون

وقد رأيت جماعة يركبون المخمسات والمسمطات ويكثرون منها ، ولم أر متقدماً حاذقاً صنع شيئاً منها ؛ لأنها دالة على عجز الشاعر ، وقلة قوافيه ، وضيق عَطَنه ، ما خلا امرأ القيس فى القصيدة التى نسبت إليه وما أصححُها له ، و بشار بن برد ، فقد كان يصنع المخمسات والمزدوجات عبثاً واستهانة بالشعر ، و بشر بن المعتمر ؛ فقد أنشد الجاحظ له أول مزدوجة ، وصنع ابن المعتز قصيدة فى ذم الصَّبُوح ، وقصيدة فى سيرة المعتضد ركب فيها هذا الطريق ؛ لما تقتضيه الألفاظ المختلفة الضرورية ، ولمراده من التوسع فى الكلام ، والتملح بأنواع السجع .

وهذا الجنس موقوف على ابن وكيع والأمير تميم [بن المعز] ، ومن ناسب طبعهما من أهل الفراغ وأصحاب الرخص ، وقد يقع لبعض الشعراء البيتان والثلاثة لها قافية واحدة يجعلونها معاياة فيتلاقفها العروضيون ، كالأبيات التى تروى لابن دريد وسترد فى مكانها من سوى هذا الباب ، إن شاء الله تعالى .

٢٤ — باب فى الرجز والقصيد

الرجز وأنواعه

قد خص الناس باسم الرجز المشطور والمنهوك وما جرى مجراها ، و باسم القصيد ما طالت أبياته ، وليس كذلك ؛ لأن الرجز ثلاثة أنواع غير المشطور والمنهوك والمقطع : فأما الأول منها فنحو أرجوزة عَبَدَة بن الطبيب :

بَاكرنى بسُحْرَةٍ عـواذلى وعَذْلُهُنَّ خَبَلٌ منَ الخبلْ
يَلُمْنَنِى فى حاجة ذكرتها فى عصر أزمان ودهر قد نسل

والنوع الثانى نحو قول الآخر :

القلبُ منها مُسْتَرِيح سالم والقلبُ منى جاهِدٌ مَجْهُود

والنوع الثالث قول الآخر :

قد هاج قلبي مَنْزِل   مِنْ أُمِّ عَمْرٍو مقْفِرُ

فهذه داخلة في القصيد ، وليس يمتنع أيضاً أن يسمى ما كثرت بيوته من مشطور الرجز ومنهوكه قصيدة ؛ لأن اشتقاق القصيد من « قَصَدْتُ إلى الشيء » كأن الشاعر قصد إلى عملها على تلك الهيئة ، والرجز مقصود أيضا إلى عمله كذلك .

مشطور السريع من القصيد

ومن المقصد ما ليس برجز وهم يسمونه رجزاً لتصريع جميع أبياته ؛ وذلك هو مشطور السريع ، نحو قول الشاعر أنشدناه أبو عبد الله محمد بن جعفر النحوى عن أبي على الحسين بن إبراهيم الآمدى ، عن ابن دريد ، عن أبي حاتم السجستاني ، عن أبي زيد الأنصاري :

هل تعرفُ الدارَ بأَعْلى ذى القُورْ   غَـــيَّرَهَا نَأْجُ الرياحِ وَالْمُورْ

ودرَست غــيرَ رَمادٍ مَكْفُورْ   مُكْتئِبِ اللـون مَرِيحٍ مَمْطُورْ

وغَيْرَ نُؤْيٍ كبقايا الدُّعثور   أزمانَ عَيْنـاَء سُرُورُ المسْرُورْ

* عَيْناَء حَوْرَاء مِنَ الْعِينِ الْحُورْ *

وأنشد أبو عبد الله لابن المعتز :

ومقلة قد بات يبكيها   فَيْضُ نجيع من مآقيها

وَكَلَّهَا طـولُ تمنِّيهَا   بأنجمِ الليـلِ تُرَاعيها

ومهجة قد كاد يُفْنيها   طول سَقامٍ ثابتٍ فيها

وبرؤها في كفِّ مُبْليها   كما ابتلاها فهْوَ يَشْفيها

ليس لها من حبها ناصِرٌ   مَنْ ذا على الأحباب يُعْديها؟

وهذا عند الجوهرى من البسيط ، والذى أنشد أبو عبد الله — على قول الجوهرى — هو من الرجز ، وجعل الجزء الآخر « مستفع لن » مفروق فيه الوتد ، فأسكن اللام ؛ لأن آخر البيت لا يكون متحركا ، فخلفه مفعولات .

منهوك المنسرح

وأما منهوك المنسرح * صبراً بنى عبد الدار *[١] فهو عند الجوهرى من الرجز ، ومثله * وَيْلُمِّ سَعْدٍ سَعْداً[٢] * إلا أنه أقصد منه.

فعلى كل حال تسمى الأرجوزة قصيدة طالت أبياتها أو قصرت ، ولا تسمى القصيدة أرجوزة إلا أن تكون من أحد أنواع الرجز التى ذكرت ، ولو كانت مصرعة الشطور كالذى قدمته ؛ فالقصيد يطلق على كل الرجز ، وليس الرجز مطلقاً على كل قصيد أشبه الرجز فى الشطر .

القريض

قال النحاس: القريض عند أهل اللغة العربية الشعر الذى ليس برجز، يكون مشتقا من « قَرَضَ الشىء » أى: قَطَعه ، كأنه قطع جنساً ، وقال أبو إسحاق: وهو مشتق من القرض ، أى : القطع والتفرقة بين الأشياء ، كأنه ترك الرجز وقطعه من شعره .

وكان أقصر ما صنعه القدماء من الرجز ما كان على جزءين ، نحو قول دريد بن الصمة يوم هوازن :

يا ليتنى فيها جَذَعْ   أَخُبُّ فيها وأَضَعْ[١]

حتى صنع بعض المتعقبين ـ أظنه على بن يحيى ، أو يحيى بن على المنجم ـ أرجوزةً على جزء واحد ، وهى :

طيفٌ أَلَمّْ * بذى سَلَمْ   بعد العَتَمْ * يطوى الأَكَمْ

جادَ بِفَمْ * ومُلْتَزَمْ   فيه هَضَمْ * إذا يُضَمْ

---

(١) نسبه الأسنوى فى شرحه على عروض ابن الحاجب لهند بنت عتبة تقوله يوم أحد تخاطب به بنى عبد الدار أصحاب لواء المشركين ، وبعد هذا :

صبراً حماة الأدبار   ضربا بكل بتار

(٢) هذا من كلام أم سعد بن معاذ لما مات ابنها سعد من جراحة أصابته يوم الخندق .

ويقال : إن أول من ابتدع ذلك سَلْم الخاسر ، يقول فى قصيدة مدح بها موسى الهادى :

مُوسى المطر * غَيْثٌ بَكَرْ   ثم انهمر * ألوى المـرر
كم اعتسر * ثم ايتسر   وَكَمْ قَدَرْ * ثُمَّ غَفَـرْ
عَدْلُ السِّيَرْ * باقى الأثر   خَيْرٌ وَشَرْ * نَفْعٌ وضُرْ
خَيْرُ الْبَشَرْ * فَرْعُ مُضَرْ   بَدْرٌ بَدَرْ * والمفتخـر
لمن غَـبَرْ

والجوهرى يسمى هذا النوع المقطع .

وقد رأى قوم أن مشطور الرجز ليس بشعر ؛ لقول النبى صلى الله عليه وسلم :

هل أنتِ إلاَّ إصْبَعٌ دَمِيتِ   وَفِى سَبِيلِ اللهِ ما لَقِيتِ

بكسر التاء ، ورواية أخرى بسكونها وتحريك الياء بالفتح قبلها ــ وليس هذا دليلا ، وإنما الدليل فى قول النبى صلى الله عليه وسلم عدم القَصْدِ والنية ؛ لأنه لم يقصد به الشعر ولا نواه ؛ فلذلك لا يعد شعراً وإن كان كلاماً متّزنًا ، وإلا فالرُّجاز شعراء عند العرب وفى متعارف اللسان ، إلا أن الليث روى أنهم لما ردوا على الخليل قوله « إن المشطور ليس بشعر » قال : لأحتجن عليهم بحجة إن لم يقروا بها كفروا ، قال : فعجبنا من قوله حتى سمعنا حجته . . وقد رواه قوم «دَميتْ» بإسكان الياء والتاء جميعا ــ ولا يكون حينئذ موزونًا .

الشعراء والرجاز

والراجز قلّما يُقَصِّد ؛ فإن جمعهما كان نهايةً نحو أبى النجم ؛ فإنه كان يقصد ، وأما غَيْلان [1] فإنه كان راجزاً ثم صار إلى التقصيد ، وسئل عن ذلك فقال : رأيتنى لا أقع من هذين الرجلين على شىء ، يعنى العجاج وابنه رؤبة ، وكان جرير والفرزدق

(١) هو ذو الرمة ، واسمه غيلان بن عقبة

يرجزان ، وكذلك عمر بن لجأ كان راجزاً مُقَصِّداً، ومثله حُمَيْد الأرقط ، والعمانى أيضًا ، وأقلهم رجزاً الفرزدق .

وليس يمتنع الرجز على المقصِّد امتناع القصيد على الراجز ، ألا ترى أن كل مقصِّد يستطيع أن يرجز وإن صعب عليه بعضَ الصعوبة ، وليس كل راجز يستطيع أن يقصد ، واسم الشاعر وإن عم المقصِّد والراجز فهو بالمقصد أعلق، وعليه أوقع ، فقيل لهذا شاعر ، ولذلك راجز ، كأنه ليس بشاعر ، كما يقال خطيب أو مرسل أو نحو ذلك .

(٢٥) — باب فى القطع والطوال

متى تحسن الإطالة؟

حدثنا الشيخ أبو عبد الله عبد العزيز بن أبى سهل رحمه الله تعالى ، قال : سئل أبو عمرو بن العلاء : هل كانت العرب تُطِيلُ ؟ فقال : نعم لِيُسمع منها ، قيل : فهل كانت تُوجِزُ ؟ قال : نعم ليحفظ عنها . قال * وقال الخليل بن أحمد : يطول الكلام ويكثر ليفهم ، ويوجز ويختصر ليحفظ ؛ وتستحب الإطالة عند الإعذار ، والإنذار ، والترهيب ، والترغيب ، والإصلاح بين القبائل ، كما فعل زهير ، والحارث بن حِلِّزَة ، ومَنْ شاكلهما ، وإلا فالقِطَعُ أطير فى بعض المواضع ، والطوال للمواقف المشهورات . .

رأى فى الفرزدق

ويحكى أن الفرزدق لما وقع بينه وبين جرير ما وقع وحُكِم بينهما قال بعض الحكام : الفرزدق أشعر ؛ لأنه أقواهما أَسْرَ كلام ، وأجراهما فى أساليب الشعر ، وأقدرهما على تطويل ، وأحسنهما قطعًا ، فقُدِّم بالقطع كما ترى .

حاجة الشاعر إلى القطع

وقال بعض العلماء : يحتاج الشاعر إلى القطع حاجَتَهُ إلى الطوال ، بل هو عند المحاضرات والمنازعات والتمثل والملح أحوج إليها منه إلى الطوال .

وقال أحد المجودين ، وهو محمد بن حازم الباهلى :

أَبَى لِيَ أَنْ أُطِيلَ المَدْحَ قَصْدِى ... إلى المَعْنَى وَعِلْمِيَ بالصَّوَابِ
وَإيجازِى بِمُخْتَصَرٍ قَصِيرٍ ... حَذَفْتُ بِهِ الطَّوِيلَ من الجوابِ

منزلة القطع القصار

وقيل لابن الزِّبَعْرَى : إنك تقصر أشعارك ، فقال : لأن القصار أولج فى المسامع ، وأجْوَلُ فى المحافل ، وقال مرة أخرى : يكفيك من الشعر غُرَّة لائحة ، وسُبَّة فاضحة . .

وقيل للجماز : لم لا تُطيلُ الشعر ؟ فقال : لحذْفِي الفُضُول . وقال له بعض المحدثين وقد أنشده بيتين : ما تزيد على البيت والبيتين ؟ فقال : أردتَ أن أنشدك مُذارعة[1] ، وهو القائل :

أقول بيتاً واحداً أكتفي ... بذكره من دُونِ أبياتِ

وقيل مثل ذلك لعقيل بن عُلَّفة ، فقال : يكفيك من القلادة ما أحاط بالعُنُق .

وقال الجاحظ : [2] قيل لأبى المهوس : لم لا تطيل الهجاء ، ؟ فقال : لم أجد المثل السائر إلا بيتاً واحداً .

وهجا محمدُ بن عبد الملك الزيات أحمد بن أبى دُؤاد بتسعين بيتاً ، فقال ابن أبى دؤاد يخاطبه :

أَحْسَنُ من تسعين بيتاً سُدًى ... جَمْعُكَ مَعْنَاهُنَّ فى بَيْتِ
مَا أَحْوَجَ المُلْكَ إلى مَطْرَةٍ ... تَغْسِلُ عَنْهُ وَضَرَ الزَّيْتِ

فرق ما بين المطيل والموجز

غير أن المطيل من الشعراء أهْيَبُ فى النفوس من الموجِز وإن أجاد ، على

---

(١) فى بعض النسخ « مدارعة » بالدال المهملة .
(١) انظر البيان والتبيين (ج ١ ص١٧٨) تجد شيئاً كثيراً مما ذكره المؤلف هنا ولم ينسبه إلى صاحبه الذى أخذه عنه

أن الموجز من فضل الاختصار ما ينكره المطيل ، ولكن إذا كان صاحب القصائد دون صاحب القطع بدرجة أو نحوها وكان صاحب القطع لا يقدر على التطويل إن حاوَلَهُ بَتَّةً سُوِّيَ بينهما ؛ لفضل غير المجهود على المجهود ، فإنا لا نشك أن المطول إن شاء جرد من قصيدته قطعة أبيات جيدة ، ولا يقدر الآخر أن يمد من أبياته التي هي قطعةٌ قصيدةً .

ولام قوم الكميت على الإطالة فقال : أنا على الإقصار أقدر ، هكذا جاءت الدواية ، ولا تكاد ترى مقطعاً إلا عاجزاً عن التطويل ، والمقصد أيضاً قد يعجز عن الاختصار ، ولكن الغالب والأكثر أن يكون قادراً على ما حاوله من ذلك وبالعجز رمي الكميت .

وكان عبد الكريم بهذه الصفة ، لا يكاد يصنع مقطوعاً ، ولا أظن في جميع أشعارهِ خمس قطع أو نحوها .

وكان أبو تمام على جلالته وتقدمه مقصراً في القطع عن رتبة القصائد . . .

المشهورون بالمقطعات

والمشهورون بجودة القطع من المولدين : بشار بن برد ، وعباس بن الأحنف ، والحسن بن الضحاك ، وأبو نُوَاس ، وأبو علي البصير ، وعلي بن الجهم ، وابن المُعَذَّل ، والجماز ، وابن المعتز .

وكانوا يقولون في زمان منصور الفقيه ـ وهو قريب من عصرنا هذا ـ : إياكم ومنصوراً إذا رمح بالزَّوْج ، وكان ربما هجا بالبيت الواحد .

ووصف عبد الكريم أبا الطيب ؛ فزعم أنه أحسن الناس مقاطيع ، ولو قال مقاطع ـ بلا ياء ـ قلنا : صدقت ولم نخالفه .

متى تسمى القصيدة ؟

وقيل : إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة ، ولهذا كان الإيطاء بعد سبعة غير معيب عند أحد من الناس . . . ومن الناس من لا يعد القصيدة إلا ما بلغ

العشرة وجاوزها ولو ببيت واحد . . ويستحسنون أن تكون القصيدة وتراً ، وأن يتجاوز بها العقد ، أو توقف دونه ؛ كل ذلك ليدلوا على قلة الكلفة ، وإلقاء البال بالشعر .

متى قصد الشعر ؟

وزعم الرواة أن الشعر كله إنما كان رجزاً وقطعاً ، وأنه إنما قُصِّدَ على عهد هاشم بن عبد مناف ، وكان أولَ من قصده مُهَلْهِلٌ وامرؤ القيس ، وبينهما وبين مجيء الإسلام مائة ونيف وخمسون سنة . ذكر ذلك الجمحى وغيره .

أول من طول الرجز

وأول من طَوَّلَ الرجز وجعله كالقصيد الأغلبُ العجلى شيئاً يسيراً ، وكان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى العجاج بعدُ فافْتَنَّ فيه ؛ فالأغلب العجلى والعجاج فى الرجز كامرىء القيس ومهلهل فى القصيد .

الكامل من الشعراء

والشاعر إذا قطع وقصد ورجز فهو الكامل ؛ وقد جمع ذلك كله الفرزدق ، ومن المحدثين أبو نوَاس ، وكان ابن الرومى يُقَصِّد فيجيد ، ويطيل فيأتى بكل إحسان ، وربما تجاوز حتى يُسْرِف ، وخير الأمور أوساطها . . وهو القائل :

وإذا امرُؤٌ مَدَحَ امرأً لنواله فأطال فيه فقد أرادَ هِجَاءَهُ

لو لم يقــدِّر فيه بُعْدَ المستقَى عِنْدَ الْوُرُودِ لما أطال رِشَاءَه

(٢٦) ــ باب فى البديهة والارتجال

حد البديهة

البديهة عند كثير من الموسومين بعلم هذه الصناعة فى بلدنا أو من أهل عصرنا هى الارتجال ، وليست به ؛ لأن البديهة فيها الفكرة والتأيد ، والارتجال ما كان انهماراً وتدفقاً لا يتوقف فيه قائله : كالذى صنع الفرزدق وقد دفع إليه سليمان بن عبد الملك أسيرا من الروم ليقتله ، فدس إليه بعض بنى عبس سيفاً كَهاماً فنبا حين ضرب به ، فضحك سليمان ، فقال الفرزدق ارتجالا فى مقامه ذلك يعتذر لنفسه ، ويعير بنى عبس بِنُبُوٍّ سيف ورقاء بن زهير عن رأس خالد بن جعفر :

فإن يك سَيْفٌ خانَ أو قَدَرٌ أبى ... لتأخير نفس حَيْنها غـــير شاهد
فسَيْفُ بنى عَبْسٍ وقد ضربوا به ... نبَا بِيَدَىْ وَرْقَاء عن رأسِ خالد
كذاك سيوف الهند تنبو ظُباتها ... وَيَقْطَعْنَ أحياناً مَناطَ القلائد
ولو شِئْتُ قَطَّ السيفُ ما بين أنفه ... إلى عَلَقٍ دون الشراسيفِ جَاسِدِ

ثم جلس وهو يقول :

وَلا نَقْتُلُ الأسْرَى ، ولـكن نَفُـكّهُمْ ... إذا أثقل الأعناقَ حمـــلُ المغارم

وكالذى يروى عن أبى الخطاب عمر بن عامر السعدى المعروف بأبى الأسد ، وقد أنشد موسى الهادى شعراً مدحه به يقول فيه :

يا خيرَ من عَقَدَتْ كفاه حُجزته ... وخيرَ من قَلّدَتْهُ أمرَها مُضَرُ

فقال له موسى : إلا مَنْ يا بائس ؟ فقال واصلا كلامه ولم يقطعه :

إلا النبيَّ رســـولَ الله ؛ إن له ... فخراً ، وأنت بذاك الفخرِ تفتخر

ففطن موسى ومَنْ بحضرته أن البيت مستدرك ، ونظروا فى الصحيفة فلم يجدوه ؛ فضاعف صلته .

أعظم ما وقع من الارتجال

وأعظم ارتجال وقع قصيدةُ الحارث بن حِلِّزة بين يدى عمرو بن هند ؛ فإنه يقال: أتى بها كالخطبة ، وكذلك قصيدة عَبِيْدِ بن الأبرص ، وقيل : أفضل البديهة بديهة أمْنٍ ، وَرَدَتْ فى موضع خوف ، فما ظنك بالارتجال وهو أسرع من البديهة ؟ .

قدرة أبى نواس على الارتجال والبديهة

وكان أبو نواس قوى البديهة والارتجال ، لا يكاد ينقطع ولا يُرَوِّى إلا فلتةً ، روى أن الخصيب قال له مرة يمازحه وهما بالمسجد الجامع : أنت غير مدافع فى الشعر ، ولـكنك لا تخطب ! فقام من فوره يقول مرتجلا :

منحتكم يا أهــل مصر نصيحتى ... ألا فَخُذُوا من ناصحٍ بنصيب
رماكم أمــــيرُ المؤمنين بحيةٍ ... أكولٍ لحيّاتِ البلاد شَرُوبِ

فإن يكُ باقى سحر فِرْعَوْنَ فيكُمُ ... فإنّ عصا موسى بكفٍّ خَصيب

ثم التفت إليه وقال : والله لا يأتى بمثلها خطيب مِصْقَعٌ فكيف رأيت ؟ فاعتذر إليه وحلف إنْ كنتُ إلا مازحا .

مسلم ابن الوليد وأبو نواس

وسمعت جماعة من العلماء يقولون : كان مسلم بن الوليد نظير أبى نواس ، وفوقه عند قوم من أهل زمانه فى أشياء ، إلاأن أبا نواس قهره بالبديهة والارتجال ، مع تقبض كان فى مسلم وإظهار توقر وتصنع ، وكان صاحب روية وفكرة لا يبتده ولا يرتجل .

أبو العتاهية

وكان أبو العتاهية — فيمايقال — أقْدَرَ الناس على ارتجال وبديهة ؛ لقرب مأخذه ، وسهولة طريقته ، اجتمع عدة من الشعراء فيهم أبو نواس ؛ فشرب أحدهم ماء ، ثم قال : أجيزوا :

* عَذُبَ المـــاء وطـــابا *

فكلهم تلعثم ، حتى طلع أبو العتاهية ، فقال : فيم أنتم ؟ فأنشـــدوه ، فقال وما تَروّى :

* حَبَّذَا المـــاء شَرَابا *

فأتى بالقسيم رَسْلاً شبيهاً بصاحبه ، وذلك هو الذى أعْوَزَ القومَ لا وزن الكلام .

وصحب رفقة فسمع زُقَاء الديوك ، فقال لرفيقه :

* هل رأيتَ الصُّبْحَ لاَحَا ؟ *

قال : نعم ، قال :

* وسمعت الديك صاحا *

قال : نعم ، قال :

إنما تبكّى على الْمُغْـــتَرِّ بالدنيا وناحا

فاستيقظ رفيقه للكلام أنه شعر ، فرواه ؛ فما جرى هذا المجرى فهو ارتجال .

حد البديهة

وأما البديهة فبعد أن يفكر الشاعر يسيراً و يكتب سريعاً إن حضرت آلة ، إلا أنه غير بطىء ولا مُتَرَاخٍ ، فإن أطال حتى يفرط أو قام من مجلسه لم يُعَدَّ بديهاً .

بديهة الجماز

وقالوا : اجتمع الشعراء بباب الرشيد ، فأذن لهم ، فقال : من يجيز هذا القسيم وله حكمه ؟ فقالوا : وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال :

الملك لله وَحْدَهْ

فقال الجماز :

وللخليفة بَعْدَهْ

والمحب إذا ما حَبِيبه بَاتَ عِنْدَهْ

فقال : أحسنت ، وأتيت على ما فى نفسى ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

بديهة أبى تمام

ومن عجيب ماروى فى البديهة حكاية أبى تمام حين أنشد أحمد بن المعتصم بحضرة أبى يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندى وهو فيلسوف العرب :

إقدام عَمرٍو ، فى سماحة حاتم فى حِلْمِ أَحْنَفَ ، فى ذَكاء إياسِ

فقال له الكندى : ما صنعت شيئاً ، شبهت ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين بصعاليك العرب ! ومَنْ هؤلاء الذين ذكرت ؟ وما قدرهم ؟ فأطرق أبو تمام يسيراً ، وقال :

لا تنكروا ضَرْبِى له مَنْ دونه مثلا شَرُوداً فى النَّدَى والباس

فالله قد ضرب الأقــلَّ لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

فهذا أيضاً وما شاكله هو البديهة ، وإن أعجب ما كان البديهة من أبى تمام ؛ لأنه رجل متصنع ، لا يجبُ أن يكون هذا فى طبعه . وقد قيل : إن الكندى لما خرج أبو تمام قال : هذا الفتى قليل العمر ؛ لأنه ينحت من قلبه ، وسيموت قريباً ، فكان كذلك .

بديهة المتنبى وارتجاله

وقد كان أبو الطيب كثير البديهة والارتجال ، إلا أن شعره فيهما نازل عن طبقته جداً ، وهو لعمرى فى سَعَة من العذر ؛ إذ كانت البديهة كما قال فيها ابن الرومى :

نار الروية نارٌ جِدُّ مُنْضِجَةٍ ... وللبديهة نارٌ ذاتُ تلويح

وقَدْ يُفَضِّلُها قومٌ لسرعتها ... لكنَّها سُرْعَةٌ تمضى مع الريح

وقال عبد الله بن المعتز :

والقولُ بعد الفكر يُؤْمَنُ زَيْغُهُ ... شَتَّانَ بين رَوِيَّةٍ وبديه

شعراء بديهتهم كرويتهم

ومن الشعراء مَنْ شعره فى رويته وبديهته سواء عند الأمن والخوف ؛ لقدرته ، وسكون جَأْشِه ، وقوة غريزته : كهُدْبَةَ بن الخَشْرَم العذرى ، وطرفَةَ ابن العبد البكرى ، ومرة بن محكان السعدى ؛ إذ يقول وقد أمر مصعب بن الزبير رجلا من بنى أسد بقتله :

بنى أسد إنْ تَقْتُلُونى تُحَارِبُوا ... تميما ، إذا الحرب العَوَانُ اشْمَعَلَّتِ

ولستُ وإن كانت إلى حبيبةً ... بباكٍ على الدنيا إذا ما تَوَلَّتِ

وهذا شعر لو روَّى فيه صاحبه حولا كاملا على أمن ودَعَةٍ وفرط شهوة أو شدة حمية لما أتى فوق هذا .

وكذلك عبد يغوث بن صلاءة ؛ إذ يقول فى كلمة طويلة :

أقول وقد شَدُّوا لسانى بنسعةٍ ... أمعشرَ تَيْمٍ أَطْلِقُوا من لسانيا

فيارَاكِباً إمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ ... نَدَامَاىَ من نَجْرَانَ أنْ لاَ تَلاقِيا

وكانوا قد شدوا لسانه خوفاً من الهجاء ، فعاهدهم ، فأطلقوه لينوح على نفسه ، فصنع هذه القصيدة ، وعرض عليهم فى فدائه ألف ناقة ، فأبوا إلا قتله ، فقال :

فإن تقتلونى تقتلونى بخيركم و إن تطلقونى تحربونى بماليا

وهذه شهامة عظيمة وشدة .

ومن قول طرفة بن العبد لما أيقن بالموت :

أبا مُنْذِرٍ كانت غُرُوراً صحيفتى ولم أعطكم بالطوع مالى ولا عرضى

أبا منذر أفْنَيْتَ فاسْتَبْقِ بَعْضَنَا حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشر أهون من بعض

عبيد ابن الأبرص

وأين هؤلاء من عَبِيدِ بن الأبرص ــ وهو شيخ الصناعة ، ومقدم فى السن على الجماعة ــ إذ يقول له النعمان(١) يوم بؤسه : أنشدنى ، فقال : حال الجريضُ دون القريض ، قال : أنشدنى قولك :

أقفرَ من أهله مَلْحُوبُ فالقُطَبِيَّات فالذَّنوب

فقال : لا ، ولـكن :

أقفرَ من أهــله عَبِيدُ فاليَوْمَ لاَ يُبْدِى ولا يُعيدُ

فبلغت به حال الجزع إلى مثل هذا القول ، على أن فى بيتى طرفة بعضَ الضراعة . . .

[تمي]م بن جميل [أ]مام المعتصم

وممن وجد نفسه عند إحاطة الموت به تميم بن جميل ؛ فإنه القائل بين يدى المعتصم وقد قدم السيف والنطع لقتله :

أرى الموتَ بين النطع والسيفِ كامناً يُلاَحظنى من حيثُ مَا أَتَلَفَّتُ

وأَكْبَرُ ظنى أنك اليــوم قاتلى وأَىُّ امرىءٍ مما قضى الله يُفْلِتُ

وأىُّ امرىءٍ يُدْلى بعُذْرٍ وحجـــة وَسَيْفُ المنايا بين عينيه مُصْــلَتَ

(١) كتبنا فى (ص ٤١) من هذا الجزء نستظهر أن المؤلف يظن صاحب يومى البؤس والنعيم هو النعمان بن المنذر وقد صرح به هنا ، وهذا غير صحيح لأن صاحب اليومين هو المنذر بن ماء السماء صاحب الغريين اللذين بناهما قبر بن لنديمين له : أحدهما اسمه خالد بن نضلة الفقعسى ، والثانى اسمــه عمرو بن مسعود ، وانظر (ص ١٠٣) أيضاً

يعــــز على الأوس بن تغلب موقف يُسَلُّ عَلَيَّ السيفُ فيه وأسكتُ
وما حَـــــــزَنى أنى أموت وإنَّنى لأعـــلم أن الموت شىء مُوَقَّتُ
ولـكنَّ خَلفى صِبْيَةً قد تركتهم وأكبـــادُهُمْ من حَسْرَةٍ تتفَتَّتُ
كأنى أراهم حـــين أُنْعَى إليهمُ وقد خمشــوا تلك الوجوهَ وَصَوَّتُوا
فإنْ عِشْتُ عاشوا خافضـــين بنعمة أذود الردى عنهم ، وإن مُتُّ مَوَّتُوا
فـكم قائلٍ : لا أبعـــد الله داره وآخرَ جَذْلاَن يُسَرُّ وَيَشْـــمَتُ

فعفا عنه المعتصم ، وأحسن إليه ، وقلده عملا .

على بن الجهم

وعلى بن الجهم هو القائل وقد صُلِبَ عريانًا :

لم ينصبوا بالشاذياخ عشية الا إثنين مغــلولا ولا مجهــولا
نصبوا بحمد الله مِلْءَ عُيونِهم حُسْنًا، ومِلْءَ قلوبهم تَبْجيلاَ
ما ضَرَّهُ أنْ بُزَّ عنه لِبَاسُهُ فالسيفُ أهولُ ما يُرَى مَسْلُولاً

وهذا من جَزْل الـكلام ، لا سيما فى مثل ذلك المقام ، وكان على من الفضلاء علماً بالشعر وصناعة له .

حكى عن على بن يحيى أنه قال : كنت عند المتوكل إذ أتاه رسول برأس إسحاق بن إسماعيل ، فقام على بن الجهم يخطر بين يديه ويقول :

أهلاً وَسَهْلاً بكَ مِنْ رَسُولِ جِئْتَ بما يَشْفِى منَ الْغَلِيلِ
بِرأسِ إسحاق بن إسْمَاعِيلِ

فقال المتوكل : قوموا التقطوا هذا الجوهر لا يضيع .

والشاعر الحاذق المبرِّز إذا صنع [على] البديهة قُنِعَ منه بالعفو اللين ، والنزر التافه ؛ لما فيها من المشقة ، وهو فى الارتجال أعذر .

اشتقاق البديهة

واشتقاق البديهة من «بدَه» بمعنى بدأ ، أبدلت الهمزة هاء كما أبدلت فى أشياء

كثيرة لقربهامنها ؛ فقد قالوا مدَح(١) ومدَه ، ولَهِنَّكَ تفعل كذا، بمعنى لإنك، ومثل ذلك كثير .

اشتقاق الارتجال

والارتجال مأخوذ من السهولة والانصباب ، ومنه قيل : شَعَرٌ رَجلٌ ، إذا كان سَبْطاً مسترسلاً غير جَعْدٍ ، وقيل : هو من ارتجال البئروهو أن تنزلها برجليك من غير حبل .

(٢٧) — باب فى آداب الشاعر

الصفات التى يجب أن يتحلى بها الشاعر

من حكم الشاعر أن يكون حُلْو الشمائل ، حسن الأخـلاق ، طَلْقَ الوجه ، بعيد الغَوْرِ ، مأمونَ الجانبِ ، سَهْل الناحية ، وطىء الأكناف ، فإن ذلك مما يحببه إلى الناس ، ويُزَيِّنه فى عيونهم ، ويقربه من قلوبهم ، وليكن مع ذلك شريف النفس ، لطيف الحس، عَزُوف الهمة(٢)، نظيف البزة ، أنفاً ؛ لتهابه العامة، ويدخل فى جملة الخاصة ، فلا تمجه أبصارهم ، سَمْحَ اليدين ، وإلا فهو كما قال ابن أبى فنن واسمه أحمد :

وإنّ أحقّ الناسِ باللّوْم شاعرٌ يلوم على البخلِ الرِّجالَ ويَبْخَلُ

وإلى هذا المعنى ذهب الطائى بقوله :

أألوم مَن بخلت يداه وأغتدى للبخل تِرْباً ؟ ساء ذاك صنيعاً !!

حاجة الشعر إلى موادالثقافة

والشاعر مأخوذ بكل علم ، مطلوب بكل مكرمة ؛ لاتساع الشعر واحتماله كلَّ ما حمل : من نحو ، ولغة ، وفقه ، وخبر ، وحساب ، وفريضة ، واحتياج أكثر هذه العلوم إلى شهادته ، وهو مُكْتَفٍ بذاته، مستغنٍ عما سواه ؛ ولأنه قيد للأخبار ، وتجديد للآثار .

---

(١) ليس فى المثال الأول تقارض بين الهاء والهمزة ، وإنما غرض المؤلف إثبات ذلك ، والأمثلة فى العربية كثيرة ، فقد قالوا فى حرف الاستفهام « أ ل » كما قالوا « هل » وقالوا « أيا » و « هيا » فى النداء .

(٢) فى المصريتين والتونسية «عزوب الهمة» .

وصاحبه الذى يذم ويَحْمد ، ويهجو ويمدح ، ويعرف ما يأتى الناس من محاسن الأشياء وما يذَرونه ، فهو على نفسه شاهد ، وبحجته مأخوذ .

الرواية أوثق آلات الشاعر

وليأخذ نفسه بحفظ الشعر والخبر ، ومعرفة النسب ، وأيام العرب ؛ ليستعمل بعض ذلك فيما يريده من ذكر الآثار ، وضرب الأمثال ، وليعلق بنفسه بعض أنفاسهم ويقوى بقوة طباعهم ، فقد وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدمين يفضل أصحابه برواية الشعر ، ومعرفة الأخبار ، والتلمذة بمن[1] فوقه من الشعراء ، فيقولون : فلانٌ شاعر راويةٌ ، يريدون أنه إذا كان راوية عرف المقاصد ، وسهل عليه مأخذ الكلام ، ولم يضق به المذهب ، وإذا كان مطبوعاً لا علم له ولا رواية ضَلّ واهتدى من حيث لا يعلم ، وربما طلب المعنى فلم يصل إليه وهو مائل بين يديه ؛ لضعف آلته : كالمُقْعَدِ يجد فى نفسه القوة على النهوض فلا تعينه الآلة .

وقد سئل رؤبة بن العجاج عن الفحل من الشعراء ، فقال : هو الراوية ، يريد أنه إذا رَوَى استفحل .

قال يونس بن حبيب : وإنما ذلك لأنه يجمع إلى جيد شعره معرفةَ جَيدِ غيره ، فلا يحمل نفسه إلا على بصيرة ، وقال رؤبة فى صفة شاعر :

لَقَدْ خَشِيتُ أن تكون ساحِرَا رَاويةً مَرًّا ومَرًّا شاعِرَا[2]

فاستعظم حاله حتى قرنها بالسحر .

وقال الأصمعى : لا يصير الشاعر فى قريض الشعر فَحْلاً حتى يروى أشعار العرب ، ويسمع الأخبار ، ويعرف المعانى ، وتدور فى مسامعه الألفاظ . وأول

(١) كذا فى عامة الأصول ، وأفضل من هذا « والتلمذة لمن فوقه إلخ »

(٢) انظر (ص ٢٧) من هذا الجزء .

ذلك أن يعلم العروض ؛ ليكون ميزاناً له على قوله ؛ والنحو ؛ ليصلح به لسانه وليقيم به إعرابه ؛ والنسب وأيام الناس ؛ ليستعين بذلك على معرفة المناقب والمثالب وذكرها بمدح أو ذم .

رواية بعض الشعراء عن بعض

وقد كان الفرزدق ـ على فضله فى هذه الصناعة ـ يروى للحطيئة كثيراً ، وكان الحطيئة راوية زهير ، وكان زهير راوية أوس بن حَجَر وطُفَيْل الغنوى جميعاً، وكان امرؤ القيس راوية أبى دؤاد الإيادى : مع فضل نَحِيزة ، وقوة غريزة، ولا بد بعد ذلك أن يلوذ به فى شعره ، ويتوكأ عليه كثيراً ، وقد نزل أعشى بنى قيس بن ثعلبة بين يدى النابغة الذبيانى بسوق عكاظ وأنشده فقدمه،وأنشده حسان بن ثابت ، ولبيد بن ربيعة ؛ فما عابهم ذلك ، ولا غضّ منهم ، وكان كُثَيِّر راوية جميل ومفضلا له : إذا استنشد لنفسه بدأ بجميل ، ثم أنشد ما يراد منه ، ولم يكن بدون جرير والفرزدق ، بل يقدم عليهما عند جميع أهل الحجاز ، وكان أبو حية النميرى ـ واسمه الهيثم بن الربيع ، وهو من أحسن الناس شعراً ، وأنظفهم كلاماً ـ مؤتماً بالفرزدق ، آخذاً عنه ، كثير التعصب له والرواية عنه .

حاجة الشاعر إلى شعر المولدين

ولا يستغنى المولد عن تصفح أشعار المولدين ؛ لما فيها من حلاوة اللفظ ، وقرب المأخذ ، وإشارات الملح ، ووجوه البديع الذى مثله فى شعر المتقدمين قليل ، وإن كانوا هم فتحوا بابه ، وفتقوا جلبابه ، وللمتعقب زيادات وافتنان ، لا على أن تكون عمدةُ الشاعر مطالعةَ ما ذكرته آخر كلامى هذا دون ما قدمته ؛ فإنه متى فعل ذلك لم يكن فيه من المتانة وفضل القوة ما يبلغُ به طاقة من تبع جَادَّته ، وإذا أعانته فصاحة المتقدم وحلاوة المتأخر اشتد ساعده ، وبَعُدَ مرماه ، فلم يقع دون الغرض ؛ وعسى أن يكون أرْشَقَ سِهَامًا ، وأحسن موقعاً ، ممن لو عَوَّل عليه من المحدثين لقصَّرَ عنه ، ووقع دونه ،

وليجعل طلبه أولا السلامة ، فإذا صحت له طَلَبَ التجويدَ حينئذ ، وليرغب فى الحلاوة والطلاوة رَغْبَتَهُ فى الجزالة والفخامة ، وليجتنب السوقىّ القريب ، والحوشىّ الغريب ، حتى يكون شعره حالاً بين حالين كما قال بعض الشعراء :

عليك بأوساط الأمور ؛ فإنها نجاةٌ ، ولا تركب ذلولا ولا صَعْبَا

أول ما يحتاجه معرفة مقاصد الكلام

فأول ما يحتاج إليه الشاعر — بعد الجد الذى هو الغاية ، وفيه وحده الكفاية — حُسْنُ التأتى والسياسة ، وعلم مقاصد القول ؛ فإن نَسَبَ ذل وخضع ، وإن مدح أطرى وأسمع ، وإن هجا أخل[1] وأوجع ، وإن فخر خَبَّ ووَضَع ، وإن عاتب خفض ورفع ، وإن استعطف حَنّ ورجع ، ولكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائنا من كان ؛ ليدخل إليه من بابه ، ويداخله فى ثيابه ، فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذى به تفاوت الناس وبه تفاضلوا . .

لكل مقام مقال

وقد قيل : لكل مقام مقال[2] وشِعْرُ الشاعر لنفسه وفى مراده وأمور ذاته — من مزح ، وغزل ، ومكاتبة ، ومجون ، وخمرية ، وما أشبه ذلك — غَيْرُ شعره فى قصائد الحفل التى يقوم بها بين السماطين : يُقْبَلُ منه فى تلك الطرائق عَفْوُ كلامِهِ ، وما لم يتكلف له بالا ، ولا ألقى به ، ولا يقبل منه فى هذه إلا ما كان محككا ، معاوداً فيه النظر ، جيداً ، لا غثّ فيه ، ولا ساقط ، ولا قَلِقَ ؛ وشعرُهُ للأمير والقائد غيرُ شعره للوزير والكاتب ، ومخاطبته للقضاة والفقهاء بخلاف ما تقدم من هذه الأنواع . . وسيأتى هذا فى موضعه من هذا الكتاب مفصلا ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى نسخة « أقل » ولعلها أحسن

(٢) كذا فى التونسية ، وهو المعروف ، وفى المصريتين « لكل مقام مثال »

يجب أن يتفقد الشاعر شعره

والمتأخر من الشعراء فى الزمان لا يضره تأخره إذا أجاد ، كما لا ينفع المتقدم تقدمهُ إذا قصر ، و إن كان له فضل السَّبْقِ فعليه درك التقصير ، كما أن للمتأخر فضل الإجادة أو الزيادة ، ولا يكون الشاعر حاذقا مجوداحتى يتفقّد شعره ، و يعيد فيه نظره ، فيسقط رديه ، و يثبت جيده ، وَيكون سَمْحاً بالركيك منه ، مطرحاً له ، راغباً عنه ؛ فإن بيتا جيداً يقاوم ألفى ردىء .

وقال امرؤ القيس وهو أول من زعموا أنه أختبر له وعلم به أنه يكون أفضل الشعراء والمقدم عليهم :

أذود القوافِيَ عَنِّى ذِيَاداً ذيادَ غلامٍ جَرِىء جرادا
فلما كَثُرْنَ وَعَنَّيْنَهُ تخيَّرَ مِنهُنَّ شَتَّى جيادا
فأعزِلُ مَرْجَانَهَا جَانِباً وآخُذُ من دُرِّها المستجادا

هكذا فى أكثر النسخ ، وفى بعضها « حراد » بالحاء مكسورة غير معجمة ، و « شتى جيادا » بالشين معجمة مفتوحة غير منونة التاء .

فإذا كان أشعر الشعراء يصنع هذا و يحكيه عن نفسه ، فكيف ينبغى لغيره أن يصنع ؟

وزعم ابن الكلبى أنه امرؤ القيس بن بكر بن امرىء القيس بن الحارث ابن معاوية الكندى ، وروى « سِفى » فى موضع « جرىء » والسفى : السفيه والخفيف أيضاً ، و إليه يرجع اشتقاقه ، وزعم غير ابن الكلبى أن الأبيات لامرىء القيس بن عابس الكندى[1] .

و يقال : إن أبا نواس كان يفعل هذا الفعل ؛ فينفى الدنى و يبقى الجيد .

---

(١) ولم أجد هذه الأبيات فيما شرحه الوزير أبو بكر من شعرامرىء القيس ابن حجر ، والعلماء يسمون الآخر امرأ القيس بن مالك الحميرى :

وليلتمس له من الكلام ما سَهُلَ ، ومن القصد ماعدل ، ومن المعنى ما كان واضحا جليًّا يُعْرَفُ بَدِيًّا ، فقد قال بعض المتقدمين : شر الشعر ما سئل عن معناه ، وكان الحطيئة يقول : خير الشعر الحوليُّ المحكك ، أخذ فى ذلك بمذهب زهير ، وأوس ، وطفيل .

لا يجوز أن يكون الشاعر معجبا بنفسه

ولا يجوز للشاعر — كما يجوز لغيره — أن يكون مُعْجَبًا بنفسه ، مثنياً على شعره ، وإن كان جيداً فى ذاتِهِ ، حسناً عند سامعه ، فكيف إن كان دون ما يظن ؟ كقوم أفردوا لذلك أنفسهم ، وأفنوا فيه أعمارهم وما يحصلون على طائل ، وقد قال الله عز وجل : (فلا تزكوا أنفسكم) اللهم إلا أن يريد الشاعر ترغيب الممدوح أو ترهيبه فيثنى على نفسه ، ويذكر فضل قصيدته ؛ فقد جعلوه مُجَازاً مُسَامحاً فيه : كالذى يعرض لكثير من الشعراء فى أشعارهم من مدح قصائدهم ، على أن أبا تمام يقول :

ويُسِيءُ بالإحْسَانِ ظَنًّا لاَ كَمَنْ … يأتيك وهو بِشِعْرِهِ مَفْتُونُ

وإن كان أوصف الناس لقصيده ، وأكثرهم وَلُوعاً بذلك ، وهذا ما دام شعراً كان محمولا على ما قدمناه ، وإنما المكروه المعيب أن يكون ذلك منثوراً أو تأليفاً مسطوراً : كالذى فعل الناشىء أبو العباس فى أشياء من شعره ذكرها فى كتابه الموسوم بتفضيل الشعر ؛ فشكرها ، ونوه [بها] ، ونبه عليها ، وفضلها على أشعار الفحول : مثل جرير وغيره ، منها قول جرير :

إن العيون التى فى طرفها مرض[1] … قَتَلْنَنَا ثمَّ لم يُحْيِينَ قتلاَنَا

يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِّ حَتَّى لاحِرَاكَ به … وهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللهِ إنْسَانَا

وزعم — بعد إقامة ماحسبه برهانا — أن قوله :

لا شَيْءَ أَعْجَبُ مِنْ عَيْنَيْكِ ؛ إنَّهُمَا … لا يُضْعِفَانِ القُوَى إلاَّ إذا ضَعُفَا

---

(١) يروى * إن العيون التى فى طرفها حور *

خير منه ، وأسلم من الاعتراض ، وأكثر اختصاراً .

بين امرىء القيس وشاعر يشكرى

ويجب على الشاعر أن يتواضع لمن دونه ، ويعرف حق من فوقه من الشعراء ؛ فإن امرأ القيس — وكان شديد الظنة فى شعره ، كثير المنازعة لأهله ، مُدِلا فيه بنفسه ، واثقاً بقدرته — لقى التوأم اليشكرى ، واسمه الحارث [١] بن قتادة ، فقال له: إن كنت شاعراً كما تقول فملط [٢] لى أنصاف ما أقول فأجزها ، قال : نعم ، فقال امرؤ القيس :

أحارِ تَرَى بُرَيْقاً هَبَّ وَهْنَا

فقال التوأم : كنارِ مَجُوسَ تستعر استعارا

فقال امرؤ القيس : أرقت له ونام أبو شريحٍ

فقال التوأم : إذا ماقلتُ قد هدأ استطارا

فقال امرؤ القيس : كأن هزيمه بوراء غيب [٣]

---

(١) جعل ياقوت اسمه الحارث بن التوأم اليشكرى ، وجعل قتادة وأبا شريح أخوين للحارث . وذكر هذه القصة وأنها وقعت لامرىء القيس مع الإخوة الثلاثة وأن امرأ القيس قال * أحار ترى . . . * فقال الحارث * كنار مجوس . . . . فقال قتادة * أرقت له . . . . استطارا * فقال أبو شريح * كأن هزيزه . . عشارا * فقال الحارث * فلما أن علا . . . فحارا * فقال قتادة * فلم يترك ببطن السر . . . حمارا * فقال امرؤ القيس بعد هذا : إنى لأعجب من بيتكم هـذا كيف لايحترق من جودة شعركم ! ! فسموا بنى النار يومئذ .

(٢) قال المجد فى القاموس : « ومالطه : قال نصف بيت وأتمه الآخر كملطه تمليطا » اهـ

(٣) يروى

* كأن هزيزه بوراء غيث *

كما سمعت .

فقال التوأم : عِشارٌ وَالهٌ لاَقَتْ عشارا
فقال امرؤ القيس : فلما أن عَلاَ كَنَفَىْ أُضَاخٍ[1]
فقال التوأم : وَهَتْ أعْجَازُ رَيِّقِهِ فحارا
فقال امرؤ القيس : فلم يترك بذات السر ظبيا
وقال التوأم : ولم يترك بجَلْهَتِها حِمارا

فلما رآه امرؤ القيس قد ماتنه ، ولم يكن فى ذلك الحَرْسِ ـ أى : العَصْر ـ من يماتنه ـ أى : يقاومه و يطاوله ـ آلى ألاّ ينازع الشعر أحداً آخر الدهر ، روى ذلك أبو عبيدة عن أبى عمرو بن العلاء ، ولو نظر بين الكلامين لوجد التوأم أشعر فى شعرهما هذا ؛ لأن امرأ القيس مبتدىء ما شاء ، وهو فى فسحة مما أراد ، والتوأم محكوم عليه بأول البيت ، مضطر فى القافية التى عليها مدارهما جميعاً ، ومن ههنا ـ والله أعلم ـ عرَفَ له امرؤ القيس من حق المماتنة ما عرف ، ونازع أيضاً علقمة بن عبدة فكان من غلبة علقمة عليه ما كان ..

بين جرير وشاعر

وأما جرير فهجاه شاعر يقال له : البرْدَختُ ، فقال : ما اسمه ؟ قيل له : البردخت ، فقال : وما معنى البردخت ؟ قالوا له : الفارغ ، فقال : إذاً والله لا أشغله بنفسى أبداً ، وسالمه ؛ هذا وهو جرير الذى غلب شياطين الشعراء ، وسَكَّنَ شقاشق الفحول ..

بين عقبة ابن رؤبة وشاعر

وأما عقبة بن رؤبة بن العجاج فإنه أنشد عقبة بن سَلْم[2] بحضرة بشار أرجوزة ، فقال : كيف ترى يا أبا معاذ ؟ فأثنى بشار كما يجب لمثله أن يفعل ، وأظهر الاستحسان ، فلم يعرف له عقبة حقه ، ولا شكر له فعله ، بل قال له : هذا

---

(١) أضاخ ـــ بالضم وآخره خاء معجمة ـــ من قرى اليمامة لبنى نمير ، ذكره ياقوت ، ويروى : * فلما أن علا شرجى أضاخ *

(٢) عقبة بن سلم : كان واليا على البصرة ، من قبل أبى جعفر المنصور ، وكان جبارا عاتيا .

طِرَازٌ لاتحسنه ، فقال له بشار : أَلمثلى يقال هذا الكلام ؟ أنا والله أرجز منك ومن أبيك ومن جدك ، ثم غدا على عقبة بن سَلم بأرجوزته التى أولها :

يا طلل الحىِّ بذات الصَّمْدِ[1] بالله خبر كيف كنتَ بعدى

فَضَحَ بها ابن رؤبة فضيحة ظاهرة كان غنيا عنها ..

إعجاب البحترى بنفسه

وكان فى البحترى إعجاب شديد ، إذا أنشد يقول : مالكم لا تعجبون ؟ أما حَسَنٌ ما تسمعونَ ؟ فأنشد المتوكل يوماً قصيدته التى أولها :

عَنْ أىِّ ثغرٍ تَبْتَسِمْ ؟ وبأى طَرْفٍ تحتكِمْ ؟

وأبو العباس الصَّيْمَرِى حاضر ، فلما رأى إعجابه قام حذاءه فقال :

من أى سَلْحٍ تَلْتَقِمْ ؟ وبأى كَفٍّ تَلْتَطِمْ ؟
ذَقْنُ الوليـدِ البحترىِّ أبى عُبادة فى الرَّحِمْ

فَوَلَّى البحترى وهو غضبان ، فقال: وعلمتُ أنك تنهـزم

فضحك المتوكل حتى فحص برجليه ، وأعطى الصَّيْمرى جائزة سنية .

(٢٨) — باب عمل الشعر ، وشحذ القريحة له

لكل شاعر فترة

لابد للشاعر — وإن كان فحلا ، حاذقاً ، مُبَرِّزاً ، مقدماً — من فترة تَعْرِض له فى بعض الأوقات : إما لشغل يسير ، أو موت قريحة ، أو نُبُوٍّ طبع فى تلك الساعة أو ذلك الحين . وقد كان الفرزدق — وهو فحل مُضَرَ فى زمانه — يقول : تمرُّ على الساعة وقَلْع ضرس من أضراسى أهونُ علىَّ من عمل بيت من الشعر . فإذا تمادى ذلك على الشاعر قيل : أصْفَى وأفْحَى ، كما يقال « أفحت الدجاجة»

(١) فى معجم ما استعجم : الصمد : موضع فى ديار بنى يربوع . وفى معجم ياقوت : الصمد : ماء للضباب .

إذا انقطع بيضها ، وكذلك يقال له : أَجْبَلَ ، كما يقال لحافر البئر إذا بلغ جبلا تحت الأرض لا يعمل فيه شيء : أَجْبَلَ ، ومثل أجبل: أَكْدَى ، إلا أنهم خصوا به العطاء ، وذلك أن يصادف حافر البئر كدية فلا يزيد شيئاً على ما حفر ، ويقال : أفحم الشاعر على أفعل ، قالوا : وهو من «فُحِمَ الصبيُّ» إذا انقطع صوته من شدة البكاء ، فإن ساء لفظه وفسدت معانيه قيل له : أَهْتَرَ فهو مهتر . وقد قيل في الذبياني : إنه إنما كان شعره نظيفاً من العيوب لأنه قاله كبيراً ، ومات عن قرب ، ولم يهتر . . وأكثر ما جاء الإهتار في صفة الكبير الذي يختلط كلامه وقولهم في شعر النابغة إنه قاله وهو كبير يَدُلُّ على أنه بهذا سمى نابغة كما عند أكثر الناس ، لا لقوله :

* فَقَدْ نَبَغَتْ لَنَا مِنهُمْ شُئونُ *

كما تقدم [١] من قول بعضهم . ويقال : أخلى الشاعر ، كما يقال أخلى الرامى ، إذا لم يُصِبْ معنى .

رأى فى أشجع السلمى

حكى عن البحترى أنه قال : فاوضت ابن الجهم علياً فى الشعر ، وذكر أَشْجَعَ السُّلَمِى فقال : إنه كان يخلى ، فلم أفهمها عنه ، وأنفت أن أسأله عنها ، فلما انصرفت فكرت فيها ، ونظرت فى شعر أشجع ، فإذا هو ربما مرت له الأبيات مغسولة ليس فيها بيت رائع .

وسائل الشعراء لاستدعاء الشعر

ثم إن للناس فيما بعد ضروباً مختلفة : يستدعون بها الشعر ، فتشحذ القرائح وتنبه الخواطر ، وتلين عريكة الكلام ، وتسهل طريق المعنى : كل امرئ على تركيب طبعه ، واطراد عادته ، وسيأتى ذلك فى أقاويل العلماء بما أرجو أن تكون فيه هداية إن شاء الله تعالى .

---

(١) انظر (ص ٤٧) من هذا الجزء .

قال بكر بن النَّطّاح الحَنَفِي : الشعر مثل عين الماء : إن تركتها اندفنت ، و إن استهتنتها هتنت ، وليس مراد بكر أن تستهتن بالعمل وحــدهُ ؛ لأنا نجد الشاعر تكلُّ قريحته مع كثرة العمل مراراً ، وتنزف مادته ، وتنفد معانيه ، فإذا أجم طبعه أياماً — وربما زمانا طويلا — ثم صنع الشعر جاء بكل آبِدَةٍ ، وانهمر فى كل قافية شاردة ، وانفتح له من المعانى والألفاظ ما لو رامه من قبل لاستغلق عليه ، وأبهم دونه ، لــكن بالمذاكرة مرة ؛ فإنها تقدح زناد الخاطر ، وتفجر عيون المعانى ، وتوقظ أبصار الفطنة ، و بمطالعة الأشعار كرة ؛ فإنها تبعث الجدّ ، وتولد الشهوة .

وسئل ذو الرمة : كيف تفعل إذا انقفل دونك الشعر ؟ فقــال : كيف ينقفل دونى وعندى مفاتحه ؟ قيل له : وعنه سألناك ، ما هو ؟ قال : الخلوة بذكر الأحباب ، فهــذا لأنه عاشق ، ولعمرى إنه إذا انفتح للشاعر نسيبُ القصيدة فقد ولَجَ من البابِ ، ووضع رجله فى الركاب ، على أن ذا الرمة لم يكن كثير المدح والهجاء ، و إنما كان واصف أطلال ، ونادب أظْعَان ، وهو الذى أخرجه من طبقة الفحول .

وقيل لــكثير : كيف تصنع إذا عسر عليك الشعر ؟ قال : أطوف فى الرباع المحيــلَةِ ؛ والرياض المُعْشِبة ، فيسهل على أرْصَنُه ، و يسرع إلى أحسنه .

وقال الأصمعى : ما استدعى شارد بمثل المــاء الجارى ، والشرف العالى ، والمــكان الخالى — وقيل : الحالى ، يعنى الرياض —

وحدثنى بعض أصحابنا من أهل المهدية — وقد مررنا بموضع بها يعرف بالــكدية هو أشرفها أرضاً وهواء — قال : جئت هذا الموضع مرة فإذا عبد الــكريم على سطح برج هنالك قد كشف الدنيا ، فقلت : أبا محمد ؟ قال : نعم ، قلت : ما تصنع ههنا ؟ قال : ألقح خاطرى ، وأجلو ناظرى ، قلت : فهل نتج لك شىء ؟

قال : ماتقرّ به عيني وعينك إن شاء الله تعالى ، وأنشدنى شعراً يدخل مسام القلوب رقة ، قلت : هذا اختبار منك اخترعته ، قال : بل برأى الأصمعى .

وقالوا : كان جرير إذا أراد أن يؤبد قصيدة صنعها ليلا : يشعل سراجه ويعتزل ، وربما علا السطح وحده فاضطجع وغطى رأسه رغبة فى الخلوة بنفسه . يحكى أنه صنع ذلك فى قصيدته التى أخزى بها بنى نمير ، وقد تقدم ذكرها[1] .

وروى أن الفرزدق كان إذا صعبت عليه صنعة الشعر ركب ناقته ، وطاف خاليًا منفرداً وحده فى شعاب الجبال وبطون الأودية والأماكن الخربة الخالية ، فيعطيه الكلام قياده . حكى ذلك عن نفسه فى قصيدته الفائية :

عَزَفْتَ بأعشاشٍ وما كِدْتَ تعزِفُ

وذكر أن فتى من الأنصار بحضرة كثير ــ أو غيره ــ فاخره بأبيات حسان ابن ثابت :

لنا الجفناتُ الغرُّ يَلْمَعْنَ بالضحى وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدَةٍ دَمَا

فأنظره سنة فمضى حَنِقاً ، وطالت ليلته ولم يصنع شيئاً ، فلما كان قرب الصباح أتى جبلا بالمدينة يقال له ذُباب ، فنادى : أخاكم يابنى لبينى ، صاحبكم ، صاحبكم ، صاحبكم ، وتوسَّدَ ذراع ناقته ، فانثالت عليه القوافى انثيالا ، وجاء بالقصيدة بكرة وقد أعجزت الشعراء وبَهَرَتْهم طولا وحسنا وجودة .

وقيل لأبى نواس : كيف عملك حين تريد أن تصنع الشعر ؟ قال : أشرب حتى إذا كنت أطيب ما أكون نفسا بين الصاحى والسكران صنعت وقد داخلنى النشاط وهَزَّتْنِى الأرْيَحِية .

---

(١) انظر (ص ٥٠) من هذا الجزء .

أوقات صنعة الشعر

قال ابن قتيبة : وللشاعر أوقات يسرع فيها أَتِيُّهُ، ويسمح فيها أَبِيُّهُ : منها أول الليل قبل تغشى الكرى ، ومنها صدر النهار قبل الغَدَاء ، ومنها يوم شرب الدواء ، ومنها الخلوة فى الحبس والمسير ، ولهذه العلل تختلف أشعار الشاعر ورسائل المترسل .

وحكى عن أبى تمام ـ وقد سأله البحترى عن أوقات صنعة الشعر ـ قريبٌ من هذا لا أحفظه نصا ، ولا أشك أن ابن قتيبة به اقتدى ، إن كان مما رواه[1]

ومما يجمع الفكرة من طريق الفلسفة استلقاء الرجل على ظَهْره ، وعلى كل حال فليس يفتح مُقْفَلَ بحار الخواطر مثلُ مباكرة العمل بالأسحار عند الهُبُوب من النوم ؛ لكون النفس مجتمعة لم يتفرق حِسُّهَا فى أسباب اللهو أو المعيشة أو غير ذلك مما يعييها ، وإذ هى مستريحة جديدة كأنما أنشئت نشأة أخرى ؛ ولأن السَّحَر ألطف هواء ، وأرق نسيماً ، وأعدل ميزاناً بين الليل والنهار ، وإنما لم يكن العشىُّ كالسحر ـ وهو عَدِيلُه فى التوسط بين طرفى الليل والنهار ـ لدخول الظلمة فيه على الضياء بضد[2] دخول الضياء فى السحر على الظلمة ، ولأن النفس فيه كَالَّةٌ [مريضة] من تعب النهار وتصرفها فيه ، ومحتاجة إلى قوتها من النوم متشوقة نحوه ؛ فالسحر أحسن لمن أراد أن يصنع، وأما لمن أراد الحفظ والدراسة وما أشبه ذلك فالليل ، قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : (إن ناشئة الليل هى أشدُّ وطأ وأقوم قيلا) وهذا الكلام

(١) فى التونسية « إن كان رآه » وهى عبارة قريبة الصحة : وقدمات ابن قتيبة فى سنة ٢٧٦ من الهجرة ، ومات أبو تمام فى سنة ٢٣١ من الهجرة على المختار من أقوال الناس فى وفاته .

(٢) فى المصريتين « بعد » وهو خطأ ظاهر .

الذى لامَطْعَنَ فيه ، ولا اعتراض عليه ، وعلى قراءة من قرأ (وطاء) يكون معناه أثقل على فاعله ، و إذا كان كذلك كان أكثر أجرا ، فهذ يشهَدُ لنا أن العمل أول الليل يصعب ؛ لأن النوم يغلب والجسم يَـكِلُّ .

بعض أحوال أبى تمام

وكان أبو تمام يُـكْرِه نفسه على العمل حتى يظهر ذلك فى شعره . . حكى ذلك عنه بعض أصحابه ، قال : استأذنت عليه — وكان لايستتر عنى — فأذن لى فدخلت [فإذا هو] فى بيت مصهرج قد غسل بالماء ، يتقلب يميناً وشمالاً ، فقلت : لقد بلغ بك الحرُّ مبلغاً شديداً ، قال : لا ، ولـكن غيره ، ومكث كذلك ساعة ثم قام كأنما أطلق من عقال ، فقال : الآن وردت ، ثم استمدَّ وكتب شيئاً لاأعرفه ، ثم قال: أتدرى ما كنت فيه مذالآن ؟ قلت : كلا ، قال : قول أبى نواس :

كالدهرِ فيه شرَاسَةٌ وليانُ

أردت معناه فشَمَسَ علىَّ حتى أمكن الله منه فصنعت .

شرِسْتَ، بل لنتَ، بل قانيتَ ذاكَ بذَا فأنتَ لا شَكَّ فيـك السهل والجبل

ولعمرى لو سكتَ هذا الحاكى لنَمَّ هذا البيت بما كان داخل البيت ؛ لأن الـكلفة فيه ظاهرة ، والتعمل بين ، على أن مثل حكاية أبى تمام وأشد منها قد وقعت لمن لا يتهم ، وهو جرير : صنع الفرزدق شعراً يقول فيه :

جرير والفرزدق

فإنى أنا الموتُ الذى هو ذاهبٌ بنفْسِكَ ،فانظر كيف أنتَ مُحَاوله

وحلف بالطلاق أن جريراً لا يغلبه فيه ، فكان جرير يتمرغ فى الرَّمْضَاء و يقول : أنا أبو حَزْرَةَ ، حتى قال :

أنا الدهرُ : يَفْنَى الموتُ والدهرُ خالدٌ فجئنى بمثـــلِ الدَّهْرِ شيئا يطاوله

كيف كان أبو تمام ينظم ؟

وكان أبو تمام ينصب القافية للبيت ؛ ليعلق الأعجاز بالصُّدُور ، وذلك هو ا... ر فى الشعر ، ولا يأتى به كثيراً إلا شاعر متصنع كحبيب ونظرائه ،

والصواب أن لا يصنع الشاعر بيتا لا يعرف قافيته ، غير أنى لا أجد ذلك فى طبعى جملة ، وَلا أقدر عليه ، بل أصنع القسيم الأول على ما أريدهُ ، ثم ألتمس فى نفسى ما يليق به من القوافى بعد ذلك ، فأبنى عليه القسيم الثانى : أفعل ذلك فيه كما يفعل مَنْ يبنى البيت كله على القافية ، ولم أر ذلك بمخل علىّ ، ولا يزيحنى عن مُرَادى ، ولا يغير علىّ شيئاً من لفظ القسيم الأول ، إلا فى النُّدرة التى لا يعتدبها أو على جهة التنقيح المفرط .

عبد الله بن رواحة

وسأل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عبدَ الله بن رواحة كالمتعجب من شعره، فقال : كيف تقول الشعر ؟ قال : أنظر فى ذلك ثم أقول ، قال : فعليك بالمشركين ولم يكن أعدّ شيئاً ، فأنشد أبياتاً منها :

فَخَبِّرُونِىَ ، أَثْمَانَ الْعَبَاء ، مَتَى كُنْتُمْ بَطَارِيقَ أَوْ دَانَتْ لَكُمْ مُضَرُ ؟؟

فعرف الكراهية فى وجه النبى صلى الله عليه وسلم ، لما جعل قومه أثمان العَبَاء ، فقال :

نُجَالِدُ الناسَ عن عرض ونأسرهم فينا النبىُّ ؛ وفينا تَنزِلُ السُّوَرُ
وقــد علمتم بأنا ليسَ يَغْلِبُنَا حىٌّ من الناس: إن عزوا، و إن كثروا

ينتهى إلى أن يقول فى النبى صلى الله عليه وسلم :

فَثَبَّتَ اللهُ مَا أعطَاكَ مِنْ حَسَنٍ تَثْبِيتَ موسى ، ونصراً كالذى نصروا

فأقبل عليه النبى صلى الله عليه وسلم بوجهه ، فقال : « و إياكَ فثبت الله يا ابن رواحة » .

طريقة جماعة من الشعراء فى النظم

ومن الشعراء من يسبق إليه بيت واثنان ، وخاطره فى غيرهما : يجب أن يكونا بعد ذلك بأبيات ، أو قبله بأبيات ، وذلك لقوة طبعه ، وانبعاث مادته ، ومنهم من ينصب قافية بعينها لبيت بعينه من الشعر مثل أن تكون ثالثة أو رابعة أو نحو ذلك لا يعدو بها ذلك الموضع إلا انحل عنه نظم أبياته ، وذلك

عيب في الصنعة شديد ، ونقص بين ؛ لأنه ـ أعني الشاعر ـ يصير محصوراً على شيء واحد بعينه ، مُضَيَّقاً عليه ، وداخلا تحت حكم القافية .

وكانوا يقولون : ليكن الشعر تحت حكمك ، ولا تكن تحت حكمه .

ومنهم مَنْ إذا أخذ في صنعة الشعر كتب من القوافي ما يصلح لذلك الوزن الذي هو فيه ، ثم أخذ مستعملها ، وشريفها ، ومساعد معانيه ، وما وافقها ، واطّرَحَ ما سوى ذلك ، إلا أنه لا بد أن يجمعها ليكرر فيها نظره ، ويعيد عليها تخيره في حين العمل ، هذا الذي عليه حُذَّاق القوم .

ومن الشعراء مَنْ إذا جاءه البيت عَفْواً أثبته ، ثم رجع إليه فنقحه ، وصفاه من كدره ، وَذلك أسرع له ، وأخف عليه ، وأصح لنظره ، وأرخى لباله ..

وآخَرُ لا يثبت البيت إلا بعد إحكامه في نفسه ، وتثقيفه من جميع جهاته ، وذلك أشرف للهمة ، وأدل على القدرة ، وأظهر للكلفة ، وأبعد من السرقة .

وسألت شيخا من شيوخ هذه الصناعة فقلت : ما يعين على الشعر ؟ فقال : زهرة البستان ، وراحة الحمام .

وقيل : إن الطعام الطيب ، والشراب الطيب ، وسَمَاع الغناء ، مما يرقّ الطبع ، ويصفي المزاجَ ، ويعين على الشعر .

ولما أرادت قريش معارضة القرآن عكف فصحاؤهم الذين تعاطَوْا ذلك على لُبَاب البرّ وسُلاَف الخمر ولحوم الضأن والخلوة إلى أن بلغوا مجهودهم . فلما سمعوا قول الله عز وجل (وَقِيلَ يا أرض ابلعي ماءكِ ، ويا سماء أقلعي ، وغِيضَ الماء ، وقضى الأمر ، واستوتْ على الجوديِّ ، وقيلَ بُعْداً للقوم الظالمين) يئسوا مما طمعوا فيه ، وعلموا أنه ليس بكلام مخلوق .

وَقيل : مِقْوَدُ الشعر الغِناء به ، وذكر عن أبي الطيب أن متشرفاً تشرف عليه وهو يصنع قصيدته التي أولها :

* جَلَلاً كما بى فَلْيَكُ التبريح[1] *

وهو يتغنّى و يَصْنَع ، فإذا توقف بعض التوقف رَجّع بالإنشاد من أول القصيدة إلى حيث انتهى منها .

وقال بعضهم : مَنْ أراد أن يقول الشعر فليعشق فإنه يرق ، ولْيَرْوِ فإنه يدل ، وليطمع فإنه يصنع . وقالوا : الحيلة لـكَلاَل القريحة انتظار الجمام ، وتصيد ساعات النشاط ، وهذا عندى أنجع الأقوال، و به أقول ، و إليه أذهب ..

وقال بكر بن عبد الله المزنى : لا تكدوا القلوب ولا تهملوها ، وخير الفكر ما كان فى عقب الجمام ، ومَنْ أكره بصره عشى ، واشحذوا القلوب بالمذاكرة ولا تيئسوا من إصابة الحكمة إذا منحتم ببعض الاستغلاق ، فإن من أدْمَنَ قَرْع الباب وَصَل .

وقال الخليع : من لم يأت شعره من الوحدة فليس بشاعر ، قالوا : يريد الخلوة ، وربما أراد الغربة ، كما قال ديك الجن : ما أصْفَى شاعر مغترب قط .

صحيفة بشر بن المعتمر فى البلاغة

ومما لا يسع تركه فى هذا الموضع صحيفة كتبها بشر بن المعتمر ، ذكر فيها البلاغة ، ودل على مظان الكلام والفصاحة ، يقول فيها : خذ من نفسك ساعةَ فراغك ، وفراغ بالك ، و إجابتها إياك ، فإن قلبك تلك الساعةَ أكرمُ جوهرٍ وأشرف حساً ، وأحسن فى الأسماع[2] ، وأحلى فى الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع ، واعلم أن ذلك أجْدَى عليك مما يعطيك يومُكَ الأطول بالكد والمجاهدة ، و بالتكلف والمعاندة ، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصداً ، أو خفيفاً على اللسان سهلا

---

(١) تمامه * أغذاء ذا الرشأ الأغن الشيح * وهو مطلع قصيدة مدح بها مساور بن محمد الرومى (انظر الديوان : ج ١ ص ١٦٤) .

(٢) فى المصريتين المطبوعتين « وأحسن فى الإسماع » وهو تصحيف .

كما خرج من ينبوعه ، ونَجَمَ من معدنه . وإياك والتوعر ، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذى يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك ، ومن أراغ[1] معنى كريماً فَلْيَلْتَمس له لفظاً كريماً ؛ فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن يصونهما عما يفسدهما ويُهَجِّنهما ، وعما تَعُوُد من أجله أسوأ حالا منك من قبل أن تلتمس إظهارهما ، وترهن نفسك فى ملابستهما وقضاء حقهما ، وكن فى إحدى ثلاث منازل : فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا ، وفخما سهلا ، ويكون معناك ظاهراً مكشوفا ، وقريبا معروفا : إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وإما للعامة إن كنت للعامة أردت ، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة . وإنما مَدَارُ الشرف مع الصواب وإحراز المنفعة ، ومع موافقة الحال ، ومع ما يجب لكل مقام من المقال ، وكذلك اللفظ العامى والخاصى ، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلمك ، ولطف مداخلك ، واقتدارك فى نفسك على أن تفهم العامة معانى الخاصة وتَكْسُوهَا الألفاظ المتوسطة التى لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء ؛ فأنت البليغ التام . وإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسمح لك عند أول نظرك فى أول تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصل إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل فى مركزها وفى نصابها ولم تتصل بشكلها ، وكانت قَلِقَةً فى مكانها نافرة عن موضعها ؛ فلا تُكْرِهْهَا على اغتصاب مكانها ، والنزول فى غير أوطانها ؛ فإنك ـ إذا لم تتعاط قَرْضَ الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ـ لم يعبك بترك ذلك أحد ؛ فإن أنت تكلفتها ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ، ولا محكماً

---

(١) أراغ ـ بالغين المعجمة والهمزة أوله ـ أراد وطلب ، ومثله ارتاع ، وفى التونسية « راع » وهو خطأ .

لشأنك ، بصيراً بمـا عليك ولك ؛ عابك من أنت أقل منه عيباً ، ورأى من هو دونك أنه فوقك . فإن أنت ابتليت بأن تتـكلف القول وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطباع ؛ فلا تعجل ، ولا تضجر ، ودَعْهُ بياضَ يومك أو سواد ليلك ، وعاوِدْهُ عند نشاطك وفراغ بالك ؛ فإنك لا تعدم الإجابة والمُوَاتاةَ إن كانت هناك طبيعة ، أو جَرَيْتَ فى الصناعة[1] على عِرْقٍ ، فإن تمنّع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل ، ومن غير طول إهمال ؛ فالمنزلة الثالثة أن تتحول عن هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك ، وأخفها عليك ؛ فإنك لم تشتهه ولم تنازع[2] إليه إلا و بينكما نسب ، والشىء لايحن إلا إلى ما شاكله ، و إن كانت المشاكلة قد تكون فى صفات[3] ، إلا أن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ، ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة ، كما تجود به مع الشهوة والمحبة .

أفضل ما استعان به شاعر

وقال بعض أهل الأدب : حسب الشاعر عَوْناً على صناعته أن يجمع خاطره ، بعد أن يُخْلِى قلبه من فضول الأشغال ، ويدع الامتلاء من الطعام والشراب ، ثم يأخذ فيما يريده . وأفضل ما استعان به الشاعر فضل غنى أو فرط طمع[4] . والفقر آفة الشعر ، و إنما ذلك لأن الشاعر إذا صنع القصيدة وهو فى غنى وسعة نقحها وأنعم النظر فيها على مهل ، فإذا كان مع ذلك طمعٌ قوِىَ انبعاثها من يَنْبُوعها ، وجاءت الرغبة بها فى نهايتها محـكمة ، و إذا كان فقيراً مضطراً رضى بعفو كلامه ، وأخذ ما أمـكنه من نتيجة خاطره ، ولم يتسع فى بلوغ مراده ولا بلوغ مجهود نيته ؛ لما يحفزُه من الحاجة والضرورة ، فجاء دون عادته فى سائر أشعاره

---

(١) فى التونسية « من الصناعة » .
(٢) كذلك هو فى عامة الأصول ، ولعله « ولم تنزع إليه » .
(٣) فى التونسية « فى طبقات » .
(٤) هكذا فى التونسية ، وفى المصريتين « أو فضل طمع » .

وربما قصر عمن هو دونه بكثير ، ومنهم من تحمى الحاجة خاطره ، وتبعث قريحته ؛ فيجود ، فإذا أوسع أنِفَ ، وصعب عليه عمل الأبيات اليسيرة فضلا عن الكثيرة ، وللعادة فى هذه الأشياء فعل عظيم ، وهى طبيعة خامسة كما قيل فيها .

(٢٩) — باب فى المقاطع والمطالع

حد المقاطع والمطالع

اختلف أهل المعرفة فى المقاطع والمطالع : فقال بعضهم : هى الفصول والوصول بعينها ، فالمقاطع : أواخر الفصول ، والمطالع : أوائل الوصول ، وهذا القول هو الظاهر من نحوى الكلام ، والفصل : آخر جزء من القسيم الأول كما قدمت ، وهى العروض أيضاً ، والوصل : أول جزء يليه من القسيم الثانى

وقال غيرهم : المقاطع : منقطع الأبيات ، وهى القوافى ، والمطالع : أوائل الأبيات

وقال قدامة بن جعفر فى بعض تآليفه وقد ذكر الترصيع : هو أن يتوخّى تصييرَ مقاطع الأجزاء فى البيت على سَجْع ، أو شبيه به ، أو من جنس واحد فى التصريف ، فأشار بهذه العبارة إلى أن المقاطع أواخر أجزاء البيت كما ترى . . وقد نجد من الشعر المرصع ما يكون سجعه فى غير مقاطع الأجزاء ، نحو قول أم مَعدان الأعرابية فى مرثية لها :

فعل الجميل وتفريج الجليل وإعطاء الْجَزِيلِ الذى لم يُعْطِهِ أحَدُ

فالسجع فى هذا البيت اللام المطردة فى ثلاثة أمكنة منه ، وآخر الأجزاء التى هى المقاطع على شريطة الياء التى قبل اللام ، اللهم إلا أن يجعل السجع هو الياء الملتزمة فحينئذ ، على أنا لا نعلم حرف السجع يكون إلا متأخراً فى مثل هذا المكان ، ومثل هذا فى أنواع الأعاريض كثير .

ومن الناس من يزعم أن المطلع والمقطع أول القصيدة وآخرها ، وليس ذلك

بشيء ؛ لأنا نجد في كلام جهابذة النقاد إذا وصفوا قصيدة قالوا : حسنة المقاطع ، جيدة المطالع ، ولا يقولون المقطع والمطلع ، وفي هذا دليل واضح ؛ لأن القصيدة إنما لها أول واحد ، وآخر واحد ، ولا يكون لها أوائل وأواخر ، إلا على ما قدمت من ذكر الأبيات والأقسمة وانتهائها .

وسألت الشيخ أبا عبد الله محمد بن إبراهيم بن السمين عن هذا ، فقال : المقاطع أواخر الأبيات ، والمطالع أوائلها ، قال : ومعنى قولهم « حسن المقاطع جيد المطالع » أن يكون مقطع البيت — وهو القافية — متمكناً غير قلق ولا متعلق بغيره ، فهذا هو حُسْنه ، والمطلع — وهو أول البيت — جودته أن يكون دالا على ما بعده كالتصدير وما شا كله .

وروى[1] الجاحظ أن شَبيبَ بن شَيْبَة كان يقول : الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء و بمدح صاحبه ، وأنا موكل بتفضيل جودة المقطع و بمدح صاحبه ، وحظ جودة القافية — و إن كانت كلمة واحدة — أرفع من حظ سائر البيت أو القصيدة[2] ، وحكاية الجاحظ هذه تدل على أن المقطع آخر البيت أو القصيدة ، وهو بالبيت أليق ؛ لذكر حظ القافية .

وحكى أيضاً عن صديق له أنه قال للعَتَّابي : ما البلاغة ؟ فقال : كل كلام أفهمك صاحبه حاجته من غير إعادة ولا حُبْسَة ولا استعانة فهو بليغ ، قال : قلت : قد عرفت الإعادة والحبسة ، وما الاستعانة ؟ قال : أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : يا هَنَاه اسمع مني ، واستمع إلي ، وافهم ، وألست تفهم ؟ هذا كله عيّ وفساد .

قال صاحب الكتاب : وهذا القول من العَتَّابي يدل على أن المقاطع أواخر الفصول . ومثله ما حكاه الجاحظ أيضاً عن المأمون أنه قال لسعيد

(١) انظر البيان والتبيين (ج ١ ص ١٠٦) .
(٢) هذه الكلمة غير موجودة في نسخة البيان والتبيين .

أبن سلم[1] والله إنك لتُصغى لحديثى ، وتقف عند مقاطع كلامى .

و إذا جعل المقطع والمطلع مصدرين بمعنى القطع والطلوع كانت الطاء واللام مفتوحتين ، و إذا أريد موضع القطع والطلوع كسرت اللام خاصة ، وهو مسموع على غير قياس .

(٣٠) — باب المبدأ ، والخروج ، والنهاية

منزلة هذه الأمور الثلاثة

قيل لبعض الحذاق بصناعة الشعر : لقد طار اسمك واشتهر ، فقال : لأنى أقللت[2] الحز ، وطبقت المَفصِلَ ، وأصبت مقاتل الكلام ، وقرطست نكت الأغراض بحسن الفواتح والخواتم ولطف الخروج إلى المدح والهجاء ، وقد صدق ، لأن حسن الافتتاح داعية الانشراح ، ومطية النجاح ، ولطافة الخروج إلى المديح ، سببُ ارتياح الممدوح ، وخاتمة الكلام أبقى فى السمع ، وألصق بالنفس ؛ لقرب العهد بها ؛ فإن حسنت حسن ، وإن قبحت قبح ، والأعمال بخواتيمها ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) فى المصريتين « سعيد بن أسلم » وكتب بحواشيهما « وفى نسخة سعيد ابن مسلم » ، والصواب ما أثبتناه ، وسعيد بن سلم : هو سعيد بن سلم بن قتيبة ابن سلم الباهلى ، وكان من أمراء الدولة العباسية ، وقدولى أرمينية والموصل والسند وطبرستان وسجستان والجزيرة . وذكره الجاحظ فى البيان والتبيين كثيرا ، وروى الجاحظ هذه العبارة هكذا « والله إنك لتستقفى حديثى ، وتقف عند مقاطع كلامى ، وتخبر عنه بما كنت قد أغفلته » انظر (ج ٢ ص ٣٠) وأبو سلم قدولى إمرة البصرة ليزيد بن عمر بن هبيرة فى أيام مروان الحمار ، ثم وليها مرة أخرى فى أيام أبى جعفر المنصور ، وتوفى سنة ١٤٩ هـ . وتوفى ابنه سعيد فى سنة ٢٠٩ هـ .

(٢) كذا فى المصريتين ، وفى التونسية « أجدت الحز » وأظنه «أصبت الحز»

وبعد ، فإن الشعر قُفْلٌ أوله مفتاحه ، وينبغي للشاعر أن يجوِّد ابتداء شعره ؛ فإنه أول مايقرَعُ السمع ، وبه يستدل على ماعنده من أول وَهْلَة ، وليجتنب « ألا » و « خليليّ » و « قد » فلا يستكثرُ منها في ابتدائه ؛ فإنها من علامات الضعف والتكلان ، إلا للقدماء الذين جرَوْا على عرق ، وعملوا على شاكلة ، وليجعله حلواً سهلا ، وفخما جزلا ، فقد اختار الناس كثيراً من الابتداءات أذكر منها ههنا ما أمكن ليستدل به ، نحو قول امرىء القيس :

مختار من المطالع الجيدة

* قِفَا نبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ *[1]

وهو عندهم أفضل ابتداء صنعه شاعر ؛ لأنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل في مصراع واحد ، وقوله :

* ألاعِمْ صَبَاحاً أيها الطلل البالي *[2]

ومثله قول القطاميّ ــ واسمه عُمَير بن شُيَيم التغلبي ــ :

* إنَّا مُحَيُّوكَ فاسْلَمْ أيها الطَّلَلُ *[3]

وكقول النابغة :

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ وَلَيْلٍ أقَاسِيه بَطِىءِ الْكَوَاكِبِ

وقوله :

كتمتكَ ليلا بالجُومَين ساهراً وهمَّين همًّا مُستكنا وظاهراً

(١) هذا مطلع معلقته ، وعجزه * بسقط اللوى بين الدخول فحومل * وقد نسب بعض أهل العلم مدح هذا المبدأ لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) تمامه * وهل يعمن من كان في العصر الخالي *

(٣) تمامه * وإن بليت وإن طالت بك الطيل *

هذا بعض ما اختير للقدماء .. ومما اختير لهم فى الرثاء قول أوس بن حَجَر :

أيتها النفسُ أجْمِلِى جَزَعَا إنَّ الّذِى تحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

ومما اختير للمحدَثين قول بشار بن برد :

* أبَى طَلَلٌ بالجزْعِ أنْ يتَـكلّمَا[1] *

وهو عندهم أفضل ابتداء صنعه محدَث ، وقول أبى نواس :

لمن دمنٌ تزدادُ طيب نَسيمِ على طول ما أقْوَتْ وحسن رُسوم

وقوله :

رسمُ الـكرى بين الجفون مُحيلُ عَفَّى عليه بُكًى عليك طويلُ

وقوله :

أعْطَتْكَ رَيْحانهـــا العُقَارُ وَحان من ليلنا انسفار

وقوله :

دَعْ عنكَ لَوْمى فإنَّ اللّوْمَ إغْرَاء وَدَاوِنِى بالتى كانَتْ هى الداء

وما أشبه ذلك مما لو تقصيته لطال وكثر ..

بين دعبل وديك الجن

وليرغب عن التعقيد فى الابتداء ؛ فإنه أول العِىّ ، ودليل الفهَّة ، فقد حكى أن دعبل بن على الخزاعى ورد حمص فقصد دار عبد السلام ابن رَغْبان ديكِ الجن ، فـكتم نفسه عنه خوفاً من قوارصه ومُشَارّته ، فقال : ماله يستتر وهو أشعر الجن والإنس ؟ أليس هو الذى يقول ؟ :

---

(١) تمامه * وماذا عليه لو أجاب متيما * وبعده :

وبالقاع آثار بقين ، وباللوى ملاعب لا يعرفن إلا توهما

وانظر الأغانى (ج ٣ ص ١٤٨) طبعة دار الـكتب المصرية .

بها غَيْرَ مَعْذُولٍ[1] فَدَاوِ خُمارها وَصِلْ بِعَشِيَّاتِ الْغَبُوقِ ابتِكَارَهَا
ونَلْ من عظيم الردف كلَّ عظيمة إذَا ذُكِرَتْ خاف الحفيظان نَارَهَا

فظهر إليه ، واعتذر له ، وأحسن نُزُلَه ، ثم تناشدا فأنشد ديك الجن ابتداء قصيدة :

كَأَنَّهَا ما كأنه خلل الـــخلة وَقْفُ الهَـلُوكِ إذ بَغَمَا[2]

فقال له دعبل : أَمْسِكْ ، فوالله ما ظننتك تتم البيت إلا وقد غشى عليك ، أو تَشَكَّيت فـكيك ، ولـكأنك فى جهنم تخاطب الزبانية ، أو قد تخبَّطك الشيطان من المس ، وإنما أراد الديك أن يهول عليه ، ويقرع سمعه ، عسى أن يروعه ويردعه ، فسمع منه ما كره أن يسمعه ، ولعمرى ما ظلمه دعبل ، ولقد أبعد مسافة الـكلام ، وخالف العادة ، وهذا بيت قبيح من جهات : منها إضمار مالم يذكر قبلُ ، ولا جرت العادة بمثله فيعذر ، ولا كثر استعماله فيشتهر ، مع إحالة تشبيه على تشبيه ، وثقل تجانسه الذى هو حشو فارغ ، ولو طرح من البيت لـكان أحزم ، واستدعى قافيته لالشىء إلا لفساد المعنى واستحالة التشبيه ، ما الذى يريد بـ « بغُامه » فى تشبيهه الوقف ـ وهو السِّوَار ـ ولم كان وَقْفَ الهَلُوكِ خاصة ؟ ومعنى البيت أن عشيقته كأنها فى جيدها وعينها الغزال الذى كأنه بين نبات الخلة سوارُ الجارية الحسنة المشى المتهالـكة فيه ، وقيل : الهلوك البغىُّ الفاجرةُ ـ فما هذا كله ؟ وأى شىء تحته ؟ .

ومثله قول محمد بن عبد الملك الزيات يصفُ ناقته أول قصيدة مدح بها الحسن ابن سهل :

---

(١) فى المصريتين * بها غير معلول . . . *

(٢) حل ألفاظه هـكذا : كأنها الذى كأنه فى حال وجوده خلل الخلة وقت بغامه وقف الهلوك ، وهو شىء فى غاية الثقل .

كأنها حـــين تنَاءَى خَطْوُهَا أخنس مُطْوِيُّ الشَّوَى يَرعى القُلَلْ

فالعيب الأول فى مخالفة العادة لازم له ، ومع ذلك قوله « حين تناءى خطوها » مقصر بها ، وهو يقدر أن يقول « حين تدانى خطوها » وخالف جميع الشعراء بذلك ؛ لأنهم إنما يصفون الناقة بالظَّلِيم والحمار والثور بعد الكَلاَل غلواً فى الوصف ومبالغة ، هذا هو الجيد ، فإن لم يفعلوا لم يذكروا أنها بذلت جهدها ، واستفرغت جميع ما عندها ، بل يَدَّعُون التأويلَ محتملا للزيادة ، ثم قال « يرعى القلل » والثور لا يرعى قلل الجبال ، وإنما ذلك الوَعِلُ ؛ فإنه لا يسهل ، والثور فى السهول والدماث ومواضع الرمال ، إلا أن يريد قلل النبات [أى] أعاليه ، فربما أن تكون القلل نبتاً بعينه أو مكاناً فقد يمكن ، وما سمعت بهما .

من عيوب المطالع

ومن الشعراء من يقطع المصراع الثانى من الأول إذا ابتدأ شعراً ، وأكثر ما يقع ذلك فى النسيب ، كأنه يدل بذلك على وَلَهٍ وشدة حال ، كقول أبى الطيب :

جَلَلاً كما بِى فَلْيَكُ التَّبْرِيحُ أغِذاء ذَا الرشأ الأغنّ الشِّيحُ ؟

فهذا اعتذار من اعتذَرله ، ولو وقع مثل هذا فى الرثاء والتفجع لكان موضعه أيضاً ، وكذلك عند العظائم من الأمور والنوازل الشديدة .

وليحترس مما تناله فيه بادرة ، أو يقع عليه مطعن ؛ فإن أبا تمام امتدح أبا دُلَفَ بحضرة من كان يكرهه ، فافتتح ينشد قصيدته المشهورة :

* على مِثلِها من أرْبُعٍ ومَلاَعِبِ[1] *

وكانت فيه حبسةٌ شديدةٌ فقال الرجل : « لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » فدهش أبو تمام حتى تبين ذلك عليه ، على أنه غير مأخوذ بما قيل ،

(١) تتمته * تذال مصونات الدموع السواكب *

ولا هو مما يُدْخِلُ عليه عيباً ، ولا يلزمه ذنباً على الحقيقة ، إلا أن الحوطة والتحفظ من خجلة البادرة أفضل وأهيب ، والتفريط أرذل وأخذل .

مأخذ على جرير

ودخل جرير على عبد الملك بن مروان فابتدأ ينشده :

* أتَصْحُو أمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحِ(١) *

فقال له عبد الملك : « بل فؤادك يابن الفاعلة » كأنه استثقل هذه المواجهة وإلا فقد علم أن الشاعر إنما خاطب نفسه .

مأخذ على المتنبي

ومن هذه الجهة بعينها عابوا على أبي الطيب قوله لكافور أول لقائه مبتدئا ، وإن كان إنما يخاطب نفسه لا كافوراً :

كفى بك داء أن ترى الموتَ شافيا وحسبُ المنايا أنْ يَكُنَّ أمانيا

فالعيب من باب التأدب للملوك ، وحسن السياسة لازم لأبي الطيب في هذا الابتداء ، لا سيا وهذا النوع ـ أعنى جودة الابتداء ـ من أجَلِّ محاسن أبي الطيب ، وأشرف مآثر شعره إذا ذكر الشعر .

مأخذ على ذي الرمة

ودخل ذو الرمة على عبد الملك بن مروان ، فاستنشده شيئا من شعره ، فأنشده قصيدته :

ما بال عينك منها الماء ينسكبُ(٢)

وكانت بعينِ عبد الملك ريشة ، وهي تَدْمَعُ أبداً ، فتوهم أنه خاطبه أو عرَّض به ، فقال : وما سؤالك عن هذا يا جاهل ؟!! فمقته وأمر بإخراجه.

مأخذ على أبي النجم

وكذلك فعل ابنه هشام بأبي النجم وقد أنشده في أرجوزة :

والشَّمْسُ قد كادت ولمَّا تَفْعَلِ كأنها في الأفقِ عَيْنُ الأحْوَلِ

وكان هشامٌ أحْوَلَ ، فأمر به فحجب عنه مدة ، وقد كان قبل ذلك من خاصته : يسمر عنده ، ويمازحه .

سبب وقوع الشاعر فيه

وإنما يؤتى الشاعر في هذه الأشياء ؛ إما من غفلة في الطبع وغلظ ، أو من

(١) تتمته * عشية هم صحبك بالرواح *

(٢) تتمته * كأنه من كلى مفرية سرب *

استغراق فى الصنعة وشغل هاجس بالعمل يذهب مع حسن القول أبن ذهب .

والفطن الحاذق يختار للأوقات مايشا كلها ، و ينظر فى أحوال المخاطبين ؛ فيقصد مَحَابَّهُمْ ، و يميل إلى شهواتهم و إن خالفت شهوته ، و يتفقد ما يكرهون سماعه فيجتنب ذكره . . ألا ترى أن بعض الملوك قال لأحد الشعراء وقد أورد بيتاً ذكر فيه « لو خلد أحد بكرم لـكنت مخلدا بكرمك » وقال كلاماً نحو هذا ، فقال الملك : إن الموت حق ، و إن لنا منه نصيباً ، غير أن الملوك تـكره ذكر ما ينـكد عيشها ، و ينغص لذتها ، فلا تأتنا بشىء مما نكره ذكره . .

ومن المشهور أن النعمان بن المنذر رأى شجرة ظليلة ملتفة الأغصان ، فى مرج حسن كثير الشقائق ، وكان مُعْجَباً بها ، و إليه أضيفت «شقائق النعمان» فنزل وأمر بالطعام والشراب فأحضر ، وجلس للذته ، فقال له عدى بن زيد العبادىّ وكان كاتبه: أتعرف أبيت اللعن ما تقول هذه الشجرة ؟ فقال : وما تقول ؟ قال : تقول :

رُبَّ رَكْبٍ قد أناخوا حولنا ... يشربون الخمرَ بالماء الزُّلال

عَطَفَ الدهر عليهم فتَوَوْا ... وكذاك الدهرُ حالٌ بعد حال[1]

مَن رآنا فَلْيُوَطِّن نفسه ... إنما الدنيا على قرب زوال[2]

كأنه قصد موعظته ، فتنغص عليه ما كان فيه ، وأمر بالطعام والشراب فرفعا من بين يديه ، وارتحل من فَوْرِهِ ، ولم ينتفع بنفسه بقية يومه وليلته ، وكانا جميعاً[3] نصرانيين ؛ فهذا شأن الملوك قديماً وحديثاً .

---

(١) يروى صدره ٭ عصف الدهر بهم فانقرضوا ٭ وفى التونسية ٭ عكف الدهر عليهم فتووا ٭ وفى المصريتين ٭ ... فثووا ٭ بالمثلثة

(٢) فى المصريتين « فرط زوال » وفى التونسية « قرنى زوال » ولـكن المعروف فى الرواية « قرب زوال » كما أثبتناه ، ويروى أيضا « قرن زوال » .

(٣) يقول بعض الناس : إن النعمان كان إلى ذلك العهد وثنيا ، وإنه تنصر على يدى عدى بن زيد بعد هذه الموعظة وأشباهها ، ويحكون مع هذا قصصا وروايات كثيرة .

من دعاء الشعراء للملوك

ومن هذه الجهة أكثر الناس من الدعاء لهم بطول العمر ، حتى بلغوا بهم مالا يمكن ، فقالوا : عش أبداً ، وأسلم مدى الدهر ، وابق بقاء الزمان ، ودم مدة الأيام .

واعترض النقاد فى ذلك واختلفوا بحسب ماينتحل كل واحد منهم فى قول أبى نواس للأمين :

يا أمين الله عِشْ أبدا دُمْ عَلَى الأَيَّام والزَّمَنِ
أنتَ تبقى وَالفَنَاء لنا فإذا أفنيتنا فَكُنِ

وفى كثير من مثله . و إذا خرج الكلام عن حد الإمكان فإنما يراد به بلوغ الغاية لا غير ذلك .

من إساءات أبى نواس

ومن قبيح ما وقع لأبى نواس الذى أساء فيه أدبه ، وخالف فيه مذهبه ؛ أن بعض بنى بَرمَك بَنَى داراً استفرغ فيها مجهوده ، وأنتقل إليها ، فصنع أبو نُوَاس فى ذلك الحين أو قريباً منه قصيدة يمدحه بها يقول أولها :

أربْعَ البلى ، إن الخشوعَ لبادِ عَلَيْكَ ، و إنى لم أخُنْكَ ودادى

وختمها أو كاد بقوله :

سلامٌ على الدنيا إذا ما فقدتم بنى بَرْمكٍ من رائحين وغادى

فتطير منها البرمكى ، واشمأز حتى كلح وظهرت الوجمة عليه ، ثم قال : عيت إلينا أنفسنا يا أبا نواس ، فما كانت إلا مُدَيْدَة حتى أوقع بهم الرشيد وصحت الطيرة . . وزعم قوم أن أبا نواس قصد التشاؤم لهم لشىء كان فى نفسه من جعفر ، ولا أظن ذلك صحيحاً ؛ لأن القصيدة من جيد شعره الذى لا أشك أنه يحتفل له ، اللهم إلا أن يصنع ذلك حيلة منه ، وسَتْراً على ما قصد إليه بذلك .

مذهب الشعراء في الافتتاح

وللشعراء مذاهب فى افتتاح القصائد بالنسيب ؛ لما فيه من عطف القلوب ، واستدعاء القَبُول بحسب مافى الطباع من حب الغزل ، والميل إلى اللهو والنساء ، وإن ذلك استدراج إلى مابعده .

ومقاصد الناس تختلف : فطريق أهل البادية ذكر الرحيل والانتقال ، وتوقع البين ، والإشفاق منه ، وصفة الطلول والحمول ، والتشوق بحنين الإبل ولمع البروق ومر النسيم ، وذكر المياه التى يلتقون عليها والرياض التى يحلُّون بها من خُزَامى ، وأُقْحُوان ، وبَهار ، وحنْوَة ، وظَيَّان ، وعَرَار ، وما أشبهها من زهر البرية الذى تعرفه العرب . وتنبته الصحارى والجبال وما يلوح لهم من النيران فى الناحية التى بها أحبابهم ، ولا يعدون النساء إذا تغزلوا ونسبوا ، فإن وقع مثل قول طرفة :

وفى الحى أحْوَى ينفضُ المرْدَشادِنٌ مظاهِرُ سِمْطَىْ لُؤْلُؤٍ وزَبَرْجَدِ

فإنما هو كناية بالغزل عن المرأة .

وأهل الحاضرة يأتى أكثر تغزلهم فى ذكر الصدود ، والهجران ، والواشين ، والرقباء ، ومَنَعة الحَرَس والأبواب ، وفى ذكر الشراب والندامى ، والورد والنسرين والنيلوفر ، وماشاكل ذلك من النواوير البلدية ، والرياحين البستانية ، وفى تشبيه التفاح والتحية به ، ودس الكتب ، وما شاكل ذلك مما هم به منفردون . وقد ذكروا الغلمان تصريحاً ، ويذكرون النساء أيضاً : منهم من سلك فى ذلك مسلك الشعراء اقتداء بهم ، وأتباعاً لما ألفته طباع الناس معهم ، كما يذكر أحدهم الإبل ، ويصف المفاوز على العادة المعتادة ، ولعله لم يركب جملا قط ، ولا رأى ما وراء الجبانة ، ومنهم من يكون قوله فى النساء اعتقاداً منه ، وإن ذكر لجريا على عادة المحدَثين ، وسلوكا لطريقتهم ؛ لئلا يخرج عن سالك أصحابه ، ويدخل فى غير سلكه وبابه ، أو كناية بالشخص عن الشخص لرقته ، أوحب رشاقته . . وهذا مما لا يطلب عليه شاهد لكثرته ، إلا أنى أتلمح فى هذا المكان بقول أبى نواس :

عليٌّ عينٌ وأذنٌ من مذكرة موصولةٍ بهوى اللوطيِّ والغزلِ
كلاهما نحوَها سامٍ بهمته على اختلافهما فى موضع العمل

يذكر الشاعر المفاوز والركاب قبل المديح

والعادة أن يذكر الشاعر ما قطع من المفَاوز ، وما أنضى من الركائب ، وماتجَشم من هول الليل وسهره ، وطول النهار وهَجيره ، وقلة الماء وغؤوره ، ثم يخرج إلى مدح المقصود ؛ ليوجب عليه حق القصد ، وذِمَامَ القاصد ، و يستحق منه المكافأة .

وكانوا قديماً أصحاب خيام : ينتقلون من موضع إلى آخر ؛ فلذلك أول ماتبدأ أشعارهم بذكر الديار ، فتلك ديارهم ، وليست كأبنية الحاضرة ؛ فلامعنى لذكر الحضرى الديار إلا مجازاً ؛ لأن الحاضرة لا تنسفها الرياح ، ولا يمحوها المطر ، إلا أن يكون ذلك بعد زمان طويل لا يمكن أن يعيشه أحد من أهل الجيل ، وأحسن ما استعمله المولدون المحدثون ما ناسب قول على بن العباس الرومى :

سَقَى اللهُ قَصْرا بالرّصَافَةِ شَاقَنِى بأعلاه قَصْرِىُّ الدلال رصافى[1]
أشارَ بِقُنْيان من الدر قُمِّعَتْ يَوَاقيتَ حُمْراً فاستباح عَفَافى

وكانت دوابهم الإبل لكثرتها ، وعدم غيرها ، ولصبرها على التعب وقلة الماء والعلف ، فلهذا أيضا خصوها بالذكر دون غيرها ، ولم يكن أحدهم يرضى بالكذب فيصف ماليس عنده كما يفعل المحدثون ؛ ألا ترى أن امرأ القيس لما كان ملكا كيف ذكر خيل البريد والفرانق ــ يعنى البريد ــ على أنه لم يستغن عن ذكر الإبل للعادة التى جرت على ألسنتهم ، فقال يصف رحيله إلى قيصر ملك الروم :

---

(١) هكذا فى التونسية ، وفى المصريتين « قصرى الديار » .

إذا قلت رَوِّحْنَا أَرَنَّ فُرَانِقٌ على جلعدٍ واهى الأباجل أبترا[١]
على كل مقصوص الذُّنَابَى معاودٍ بريد السرى بالليل من خيل بَرْبَرَا[٢]
إذا زُعْتَهُ مِنْ جانبيه كليهما مَشَى الهَيْدَبَى فى دَفِّهِ ثم فَرْفَرَا[٣]
أقبّ كسِرْحَانِ الغضا مُتَمطرٍ ترى الماءَ من أعطافه قد تحدرا[٤]

وكانت الخيل البربرية تهلب أذنابها كالبغال ؛ لتدخل مداخلها فى خدمة البريد ، وليعلم أنها للملك . وقال الفرزدق:

راحت بمسلمةَ البغالُ عَشِيَّةً فَارْعَيْ فَزَارَةُ لا هَنَاكِ المَرْتَعُ

لما كان الذى راحت به البغال أميراً يذكر رحيله وقد عُزِل
وقال ابن ميادة فى ابن هبيرة لما كان أميراً أيضاً :

---

(١) روحنا : أرحنا من تعب السير . أرن : أعلن بالصياح . فرانق — بوزان علابط ـ الأسد وهو معرب ، قاله الوزير أبو بكر . جلعد : غليظ قوى . الأباجل : جمع أبجل ، وهو عرق الأكحل . أبتر : محذوف الذنب ، وكذلك خيل البريد .

(٢) الذنابى : الذنب ، وخيل البريد من علاماتها حذف أذنابها كما قلنا ، وبريد السرى : معمول لمعاود فهى بالنصب ، وذكر أبو بكر فيه رواية بالجر ، على أنه نعت لما قبله . وخص خيل بربر لأنها عندهم أصلب الخيل ، قال أبو بكر : وبربر : قبيلة .

(٣) زعته : جذبته باللجام ، وفى المصريتين « رعته » بالراء مهملة ، وهو تحريف ، والهيدبى ـ بالدال المهملة وبالذال المعجمة ـ من الإهذاب وهو سرعة السير ورواه ابن دريد « الهربذى » وهو مشى فى تبختر ، والدف : الجنب ، وفرفر : نفض رأسه ، ومنهم من يرويه « قرقر » بقافين .

(٤) أقب : ضامر . السرحان : الذئب ، والغضا : شجر ، وذئابه أخبث الذئاب متمطر : سباق ، الماء : أراد به العرق ، وكنى بذلك عن أنه يجهده .

جاءت به مُعْتَجِراً بِبُرْدِهِ سفواءُ تردى بنسيج وحده

تقدحُ قيسٌ كلها بزندِهِ

إلا أن منهم من خالف هذا كله فوصف أنه قصد الممدوح راجلا : إما إخباراً بالصدق ، وإما تعاطيَ صعلكةٍ ورجلة . .

قال أبو نواس للفضل بن يحيى بن خالد :

إليك أبا العباس من بين من مشى عليها امتطينا الحَضْرَمِيَّ الملَسَّنَا

قلائصُ لم تعرف حنيناً على طَلاً[1] ولم تدر ما قَرْعُ الفَنِيقِ ولا الهِنَا

فذكر أن قلائصهم التى امتطوها إليه نعالهم ، فأخرجه كما ترى مخرج اللغز، وأتبعه أبو الطيب فقال :

لا ناقتى تحمل الرديف ، وَلاَ بالسَّوْطِ يوم الرِّهَانِ أجْهَدُهَا

شرَاكُهَا كورُها ، ومِشْفَرُها زِمَامُهَا ، والشُّسُوع مِقْوَدُها

وقال كَرَّةً أخرى فى مثل ذلك يتشكى :

وَحُبِيتُ مِنْ خُوصِ الركابِ بأسْوَدٍ مِنْ دَارِشٍ فَغَدَوْتُ أمْشِى رَاكِبَا[2]

وقال أيضاً يتصعلك ويتفقر :

وَمَهْمَهٍ جُبْتُـهُ عَلَى قَدَمِى تَعْجِزُ عَنْهُ الْعَرَامِسُ الذُّلُلُ

---

(١) فى الديوان * لم تسقط جنينا من الوجى * والمحفوظ * لم تعرف حنيناً إلى طلا *

(٢) البيت من قصيدة له يمدح فيها على بن منصور الحاجب (ج ١ ص ٨٨) والخوص : جمع خوصاء ، وهى الناقة الغائرة العينين من الإعياء . والركاب : الإبل والدارش : ضرب من السختيان ، وهو جلد أسود ، يقول : أعطيت بدلا من النياق الخوص جلدا أسود ــ وهو الخف ــ فأنا راكب ماش .

بِصَارِمِى مُرْتَدٍ ، بِمَخْبُرَتِى مُجْتَزِىءٌ ، بِالظَّلاَمِ مُشْتَمِلُ[1]

ولو شاء قائل أن يقول : إن أبا نواس لم يرد ما ذهب إليه أبو الطيب ، لكن أراد أنه معه فى بلدة واحدة قصده فى حاجته محتذياً نعليه ؛ لكان ذلك أظهر وجهاً ، ما لم يكن الحضرمىُّ من الجلود مخصوصاً به المسافر دون الحاضر ، وظاهر الكلام أن مقصد الشاعرين واحد .

المتنبى يذكر الخيل بدل الإبل

وقد ذكر أبو الطيب الخيل أيضاً فى كثير من شعره ، وكان يؤثرها على الإبل ؛ لما يقوم فى نفسه من التهيب بذكر الخيل ، وتعاطى الشجاعة ، فقال[2] يذكر قدومه إلى مصر على خوف من سيف الدولة :

وَيَوْمٍ كليل العاشقين كَمَنْتُهُ ... أراقب فيه الشَّمسَ أيّانَ تَغرُبُ
وَعَيْنِى إلَى أُذْنَىْ أغرَّ كأنه ... مِنَ اللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوْكَبُ
له فَضْلَةٌ عنْ جِسْمِهِ فى إهابه ... تجىء على صَدْرٍ رَحِيبٍ وتَذْهبُ
شَقَقْتُ به الظَّلْمَاءَ أُدْنِى عِنَانَهُ ... فيطغى ، وأُرْخِيهِ مِراراً فَيَلْعَبُ
وأَصْرَعُ أىَّ الوحش قَفَّيْتُهُ به ... وأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَه حينَ أرْكَبُ
وما الخيلُ إلاَّ كالصديق قليلةٌ ... وإن كَثُرَتْ فى عَيْنِ مَنْ لا يُجَرِّبُ
إذَا لَمْ تُشَاهِدْ غَيْرَ حُسْنِ شِيَاتِهَا ... وأعضَائِهَا فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبُ

(١) البيتان من قصيدة يمدح فيها بدر بن عمار (ج ٢ ص ١٥٠) والمهمه : الفلاة . جبته : قطعته وسرت فيه . العرامس : النوق الصلاب الشديدة . الذلل : المذللة بالعمل « بصارمى مرتد » مبتدأ مؤخر وخبر مقدم « بمخبرتى مجتزىء » : مثله أيضاً ، والمخبرة ـ بالخاء معجمة ـ المعرفة . يقول : قد قطعت هذا المكان القفر وأنا متقلد سيفى مكتف بعلمى وخبرتى فلم أحتج إلى دليل .

(٢) انظر الديوان (ج ١ ص ١٢٤) .

وليس فى زماننا هذا ولا من شرط بلدنا خاصة شىء من هذا كله ، إلا ما [لا] يعد قلةً ؛ فالواجب اجتنابه ، إلا ما كان حقيقة ، لا سيما إذا كان المادح من سكان بلد الممدوح : يراه فى أكثر أوقاته ، فما أقبح ذكر الناقة والفلاة حينئذ ! .

من شعر مؤلف الكتاب

وقد قلت أنا ـ وإن لم أدخل فى جملة مَنْ تقدم ، ولا بلغت خُطَّته ـ من قصيدة اعتذرت بها إلى مولانا خلد الله أيامه من طول غيبة غبتها عن الديوان :

إليكَ يُخَاضُ البحرُ فَمْماً كأنه	بأمواجه جيشٌ إلى البر زاحفُ
ويبعث خلف النُّجْحِ كل منيفة	تريك يداها كيف تُطْوَى التنائفُ
من الُموجِفاتِ اللاءِ يَقْذِفْنَ بالحصى	ويُرْمَى بهنَّ المَهْمَهُ المتقاذفُ
يطير اللغَامُ الجَعْدُ عنها كأنه	من القطن أو ثلج الشتاء نَدائفُ[1]
وقد نازَعَتْ فضلَ الزمام ابن نكبة	هوَ السَّيْفُ لا ما أخلصته المَشَارفُ
فكيف ترانى لو أعِنْتُ على الغنى	بجَدٍّ ، وإنى للغنى لَمُشَارفُ
وقد قَرَّبَ الله المسافةَ بيننا	وأنجزنى الوعدَ الزمانُ المساوفُ
ولولا شقائى لم أغِبْ عنك ساعةً	ولا رَامَ صَرْفى عن جنابك صَارِف
ولكننى أخطأتُ رُشْدِى فلم أصب	وقد يخطئ الرشدَ الفتى وَهْوَ عَارِفُ

فذكرت قرب المسافة بينى و بينه حَوْطةً و إخباراً أن خوض البحر وجَوْبَ الفلاة من صفة غيرى من القصّاد والغرباء والمنتجعين من الأمصار .

---

(١) اللغام : الزبد الذى يخرجه الجمل من فمه ، وقد لغم من باب منع . والندائف: جمع نديفة ، وهى القطعة من القطن تضرب بالمندف ، وهى الخشبة التى يضرب بها الوتر ليرق القطن .

ومن قصيدة صنعتها بديهة بالمهدية ساعة وصولى إليه ـ أدام الله عزه ـ عن اقتراح بعض شعراء وقتنا هذا :

وذيّالٍ له رِجْلٌ طَحُونٌ   لما نزلت به ، وَيَدٌ زَجُوجُ
يَطِير بأرْبَع لا عَيْبَ فيها   لظهران الصّفَا منها عَجيجُ
خرجتُ به عن الأوهام سَبْقا   وقَلّ له عن الوهم الخروجُ
إلى الملك المعـز أبى تميم   أمرٌ بمن سواهُ فلا أعِيجُ

ومن أخرى فى معنى التفقر والرحلة :

وماء بَعيدِ الْغَوْرِ كالنجم فى الدُّجَى   وَرَدْتُ طَرُوقا أو وردت مُهَجِّراً[1]
على قدم أخت الجنـاح وأخمص   يخال حصى المعزاء جمـراً مسعراً
فريداً من الأصحاب صلتا من الـكسا   كما أسلم الغمدُ الحُسَامَ المذكرا

من الشعراء من لا يجعل لشعره بسطا من النسيب

ومن الشعراء مَنْ لا يجعل لـكلامه بسطا من النسيب ، بل يهجم على ما يريده مكافحة ، ويتناوله مصافحة، وذلك عندهم هو : الوثب ، والبتر ، والقطع، والـكسع ، والاقتضاب ، كل ذلك يقال . . والقصيدة إذا كانت على تلك الحال بتراء كالخطبة البتراء والقطعاء ، وهى التى لا يبتدأ فيها بحمد الله عز وجل على عادتهم فى الخطب . قال أبو الطيب :

إذَا كَانَ مَدْحٌ فَالنَّسِيبُ الْمُقَدَّمُ   أكُلُّ فَصِيحٍ قالَ شِعْراً مُتَيَّمُ ؟

فأنكر النسيب ، وزعموا أن أول من فتح هـذا الباب وفتق هذا المعنى أبو نواس بقوله :

لا تَبْكِ لَيْلَى ، وَلاَ تَطْرَبْ إلى هِنْدِ   وَاشرَبْ عَلَى الوَرْدِ مِنْ حَمْرَاءَ كالْوَرْدِ

---

(١) الطرق ـ بفتح فسكون ـ ومثله الطروق ـ بضم الطاء والراء جميعاً ـ الإتيان بالليل ، والطروق ـ بفتح الطاء ـ الوصف منه . ومهجراً : اسم فاعل من هجر ، إذا أتى وقت الهاجرة .

طريق أبي نواس في الابتداء

وقوله وهو عند الحاتمى فيما روى عن بعض أشياخه أفضل ابتداء صنعه شاعر من القدماء والمحدثين :

صِفَةُ الطُّلولِ بلاغةُ القُدْمِ فَاجْعَلْ صِفَاتِكَ لابْنَةِ الْكَرْمِ

ولما سجنه الخليفة على اشتهاره بالخمر ، وأخذ عليه أن لا يذكرها في شعره قال:

أعِرْ شِعْرَكَ الأطْلَالَ وَالْمَنْزِلَ الْقَفْرَا فَقَدْ طَالَمَا أزْرَى بِهِ نَعْتُكَ الْخَمْرَا

دَعَانِي إلَى نَعْتِ الطُّلولِ مُسَلَّطٌ تَضِيقُ ذِرَاعِي أنْ أرُدَّ لهُ أمْرَا

فَسَمْعًا أميرَ المؤمنينَ وَطَاعَةً وإن كنْتَ قَدْ جَشَّمْتَنِي مَرْكَبًا وَعْرَا

فجاهر بأن وصفه الأطلال والقفر إنما هو من خشية الإمام ، وإلا فهو عنده فراغ وجهل ، وكان شعوبى اللسان ، فما أدرى ما وراء ذلك ، وإن فى اللسان وكثرة ولوعه بالشىء لشاهداً عدلا لا ترد شهادته . وقد قال أبو تمام :

* لِسَانُ الْمَرْءِ مِنْ خَدَمِ الْفُؤَادِ *(١)

ومن عيوب هذا الباب أن يكون النسيب كثيراً والمدح قليلا ، كما يصنع بعض أهل زماننا هذا ، وسنبين وجه الحكم والصواب من هذا فى باب المدح إن شاء الله تعالى .

من الشعراء من لا يجيد الابتداء

ومن الشعراء من لا يجيد الابتداء ، ولا يتكلف له ، ثم يجيد باقى القصيدة وأكثرهم فعلا لذلك البحترى : كان يصنع الابتداء سهلا ، ويأتى به عفواً ، وكلما تمادى قوى كلامه ، وله من جيد الابتداءات كثير ؛ لكثرة شعره ، والغالبُ عليه ما قدمت ، غير أن القاضى الجرجانى فَضّله بجودة الاستهلال — وهو الابتداء — على أبى تمام وأبى الطيب ، وفضلهما عليه بالخروج والخاتمة ، ولست أرى لذلك وجهاً ، إلا كثرة شعره كما قدمت ؛ فإنه لو حاسبهما ابتداء

(١) هذا عجز بيت من قصيدة له يمدح فيها أبا عبد الله أحمد بن أبى دؤاد ، وصدره * ومما كانت الحكماء قالت * انظر الديوان (ص ٨٠) .

جيداً بابتداء مالأَرْبُى عليهما وقصرا عن عذره . . فأما الحاتمى فإنه يغض من أبى عُبَادة غضاً شديدا ، ويجور عليه جوراً بيناً لا يقبل منه ولا يسلم إليه .

من ابتداءات أبى تمام الجيدة

وكان أبو تمام فَخْم الابتداء ، له روعة ،وعليه أبهة ، كقوله :

الْحَقُّ أَبْلَجُ ، وَالسُّيُوفُ عَوَارِ فَحَذَارِ مِنْ أَسَدِ الْعَرِينِ حَذَارِ

وقوله :

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنْ الْكُتُبِ فِى حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ

وقوله :

أَصْغَى إِلَى البين مُغْتَرًّا فَلاَ جرما(١)

وقوله :

يَارَبْعُ لَوْ رَبَعُوا عَلَى ابْنِ هُمُومِ(٢)

والغالب عليه نحت اللفظ ، وجهارة الابتداء . .

وكان أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى يفضل ابتداءات البحترى جداً ، وهو الذى وضع كتاب الموازنة والترجيح بين الطائيين ، ونوه فيه بالبحترى أعظم تنويه . . ومن جيد ابتداءاته قوله :

من جيد ابتداءات البحترى

عَارَضْنَنَا أُصُلاً فَقُلْنَا الرَّبْرَبُ حَتَّى أَضَاءَ الأُقْحُوَانُ الأَشْنَبُ

وقوله :

مَا عَلَى الرَّكْبِ مِنْ وُقُوفِ الرِّكَابِ فِى مَغَانِى الصِّبَا وَرَسْمِ التَّصَابِى ؟ ؟

---

(١) هذا مطلع قصيدة له يمدح فيها إسحاق بن إبراهيم المصعى ، وعجزه * إن النوى أسأرت فى عقله لمما * انظر الديوان (ص ٣٠١) .

(٢) وهذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها إسحاق السابق ، وعجزه * مستسلم لجوى الفراق سقيم * انظر الديوان (ص ٣٠٥) .

وقوله :

ضَمانٌ عَلَى عَيْنَيْكِ أنِّىَ لاَ أسْلو (١)

وقوله :

تُرَى عِنْدَهُ عِلْمٌ بِشَجْوِى وَأدْمُعِى ‏ وَأنِّى مَتَى أسْمَعْ بِذِكْرَاهُ أجْزَعِ ؟

الخروج أمثلته

وأما الخروج فهو عندهم شبيه بالاستطراد ، وليس به ؛ لأن الخروج إنما هو أن تخرج من نسيب إلى مدح أو غيره بلطف تحيل ، ثم تتمادى فيما خرجت إليه كقول حبيب فى المدح :

صَبٌّ الفراق علينا ،صُبَّ مِنْ كَثَبٍ ‏ عليه إسحاقُ يوم الروْع مُنْتَقِمَا
سَيْفُ الإمام الذى سَمَّتْـــهُ هَيْبَتُهُ ‏ لما تخرَّمَ أهـل الأرض مُخْتَرِمَا (٢)

ثم تمادى فى المدح إلى آخر القصيدة .

وكقول أبى عُبَادة البحترى :

سُقِيَتْ رُبَاكَ بكل نَوْء عاجل ‏ من وَبْله حَقًّا لَهَا مَعْـــلوما
وَلَوَ أنَّنى أُعْطِيتُ فِيهِنَّ المُـنَى ‏ لَسَقَيْتُهُنَّ بِـكَفِّ إبْرَاهِيمَا (٣)

وأكثر الناس استعمالا لهذا الفن أبو الطيب ؛ فإنه ما يكاد يفلت له ، ولا يشذ عنه ، حتى ربما قبح سقوطه فيه ، نحو قوله :

هَا فَانْظُرِى أوْ فَظُنِّى بِى تَرَىْ حُرَقًا ‏ مَنْ لَمْ يَذُقْ طَرَفًا مِنْهَا فَقَدْ وَألا

---

(١) هذا صدر مطلع قصيدة له يمدح فيها الفتح بن خاقان ، وعجزه :
* وأن فؤادى من جوى بك لا يخلو * وانظر ديوانه (ج ١ ص ٣٧ طبع الجوائب) .
(٢) فى الديوان (ص ٣٠٢) * سمته همته .... تخرم أهل الشرك *
(٣) البيتان من قصيدة له يمدح فيها إبراهيم بن الحسن بن سهل ، انظر الديوان (ج ١ ص ١٨٦) .

عَلَّ الأمـــيرَ يَرَى ذلىَّ فيَشفَعَ لى إلى الّتى تَرَكَتْنى فى الهوَى مَثَلاَ[(١)]

فقد تمنى أن يكون له الأمير قوّاداً ، وليس هذا من قول أبى نواس :

سأشكو إلى الفَضلِ بْنِ يحْيَى بْن خالدٍ هوَانَا ؛ لَعَلَّ الفَضلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

فى شيء ؛ لأن أبا نواس قال « يجمع بيننا » ثم أتبع ذلك ذكر المال والسّخاء به ، فقال :

أمــيرٌ رَأَيْتُ المَالَ فى نعمائه مَهِينًا ذليلَ النّفس بالضّيْم مُوقِنَا

فكأنه أشار إلى أن جَمْعَه بينهما بالمال خاصة : يُفْضِلُ عليه ، ويُجْزِل عطيته ، فيتزوجها أو يتسرّى بها ، وأبو الطيب قال : « يشفع » والشفاعة رغبة وسؤال ، ثم أتبع بيته بما هو مُقَوٍّ لمعناه فى القيادة فقال :

أيْقَنْتُ أنّ سَعِيداً طَالِبٌ بِدَمِى لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بالرُّمْح مُعْتقِلاَ[(١)]

فدل على أنه يشفع ، فإن أجيب إلى مساعدة أبى الطيب فذاك ، وإلا رجع إلى القهر . .

والذى يشاكل قول أبى نواس قوله :

أحبُّ الّتى فى البَدْرِ مِنها مَشَابِهٌ وَأشكو إلى مَنْ لا يُصَابُ لَهُ شَكلُ[(٢)]

فلفظة « الشكوى » تحمل عنه كما حملت عن أبى نواس

ومما سقط فيه — وإن كان مليح الظاهر — قوله يخاطب امرأة نسب بها :

---

(١) ثلاثة الأبيات ـ هذان والذى سيذكره بعد عدة أسطر ـ من كلمة له يمدح فيها سعيد بن عبد الله بن الحسن الكلابى المنبجى ، وهى مما قاله فى صباه (انظر الديوان : ج ٢ ص ١٢٣) وها : حرف دال على التنبيه . ووأل : نجا

(٢) البيت من قصيدة له يمدح فيها شجاع بن محمد الطائى المنبجى (الديوان : ج ٢ ص ١٣٣) .

لَوْ أَن فَنَّاخُسْرَ صَبَّحَكُم ... وَبَرَزْتِ وَحْدَكِ عَاقَهُ الْغَزَلُ[1]
وَتَفَرَّقَتْ عَنْهُ كَتَائِبُهُ ... إِنَّ الْمِلَاحَ خَوَادِعٌ قُتُلُ[2]
مَا كُنْتِ فَاعِلَةً وَضَيْفُكُمُ ... مَلِكُ الْمُلُوكِ وَشَأْنُكِ الْبَخَلُ
أَتُمَنِّعِينَ قِرًى فَتَفْتَضِحِى ... أَمْ تَبْذُلِينَ لَهُ الَّذِى يَسَلُ
بَلْ لاَ يَحُلُّ بِحَيْثُ حلَّ بِهِ ... بُخْلٌ وَلاَ جَوْرٌ وَلاَ وَجَلُ

تحتم على فنا خسرو بأن الغزل يَعُوقه ، وأن كتائبه تتفرق عنه ، وجعله يسأل هذه المرأة ، وتشكك هل تمنعه أم تبذل له ، ثم أوجب أن البخل لا يحل بحيث حل ؛ فأوقعه تحت الزنى أو قارب ذلك ، ولعل هذا كان اقتراحا من فناخسرو ؛ وإلا فما يجب أن يقابل مَنْ هو ملك الملوك بمثل هذا ، وما أسرع ما انحط أبو الطيب : بينا هو يسأل الأمير أن يشفع له إلى عشيقته صار يشفع للأمير عندها . .

الاستطراد

والاستطراد : أن يبنى الشاعر كلاماً كثيراً على لفظة من غير ذلك النوع ، يقطع عليها الكلام ، وهى مراده دون جميع ما تقدم ، ويعود إلى كلامه الأول ، وكأنما عثر بتلك اللفظة عن غير قصد ولا اعتقاد نية ، وجُلُّ ما يأتى تشبيهاً ، وسيرد عليك فى بابه مبيناً إن شاء الله تعالى ..

التخلص

ومن الناس من يسمى الخروج تخلصاً وتوسلا ، وينشدون أبياتا منها :

إِذَا مَا اتَّقَى اللهَ الْفَتَى وأطاعه ... فَلَيْسَ بِهِ بَأْسٌ ولو كَانَ مِنْ جَرْمِ

(١) هذه الأبيات من قصيدة له مدح بها عضد الدولة ، وذكر وقعة وهوذان بالطرم ، وكان ركن الدولة أبو عضد الدولة قد أنفذ إليه جيشا من الرى فهزمه وأخذ بلده (انظر الديوان : ج ٢ ص ٢١٣ ومابعدها)

(٢) فى الديوان ... * وتفرقت عنكم كتائبه *

ولو أن جَرْماً أُطْعِمُوا شَحْمَ جَفْرَةٍ لَبَاتُوا بِطَاناً يَضْرُطُونَ مِنَ الشَّحْمِ

وأولى الشعر بأن يسمى تخلصاً ما تخلص فيه الشاعر من معنى إلى معنى ، ثم عاد إلى الأول وأخذ فى غيره . ثم رجع إلى ما كان فيه . كقول النابغة الذبيانى آخر قصيدة اعتذر بها إلى النعمان بن المنذر :

وكفكفتُ منى عبرةً فرددتها إلى النحر منها مُسْتَهِلٌّ ودامع(١)
عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصِّبَا وَقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وازع؟!!

ثم تخلص إلى الاعتذار فقال :

وَلَكِنَّ هَمًّا دُونَ ذَلِكَ شَاغِلٌ مَكَانَ الشِّغَافِ تَبْتَغِيهِ الأَصَابِعُ(٢)
وَعِيدُ أَبِى قَابُوسَ فى غَيْرِ كُنْهِهِ أَتَانِى وَدُونِى رَاكِسٌ فالضَّوَاجِعُ(٣)

ثم وصف حاله عند ما سمع من ذلك فقال :

فَبِتُّ كَأَنِّى سَاوَرَتْنِى ضَئِيلَةٌ مِنَ الرُّقْشِ فى أَنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعُ
يُسَهَّدُ فى لَيْلِ التِّمَامِ سَلِيمُهَا لِحَلْىِ النِّسَاءِ فى يَدَيْهِ قَعَاقِعُ(٤)

---

(١) فى الديوان (ص ٦٨) * وكفكفت . . . . على النحر . . *

(٢) فى الديوان * وقد حال هم دون ذلك والج . . . *
والشغاف : حجاب القلب ، أوحبته ، وهو بزنة سحاب .

(٣) فى غير كنهه : أى : فى غير وقته . وراكس والضواجع : موضعان .

(٤) فى الديوان * يسهد من ليل التمام . . . * ويسهد : يمنع النوم . وليل التمام ـ بكسر التاء ـ ليالى الشتاء الطوال . والقعاقع : جمع قعقعة ، وهو الصوت ، والسليم : اللديغ ، سموه بذلك تفاؤلا له بالسلامة ، وكان من عادة العرب إذا لدغ أحدهم علقوا عليه حلى النساء ؛ ليسمع صوتها فلا ينام ، ومن أمثالهم « السليم لا ينام ولا ينيم » .

تَنَاذَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سُوءِ سمها ... تُطَلِّقُهُ طَوْراً ، وَطَوْراً تُرَاجِعُ[1]

فوصف الحية والسليم الذى شبه به نفسه ما شاء ، ثم تخلص إلى الاعتذار الذى كان فيه فقال :

أَتَانِى ـ أَبَيْتَ اللَّعْنَ ـ أَنَّكَ لُمْتَنِى ... وَتِلْكَ الَّتِى تَسْتَكُّ مِنْهَا الْمَسَامِعُ[2]

ويروى * وَخُبِّرْتُ خَيْرَ النَّاسِ أَنَّكَ لُمْتَنِى * ثم اطرد له ما شاء من تخلص إلى تَخَلُّصٍ ، حتى انقضت القصيدة ، وهو مع ماأشرت إليه غيرُ خافٍ إن شاء الله تعالى .

وقد يقع من هذا النوع شىء يعترض فى وسط النسيب مِنْ مدح مَنْ يريد الشاعر مدحه بتلك القصيدة ، ثم يعود بعد ذلك إلى ما كان فيه من النسيب ، ثم يرجع إلى المدح ، كما فعل أبو تمام وإن أتى بمدحه الذى تمادى فيه منقطعا ، وذلك قوله فى وسط النسيب من قصيدة له مشهورة :

ظَلَمَتْكَ ظَالِمَةُ الْبَرِىءِ ظَلُومُ ... وَالظُّلْمُ مِنْ ذِى قُدْرَةٍ مَذْمُومُ

زَعَمَتْ هَوَاكَ عَفَا الْغَدَاةَ كَمَا عَفَتْ ... مِنْهَا طُلُولٌ بِاللِّوَى وَرُسُومُ

لا ، وَالَّذِى هُوَ عَالِمٌ أَنَّ النَّوَى ... أَجَلٌ وَأَنَّ أَبَا الْحُسَيْنِ كَرِيمُ[3]

---

(١) يروى « . . . من سوء سمعها » تناذرها الراقون : أنذر بعضهم بعضا بها ، والراقون : جمع راق . وهو الذى يفعل الرقية ، وسوء سمعها : أى أنها لاتسمع فلا تجيب إلى رقية الراقى ، ومن روى « من سوء سمها » فهو ظاهر المعنى .

(٢) كرر النابغة هذا المعنى بهذه الألفاظ فى كلمات من اعتذاراته : منها هذا فى هذه القصيدة ، ومنها قوله فى أخرى :

أتانى ـ أبيت اللعن ـ أنك لمتنى ... وتلك التى أهتم منها وأنصب

(٣) يذكر علماء المعانى هذا البيت هكذا * لا ، والذى هو عالم أن النوى * صبر ــ إلخ .

مَا زُلْتُ عَنْ سَنَنِ الْوِدَادِ وَلاَ غَدَتْ   نَفْسِى عَلَى إِلْفٍ سِوَاكَ تَحُومُ

ثم قال بعد ذلك :

لِمُحَمَّدِ بْنِ الْهَيْثَمِ بْنِ شَبَابَةٍ   مَجْدٌ إلى جَنْبِ السماكِ مُقِيم

ويسمى هذا النوع الإلمام .

طريق العرب فى الخروج

وكانت العرب لاتذهب هذا المذهب فى الخروج إلى المدح ، بل يقولون عند فراغهم من نعت الإبل وذكر القفار وما هم بسبيله : « دع ذا » و « عَدِّ عن ذا » ويأخذون فيما يريدون أو يأتون بأن المشددة ابتداء للكلام الذى يقصدونه ، فإذا لم يكن خروج الشاعر إلى المدح متصلا بما قبله ولا منفصلا بقوله « دع ذا » و« عَدِّ عن ذا» ونحو ذلك سمى طفراً وانقطاعاً . وكان البحترى كثيرا ما يأتى به ، نحو قوله

لَوْلاَ الرَّجَاء لَمُتُّ مِنْ أَلَمِ الْهَوَى   لَكِنَّ قَلْبِي بِالرَّجَاء مُوَكَّلُ

إِنَّ الرَّعِيَّةَ لَمْ تَزَلْ فى سِيرَةٍ   عُمَرِيَّةٍ مُذْ سَاسَهَا الْمُتَوَكِّلُ

ولربما قالوا بعد صفة الناقة والمفازة « إلى فلان قصدَتْ » و « حتى نزلت بفناء فلان » وما شاكل ذلك .

الانتهاء

وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة ، وآخر ما يبقى منها فى الأسماع ، وسبيله أن يكون محكما : لا تمكن الزيادة عليه ، ولا يأتى بعده أحسن منه ، وإذا كان أول الشعر مفتاحاً له وجب أن يكون الآخر قفلا عليه .

وقد أربى أبو الطيب على كل شاعر فى جودة فصول هذا الباب الثلاثة ، إلا أنه ربما عَقَّدَ أوائل الأشعار ثقةً بنفسه، وإغراباً على الناس ، كقوله أول قصيدة :

وَفَاؤُكُما كَالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ   بِأَنْ تُسْعِدَا وَالدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهْ[1]

---

(١) هذا البيت مطلع قصيدة له يمدح فيها سيف الدولة ، وهى أول ما أنشده ، وتقديره مع شىء يسير من المخالفة : وفاؤكما (والخطاب لعينيه) بإسعادى مثل الربع أشده تهييجا للأسى ما كان طاسما ــ أى : طامس الآثار خافى المعالم ــ والدمع أشفاه لقلب المحزون ما كان مدرارا .

فإن هذا يحتاج الأصمعى إلى أن يفسر معناه .

من سوء خروج المتنبى أيضا

وَيقع له فى الخروج ما كان تركه أولى به ، وأشعر له ، وإنما أدخله فيه حب الإغراب فى باب التوليد ، حتى جاء بالغث البارد ، والبشع المتكلف ، نحو قوله :

أُحِبُّكِ أَوْ يَقُولُوا جَرَّ نَمْلٌ ثبيراً ، وَابْنُ إِبْرَاهِيمَ رِيعَا

فهذا من البشاعة والشناعة بحيث لا يخفى على أحد ، وما أظنه سرق هـذا المعنى الشريف إلا من كذبة كذبها أبو العباس الصَّيْمَرِىُّ عن لسان رجل زعم أنه قال : رأيت رجلا نام ويَدُه غَمِرَة[1] فجره النمل ثلاثة فراسخ ، فقد جعل أبو الطيب مكان الرجل جَبَلاً ، وإن أعلمنا الإغراق فى مراده ولفظه . . وقال :

أَعَزُّ مَكانٍ فى الدُّنَا سَرْجُ سَابِحٍ وَخَيْرُ جَلِيس فى الزمانِ كِتَابُ
وَبَحْرٌ أَبُو الْمِسْكِ الخِضَمُّ الّذِى لَهُ عَلَى كُلِّ بَحْرٍ زَخْـــرَةٌ وَعُبَابُ

يريد وخير بحر[2] أبو المسك ، وهذه غاية التصنع والتكلف .

ومن العرب من يختم القصيدة فيقطعها والنفس بها متعلقة ، وفيها راغبة مشتهية ، ويبقى الكلام مبتوراً كأنه لم يتعمد جَعْله خاتمة : كل ذلك رغبة فى أخذ العَفْو ، وإسقاط الكلفة ، ألا ترى معلقة امرىء القيس كيف ختمها بقوله يصف السيل عن شدة المطر :

---

(١) غمرة ـ بفتح الغين المعجمة وكسر الميم ـ أى : دسمة من دسم اللحم ، وفعله من باب فرح .

(٢) تقدير المؤلف لهذا البيت على أن قوله « وبحر » بالجر ، وهو عليه معطوف على « جليس » فى البيت الذى قبله ، ولكنا لانوافقه على ذلك ؛ وقد ضبطناه برفع « بحر » على أنه خبر مقدم ، وقوله « أبو المسك » مبتدأ مؤخر ، و « الخضم » صفة له . وهذا قول شراحه المتقدمين ، وزخرة : امتداد ماء وكثرته ، وعباب : كثرة موج .

كأن السِّبَاعَ فيـــهِ غَرْقَى غُدَيَّةً بأرْجَائِهِ القُصْوَى أنابِيشُ عُنْصُلِ (١)

فلم يجعل لها قاعدة كما فعل غيره من أصحاب المعلقات ، وهي أفضلها .

ختم القصيدة بالدعاء

وقد كره الحُذَّاقُ من الشعراء ختم القصيدة بالدعاء ؛ لأنه من عمل أهل الضعف ، إلا للملوك ؛ فإنهم يشتهون ذلك كما قدمت ، ما لم يكن من جنس قول أبي الطيب يذكر الخيل لسيف الدولة :

فَلاَ هَجَمْتَ بِهَا إلاَّ عَلَى ظَفَرٍ وَلاَ وَصَلْتَ بِهَا إلاَّ إلى أمَلِ

فإن هذا شبيه ما ذكر عن بغيض : كان يصابح الأمير فيقول : لا صَبَّحَ اللهُ الأمير بعافية ، ويسكت ثم يقول : إلاّ ومَسَّاه بأكثر منها ، ويماسيه فيقول : لا مسَّى الله الأمير بنعمة ، ويسكت سكتة ثم يقول : إلا وصَبَّحه بأتم منها ، أو نحو هـذا ، فلا يدعو له حتى يدعو عليه ؛ ومثل هذا قبيح ، لا سيما عن مثل أبي الطيب .

(٣١) — باب البلاغة

منزلة الإيجاز

تكلم رجل عنـد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « كم دون لسانك من حجاب ؟ » فقال : شفتاي ، وأسناني ، فقال له : « إن الله يكره الانبعاق في الـكلام ، فَنَضَّر الله وجه رجل أوْجَزَ في كلامه واقتصر على حاجته » .

وسئل النبي صلى الله عليه وسلم : فيم الجمال ؟ فقال : « في اللسان » يريد البيان .

---

(٢) يروى * .. .. .. غرقى عشية * والأنابيش : جماعات من العنصل تجمعها الصبيان ، ويقال : الأنابيش العروق ، سميت بذلك لأنها تنبش أي تخرج من تحت الأرض ، والعنصل ـ بوزن قنفذ وجندب ـ بصل بري يعمل منه خل شديد الحموضة .

وقال أصحاب المنطق : حد الإنسان : الحىُّ الناطق ؛ فمن كان فى المنطق أعلى رتبةً كان بالإنسانية أولى.

وقالوا : الروح عماد الجسم ، والعلم عماد الروح ، والبيان عماد العلم .

حدود للبلاغة والبلغاء

وسئل بعض البلغاء : ما البلاغة ؟ فقال : قليل يُفْهَم ، وكثير لا يُسْأم .

وقال آخر : البلاغة إجاعة اللفظ ، وإشباع المعنى .

وسئل آخر فقال : مَعَانٍ كثيرة ، فى ألفاظ قليلة .

وقيل لأحدهم : ما البلاغة ؟ فقال : إصابة المعنى وحُسْنُ الإيجاز .

وسئل بعض الأعراب : مَنْ أبلغ الناس ؟ فقال : أسهلهم لفظا ، وأحسنهم بَدِيهــةً ..

وسأل الحجاج ابن القَبَعْثَرَى : ما أوجز الكلام ؟ فقال : ألا تبطىء ، ولا تخطىء ، وكذلك قال صحار[1] العبدى لمعاوية بن أبى سفيان .

وقال خلف الأحمر : البلاغة لمحة دالة .

وقال الخليل بن أحمد : البلاغة كلمة تكشف عن البقية .

وقال المفضل الضبى : قلت لأعرابى : ما البلاغة عندكم ؟ فقال : الإيجاز من غير عجز ، والإطناب من غير خطَل .

وكتب جعفر بن يحيى بن خالد البَرْمَكى إلى عمرو بن مسعدة : إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز تقصيراً ، وإذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار عيًّا .

وأنشد المبرد فى صفة خطيب :

طَبِيبٌ بِدَاءِ فُنُونِ الْكَلاَ م لَمْ يَعْىَ يَوْماً وَلَمْ يَهْذِرِ

(١) صحار — بضم الصاد المهملة وتخفيف الحاء — رجل من عبد القيس ، وفى التونسية « سحار » بالسين ، وليس بشىء .

فَإِنْ هُوَ أَطْنَبَ فِي خُطْبَةٍ   قَضَى لِلْمُطِيلِ عَلَى الْمُنْزِرِ
وَإِنْ هو أَوْجَزَ في خُطْبَةٍ   قَضَى لِلْمُقِلِّ على الْمُكْثِرِ

قال أبو الحسن على بن عيسى الرُّمَّانى : أصل البلاغة الطبع ، ولها مع ذلك آلات تعين عليها ، وتوصل للقوة فيها ، وتكون ميزاناً لها ، وفاصلة بينها و بين غيرها ، وهى ثمانية أضرب : الإيجاز ، والاستعارة ، والتشبيه ، والبيان ، والنظم ، والتصرف ، والمشاكلة ، والمثل ، وسيرد كل واحد منها بمكانه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

وقال معاوية لعمرو بن العاص : مَنْ أبلغ الناس ؟ فقال : من اقتصر على الإيجاز ، وتنكَّب الفضول .

وسئل ابن المقفع : ما البلاغة ؟ فقال : اسم لمعانٍ تجرى فى وجوه كثيرة : فمنها ما يكون فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون فى الإشارة ، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون سَجْعاً ، ومنها ما يكون ابتداء ، ومنها ما يكون جَوَاباً ، ومنها ما يكون فى الحديث ، ومنها ما يكون فى الاحتجاج ، ومنها ما يكون خطباً ، ومنها ما يكون رَسَائِلَ ؛ فعامة هذه الأبواب الوَحْيُ فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة .

قال صاحب الكتاب : فهذا ابن المقفع جعل من السكوت بلاغة رغبة فى الإيجاز

وقال بعض الكاتبين :

واعْلَمْ بأنَّ مِنَ السُّكُوتِ إبانَةً   وَمِنَ التَّكَلُّمِ مَا يَكُونُ خَبَالاَ

وقلت أنا فى مثل ذلك :

وأحرق أُكُلِي للحَمِ صَدِيقِهِ   وَلَيْسَ لِجَارِى رِيقِهِ بِمُسِيغِ
سَكَتُّ لَهُ صمتٌ بِعِرْضِى فَلَمْ أُجِبْ   وَرُبَّ جَوَابٍ فى السُّكُوتِ بَلِيغِ

وقلت أيضاً ولم أذكر بلاغة :

أيهـــا المُوحِى إلينا نَفْثَةَ الصِّلِّ الصَّمُوتِ
ما سَكَتْنَا عنك عِيًّا رُبَّ نُطْقٍ فى السكوت
لك بيت فى البيوت مثل بيت العنكبوت
إن يَهُنْ وَهْنًا ففيه حيلتا سكنى وقوت

وقيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ فقال : إبلاغ المتكلم حاجَتَه بحسن إفهام السامع ، ولذلك سميت بلاغة .

وقال آخر : البلاغة أن تُفْهِم المخاطب بقدر فهمه ، من غير تعب عليك .

وقال آخر : البلاغة معرفة الفصل من الوصل .

وقيل : البلاغة حسن العبارة ، مع صحة الدلالة .

وقيل : البلاغة أن يكون أول كلامك يدلُّ على آخره ، وآخره يرتبط بأوله .

وقيل : البلاغة القوة على البيان ، مع حسن النظام .

من شعر أبي الحسن فى البلاغة

ومن قول السيد أبى الحسن — أدام الله عزه — فى صفة كاتب بالبلاغة وحسن الخط :

فَضَلَ الأَنامَ بِفَضْلِ عِلْمٍ وَاسِعٍ وَعَلاَ مَقَالَهُمُ بِفَضْلِ الْمَنْطِقِ
وحكى لنا وَشْىَ الرياض وقد وَشَتْ أقْلاَمُهُ بالنقش بَطْنَ الْمُهْرَقِ

فبلغ ما أراد من الوصف فى اختصار وقلة تكلف . ونحو ذلك قوله أيضاً :

إذا مشقت يمناك فى الطِّرْسِ أسْطُراً حكيت بها وَشْىَ الملاء المعضد[1]
يروق مُجيِــدَ الخطِّ حُسْنُ حروفها وَيُعْجَبُ منها بالمقال المُسَدَّدِ

وهذا الشعر كالأول فى الحز ، وإصابة المَفْصِل ، وإن أبا الحسن لـكما قال سميُّه أبو الطيب خاتم الشعراء :

عَلِيمٌ بأَسْرَارِ الديانات واللُّغى لهُ خَطَرَاتٌ تَفْضَحُ النَّاسَ وَالْكُتْبَا

بل كما قال ولى نعمته ، وشاكر منته :

(١) اتفقت الأصول على هذه الكلمة ، وأظنها « المنضد » بالنون بدل العين .

إنى لأعجب كيف يُحْسِنُ عِقْدَهُ شِعْرٌ منَ الأشعار مع إحْسَانِهِ
ما ذاكَ إلا أنه دُرُّ النهى يَقِدُ التِّجارُ به عَلَى دِهْقَانِهِ

أستغفر الله ! لا أجْحَد أبا الطيب حقه ، ولا أنكر فضله ، وقد قال :

مَلاكٌ مُنْشِدُ الْقَرِيضِ لديْهِ يَضَعُ الثَّوْبَ فى يَدَىْ بَزَّازِ

عود إلى حد البلاغة والبلغاء

ثم نرجع إلى وصف البلاغة ، بعد ما أفضنا ووشحنا هذا الباب من ذكر السيد ، فنقول : وقالوا : البلاغة ضد العى ، والعى : العجز عن البيان .

وقيل : لا يكون الكلام يستوجب اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، ولا يكون لفظه أسْبَقَ إلى سمعك من معناه إلى قلبك .

وسأل عامر بن الظَّرِب العَدْوَانى حمامة بن رافع الدوسى بين يدى بعض ملوك حمير فقال : من أبلغ الناس ؟ قال : من حلى المعنى المزيز[1] باللفظ الوجيز ، وطبق المفصل قبل التحزيز .

قيل لأرسطاطاليس : ما البلاغة ؟ قال : حسن الاستعارة .

وقال الخليل : البلاغة ما قَرُبَ طَرَفاه ، و بعد منتهاه .

وقيل لخالد بن صَفْوان : ما البلاغة ؟ قال : إصابة المعنى ، والقصد إلى الحجة

وقيل لإبراهيم الإمام : ما البلاغة ؟ قال الجزالة ، والإطالة ، وهذا مذهب جماعة من الناس جلة ، و به كان ابن العميد يقول فى منثوره .

وقيل لبعض الجلة : ما البلاغة ؟ فقال : تقصير الطويل ، وتطويل القصير ، يعنى بذلك القدرة على الكلام .

وقال أبو العَيْنَاء : من أجْتزَأ بالقليل عن الكثير ، وقَرَّبَ البعيد إذا شاء ، و بعد القريب ، وأخفى الظاهر ، وأظهر الخفى .

---

(١) المزيز — بزاءين — اللذيذ الطعم ، مأخوذ من تسميتهم الخمر مزة ، والمعنى على التشبيه ، وهو واضح .

وقال البحترى يمدح محمد بن عبد الملك الزيات حين استَوْزَرَ ، ويصف بلاغته :

ومعانٍ لو فَصَّلَتْهَا القَوَافِي[1] هَجَّنَتْ شعر جَرْوَلٍ ولَبيدِ
حُزْنَ مستعمل الكلام اختياراً وتجنَّبْنَ ظُلْمَة التعقيد
ورَكِبن اللفظَ القريب فأدركـنَ به غَايَةَ المراد البعيدِ

والبيت الأول من هذه القطعة يشهد[1] بفضل الشعر على النثر .

وحكى الجاحظ عن الإمام إبراهيم بن محمد قوله : كفى من حظ البلاغة ألا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤتى الناطق من سوء فَهْم السامع . ثم قال الجاحظ : أما أنا فأستحسن هذا القول جداً .

ومن كلام ابن المعتز : البلاغة بلوغ المعنى ، ولما يَطُلْ سَفَرُ الكلام .

وَقال ابن الأعرابى : البلاغة التقرب من البغية ، ودلالة قليل على كثير .

وقال بعض المحدثين : البلاغة إهداء المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ .

ومن كلام أبى منصور عبد الملك بن إسماعيل الثعالبى ، قال : قال بعضهم : البلاغة ماصعب على التعاطى وسهل على الفطنة . وَقال : خير الكلام ما قل ودل ، وجل ولم يُمَلّ . وقال : أبلغ الكلام ما حسن إيجازه ، وقَلّ مَجَازه ، وكثر إعجازه ، وتناسبت صدوره وأعجازه . قال : وَقيل : البليغ مَنْ يجتنى من الألفاظ نُوّارَهَا ، ومن المعانى ثمارها .

---

(١) أراد المؤلف أن يجد لمذهبه دليلا ، وإن لم يكن فى معرض الاستدلال عليه ، فتصحفت عليه الكلمة ، وصوابها * ومعان لوفصلتها القوافى * بالصاد المهملة .

وهذا الذى حكاه الثعالبى ممايدلك على حذق أبى الطيب فى قوله لابن العميد:

قَطَفَ الرِّجَالُ الْقَوْلَ قَبْلَ نَبَاتِهِ وَقَطَفْتَ أَنْتَ الْقَوْلَ لَمَّا نَوَّرَا

وكان يمكنه أن يقول « لما أثمر » لكن ذهب إلى ما قَدَّمْتُ ، وإنما اقتدى بقول أبى تمام :

وَيَجِفُّ نُوَّارُ الْكَلَامِ ، وَقَلَّمَا يُلْفَى بقاء الغَرْسِ بعد الماء

وكان بعضهم يقول : تلخيص المعانى رِفْق ، والاستعانة بالغريب عَجْز ، والتشادق فى غير أهل البادية نقص ، والخروج مما بنى عليه الكلام إسهاب .

وقال العَتَّابى : قَيِّم الكلام العقل ، وزينته الصواب ، وحليته الإعراب ، ورائضه اللسان ، وجسمه القريحة ، وروحه المعانى . .

وقال عبدالله بن محمد بن جميل المعروف بالباحث : البلاغة الفهم والإفهام وكشف المعانى بالكلام ، ومعرفة الإعراب ، والاتساع فى اللفظ ، والسداد فى النظم ، والمعرفة بالقصد ، والبيان فى الأداء ، وصواب الإشارة ، وَإيضاح الدلالة ، والمعرفة بالقول ، والاكتفاء بالاختصار عن الإكثار ، و إمضاء العزم على حكومة الاختيار .

قال : وكل هذه الأبواب محتاج بعضها إلى بعض ، كحاجة بعض أعضاء البدن إلى بعض ، لا غنى لفضيلة أحدها عن الآخر ؛ فمن أحاط معرفةً بهذه الخصال فقد كمل كل الكمال ، ومن شَذَّ عنه بعضها لم يبعد من النقص بما اجتمع فيه منها .

قال : والبلاغة تخير اللفظ فى حسن إفهام .

وسئل الكندى عن البلاغة ، فقال : ركنها اللفظ ، وهو على ثلاثة أنواع : فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به ، ونوع تعرفه وتتكلم به ، ونوع تعرفه ولا تتكلم به ، وهو أحمدها .

وَمن كتاب عبد الكريم قالوا : حسن البلاغة أن يصور الحق فى صورة الباطل ، والباطل فى صورة الحق .

قال : ومنهم مَنْ يعيب ذلك المعنى ، ويعده إسهاباً ، وآخره يعده نِفَاقاً .

قال : ومر غَيْلاَن بن خرشة الضبي مع عبد الله بن عامر بنهر أم عبد الله الذى يشق البصرة فقال عبد الله بن عامر : ما أصلح هذا النهر لأهل هذا المصر ! ! فقال غيلان : أجل والله أيها الأمير : يتعلم فيه العَوْمَ صبيانُهم . ويكون لسقيهم ، ومسيل مياههم ، ويأتيهم بميرتهم . . قال : ثم مر غيلان يساير زياداً على ذلك النهر وقد كان عادى ابن عامر . فقال له : ما أضر هذا النهر لأهل هذا المصر !! فقال غيلان : أجل والله أيها الأمير : تَنْدَى منه دورهم ، وَيغرق فيه صبيانهم ، ومن أجله يكثر بَعُوضُهم ؛ فكره الناس من البيان مثل هذا ، انقضى كلام عبد الكريم .

والذى أراه أنا أن هذا النوع من البيان غير مَعِيب بأنه نِفَاق ؛ لأنه لم يجعل الباطل حقاً على الحقيقة ، ولا الحق باطلا ، وإنما وصف محاسن شىء مرة ، ثم وصف مساويه مرة أخرى : كما فعل عمرو بن الأهتم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم — وقد سأله عن الزِّبْرِقَانِ بن بدر ، فأثنى خيراً — فقال : مانع لحوزته ، مطاع فى أنديته — ويروى فى أذينِهِ — فلم يرض الزبرقان بذلك ، وقال : أما إنه قد علم أكثر مما قال ، ولكن حَسَدنى لشرفى — وفى رواية أخرى حسدنى مكانى منك ، يخاطب النبى صلى الله عليه وسلم — فأثنى عليه عمرو شراً ، وقال : أما لئن قال ما قال لقد علمته ضَيِّقَ الصدر ، زَمِرَ المروءة ، أحمق الأب ، لئيم الخال ، حديث الغنى ، ثم قال : وَالله يا رسول الله ما كذبت عليه فى الأولى ، ولقد صدقت فى الآخرة ، ولكن أرضانى فقلت بالرضا ، وأسخطنى فقلت بالسخط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن من البيان لسحراً[1]» قال أبو عبيد القاسم بن سلام : وكأن المعنى — والله أعلم — أنه يبلغ من بيانه أنه يمدح الإنسان فَيَصْدُقُ فيه حتى يصرف

(١) انظر ص ١٧ و ٢٧ و ٢٥٤ من هذا الجزء ، وانظر المثل رقم ١ فى مجمع الأمثال بتحقيقنا .

القلوب إلى قوله ، ثم يذمه فيصدق فيه حتى يصرف القلوب إلى قوله الآخر ، فكأنه سَحَرَ السامعين بذلك.

كلام فى البذاء

وقال الجاحظ : العربى يعاف البَذَاء ، ويهجو بغيره ، فإذا ابتلى به فخر به ، ولكنه لا يفخر به لنفسه من جهة ما هجا به صاحبه .

ودخل أبو العيناء على المتوكل ، فقال له : بلغنى عنك بَذَاء ، قال : إن يكن البذاء صفة المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته ؛ فقد زكَّى الله وذم فقال : (نعم العبد إنه أوَّاب) وقال : (هماز مَشَّاء بنميم ، مَنَّاعٍ للخير مُعْتَدٍ أثيم ، عُتُل بعد ذلك زَنيم) فذمه حتى قذفه ، وأما أن أكون كالعقرب التى تلسع النبي والذمى فقد أعاذ الله عبدك من ذلك ، وقد قال الشاعر :

إذا أنا بالمعروف لم أُثْنِ صادقاً ولم أشتم الجِبْسَ اللَّئيمَ المُذَمَّمَا
فَفِيمَ عَرَفْتُ الخَيْرَ وَالشَّرَّ بِاسْمِهِ وَشَقَّ لِيَ اللهُ المَسَامِعَ وَالْفَمَا؟

وصف البيان لجعفر بن يحيى

قال الجاحظ : قال ثمامة بن أشرس : قلت لجعفر بن يحيى : ما البيان ؟ قال: أن يكون اللفظ يحيط بمعناك ، ويخبر عن مَغْزَاك ، ويخرجه من الشركة ، ولا يستعين عليه بالكثرة ، والذى لا بد منه أن يكون سليما من التكلف ، بعيداً من الصنعة ، بريئاً من التعقيد ، غنياً عن التأويل . قال الجاحظ : وهذا هو تأويل قول الأصمعى: البليغ من طبق المفصل ، وأغناك عن المفسر .

الكلام البليغ

قال أبو عبيدة : البليغ : البَلْغُ ، بفتح الباء ، وقال غيره : البَلْغُ : الذى يبلغ ما يريد من قول وفعل ، والبِلْغُ : الذى لا يبالى ما قال وما قيل فيه ، كذلك قال أبو زيد ، وحكى ابن دريد كلام بَلْغ و بليغ ، وقال ابن الأعرابى : يقال بَلْغٌ وبِلْغٌ ، ولا شك أن ابن الأعرابى قال : إنما هو فى الأهوج الذى لا يبالى حيث وقع من القول .

وقد تكرر فى هذا الباب من أقاويل العلماء ما لم يخف عنى ، ولا غفلته ، لكن اغتفرت ذلك لاختلاف العبارات ، ومَدَار هذا الباب كله على أن البلاغة

وَضْعُ الكلام موضعه من طول أو إيجاز ، مع حسن العبارة ، ومن جيد ما حفظته قول بعضهم : البلاغة شد الكلام معانيه وإن قَصُر ، وحسن التأليف وإن طال.

(٣٢) — باب الإيجاز

حد الإيجاز

الإيجاز عند الرُّمَّانى على ضربين : مطابق لفظه لمعناه : لا يزيد عليه ، ولا ينقص عنه ، كقولك : « سَلْ أهْلَ القرية » ، ومنه ما فيه حذف للاستغناء عنه فى ذلك الموضع ، كقول الله عز وجل : (واسألِ القَرْيَةَ) وعبر عن الإيجاز بأن قال : هو العبارة عن الغرض بأقل ما يمكن من الحروف ، ونعم ما قال ، إلا أن هذا الباب متسع جداً ، ولكل نوع منه تسمية سماها أهل هذه الصناعة . .

المساواة

فأما الضرب الأول مما ذكر أبو الحسن فهم يسمونه المساواة . ومن بعض ما أنشدوا فى ذلك قول الشاعر :

يا أيُّهَا الْمُتَحَلِّى غَيْرَ شِيمَتِهِ ... إنَّ التَّخَلُّقَ يَأْتِى دُونَهُ الْخُلُقُ

وَلاَ يُوَاتِيكَ فيما نابَ مِنْ حَدَث ... إلاَّ أخُو ثِقَةٍ ، فانْظُرْ بِمَنْ تَثِقُ

فهذا شعر لا يزيد لفظه على معناه ، ولا معناه على لفظه شيئاً . . ومثله قول أبى العتاهية — ورواه بعضهم للحطيئة ، وهذا شرف عظيم لأبى العتاهية إن كان الشعر له ، ولا أشك فيه :

الحمــــد لله إنى فى جِوَارِ فتى ... حَامِى الحقيقة نَفَّاعٍ وَضَرَّارِ

لا يرفع الطَّرْفَ إلا عندَ مَكْرُمَةٍ ... مِنَ الْحَياء ، ولا يُغْضِى على عَارِ

مثال من اعتدال الوزن

وأنشد عبد الكريم فى اعتدال الوزن :

إنّمَا الذلْفَــــاءُ هَمِّى ... فَلْيَدَعْنِى مَنْ يَلُومُ

أحْسَنُ النَّـاسِ جَمِيعا ... حِـينَ تَمْشى وَتَقُومُ

أَصِلُ الْخَبْلَ لِتَرْضَى وَهْيَ لِلْحَبْلِ صَرُومُ

ثم قال : عندهم أنه ليس فى هذا الشعر فَضْلة عن إقامة الوزن ، وهذه الأبيات وأشكالها داخلة فى باب حسن النظم عند غير عبد الكريم .

الاكتفاء

والضرب الثانى مما ذكر الرمانى ـــ وهو قول الله عز وجل (واسأل القرية)ـ يسمونه الاكتفاء ، وهو داخل فى باب المجاز ؛ وفى الشعر القديم والمحدَث منه كثير ، يحذفون بعض الكلام لدلالة الباقى على الذاهب : من ذلك قول الله عز وجل : (وَلَوْ أَنَّ قرآنًا سُيِّرَتْ به الجبالُ أو قُطِّعَتْ به الأرضُ أو كُلِّم به الموتى) كأنه قال : لكان هذا القرآن . ومثله قولهم : لو رأيت عليًا بين الصفين ، أى : لرأيت أمراً عظيما ، وإنما كان هذا معدوداً من أنواع البلاغة لأن نفس السامع تتسع فى الظن والحساب ، وكل معلوم فهو هين ؛ لكونه محصوراً ، وقال امرؤ القيس :

فلَوْ أَنهَا نَفْسٌ تَمُوتُ سَوِيَّةً وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقَطُ أَنفُسًا[1]

كأنه قال: لهان الأمر ، ولكنها نفس تموت موتات ، ونحو هذا ، ومن الحذف قول الله عز وجل : (فأما الذين اسودَّتْ وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم) أى : فيقال لهم : أكفرتم بعد إيمانكم ؟ . ومن كلام النبى صلى الله عليه وسلم قوله للمهاجرين وقد شكروا عنده الأنصار : « أليس قد عرفتم ذلك لهم ؟ » قالوا : بلى ، قال :

---

(١) فى الديوان * . . . . تموت جميعة * وقد روى « تساقط » بفتح التاء على أن الأصل « تتساقط » لحذف إحدى التاءين ، وهذه رواية الأصمعى ، وقال فى معناها : لو أنى أموت بدفعة واحدة ، ولكن نفسى لما بى من المرض تخرج شيئا فشيئا ، وتفسير المؤلف من هذا القبيل ، وأنكر الوزير أبو بكر هذا التفسير وهذه الرواية ، فروى «تساقط» بضم التاء ، وقال : معناه يموت بموتها بشر كثير ، كما قال عبدة بن الطبيب :

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

« فإن ذلك » يريد فإن ذلك مكافأة لهم . وروى أبو عبيدة أن سفيان الثورى قال : جاء رجل من قريش إلى عمر بن عبدالعزيز يكلمه فى حاجة له ، فجعل يحث بقرابته ، فقال عمر : « فإن ذلك » ثم ذكر حاجته ، فقال : «لعل ذلك»..

وقال الطرماح يوما للفرزدق : يا أبا فراس ، أنت القائل :

إنَّ الذِي سَمَكَ السماء بَنَى لنا بَيْتًا دعَائِمُهُ أعَزُّ وَأطْوَلُ

أعز مما ذا وأطول مما ذا ؟ وأذن المؤذن ، فقال له الفرزدق : يا لُكَعُ ألا تسمع ما يقول المؤذن «الله أكبر» أكبر مما ذا أعظم مما ذا؟؟ فانقطع الطرماح انقطاعاً فاضحاً وزعم بعض العلماء أن معنى قول الفرزدق عزيز طويل ، ولكنه بناه على أفعل مثل أبيض وأحمر وما شاكلهما ، فجعله لازماً لما فى ذلك من الفخامة فى اللفظ والاستظهار فى المعنى.

من الإيجاز

ومن الإيجاز قول الأعرابى فى صفة الذئب :

أطلس يُخْفِى شَخْصَهُ غُبَارُهُ فى شَدْقِه شفْرَتُهُ وَنَارُهُ

فقوله فى الشفرة والنار إيجاز مليح .

وقال آخر فى صفة سهم صادر :

* غادر داءٍ ونجا صحيحاً *

وقال آخر فى صفة ناقة :

* خرقاء إلا أنها صَنَاع *

وقال أبو نواس يصف جنين ناقة مُخْدَجًا[1] :

* مَيِّتُ النَّسَا حَيُّ الشَّعَرْ *

وقال ابن المعتز يصف بازيًا :

* مباركٌ إذا رأى فقَدْ رُزِقْ *

---

(١) يقال : خدجت الناقة ، إذا ألقت ولدها قبل أوانه ، وإن كان تام الخلق ، ويقال : أخدجته ـ بالهمزة ـ إذا ولدته ناقص الخلق ، وإن كان لتمام الحمل ، ومخدج: اسم مفعول من ذى الهمز ، والنسا : عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ ، هذا أصله .

مثل من الإيجاز البديع

ومن الإيجاز البديع قول الله عز وجل : (وقيلَ يا أرضُ ابلعى ماءكِ ، ويا سماء أقلعى ، وغِيضَ الماءُ ، وقُضِىَ الأمرُ ، واستوت على الجودى ، وقيلَ : بُعْداً للقومِ الظالمين) وقوله تعالى : (خُذِ العفوَ ، وأمُرْ بالعُرْفِ ، وأعرض عن الجاهلين) فكل كلمة من هذه الكلمات فى مقام كلام كثير ، وهى على ماترى من الإحكام والإيجاز ، ومثل ذلك قوله تعالى : (يحسبون كل صيحة عليهم ، همُ العدوُّ ، فاحذَرْهُمْ ، قاتَلَهُمُ الله أنى يؤفكون) وقوله تعالى : (وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاطَ اللهُ بها) وقوله :(إنْ تتبعونَ إلا الظنَّ وماتهوى الأنفس) وقال النبى صلى الله عليه وسلم للأنصار : « إنكم لتكثرون عندالفزع ، وتَقلونَ عندالطمع » وقال «كفى بالسلامةداء» ومثل هذا كثير فى كلامه صلى الله عليه وسلم ، ومَنْ أولى منه بالفصاحة وأحق بالإيجاز ؟ وقد قال : « أُعطِيتُ جوامع الكلم »

ما يظن من الحذف وليس منه

فأما قوله عليه الصلاة والسلام : « كفى بالسيف شا » يريد «شاهداً» فقد حكاه قوم من أصحاب الكتب : أحدهم عبد الكريم ، والذى أرى أن هذا ليس مما ذكروا فى شىء ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما قطع الكلمة وأمسك عن تمامها لئلا تصير حكما ، ودليل ذلك أنه قال : « لولا أن يتتابع فيه الغيران والسكران » فهذا وجه الكلمة والله أعلم ، لا كما قال علقمة ابن عبدة :

كَأَنَّ إبْرِيقَهُمْ ظَبْيٌ عَلى شَرَفٍ مُفَدَّمٌ بِسَبَا الْكَتَّانِ مَلْثُومُ

يريد « بسبائب الكتان » فحذف اضطراراً ؛ لأن الوزن لا يستقيم له إلا بعد الحذف ، وكذلك قول لبيد [1] :

(١) قد ذكر سيبويه فى أول كتابه بابا سماه « باب مايحتمل الشعر » وذكر فيه أمثلة من هذا النوع ، وبينها الأعلم شارح شواهده بيانا واضحا فارجع إليه إن شئت

* دَرَسَ المَنَا بمتالع فأبَانِ *

يريد « المنازل » فحذف للضرورة أيضاً ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم غير متكلف ولا مضطر . فأما سائر العرب فالحذف فى كلامهم كثير ؛ لحب الاستخفاف ، وتارة للضرورة ، وسيرد عليك فى باب الرخص ، إن شاء الله تعالى .

(٣٣) — باب البيان

حد البيان

قال أبو الحسن الرمانى فى البيان[1] : هو إحضار المعنى للنفس بسرعة إدراك، وقيل ذلك لئلا يلتبس بالدلالة ؛ لأنها إحضار المعنى للنفس و إن كان بإبطاء .

وقال : البيان : الكشف عن المعنى حتى تدركه النفس من غير عقلة ، و إنما قيل ذلك لأنه قد يأتى التعقيد فى الكلام الذى يدل ، ولا يستحق اسم البيان .

قال صاحب الكتاب : وقد مرّ بى فى باب البلاغة قول غيلان بن خرشة فى صفة نهر أم عبد الله مادحاً وذاماً ، وهو من جيد البيان عندهم ، وكذلك قول عمرو بن الأهتم فى الزبرقان بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان لسحرا » وقال مثل ذلك للعلاء ابن الحضْرمى[2] وقد سأله : هل تروى من الشعر شيئاً ؟ فأنشد :

حَيِّ ذَوِى الأَضْغانِ تَسْبِ عُقُولَهُمْ تحِيَّتكَ الحُسْنَى وَقَدْ يُرْقَعُ النَّعْلْ

(١) انظر ص ١٧ و٢٧ و٢٤٨ من هذا الجزء .

(٢) الذى فى اللسان (مادة دحس) : « قال الأزهرى : وأنشد أبو بكر لأبى العلاء الحضرمى أنشده للنبى صلى الله عليه وسلم » .

فإن دَحَسُوا بالكره فاعْفُ تكرماً وإنْ خَنسوا عَنْكَ الحديثَ فلا تَسَلْ[١]
فإنّ الذى يؤذيك منه سماعه وإنّ الذى قالوا وراءك لم يُقَلْ

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن من الشعر لحكما » وروى « لحكمة » .

أمثلة من البيان الموجز

ومن البيان الموجز الذى لا يقرن به شيء من الكلام قولُ الله تعالى : (ولكم فى القصاص حَيَاةٌ) وقوله فى الإعراب عن صفته : (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يُولد، ولم يكن له كفوا أحد) فبين تعالى أنه واحد لا ثانى معه ، وأنه صمد لا جوف له ـ وقيل : الصمد السيد الذى يُصْمَد إليه فى الأمور كلها ، ولا يعدلُ عنه ، وقيل : العالى المرتفع ـ وأنه غير والد ولا مولود ، وأنه لا شِبْهَ له ولا مِثْلَ ـ وقيل : إن الكفو ههنا الصاحبة تعالى الله ـ وإنما نزلت هذه السورة لما سألت اليهودُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له : صِفْ لنا ربك وانْسُبه فقد وصف نفسه فى التوراة ونسبها ، فأكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ، وقال : لو سألتمونى أن أصف لكم الشمس لم أقدر على ذلك ، فبينما هو كذلك إذ هَبَطَ عليه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد (قل هو الله أحد) السورة .

ومن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رضى الله عنهم قولُه صلى الله عليه وسلم : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يَدٌ على مَنْ سِوَاهم » و« المرء كثير بأخيه » فهذا كلام فى نهاية البيان والإيجاز .

وقال أبو بكر رضى الله عنه فى بعض مقاماته « وليت أموركم ولست بخيركم ،

---

(١) فى اللسان « فإن دحسوا بالشر » ، وكان فى الأصل « وإن خنسوا عند الحديث » وكتب فى هامشه « وفى نسخة : حبسوا عنك » والصواب ما أثبتناه كما فى اللسان ، وقال بعد إنشاده : « وهذا حجة لمن جعل خنس واقعا » اهـ أراد : متعديا ، ومعنى دحسوا أفسدوا

أطيعونى ما أطَعْتُ الله ورسوله ، فإن عصيت [الله] فلا طاعة لى عليكم » فقد بلغ بهذه الألفاظ الموجَزَة غايةَ البيان .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى بعض خطبه « أيها الناس ، إنه والله ما فيكم أحَدٌ أقْوَى عندى من الضعيف حتى آخذ الحق له، ولاأضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه » روى ذلك المبرد عن العتبى ، ود كر الأخفش عن على بن سليمان هذه الخطبة فقال : الصحيح عندى أنها لأبى بكر ..

ومن كلام عمر رضى الله عنه « كفى بالمرء غياً أن تكون فيه خلة من ثلاث: أن يعيب شيئاً ثم يأتى مثله ، أو يبدو له من أخيه مايخفى عليه من نفسه، أو يؤذى جَليسَهُ فيما لا يعنيه » .

وكتب عثمان بن عفان إلى على بن أبى طالب رحمةُ الله عليهما لما أحيط به « أما بعد فإنه قد جاوَزَ الماء الزُّبىٰ، و بلغ الحزام الطُّبْيَين ، وتجاوز الأمر بى قدره، وطمع فىَّ مَنْ لايدفع عن نفسه .

فإن كنتُ مأ كُولاً فَكُنْ أنت آ كِلِى

و إلا فأدركنى ولما أمزق »

البيت الذى [قد] تضمنتْهُ الرسالة من شعر الممزَّق العبدى ، يقوله لعمرو ابن هند فى قصيدة مشهورة ، و به سمى الممزق ، واسمه شاس بن نهار .

وخاطب عثمان علياً يعاتبه وهو مُطْرِق ، فقال له : ما بَالُكَ لا تقول ؟ فقال على : إن قلت لم أقل إلا ما تكره ، وليس لك عندى إلا ما تحب ، قال المبرد : تأويل ذلك : إن قلت اعْتَدَدْتُ عليك بمثل مااعتددت به على ، فلدغك عتابى ، وعقدى ألا أفعل ــ و إن كنت عاتباً ــ إلا ما تحب .

وهذا قليل[١] من كثير يستدل به عليه ، ولو تقصيت ما وقع من ألفاظ التابعين ، وما تقدمت به شعراء الجاهلية والإسلام ؛ لأفنيت العمر دون

(١) تجد أكثر الأمثلة التى أثرها المؤلف فى هذا الفصل فى مطلع كتاب « الكامل » لأبى العباس المبرد .

ذلك ، وقد استفرغ أبو عثمان الجاحظ ـ وهو علامة وقته ـ الجُهدَ وصنع كِتاباً لا يُبْلَغُ جودةً وفضلاً ، ثم ما ادعى إحاطة بهذا الفن لـكثرته وأن كلام الناس لا يحيط به إلا الله عز وجل .

٣٤ — باب النظم

قال أبو عثمان الجاحظ : أجود الشعر ما رأيتَهُ مُتلاَحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحداً ، وسبك سبكا واحداً ؛ فهو يجرى على اللسان كما يجرى الدهان . أجود الشعر

وإذا كان الـكلام على هذا الأسلوب الذى ذكره الجاحظ لَذَّ سماعه ، وخَفَّ مُحتَمله ، وقرب فهمه ، وعذب النطق به ، وحلِيَ فى فم سامعه ، فإذا كان متنافراً متبايناً عسر حفظه ، وثقل على اللسان النطق به ، ومَجَّتْهُ المسامع فلم يستقر فيها منه شيء .

وأنشد[1] الجاحظ قال : أنشدنى أبو العاصى قال : أنشدنى خلف :

وَبَعْضُ قَرِيضِ القومِ أبْنَاء عَـلّةٍ   يُـكِدُّ لِسَانَ النَّاطِقِ المُتَحَفِّظِ

وأنشد عنه عن أبى البيداء الرياحى :

وَشِعْرٍ كَبَعْرِ الـكَبْشِ فَرَّقَ بَيْنَهُ   لِسَانُ دَعِيٍّ فى القَرِيضِ دَخِيلِ

واستحسن أن يكون البيت بأسْرِهِ كأنه لفظة واحدة لخفته وسهولته ، واللفظة كأنها حرف واحد ، وأنشد قول الثقفى :

مَن كان ذَ عَضُدٍ يُدْرِكْ ظُلاَمَتَهُ   إنَّ الذَّليلَ الذى لَيْسَتْ لهُ عَضُدُ

تَنْبُو يَدَاهُ إذَا ماقَلَّ نَاصِرُهُ   ويأنَفُ الضَّيْمَ إنْ أثْرَى له عَدَدُ

---

(١) انظر البيان والتبيين (ج ١ ص ٧٠ و ٧١) .

مثل من مزاوجة الألفاظ

والناس مختلفو الرأى فى مزاوجة الألفاظ : منهم من يجعل الكلمة وأختها، وأكثر ما يقع ذلك فى ألفاظ الكتّاب ، وبه كان يقول البحترى فى أكثر أشعاره ، من ذلك قوله :

تَطِيبُ بِمَسْرَاهَا البلادُ إذَا سَرَتْ فَيَفْغَمُ رِيَّاهَا وَيَصْفُو نَسِيمُهَا[1]

ففى القسيم الآخر تناسب ظاهر . . وكذلك قوله :

ضَاقَ صَدْرِى بِمَا أُجِنُّ وَقَلْبِى بِمَا أَجِدْ

وقوله أيضاً فى مدح المتوكل :

لَقَدِ اصْطَفى رَبُّ السَّمَا ءِ لهُ الْخَلاَئِقَ وَالشِّيَمْ

ومنهم من يقابل لفظتين بلفظتين ، ويقع فى الكلام حينئذ تفرقة وقلة تكلف : فمن المتناسب قول على بن أبى طالب رضى الله عنه فى بعض كلامه « أين من سعى واجتهد ، وجمع وعدَّد ، وزخرف ونجَّد ، وبنى وشيَّد » فأتبع كل لفظة ما يشاكلها ، وقرنها بما يشبهها . ومن الفرق المنفصل قول امرىء القيس :

كأَنِّىَ لَمْ أَرْكَبْ جَوَاداً لِلَذَّةٍ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِباً ذَاتَ خَلْخَالِ
وَلَمْ أَسْبَإِ الزِّقَّ الرَّوِىَّ، وَلَمْ أَقُلْ لِخَيْلِى كُرِّى كَرَّةً بعد إجفال

وكان قد ورد على سيف الدولة رجل بغدادى يعرف بالمنتخب ، لا يكاد يَسْلَمُ منه أحد من القدماء والمحدثين ، ولا يذكر شعر بحضرته إلا عابه ، وظهر على صاحبه بالحجة الواضحة ، فأنشد يوماً هذين البيتين ، فقال : قد خالف فيهما وأفسد ، لو قال :

كأنى لم أركب جواداً ، ولم أقل لخيلى كرى كرة بعد إجفال
ولم أسبإ الزق الروىَّ للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

لكان قد جمع بين الشىء وشكله ؛ فذكر الجواد والكر فى بيت ،

(١) فغمه الطيب : سد خياشيمه وملأها ، ووقع فى كل الأصول « فينعم » .

وذكر النساء والخمر فى بيت ، فالتبس الأمر بين يَدَى سيف الدولة ، وسلّموا له ما قال ، فقال رجل ممن حضر : ولا كرامة لهذا الرأى ، الله أصْدَقُ منك حيث يقول : (إن لك ألا تجوع فيها ولا تَعْرَى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تَضْحَى) فأتى بالجوع مع العرى ولم يأت به مع الظمأ ، فَسُرَّ سيفُ الدولة ، وأجازه بصلة حسنة .

قال صاحب الكتاب : قول امرىء القيس أصوب ، ومعناه أعز وأغرب؛ لأن اللذة التى ذكرها إنما هى الصيد ، هكذا قال العلماء ، ثم حكى عن شَبَابِهِ وغشيانه النساء : فجمع فى البيت معنيين ، ولو نظمه على ما قال المعترض لنقص فائدة عظيمة ، وفضيلة شريفة تدل على السلطان ، وكذلك البيت الثانى : لو نظمه على ما قال لكان ذكر اللذة حشواً لا فائدة فيه ؛ لأن الزق لا يسبأ إلا لِلَّذَّةِ ، فإن جعل الفتوة كما جعلناها فيما تقدم الصيد قلنا : فى ذكر الزق الروى كفاية ولكن امرأ القيس وصف نفسه بالفتوة والشجاعة بعد أن وصَفها بالتملك والرفاهة .

وأما احتجاج الآخر بقول الله عز وجل فليس من هذا فى شىء ؛ لأنه أجرى الخطاب على مستعمل العادة ، وفيه مع ذلك تناسب ؛ لأن العادة أن يقال : جائع عُرْيَان ، ولم يستعمل فى هذا الموضع عطشان ولا ظمآن ، وقوله تعالى « تظمأ » و « تضحى » متناسب ؛ لأن الضاحى هو الذى لا يستره شىء عن الشمس ، والظمأ من شأن مَنْ كانت هذه حاله .

فى القرآن ألفاظ لا تكاد تفترق

وقال الجاحظ : فى القرآن معانٍ لا تكاد تفترق، من مثل: الصلاة والزكاة ، والخوف والجوع ، والجنة والنار ، والرغبة والرهبة ، والمهاجرين والأنصار ، والجن والإنس ، والسمع والبصر .

ومن الشعراء مَنْ يضع كل لفظة موضعها لا يَعْدُوه ؛ فيكون كلامه ظاهراً

عيب التقديم والتأخير فى الكلام

غير مشكل ، وسهلا غير متكلف ، ومنهم من يُقَدِّم ويؤخر : إما لضرورة وَزْن ، أو قافية وهو أعذر ، وإما ليدل على أنه يعلم تصريف الكلام ، ويقدر على تعقيده ، وهذا هو العيُّ بعينه ، وكذلك استعمال الغرائب والشذوذ التى يقل مثلها فى الكلام ، فقد عيب على مَنْ لا تعلق به التهمة نحو قول الفرزدق :

عَلَى حَالَة لَوْ أَنَّ فى البحر حاتماً عَلَى جُودِه ما جَادَ بالمَاء حاتم[1]

فخفض حاتماً على البدل من الهاء التى فى «جوده» حتى رأى قوم من العلماء أن الإقواء فى هذا الموضع خير من سلامة الإعراب مع الكلفة ، وكذلك قوله :

نُفَلِّقُ هَاماً لم تَنَلْهُ أَكُفُّنَا بِأَسْيَافِنَا هَامَ الملوك القماقم

أراد : نفلق بأسيافنا هام الملوك القماقم ، ثم نبه وقرر فقال : هاما لم تنله أكفنا، يريد أى قوم لم نملكهم ونقهرهم ، وهذا عند الصدور المذكورين بالعلم تَكَلُّف وتعمل ، لا تعرفه العرب المطبوعون ، وكذلك :

إنَّ الفرزدق صخْرةٌ عَادِيَّةٌ طَالَتْ فليس تنالها الأوعالا

نصب الأوعال بطالت ، ويروى «عزت» . وأكثر شعر أبى الطيب من هذه العلامة ، ومما لا بأس به قولُ الخنساء :

فَنِعْمَ الْفتَى فى غَدَاةِ الهياج إذا ما الرِّمَاحَ نَجيعاً رَوَيْنَا

فقدمت «نجيعا» على «روينا» مبادرة للخبر بالرى من أى شىء هو، وكذلك قول أبى السفاح بكير بن معدان اليربوعى :

نَهْنَهْتُهُ عَنْكَ فَلَمْ يَنْتَهِ بالسيفِ إلاَّ جَلَدَاتٌ وجَاعُ

---

(١) يروى هذا البيت هكذا :

على حالة لو أن فى القوم حاتما على جوده ضنت به نفس حاتم

أراد نهنهته عنك بالسيف ، أو أراد فلم ينهه إلا جـلدات وجاع بالسيف ، وكلاهما فيه تقديم وتأخير .

ورأيت من علماء بلدنا مَنْ لا يحكم للشاعر بالتقدم ، ولا يقضى له بالعلم ، إلا أن يكون فى شعره التقديم والتأخير ، وأنا أستثقل ذلك من جهة ما قدمت ، وأكثر ما تجده فى أشعار النحويين

عيب تقارب الحروف وتكررها

ومن الشعر ما تتقارب حروفه أو تتكرر فتثقل على اللسان ، نحو قول ابن بشر :

لم يَضِرْهَا وَالْحَمْـــدُ للهِ شَىْءٌ وَانْثَنَتْ نَحْوَ عَزْفِ نَفْسٍ ذهول

فإن القسيم الآخر من هذا البيت ثقيل ؛ لقرب الحاء من العين، وقرب الزاى من السين .

وقال آخر :

وَقَـبْرُ حَرْبٍ فى مَكانٍ قَفْرٍ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرِ

فتكررت الألفاظ ، وترددت الحروف ، حتى صار ألقية[1] يختبر به الناس ، ولا يقدر أحد أن ينشده ثلاث مرات إلا عثر لسانه فيه وغلط .

وقال كعب بن زهير :

تجلو عَوَارِضَ ذى ظَلْمٍ إذا ابتسمتْ كأنه مُنْهَلٌ بالرَّاحِ مَعْـلُولُ

فجمع بين الضاد والذال والظاء ، وهى متقاربة متشاكلة .

التثبيج

ومن حسن النظم أن يكون الـكلام غير مُثَبَّج ، والتثبيج : جنس من المعاظلة ترد فى بابها إن شاء الله تعالى .

قيام كل بيت بنفسه

ومن الناس من يستحسن الشعر مبنيا بعضه على بعض ، وأنا أستحسن أن يكون كل بيت قائما بنفسه لا يحتاج إلى ما قبله ولا إلى ما بعده ، وما سوى ذلك فهو عندى تقصير ، إلا فى مواضع معروفة ، مثل الحكايات وما شاكلها، فإن بناء

(١) الألقية ــ على مثال أفعولة ــ ما يلقى من مسائل المعاياة ، ومثلها الأحجية والأدعية ، وزنا ومعنى .

اللفظ على اللفظ أجود هنالك من جهة السَّرْدِ ، ولم أستحن الأول على أن فيه بعداً ولا تنافرا ، إلا أنه إنْ كان كذلك فهو الذى كرهت من التثبيج .

(٣٥) — باب المخترع والبديع

حد المخترع

المخترع من الشعر هو : ما لم يُسْبَقْ إليه قائله ، ولا عمل أحد من الشعراء قبله نظيره أو ما يقرب منه ، كقول امرىءالقيس :

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَانَامَ أَهْلُهَا ... سُمُوَّ حَبَابِ الْمَاءِ حَالاً عَلَى حَالِ

فإنه أول من طَرَقَ هذا المعنى وابتكره ، وسلّم الشعراء إليه ، فلم ينازعه أحد إياه ، وقوله :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا ... لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَّابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي

وله اختراعات كثيرة يضيق عنها الموضع ، وهو أول الناس اختراعاً فى الشعر ، وأكثرهم توليداً .

ومن الاختراع قولُ طرفة :

وَلَوْلاَ ثَلاَثٌ هُنَّ مِنْ لَذَّةِ الْفَتَى[1] ... وَجَدِّكَ لَمْ أَحْفِلْ مَتَى قَامَ عُوَّدِي

فَمِنْهُنَّ سَبْقُ الْعَاذِلاَتِ[2] بِشَرْبَةٍ ... كُمَيْتٍ مَتَى مَا تُعْلَ بِالْمَاءِ تُزْبِدِ

وَكَرِّى إِذَا نَادَى الْمُضَافُ مُحَنَّبًا ... كَسِيدِ الْغَضَاذِى الطخيةِ المتوردِ[3]

---

(١) يروى * . . . هن من عيشة الفتى *

(٢) يروى * سبقى العاذلات . . . *

(٣) يروى * كسيد الغضا نبهته المتورد * والمحنب ـ بالحاء المهملة ، ووقع فى الأصول بالجيم موحدة وهو تحريف ـ فرس أقنى الذراع ، ونصبه بكرى . والسيد : الذئب ، والغضا : شجر ، وذئابه أخبث الذئاب . ونبهته : هيجته . والمتورد : الذى يطلب ورود الماء .

وَتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ وَالدَّجْنُ مُعْجِبٌ   بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الطِّرَافِ الْمُعَمَّدِ[1]

وقوله يصف السفينة فى جريها :

يَشُقُّ حَبَابَ الْمَاءِ حَيْزُومُهَا بِهَا   كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ الْمُفَائِلُ بِالْيَدِ

وله أيضا اختراعات أكثرها من هذه القصيدة . وقال نابغة بنى ذبيان :

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ   فَتَنَاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِالْيَدِ

وقوله أيضاً من الاختراعات :

لَوْ أَنَّهَا عَرَضَتْ لِأَشْمَطَ رَاهِبٍ   عَبَدَ الْإِلٰهَ صَرُورَةٍ مُتَعَبِّدِ

لَرَنَا لِرُؤْيَتِهَا وحسن حديثها   وَلَخَالَهُ رَشَداً وَإِنْ لَمْ يَرْشُدِ

وما زالت الشعراء تخترع إلى عصرنا هذا وتولد ، غير أن ذلك قليل فى الوقت

التوليد

والتوليد : أن يستخرج الشاعر معنىً من معنى شاعر تقدمه ، أو يزيد فيه زيادة ؛ فلذلك يسمى التوليد ، وليس باختراع ؛ لما فيه من الاقتداء بغيره ، ولا يقال له أيضاً « سرقة » إذا كان ليس آخذاً على وجهه ، مثال ذلك قول امرىء القيس :

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا   سُمُوَّ حَبَابِ الْمَاءِ حَالاً عَلَى حَالِ

فقال عمر بن عبد الله بن أبى ربيعة ، وقيل : وَضَّاح اليمن :

فَاسْقُطْ علينا كَسُقُوطِ النوى   لَيْلَةَ لَا نَاهٍ وَلَا زَاجِرُ

فولّد معنى مليحًا اقتدى فيه بمعنى امرىء القيس ، دون أن يشركه فى شىء من لفظه ، أو ينحو نحوه إلا فى الحصول ، وهو لطف الوصول إلى حاجته فى خفية.

وأما الذى فيه زيادة فكقول جرير يصف الخيل :

---

(١) الدجن : إلباس الغيم السماء وإن لم يكن مطر ، أو هو الندى والمطر الخفيف ، والبهكنة : الجارية الخفيفة الروح ، والطراف المعمد : الخباء ذى العمد.

يَخْرُجْنَ مِنْ مُسْتَطِيرِ النَّقْعِ دَامِيَةً كَأَنَّ آذَانَهَا أَطْرَافُ أَقْلَامِ

فقال عدى بن الرِّقَاع يصف قرن الغزال :

تُزْجِى أَغَنَّ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

فولّد بعد ذكر القلم إصابته مداد الدواة بما يقتضيه المعنى ؛ إذ كان القرن أسود . وقال العُمَانى الراجز بين يدى الرشيد يصف الفرس :

تَخَالُ أُذْنَيْهِ إِذَا تَشَوَّفَا قَادِمةً أو قَلَمـاً محرفا[1]

فولد ذكر التحريف فى القلم ، وهو زيادة صفة .

ومن التوليد قول أمية بن أبى الصَّلْت يمدح عبد الله بن جُدْعَان :

لـكل قبيلة ثبجٌ وصلب وأنت الرأسُ أولُ كل هاد

فقال نُصَيْب لمولاه عمر بن عبد العزيز :

فأنتَ رأس قُرَيْشٍ وَابْنُ سَيِّدِها والرأسُ فيهِ يكون السمعُ والبصر

فولّدَ هذا الشرح وإن كان مجملا فى قول أمية بن أبى الصلت . . . ثم أتى على بن جَبَلة فقال يمدح حميد بن الحميد :

فالناسُ جسمٌ ، وَإِمَامُ الهُدَى رأسٌ ، وأنتَ العينُ فى الراس

فأوقع ذكر العين على مشبه معين ، ولم يفعل نصيب كذلك ، لـكن أتى بالسمع والبصر على جهة التعظيم ؛ لأن من ولد عمر ولى عهد ، ففى قول على بن جبلة زيادة . . وجاء ابن الرومى فقال :

عَيْنُ الأميرِ هى الوزيـــر ، وأنتَ نَاظِرُهَا البصير

فرتَّبَ أيضاً ترتيباً فيه زيادة ، فهذا مجرى القول فى التوليد .

---

(١) يروى النحويون هذا البيت * كأن أذنيه ... قادمة أو قلما محرفا * ويستدلون به على أن من الناس من ينصب المبتدأ والخبر جميعا بعد كأن .

وأكثر المولدين اختراعاً وتوليداً — فيما يقول الحذاق — أبو تمام ، وابن الرومى .

الفرق بين الاختراع والإبداع

والفرق بين الاختراع والإبداع ـ وإن كان معناهما فى العربية واحدا ـ أن الاختراع : خَلْقُ المعانى التى لم يُسْبَق إليها ، والإتيان بما لم يكن منها قط، والإبداع إتيان الشاعر بالمعنى المستظرف ، والذى لم تجر العادة بمثله ، ثم لزمته هذه التسمية حتى قيل له بديع وإن كثر وتكرر ، فصار الاختراع للمعنى ، والإبداع للفظ ؛ فإذا تم للشاعر أن يأتى بمعنى مخترع فى لفظ بديع فقد استولى على الأمد ، وحاز قصب السبق .

اشتقاق الاختراع

واشتقاق الاختراع من التليين يقال « بيت خرع » إذا كان ليناً ، والخروع فِعْوَل منه ، فكأن الشاعر سهل طريقة هذا المعنى ولينه حتى أبرزه .

البديع

وأما البديع فهو الجديد ، وأصله فى الحبال ، وذلك أن يفتل الحبل جديداً ليس من قُوَى حبلٍ نقضت ثم فتلت فتلا آخر . وأنشدوا للشَّمَّاخ بن ضرار :

أطار عقيقه عنـــه نسالا   وأدمج دمج ذى شطر بديع

أنواع البديع عند ابن المعتز

والبديع ضروب كثيرة ، وأنواع مختلفة ، أنا أذكر منها ما وسعته القدرة وساعدت فيه الفكرة، إن شاء الله تعالى ، على أن ابن المعتز — وهو أول من جمع البديع ، وألف فيه كتاباً — لم يعده إلا خمسة أبواب : الاستعارة أولها ، ثم التجنيس ، ثم المطابقة ، ثم رد الأعجاز على الصُّدُور، ثم المذهب الكلامى ، وعَدَّ ما سوى هذه الخمسة أنواع محاسن ، وأباح أن يسميها مَنْ شاء ذلك بديعا ، وخالفه من بعده فى أشياء منها يقع التنبيه عليها والاختيار فيها حيثما وقعت من هذا الكتاب ، إن شاء الله تعالى .

٣٦ — باب المجاز

منزلة المجاز

العرب كثيرا ما تستعمل المجاز ، وتعده من مفاخر كلامها ؛ فإنه دليل الفَصَاحة ، ورأس البلاغة ، وبه بانت لغتها عن سائر اللغات

معنى المجاز

ومعنى المجاز طريقُ القول ومَأْخَذُه ، وهو مصدر « جُزْتُ مجازاً » كما تقول « قمت مقاماً ، وقلت مقالا » حكى ذلك الحاتمى ، ومن كلام عبد الله بن مسلم ابن قتيبة فى المجاز قال : لو كان المجاز كذباً لكان أكثر كلامنا باطلا ؛ لأنا نقول: نَبَتَ البَقْلُ ، وطالت الشجرة ، وأينعت الثمرة ، وأقام الجبل ، ورخُصَ السعر ، ونقول : كان هذا الفعل منك فى وقت كذا ، والفعل لم يكن وإنما يكون ، وتقول : كان الله ، وكان بمعنى حدث ، والله قبل كل شىء ، وقال فى قول الله عز وجل : (فوجَدَا فيها جِدَاراً يريدُ أن ينقضَّ فأقامه) لو قلنا للمنكر هذا كيف تقول فى جدار رأيته على شفا انهيار ؟ لم يجد بداً من أن يقول : يهم أن يَنْقَضَّ ، أو يكاد ، أو يقارب ، فإن فعل فقد جعله فاعلا ، ولا أحسبه يصل إلى هذا المعنى فى شىء من ألسنة العجم إلا بمثل هذه الألفاظ .

المجاز أبلغ من الحقيقة

والمجاز فى كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة ، وأحسن موقِعاً فى القلوب والأسماع ، وما عدا الحقائق من جميع الألفاظ ثم لم يكن مُحَالا مَحْضاً فهو مجاز ؛ لاحتماله وجوه التأويل ، فصار التشبيه والاستعارة وغيرهما من محاسن الكلام داخلة تحت المجاز ، إلا أنهم خصوا به — أعنى اسم المجاز — باباً بعينه ؛ وذلك أن يسَمى الشىء باسم ما قاربَهُ أو كان منه بسبب ، كما قال جرير ابن عطية :

إذا سَقَطَ السَّماء بأرض قوم[1] رَعَيْنَاه وإنْ كانوا غِضَابَا

أراد المطر لقربه من السماء ، ويجوز أن تريد بالسماء السحاب ؛ لأن كل ما أظلك فهو سماء ، وقال « سقط » يريد سقوط المطر الذى فيه ، وقال «رعيناه» والمطر لا يُرْعَى ، ولكن أراد النبت الذى يكون عنه ؛ فهذا كله مجاز ، وكذلك قول العَتَّابى :

(١) يروى * إذا نزل السماء . . . *

ياليلةً لى بحوّارين ساهرةً حتى تكلم فى الصبح العصافيرُ

فجعل الليلة ساهرة على المجاز ، وإنما يُسْهَر فيها ، وجعل للعصافير كلاماً ، ولا كلام لها على الحقيقة . ومثله قول الله عز وجل إخباراً عن سليمان صلى الله على سيدنا محمد وعليه : (يا أيها الناسُ عُلِّمنا منطق الطير) وإنما الحيوان الناطق الإنس والجن والملائكة ، فأما الطير فلا ، ولكنه مجاز مليح واتساع ، وهذا أكثر من أن يحصره أحد ، ومثله فى كتاب الله عز وجل كثير ، من ذلك قوله تعالى : (واسأل القرية) ومثله (وأُشْرِبُوا فى قلوبهمُ العجلَ بكفرهم) يعنى حبه ، ومنه : (فتبارك الله أحسن الخالقين) وهو الخالق حقاً وغيره خالق مجازاً ، وقوله : (والله خير الماكرين) وإنما سمى ذلك مكراً لكونه مُجَازاة عن مكر ، وكذلك قوله : (فبشرهم بعذاب أليم) والعذاب لا يُبَشَّر به ، وإنما هو أنه مكان البشارة .

ومن أناشيد هذا الباب قول الفرزدق :

والشَّيْبُ يَنْهَضُ فى الشَّبَابِ كأنَّهُ لَيْلٌ يَصيحُ بجانبيه نهار

وقال يعقوب بن السكيت : العرب تقول: بأرض بنى فلان شجر قد صاح ؛ إذا طال ، وأنشدوا للعجاج :

* كالكرم إذ نادى من الكافور *

قال ابن قتيبة : لما تبين الشجر بطوله ودل على نفسه جعله كأنه صائح ؛ لأن الصائح يدل على نفسه بصوته . وأنشد غيره قول سُوَيْد بن كُرَاع فى نحو هذا :

رَعَى غَيْرَ مَذْعُورٍ بهنّ ، وراقه لُعَاعٌ تهاداه الدكادكُ واعد

يقال : نبات واعد ، إذا أقبل كأنه قد وَعَدَ بالتمام ، وكذلك إذا نوّرَ أيضاً قيل : قد وَعَدَ . ومن المجاز عندهم قول الشاعر وغيره : فعلت ذاك والزمان غِرٌّ ، والزمان غُلَام ، وما أشبه ذلك ، وهو يريد نفسه ليس الزمان ، ولا أرى ذلك مستقيما

بل عندى الصواب ونفس الاستعارة أن يبقى الكلام على ظاهره مجازا؛ لأنا نجد فى هذا النوع ما لا ينساغ فيه هذا التأويل ، كقول بعضهم:

سألتني عن أناس هلكوا شربَ الدهرُ عليهم وأكلْ

فليس معناه شربْتُ وأكلْتُ عليهم ؛ لأنه إنما يعنى بعد العهد لا السلو وقلة الوفاء . وقال أبو الطيب :

أفنتْ مودّتَها الليالى بعدنا ومشى عليها الدهرُ وهو مُقَيَّدُ

فإنما أراد الدهر حقيقة . وقال الصَّنَوْبَرى :

كان عَيْشى بهِمْ أنيقاً فولّى وزمانى فيهم غُلاماً فشاخا

فليس مراده كُنتُ فيهم غلاماً فشِخْتُ ، ولكل موضع مايليق به من الكلام ويصح فيه من المعنى .

التشبيه من المجاز

وأما كون التشبيه داخلا تحت المجاز فلأن المتشابهين فى أكثر الأشياء إنما يتشابهان بالمقاربة على المسامحة والاصطلاح ، لا على الحقيقة ، وهذا يبين فى بابه إن شاء الله تعالى .

الكناية

وكذلك الكناية فى مثل قوله عز وجل إخبارا عن عيسى ومريم عليهما السلام : (كانا يأكلان الطعام) كناية عما يكون عنه من حاجة الإنسان ، وقوله تعالى حكاية عن آدم وحَوّاء صلى الله عليهما : (فلما تَغَشَّاها) كناية عن الجماع ، وقول النبى صلى الله عليه وسلم : « العين وِكَاء السَّهِ » وقوله لحادٍ كان يحدو به « إياك والقوارير » كناية عن النساء لضعف عزائمهن ، إلى أكثر من هذا .

٣٧ — باب الاستعارة

منزلة الاستعارة

الاستعارة أفضل المجاز ، وأول أبواب البديع ، وليس فى حِلَى الشعر أعجب منها ، وهى من محاسن الكلام إذا وقعت مَوْقِعَهَا ، ونزلت موضعها ،

والناس مختلفون فيها : منهم من يستعير للشيء ما ليس منـــه ولا إليه ، كقول لبيد :

وَغَدَاةِ رِيحٍ قَدْ وَزَعْتُ وَقِرَّةٍ إذ أَصْبَحَتْ بِيدِ الشِّمالِ زِمَامُها[1]

فاستعار للريح الشمال يداً ، وللغَدَاة زِماماً ، وجعل زمام الغداة ليد الشمال إذ كانت الغالبة عليها ، وليست اليد من الشمال ، ولا الزمام من الغداة . ومنهم من يخرجها مخرج التشبيه كما قال ذو الرمة:

أَقامَتْ بِهِ حَتّى ذَوَى الْعُودُ والْتَوَى وَسَاقَ الـثُّرَيَّا فى مُلاَءَتِهِ الْفَجْرُ

فاستعار للفجر مُلاَءة ، وأخرج لفظه مخرج التشبيه .. . وكان أبو عمرو بن العَلاَء لا يرى أن لأحد مثل هذه العبارة ، ويقول : ألا ترى كيف صير له ملاءة، ولا ملاءة له ، وإنما استعار له هذه اللفظة ؟ وبعض المتعقبين يرى ما كان من نوع بيت ذى الرمة ناقص الاستعارة ؛ إذ كان محمولا على التشبيه ، ويفضل عليه ما كان من نوع بيت لبيد ، وهذا عندى خطأ ؛ لأنهم إنما يستحسنون الاستعارة القريبة ، وعلى ذلك مضى جِلَّة العلماء ، وبه أتت النصوص عنهم ، وإذا استعير للشيء ما يقرب منه ويليق به كان أَوْلىٰ مما ليس منه فى شىء ، ولو كان البعيد أحسن استعارة من القريب لما استهجنوا قول أبى نُوَاس :

---

(١) وزعت : كففت ، ويروى « كشفت » يريد أنه وزع القر وكفه بإطعام الطعام وإيقاد النيران . وقوله « إذ أصبحت بيد الشمال زمامها » أى : إذ أصبحت الغداة الغالب عليها ريح الشمال وهى أبرد الرياح ، قال التبريزى « وجعل للرياح يدا وللغداة زماما » اهـ وقال الشيخ عبد القاهر : « ليس فى بيت لبيد شىء أكثر من أن يخيل إلى نفسك أن الشمال فى تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالمدبر المصرف لما فى زمامه بيده ومقادته فى كفه ، وذلك كله لايتعدى التخيل والتوهم » اهـ

من معيب الاستعارة

بُحَّ صَوْتُ المـال مِمَّا مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيحُ

وأى شىء أبعد استعارة من صوت المال ؟ فكيف حتى بُحَّ من الشكوى والصياح مع ما أن له صوتاً حين يوزن أو يوضع ؟ ولم يرده أبو نواس فيما أُقَدِّرُ ؛ لأن معناه لا يتركب على لفظه إلا بعيداً ، وكذلك قول بشار :

وَجَذَّتْ رِقَابَ الوَصْلِ أَسْيافُ هَجْرِها وقَدَّتْ لِرِجْلِ البَيْنِ نعلين من خَدِّى

فما أهْجَنَ « رجل البين » وأقبح استعارتها ! ! ولو كانت الفصاحة بأسرها فيها ، وكذلك « رقاب الوصل » ولا مثل قول ابن المعتز وهو أنقد النقاد :

* كلَّ وَقْتٍ يَبُول زُبُّ السَّحابِ *

فهذا أردأ من كل ردىء ، وأمقت من كل مَقِيتٍ .

حدود مختلفة للاستعارة

قال القاضى الجرجانى : الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصلى ، ونقلت العبارة فجعلت فى مكان غيرها ، ومِلاَكُهَا بقرب التشبيه ، ومناسبة المستعار للمستعار له ، وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة ، ولا يتبين فى أحدهما إعراض عن الآخر

وقال قوم آخرون منهم أبو محمد الحسن بن على بن وكيع : خير الاستعارة ما بعد ، وعلم فى أول وَهْلَة أنه مستعار ، فلم يدخله لبس ، وعاب على أبى الطيب قوله :

وقد مَدَّتِ الخيلُ العِتَاقُ عيونَهَا إلى وَقْتِ تبديلِ الركابِ من النعل

إذ كانت الخيل لها عيون فى الحقيقة ، ورجح عليه قول أبى تمام :

سَاسَ الأُمُورَ سياسةَ ابن تَجَارِبٍ رَمَقَتْهُ عَيْنُ الملك وَهْوَ جَنِينُ

إذ كان الملك لا عَيْنَ له فى الحقيقة .

وقال أبو الفتح عثمان بن جنى : الاستعارة لا تكون إلا للمبالغة ، وإلا فهى حقيقة ، قاله فى شرح بيت أبى الطيب :

فَتًى يَملأُ الأفعالَ رَأْياً وحِكْمَةً وبادرةً أحْيَانَ يَرْضَى وَيَغْضَبُ

وكلام ابن جنى أيضاً حَسَنٌ فى موضعه ؛ لأن الشىء إذا أعطى وصف نفسه لم يسم استعارة ، فإذا أعطى وصف غيره سمى استعارة ، إلا أنه لا يجب للشاعر أن يبعد الاستعارة جداً حتى ينافر ، ولا أن يقربها كثيراً حتى يحقق ، ولكن خير الأمور أوساطها .. قال كُثَيِّر يمدح عمر بن عبد العزيز واستعار حتى حقق :

وَقَدْ لَبِسَتْ لبسَ الْمَلُوكِ ثيابها ... وأبْدَتْ لك الدنيا بكف ومعصم
وترمق أحياناً بعينِ مريضةٍ ... وتَبْسِمُ عَنْ مثلِ الْجُمانِ الْمُنَظَّمِ

وحَسْبُك أنه وصف العين التى استعار بالمرض ، وشبه المبسم بالجمان ، وهذا إفراط غير جيد ههنا .

قال أبو الحسن الرمانى : الاستعارة استعمال العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة ، وذكر قول الحجاج « إنى أرى رُءوساً قَدْ أينعَتْ وَحانَ قِطَافُها » .

مما يجتنبه المحدثون الاستعارة

وقد يأتى القدماء من الاستعارات بأشياء يجتنبها المحدثون ، ويستهجنونها ، ويعافون أمثالها ظرفاً ولطافة ، وإن لم تكن فاسدة ولا مستحيلة . ؛ فمنها قول امرىء القيس :

وَهِرٌّ تَصِيدُ قلُوبَ الرِّجَالِ ... وَأفْلَتَ مِنْهَا ابْنُ عَمْرٍو حُجُر

فكان لفظة « هر » واستعارة الصيد معها مضحكة هجينة ، ولو أن أباه حُجراً من فارات بيته ماأسِف على إفلاته منها هذا الأسَفَ ، وأين هذه الاستعارة من استعارة زهير حين قال يمدح :

ليثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ الرجالَ إذا ... مَا كَذَبَ اللَّيْثُ عَنْ أقرانِهِ صَدَقَا

لا على أن امرأ القيس أتى بالخطأ على جهته ، ولكن للكلام قرائن تحسنه ، وقرائن تقبحه ، كذكر الصيد فى هذين البيتين .

ولعل معترضاً يقول : العرب لا تعرف إلا الحقائق ، ولا تلتفت إلى كلام

السفلة ، فقد قدمت هذا فى أول كلامى ، وعرفت أنه لا يلزم ، ولكن يرغب عنه فى الواجب ، ألا ترى أن بعض الوزراء — وقيل : بل هو المأمون — غَيَّر المَسْلَحة[1] واستهجنها لما فيها فقال : قولوا المصلحة ، وليس ذلك لعلة إلا موافقة كلام السفلة .

وقال الرمانى : الاستعارة الحسنة ما أوجب بلاغة ، ببيان لا تنوب منابه الحقيقة ، كقول امرىء القيس : * قَيْدِ الأَوَابِدِ[2] *

واسترذل قول بعض المولدين :

* اسْفِرِى لِى النقابَ ياضَرَّةَ الشمس *

بأن قال : أتراه ظن أن الضرة لا تكون إلا حسنة ؟! وإلا فأىُّ وجه لاختياره هذه الاستعارة .

ومثل قول امرىء القيس المتقدم ذكره فى القبح قولُ مسلم بن الوليد :

وليلةٍ خُلِسَتْ للعينِ من سِنَةٍ هَتَكْتُ فيها الصبا عن بيضةِ الحجل

فاستعار للحجل — يعنى الكلل — بيضة ، كما استعارها امرؤ القيس للخدر فى قوله :

* وَبَيْضَةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خباؤها[3] *

وكلاهما يعنى المرأة ، فاتفق لمسلم سوء الاشتراك فى اللفظ ؛ لأن بيضة الحجل من الطير تشاركها ، وهى لعمرى حسنة المنظر كما عرفت . . وقال فى موضع آخر :

(١) المسلحة : موضع السلاح ، وهى أيضا الثغر أى الموضع الذى يخاف أن يأتى منه العدو . وإنما كره لفظها لأنه يأتى من السلاح — بضم السين — وهو التغوط

(٢) ذلك فى قوله من المعلقة :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

(٣) تمامه : * تمتعت من لهو بها غير معجل *

رُمْتُ السُّلُوَّ وناجانى الضميرُ به   فاستعطفتنى على بيضاتها الحَجَلُ

فما الذى أعجبه من هذه الاستعارة قبحها الله !!؟ ولو قال «الـكلل» لتخلَّصَ وأبدع فـكان تبعاً لامرىء القيس فى جودة هذه الاستعارة . .

وقال حبيب على بصره بهذا النوع :

* والله مفتاحُ باب المعقِلِ الأشِبِ *

فجعل الله تعالى اسمه مفتاحاً ، وأىُّ طائل فى هده الاستعارة مع ما فيها من البشاعة والشناعة !!؟ و إن كنا نعلم أنما أراد أمر الله وقضاءه .

واعترض بعض الناس على قول أبى تمام :

للجودِ بابٌ فى الأنام ولم تزل   مُذْ كنتَ مفتاحاً لِذَاكَ البابِ

بحضرة بعض أصحابنا ، وقال : أنَّى إلى ممدوحه فجعله مفتاحاً ، فهلا قال كما قال ابن الرومى :

قَبِّلْ أنامله فَلَسْنَ أناملا   لـكِنَّهُنَّ مَفَاتِحُ الأرزاق

فقال له الآخر : عجبت منك تعيب أن يجعل ممدوحه مفتاحاً وقد جعل ر به كذلك ، وأنشد البيت المتقدم عجزه .

وقال فى ممدوح ذكر أنه يعطيه مرة و يشفع له أخرى إلى من يعطيه :

فإذا ما أردتَ كنتَ رشاءً   و إذا ما أردتَ كنتَ قَلِيباً

فجعله مرة حبلا ومرة بئرا .. وقال الآخر هو أبو تمام :

ضاحى المحيا للهجيرِ وللقنا   تحتَ العجاج تخاله محراثاً

فلعنة الله على المحراث هينا ، ما أقبحه وأركّهُ !!! وأين هذا كله من قوله المليح البديع :

أو ما رأت بردىَّ من نَسْج الصبا   ورأت خضابَ الله وهو خضابى

وإن كان إنما أخذه من قول الله عز وجل : (صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ من اللهِ صِبغة) قالوا : يريد الختان ، وقيل : الفطرة .

السر في استعارتهم لفظ الشيء لغيره

والاستعارة إنما هي من اتساعهم في الكلام اقتداراً ودالة ، ليس ضرورة ؛ لأن ألفاظ العرب أكثر من معانيهم ، وليس ذلك في لغة أحد من الأمم غيرهم ، فإنما استعاروا مجازاً واتساعاً . ألا ترى أن للشيء عندهم أسماء كثيرة وهم يستعيرون له مع ذلك ؟ على أنا نجد أيضاً اللفظة الواحدة يُعَبر بها عن معانٍ كثيرة ، نحو « العين » التي تكون جارحة ، وتكون الماء ، وتكون الميزان ، وتكون المطر الدائم الغزير ، وتكون نَفْسَ الشيء وذاته ، وتكون الدينار ، وما أشبه ذلك كثير ، وليس هذا من ضيق اللفظ عليهم ، ولكنه من الرغبة في الاختصار ، والثقة بفهم بعضهم عن بعض . ألا ترى أن كل واحد من هذه التي ذكرنا له اسمٌ غيرُ العينِ أو أسماء كثيرة ؟

أمثلة من الاستعارة المختارة

ومما اختاره ابن الأعرابي وغيره قول أرْطَاة بن سُهَيّة .

فقلتُ لها يا أمَّ بيضاء[1] إنني هُرِيقَ شبابي واستشنّ أديمي

فقال * هريق شبابي * لما في الشباب من الرونق والطراوة التي هي كالماء ، ثم قال * استشن أديمي * لأن الشَّنَّ هو القربة اليابسة ؛ فكأن أديمه صار شناً لما هريق ماء شبابه ؛ فصحت له الاستعارة من كل وجه ولم تبعد .

ومثل ذلك في الجودة ما اختاره ثعلب وفضله جماعة ممن قبله ، وهو قول طُفَيل الغَنَوِي :

فوضعتُ رحلي فوقَ ناجيةٍ يَقْتَاتُ شَحْمَ سَنامِها الرَّحْلُ[2]

(١) في نسخة « يا أم عمران »

(٢) الناجية : الناقة السريعة ، والرحل : ما يقتعد عليه الراكب ، يريد أن الرحل فوقها دائما ـ كناية عن طول ما يسافر عليها ـ فينتقص شحم سنامها.

فجعل شحم سنامها قوتاً للرحــل ، وهذه استعارة كما تراها كأنها الحقيقة لتمكنها وقربها ، وقد تناولها جماعة منهم كُلثوم بن عمرو العَتَّابى : قال فى قصيدة يعتذر فيها إلى الرشيد :

ومن فوق أكوار المهارِى(1) لُبَانة   أحلَّ لها أكْلَ الذرى والغوَارب

ثم أتى أبو تمام وعَوّل على العَتَّابى وزاد المعنى زيادة لطيفة بينة فقال :

وقد أكَلُوا منها الغَوَارب بالسُّرَى   فصارت لها أشباحُهُمْ كالغوارب

وكان ابن المعتز يفضل ذا الرمة كثيراً ، ويقدمه بحسن الاستعارة والتشبيه ، لاسيما بقوله :

فلما رَأيتُ الليلَ والشمسُ حَيَّة   حَيَاةَ الذى يقضى حُشَاشَة نازع

لأن قوله * والشمس حية * من بديع الـكلام والاستعارة ، وباقى البيت من عجيب التشبيه . واختار الحاتمى فى باب الاستعارة فى وصف سحائب — وأظنه لابن مَيَّادة ، واسمه الرَّمَّاح بن أبْرَدَ من بنى مرة ، وميادة أمه :

إذا ما هَبَطْنَ القاعَ قد ماتَ بَقْلُه   بكَيْنَ به حَـتى يعيش هشيم

ورواه قوم لأبى كبير ، وابن ميادة أولى به وأشبه .

أمثله من الاستعارة فى القرآن والحديث

والاستعارة كثيرة فى كتاب الله عز وجل وكلام نبيه صلى الله عليه وسلم : من ذلك قوله تعالى : (لما طغَى الماءُ) وقوله : (فلما سَكَتَ عن موسى الغضب) وقوله : (سمعوا لها شهيقاً وهىَ تفورُ، تكادُ تميزُ من الغيظ) ، فالشهيق والغيظ استعارتان ، وقوله تعالى : (يا أرضُ ابْلَعِى ماءكِ) وكثير من هذا لو تقصى لطال جداً . وقول النبى صلى الله عليه وسلم : « الدنيا حُلْوَة خَضِرة » ، وقوله لحالب حلب ناقة : «دَعْ داعى اللبن» يعنى بقيةً من اللبن فى الحلب ، وقوله : «تمسحوا

---

(1) فى نسخة « المطايا »

بالأرض فإنها بكم برة » . قال أبو عبيد : يريد أنها منها خَلْقهم ، ومنها مَعَادهم ، وهى بعد الموت : كِفَاتُهُمْ.[1] وقوله : « رب تقبل تَوْبَتى ، واغسِلْ حَوْبَتِى » فغسل الحوبة استعارة مليحة .

ومن أناشيد هذا الباب — وهو فيما زعم ابن وكيع أول استعارة وقعت — قولُ امرىء القيس يصف الليل :

وليلٍ كموج البحرِ أرْخَى سُدُولَه ... علىَّ بأنواعِ الهموم ليبتــلى
فقلت له لما تمطَّى بجَوْزِهِ[2] ... وأردف أعجازاً وناءَ بكلكل

فاستعار لليل سدولا يرخيها ، وهو الستور ، وصُلْباً يتمطى به ، وأعجاراً يردفها ، وكلكلا ينوء به ، وقال حسان بن ثابت يذكر قتلة عثمان رحمة الله عليه :

ضَحَّوْا بأشْمَطَ عنوانُ السجود به ... يُقَطِّعُ الليْــلَ تسبيحاً وقرآنا

فالاستعارة قوله * عُنْوَانُ السجود به * وقد أخذه من قول الله تعالى : (سِيَماهُمْ فى وجوههم من أثر السجود) وقال جميل العذرى :

أكلما بانَ حَىٌّ لا تُلاَئِمهم ... ولا يبالون أن يَشْتَاق مَنْ فَجَعُوا
علقتنى بهوى منهم ، فقد جَعَلَتْ ... من الفراق حَصَاةُ القلب تنصدع

البديع « حَصَاة القلب » . ومن كلام المولدين قولُ أبى نواس :

بصَحْنِ خد لم يغض ماؤه ... ولم تخضهُ أعين الناس

البديع كل البديع عجز البيت . وقال أيضاً :

فإذا بدا اقتادَتْ محاسِـنُه ... قَسْراً إليه أعِنَّةَ الحَـدَق

---

(١) الكفات ـ بكسر الكاف ـ الوضع يضم فيه الشىء ويجمع .

(٢) فى إحدى روايات المعلقة * فقلت له لما تمطى بصلبه * وهى رواية الخطيب والأعلم ، والذى رواه المؤلف رواية الأصمعى ، والمعنى لما تمدد بوسطه .

البديع « أعنة الحدق » وقوله «اقتادت» . وقال أبو الطيب :

ضممتَ جناحيهم على القلب ضمة تموت الخوافي تحتها والقوادم

أراد بالجناحين مَيْمنة العسكر ومَيْسرته ، و بالقلب موضع الملك ، و بالخوافي والقوادم السيوف والرماح ، وهذا تصنيع بديع ، كله حسن الاستعارات.. وقال :

صدمْتَهُمْ بِخَميسٍ أنت غُرّته وسمهريته في وجهه شَمَمُ

وهذا كالأول جودة .. وقال السرى الموصلي :

يشق جيوب الورد في شَجَراته نسيمٌ متى ينظر إلى الماء يبرد

فالبديع قوله « متى ينظر » .

(٣٨) — باب التمثيل

ومن ضروب الاستعارة التمثيل ، وهو المماثلة عند بعضهم ، وذلك أن تمثل شيئا بشيء فيه إشارة[1] ، نحو قول امرىء القيس وهو أول من ابتكره ، ولم يأت أملح منه :

حد التمثيل وأول من ابتكره

وَمَا ذَرَفَتْ عَيْناكِ إلا لتقدحى بِسَهْمَيْكِ فى أعشارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ[2]

فمثل عينيها بسَهْمَي الميسر — يعني المُعَلَّى ، وله سبعة أنصباء ، والرقيب ، وله ثلاثة أنصباء — فصار جميع أعشار قلبه للسهمين اللذين مثل بهما عينيها ، ومَثَّلَ قلبه بأعشار الجزور ؛ فتمت له جهات الاستعارة والتمثيل .

وقال حريث بن زيد الخيل :

أَبانا[3] بقتلانا من القوم عُصْبَةً كِراما، ولم نأْكل بهم حَشَفَ النَّخْل

---

(١) كذا ، وربما كان صوابها « شبه استعارة » ويؤيده قوله فى آخر تعليقه على بيت امرىء القيس « فتمت له جهات الاستعارة والتمثل »

(٢) ذرفت : دمعت ، إلا لتقدحى : يروى فى مكانه « إلا لتضربي » فى أعشار قلب : أى فى قلب معتشر ، أى : مكسر ، مقتل ، مذلل ، منقاد ، يقول : ما بكيت إلا لتجرحى قلبا قد ذلله العشق . (٣) فى الأصول « أفأنا » .

فمثل خساس الناس بحشف النخل ، ويجوز أن يريد أخذ الدية فيكون حينئذ حذفا أو إشارة . . وقال الأخطل لنابغة بنى جعدة :

لَقَدْ جَازَى أبو لَيْـلَى بقحم وَمُنْتَسِكٍ عَنِ التَّقْرِيبِ وَانِ
إِذَا هَبَطَ الْجَبَارَ كَبَا لِفِيـهِ وَخَرَّ على الجحافل وَالْجِرَانِ

و إنما عيره بالكبر ، و إنما هو شاب حديث السن . . وقال بعض الرواة : إنما تهاجيا فى مُسَابقة فرسين ، وهو غلط عند الحذاق .

ومن التمثيل أيضا قوله :

فَنَحْنُ أَخٌ لم تَلْقَ فى النَّاسِ مِثْلَنَا أَخَا حِينَ شَابَ الدَّهْرُ وَابْيَضَّ حَاجِبُهْ

ومعنى التمثيل اختصار قولك مثل كذا وكذا كذا وكذا . . .

وقال أبو خِرَاش فى قصيدة رثى بها زهير بن عجردة ، وقد قتله جميل بن معمر يوم حنين مأسوراً :

فَلَيْسَ كَعَهْـــدِ الدَّارِ يا أُمَّ مَالِكٍ وَلَـكِنْ أَحَاطَتْ بالرِّقَابِ السَّلَاسِلُ

يقول : نحن من عهد الإسلام فى مثل السلاسل ، و إلا فكنا نقتل قاتله ، وهو من قول الله عز وجل فى بنى إسرائيل (وَيَضَعُ عنهم إِصْرَهُمْ والأغلال التى كانت عليهم) يريد بذلك الفرائض المانعة لهم من أشياء رَخَّصَ فيها لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، و إلى نحو ذلك ذهب عمرو بن معدى كرب حين خَفَقَهُ عمر رضى الله عنه بالدِّرَّة ، فقال له : الْحمى أَضْرَعَتْنِى لك ، يعنى الدين ، و إن كان المثل قديما إنما [هو] الحمى أضرعتنى للنوم .

ومن جيد التمثيل قول ضُبَاعَة بنت قُرْط ترثى زوجها هشام بن المغيرة المخزومى :

إنَّ أبا عثمان لم أنْسَـه و إنَّ صَمَتَّا عن بكاه لَحُوبْ
تفاقدوا من معشر! ما لهم أىَّ ذَنُوبٍ صوبوا فى القليب؟

ومن كلام النبى صلى الله عليه وسلم فى التمثيل قوله : « الصوم فى الشتاء الغنيمةُ الباردةُ » وقوله : « ظَهْرُ المؤمن مِشْجَبُه ، وخزانته بطنه ، وراحلته رجله ،

وذخيرته ربه » وقوله : « المؤمن فى الدنيا ضيف ، وما فى يديه عارية ، والضيف مرتحل ، والعارية مُؤَدَّاة ، ونعم الصهر القبر » .

ومن مليح أناشيد التمثيل قول ابن مُقْبل :

إنى أقَيِّد بالمأثور راحلتى ... ولا أبالى و إن كنا على سفر

فقوله * أقيد بالمأثور * تمثيل بديع ، والمأثور هو السيف الذى فيه أثْرٌ ، وهو الفرند ، وقوله * ولا أبالى * حشو مليح ، أفاد مبالغة عجيبة ، وقوله * و إن كنا على سفر * زيادة فى المبالغة ، وهذا النوع يسمى إيغالا ، و بعضهم يسميه التبليغ ، وهو يرد فى مكانه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

الإيغال (أو التبليغ)

ومما اختاره عبد الكريم وقدمه قولُ ابن أبى ربيعة :

أيُّهَا المُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً ... عمرَكَ اللهَ كيف يلتقيان!!؟
هى شامِيَّة إذا ما استقلَّتْ ... وسهيلٌ إذا استقلَّ يمانى

يعنى الثريا بنت على بن عبد الله بن الحارث بن أمية الأصغر، وكانت نهاية فى الحسن والكمال ، وسهيل بن عبد الرحمن بن عوف ، وكان غاية فى القبح والدَّمامة . فمثل بينهما و بين سميهما ، ولم يرد إلا بُعْدَ ما بينهما وتفاوته خاصة ، لا أن سهيلا اليمانى قبيح ولا دميم ، ولا أدرى هل هذا الرأى موافق لرأى عبد الكريم أم لا ؟ وحسبك أن الشاعر لم ينكر إلا التقاءها .

وقال أبوالطيب وذكر نزاراً :

فأقرحت المقاودُ ذِفْرَيَيْهَا ... وصَعَّرَ خدها هذا العذار

ووصف رمحاً فقال ، وهو مليح متمكن جداً:

يغادر كلَّ ملتفتٍ إليه ... ولبته لثعلبه وِجارُ

وقال يخاطب سيف الدولة :

بنو كعب وما أثَّرْتَ فيهم ... يَدٌ لم يُدْمِهَا إلاَّ السِّوَارُ

بها من قطعها ألمٌ وَنَقْصٌ وفيها من جلالتها افتخار

الفرق بين الاستعارة والتشبيه والتمثيل

والتمثيل والاستعارة من التشبيه ، إلا أنهما بغير أداته ، وعلى غير أسلوبه ، والمثل المضروب فى الشعر نحو قول طرفة :

سَتُبْدِى لك الأيام ما كنْتَ جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تُزَوِّدِ

راجع إلى ما ذكرته ؛ لأن معناه ستبدى لك الأيام كما أبدت لغيرك ويأتيك بالأخبار من لم تزود كما جرت عادة الزمان . . وتسمية المثل دالة على ما قلته ؛ لأن المَثَلَ والمِثْلَ الشبيه والنظير ، وقيل : إنما سمى مثلا لأنه ماثل لخاطر الإنسان أبداً ، يتأسى به ، ويعظ ويأمر ويزجر ، والماثل : الشاخص المنتصب ، من قولهم «طَلَل ماثل» أى : شاخص ، فإذا قيل «رسم ماثل» فهو الدارس ، والماثل من الأضداد . . وقال مجاهد فى قول الله عز وجل (وقد خلت من قبلهم المَثُلاَتُ) : هى الأمثال . وقال قتادة : هى العقوبات . وقال قوم : إنما معنى المثل المثال الذى يُحْذَى عليه ، كأنه جعله مقياساً لغيره ، وهو راجع إلى ما قدمت . وقال بعضهم : فى المثل ثلاث خلال : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه ، وقد يكون المثل بمعنى الصفة ، من ذلك قول الله تعالى : (مثل الجنة التى وُعِدَ المتقون) أى : صفة الجنة ، وقوله : (وله المثل الأعلى فى السموات والأرض) أى : الصفة العليا ، وهى قولنا « لا إلهَ إلا الله » وقوله تعالى : (ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شَطْأَه) أى : صفتهم .

(٣٩) — باب المثل السائر

أفضل المثل

المثل السائر فى كلام العرب كثير نظماً ونثراً ، وأفضله أوْجَزُه ، وأحكمه أصدقه ، وقولهم «مَثَلٌ شَرُودٌ وشارِدٌ» أى سائر لا يُرَدُّ كالجمل الصَّعْب الشارد الذى لا يكاد يعرض له ولا يرد . وزعم قوم أن الشرودَ مالم يكن له نظير كالشاذ والنادر ، فأما قول أبى تمام وكان إمام الصنعة ورئيسها :

لاَ تُنْكِرُوا ضَرْبِى لهُ مَنْ دُونَهُ مَثَلاً شَرُوداً فى النَّدَى والْبَاسِ

حين عيب عليه قوله فى ابن المعتصم :

إقْدَامُ عَمْرٍو فى سَمَاحَةِ حاتم فى حلم أَحْنَفَ فى ذَكَاء إيَاسِ

فإنه يشهد للقول الأول ؛ لأن المثل بعمرو وحاتم مضروبٌ قديماً ، وليس بمثل لا نظير له كما زعم الآخر .

الأمثال الطوال والقصار

وقد تأتى الأمثال الطوال محكمة إذا تولاها الفصحاء من الناس ، فأما ما كان منها فى القرآن فقد ضمن الإعجاز ، قال الله عز وجل : (كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت) وقال : (فمثله كمثل الكلب : إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث) وقال : (كمثل الحمار يحمل أسفاراً) فهذه أمثال قصار . . وقال : (إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) ومن الأمثال الطوال قوله تعالى : (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط) الآية (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون) الآية (ومريم ابنة عمران) الآية ، وقال : (فمثله كمثل صَفْوَانٍ عليه تراب) الآية ، وقال (والذين كفروا بربهم أعمالهم كسَرَاب بِقِيعة يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً) الآية ، ثم قال : (أو كظلمات فى بحر لجى) الآية . . ومن كلام النبى صلى الله عليه وسلم فى الأمثال قوله : « كلُّ الصيد فى جوف الفَرَا » قاله لأبى سفيان بن حرب حين أسلم ، وقوله : « مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تميلها الريح مرة هكذا ومرة هكذا ، ومثل المنافق مثل الأَرْزَةِ المُجْذِيَةِ[1]

(١) فى المصريتين « الأرزة المحرية » وفى التونسية « المجدبة » وكل هذا تصحيف ، وإنما هو « مثل الأرزة المجذية » كما أثبتناه ، قال ابن الأثير : « الأرزة بسكون الراء وفتحها ـ شجرة الأرزن وهو خشب معروف ،وقيل : هو الصنوبر، وقال فى بعضهم . هى الآرزة ـ بوزن فاعلة ـ وأنكرها أبو عبيد » اهـ ، وقال فى موضع آخر : « المجذية : هى الثابتة المنتصبة ، يقال : جذت تجذو ، وأجذت تجذى » اهـ

على الأرض حتى يكون انجعافها مرة » وقوله حين ذكر الدنيا وزينتها فقال : «وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حَبَطاً أو يُلِمُّ » وقوله : «وإياكم وخَضْرَاءَالدِّمَنِ » قيل : وما خضراء الدمن ؟ قال : « المرأة الحسناء فى المَنْبِتِ السوء »

والأناشيد فى هذا الباب كثيرة : فمنها ما فيه مثل واحد ، ومنها ما فيه مثلان ، ومنها ما فيه ثلاثة أمثال ، ومنها ما فيه أربعة أمثال ، وهو قليل جداً ، وكل نوع من هذه الأنواع فيه احتياج واستغناء .

لم نظم المثل ؟

والمثل إنما وزن فى الشعر ليكون أشْرَدَله ، وأخف للنطق به ، فمتى لم يتزن كان الإتيان به قريباً من تركه .. وقد حكى الحاتمى أشياء لا أدرى كيف وجهها، وزعم أن حمادا الراوية سئل : بأى شىء فضل النابغة ؟ فقال : إن النابغة إن تمثلت ببيت من شعره اكتفيت به ، مثل قوله :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ

بل لو تمثلت بنصف بيت من شعره اكتفيت به ، وهو قوله * وليس وراء الله للمرء مذهب * بل لو تمثلت بربع بيت من شعره اكتفيت به ، وهو قوله * أى الرجال المهذب ؟ *(1) ولا أعرف كيف يجعل حماد هذا ربع بيت وفيه زيادة سببين وهما أربعة أحرف ؟ إلا أن يُرِيد التقريب ، فهذا من الاحتياج الذى ذكرته ؛ لأنه لا يتمثل به على أنه شعر إلا احتاج إلى ما قبله واستغنى ما قبله عنه ، ألا ترى [أنه] لو قال * ولست بمستبق أخاً لا تلمه * أنه يكون مثلا كافياً ، ثم لا يتعلق قوله * على شَعَثٍ * بشىء من المثل الثانى وإن بقى موزوناً ، فإذا رده على الصدر تعلق به وبقى المثل الثانى مكسوراً .

ومثله قول القَطَامى ، واسمه عُمَيْر بن شُيَيْم التغلبى :

---

(1) البيت بتمامه هو قوله :

ولست بمستبق أخا لاتلمه على شعث ، أى الرجال المهذب ؟

وستقف على هذا البيت مفرقا فى كلام المؤلف .

وَالنَّاسُ مَنْ يَلْقَ خيراً قائِلُونَ لهُ ما يَشْتَهِى ، وَلأُمِّ المُخْطِىءِ الهَبَلُ

فقوله * ولأم المخطِىء الهَبَلُ * مثل ، إلا أنه غير موزون حتى يتصل بقوله * ما يشتهى * وذلك من تمام المثل الأول الذى فى صدر البيت ، وهذا كله احتياج

ومما لا احتياج فيه قول امرىء القيس :

اللهُ أَنْجَحَ ما طَلَبْتَ به وَالْبِرُّ خَيْرُ حَقِيبةِ الرَّحْلِ

ففى كل قسيم من هذين مثل قائم بنفسه ، غير محتاج إلى صاحبه . .

وكذلك قول الحطيئة:

مَن يَفْعَلِ الخيْرَ لاَ يَعْدِمْ جَوَازِيَه لا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللهِ والناسِ

وقال عَبِيد بن الأبرص الأسدى :

الخير يَبقى وإن طال الزمان به والشَّرُّ أخبثُ ما أَوْعَيْتَ من زاد

ومما فيه مثل واحد قول عنترة العبسى :

نُبِّئْتُ عَمْراً غير شاكر نعمتى وَالْكفْرُ مَخْبَثَة لنفس المنعم

فجاء بالمثل غير محتاج إلى ماقبله . . وقال أبو ذؤيب :

تركُوا هَوَىٌّ وأعْنَقُوا لهواهُمُ فتَخرَّمُوا،ولِكلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ

فإن بدأت بالقسيم الثانى كان مثلا سائراً ، وإن أسقطت جزأ منه بقى المثل سائراً غير موزون ، إلا أن يكون فى المرفوع من الأمثال مُصْمَت يأتى فى البيت بأسْرِهِ كقول الأول :

وَإِنَّكَ لَنْ تَرَى طَرْداً لِحُرٍّ كإلْصاقٍ به طَرَفَ الْهَوَانِ

وقول أبى نواس :

إذَا امْتحَنَ الدُّنيا لَبيبٌ تَكَشَّفَتْ لهُ عَنْ عَدُوٍّ فِى ثِيَاب صَدِيقِ

ومما فيه ثلاثة أمثال قول زهير :

وفى الحلم إذْعَانٌ ، وفى العفو دُرْبَةٌ ، وفى الصدق منجاة من الشر فَاصْدُقِ

فأتى بكل مثلٍ فى ربع بيت ، ثم جعل الربع الآخر زيادة فى شرح معنى ماقبله . وكذلك قول النابغة الذبيانى :

الرِّفقُ يُمْنٌ ، وَالأناة سَلامة فاستأنِ فى رفقٍ تُلاقِ نجاحاً

فجاء بثلاثة أمثال إلا أنهـا مُدَاخلة لم تسلم سلامة ما قبلها من كلام زهير .

وقال ابن عبد القدوس :

كُلُّ آتٍ لاَبد آتٍ ، وَذُو الجهــلِ مُعَنًّى ، والغم والحزن فَضْلُ

فأتى بثلاثة أمثال مداخلة الوزن أيضاً ، وكان قول ضابىء بن الحارث :

وفى الشك تفريط ، وفى الحزم قوة ، ويخطىء فى الْحَدْسِ الفَتى وَيُصيبُ

أحسن تعـديلا فى القسمة ؛ لأن شطره الأول مشتمل على مثلين ، وَشطره الثانى مشتمل على مثل قائم بنفسه . وقال عبد الله بن المعتز :

والعيش هر ، والموت مر مستكره ، والمُنىَ ضَلاَل
والحرص ذل ، والبُخْل فقد وآفة النـائل المِطَال

فى البيت الأول ثلاثة أمثال فى أحدها احتياج ، وفى البيت الثانى ثلاثة أمثال لا احتياج فيها على حَذْو ما أتى به ضابىء ، ولم أر بيتـاً فيه أربعة أمثال كل واحد منها قائم بنفسه إلا قليلا ، أنشد الأصمعى :

فالهمُّ فَضْلٌ ، وطول العيش منقطعٌ ، والرزق آتٍ ، وَرَوْحُ الله منتظر

وقال أبو الطيب وحكم عليه الوزن أيضا :

والمرء يأملُ ، والحياة شهية ، والشيبُ أوقر ، والشبيبة أنْزَقُ

فأتى بمثلين فى كل قسيم ، وصنعت أنا :

كلٌّ إلى أجلٍ ، والدهرُ ذو دُوَل والحرص مخيبة ، والرزقُ مقسوم

وأقل من ذلك ما كان فيه خمسة أمثال ، ولا أعرف منه فى حفظى إلا بيتاً

واحداً للقزاز السناط فى بسط قصيدة مدح بها الأمير تميم بن [المعز] معد ، وهو قوله :

خَاطِرْ تُفِدْ،وَارْتَدْ تَجِدْ،وَاكْرُمْ تَسُدْ وَانْقُدْ تَقُدْ ، واصغر تُعَدَّ الأَكبَرَا

وأما ما فيه ستة فإنى صنعت :

خُذِ العَفْوَ ، وَأْبَ الضَّيْمَ ، واجتنبِ الأذى
وَأَغْضِ تَسُدْ ، وَارْفُقْ تَنَلْ ، وَاسْخُ تُحْمَدِ

ومن الأمثال أيضا كلمات سارت على وجـه الدهر : كقولهم « تسمع بالمعيدى خـير من أن تراه » يضرب مثلا للذى رؤيته دون السماع به ، وفى كل ما جرى هـذا المجرى ، وكذلك قولهم : « عَلَى أهلها جَنَتْ بَرَاقش » يضرب مثلا للرجل يهلك قومه بسببه . وأما قولهم فى تفسير ما يقع فى الشعر من جنس قول الحطيئة :

* شَدُّوا العِنَاجَ وشَدُّوا فَوْقَهُ الـكَرَبَا *

هو مثل ؛ فإنما ذلك مجاز ، أرادوا التمثيل.

وهذه الأشياء فى الشعر إنما هى نبذ تستحسن ، ونـكت تستظرف ، مع القلة ، وفى الندرة ، فأما إذا كثرت فهى دالة على الـكلفة ، فلا يجب للشعر أن يكون مثلا كله وحكمة كشعر صالح بن عبد القدوس ؛ فقد قَعَدَ به عن أصحابه وهو يقدمهم فى الصناعة لإكثاره من ذلك ، وما نصّ عليه العلماء فى كتبهم ، وكذلك لا يجب أن يكون استعارة وبديعاً كشعر أبى تمام ؛ فقد رأيت ما صنع به ابن المعتز ، وكيف قال فيه ابن قتيبة ، وما ألف عليـه المتعقبون كالجُرجانى وأبى القاسم بن بشر الآمدى وغيرهما ، و إنما هرب الحذاق عن هذه الأشياء ؛ لما تدعو إليه من التكلف لا سيما إن كان فى الطبع أيسر شىء من الضعف والتخلف . وأشد ما تـكلفه الشاعر صعوبة التشبيه ؛ لما يحتاج إليه من شاهد العقل واقتضاء العيان . ولا ينبغى للشعر

أن يكون أيضاً خالياً مغسولا من هـذه الحِلىَ فارغاً كـكثير من شعر أشْجَعَ وأشباهه من هؤلاء المطبوعين جملة ، مع أنه لا بد لـكل شاعر من طريقة تغلب عليه فينقاد إليها طبعه ، و يسهل عليه تناولها : كأبى نُوَاس فى الخمر ، وأبى تمام فى التصنيع ، والبحترى فى الطَّيْف ، وابن المعتز فى التشبيه ، وديك الجن فى المراثى ، والصَّنَوْبرى فى ذكر النور والطير ، وأبى الطيب فى الأمثال وذم الزمان وأهله . وأما ابن الرومى فأولى الناس باسم شاعر ؛ لـكثرة اختراعه ، وحسن افتنانه ، وقد غلب عليه الهجاء حتى شهر به ؛ فصار يقال : أهجى من ابن الرومى ، ومَنْ أكثر من شىء عُرِفَ به ، وليس هجاء ابن الرومى بأجْوَدَ من مدحه ولا أكثر . ولـكن قليل الشر كثير .

ما اشتهر به جماعة من المحدثين

(٤٠) — باب التشبيه

حد التشبيه

التشبيه : صفة الشىء بما قاربه وشاكله ، من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته ؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لـكان إياه ، ألا ترى أن قولهم « خَدٌّ كالورد » إنما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها ، لا ما سوى ذلك من صُفْرة وسطه وخضرة كمائمه ، وكذلك قولهم « فلان كالبحر ، وكالليث » إنما يريدون كالبحر سَمَاحة وعلماً ، وكالليث شَجَاعة وقرما ، وليس يريدون ملوحة البحر وزعوقته ، ولا شَتَامة الليث وزهومته ؛ فوقوع التشبيه إنما هو أبداً على الأعراض لا على الجواهر ؛ لأن الجواهر فى الأصل كلها واحد ، اختلفت أنواعها أو اتفقت ؛ فقد يشبهون الشىء بسميه ونظيره من غير جنسه ، كقولهم « عين كعين المَهَاة ، وجِيدٌ كجيد الرِّيمِ » فاسم العين واقع على هذه الجارحة من الإنسان والمَهَاة ، واسم الجيد واقع على هذا العضو من الإنسان والريم ، والـكاف للمقاربة ، وإنما يريدون أن هـذه العين لـكثرة سوادها قاربت أن تكون سوداء كلها كعين المَهَاة ، وأن هذا الجيد لانتصابه وطوله كجيد الريم ، ألا ترى أن الأصمعى

سئل عن الحَوَر فقال : أن تكون العين سوداء كلها كعيون الظباء والبقر ، ولا حور فى الإنسان ، هـذا أحد أقوال الأصمعى فى الحور ، ويدلك على أن التشبيه إنما هو بالمقاربة كما قلنا .

فائدة التشبيه

والتشبيه والاستعارة جميعاً يُخْرِجان الأغمض إلى الأوضح ، ويقربان البعيد ، كما شرط الرمانى فى كتابه ، وهما عنده فى باب الاختصار .

أنوع التشبيه

قال : واعلم أن التشبيه على ضربين : تشبيه حسن ، وتشبيه قبيح ؛ فالتشبيه الحسن هو الذى يخرج الأغمض إلى الأوضح فيفيد بيانًا ، والتشبيه القبيح ما كان على خلاف ذلك ، قال : وشرح ذلك أن ما تقع عليه الحاسة أوضح فى الجملة مما لا تقع عليه الحاسة ، والمشاهد أوضح من الغائب ؛ فالأول فى العقل أوضح من الثانى ، والثالث أوضح من الرابع ، وما يدركه الإنسان من نفسه أوضح مما يعرفه من غيره ، والقريب أوضح من البعيد فى الجملة ، وما قد أُلف أوضح مما لم يؤلف ، ثم عاب على بعض شعراء عصره :

صُدْغُهُ ضِدُّ خَدِّهِ مِثْلُ ما الْوَعْـــدُ ـ إذا ما اعتبرت ـ ضدُّ الوعيد

من قبل أنه شبه الأوضح بالأغمض ، وما تقع عليه الحاسة بما لا تقع عليه ، وكذلك قوله :

وَلَهُ غُرَّةٌ كَلَوْنِ وِصَالٍ فَوْقَهَا طُرَّةٌ كَلَوْنِ صُدُودِ

وقال فى موضع آخر : التشبيه على ضربين والأصل واحد : فأحدهما التقدير ، والآخر التحقيق ؛ فالذى يأتى على التقدير التشبيه من وجه واحد دون وجه ، والذى يأتى على التحقيق التشبيه على الإطلاق ، وهو التشبيه بالنفس ، مثل تشبيه الغراب بالغراب ، وحجر الذهب بحجر الذهب إذا كان مثله سواء ، وحمرة الشقائق بحمرة الشقائق .

قال صاحب الكتاب : أما ما شَرَطَ فى التشبيه فهو الحق الذى لا يدفع ،

لا أنه قد حمل على الشاعر فيما أخذ عليه ؛ إذ كان قصد الشاعر أن يشبه ما يقوم فى النفس دليله بأكثر مما هو عليه فى الحقيقة ، كأنه أراد المبالغة ، ولعله يقول أو يقول المحتج له : معرفة النفس والمعقـــول أعظم من إدراك الحاسة ، لاسيما وقد جاء مثل هذا فى القرآن وفى الشعر الفصيح : قال الله عز وجل : (طلعها كأنه رءوس الشياطين) فقال قوم : إن شجرة الزقوم ـ وهى أيضاً الأستن[1] ـ لها صـــورة منكرة وثمرة قبيحة يقال لها : رؤوس الشياطين ، وقال قوم : الشياطين الحيات فى غير هذا المكان ، والأجود الأعرف أنه شبه بما لا يشك أنه منكر قبيح ؛ لما جعل الله عز وجل فى قلوب الإنس من بشاعة صُوَرِ الجن والشياطين ، وإن لم يروها عيانا ، فخوفنا تعالى بما أعد للعقوبة ، وشبهه بما نخاف أن نراه ، وقال امرؤ القيس :

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

فشبه نصال النَّبْلِ بأنياب الأغوال لما فى النفس منها . وعلى هذا التأويل قال أبو تمام وفيه عكس :

وَأَحْسَنُ مِنْ نَوْرٍ يُفَتِّحُهُ النَّدَى[2] بَيَاضُ الْعَطَايَا فِي سَوَادِ الْمَطَالِبِ

وقال أعرابى قديم :

يزمِّلونَ حديثَ الضِّغْنُ بينهم والضغن أسود أو فى وَجْهِه كَلَفُ

فوصفه بما يتصور ويقوم فى النفس ، كأنه يقول : لو كان صورة لكان هكذا ، وقال بعض المولدين :

---

(١) قال المجد : الأستن والأستان ـ بفتح الهمزة وسكون السين فيهما ـ أصول الشجر يفشو فى منابته فإذا نظر الناظر إليه شبهه بشخوص الناس اهـ .

(٢) فى نسخة « تفتقه الصبا » .

وَتُدِيرُ عَيْناً فى صَفِيحَةِ فِضَّةٍ   كَسَوَادِ يَأْسٍ فى بَيَاضِ رَجَاءِ

فاليأس على الحقيقة غير أسود ؛ لأنه لا يُدْرَكُ بالعيان ، لكن صورته فى المعقول وتمثيله كذلك مجازاً ، والرجاء أيضاً على هذا التقدير فى البياض .

وقد يقول المحتج الأول : إن هذا داخل فى باب الاستطراد ، كأن الشاعر لم يقصد الإخبار عن الغرة والطرة وشبههما، لكن عن الوصال والصدود، وعكس التشبيه ثقة بأن ما أشبه شيئاً من جهة فقد أشبهه الآخر من تلك الجهة .

فأما قول ابن المعتز يصف شرب حمار :

وَأَقْبَلَ نَحْوَ الماء يَسْتَلُّ صَفْوَهُ   كما أغْمَدَتْ أيدى الصياقلِ مُنْصُلَا

فإنه بديع ، يشبه فيه انسياب الماء فى شدقيه إلى حلقه بمنصل يُغمد ، وهذا تشبيه مليح يدرك بالحس ، ويتمثل فى المعقول ، وكرر هذا التشبيه فقال يذكر إبل سفر :

وأغمدْنَ فى الأعناق أسيافَ لُجَّةٍ   مصقـلةً تُفْرَى بهنَّ المفاوزُ

أفضل التشبيه

وزعم قُدَامة أن أفضل التشبيه ما وقع بين شيئين اشتراكهما فى الصفات أكثر من انفرادهما ، حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد ، وأنشد فى ذلك وهو عنده أفضل التشبيه كافةً :

له أيطلا ظبيٍ ، وساقا نعامةٍ   وإرْخَاءُ سِرْحَانٍ، وتقريبُ تَتْفُلِ

وهذا تشبيه أعضاء بأعضاء هى بعينها، وأفعال بأفعال هى هى أيضاً بعينها، إلا أنها من حيوان مختلف كما قدمت ، والأمر كما قال فى قرب التشبيه، إلا أن فضل الشاعر فيه غير كبير حينئذ ؛ لأنه كتشبيه نفس الشىء المُشَبَّه الذى ذكرهُ الرمانى فى تشبيه الحقيقة ، وإنما حُسْنُ التشبيه أن يقرب بين البعيدين حتى تصير بينهما مناسبة واشتراك ، كما قال الأشجعى:

كأن أزيزَ الـكِيرِ إرزام شَخْبِهَا   إذَا امتَاحهَا فى مِحْلَبِ الحىِّ مَاتحُ

فشبه ضرع العنز بالكير ،وصوت الحلب بأزيزه ، فقرب بين الأشياء البعيدة بتشبيهه حتى تناسبت ، ولو كان الوجه ما قال قدامة لكان الصواب أن يشبه الأشجعى ضرع عنزة بضرع بقرة ، أوخِلْفَ ناقةٍ ؛ لأنه إنما أراد كبره وكثرة مافيه من اللبن ، وكان يعدل عن ذكر الكير وأزيزه الذى دل به على أعظم ما يكون من صفة كبر الضرع وكثرة لبنه .

سبيل التشبيه

وسبيل التشبيه ـ إذ كانت فائدته إنما هى تقريب المشبه من فهم السامع ، وإيضاحه له ـ أن تشبه الأدون بالأعلى إذا أردت مدحه ، وتشبه الأعلى بالأدون إذا أردت ذمه ، فتقول فى المدح : تراب كالمسك ، وحَصًى كالياقوت ، وما أشبه ذلك ، فإذا أردت الذم قلت : مسك كالسّك[1] أو التراب ، وياقوت كالزجاج أو كالحصى ؛ لأن المراد فى التشبيه ماقدمته من تقريب الصفة وإفهام السامع ، وإن كان ما شابه الشىء من جهة فقد شابهه الآخر منها، إلا أن المتعارف وموضوع التشبيه ما ذكرت .

أصل التشبيه وفيه تشبيه متعدد متعدد

وأصل التشبيه مع دخول الكاف وأمثالها أو كأن وما شاكلها شىء بشىء فى بيت واحد ، إلى أن صنع امرؤ القيس فى صفة عُقَاب :

كأنَّ قلوبَ الطَّيْرِ رَطْباً ويابساً لدى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالى

فشبه شيئين بشيئين فى بيت واحد ، واتبعه الشعراء فى ذلك ؛ فقال لبيد ابن ربيعة

وجلا السيولُ عن الطُّلولِ كأنها زُبُرٌ تجِــدُّ متونَها أقلامُها

فشبه الطلول بالزبر والسيول بالأقلام ، بل زاد فشبه جلاء هذه عن هذه

---

(١) السك : إلقاء النعام مافى بطنه ، أو الرمى بالسلح رقيقا ، وقد أراد به المؤلف نفس السلح أوما فى بطن النعام ، وهو ظاهر .

بتجديد تلك لتلك . وحكى عن بشار أنه قال : ما قرّ بي القرار مذ سمعت قول امرىء القيس * كأن قلوب الطّير رطبًا ويابسًا * حتى صنعت :

كأنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رءوسنا وأسيافَنا لَيْلٌ تَهَاوَى كواكبه

فإن كان مراده الترتيب فصدق ، ولم يقع بعد بيت امرىء القيس في ترتيبه كبيته ، وإن كان المراد تشبيهين في بيت فقد قال الطِّرِمَّاح في صفة ثور وحشى :

يَبْدُو وتُضْمِرُهُ البِلَادُ كأنه سَيْفٌ عَلى شَرَفٍ يُسَلُّ وَيُغْمَدُ

وهذا نهاية في الجودة . وأما قول من قال في بيت الحارث بن حِلِّزة .

وَحَسِبْتَ وَقْعَ سُيُوفنا برءوسهم وَقْعَ السَّحابة بالطِّرَاف المُشْرَجِ

إن فيه تشبيهين من جهة الكثرة والحس أو السرعه والحس ؛ فمحتمل ، إلا أن الشاعر لم يصرح إلا بالوقع خاصة ، يريد بذلك الحس وحده ظاهر الأمر ولذلك خص الطراف ؛ لكونه من الأدَم ، فصوت القَطْر عليه أشد منه على غيره من سائر البيوت . وقال بشار أيضًا :

خلَقْنَا سَمَاءً فَوْقَهُمْ بنُجُومها سُيُوفًا وَنَقْعًا يَقْبِض الطرْفَ أقْتَما

وقال فشبه شيئين مختلفين بشيئين من جنس واحد :

من كل مشتهرٍ في كَفِّ مشتهرٍ كأنَّ غُرَّتَهُ والسَّيْفَ نَجْمَانِ

وربما شبهوا شيئًا بشيئين كقول القَطَامى :

فهن كالحُلَلِ المَوْشِيِّ ظَاهِرُهَا أو كالكتَابِ الذى قدمَسّهُ البَلَلُ

وربما شبهوا بثلاثة أشياء كما قال البحترى :

كأنما يَبْسِمُ عَنْ لُؤْلُؤٍ مُنَظَّمٍ ، أوْ بَرَدٍ ، أوْ أقَاحْ

فقول الشاعر « أو » زيادة تشبيه وإن لم يصح من جميع المشبَّهِ بهما إلا شيء واحد من جهة الحكم في « أو » . ومِنَ الناس مَنْ يرويه :

كأنما يبسم عن لؤلؤ أو فضة ، أو برد ، أو أقاح

وهي -زعموا- رواية أكثر أهل الأندلس والمغرب؛ فيكون حينئذ الثغر مشبها بأربعة أشياء ، وقد تقدم أبو تمام فقال :

وثناياكِ إنَّهـا إغْرِيضٌ ولآلٍ تُومٌ وبَرْقٌ وَمِيضْ

فشبهها بثلاثة أشياء حقيقة ؛ لأن حكم الواو غير حكم « أو » لا سيما وقد أتى التشبيه بغير كاف ولا شيء من أخواتها ، فجاء كأنه إيجاب وتحقيق .

تشبيه ثلاثة بثلاثة

وكثر تشبيههم شيئين بشيئين حتى لم يَصِرْ عجباً ، وقد جاءوا بتشبيه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء في بيت واحد : بالكاف ، وبغير كاف ؛ فقال مرقش :

النشرُ مسكٌ، والوجوه دنا نير، وأطراف الأكف عَنَمْ

وقال ابن الرومي :

كأن تلك الدموعَ قَطْرُ نَدًى يَقْطُرُ من نرجسٍ على ورد

وقال أيضاً ويدخل في باب قول مرقش :

إن أقبلتْ فالبدرُ لاح ، وإن مَشَتْ فالغصن مادَ ، وإن رَنَتْ فالرِّيمُ

وقال ابن المعتز :

بدر وليل وغُصْنٌ وجه وشَعْر وَقَدٌّ

خمر ودر ووَرد رِيق وثَغْرٌ وخَدٌّ

وقال صاحب الكتاب :

كأن ثناياه أقاحٍ ، وخَـدَّه شَقِيقٌ ، وعينيه بَقِيَّة نَرْجِس

وقال أيضاً على جهة التفسير :

بكؤوسٍ حَكَيْنَ من شَفَةٍ قلبي شَفَةً لم تذق وثَغْرا وريقا

يريد حافة الكأس والحَبَاب والخمر .

تشبيه أربعة بأربعة

ثم أتوا بتشبيه أربعة بأربعة : بالكاف أيضاً ، وبغير كاف ، فقال امرؤ القيس وهو أول من فتح هذا الباب :

لهُ أَيْطَلَا ظَبْيٍ ، وساقا نعامة ، وإرخاء سِرْحَانٍ، وتَقْرِيب تَتْفُل

فجاء بتشبيه إضافة كما ترى حتى جعله تحقيقا لولا مفهوم الخطاب .

وقال أبو الطيب :

بدَتْ قمراً ،ومالت خُوطَ بَانٍ، وَفَاحَتْ عَنْبَراً ، وَرَنَتْ غزَالاَ

فجاء بالتشبيه على إسقاط الكاف . وقال أيضاً :

تَرْنُو إليَّ بِعَيْنِ الظَّبْي مُجْهِشةً وتمسحُ الطَّلَّ فوق الْوَرْدِ بالْعَنَمِ

فشبه فى القسم الأول عينها بعين الظبى ، وشبه فى القسم الآخر ثلاثة بثلاثة ، وقد تقدم أبو نواس فقال :

يَبْكِى فَيُذْرِى الدُّرَّمِنْ نَرْجِسٍ وَيَلْطُمُ الْوَرْدَ بِعُنَّابِ

وهذا مليح جداً . سئل ابن مناذر : مَنْ أشعر الناس ؟ فقال : الذى يقول :

يا قَمَراً أَبْصَرْتُ فى مَأْتَمٍ يَنْدُبُ شَجْواً بَيْنَ أَتْرَابِ

يَبْكِى فَيُذْرِى الدُّرَّمِنْ نَرْجِسٍ وَيَلْطُمُ الْوَرْد بِعُنَّابِ

هذا أشعر الجن والأنس . وقد جاء بالشعر على سجيته ـ أعنى أبا نواس ـ وشاهد ذلك ظاهر فى لفظه ، وإلا فهو قادر أن يجعل مكان الدر الطل حتى يتناسب الكلام ، لكنه لم يكن يؤثر التصنيع ولا يراه فضيلة؛لمافيه من الكلفة ومن الناس من يرويه كذلك ، ومنهم من يرويه * فيذرى الدر من جفنه *

ومما شبه أربعة بأربعة مع الكاف قول ابن حاجب ـ وهو عبد العزيز وزير القادر بالله أبى العباس النعمان ـ :

ثغرٌ وخدٌّ ونَهْدٌ واخْتِضَابُ يدٍ كَالطَّلْعِ والوردِ والرُّمَّانِ والبلحِ

وقال صاحب الكتاب :

بِفَرْعٍ وَوَجْهٍ وَقَدٍّ وَرِدْفٍ كَلَيْلٍ وبَدْرٍ وغُصْنٍ وحِقْفِ

تشبيه خمسة بخمسة

ومما وقع فيه تشبيه خمسة بخمسة قول أبى الفرج الوأواء ، وأتى به بغير آلة تشبيه :

فأسْبَلَتْ لؤلؤا من نرجس وسَقَتْ وَرْداً وَعَضَّتْ على العُنّاب بالبَرَدِ

وقال أبو الفتح البُسْتى شاعر مصر فى وقتنا هذا يصف شمعة :

قد شابهتنىَ فى لونٍ وفى قضَف وفى احتراق وفى دمع وفى سهر

فقوله * قد شابهتنى * أظهر مقدرة من المجىء بالكاف ؛ لأنهم إنما استصعبوا ذلك مع الكاف وأخواتها من جهة ضيق الكلام بها ، فهذا الذى أتى به البستى أشد ضيقا ، ألا ترى أنه لو قال « كأنها أنا » لكان هو الصواب ويكون قد أتى بكأنَّ وضميرين بعدها فضلا عن الكاف .

التشبيه بغير أداة

ومنهم من يأتى بالتشبيه الواحد بغير كاف كقول امرىء القيس :

سَمَوْتُ إليها بعْدَ ما نامَ أهلها سُمُوَّ حَبَاب الْماء حالاً عَلَى حَالِ

وقوله أيضًا :

إذَا مَا الثُّرَيَّا فِى السَّماَء تَعَرَّضَتْ تعرُّضَ أثناَء الوِشَاحِ الْمُفصَّلِ

يريد كسمو حَبَابِ الماء ، وكتعرض أثناء الوشاح .

وأبدع من هذا عندهم وأغرب قول المنخل اليشكرى :

دَافَعْتُهَا فتَدَافعَتْ مَشْىَ الْقَطَاةِ إلى الْغَدِيرِ

وإنما بَرَاعته عندهم لما لم يكن قبله فعلٌ من لفظه .

من مليح التشبيه

ومن مليح التشبيه قول أبى كبير الهذلى :

فَالطَّعْنُ شَغْشَغَةٌ ، وَالضَّرْبُ هَيْقَعَةٌ ضَرْبَ الْمُعَوِّلِ تحْتَ الديمة العَضَدَا

وَلِلْقِسِيِّ أَزَامِيلٌ وَغَمْغَمَةٌ — حِسَّ الْجَنُوبِ تَسُوقُ المَاءَ وَالْبَرَدَا[1]

فالأول من نوع بيتى امرىء القيس ، والثانى من نوع بيت المنخل ، وأنا أستحسن هذين البيتين جداً.

تشبيه المختلفين والضدين

وقد يقع التشبيه بين الضدين والمختلفين : كقولك « العسل فى حلاوته كالصبر فى مرارته ، أو كالخل فى حموضته » .

قال أبو الحسن الرمانى : وهذا الضرب من التشبيه لا يقال إلا بتقييد وتفسير ومن هذا النوع الذى ذكره الرمانى قول ابن المهدى للمأمون يعتذر :

لَئِنْ جَحَدْتُكَ مَعْرُوفاً مَنَنْتَ بِهِ — إِنِّى لَفِى اللُّؤْمِ أَحْظَى مِنْكَ فِى الكَرَمِ

وكذلك قول أبى نواس :

أَصْبَحَ الْحُسْنُ مِنْكَ يَا أَحْسَنَ الأُمَّـةِ يَحْكِى سَمَاجَةَ ابْنِ حبيش

يريد أن هذا غاية كما أن ذاك غاية .

قال الجرجانى : التشبيه والتمثيل يقع مرة بالصورة والصفة ، وأخرى بالحالة والطريقة ؛ اعتذر بذلك عن قول أبى الطيب :

بَلِيتُ بِلَى الْأَطْلَالِ إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا — وُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ فِى التُّرْبِ خَاتَمُهْ

إنه إنما أراد وقوفاً خارجاً عن المتعارف . وأنشد :

رُبَّ لَيْلٍ أَمَدُّ مِنْ نَفَسِ العَا — شِقِ طُولاً قَطَعْتُهُ بِانْتِحَابِ

---

(١) نسب صاحب اللسان البيتين لعبد مناف بن ربع الهذلى . والشغشغه : ضرب من الهدير ، وحكاية صوت الطعن على التشبيه بالأول . والهيقعة : ضرب الشىء اليابس على مثله كالحديد ، وهى أيضا حكاية لصوت الضرب . والمعول : الذى يبنى العالة ، وهو شجر يقطعه الراعى فيجعله على شجرتين يستظل تحته من المطر . والعضد ـ بفتحتين ـ ما عضد من الشجر ، أى : قطع . والقسى : جمع قوس . والغمغمة ـ فى الأصل ـ كلام غير بين . والجنوب : الريح المعروفة .

فهذا والله هو النقد العجيب الذى غفل الناس عنـه ، بل عَمُوا وصَمُّوا . والبيت لمحمد بن عبـد الملك الزيات ، ويروى لمانى الموسوس . ومثلُه قولُ أبى تمام :

وَمَسَافَةٍ كَمَسَافَةِ الهَجْرِ ارْتَقَى ... فِى صَدْرِ بَاقِى الْحُبِّ والبُرَحَاء

وأنشد الرمانى لذى الرمة :

كأنه كَوْكَبٌ فى إثْرِ عفريت ... مُسَوَّمٌ فى سَوَادِ اللَّيْلِ مُنْقَضِبُ

ثم قال : قد اجتمع الثور والكوكب فى السرعة إلا أن انقضاض الكوكب أسرع ، واستدل بهذا على جودة التشبيه .

وأنا أرى أن فيه دركا على الشاعر ، وإغفالا من الشيخ المفسر ، وذلك أن الثور مطلوب ، والكوكب طالب ، فشبهه به فى السرعة والبياض ، ولو شبهه بالعفريت وشبه الكلاب وراءه بالكوكب لكان أحسن وأوضح ، لكنه لم يتمكن له المعنى الذى أراده من فوت الثور الذى شبه به راحلته ؛ وأما ما أغفله الشيخ فإن الشاعر إنما رغب فى تشبيه الثور بالكوكب ، واحتمل عكس التشبيه : بأن جعل المطلوب طالباً لبياضه فإن الثور لهق لا محالة ؛ وأما السرعة التى زعم فإن العفريت لو وصفه به وشبهه بسرعته لما كان مقصراً ، ولا متوسطاً ، بل فوق ذلك.

التشبيهات العقم

ومن التشبيهات عُقْم لم يُسْبَقْ أصحابها إليها ، ولا تعدى أحد بعدهم عليها ، واشتقاقها فيما ذُكِرَ من الريح العقيم ، وهى التى لا تلقح شجرة ولا تنتج ثمرة ، نحو قول عنترة العبسى يصف ذباب الروض :

وَخَلاَ الذُّبَابُ بها فليس ببارحٍ ... غَرِداً كَفِعلِ الشَّاربِ المترنم

هَزِجاً يَحُكُّ ذراعـه بذراعه ... قَدْحَ المُكبِّ على الزناد الأجذم

وقوله أيضا فى صفة الغراب :

خرِقُ الجَناحِ كأنَّ لَحْيَيْ رأسِهِ جَلَمانِ[1] بالأخيارِ هَشٌّ مُولَعُ

وقال الحطيئة يصف لغام ناقته :

ترى بَيْنَ لَحْيَيْهَا إذا ما تَرَغَّمَتْ لُغَامًا كَبَيْتِ العنكبوت المُمدَّدِ

وقال الشماخ يصف آثار ريش نعامة :

كأنما مُنْثَنِي أقْمَاع ما مَرَطَتْ مِنَ الْعِفَاءِ بِلِيتَيْهَا الثآلِيلُ[2]

وقول عدى بن الرِّقَاع يصف قرن ظبى :

تُزْجِي أغنَّ كأن إبرة رَوْقِهِ قَلَمٌ أصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا[3]

وقول الراعى يصف جعد الرأس :

جدلا أسكَّ كأن فَرْوَةَ رأسِهِ بُذِرَتْ فأنبتَ جانباها فُلْفُلاَ

وقول بشر بن أبى خازم يصف عروق الأرْطَى وقد كشفها ثور :

يثير ويُبْدِي عَنْ عُروقٍ كأنها أعِنَّة خــــراز تخط وتنشر

وقول الطِّرِمَّاح فى صفة الظَّلِيم :

---

(١) جلمان : مثنى جلم ، وهو المقراض ، وقوله «بالأخيار» بالياء المثناة ، وفى نسخة « بالأخبار » بالباء الموحدة ،

(٢) المنثنى : المتثنى . والأقماع : جمع قمعة ، وهى بثرة تخرج فى أصول الأشفار يريد أن ريشها يشبهها ، ويروى« كأنما منثنى أقمام » والأقمام : جمع قميم ، وهو يابس البقل ، وقوله « مرطت » معناه أسرعت ، وروى فى مكانه « مرحت » من المرح وهو النشاط ، والثآليل : البثور التى تكون فى الجسد . روى أن الرشيد سأل الأصمعى : هل تعرف تشبيها أبدع وأرق من تشبيه الشماخ لنعامة سقط ريشها وبقى أثره ؛ وأنشده هذا البيت ، فقال له الأصمعى : لا والله يا أمير المؤمنين .

(٣) تزجى : تسوق ، والروق : القرن من كل ذى حافر .

مُجْتَابُ شملة بُرْجُــدٍ لِسَرَاته قِدَداً ، وأسلم ما سواه البرجد[1]

وقول ذى الرمة فى صفة الليل :

ولَيْلٍ كَجِلْبَابِ العروسِ قَطَعْتُهُ[2] بِأَرْبَعَةٍ وَالشّخْصُ فى العين وَاحِدُ

وقول مُضَرِّسِ بن رِبْعى فى صفة رأس النعامة:

سَكَّاءُ عَارِيَةُ الأخادِع رأسُهَا مِثْلُ الْمُدُقِّ وَأنفُهَا كالمِسْرَدِ[3]

وقال النابغة فى صفة النسور :

تَرَاهُنَّ خَلْفَ الْقَوْمِ خُزْراً عيونُها جُلُوسَ الشّيُوخِ فى ثيابِ المرانب[4]

وهذا التشبيه عندهم عقيم ، إلا أنى أقول : إنه من قول طَرَفة يصف عُقَاباً:

وَعَجْــزَاءُ دَفّتْ بالجناح كأنها مَعَ الصُّبْحِ شَيْخٌ فى بِجَادٍ مقنع[5]

---

(١) يروى « مجتاب حلة برجد » والبرجد : كساء من صوف أحمر ، وقيل : كساء مخطط ضخم ، وسراته : ظهره ، وقددا : فرقا ، ويروى « وأحلف ماسواه البرجد » وبعد هذا البيت قوله :

يبدو وتضمره البلاد كأنه * سيف على شرف يسل ويغمد

وقد تقدم ذكره (ص ٢٩١) أول الباب ، وكان أبو عبيدة والأصمعى يفضلان الطرماح بهذين البيتين ويزعمان أنه أشعر الناس بهما .

(٢) يروى * وليل كجلباب العروس ادرعته *

(٣) سكاء : مقطوعة الأذنين ، المدق : حجر يدق به الطيب ، وقياسه كسر الميم ، ولكن المسموع ضمها وضم الدال . والمسرد : المثقب .

(٤) خزرا : جمع أخزر ، وهو الذى ينظر بمؤخر عينه ، ثياب المرانب ــ بالنون موحدة ــ ثياب إلى السواد أقرب ، ويقال : كساء مرنبانى ، أى : أخذ من جلد الأرنب ، شبه ألوان النسور بها .

(٥) دفت ــ بالدال المهملة ــ دنت فى طيرانها من الأرض ؛ وبالمعجمة حركته وضربت به ، والبجاد : الكساء ، ومقنع : متغش به ، وأراد عقابا ؛ لأن فى عجزها بياضا ، ويقال : لأنها شديدة الدارتين .

و ينظر أيضاً إلى قول امرىء القيس قبله :

كأنّ ثَبيراً فى عرَانين وَبْلِهِ كبيرُ أُنَاسٍ فى بِجَادٍ مُزَمَّلِ

وقال عبد الله بن الزَّبير الأسدى فى تشبيه رأس القَطَاة :

تُقَلِّبُ لِلإصْــغَاء رَأساً كأنها يَتِيمَةُ جَوْزٍ أغْبَرَتْهَا المكَاسِرُ

وفى الشعر من هذا صدر جيد ، وفى القرآن تشبيه كثير كقوله تعالى:(والقمر قدرناها منازل حتى عاد كالعُرْجُونِ القَدِيم) وقوله تعالى : (والذين كفروا أعمالهم كَسَرَابٍ بِقِيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) وقوله : (و إذا غَشِيهم موج كالظلل) وقوله : (كأنهم جَرَاد منتشر) ومن كلام النبى صلى الله عليه وسلم « الناس كأسنان المشط، و إنما يتفاضلون بالعافية» وقال« الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النارُ الحطَبَ » وكثير من هذا يطول تقصيه.

تشبيهات للقدامى تركها المولدون

وقد أتت القدماءُ بتشبيهات رغب المولدون إلا القليل عن مثلها استبشاعاً لها ، و إن كانت بديعة فى ذاتها ، مثل قول امرىء القيس :

وَتَعْطُو بِرَخْصٍ غَيْرِ شَثْنٍ كأنه أسَارِيعُ ظَبْيٍ أو مَسَاوِيكُ إسْحِلِ[1]

فالبنانة لا محالة شبيهة بالأسْرُوعَة ، وهى دودة تكون فى الرمل ، وتسمى جماعتها بنات النقا ، و إياها عنى ذو الرمة بقوله :

خَرَاعِيبُ أمْثَالٌ كأنّ بَنَانَها بَنَاتُ النَّقَا تَخْفَى مِرَاراً وَتَظْهَرُ

وهى كأحسن البنان : ليناً ، و بياضاً ، وطولاً ، واستواء ، ودقة ، وحمرة رأس ، كأنه ظُفُرٌ قد أصابه الحناء ، وربما كان رأسها أسود ، إلا أن نفس الحضرى المولد إذا سمعت قول أبى نُوَاس فى صفة الكاس :

---

(١) تعطو : تتناول . برخص : أراد به بنانا رخصا لينا ، غير شثن : ليس بخشن . أساريع : دود صغار ، ظبى : اسم رملة بعينها ، إسحل : شجر تتخذ من عروقه مساويك كالأراك .

تُعَاطِيكَهَا كَفٌّ كَأَن بَنَانَهَا إِذَا اعْتَرَضَتْهَا العَيْنُ صَفُّ مَدَارِى

أو قول علىّ بن العباس الرومى :

سَقَى الله قصراً بالرصافة شَاقَنِى بأَعْلاه قصرى الدَّلاَلِ رصَافِى

أَشَارَ بقُضْبَانٍ مِنَ الدُّرِّ قُمِّعَتْ يَوَاقِيتَ حُمْراً واسْتَبَاحَ عَفَافِى

أو قول عبد الله بن المعتز :

أَشَرْنَ عَلَى خَوْفٍ بأَغْصَانِ فِضَّةٍ مُقَوَّمَةٍ أَثْمَارُهُنَّ عَقِيقُ

كان ذلك أحبَّ إليها من تشبيه البنان بالدود فى بيت امرىء القيس ، وإن كان تشبيهه أشدّ إصابة . وفى قول الطائى أبى تمام :

بَسَطَتْ إِلَيْكَ بَنَانَةً أَسْرُوعَا تَصِفُ الْفِرَاقَ وَمُقْلَةً يَنْبُوعَا

وقرب هذا عنده وهو مدح من قول حسان فى الهجو :

وَأُمُّكَ سَوْدَاءُ نُوبِيَّةٌ كَأَنَّ أناملها الْحُنْظُبُ(١)

إذ كانا جميعًا من خَشَاشِ الأرض . فأما قول امرىء القيس * أومساويك إسحل * فجارٍ مجرى غيره من تشبيهاتهم ؛ لأنهم يصفونها بالعَنَم والأقلام وما أشبه ذلك ، والبنان قريب الشبه من أعواد المساويك : فى القدر، والاستواء، والاملاس ، إلا أن الأول على كراهته أشبه بها ، والإسحل : شجر المخيطا .

وقد استبشع قوم قول الآخر يصف روضًا :

كأَنَّ شقَائِقَ النُّعْمَانِ فِيهِ ثِيَابٌ قد رَوِينَ من الدماء

فهذا و إن كان تشبيها مصيبًا فإن فيه بشاعة ذكر الدماء ، ولو قال من العصفر مثلا أو ما شاكله لـكان أَوْقَعَ فى النفس وأقرب إلى الأنس .

وكذلك صفتهم الخمر فى حَبَابها بسلخ الشجاع وما جرى هذا المجرى من التشبيه ،

(١) الحنظب : دابة مثل الخنفساء ، وقيل : هو ضرب من الخنافس طويل

فإنه و إن كان مصيباً لعين الشبه فإنه غير طيب فى النفس، ولا مستقر على القلب ، ومن ذلك قول أبى عون الـكاتب :

تلاعبها كفُّ المزاج محبةً لها، وليجرى ذات بينهما الأنسُ
فتُزْبِدُ مِنْ تِيهٍ عليها كأنها غريرة خِدْرٍ قَدْ تَخَبَّطَهَا الْمَسُّ

فلو أن فى هذا كل بديع لـكان مَقِيتاً بشعاً ، ومَنْ ذا يَطِيبُ له أن يشرب شيئاً يشبه بزَبَدِ المصروع وقد تخبطه الشيطان من المس ؟!

وكأنى أرى بعض مَنْ لا يحسن إلا الاعتراض بلا حجة قد نعى علىَّ هذا المذهب ، وقال: رد على امرىء القيس ، ولم أفعل،ولـكنى بينت أن طريق العرب القدماء فى كثير من الشعر قد خُولِفَتْ إلى ما هو أليق بالوقت وأشكل بأهله . وقد عاب الأصمعى بين يَدَى الرشيد قول النابغة :

نَظَرَتْ إِلَيْكَ بحاجةٍ لم تقضها نَظَرَ السَّقِيم إلى وُجُوهِ الْعُوَّدِ

على أنه تشبيه لا يلحق ، ولا يشق غبار صاحبه ، ولم يجد فيه المطعن إلا بذكر السقيم ؛ فإنه رغب عن تشبيه المحبوبة به ، وفَضَّلَ عليه قولَ عدى بن الرقاع العاملى :

وكأنها وَسْــطَ النساء أعَارَهَا عَيْنَيْهِ أَحْوَرُ من جآذر جَاسِمِ
وَسْنَانُ أقصدهُ النُّعاسُ فَرَنَّقَتْ فى عَيْنِهِ سِنَةٌ وليسْ بنائم

وأجرى الناسُ هذا المجرى قولَ صريع الغوانى على أنه لم يقع لأحد مثله ، وهو :

فَلَطَتْ بأيديها ثِمَارَ نُحُورِهَا كأيدى الأسَارَى أثقلتْهَا الْجَوَامِعُ [1]

فهذا تشبيه مصيب جداً ، إلا أنهم عابوه بما بينت ، وإنما أشار إلى قول النابغة:

---

(١) الجوامع : الأكبال ، قال النابغة :

وذلك أمر لم أكن لأقوله ولو جمعت فى ساعدى الجوامع

[و] يَخْطِطْنَ بالْغِيدَانِ فى كل منزل وَيَخْبأْنَ رُمَّانَ الثُّدِىِّ النَّوَاهِدِ

ومثله قول أبى محجن الثقفى فى وصف قَيْنَة :

[و] تَرْفَعُ الصَّوْتَ أحْيَانًا وَتَخْفِضُهُ كما يَطِنُّ ذُبَابُ الرَّوْضَةِ الْغَرِدُ

وأىُّ قينة تحب أن تشبه بالذباب ؟ وقد سرق بيت عنترة وقَلَبه فأفسده .

٤١ — باب الإشارة

منزلة الإشارة

والإشارة من غرائب الشعر وملحه ، و بلاغة عجيبة ، تدل على بعد المرمى وفَرْط المقدرة ، وليس يأتى بها إلا الشاعر المبرز ، والحاذق الماهر ، وهى فى كل نوع من الكلام لمحة دالة ، واختصار وتلويح يعرف مجملا ومعناه بعيد من ظاهر لفظه ؛ فمن ذلك قول زهير :

فإنى لو لقيتك واتَّجَهْنَا لكان لكل مُنْكَرَةٍ كفاء [(١)]

فقد أشار له بقبح ما كان يصنع لو لقيه ، هذا عند قدامة أفضل بيت فى الإشارة . . وقول الآخر :

جعَلْتُ يَدَىَّ وشَاحًا لَهُ وَبَعْضُ الْفَوَارِسِ لاَيَعْتَنِقْ

وهذا النوع من الشعر هو الوَحْى عندهم . . وأنشد الحاتمى عن على بن هارون عن أبيه ، عن حماد ، عن أبيه إسحاق بن إبراهيم الموصلى :

جعلنا السيفَ بين الخدِّ منه و بين سوادِ لِمَّتِهِ عِذارا

---

(١) رواية البيت فى الديوان هكذا :

وإنى لو لقيتك فاجتمعنا لكان لكل مندية لقاء

والمندية : الداهية التى تندى صاحبها عرقا لشدتها ، ولقاء أى : شىء تلاقى به حتى يصلح الله أمرها .

فأشار إلى هيئة الضربة التى أصابه بها دون ذكرها إشارة لطيفة دلت على كيفيتها، وإنما وصف أنهم ضربوا عنقه، ويروى * بين الجيد * ومثله قول الآخر:

وَيَوْمٍ يُبيلُ النساء الدماء   جعلت رداءك فيه خِمَارَا

يريد بالرداء الحُسام كما قال مُتَمم بن نُوَيرة:

لقَدْ كفَّنَ المِنْهَالُ تحت ردائه   فتى غَيْرَ مِبْطَانِ العشيات أرْوَعا

وقوله إنه جعله خماراً أى قنعت به الفرسان، وأشار بقوله * "يبيل النساء الدماء" * إلى وضع الحوامل من شدة الفزع.

مما جاء من الإشارة على معنى التشبيه

ومما جاء من الإشارة على معنى التشبيه قول الراجز يصف لبناً ممذوقاً:

* جاءوا بمذق هَلْ رَأَيْتَ الذِّئْبَ قَطْ *

فإنما أشار إلى تشبيه لونه؛ لأن الماء غلب عليه فصار كلون الذئب.

التفخيم والإيماء

ومن أنواع الإشارة التفخيم والإيماء؛ فأما التفخيم فكقول الله تعالى: (القارعة ما القارعة) وقد قال كعب بن سعد الغنوى:

أَخِي ما أَخِي لا فاحِشٌ عِنْدَ بَيْتِهِ   وَلاَ وَرِعٌ عِنْـدَ اللِّقَاءِ هَيُوبُ

وأما الإيماء فكقول الله عز وجل: «فغشيهم من اليم ماغشيهم» فأومأ إليه وترك التفسير معه.. وقال كثير:

تجافيتِ عَنِّى حِينَ لاَلِىَ حِيلَةٌ   وَخَلَّفْتِ ماخَلَّفتِ بَيْنَ الجَوَانِحِ

فقوله * وخلفت ماخلفت * إيماء مليح.. ومثله قول ابن ذَرِيح:

أقول إذا نَفْسى مِنَ الْوَجْدِ أَصْعَدَتْ   بِهَا زَفْرَةٌ تَعْتَادُنِى هِىَ ماهِيَا

التعريض

ومن أنواعها التعريض: كقول كعب بن زهير لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

فى فِتْيَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قالَ قَائِلُهُمْ   بِبَطْنِ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُولوا

وعرض بعمر بن الخطاب — وقيل: بأبى بكر رضى الله عنهما، وقيل: برسول الله صلى الله عليه وسلم — تعريضَ مدحٍ، ثم قال:

يَمْشُونَ مَشْىَ الجِمَالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهُمْ ضَرْبٌ إِذَا عَرَّدَ السُّودُ التَّنَابِيلُ

فقيل : إنه عرض فى هذا البيت بالأنصار ، فغضبت الأنصار ، وقال المهاجرون : لم تمدحنا إذ ذممتهم ، حتى صرح بمدحهم فى أبيات يقول فيها :

مَنْ سَرَّهُ كَرَمُ الحياة فَلاَ يَزَلْ فى مِقْنَبٍ من صَالِحِى الأَنْصَارِ

ومن مليح التعريض قول أيمن بن خريم الأسدى لبشر بن مروان يمدحه ويعرض بكلف كان بوجه أخيه عبد العزيز حين نفاه من مصر على يدى نصيب الشاعر مولاه :

كَأَنَّ التَّاجَ تَاجَ بَنِى هِرَقْلٍ جَلَوْهُ لأَعْظَمِ الأَعْيَادِ عِيدَا
يُصَافِحُ خَدَّ بِشْرٍ حين يُمْسِى إذا الظَّلْمَاءُ بَاشَرَتِ الخُدُودَا

فهذا من خفى التعريض ؛ لأنه أوهَمَ السامع أنه إنما أراد المبالغة بذكر الظلماء لاسيما وقد قال * حين يمسى * وإنما أراد الكلف ، هكذا حكت الرواة .

ومن أفضل التعريض ما يجل عن جميع الكلام قولُ الله عز وجل : (ذُقْ إنك أنت العزيز الكريم) أى : الذى كان يقال له هذا أو يقوله ، وهو أبو جهل ؛ لأنه قال : ما بين جبليها ــ يعنى مكة ــ أعز منى ولا أكرم ، وقيل : بل ذلك على معنى الاستهزاء به .

التلويح

ومن أنواعها التلويح ، كقول المجنون قيس بن معاذ العامرى :

لَقَدْ كُنْتُ أُعْلُو حُبَّ لَيْلَى فَلَمْ يَزَلْ[1] بِى النقضُ والإبرامُ حَتَّى عَلاَنِيَا

فلوح بالصحة والكتمان ثم بالسقم والاشتهار تلويحاً عجيباً ، وإياه قصد أبو الطيب بعد أن قلبه ظهراً لبطن فقال :

كَتَمْتُ حُبَّكِ حَتَّى مِنْكِ تَكْرِمَةً ثُمَّ اسْتَوَى فيكِ إِسْرَارِى وَإِعْلاَنِى

(١) يروى * لقد كنت أعلو الحب حيناً فلم يزل *

لأنَّهُ زَادَ حَتَّى فَاضَ عَنْ جَسَدِى فَصَارَ سُقْمِى به فى جِسْمِ كِتْمَانِى

إلاّ أنه أخفاه وعقده كما ترى ، حتى صار أُحْجِيَّةً يتلاقاها الناس .

ومن أجْوَدِ ما وقع فى هذا النوع قولُ النابغة يصف طول الليل :

تَقَاعَسَ حَتَّى قُلْتُ : لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِى يَرْعَى النُّجُومَ بآيِبِ (١)

« الذى يرعَى النجوم » يريد به الصبح ، أقامه مقام الراعى الذى يغدو فيذهب بالإبل والماشية ؛ فيكون حينئذ تلويحه هذا عجبا فى الجودة ، وأما من قال : إن الذى يرعى النجوم إنما هو الشاعر الذى شكا السَّهَرَ وطول الليل ؛ فليس على شىء . وزعم قوم أن الآيب لايكون إلا بالليل خاصة ، ذكره عبدالكريم .

الكناية والتمثيل

ومن أنواع الإشارات الكناية والتمثيل ، كما قال ابن مقبل — وكان جافياً فى الدين : يبكى أهل الجاهلية وهو مسلم ، فقيل له مرة فى ذلك — فقال :

وَمَالِىَ لا أبكى الدِّيَارَ وأهْلَهَا وَقَدْ رَادَهَا رُوَّادُ عَكٍّ وَحِمْيَرَا

وجاء قطاالأحبابِ من كل جانب فَوَقَّعَ فى أعطاننا ثمَّ طَيَّرَا

فكنى عما أحدثه الإسلام ومثل كما ترى .

الرمز

ومن أنواعها الرمز : كقول أحدِ القدماء يصف امرأة قتل زوجها وسبيت :

عَقَلْتُ لها من زوجها عَدَدَ الحصى مع الصبح أو مع جُنْح كُلِّ أصيل

يريد أنى لم أعطها عقلا ولا قَوَداً بزوجها ، إلا الهم الذى يدعوها إلى عَدِّ الحصى ، وأصله من قول امرىء القيس :

ظَلِلْتُ رِدَائِى فَوْقَ رَأْسِىَ قاعداً أَعُدُّ الحَصَى مَاتَنْقَضِى عَبَرَاتِى (٢)

(١) فى رواية الديوان * تطاول حتى . . . . . ولبس الذى يهدى النجوم . . . . *

(٢) يريد أنه لما غشى ديار الحى فلم يجد أحدا وضع رداءه فوق رأسه وجلس مفكرا يعد الحصى ودموعه لاترقأ .

ومن مليح الرمز قول أبي نواس يصف كؤوساً ممزوجة فيها صور منقوشة :

قَرَارَتُهَا كسرى،وفى جَنَبَاتِها مَهًا تَدَّرِيها بالقِسِىِّ الفَوَارِسُ
فللخمر ما زُرَّتْ عليه جُيُوبُها وللماءِ ما دَارَتْ عليه القَلَانِسُ

يقول : إن حَدَّ الخمر من صُوَرِ هذه الفوارس التى فى الكؤوس إلى التَّرَاقى والنُّحُور ، وزبد الماء فيها مزاجاً ، فانتهى الشراب إلى فوق رءوسها ، ويجوز أن يكون انتهاء الحَبَاب إلى ذلك الموضع لما مزجت فأزبدت ، والأول أملح ، وفائدته معرفة حدها صرفاً من معرفة حدها ممزوجة ، وهذا عندهم مما سَبَقَ إليه أبو نواس ، وأرى — والله أعلم — أنما تحلق على المعنى من قول امرىء القيس :

فلمَّا اسْتَطَابوا صُبَّ فى الصَّحْنِ نِصْفُهُ وَوَافى بِماءٍ غَـيْرِ طَرْقٍ ولا كَدِرِ (١)

ويروى « ووافوا » وإياه أردت ، ويروى « استظلوا » من الظل مكان « استطابوا » : جعل الماء والشراب قسمين لقوة الشراب ،فتسلَّقَ الحسنُ عليه(٢)، وأخفاه بما شغل به الكلام من ذكر الصورة المنقوشة فى الكؤوس ، إلّا أنها سرقة ظريفة مليحة ، ولم يكن أبو نواس يرضى أن يتعلق بمن دون امرىء القيس وأصحابه .

وأصل الرمز الكلام الخفى الذى لايكاد يفهم ، ثم استعمل حتى صار الإشارة وقال الفراء : الرمز بالشفتين خاصة .

اللمحة

ومن الإشارات اللَّمْحَة ، كقول أبي نواس يصف يوماً مطيراً :

---

(١) استطابوا : أخذوا أطيب الماء وأعذبه،و الصحن : قدح كبير، ويروى * وشجت بماء * أى : مزجت ، وغير طرق : لم تطرقه الإبل لتبول فيه، فهو يريد أنه نظيف نقى لا كدر فيه ، وبعد هذا البيت قوله :

بماء سحاب زل عن متن صخرة إلى بطن أخرى طيب ماؤها خصر

(٢) الحسن : هو أبو نواس .

وشَمْسُهُ حُرَّةٌ مُخَدَّرَةٌ لَيْسَ لها فى سَمائِها نُورُ

فقوله «حرة» يدل على ما أراد فى باقى البيت ؛ إذ كان من شأن الحرة الْخَفَرُ والحياء ، ولذلك جعلها مخدرة ، وشأن القيان والمملوكات التبذل والتبرج ، وأمازَعْمُ مَنْ زَعَم أن قوله «حرة» إنما يريد خلوصها كما تقول : هذا العِلْقُ من حُرِّ المتاع ؛ فخطأ ؛ لأن الشاعر قد قال : «ليس لها فى سمائها نور» فأىُّ خلوص هناك ؟ وكذلك قول حَسَّان ويكون أيضاً تتبيعاً :

أوْلادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أبيهِمُ قبرِ ابْنِ مَارِيَةَ الكريمِ الْمُفْضِلِ

يريد أنهم ملوك ذوو حاضرة ومُسْتَقَرِّ عز ، ليسوا أصحاب رحلة وانتجاع.

اللغز

ومن أخفى الإشارات وأبعدها اللغز ، وهو : أن يكون للكلام ظاهر عجب لا يمكن ، وباطن ممكن غير عجب ، كقول ذى الرمة يصف عين الإنسان :

وأصغر من قَعْبِ الْوَلِيدِ تَرَى به بيوتاً مبناة وأودِيَةً قَفْرَا

فالباء فى «به» للالصاق كما تقول «لمسته بيدى» أى : ألصقتها به وجعلتها آلة اللمس ، والسامع يتوهمها بمعنى فى ، وذلك ممتنع لا يكون ، والأول حسن غير ممتنع ومثله قول أبى المقدام :

وَغُلَامٍ رَأَيْتُه صَارَ كَلْباً ثُمَّ مِنْ بَعْدِ ذَاكَ صَارَ غَزَالاً

فقوله : «صار» إنما هو بمعنى عَطَفَ وما أشبهه من قول الله عز وجل : (فخذ أربعة من الطير فصُرْهُنَّ إليك) ، ومستقبله يَصُورُ ، وقد قيل «يصير» وهى لغة قليلة ، وليس صار التى هى من أخوات كان مستقبلها يصير فقط ومعناها استقر بعد تحول

واشتقاق اللغز من ألْغَزَ اليربوع ولغز، إذا حفر لنفسه مستقيما ثم أخذ يمنة ويسرة، يورى بذلك ويعمى على طالبه .

اللحن

ومن الإشارات اللَّحْنُ ، وهو كلام يعرفه المخاطب بفَحْوَاه ، وإن كان على

غير وجهه ، قال الله تعالى : (ولتعرفنهم فى لحن القول) وإلى هذا ذهب الحذّاق فى تفسير قول الشاعر :

مَنْطِقٌ صَائبٌ وتَلْحَن أحيا نًا، وخَيْرُ الْحديثِ ما كانْ لَحَنا

ويسميه الناس فى وقتنا هذا المحاجاة لدلالة الحِجَا عليه. وذلك نحو قول الشاعر يحذر قومه :

خَلّوا على النــاقة الحمراء أرْحُلَكُمْ والبازلَ الأصهبَ المعقولَ فَاصْطَنِعُوا
إنَّ الذِّئَابَ قد اخْضَرَّتْ بَرَاثِنُهَا والناسُ كلُّهُمُ بَكْر إذَا شَبِعوا

أراد «بالناقة الحمراء» الدَّهْنَاء ، و « بالجمل الأصهب» الصمان ، « و بالذئاب » الأعداء ، يقول : قد اخضرت أقدامهم من المشى فى الكلأ والخصب ، والناس كلهم إذا شبعوا طلبوا الغزو فصاروا عدواً لكم كما أن بكر بن وائل عدوكم . .

ومثل ذلك قول مهلهل لما غَدَرَهُ عبداه وقد كبرت سنه وشق عليهما ما يكلفهما من الغارات وطلب الثارات ، فأرادا قتله ، فقال : أوصيكما أن ترويا عنى بيت شعر ، قالا : وما هو ؟ قال :

مَنْ مُبْلِغُ الحيين أن مهلهلا لله دركما ودر أبيكما

فلما زعما أنه مات قيل لهما : هل أوْصَى بشىء ؟ قالا : نعم ، وأنشدا البيت المتقدم ، فقالت ابنته : عليكم بالعبدين فإنما قال أبى :

من مبلغ الحيين أن مهلهلا أمسى قتيلا بالفلاة مجندلا
لله دركما ودر أبيكما لايبرح العبدان حتى يقتلا

فاسْتَقرَوا العبدين فأقرا أنهما قتلاه ، ورويت هذه الحكاية لمرقش .

وسبيل المحاجاة أن تكون كالتعريض والكناية، وكل لغز داخل فى الأحاجِىّ ، وقد حَاجَى شيخُنا أبو عبد الله بعضَ تلاميذه فقال له :

أحاجيك عبَّاد كزينب فى الورى ولم تؤت إلا من حميم وصاحب

فأجابه التلميذ بأن قال :

سأ كتم حتى ما تحسُّ مدامعى بما انهلَّ منها من دموع سوا كب

فكان معكوس قول أبى عبد الله « عباد كز ينب » سرك ذائع ، فقال الآخر « سأ كتم » فأجابه على الظاهر إجابة حسنة ، ومعكوس سأ كتم « منك أتيت » فكأنه قابل به قول الشيخ « ولم تؤت إلا من صديق وصاحب » وهذا كله مليح .

التعمية

ومنها التعمية ، وهذا مَثَلٌ للطير وما شاكله ، كقول أبى نواس :

* واسم عليه خبن للصفا *

وما أشبهه ، وهو معنى مشهور .

من الإشارات مصحوبة

ومن الإشارات مصحوبة ، وهى عند أ كثرهم معيبة كأنها حَشْو واستعانة على الكلام ، نحو قول أبى نواس :

قال إبراهيم بالمـا لِ كذا غربًا وشرقا

ولم يأت بها أبو نواس حَشْواً ، ولكن شطارة وعبثاً بالكلام ، وإن شئت قلت بياناً وتثقيفاً ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو ابن العاص : « وكيف بك إذا بقيت فى حُثَالة من الناس ، قد مرجت عهودهم وأماناتهم ، واختلفوا فكانوا هكذا ؟ وشبك بين أصابع يديه » ، ولا أحد أفصح من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أبعد كلاما منه من الحشو والتكلف .

وقالوا : مبلغ الإشارة أبلغ من مبلغ الصوت ، فهذا باب تتقدم الإشارة فيه الصوت ، وقيل : حسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان ، جاء بذلك الرمانى نصا ، وقاله الجاحظ من قبل ، وأخذ على بعض الشعراء فى قوله [1] :

أَشَارَتْ بِطَرْفِ الْعَيْنِ خِيفَةَ أهلها إِشَـارَةَ مَذْعُورٍ وَلَمْ تَتَكَلَّمَ

(١) هو لعمر بن أبى ربيعة المخزومى

فأيقنت أن الطرف قد قال : مرحبا   وأهلا وســـهلا بالحبيب المتيم

إذْ كان هذا كله مما لا تحمله إشارة خائف مذعور .

ولما أقام معاوية الخطباء لبيعة يزيد قام رجل من ذى الكلاع فقال : هذا أمير المؤمنين ، وأشار بيده إلى معاوية ، فإن مات فهذا ، وأشار إلى يزيد ، فَمَنْ أبى فهذا ، وأشار إلى السيف ، ثم قال :

مُعَاوِيَةُ الخليفةُ لا نمارى   فإن يَهْلِكْ فسائِسُنا يزيد

فمن غلب الشقاءُ عليه جَهْلاً   تحكم فى مَفَارِقه الحديدُ

وقد جاء أبو نواس بإشارات أخر لم تجر العادة بمثلها ، وذلك أن الأمين ابن زبيدة قال له مرة : هل تصنع شعراً لا قافية له ؟ قال : نعم ، وصنع من فوره ارتجالا :

ولقد قلت للمليحة قُولِى   من بعيـــد لمن يحبك : (إشارة قبلة)

فأشارت بمعصم ثم قالت   من بعيد خلاف قولى : (« لا لا)

فتنفستُ ساعةً ثم إنى   قلت للبغل عند ذلك : (« امْشِ)

فتعجب جميع من حضر المجلس من اهتدائه وحسن تأتيه ، وأعطاه الأمين صلة شريفة .

الحذف

ومن الإشارات الحذفُ ، نحو قول نعيم بن أوس يخاطب امرأته :

إنْ شئْتِ أشْرَفْنَا جَمِيعا فَدَعَا   اللهَ كلٌّ جَهْـــدَهُ وأسْمَعَا

بالخـــير خيراً وإن شَرّا فا ا   ولا أريد الشر إلا أن تا ا

كذا رواه أبو زيد الأنصارى، وساعده من المتأخرين على بن سليمان الأخفش، وقال : لأن الرجز يدل عليه ، إلا أن رواية النحويين « وإن شراً فا » و « إلا أن تا » قالوا : يريد وإن شراً فشر ، وإلا أن تشاء .. وأنشدوا :

ثم تنادَوْا بعد تلك الضوضا منهم بهلات وهــل ويايا
نادى مُنادٍ منهم ألاَتا قالوا جميعاً كلهم بَلَى فا

وأنشد الفراء :

قُلْتُ لها : قومى ، فقالت : قاف

يريد قد قمت .

التورية

ومن أنواعها التورية كقول عُلَيَة بنت المهدى فى طَلّ الخادم :

أيا سَرْحَةَ البستان طــال تَشوقى فهل لى إلى ظِــلٍّ إليكِ سبيل
متى يشتفى مَنْ ليس يُرْجَى خروجه وليس لمن يهوى إليــه دخول ؟

فورَّتْ بظل عن طل ، وقد كانت تَجِدُ به، فمنعه الرشيد من دخول القصر ، ونهاها عن ذكره ، فسمعها مرة تقرأ : (فإن لم يصبها وابل) فما نهى عنه أمير المؤمنين ، أى (فَطَلّ) فقال : ولا كل هذا .

وأما التورية فى أشعار العرب فإنما هى كناية : بشجرة ، أو شاة ، أو بيضة ، أو ناقة ، أو مهرة ، أو ما شا كل ذلك كقول المسيَّب بن عَلَس :

دعا شَجَرَ الأرض داعيهمُ لينصره السِّدْرُ والأثأب

فكنى بالشجر عن الناس ، وهم يقولون فى الكلام المنثور : جاء فلان بالشوك والشجر ، إذا جاء بجيش عظيم .

وكان عمر رضى الله عنه — أو غيره من الخلفاء — قد حظر على الشعراء ذكر النساء ، فقال حميد بن ثور الهلالى :

تجرَّمَ أهلُوهَا لأن كنت مشعراً جنوناً بها ، يا طُولَ هذا التجرم
ومالىَ من ذنب إليهم علمتــه سوى أننى قد قلت يا سَرْحَةَ اسلمى
بلى فاسلمى ثم اسلمى ثُمَّتَ اسلمى ثلاث تحيات وإن لم تَكَلَّمِ

وقال أيضاً فى مثل ذلك :

أبى الله إلا أن سَرْحَةَ مَالِكٍ على كل أفنان العضاه تروق

فياطيبَ رَيّاها ، ويابَرْدَ ظلها إذا حان من شمس النهار شروق
فهل أنا إن عَلَّلْتُ نفسى بسَرْحَة من السَّرْحِ مَسْدُودٌ عَلَيَّ طريق ؟
حَمَى ظلّها شكس الخليقةِ خائف عليها غرام الطائفين شَفِيقُ
يريد بذلك بَعْلَها أو ذا مَحْرَمها
فَلا الظلَّ مِنْ بَرْدِ الضحى تستطيعه ولا الْفَىْءَ مِنها فى العَشِىِّ تذوق

وقال عنترة العبسى :

يا شَاةَ ما قَنَصٍ لمن حَلَّتْ لهُ حَرُمَتْ عَلَيَّ وَلَيْتَهَا لَمْ تَحْرُمِ

وإنما ذكر امرأة أبيه ، وكان يهواها ، وقيل : بل كانت جاريته ؛ فلذلك حرمها على نفسه ، وكذلك قوله :

* والشاة ممكنة لمن هو مرتمى *

والعرب تجعل المَهَاة شاة ؛ لأنها عندهم ضائنة الظباء، ولذلك يسمونها نعجة ، وعلى هذا المتعارف فى الكناية جاء قولُ الله عز وجل في إخباره عن خَصْم داود عليه السلام : (إنَّ هذا أخى له تسعٌ وتسعونَ نعجة ولىَ نعجة واحدة) كناية بالنعجة عن المرأة ، وقال امرؤُ القيس :

وَبَيْضَةِ خِدْرٍ لاَ يُرَامُ خِبَاؤُهَا تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بِهَا غيرَ مُعْجَلِ

كناية بالبيضة عن المرأة . . وروى ابن قتيبة أن رجلا كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

ألا أبلغ أبا حَفْصٍ رسولا فِدًى لك من أخى ثقة إزارى
قلائصنا هداك الله ، إنا شغلنا عنكُمْ زَمَنَ الحصار
فما قُلُصٌ وُجِدْنَ معقَّلَاتٍ قَفَا سَلْعٍ بمختلف التجار

يعقّلهن جَعْـــدَةُ شَيْظَمىٌّ   وبئس مُعَقِّلُ الذَّوْدِ الظؤار[1]

وإنمـا كنى بالقُلُصِ ـ وهى النوق الشواب ـ عن النساء ، وعَرَّضَ برجل يقال له « جعدة » كان يخالف إلى المغيبات من النساء ، ففهم عمر ما أراد ، وجلد جعدة ونفاه .

ومن الكناية اشتقاق الكنية ؛ لأنك تَكْنِى عن الرجل بالأبوة ، فتقول : أبو فلان ، باسم ابنه ، أو ما تعورف فى مثله ، أو ما اختار لنفسه ؛ تعظيما له وتفخيما ، وتقول ذلك للصبى على جهة التفاؤل بأن يعيش ويكون له ولد .

الكناية ثلاثة أضرب

قال المبرد وغيره : الكناية على ثلاثة أوجه: هذا الذى ذكرته آنفا أحدها ، والثانى : التعمية والتغطية التى تقدم شرحها ، والثالث : الرغبة عن اللفظ الخسيس كقول الله عز وجل : (وقالوا لجلودهِمْ لم شهدتُمْ علينا) فإنها فيما ذكر كناية عن الفروج . ومثله فى القرآن وفى كلام الفصحاء كثير .

(٤٢) — باب التتبيع

حد التتبيع

ومن أنواع الإشارة التتبيع ، وقوم يسمونه التجاوز ، وهو : أن يريد الشاعر ذكر الشيء فيتجاوزه ، ويذكر ما يتبعه فى الصفة وينوب عنه فى الدلالة عليه ، وأول من أشار إلى ذلك امرؤ القيس يصف امرأة :

وَيُضْحِى فَتِيتُ المِسْكِ فَوْقَ فراشها   نؤوم الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عن تَفَضُّلِ

فقوله « يضحى فتيت المسك » تتبيع ، وقوله « نؤوم الضحى » تتبيع ثان ، وقوله « لم تنتطق عن تفضل » تتبيع ثالث ، وإنما أراد أن يصفها بالترفُّهِ ، والنعمة ،

---

(١) شيظمى : الشيظم الطويل ، وقيل : الجسيم ، والياء زائدة . وقيل : الشيظم الطلق الهش الوجه الذى لا انقباض له اهـ عن اللسان .

وقلة الامتهان فى الخدمة ، وأنها شريفة مَكْفية المؤنة ، فجاء بما يتبع الصفة ويدل عليها أفضل دلالة .. ونظيره قول الأخطل يصف نساء :

لاَ يَصْطلِينَ دُخَانَ النَّارِ شَاتِيَةً إلا بِعُودِ يَلَنْجُوجٍ عَلَى فَحَمِ

فذكر أنهن ذوات تملك وشرف حال . وأين من هذا قولُ النابغة فى معناه وقصده :

لَيْسَتْ مِنَ السُّودِ أَعْقَاباً إذا انْصَرَفَتْ وَلاَ تَبيعُ بِجَنْبَيْ نَخْلَةَ الْبُرَمَا[1]

كأنها إن لم تكن سوداء العقبين بياعة للبُرَم كانت فى نهاية الحسن والشرف والدعة .

وقال النابغة وأراد أن يصف طول العنق وتمام الخلقة فيها فذكر القُرْطَ ؛ إذ كان مما يتبع وصف العنق ، ولم يسبقه إلى ذلك أحد من الشعراء :

إذا ارْتَعَشَتْ خَافَ الْجَبَانُ رِعَاثَهَا وَمَنْ يَتَعَلَّقْ حَيْثُ عُلِّقَ يَفْرَقِ[2]

فجعل رعاثها يخاف ويفرق ، وعذره ببعد مَسْقَطِهِ ، فتناول هذا المعنى عمر ابن أبى ربيعة فأوضحه بقوله :

بَعِيدَةُ مَهْوَى الْقُرْطِ إما لنوفل أبوها ، وإما عبد شمس وهاشم

وتبعه ذو الرمة فزاد المعنى وضوحاً بقوله :

---

(١) الأعقاب : جمع عقب ، إذا انصرفت : يريد أنها إن انصرفت عنك فنظرت إليها لم تجد عقبها أسود ، بل هى بيضاء ناعمة رخصة القدم ، والعرب تستدل بحسن قدم المرأة على حسن سائرها ، ويقولون : إذا حسن موقف المرأة حسن سائرها . ونخلة : بستان عبد الله بن معمر . والبرم : جمع برمة ، وهى قدر النحاس يريد أنها مصونة مخدرة لا تمتهن بخدمة .

(٢) ارتعشت : لبست الرعاث ، وهو القرط .

وَالْقُرْطُ فِي حُرَّةِ الذِّفْرَى مُعَلَّقُهُ تَبَاعَدَ الْحَبْلُ مِنْهُ فَهْوَ يَضْطَرِبُ(١)

وقال طُفَيْل الغَنَوِى يصف فرسًا ، ويروى لغيره :

هَرِيتٌ قصير عذير اللجام أَسِيلٌ طَوِيل عِذَارِ الرَّسَنْ

فلو ترك الهرت والأسالة لـكان من هـذا الباب ، لـكنه الآن لم يقصد التتبيع ، و إنما جاء به كالتوكيد لمـا قبله ، هذه رواية ابن قتيبة ، وأما رواية النحاس عن شيوخه عن الأصمعى فإنها :

وأحوى قصير عذار اللجام وَهُوَّ طويل عذار الرَّسَنْ

وهذا تتبيع لا شك فيه . وأما قول الأخطل :

أَسِيلة مجرى الدمع ، أما وِشَاحُها فَجَارٍ ، وأما الحِجْلُ منها فما يَجْرِى

ففيه التتبيع فى ثلاثة مواضع ، وهى صفة الخـد بالسهولة ، وصفة الخصر بالرقة ، والساق بالغلظ . ومثله قول الأعشى :

صِفْرُ الوشاح ، ومِلْءُ الدِّرْعِ ، خَرْعَبة إِذَا تَأَتَّى يَكَادُ الخصْرُ يَنْخَزِلُ(٢)

فقوله « صفر الوشاح » دال على رقة الخصر ، « وملء الدرع » دال على تمام الخلق من طول وسمن وامتلاء صدر وعجيزة ، وكل ما وقع من قولهم : طويل

---

(١) القرط : من حلى الأذن ؛ قيل : عام ، وقيل : خاص بما كان فى شحمتها فإن كان فى أعلاها فهو الشنف ، بفتح فسكون . والذفرى : عظم فى أعلى العنق من الإنسان ، وهما ذفريان ، عن يمين النقرة وشمالها ، قاله فى اللسان عن القتيبى .

(٢) صفر الوشاح : يريد أنها خميصة البطن دقيقة الخصر ؛ فوشاحها يقلق عنها ويضطرب لذلك ، ملء الدرع : يريد أنها ضخمة ، خرعبة : يروى فى مـكانه « بهكنة » والبهكنة : الجارية الخفيفة الروح الطيبة الرائحة المليحة الحلوة . والخرعبة : الرخصة اللينة الحسنة الخلق . وتأتى : ترفق، من قولك: هو يتأتى للأمر ، وقيل : تأتى أى تهيأ للقيام ، وأصله بتاءين فحذف إحداهما، ينخزل : ينثنى ، وقيل : ينقطع

النِّجاد ، وكثير الرماد ، وما يشا كلهما فهو من هذا الباب . وقالت ليلى الأخيلية :

وَمُخَرَّق عنه القميصُ تخالهُ   وَسْطَ البيوتِ من الحياءِ سَقِيماَ

أرادت أنه يجذب و يتعلق به للحاجات لجوده وسؤدده وكثرة الناس حوله، وقيل : إنما ذلك لعظم مناكبه ، وهم يحمدون ذلك .

ومن عجيب ما وقع في هذا الباب من التجاوز قول أوس بن حَجَر :

حتى يلفّ نخيلَهم وبيوتَهم   لَهَبٌ كناصيةِ الحصان الأشقر

أراد الحرب التى هى المقصود بالصفة ، هكذا الرواية الصحيحة ، وبهذا التفسير فسره جلة العلماء وهم الأكثر ، وقال آخرون : بل إنما أغراه بإحراق النخل والبيوت ففعل ، ولا يكون على هذا الرأى الآخر من هذا الباب .

ومن التجاوز قول رؤبة بن العجاج يصف حوافر الخيل :

* سَوَّى مَسَاحِيهِنَّ تَقْطيطُ الحقق *

أراد أن يشبهها بالمساحِى فجعلها أنفسها مساحى ، يريد العظم .

ومثله قول ابن دريد :

يدير إعليطين فى ملمومَةٍ   إلى لَمُوحَيْنِ بألحاظِ اللأى

أراد أن يشبه أذن الفرس بالإعليط ــ وهو وعاء ثمر المرخ ــ فجعل الأذن نفسها إعليطاً ، كما فعل رؤبة فى المَسَاحى ، ومثله كثير .

ومما يدخل فى باب التجاوز قول النابغة :

تقدُّ السَّلوقىَّ المضاعَفَ نَسْجُهُ   وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نَارَ الْحُبَاحِبِ[1]

---

(١) تقد : الضمير المستتر فيه عائد على السيوف التى ذكرها فى قوله قبل ذلك :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

والسلوقى: نسبة إلى سلوق ، وهى مدينة بالروم ، وإليها تنسب أجود الدروع =

و إنما أراد السلوقىّ مع ما فيه من الجسد وما تحت لا بسه زعموا من السرج والفرس ، فعدا عن الجميع ، وجاء بما يتبعه ، و يستغنى به عن ذكره ، إذ[1] كانت لا تقد السلوقى إلا أن تقد ما فيه ، ولا تنتهى إلى الصفاح ـ على ما فسروا من أنه يريد الفارس بأداته ـ إلا بعد أن تأتى على السرج والفرس، على أن من الناس من رد « يوقدن » على الخيل . . وإلى مثل هـذا الإفراط ذهب النمر بن تولب فى صفة السيف الذى شبه به نفسه فقال :

تظلُّ تحفر عنه إن ضَرَبْتَ به بعدالذراعين والساقين والهادى[2]

وروى الحذاق « القينين والهادى » وهو واضح فى المعنى .

ومن التتبيع قول زهير :

وَمُلْجِمُنَا مَا إنْ يَنَالُ قَذَالَهُ وَلاَ قَدَمَاهُ الأرْضَ إلا أنَامِلُه[3]

فأشار إلى طول عنقه وقوائمه بذكر تطاول الملجم إشارة عجيبة ، وتبعه ابن مقبل فقال :

تَمَطّيْتُ أخليه اللِّجَامَ فَبذَّنِى وَشَخْصِى يُسَامِى شَخْصَهُ وَهْوَ طَائِلُه

= وأفضلها ، المضاعف نسجه : أراد الذى نسج حلقتين حلقتين . الصفاح : ما يجعل على الدارع من الحديد ، ونار الحباحب : هو ما اقتدح من شرر النار فى الهواء ، وقيل : ذباب له شعاع بالليل .

(١) فى المصريتين « إذا » وهو تحريف .

(٢) القينان فى رواية الحذاق التى ذكرها المؤلف : مثنى قين ، وهو موضع القيد من الفرس ومن كل ذى أربع يكون فى اليدين والرجلين ، والهادى : العنق سميت بذلك لأنها تتقدم على البدن وتهديه .

(٣) ملجمنا : يريد الذى يلجم خيلهم ، وقوله « ما إن ينال قذاله » يريد أنه لا يكاد ينال قذال الفرس لطوله ، وقوله « ولاقدماه » هو على تقدير ولاتنال قدماه الأرض ، أى : أنه قد قام على أطراف أصابعه فلا ينال من قدميه الأرض إلا أنامله يرفع نفسه ليدرك قذال الفرس فلا يبلغه .

و إنما تناول زهير هذا المعنى من أبى دؤاد الإيادى ، و يروى لعبد بن ثعلبة الأسدى حيث يقول :

لاَ يَكَادُ الطَّوِيلُ يَبْلُغَ مِنْهُ حيث يثنى على المقص العذار

وأنا أقول : إن بيت الذبيانى فى الرعاث مأخوذ من قول عبيد بن الأبرص :

مَاطُوا الرعاث بنَهْدٍ لو يزلُّ به لا ندقَّ دون تلاقى اللبة القرط

وقال ابن دريد وأتى ببديع مليح :

قَرِيبُ مَا بَيْنَ الْقَطَاةِ وَالْمَطَا بَعِيدُ مَا بَيْنَ الْقَذَالِ والصَّلاَ

فدل بهذا على قصر الظهر وطول العنق . .

وقال بعض الشعراء فلح وظرف :

فَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فإنى جَبانُ الكلب مهزولُ الْفَصِيل

أشار إلى كثرة غشيان الضيوف ، حتى إن الكلب ما أنس جبُنَ أن ينبح فضلا عما سوى ذلك ، وهُزَال فصيله دال على أن الألبان مبذولة للضيفان ، فقل ما بقى له منها .

وقد قال امرؤ القيس :

* سِمانُ الْكِلاَبِ عِجَافُ الْفِصَالِ *

فعجف الفصال للعلة التى قدمت ، وسمن الكلاب لكثرة ما ينحرون ويذبحون .

ومن أعجب التتبيع قوله :

أمَرْخٌ خِيَامُهُمُ أَمْ عُشَرْ أَمِ الْقَلْبُ فى إثْرِهِمْ مُنْحَدِرْ[1]

يقول : أنزلوا نجداً الذى من نباته المرخ أم الغور الذى من نباته العشر ؟

---

(١) انظر (ص ١٧٤) من هذا الجزء تجد تفسير هذا البيت فى تعليقاتنا هناك

و إن الأعراب يعملون خيامهم من نبات الأرض التى ينزلونها ، فإذا رحلوا تركوه واستأنفوا غيره من شجر البلد الذى ينزلون به ، هكذا شرح العلماء هذا البيت المتقدم ، ولا أرى الأعراب تذكر ذلك كثيراً فى أشعارها ، و إنما يتعاورون ذكر الوَتِدِ ، اللهم إلا أن تكون الأعمدة وما شاكلها تنتخب وتحمل و إنما المطرَح[1] ما جعل فوقها وسُدَّ به خَصَاصُهَا فدفع الحر والبرد فنعم ، ولا شك أن هذا هو الصحيح ، و يدل عليه قول جرير يذكر منزلا :

فَلاَ عَهْدَ إلاَّ أن تذَكَّرَ أوْتَرَى ثُمَامًا حَوَالَىْ منصب الخيم باليَا

فذكر الثمام مُطَّرَحاً ، وقال أبو دواد :

عَهِدْتُ لَهَا مَنْزِلاً دَاثِراً وآلاً على المَاء يَحْمِلْنَ آلا

فالآل الأول : أعمدة الأخبية ، والآل الثانى : الشخص الذى يرتفع عند اشتداد الحر ، هكذا فسروه ، منهم قدامة ، والذى قال الحذاق : يعنى أعمدة تحمل أعمدة مثلها ذكره أبو حنيفة ، وقوله « على الماء » يعنى الماء العِدَّ الذى هو المحضر يرجعون إليه بعد تبديهم وانقطاع ماء السماء ، وقد أخبرك الشاعر على القول الأول أنهم يحملون أعمدة الأخبية والبيوت .

ومن أحسن ما وقع فى هذا الباب من التتبيع قول حسان بن ثابت :

أوْلاَدُ جفنة حول قبر أبيهمُ قبر ابن مارية الكريم المفضل

فقوله « حول قبر أبيهمُ » تتبيع مليح ، أشار به إلى أنهم ملوك مقيمون لا يخافون فينتقلون من مكان إلى مكان ، وأنهم فى مستقر عز وأرض خصب

---

(١) المطرح : المطروح الذى يتركه القوم عند رحيلهم ، وفى نسخة « المرخ » وما أثبتناه أولى ؛ فإن المرخ إذ اتخذ لسد خصاص البيوت فغيره يتخذ لذلك كالثمام فى كلام جرير ، وغيره .

لا تجدِب ، أراد الشام ، وأن ذلك دأبهم من القدم ، فهم حول قبر أبيهم ، وهذا كما قال ابن مُقْبِل :

نحنُ المقيمون لم تَبْرَحْ ظعائننا لا نَسْتَجِيرُ ، وَمن يَحْلُلْ بنا يُجَرِ

ومن هذا الباب أيضاً قول عنترة بن شداد العبسى :

بَطَلٌ كأن ثيابه فى سَرْحَةٍ يُحْذَى نِعَالَ السِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْأَمِ

أراد أنه ملك ؛ لأن نعال السِّبْتِ لا يحتذيها عندهم إلا كل شريف ، يدلك على ذلك قولُ عتيبة بن مرداس المعروف بابن فسوة يذكر آل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قصيدة لام فيها عبدَ الله بن عباس وشكر الحسنَ بن على عليهما السلام وعبد الله بن جعفر رضى الله عنهما :

إلى نَفَرٍ لا يَخْصِفُونَ نِعَالَهُمْ وَلاَ يَلْبَسُونَ السِّبْتَ مالمْ يُخَصَّرِ

ومن التتبيع قول الحطيئة :

لَعَمْرُكَ ما قُرَادُ بنى كليب إذا نُزِعَ القُرَادُ بِمُسْتَطَاعِ

وذلك أن الفحل إذا منع الخطام نزعوا من قردانه شيئاً فَلَذَّ ذلك ، وسكن إليه ، ولاَنَ لصاحبه حتى يلقى الخطام فى رأسه ، فزعم الحطيئة أن هؤلاء لا يخدعون عن عزهم و إبائهم فيقدر عليهم .

وأما قول ذى الأصبع العدوانى واسمه حُرْثان بن الحارث :

يا عَمرو ، إلاَّ تَدَعْ شَتْمِى وَمَنْقَصَتِى أَضْرِبْكَ حيث تقول الهامة اسقونى

فيجوز أن يكون أراد أضربك على الرأس الذى تصيح منه الهامة اسقونى على زعم الأعراب ، فيكون من هذا الباب ، و يجوز أن يكون مراده أضربك فلا يؤخذ بثأرك وتكون حيث ههنا مثلها فى قول زهير :

* لَدَى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَهَا أمُّ قَشْعَمِ *

فيخرج عن هذا الباب . . و إلى نحو التأويل الأول قصد أبو الطيب بقوله :

فَيابْنَ الطّاعِنِينَ بِكلِّ لَدْنٍ مَوَاضِعَ يَشْتَكِي الْبَطَلُ السُّعالا

أراد الصدر ، أو النحر . .

و بيتُ البحترى فى صفة الذئب ، و يروى لعمارة بن عقيل :

فأَوْجَرْتُهُ أُخْرَى فأَظْلَلْتُ رِيشَهَا بحيث يكون اللُّبُّ وَالرُّعْبُ وَالحِقْدُ

خيرٌ من بيت أبى الطيب وأجمع للصفة ، وقوله « أظللت » بمعنى صيرت و يروى بالضاد .

٤٣ — باب التجنيس

المماثلة من التجنيس

التجنيس ضروب كثيرة : منها المماثلة ، وهى : أن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى ، نحو قول زياد الأعجم ، وقيل : الصَّلَتان العبدى يرثى المغيرة ابن المُهَلّب :

فَانْعَ الْمُغِيرَةَ لِلْمُغِيرَةِ إذْ بَدَتْ شعــواء مشعلة كنبح النابح

فالمغيرة الأولى : رجل ، والمغيرة الثانية : الفرس ، وهو ثانية الخيل التى تغير .

وقال صاحب الكتاب : قال الله تعالى : (وأسلمت مع سليمان) وقال تعالى : (ثم انصرفوا صَرَفَ الله قلوبهم) وفى كلام النبى صلى الله عليه وسلم « سُلَيم سالمها الله ، وغفَار غَفَرَ الله لها ، وعُصَيَّة عَصَتِ الله ورسوله » وإن كان من غير هذا الباب . . وأنشد[1] سيبويه :

أُنِيخَتْ فأَلْقَتْ بلدة فَوْقَ بَلْدَةٍ قَلِيلٍ بها الأَصْوَاتُ إلاّ بُغَامُهَا

(١) انظر كتاب سيبويه (ج ١ ص ٢٧٠) ونسبه لذى الرمة ، والرواية برفع « بغام » على جعل « إلا » صفة بمعنى « غير » ظهر إعرابها على ما بعدها كما هو معروف فى كتب النحو .

البلدة الأولى : صدر الناقة ، والثانية : المكان من الأرض .

ومثله [ما] أنشد[هُ] ثعلب :

وَثَنِيَّةٍ جَاوَزْتُهَا بِثَنِيَّةٍ حَرْفٍ يُعَارِضُهَا ثَنِيٌّ أَدْهَمُ

فالثنية الأولى : عقبة ، والثانية : ناقة ، والثنى الأدهم : الظل ، استعار له هذا الاسم . . ويروى « حبيب أدهم » .

ومثله أنشد أبو عمرو بن العلاء :

* عَوْدٌ على عَوْدٍ على عَوْدٍ خَلَقْ *

وقال : الأول الشيخ ، والثانى : الجمل المسن ، والثالث : الطريق القويم قد ذُلِّلَ بكثرة الوطء عليه .

ويجرى هذا المجرى قولُ الأودى :

وأَقْطَعُ الْهَوْجَلَ مُسْتَأْنِساً بِهَوْجَلٍ عَيْرَانَةٍ عَيْطَمُوسْ(١)

أنشده قدامة على أنه طباق ، وسائر الناس يخالفونه فى هذا المذهب ، وقد جاء رد الأخفش علىّ بن سليمان عليه فى ذلك وإنكاره على رأى الخليل والأصمعى فى كتاب حلية المحاضرة للحاتمى .

وعلى القول الأول قال أبو نواس فى ابن الربيع :

عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إِذَا حَضَرَ الوغى وَالْفَضْلُ فَضْلٌ وَالرَّبِيعُ رَبِيع

وقال أبو تمام :

لَيَالِيَنَا بالرَّقْمَتَيْن وأهلنـــا سَقَى الْعَهْدَ مِنْكِ الْعَهْدُ وَالْعَهْدُ وَالْعَهْدُ

فالعهد الأول المسقى:هو الوقت ، والعهد الثانى:هو الحِفَاظُ ، من قولهم «فلان ماله عَهْد » والعهد الثالث : الوصية من قولهم « عَهِدَ فلان إلى فلان ، وعهدت

(١) الهوجل الأول : الأرض التى لانبت فيها ، ومنه قول ابن مقبل :
وجرداء خرقاء المسارح هوجل بها لاستداء الشعشعانات مسبح
والهوجل الثانى : الناقة السريعة .

إليه » أى : وصانى ووصيته ، والعهد الرابع : المطر ، وجمعه عِهَادٌ ، وقيل : أراد مطراً بعد مطر بعد مطر ، وفسر ذلك بقوله :

سَحَابٌ مَتَى يَسْحَبْ على النبت ذَيْلَهُ فلا رَجِلٌ ينبو عليه ولا جَعْـــدُ

واستثقل قوم هذا التجنيس ، وحُقَّ لهم .

ومن مليح هذا النوع قول ابن الرومى :

للسود فى السود آثار تركن بهـا لمعاً من البيض تَثْنِي أعين البيض

فالسود الأول: الليالى، والسود الآخر : شَعَرَاتُ الرأسِ واللحية،[و] البيض الأول : الشيبات ، والبيض الآخر : النساء . .

وزعم الحاتمى أن أفضل تجنيس وقع لمحدث قول عبد الله بن طاهر :

و إنّى للثغر المخيف لـكالىء وللثغر يجرى ظَلْمُهُ لَرَشُوفُ(١)

فهذا وما شاكله التجنيس المحقق ، والجرجانى يسميه المستوفى .

و يقرب منه — وليس محضاً — قول ابن الرومى :

له نائل ما زال طالبَ طالبٍ ومرتاد مرتادٍ وخاطبَ خاطبِ

أدخل الترديد ، والترديد : نوع من المجانسة يفرد له باب إن شاء الله تعالى .

التجنيس المحقق

والتجنيس المحقق: ما اتفقت فيه الحروف دون الوزن، رجع إلى الاشتقاق أو لم يرجع، نحو قول أحد بنى عَبْس:

وذَلِـكُمْ أنّ ذُلّ الجار حالَفَـكم وأن أنْفَـكُمُ لا يَعْرِفُ الأَنفَا

فاتفقت الأنْفُ مع الأنَفِ فى جميع حروفهما(٢) دون البناء ، ورجعا إلى أصل

---

(١) الثغر الأول : ثغر البلاد الذى يحافظ عليه من غارة العدو . وكالىء : حافظ ورأع . والثغر الثانى : فم المحبوب ، والظـلم ــ بفتح الظاء ــ ريقه .

(١) فى المصريتين « فاتفقت الأنف فى الأنف فى جميع حروفها » وفى هـذا تحريفان لايخفيان

واحد ، هذا عند قدامة أفضل تجنيس وقع ، [و] مثله فى الاشتقاق قول جرير ـ والجرجانى يسميه التجنيس المطلق ، قال : وهو أشهر أوصافه :

وما زال مَعْقُولا عِقَالٌ عن الندى ... وما زال محبوساً عن الخيرِ حابِسُ

وقال جرير أيضاً ، وفيه المضارعة والمماثلة والاشتقاق ، وأنشده ابن المعتز :

تَقَاعَسَ حتى فاته المجدُ فَقْعَسٌ ... وأعْيَا بنو أعيا وَضَلَّ المضلَّلُ

وقال خلف بن خليفة الأقطع :

فإنْ يَشْـتَغِلُونا عَنْ أذَانٍ فإننا ... شغَلْنا وليـداً عن غناء الولائد

يعنى الوليد بن يزيد بن عبد الملك . وقال أبو تمام فأحكم المجانسة بالاشتقاق:

بحوافرٍ حُفْرٍ وصُلْبٍ صلَّب ... وأشَاعِرٍ شُعْرٍ وخَلْقٍ أخْلَقِ

فجنس بثلاث لفظات(١) . ومثله قول البحترى :

صَدَقَ الغراب،لقد رأيت شموسهم ... بالأمس تغربُ عن جوانب غرَّب

ويقرب من هذا النوع قول ذى الرمة * وَاسْتَرْجَعَتْ هامها الهِيمُ الشعَامِيمُ *

فالهيم والهام قريبان فى اللفظ بعيدان فى الاشتقاق ، وربما جعلهما بعض الناس من أصل واحد ، وكذلك قوله :

كأنَّ البُرَى وَالْعَاجَ عِيجتْ مُتُونُهَا ... عَلَى عُشَرٍ نَهَّى به السَّيلَ أبطَحُ(٢)

قال ابن المعتز « نهى به السيل » أى: بلغ بُه إليه فهو أنعم له وأكثر لدُونَةً .

---

(١) بل بأربع لفظات ، كما هو ظاهر ، وانظر ص ١٣٢ من هذا الجزء

(٢) قال أبو حنيفة : « العشر من العضاه ، وهو من كبار الشجر وله صمغ حلو ، وهو عريض الورق ، ينبت صعدا فى السماء ، وله سكر يخرج من شعبه ومواضع زهره يقال له سكر العشر ، وفى سكره شىء من مرارة ، ويخرج له نفاخ كأنها شقاشق الجمال التى تهدر فيها ، وله نور مشرب مشرق حسن المنظر » اهـ

وأنا أقول : معناه ترك به السيل نَهْيًا ، وهو الغدير ، وذلك أتم لما أراد ابن المعتز ، اللهم إلا أن يكون معناه جعل نهايته هناك فإنه أتم وأجود ، أى : لم يجد مُنْصَرَفًا فأقام . وقال البحترى :

وَذَكَّرَنيكِ والذِّكْرَى عَنَاءٌ   مَشَابِهُ مِنْكِ بَيِّنَةُ الشُّكُولِ
نَسِيمُ الرَّوْض فى رِيحِ شمالٍ   وَصَوْبُ المُزْنِ فى رَاحٍ شَمُولِ

وقال أبو تمام :

مَلِيَّتُكَ الأَحْسَابُ ، أىُّ حَيَاة   وَحَيا أَزْمَةٍ وَحَيَّةَ وَادِ [1]

من التجنيس المضارعة

ويقرب من هذا النوع نوع يسمونه المضارعة ، وهو على ضروب كثيرة : منها أن تزيد الحروف وتنقص ، نحو قول أبى تمام — والجرجانى يسميه التجنيس الناقص — :

* يَمُدُّون مِنْ أيدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ * [2]

وهما سواء لولا الميم الزائدة . وكذلك قوله * قواض قواضب * سواء لولا الباء ، ومع ذلك فإن الباء والميم أختان . ومثله قولُ البحترى :

فيالك من حَزْمٍ وعَزْمٍ طواهما   جَدِيدُ البِلَى تحت الصَّفَا والصفائح

ومنها أن تتقدم الحروف وتتأخر ، كقول الطائى :

بيضُ الصفائحِ، لاسود الصحائفِ، فى   مُتُونِهنَّ جَـلَاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

فقوله « الصفائح ، لاسود الصحائف » هوالذى أردت . وقال البحترى :

شـواجر أرماح تقطع بينهم   شواجرَ أرحامٍ مَلُومٌ قَطُوعُهَا

---

(١) مليتك : متعتك ، حيا أزمة : مطر شدة ، يريد أنه يكشف الشدة بجوده
(٢) تمامه * تصول بأسياف قواض قواضب * وسيذكر المؤلف بعض هـذا الشطر .

ومثله قول أبى الطيب :

مُمَنَّعَةٌ مُنَعَّمَـــــــــةٌ رَدَاحٌ يُكَلِّفُ لَفْظَهَا الطَّيْرَ الْوُقوعَا

وحكى ابن دريد أن أعرابياً شتم رجلا فقال : لمج أمه ، فقدم إلى السلطان فقال : إنما قلت : ملج أمه ، فدرأ عنه . .

قال أبو بكر : لجها : أتاها ، وملجها : رضعها .

وأصل المضارعة أن تتقارب مخارج الحروف ، وفى كلام العرب منه كثيرغير متكلف ، والمحدثون إنما تكلفوه ؛ فمن المعجز قول الله عز وجل : (وهُمْ يَنْهَوْنَ عنه و ينأونَ عنه) . وقال النبى صلى الله عليه وسلم لرجل سمعه وهو ينشد على سبيل الافتخار — وقيل : بل سأله عن نسبه فقال :

إنى امرؤٌ حِمْيَرِىٌّ حين تنسبنى لا من ربيعــة آبائى ولا مضر

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ـ : « ذلك والله ألأم لجدِّك ، وأضرع لخدك، وأفلُّ لحدك ، وأقل لعدك، وأبعد لك عن الله ورسوله » وقوله عليه الصلاة والسلام « نعوذ بالله من الأيمة والعيمة والغيمة والكزم والقزم » الأيمة : الخلو من النساء، والعيمة : شهوة اللبن ، والغيمة : العطش ، والكزم : قصر اللبان خلقة أو من بخل ، ويقال : الكزم شدة الأكل ، والقزم : شهوة اللحم .

الرمانى يسميه المشاكلة

وهذا النوع يسميه الرمانى المشاكلة ، وهى عنده ضروب : هذا أحدها ،وهى المشاكلة فى اللفظ خاصة ، وأما المشاكلة فى المعنى فننبه عليها فى أماكنها إن شاء الله تعالى . .

وقال ابن هَرْمَةَ :

وَأَطْعَنُ لِلقِرْنِ يَوْمَ الوغى وَأَطْعَمُ فى الزَّمَنِ الماحِلِ

وقال أبو تمام :

رُبَّ خَفْضٍ تحت الثرى وغَنَاء من عَنَاء وَنضْرَةٍ من شُحوبِ

وأبعد من هذا قليلا قول ساعدة بن جُؤَيّة الهذلى :

رَأى شَخْصَ مَسْعُودِ بْنِ بشرٍ بكَفِّهِ حَدِيدٌ حَدِيثٌ بالْوَقِيعَةِ مُعْتَدُ(١)

من المضارعة بالتصحيف ونقص الحروف

ومن المضارعة بالتصحيف ونقص الحروف قول بعضهم :

فإنْ حلّوا فَلَيْسَ لهم مَقَرٌّ وإنْ رَحَلوا فَلَيْس لهم مَفَرُّ

وقال البحترى يمدح المعتز بالله :

ولم يكن المُغْتَرُّ بالله إن سَرَى ليعجز والْمُعْتَزُّ بالله طالبه

فجاء بتصحيف مستوفٍ . وقال :

مَا بِعَيْنَيْ هـذا الغزال الغرير من فتُونٍ مُسْتَجْلَبٍ من فتُورِ

وقال غيره — وأظنه قابوس بن وشمكير — :

إن المكارم فى المكا ره والغنائم فى المغارم

وقال بعض العلماء : ربما أسْفَرَ السَّفَرُ عن الظّفَر ، وتعذر فى الوطن قضاء الوطر . [و] قال آخر : خُلْفُ الوَعْد خُلُقُ الوَغْد . وقال ابن المعتز :

لئن نَزَّهْتَ سمعك عن كلامى لقد نَزَّهْتُ فى خَدَّيْكَ طرفى

له وجهٌ به يُصْبِي ويُضْنِى ومُبْتَسَمٌ به يُشْقِى وَيشفى

وقال آخر أيضا فى مثل ذلك ، وفيه تغيير كثير بتصحيف :

فمن داعٍ ومن راعٍ ومن مَطَرٍ ومن مُطْرِقْ

وكلٌّ خاشعُ الطرفِ لديهِ خاضعُ المنطق

أعنى بالتغيير ضاد « خاضع » ليست مناسبة لشين « خاشع » فيكون تصحيفا ، وإنما التصحيف فيما تناسب من الخط ، ومن هذا قوله « داع »

---

(١) فى الديوان (ص ٣٧ طبع أوربة) * رأى شخص مسعود بنَ سعد . . . * وبعد هذا البيت قوله :

فَجَالَ وَخَال أنَّهُ لَمْ يَقَعْ بِهِ وَقَدْ خَالَهُ سَهْمٌ صَوِيبٌ مُعَرِّدُ

و « راع » لبعد ما بينهما فى اللفظ والهجاء .

ومن الإسقاط الذى لا يظهر إلا فى الخط قول شمس المعالى قابوس بن وشمكير :

وَمَنْ يَسْرِ فَوْقَ الأَرْضِ يَطْلُبُ غايةً   من المجدِ نَسْرِي فوق جمجمة النَّسْرِ
ومن يختلفْ فى العالمينَ نِجَارُهُ   فإنا مِنَ العلياء نَجْرِى على نَجْرِ

فياء الوصل فى « النسر » جانست به « نسرى » وصار لقاء النون كسرة الهاء من جمجمة كالتنوين فى الهاء ، وكذلك صلة « نجر » جانست به « نجرى » فإذا صرت إلى الخط زالت المجانسة .

التجانس المنفصل

وقد أحدث المولدون تجانساً منفصلا يظهر أيضاً فى الخط كقول أبى تمام :

رَفَدُوكَ فى يوم الكُلاَبِ ،وَشَقَّقوا   فِيهِ المزاد بِجَحْفَلٍ كالَّلاَّبِ (١)

الكاف للتشبيه ، واللاب : جمع لابة ، وهى الحَرَّةُ ذات الحجارة السود . . هذا أصح الروايتين ، وأما قوله بجحفل كَلاَّب أى كأن به كلباً فليس بشىء ، وإنما القول ما قدمناه، وليس بتجانس صحيح على ما شرطه المتقدمون ، ولكنه استظرف فأدخل فى هذا الباب تملحاً . . وأكثر من يستعمله : الميكالى ، وقابوس ، وأبو الفتح البُسْتِى ، وأصحابهم ؛ فمن ذلك قوله :

عَارِضَاهُ بمـا جَنَى عارضاه   أَوْ دَعَانِى أَمُتْ بما أَوْدَعَانِى

فقوله « أو دعانى » إنما هى « أو » التى للعطف ، نسق بها « دعانى » وهو أمر الاثنين من « دع » على قوله « عارضاه » الذى فى أول البيت ، وقوله « أودعانى » الذى فى القافية فعل ماض من اثنين ، تقول فى الواحد « أَوْدَعَ يُودِعُ » من الوديعة . وقال أيضاً :

---

(١) انظر (ص ٥٩ من هذا الجزء) ؛ فقد رسمت هذه الكلمة هناك « كلاب » على أنها صفة مبالغة ، وهى الرواية الأخرى ، وفى الديوان « بجحفل غلاب » وهى ترجيح ماضعفه .

وإن أقرّ على رَقّ أناملَهُ   أقرّ بالرقّ كُتّابُ الأنامِ لهُ

إذا وقع فى القافية جاء كالإيطاء

وربما صنعوا مثل هذا فى القوافى فتأتى كالإيطاء وليس بإيطاء إلا فى اللفظ مجازاً ، ولا بتجنيس إلا كذلك . . قال عمر بن على المطوعى :

أميرٌ كله كرمٌ سَعِدْنَا   بأخْذِ المجـدِ منه واقْتِبَاسِهْ

يُحَاكِى النِّيلَ حين يُسَامُ نَيْلا   ويَحكى باسلاً فى وَقْتِ بَاسِهْ

[أراد أن] يناسب فجاء القافيتان كما ترى فى اللفظ ، وليس بينهما فى الخط إلا مجاورة الحروف ، وهذا أسهلُ معنى لمن حاوله ، وأقرب شىء ممن تناوله ، من أبواب الفراغ وقلة الفائدة ، وهو مما لا يُشَكّ فى تكلفه ، وقد أكثر منه هؤلاء الساقة المتعقبون فى نثرهم ونظمهم حتى بردوا ، بل تَدَرَّكُوا ، فأين هذا العمل من قول القائل ، وهو أبو فراس :

سكرتُ من لحظهِ لا من مُدَامته   وَمالَ بالنومِ عن عينى تمايله

وما السلافُ دَهَتْنى بل سَوَالفه   ولا الشّمول زهتنى بل شمائله

ألوى بصبرىَ أَصْدَاغٌ لوِينَ له   وغَلَّ صَدْرِىَ ما تحوى غلائله

فما كان من التجنيس هكذا فهو الجيد المستحسن ، وما ظهرت فيهُ الكلفة فلا فائدة فيه .

وقد يجىء التجنيس على غير قصد كقول أبى الحسن فى مقطعاته التى تردفيا بعد:

ما ترى الساقى كشمسٍ طلعت   تحمل المريخ فى برج الحمـــل

فبهذا التجنيس تم المعنى وظهر حسنه ؛ إذ كان برج الحمل بيت المريخ وموضع شرف الشمس ، فصار بعض الكلام مرتبطاً ببعضه ، ومظهراً لخفى محاسنه ، وحصل التجنيس فضلة على المعنى ؛ لأنه لو قال فى موضع الحمل «النطح»[1]

(١) النطح ـ ومثله الناطح ـ السرطان ، وهما قرنا الحمل . وفى المصرية « النطج » بالجيم ، وهو تصحيف ، والكبش : الحمل ، إذا أثنى ، أو إذا خرجت رباعيته .

أو «الكبش» لكان كلاماً مستقيما ؛ فهذا التجنيس كما ترى من غير تكلف ولا قصد ، ولكن الأكثر أن يكون التجنيس مقصوداً إليه ، مأخوذاً منه ما سامحت فيه القريحة ، وأعان عليه الطبع . .

مما يعده قوم من المضارعة

وقد يعدُّ قوم من المضارعة ما ناسب اللفظة فى الخط فقط ، كقوله تعالى : (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً) وهى مضارعة بعيدة لا يجب أن يعد مثلها . . واختلف الناس فى قول الأعشى :

إنْ تَسُدِ الحُوصَ فلم تَعْدُهُمْ وعَامِرٌ ســـاد بَنِى عَامِرِ

فقال الجرجانى على بن عبد العزيز القاضى : هو مجانسة ؛ لأن أحدهما رجل ، والآخر قبيلة ، وقال غيره : بل معناهما واحد ، وأنا على خلاف رأى الجرجانى لأن الشاعر قال بنى عامر وأضاف بنى إليـه ، ولو قال ساد عامراً يعنى القبيلة لـكان تجنيساً غير مدفوع . قال الجرجانى : وأراه ـ يعنى بيت الأعشى ـ يخالف قول الآخر :

قتلنا به خير الضبيعات كلها ضبيعة قيس لا ضبيعة أضجما

لأن كلتيهما قبيلتان ، فـكأنه جمع بين رجلين متفقى الاسم ، انتهى كلامه ، وهو يشهد بما قلته فى بيت الأعشى إذا حققه من له مَيْزٌ وتدبير . .

التجنيس المضاف (والمزاوج)

وقد ذكروا تجنيساً مضافاً ، أنشده جماعة من المتعقبين منهم الجرجانى :

أيا قمرَ التمام أعنتَ ظالماً علىَّ تَطَولَ الليلِ التِّمَامِ

فهذا عندهم وما جرى مجراه إذا اتصل كان تجنيساً ، وإذا انفصل لم يكن تجنيساً ، وإنما كان يتمكن ما أراد لو أن الشاعر ذكر الليل وأضافه فقال « ليل التمام » كما قال « قمر التمام » والرمانى سمى هـذا النوع مزاوجاً ، ومثله عنده قول الآخر :

حمتنى مياه الوفر منها مواردى فلا تحميانى وِرْدَ ماء العناقد

أمثلة يظن أنها من المزاوجة

ومن المزاوجة عندهم قول الله تعالى: (يُخَادعونَ اللهَ وَهُوَ خادعهُمْ) وقوله : (مَنِ اعْتَدَى عليكم فاعْتَدُوا عليه بمثلِ ما اعتدَى عليكم) وقوله :(إنما نحن مستهزئون الله يستهزىء بهم) وكل هذه استعارات [و] مجاز ؛ لأن المراد المجازاة فزاوج بين اللفظين .

متى كانت تسمية التجنيس ؟

وكان الأصمعى يدفع قول العامة « هذا مجانس لهذا » إذا كان من شكله، يقول : ليس بعربى خالص،حكى ذلك ابن جنى . . . فأما ابن المعتز فقال — وهو أول من نحا هـذا النحو وجمعه — والمجانسة : أن تشبه اللفظةُ اللفظةَ فى تأليف حروفها على السبيل الذى ألف الأصمعى كتاب الأجناس عليها ، قال : والجنس أصل لـكل شىء : تتفرع منه أنواعه ، وتعود كلها إليه ، كالإنسان وهو جنس وأنواعه عربى وروى وزنجى ، وأشباه ذلك ، ولم تـكن القدماء تعرف هذا اللقب — أعنى التجنيس — يدلك على ذلك ما حكى عن رؤبة بن العجاج وأبيه ، وذلك أنه قال له يوماً : أنا أشعر منك ، قال : وكيف تكون أشعر منى وأنا علمتك عطف الرجز ؟ قال : وما عطف الرجز ؟ قال * عاصم يا عاصم لو أعتصم * قال : ياأبت ، أنا شاعر ابن شاعر ، وأنت شاعر ابن معجم[١] ، فغلبه ، فأنت ترى كيف سماه عطفاً ، ولم يسمه تجانسا ، اللهم إلا أن يذهب بالعطف إلى معنى الالتفات فنعم

من أمثلة هذا الباب

ومن أناشيد هذا الباب قول الشنفرى — واسمه عامر[٢] بن عمرو الأزدى :

و بتنا كأن البيت حُجِّرَ فوقنا ... بريحانة ريحت عشاء وظلت

وقال على بن محمد بن نصر بن بسام :

فاشْرَبْ على الوردِ منْ وَرْدِيَّةٍ عتقت ... كأنَّها خــدُّ رِيمٍ رِيمَ فَامْتَنَعا

وقال الفرزدق :

---

(١) ربمـا قرئت « ابن مفحم » .

(٢) فى اسمه خلاف طويل ذكرناه فى شرحنا على ديوان شعره وأخباره .

ألم يأته أنى تخالُ ناقتى بنعمانَ أطرافَ الأراكِ النواعم

وحقيقة المجانسة عند الرمانى المناسبة بمعنى الأصل ، نحو قول أبى تمام:

* فى حدِّه الحدُّ بين الجد واللعب * (١)

قال : لأن معناهما جميعاً أبلغ ، وأما قولك قرب واقترب،والطلوع والمطلع ، وما شاكل هـذا ؛ فهو عنده من تصرف اللفظ ، ولا يعده تجنيساً ، ومن تصرف المعنى عنده قولك: عين الميزان ، وعين الإنسان ، وعين الماء ، ونحو ذلك . . ومن التصرف فى اللفظ والمعنى جميعاً قولك : الضرب والمضاربة والاستضراب ، وما أشبه ذلك ، كل هذه الأنواع عنده من باب التصرف .

وما أكثر ما يستعمل هذا النوع بعض شعراء وقتنا المذكورين ، ويظن أنه قد أتى بشىء من غرائب التجنيس .

وأما قول دعبل فى امرأته سلمى :

أُحِبُّكَ حُبًّا لَوْ تَضَمَّنَهُ سَلْمَى (٢) سَمِيُّكِ ذَاكَ الشَاهِقُ الرَّأْسِ

فقد جنس من غير ذكر جنس ؛ لأن قوله « سميك » دال على مراده .

ومثله قول الآخر :

ضيعتى مثل اسمها العا م ودارى مسترمه

أنشده الرمانى . . وقال الآخر ، وهو أبو تمام :

إذ لا صدوق ولا كَنُودَ اسماها كالمعنيين ولا النوار نوارا

المراد صدر البيت لاعجزه .

التجنيس والطباق

وإذا دخل التجنيسَ نَفْىٌ عُدَّ طباقا ، وكذلك الطباق يصير بالنفى تجنيسا، وسأفرد لهما بابا إن شاء الله تعالى فيما بعد باب الترديد .

(١) صدره * السيف أصدق إنباء مِنَ الكتب *

(٢) يريد به « سلمى » أحد جبلى طيىء .

(٤٤) — باب الترديد

حد الترديد

وهو أن يأتي الشاعر بلفظة متعلقة بمعنى ، ثم يردها بعينها متعلقة بمعنى آخر في البيت نفسه ، أو في قسيم منه ، وذلك نحو قول زهير :

مَنْ يَلْقَ يَوْماً على عِلاّتِهِ هَرِماً يَلْقَ السَّماحةَ مِنْهُ والنَّدَى خُلُقاً

فعلق « يلق » بهرم ، ثم علقها بالسماحة . وكذلك قوله أيضاً :

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَنَلْنَهُ ولَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّماء بِسُلَّمِ

فردد « أسباب » على ما بينت . ولبعض الحجازيين :

ومن لا مني فيهم حَبيبٌ وصاحبٌ فَرُدَّ بِغَيْظٍ صَاحِبٌ وَحَمِيمُ

وقال مجنون بني عامر :

قَضَاهَا لِغَيْرِى وَابْتَلَانى بِحُبِّهَا فَهلاَّ بِشَيْء غَيْرِ لَيْلَى ابْتَلاَنِيَا

وقال أبو تمام :

خفتْ دموعك فى إثر الْقَطِينِ لدن خفت من الكُثُبِ القضبانُ والكُثُبُ

الترديد فى « خفت » ولو جعلت الكثيب ترديدا لجاز . . وقال ابن المعتز

لَوْ شِئْتُ لاَشِئْتُ خَلَّيْتُ السُّلُوَّ لَه وَكَانَ لاَ كَانَ منكم فى مُعَافَاتِى

وقال أيضاً فى مثل ذلك :

أَتَعْذِلُنِى فِى يُوسُفٍ وَهُوَ مَنْ تَرَى وَيُوسُفُ أَضْنَانِى وَيُوسُفُ يُوسُفُ

ولبعضهم — وأظنه الصنوبرى :

أَنْتَ عُذْرِى إِذَا رَأَوْكَ ، ولكن كَيْفَ عُذْرِى إذا رأوك تَخُونُ

الترديد فى قوله « إذا رأوك » . . وقال أبو الطيب وأحسن ما شاء :

أميرٌ أميرٌ عَلَيْهِ النَّدَى جَوَادٌ بَخِيلٌ بأَنْ لاَ يَجُودَا

الترديد فى أول البيت ، وهذا النوع فى أشعار المحدثين أكثر منه فى أشعار القدماء جدا .

والعلماء بالشعر مجمعون على تقديم أبى حية النميرى وتسليم فضيلة هذا الباب إليه فى قوله :

أَلاَ حَىِّ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الْمَغَانِيَا لَبِسْنَ الْبِلَى مِمَّا لَبِسْنَ اللَّيَالِيَا

إذا ما تقاضى المرءُ يوماً وليلة تقاضاه شىء لا يمَلُّ التقاضيا

والترديد الذى انفرد فيه بالإحسان عندهم قوله * لبسن البلى مما لبسن اللياليا * وكذلك قوله * إذا ما تقاضى المرء يوماً وليلة * ثم قال *-تقاضاه شىء لا يمل التقاضيا * لأن الهاء كناية عن المرء ، و إن اختلف اللفظ .

ويلحق بهذا قول أبى نواس :

* لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاء *(١)

وقول الحسين بن الضحاك الخليع :

لَقَدْ مَلأَتْ عَيْنِى بِغُرِّ مَحَاسِنٍ مَلأْنَ فُؤَادِى لَوْعَةً وَهُمُومَا

اقرب ما بين اللفظتين ، وكذلك قول الطائى :

راحٌ إِذَا مَا الرَّاحُ كانَ مَطِيَّها كَانَتْ مَطَايَا الشَّوْقِ فى الأَحْشَاءِ

ردد مطيها ومطايا الشوق . وعلى هذا يحمل قول الجحّاف بن حكيم ، وقيل : العباس بن مرداس :

تعرض للسيوف بكل ثغر وُجُوهاً لا تَعَرَّضُ لِلطِّسَامِ (٢)

---

(١) هــذا عجز بيت له ، وقبله :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء وداونى بالتى كانت هى الداء

صفراء لاتنزل الأكدار ساحتها لومسها . . . .

(٢) الطسام ـ بزنة غراب وسحاب وشداد ورمان ـ كثير الغبار وشديده ، ومراده بذلك أن يكنى عنهم بالتنعم والترفه .

وحمل قوم قول امرىء القيس * فَثَوْباً لبست وثوباً أجُر[1] * على أنه تكرار لا ترديد فيه ، وهذا هو الخطأ البين ، وأى ترديد يكون أحسن من هذا ؟ وقد أفاد الثانى غير إفادة الأول حسب ما شرطوا .

ومثله قول بعض الأعراب فى مدح هارون الرشيد :

جَهِيرُ الكَلاَمِ جَهِيرُ العُطَاسِ جَهِيرُ الرُّواء جَهِيرُ النَّغَمْ

ومن أملح ما سمعته قول ابن العميد :

فإن كانَ مَسْخُوطاً فقل شعر كاتب وإن كانَ مَرْضِيّاً فقل شعر كاتب

وهو داخل عندى فى باب الترديد ؛ إذ كان قوله عند السخط * شعر كاتب * إنما معناه التقصير به ، وبسط العذر له ؛ إذ ليس الشعر من صناعته كما حكى ابن النحاس أنهم يقولون « نحو كتابى » إذا لم يكن مجوداً ، وقوله عند الرضا * شعر كاتب * إنما معناه التعظيم له ، وبلوغ النهاية فى الظرف وللملاحة ؛ لمعرفة الكتاب باختيار الألفاظ وطرق البلاغات ، فقد ضادَّ وطابق فى المعنى ، وإن كان اللفظ تجنيساً مردداً .

وسمع أبو الطيب باستحسان هذا النوع فجعله نصب عينه حتى مَقَّتَهُ وَزَهَّدَ فيه ، ولو لم يكن إلا بقوله :

فَقَلْقَلْتُ بالهمّ الذى قَلْقَلَ الحشا قَلاقِلَ عَيْشٍ كُلّهنّ قَلاقِلُ

فهذه الألفاظ كما قال كلهن قلاقل ، ونحو ذلك قوله :

أُسْدٌ فرائسها الأُسُودُ ، يَقُودُها أَسَدٌ ، تكون له الأُسُودُ ثعالبا

فما أدرى كيف تخلص من هذه الغابة المملوءة أسوداً ؟ ولا أقول إنه بيت شعر ، وأين يقع هذا من قول غيره :

فَصُبْحُ الْوِصَالِ وَلَيْلُ الشَّبابِ وصُبْحُ المشيبِ ولَيْلُ الصُّدُودْ

(١) يروى صدر هذا البيت * فأقبلت زحفا على الركبتين * ويروى صدره * فلما دنوت تسديتها *.

تم – بحمد الله وتوفيقه – الجزء الأول من كتاب « العمدة »
لابن رشيق القيروانى ، و يليه – إن شاء الله تعالى –
الجزء الثانى منه ، وأوله (٤٥ – باب التصدير)
أعان الله تعالى على إكماله ، بمنه وفضله .

فهرس

الجزء الأول من كتاب



في محاسن الشعر ونقده

فهرس الجزء الأول من كتاب

« العمدة ، فى محاسن الشعر ونقده »

لأبى على الحسن بن رشيق ، القيروانى ، الأزدى

تمت — بحمد الله واهب القوى والقدر — فهرست الموضوعات الواردة فى الجزء الأول من كتاب «العمدة ، فى صناعة الشعر ونقده» لابن رشيق القيروانى، مفصلة غاية التفصيل والحمد لله رب العالمين ، وصلاته وسلامه على إمام المتقين ، سيدنا محمد ختام المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .



في محاسن الشعر ، وآدابه ، ونقده

الجزء الثاني

تأليف

أبي علي الحسن بن رَشِيق ، القَيْرَواني ، الأَزْدِيّ

٣٩٠ — ٤٥٦ من الهجرة

حققه ، وفصله ، وعلق حواشيه

محمد محيي الدين عبد الحميد

عفا الله تعالى عنه !

دار الجيل

للنشر والتوزيع والطباعة

بيروت - لبنان

ص. ب. ٨٧٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

٤٥ - باب التصدير

حد التصدير وفائدته

وهو أن يُرَدَّ أعجاز الكلام على صدوره ، فيدل بعضه على بعض ، ويسهل استخراج قوافي الشعر إذا كان كذلك وتقتضيها الصنعة ، ويكسب البيت الذي يكون فيه أبهة ، ويكسوه رونقاً وديباجة ، ويزيده مائية وطلاوة .

أقسام التصدير

وقد قسم هذا البابَ عبدُ الله بن المعتز على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما يوافق آخِرَ كلمة من البيت آخِرُ كلمة من النصف الأول ، نحو قول الشاعر :

يُلْفَى إذا مَا الجَيْشُ كان عَرَمْرَماً ... فى جَيْشِ رأيٍ لا يُفَلُّ عَرَمْرَمِ

الآخر : ما يوافق آخر كلمة من البيت أول كلمة منه ، نحو قوله :

سَريعٌ إلى ابن العمِّ يَشْتِم عِرْضَهُ ... ولَيْسَ إلى دَاعِي النَّدَى بِسَرِيعِ

والثالث : ما وافق آخر كلمة من البيت بعض ما فيه ، كقول الآخر :

عَزِيزُ بَنِي سُلَيم أَقْصَدَتْهُ ... سِهَامُ المَوْتِ وَهْيَ لهُ سِهَامُ

الفرق بين التصدير والترديد

والتصدير قريب من الترديد ، والفرق بينهما أن التصدير مخصوص بالقوافي تُرَدُّ على الصدور ، فلا تجد تصديراً إلا كذلك حيث وقع من كتب المؤلفين ، وإن لم يذكروا فيه فرقاً ، والترديد يقع فى أضعاف البيت ، إلا ما ناسب بيت ابن العميد المقدم .

أمثلة التصدير

ومن أبيات التصدير قول زهير :

كذَلِكَ خِيمُهُمْ ، ولِكُلِّ قَوْمٍ ... إذا مَسَّتْهُمُ الضَّرَّاء خِيمُ

وقال أيضاً فى ذلك :

لهُ فى الذَّاهِبِينَ أُرُومُ صِدْقٍ ... وكانَ لِكُلِّ ذِى حَسَبٍ أُرومُ

وقال أبو الأسود ـ واسمه ظالم بن عمرو بن سُفيان الدؤلى ـ :

وما كُلُّ ذِى لُبٍّ بمؤتيك نُصْحَهُ   وما كل مــؤتٍ نصحه بلبيب

فهذا تصدير ، وإن كان ظاهره فى اللفظ ترديداً للعلة التى ذكرتها .

ومن أناشيدهم فى التصدير قول طُفَيْل الغَنَوِى:

مَحَارِمَكَ أمْنَعْها منَ القوم ؛ إنَّنى   أرَى جَفْنَةً قَدْ ضَاعَ فيها المَحَارِمُ

وقال جرير وهم يستحسنونه جداً :

سَقَى الرملَ جَوْنٌ مُسْتَهِلٌّ رَبَابُهُ   وما ذَاكَ إلاَّ حُبُّ مَنْ حَلَّ بالرَّمْلِ

وقال عمرو بن أحمر :

تغمَّرْتُ منها بعد ما نفــد الصبا   وَلَمْ يَرْوَ مِنْ ذِى حَاجَة مَنْ تَغمَّرا

« تغمرت » أى : شربت من الغَمْر ، وهو قَدَح صغير جداً ، ضربه مثلا ، أى : تعللت منها بالشىء القليل ، وذلك لا يبلغ مافى نفسى منك من المراد .

من التصدير المضادة

ومن التصدير نوع سماه عبد الكريم المضادة ، وأنشد للفرزدق :

أَصْدِرْ هُمُومَكَ لاَ يَغْلِبْكَ وَارِدُهَا   فَكُلُّ وَارِدَةٍ يَوْماً لهَا صَــدَرُ

وأنشد فى التصدير بيت طفيل المتقدم ، وبيت جرير ، وخص بيت الفرزدق بالمضادة دون أن يجعله تصديراً كما جعله أولا طِبَاقاً كما يقال فى الأضداد إذا وقعت فى الشعر ، وقد رأيته فى إحدى النسخ مع أبيات المطابقة [1]

ويقاربه من كلام المحدثين قول ابن الرومى :

رَيْحَانُهمْ ذَهَبٌ عَلَى دُرَرٍ   وشَرَابُهُمْ دُرَرٌ عَلَى ذَهَبِ

والكتّاب يسمون هذا النوع التبديل ، حكاه أبو جعفر النحاس .

ومن أناشيد ابن المعتز قول منصور بن الفرج فى ذكر الشيب :

يا بيَاضا أذْرَى دموعى حتى   عاد منها سوادُ عينى بياضا

وأنشد لأبى نواس ، وهو عندى بعيدمن إحكام الصنعة التى يدخل بها فى هذا الباب ، على أنه غاية فى ذاته ؛ لأن أكثر العادة أن تعاد اللفظة بنفسها :

دَقَّتْ وَرَقَّتْ مَذقةٌ من مائها وَالْعَيْشُ بين رقيقتين رقيقُ

وأنشد لمسلم بن الوليد :

تَبَسَّمُ عن مِثْل الأقاحِ تَبَسَّمَتْ له مُزْنَةٌ صَيْفِيَّةٌ فتبسَّمَا

وهذا البيت أيضاً ترديد ، وأنشد للطائى :

ولم يحفظ مُضَاعَ المجدِ شَىْءٌ من الأشياء كالمَالِ المُضَاعِ

فالمولدون أكثر عناية بهذه الأشياء ، وأشد طلباً لها من القدماء ، وهى فى أشعارهم أوجد كما قدَّمت آنفاً .

٤٦ — باب المطابقة

حد المطابقة

[المطابقة فى الكلام : أن يأتلف فى معناه مايضاد فى فحواه[1]] المطابقة عند جميع الناس : جَمْعُكَ بين الضدين فى الكلام أو بيت شعر ، إلا قدامة ومن اتبعه ؛ فإنهم يجعلون اجتماع المعنيين فى لفظةواحدةمكررةطباقا ، وقد تقدم الكلام فى باب التجانس ، وسمى قدامة هذا النوع — الذى هو المطابقة عندنا — التكافؤ ، وليس بطباق عنده إلا ما قدَّمتُ ذكره ، ولم يُسَمِّه التكافؤ أحد غيره وغير النحاس مِنْ جميع مَنْ علمته .

---

(١) هـذه العبارة زيادة فى المصريتين ، وقد كتب بحاشيتهما « سقطت هـذه الجملة من بعض النسخ ، وكأنها من منهيات المؤلف على حاشية نسخته فأدخلها بعض النساخ فى جملة الكتاب وسيأتى مثل هذا فى أبواب أخر » اهـ والصواب عدم إثباتها ، وذلك ظاهر كل الظهور لمن يلتفت إلى ما بعدها ، وانظر ص ١٥ من هذا الجزء

قال الخليل بن أحمد :يقال «طابقت بين الشيئين» إذا جمعت بينهما على حَذْوٍ واحد وألصقتهما .

وذكر الأصمعى المطابقة فى الشعر فقال : أصلها وضع الرِّجْلِ فى موضع اليد فى مشى ذوات الأربع ، وأنشد لنابغة بنى جَعْدة :

وَخَيْلٍ يُطَابِقْنَ بالدَّارِعِينَ طِبَاقَ الْكِلَابِ يَطَأْنَ الهراسَا

ثم قال : أحسن بيت قيل لزهير فى ذلك :

لَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ الرِّجالَ ، إذا مَا اللَّيْثُ كَذَّبَ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا

حكى ذلك ابن دريد عن أبى حاتم عنه .

وأما على بن سليمان الأخفش فاختار قول ابن الزَّبِير الأسدى :

رَمَى الْحِدْثَانُ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ بِمِقْدَارٍ سَمَدْنَ لَهُ سُمُودَا

فَرَدَّ شُعُورَهُنَّ السُّودَ بِيضاً وَرَدَّ وُجُوهَهُنَّ الْبِيضَ سُودا

وهذا من التبديل على مذاهب الكتاب ، واختار أيضا قول طُفَيْل الغَنَوِى :

بِسَاهِمِ الوجهِ لم تُقْطَعِ أباجِلُه يُصَانُ وَهْوَ ليوم الرَّوْعِ مَبْذُولُ [1]

حكاه الحاتمى عن أبى الفرج على بن الحسن القرشى . .

وقال الرمانى : المطابقة : مُسَاواة المقدار من غير زيادة ولا نقصان .

---

(١) فى المصريتين « بشاهم الوجه » بالشين معجمة ، وهو تصحيف ، ويقال : فرس ساهم الوجه ، إذا كان محمولا على كريهة الجرى ، وقال عنترة :

والخيل ساهمة الوجوه كأنما سقيت فوارسها نقيع الحنظل

والأباجل : جمع أبجل ، وهو عرق ، وهو من الفرس والبعير بمنزلة الأكحل من الإنسان .

رد الحدود بعضها إلى بعض

قال صاحب الكتاب : هذا أحسن قول سمعته فى المطابقة من غيره ، وأجمعه لفائدة ، وهو مشتمل على أقوال الفريقين وقُدَامة جميعاً ، وأما قول الخليل « إذا جمعت بينهما على حَذْوٍ واحد وألصقتهما » فهو مساواة المقدار من غير زيادة ولا نقصان كما قال الرمانى ، يشهد بذلك قول لبيد :

تعاورن الحديثَ وطبقنه كما طبقتَ بالنعلِ المثالا

ومنه « طَبَّقْتُ المفصل » أى : أصبته فلم أزد فى العضو شيئاً ولم أنقص منه . . وكذلك قول الأصمعى « أصلها من وضع الرجل موضع اليد فى مشى ذوات الأربع » هو مساواة المقدار أيضاً ؛ لأن من ذوات الأربع ما تجاوز رجله موضع يده ، ومنها ما يطابق كما قال خِلْقة ، وربما كان طباقها من ثقل تحمله أو شكيمة تمنعها أو شىء تتقيه على أنفسها ، ولذلك شبه النابغة الجعدى مشى الخيل بوَطْء الكلاب الهراس ، وهو حُطَام الشَّوْك ؛ فهى لا تضع أرجلها إلا حيث رفعت منه أيديها طلباً للسلامة .

وأما قول قدامة فى المطابق « هو ما اشترك فى لفظة واحدة بعينها » فإنه أيضاً مساواة لفظ للفظ ، وهى — أعنى المساواة — على رأى الخليل والأصمعى مساواة معنًى لمعنًى ، وقد يكون المراد أيضاً مطابقة اللفظ للمعنى ، أى : موافقته ، ألا ترى أنهم يقولون : « فلان يطابق فلاناً على كذا » إذا وافقه عليه وساعده فيه ؛ فيكون مذهب قدامة أن اللفظة وافقت معنى ، ثم وافقت بعينها معنى آخر ، ويصح هذا أيضاً فى قول الخليل فى الطباق « إنه جمعك بين الشيئين على حذو واحد » فيكون الشيئان المعنيين ، والحذو الواحد : اللفظة .

أمثلة من المطابقة

ومن مليح ما رأيته فى المطابقة قولُ كُثَيِّرِ بن عبد الرحمن يصف عيناً :

وَعَنْ نَجْلَاءَ تَدْمَعُ فِى بَيَاضٍ إِذَا دَمَعَتْ ، وَتَنْظُرُ فِى سَوَادِ

وقال أيضاً :

وَوَاللهِ مَا قارَبْتُ إلاَّ تَبَاعَدَتْ بصَرْمٍ،ولاَ أَكْثَرْتُ إلاَّ أَقَلَّتِ

وقال ابن المعتز ، ويروى لابن المُعَذَّل :

هَوَايَ هَوًى بَاطِنٌ ظَاهِرٌ قَدِيمٌ حَدِيثٌ لَطِيفٌ جَلِيلْ

ولبعض الأعراب :

أَمُؤْثِرَةُ الرِّجَالِ عَلَيَّ لَيْلَى وَلَمْ أُوثِرْ عَلَى لَيْلَى النساَء

وقال أعرابى : الدراهم مياسم تَسِمُ حمداً أو ذماً ، فمن حَبَسها كان لها ، ومن أنفقها كانت له ، ونظم الشاعر هذا الكلام فقال :

أَنْتَ لِلْمَالِ إذا أَمْسَكْتَهُ فإذا أَنْفَقْتَهُ فالمَالُ لَكْ

ومن الطباق الحسن قول أعرابى : خرجنا حُفَاة حين انتعل كل شىء ظِلَّه ، وما زادُنا إلا التوكل ، وما مطايانا إلا الأرجل ، حتى لحقنا بالقوم .

وقال آخر لصاحبه : إن يَسَار النفس أفضل من يسار المال ، فإن لم ترزق غنى فلا تحرم تقوى ، فربشَبْعَان من النعم غَرْثَان من الكرم ؛ واعلم أن المؤمن على خير ترحّب به الأرض وتستبشر به السماء ، ولن يُسَاء إليه فى بطنها وقد أحسن على ظهرها . . ولربيعة بن مَقْرُوم الضَّبى :

فَدَعَوْا نَزَالِ فَكُنْتُ أَوَّلَ نازِلٍ وعلامَ أَرْكَبُهُ إذا لم أنزلِ

ومن أفضل كلام البشر قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض خطبه « فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الممات ؛ فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، وما بعد الدنيا دار ، إلا الجنة أو النار » فهذا هو المعجز الذى لا تكلف فيه ولا مطمع فى الإتيان بمثله . وقال الله عز من قائل : (وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحَرُور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات)

وعد ابن المعتز من المطابقة قول الله عز وجل : (ولكم فى القصاص حياة) لأن معناه : « القتل انفى للقتل » فصار القتل سبب الحياة ، وهذا من أملح الطباق وأخفاه .

ومما استغرب به الجرجانى من الطباق واستلطفه قول الطائى :

مَها الْوَحْشِ إلاَّ أنَّ هَاتا أَوانسٌ قنا الخطِّ إلاَّ أنَّ تلكَ ذَوَابِلُ

لمطابقته بهاتا وتلك ، وإحداهما للحاضر والأخرى للغائب ، فكانتا فى المعنى نقيضتين وبمنزلة الضدين ، هذا قوله ، وليس عندى بمحقق ؛ إنما إحداهما للقريب والأخرى للبعيد المشار إليه ، ولكن الرجل أراد التخلص فزل فى العبارة .

ومثل هذا عندى فى بابه قولُ أبى الطيب يذكر خيل العدو الزاحف للحرب :

ضَرَبْنَ إلينا بالسِّيَاطِ جهالةً فلما تعارفنا ضربنَ بها عنا

فقوله « ضربن إلينا » مجىء إقدام ، وقوله « ضربن بها عنا » ذهاب فرار ، وهما ضدان .

ومن أنواع الطباق قول هُدْبَةَ بن خَشْرَم :

فإنْ تقتلونا فى الحديدِ فإننا قتلنا أخاكُمْ مُطْلقاً لم يُكَبَّلِ

فقوله « فى الحديد » ضد قوله « مطلقاً لم يكبل » وإن لم يأت على متعارف المضادة ، وكذلك قوله :

فإن يكُ أنفِى زَالَ عَنِّى جَمَالُهُ فما حَسَبِى فى الصالحينَ بأَجْدَعَا

كأنه قال : « وإن يك أنفى أجدع فما حسبى بأجدع » .

مما يظن من المطابق وليس منه

قال الجرجانى : وقد يخلط من تقصر علمه ويسوء تمييزه بالمطابق ما ليس منه ، كقول كعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه :

لقد كان أمَّا حلمه فمروحٌ علينا ، وأما جهله فعَزِيبُ

لما رأى الحلم والجهل ووجد مروحاً وعزيباً جعلهما فى هذه الجملة ، ولو ألحقنا

ذلك بها لوجب أن يلحق أكثر أصناف التقسيم ، ولاتّسعَ الخرق فيه حتى يستغرق أكثر الكلام .

قال صاحب الكتاب : معنى قوله فيما أنكر أن البيت إنما حقه أن يكون فى باب المقابلة ؛ لمقابلة الشاعر فيه كلمتين بكلمتين تقربان من مضادتهما ، وليستا بضدين على الحقيقة ، ولو كانتا ضدين لم يكن ما زاد على لفظتين متضادتين أو مختلفتين إلا مقابلة ، فإن لم يكن بين الألفاظ مناسبة البتة إلا الوزن سمى موازنة، وسأذكره فى باب المقابلة إن شاء الله ، هكذا جرت العادة فى هذه التسمية .

وأما قولنا «إن الكلمتين غير متفاوتتين» فظاهر ؛ لأن الحلم ليس ضده فى الحقيقة الجهل ، وإنما ضده السفه والطيش ، وضد الجهل العلم والمعرفة وما شاكلهما ، وكذلك المروح ليس ضده العزيب ، وإنما ضده المغدو به أو المبكر به ، وما أشبههما ولما ثقل وزن المروح من هاتين اللفظتين وقلّ استعماله تسمحت فيهما ، وأما العزيب فهو البعيد والغائب ، ولا مضادة بينه و بين المروح إلا بعيدة ، كأنه يقول: إن هذا يأتى لوقته وذلك بعيد خفى لا يأتى ولا يعرف ، على أنا نجد أبا تمام إمام الصنعة قد قال :

ولقد سَلَوْتُ لَوَ اَنَّ دَاراً لم تَلُحْ وَحَلُمْتُ لو أنَّ الهوى لم يجْهَلِ

وقال زهير ، وزعموا أنه لأوس بن حَجَر :

إذا أنتَ لم تعرضْ عن الجهل والخَنَا أصَبْتَ حَلِيماً أوْ أصَابَكَ جَاهِلُ

لما وجده خلافاً له طابق بينهما كما يفعل بالضد ، وإن كان الخلاف مقصراً عن رتبة الضد فى المباعدة ، والناس متفقون على أن جميع المخلوقات : مخالف ، وموافق ، ومضاد ، فمتى وقع الخلاف فى باب المطابقة فإنما هو على معنى المسامحة وطرح الكلفة والمشقة ، وأنشد غير واحد من العلماء لحسين بن مَطِير :

من أمثلة المطابقة أيضا

بِسُودٍ نَوَاصِيهَا وحُمْرٍ أكُفُّهَا وصُفْرٍ تَرَاقِيها وَبِيضٍ خُدُودُهَا

ورواه ابن الأعرابى فى نسق أبيات :

بصــــفر تراقيها وحمر أكفها وسود نواصيها وبيض خدودها

وهذه الرواية أدخل فى الصنعة ، وقال الرمانى وغيره : السواد والبياض ضدان ، وسائر الألوان يضاد كل واحد منها صاحبه ، إلا أن البياض هو ضد السواد على الحقيقة ؛ إذ كان كل واحد منهما كلما قوى زاد بعداً من صاحبه ، وما بينهما من الألوان كلما قوى زاد قرباً من السواد ، فإن ضعف زاد قرباً من البياض ، وأيضاً فلأن البياض منصبغ لا يَصْبِـغ ، والسواد صابغ لا منصبغ ، وليس سائر الألوان كذلك ؛ لأنها كلها تصبغ وتنصبغ ، انقضى كلامهم ، وهو بين ظاهر لا يخفى على أحد ، و إنما أوردته إبطالا لزعم من زعم أن أفضل مطابقة وقعت قولُ عمرو بن كلثوم :

بأنا نُورِدُ الرَّايَاتِ بيضاً ونُصْدِرُهُنَّ حُمْراً قَدْرَوِينَا

من شعر أبى الحسن فى الطباق

ومن أخف الطباق روحاً ، وأقله كلفة ، وأرسخه فى السمع ، وأعلقه فى القلب ؛ قول السيد أبى الحسن فى قصيدة :

ألا لَيْتَ أياماً مَضى لى نعيمُها تَكَرُّ علينا بالوصـال فننعم
وصفراءَ تحكى الشمسَ من عهد قيصر يتُوقُ إليهـا كلُّ مَنْ يتكرم
إذا مُزِجَتْ فى الكأس خِلْتَ لآلئاً تنثر فى حافاتهـــا وتنظم
جمعنا بها الأشتاتَ مِنْ كل لذة على أنه لم يغش فى ذاك محرم

فطابق بين « تنثر وتنظم » و بين « جمعنا والأشتات » أسهل طباق وألطفه من غير تعمل ولا استكراه ، وأتى فى البيت الأول من قوله « مضى وَتكر » بأخفى مطابقة ، وَأظرف صنعة على مذهب من انتحله .

أمثلة مما يغلط فيه الناس

ومما يغلط فيه الناس كثيراً فى هذا الباب الجمال والقبح كقول بعض المحدثين .

وَجْهُهُ غايةُ الجمال ، ولكن فعله غايةٌ لكلِّ قبيح

وليس ضده ، وإنما ضده الدَّمامة ، والقبح ضده الحسن . وقال الصُّولِىُّ أبو بكر يصف قلما :

ناحل الجسم ، ليس يعرف مذ كا ن نعيما ، وليس يعرفُ ضراً

وليس بينهما مضادة . وإنما ضد النعيم البؤس ، فأما قول أبى الطيب :

فالسِّلْمُ تَكْسِرُ من جناحىْ مَالِهِ بنَوَاله مَا تَجْبُرُ الْهيْجاء

فإنه داخل فى الطباق المحض ؛ لأن المراد بالهيجاء الحرب ، وهى اسم من أسمائها ، فكأنه قال الحرب ، فأتى بضد السلم حقيقة .

(٤٧) — باب ما اختلط فيه التجنيس بالمطابقة

أسباب اختلاطهما

من ذلك أن يقع فى الكلام شىء مما يستعمل للضدين : كقولهم « جَلَلٌ » بمعنى صغير ، و « جلل » بمعنى عظيم ؛ فإن باطنه مطابقة ، وإن كان ظاهره تجنيساً ، وكذلك « الْجَوْنُ » الأبيض ، و « الجون » الأسود ، وما أشبه ذلك وكذلك إن دخل النفى كما قدمت ، قال البحترى :

يقَيض لى من حيث لا أعلم الهوى ويَسْرِى إلىَّ الشوقُ من حيث أعلم

فهذا مجانس فى ظاهره ، وهو فى باطنه مطابق ؛ لأن قوله « لا أعلم » كقوله أجهل ، ومثل ذلك قول الآخر :

لعمرى لئن طالَ الفضَيْلُ بنُ دَيسم مع الظل ما إنْ رَأْيُهُ بطويل

كأنه قال : إنَّ رأيه قصير ، وقد جاء فى القرآن : (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) فأما قول الفرزدق :

لعمرى لئنْ قلّ الحصى فى عديدِكم بنى نَهْشَلٍ ما لؤمكم بقليـــل

ظاهرهُ تجنيس بالقلة ، و باطنه تطبيق بالـكثرة ؛ إذ كان معنى « قل الحصى فى عديدكم » أنـكم كثير ، ومعنى « مالؤمكم بقليل » أنه كثير أيضاً ، فخالف الأول ، وقد قال جلهمة بن أد بن مالك ــ وهو طيء ــ لولده فى وصية « ولا تـكونوا كالجراد ، أ كَلَ ما وَجَد وأكله ما وجده » فهذا مجانس الظاهر مطابق الباطن ، ومما أنشده ثعلب :

أبَى حُبِّ سُلَيْمَى أنْ يَبيدَا وأمْسَى حَبْلُها خَلَقاً جَدِيدا

الجديد ههنا : المجدود ، وهو المقطوع ، مثل قتيل وهز يل بمعنى مقتول [ومهزول]، كأنه قال مجدوداً ، أي : مقطوعا ، فليس بمطابق ، و إن كان كذلك فى الظاهر عند من لا يميز ، فأما المميز فيعلم أنه لا يكون خَلَقاً جديداً فى حال :

وقال العتابى يعاتب المأمون وقد حجب عنه وكان به حَفيا :

تَضْرِبُ النَاسَ بالمُهَنَّدَةِ البيضِ عَلى غَدْرِهِم وَتنْسَى الْوَفاء

فأتى بالغدر والوفاء جميعاً ، وهما ضدان ، فطابق بينهما فى الظاهر ، و باطن كلامه مجانس ؛ لأن قوله « وتنسى الوفاء » كقوله تغدر .

وقال جرير أيضاً :

أتَصْحُو أمْ فؤَادكَ غَـيْرُ صَاحِ[1]

فقوله « غير صاح » نقيض « أتصحو » لولا أنه استفهام لم تعلم حقيقة محصوله بعد ، إلا على مذهب مَنْ جعل « أم » بمعنى « بل » فـكأنه قال لنفسه : بل فؤادك غير صاح ، فناقص الصحو ، ودخل كلامه فى المطابقة . . وقال قَيْسُ بن الخَطِيم ، و يروى لعدى:

---

(١) تمامه * عشية هم صحبك بالرواح * وقد تـكرر فى هذا الـكتاب ذكر صدر هـذا البيت (انظر الجزء الأول ص ١٩) .

وإنى لأغنَى النَّاسِ عن مُتَكلِّفٍ يرى النَّاسَ ضُلَّالاً وليس بمهتدى

كأنه قال «وهو ضال» فجانس فى الباطن ، وإن كان قد طابق فى الظاهر.

ومن هذا الباب قولك فاعل ومفعول ، نحو « خالق ومخلوق » و « طالب ومطلوب » هما ضدان فى المعنى ، وإن تجانسا فى اللفظ ، وكذلك ما كان اسم الفاعل منه مُفْعِل[1] والمفعول مُفْعَل نحو « مكرِمٍ ومكرَمٍ » و « مُعْطٍ[2] ومُعْطًى » وما جرى هذا المجرى أو زاد عليه فى البناء ، وأما قولك « قضيت واقتضيت » فظاهره تجنيس وباطنه طباق ، إلا أنه طباق غير محض ، وكذلك قولك « أخذتُ وأعطيت » ؛ لأن الأخذ ضده الترك ، والإعطاء ضده المنع ، فهذا مما يظنه مَنْ لا يحسن طباقا وليس كما ظن ، ولكنه كثر جداً فى الكلام ، واستعمله الناس ، كما تقدم من قولنا فى الحلم والجهل والجمال والقبح .

ومما ظاهره تجنيس وباطنه طباق الوعد والوعيد كما قال الشاعر[3] :

وإنى وإن أوْعَدْتُهُ أو وَعَدْتُه لمخلفُ إيعادِى ومُنْجِزُ مَوْعِدى

وأول ما يعتد به فى هذا الباب قولُ امرىء القيس :

فإن تَدْفِنُوا الداء لا نُخْفِهِ وإن تبعثوا الحربَ لا نقعد

ويروى * فإن تكتموا الداء لانخفه * وقوله « لانخفه » أى : لنبده من

---

(١) فى المصريتين « اسم الفاعل منه مفعول » وهو واضح الخطأ .

(٢) فى المصريتين « معطى ومعطى » بإثبات الياء فى الكلمتين ، والأول اسم فاعل والثانية اسم مفعول ، والصواب حذف الياء من الأول ما لم تقترن بأل كالمعطى أو يضاف كمعطى الدنانير أو يكون فى موضع نصب نحو اللهم أعط معطيا خلفا .

(٣) البيت لعامر بن الطفيل ، وقد روى فى ديوانه (ص ١٥٥ طبع أوربة) هكذا :

وإنى إن أوعدته أو وعدته لأخلف إيعادى وأنجز موعدى

قوله تعالى : (أكاد أخفيها) فكأن الشاعر قال : إن تدفنوا الداء ندعه دفيناً أو قال : إن تكتموا الداء نكتمه ، وكذلك قوله « لا نقعد » كأنه قال : إن تبعثوا الحرب نبعثها ، ومن كلام السيد أبى الحسن:

وأعلم أنَّ المجـد شَىْءٌ مخلدٌ وأن الفتى والمالَ غيرُ مخلد

والبيت من قصيدة شريفة أولها :

صَحَا الْقَلْبُ عن سُعْدَى وعن أم مَعْبد ولم يَشْجُنِى نَوْحُ الحمـامِ المُغَرِّدِ

(٤٨) — باب المقابلة

حد المقابلة

[المقابلة : مواجهة اللفظ بما يستحقه فى الحكم ، هذا حد ما اتضح عندى[(١)]] المقابلة : بين التقسيم والطباق ، وهى تتصرف فى أنواع كثيرة ، وأصلها ترتيب الكلام على ما يجب ؛ فيعطى أول الكلام ما يليق به أولا ، وآخره ما يليق به آخراً ، ويأتى فى الموافق بما يوافقه ، وفى المخالف بما يخالفه .

أكثر ما تجىء فيه المقابلة

وأكثر ما تجىء المقابلة فى الأضداد ، فإذا جاوز الطباق ضدين كان مقابلة مثال ذلك ما أنشده قدامة لبعض الشعراء ، وهو :

فَيَا عَجَباً كَيْفَ اتَّفَقْنَا ؛ فَنَاصِحٌ وَفِىٌّ ، ومَطْوِىٌّ عَلَى الغِلِّ غَادِرُ ؟

فقابل بين النصح والوفاء بالغل والغدر ، وهكذا يجب أن تكون المقابلة الصحيحة ، لكن قدامة لم يبال بالتقديم والتأخير فى هذا الباب ، وأنشد للطِّرِمَّاح :

أَسَرْنَاهُمْ وأَنْعَمْنَا عليهم وأسقينا دِمَاءَهُمُ التُّرَابَا

---

(١) هذه العبارة زائدة فى المصريتين ، وقد كتب على حواشيهما : « ليس لهذه الجملة أثر فى بعض نسخ الكتاب » ا هـ وقد سبق التنبيه إلى مثل هذه العبارة فى ص ٥ من هذا الجزء .

فما صبروا لبأسٍ عند حربٍ ولا أدَّوْا لحسنِ يدٍ ثَوَابَا

فقدم ذكر الإنعام على المأسورين ، وأخر ذكر القتل فى البيت الأول ؛ وأتى فى البيت الثانى بعكس الترتيب ، وذلك أنه قدم ذكر الصبر عند بأس الحرب وأخر ذكر الثواب على حسن اليد ، اللهم إلا أن يريد بقوله * فما صبروا لبأس عند حرب * القوم المأسورين إذ[1] لم يقاتلوا حتى يقتلوا دون الأسر وإعطاء اليد ؛ فإن المقابلة حينئذ تصح وتترتب على ما شرطنا ، وهذه عندهم تسمى مقابلة الاستحقاق ، ويقرب منها قول أبى الطيب :

مقابلة الاستحقاق

* وَفِعْلُهُ مَا تُرِيدُ الـكَفُّ والْقَدَمُ[2] *

لأن الكف من اليد بمنزلة القدم من الرجل ، فبينهما مناسبة وليست مضادة ، ولو طلبت المضادة لـكان الرأس أو الناصية أولى ، كما قال تعالى : (فيؤخذُ بالنواصى والأقدام) .

من أمثلة المقابلة

ومن أناشيد المقابلة قول النابغة الجعدى :

فَتًى تَمَّ فيـــه ما يَسُرُّ صَدِيقَهُ على أنَّ فيه ما يَسُوء الأعاديا

فقابل يسر بيسوء وصديقه بالأعادى ، وهذا جيد ؛ ولو كان كل مقابل على وزن مقابله فى هذا البيت والبيت الذى أنشده قدامة أولا لـكان أجود . .

وقال عمرو بن معدى كرب الزبيدى :

ويبقى بعد حلم القومِ حِلمى ويفنى قبل زادِ القومِ زادِى

فقال « يبقى بعد » ثم قال « يفنى قبل » فهذا كما أردنا .

وقال الفرزدق :

وأنا لنمضى بالأكُفِّ رماحنا إذا أرعشت أيديكم بالمعالق

(١) فى المصريتين « إن » ونراه تصحيفا .

(٢) صدره * رجلاه فى الركض رجل واليدان يد * يصف جواده بأنه يرفع رجليه معا فهما كرجل واحدة ويديه معا فهما كيد واحدة .

أشعر بيت قالته العرب

سأل أبو جعفر المنصور أبا دُلَامَةَ فقال : أىُّ بيتٍ قالته العرب أشعر؟ قال : بيت يلعب به الصبيان ، قال : وما هو ذلك ؟ قال : قول الشاعر :

ما أحسنَ الدينَ والدنيا إذا اجتمعا … وأقبحَ الكفرَ والإفلاسَ بالرجل

أمثلة من المقابلة

وقال يزيد بن محمد المهلبى ، يقوله لسليمان بن وهب :

فمن كان للآثامِ والذلِّ أرضُهُ … فأرضُكُمُ للأجرِ والعزِّ مَعْقِلُ

وقال فى التغزل :

إن تغيبى عنى فسَقْياً ورَعْياً … أو تَحُلِّى فينا فأَهْلاً وسَهْلاً

والمعجز قولُ الله تعالى : (ومن رحمته جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مُبْصِراً ولتبتغوا من فضله) فقابل الليل بالسكون ، والنهار بابتغاء الفضل ، وجعل بعضُ المفسرين الليل والنهار بمعنى الزمان ، والأول أعجب إلى ، وقال تعالى : (وإنا أو إياكم لعلى هدًى أو فى ضلال مبين) .

من جيد المقابلة

ومن جيد المقابلة قول بكر بن النَّطَّاح الحنفى :

أذْكِى وأُوقِدُ للعداوةِ والقِرَى … نارَيْنِ نارَ وَغًى ونار زِناد

وكذلك قوله :

لباسى حُسَامٌ أوْ إزَارٌ مُعَصْفَرٌ … ودِرْعٌ حَدِيدٌ أو قميصٌ مُخَلَّق

إلا أنه لو كان الإزار رداء كان أجود ، لاسيما والسيف يسمى رداء ، ولكنا هكذا رويناه .

من خفى المقابلة

ومن خفى المقابلة والقسمة قول العباس بن الأحنف وأحْسَنَ ما شاء :

اليومُ مثلُ الحَوْل حتى أرى … وَجْهَكِ ، والساعةُ كالشهر

وهذا مليح ؛ لأن الساعة من اليوم كالشهر من الحول جزء من اثنى عشر .

وقال محمد بن أحمد العلوى :

لا تؤخِّرْ عنى الجوابَ فيومى … مثل دهر ، وساعتى مثل شهر

فلم يصنع شيئاً ، وكان يمكنه أن يجعل مكان دهر حولا ؛ فتكون قسمة مستوية ، ولكنا هكذا رويناه .

من جيد المقابلة في المنثور

ومن جيد ما وقع في المنثور من المقابلة قول بعض الكتاب «فإن أهل الرأى والنصح لايساويهم ذوو الأفْنِ والغِشّ ، وليس من يجمع إلى الكفاية الأمانة كمن أضاف إلى العجز الخيانة » ومن كلام إبراهيم بن هلال الصابى « وأعَدَّ لمحسنهم جنة وثوابا ، ولمسيئهم ناراً وعقابا » .

وقال أبو الفتح محمود بن حسين كُشاجِم :

تريكَ الحسنَ والإحسانَ وقفا إذا بَرَزَتْ لنا وإذا تَغِيبُ

مما عيب من المقابلة

ومما عابه الجرجانى على ابن المعتز :

بَيَاضٌ في جوانبهِ احمرارٌ كما احمرت من الخجل الخدودُ

لأن الخدود متوسطة وليست جوانب ؛ فهذا من سوء المقابلة ، وإن عده الجرجانى غلطاً فى التشبيه ، وإنما العلة فى كونه غلطاً ما ذكرناه . .

ومن المأخوذ المَعيبِ عندى قولُ الكميت يخاطب قضاعة :

رأيتكم من مالكٍ وادعائه كرائمةِ الأولادِ من عَدَمِ النسل

فوقع تشبيهه على الادعاء والرِّئْمَان خاصة ، لا على صحة المقابلة فى الشبهين ؛ لأن هؤلاء — فيما زعم — يدعون أبا ، والرائمة تدعى ولداً ، وهما ضدان .

والصواب قول الآخر يهجو كاتباً ، أنشده الجاحظ :

حِمَارٌ فى الكتابةِ يَدَّعيها كدَعْوَى آلِ حربٍ فى زياد

وقال أبو نواس :

أرى الفضـــل للدنيا وللدين جامعاً كما السهمُ فيه الفُوقُ والرِّيشُ والنَّصْلُ

فزاد فى المقابلة قسما ؛ لأنه قابل اثنين بثلاثة .

وكذلك قول أبى قيس ابن الأسْلَتِ :

الحزمُ والقوةُ خيرٌ من الـــــإدهان والفَكَّةِ والهَاع

فقابل الحزم بالإدهان ، والقوة بالفكة — وهى الضعف — ويروى « الفهة » وهى العى ، وزاد الهاع ، وهو الجبن والخفة .

ومما سقط فيه عبد الكريم من جهة المقابلة وإن كان تمثيلا وتشبيها قوله يمدح نزار بن معد صاحب مصر :

إلى ملكٍ بين الملوك و بينه مسافةُ ما بين الكواكب والتُّربِ

لأنه لما أتى بالملوك أولا و بضمير الممدوح ـ وهو الهاء التى فى « بينه » ـ بعد ذلك ، ثم أتى بالكواكب وهى جماعة تقابل الملوك و بالترب وهو واحد يقابل الضمير باتحاده ؛ أوجب له بهذا الترتيب أن يكون هو الترب ، وتكون الملوك هم الكواكب ، ولم يرد إلا أن يجعله موضع الكواكب ، و يجعلهم موضع الترب ، ولكن حكم عليه ما حكم على ابن المعتز الذى إليه انتهى التشبيه وسر صناعة الشعر . . ويدلك على صحة ما طلبته به قولُ امرىء القيس بن حُجْر :

كأنَّ قلوبَ الطير رَطْبًا ويابسًا لدى وكرها العُنَّابُ والحَشَفُ البالى

قابل الرَّطْبَ أولا بالعُنَّاب مقدما ،وقابل اليابس ثانيا بالحَشَفِ تاليا . وكذلك قول الطِّرِمَّاح :

يبدو وتضمره البلاد كأنه سَيْفٌ على شَرَفٍ يُسَلُّ ويُغْمَدُ

فقابل يبدو بيسل ، وقابل تضمره البلاد بيغمد ، على ترتيب ، وكذلك كان يجب لهؤلاء أن يصنعوا ، و إلا كانوا مخطئين أو مقصرين.

من المقابلة نوع يختص باسم الموازنة

ومن المقابلة ما ليس مخالفا ولا موافقًا كما شرطوا إلا فى الوزن والازدواج فقط ، فيسمى حينئذ موازنة نحو قول النابغة :

أخلاقُ مجدٍ تجلَّتْ مالها خَطَر فى البأس والجودِ بين الحلم والخبر

وعلى هذا الشعر حَشَا النعمانُ بن المنذر فَمَ النابغة دراً .

و ينضاف إلى هذا النوع قول أبى الطيب:

نصيبك فى حياتك من حبيب نصيبك فى منامك من خيال

فوازن قوله « فى حياتك » بقوله « فى مَنامكَ » وليس بضده ولا موافقه ، وكذلك صنع فى الموازنة بين حبيب وخيال ، وإن اختلف حرف اللين فيهما ، فإن تقطيعه فى العروض واحد .

فأما قول أبى تمام :

فكنت لناشيهم أباً ، ولكهلهم أخاً ، ولذى التقويس والكبرةِ ابنَا

فإنه من أحكم المقابلة وأعدل القسمة.

وقد بينت فى أول هذا الباب أن المقابلة بين التقسيم والطبق ؛ فكلما توفر حظها منهما كانت أفضل .

من أملح الموازنة وتعديل الأقسام

ومن أملح ما رويناه فى الموازنة وتعديل الأقسام مما يجب أن نختم به هذا الباب قول ذى الرمة :

أستَحْدَثَ الركبُ عن أشياعهم خبراً أم راجَعَ القلبَ من أطرابه طربُ ؟؟

لأن قوله « أستحدث الركب » مُوَازن لقوله « أم راجع القلب » وقوله «عن أشياعهم خبراً » موازن لقوله « من أطرابه طرب » وكذلك « الركب » موازن «القلب» وعن موازن لمن ، و« أشياعهم » موازن ا« أطرابه »وخبراًموازن لطرب.

وقال السيد أبو الحسن فى هذا النوع:

لكَفّاكَ أنْدَى من غُيُوم سَوَاجم وَعَزْمُكَ أمضى من حُسَام مهند

فكل لفظة من القسيم الأول موازنة لأختها من القسيم الآخر موازنةَ عدلٍ وتحقيق.

(٤٩) — باب التقسيم

حد التقسيم

اختلف الناس فى التقسيم : فبعضهم يرى أنه استقصاء الشاعر جميع أقسام ما ابتدأ به ، كقول بشار يصف هزيمة :

بضرب يذوق الموتَ من ذاق طَعْمَهُ ويدرك من نَجَّى الفرارُ مَثَالِبه

فراح فريقٌ فى الأسارى، ومثلُه قتيلٌ، ومثلٌ لاَذَ بالبحر هاربه

فالبيت الأول قسمان : إما موتٌ، وإماحياة تورث عاراً ومَثْلبة ، والبيت الثانى ثلاثة أقسام : أسير ، وقتيل ، وهارب ؛ فاستقصى جميعَ الأقسامِ ، ولايوجد فى ذكر الهزيمة زيادة على ماذكر .

ومثل ذلك قول عمرو بن الأهتم إلا أنه أكثر إيجازاً :

أشْرَبَا ما شربتما فهذَيل من قتيل وهارب وأسير

فجمع الوجوه كلها فى مصراع واحد.

من جيد التقسيم

ومن التقسيم الجيد قول نُصَيْب :

فقال فريق القوم : لا، وفريقهم : نعم، وفريق قال : ويحك ماندرى[1]

فلم يبق جواب سائل إلا أتى به ؛ فاستوفى جميع الأقسام ، وزعم قوم أنه أفضل بيت وقع فيه تقسيم .

ومن أناشيد قدامة فى هذا الباب قول الشماخ يصف حمار وَحْش :

متى ماتقَعْ أرساغهُ مطمئنةً على حَجَر يرفَضُّ أو يتدحرج

فلم يُبْقِ الشماخ قسما ثالثاً إلا أن يقول : يغوص فى الأرض ، وذلك لايلزم ؛ من جهة أن الحافر عند الجرى وسرعة المشى يقذف الحجر إلى وراء ، إلا أنه لو أتى به لـكان حسنا من أجل قوله « مطمئنة » .

من جيد التقسيم فى المنثور

ومن أشرف المنثور فى هذا الباب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «وهل لك يابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ،أو لبست فأبليت ،أوتصدقت فأمضيت» فلم يبق عليه الصلاة والسلام قسما رابعاً لوطلب يوجد .. وقال نافع بن خليفة «يا بنى، اتقوا الله بطاعته، واتقوا السلطان بحقه، واتقوا الناس بالمعروف» فقال رجل منهم : ما بقى شىء من أمر الدين والدنيا إلا وقد أمرتنا به . . وقال أعرابى « إذا كان الرأى عند من لا يُقْبَلُ منه ، والسلاح عند من لا يستعمله ، والمال عند من لا ينفقه

(١) حفظى «وفريق: ليمن الله ماندرى» واللام للابتداء، وايمن: مبتدأ حذف خبره.

ضاعت الأمور » وكان ثابت البُنَانى يقول « الحمد لله وأستغفر الله » فسئل : لم خصهما ؟ فقال : لأنى بين نعمة وذنب ؛ فأحمد الله على النعمة ، وأستغفره من الذنوب . . ووقف أعرابى على حلقة الحسن البصرى فقال : رحم الله من تصدق من فضل ، أو وَاسَى من كَفَاف ، أو آثر من قوت ، فقال الحسن : ماترك البدوى منكم أحداً إلا وقد سأله .

عود إلى جيد التقسيم فى الشعر

ثم نعود إلى الشعر ، قال عمر بن أبى ربيعة المخزومى :

وهَبْهَا كشىء لم يكن، أو كنَازح بهِ الدارُ ، أو مَنْ غَيَّبته المقابر

فلم يُبْقِ مما يعبر به عن إنسان مفقود قسما إلا أتى به فى هذا البيت .

وقال آخر ، وأحسبه أبا دِهْبل الجمحى أو طريحاً :

لو قلت للسيل دَعْ طريقك والـ ـموج عليه كالهَضْبِ يَعْتلج

لارتد ، أوساخ ، أو لَكَانَ له فى سائر الأرض عنك مُنْعَرَجُ

ولا يدع السيل طريقه إلا بأحد هذه الأشياء .

وقال أبو العتاهية :

وعلىّ من كَلَفِى بكم قَيْدٌ وجامعة وغُلُّ

فأتى على جميع ما يتخذ للمأسور أو المجنون ولم يبق قسما .

هذا وأمثاله مما قدمت هو الجيد من التقسيم ؛ وأما ما كان فى بيتين أو ثلاثة فغير عاجز عنه كثير من الناس .

أصح تقسيم

وزعم الحاتمى أن أصح تقسيم وقع لشاعر قول الأسعر الجعفى يصف فرساً :

أما إذا استقبلته فكأنه بَازٍ يكفكف أن يطير وقد رأى

أما إذا استدبرته فتسوقهُ ساقٌ قَمُوصُ الوقع عارية النَّسَا

أما إذا استعرضته متمطراً فتقول : هذا مثلُ سِرْحَانِ الغَضَا

واختاره أيضاً قدامة ، وليس عندى بأفضل من قول امرىء القيس إلا بشرف الصفات :

إذا أقبلَتْ قلت دُبَّاءة من الخُضر مغموسة في الغُدُر[١]
وإن أدْبَرَتْ قلتُ أثفيّة ململمـــة ليس فيها أثر[٢]
وإن أعرضت قلت سُرْعُوفة لها ذَنَبٌ خلفها مُسْـبَطر[٣]

ولو لم يكن إلا تنسيق هذا الـكلام بعضه على بعض ، وانقطاع ذلك بعضه من بعض ، وقد صنعت على ضَعْف مَتْنِي[٤] وتأخر وقتى :

إذا أقبلت أقْعَتْ ، وإن أدبرت كَبَت وتعرض طولا فى العنان فتســـتوى
وكَلّفْتُ حاجاتى شـــبيهة طائر إذا انتشرت ظَلّتْ لها الأرضُ تنطوى

ومن التقسيم نوع هو هذا الأول إلا أن فيه زيادةً تدريجًا وترتيبا فصَعُبَ لذلك على متعاطيه وقل جداً . . فأحسَنُه قولُ زهير بن أبى سلمى :

يطعنهم ما ارتموا حتى إذا طعنوا ضَارَبَ حتى إذا ماضار بوا اعْتَنَقَا

فأتى بجميع ما استعمل فى وقت الهياج ، وزاد ممدوحه رتبة ، وتقدم به خُطوة على أقرانه ، ولا أرى فى التقسيم عديل هذا البيت ، ويليه فى بابه قول عنترة :

إن يلحقوا أكْرُرْ ، وإن يستلحموا أشْدُدْ ، وإن يُلفَوْا بضَنْكٍ أنزل

ويروى « وإن يقفوا » ومما ينضاف إليهما قول طَرِيح بن إسماعيل الثقفى:

---

(١) دباءه : هى فى الأصل القرعة ، ومثلها الدبة ـ بفتح الدال والباء مشددة ـ وكنى بذلك عن لينها وطراءتها وانطوائها ، وقوله « مغموسة فى الغدر » يريد به أنها ربى، والغدر : جميع غدير ، وذلك مايدل على ما ذهبنا إليه من التـكنية بالدباءة

(٢) الأثفية : الصخرة المستديرة المجتمعة ، ململمة : متداخلة مدورة صلبة ، الأثر : أراد به الخدش .

(٣) سرعوفة : هى الجرادة ، مسبطر : طويل ممتد .

(٤) لعل الاوفق « على ضعف منّى » .

إن يسمعوا الخير يُخفُوه، وإن سمعوا شراً أذاعوا، وإن لم يسمعوا كذبوا

وقال الحصين بن الحمام :

دفعنا كُمُ بالحلم حتى بَطِرْتُمُ وبالكف حتى كان رفع الأصابع
فلما رأينا جَهْلَكم غيرَ مُنْتَهٍ وما قد مضى من حلمكم غيرَ راجع
مسسنا من الآباء شيئاً ، وكلنا إلى حَسَب فى قومه غير واضع
فلما بلغنا الأمهات وجدتُمُ بنى عمكم كانوا كرام المَضَاجِعِ

كأنه يقول : نحن أكرم منكم أمهاتٍ ، فهذا هو التدريج فى الشعر .

وبعضهم فى التقسيم على خلاف ما قدمت : زعم أبو العيناء أن خير تقسيم قيل قول ابن أبى ربيعة :

تهيم إلى نُعمٍ ؛ فلا الشمل جامع ولا الحبل موصول، ولا أنت مُقْصِرُ
ولا قربُ نعم إن دَنَتْ منك نافعٌ ولا نأيُهَا يُسْلِى ، ولا أنت تَصْبِرُ

واختار قوم آخرون قولَ الحارثى :

فلا كدى يَفْنَى ، ولا لَكِ رقة ، ولا عَنْكِ إقصار ، ولا فيك مَطْمَع

وزعم الفرزدق أن أكمل بيت قالته العرب ـ أو قال : أجمع بيت ـ قول امرىء القيس :

له أَيْطَلاَ ظبى ، وساقا نعامةٍ وإرخاءُ سِرْحَانٍ، وتَقْرِيب تَتْفُل

وقال الأعشى يصف فرساً :

سلس مُقَلَّدُهُ ، أسيلٌ خَدُّه ، مَرِعٌ جَنَابُهْ

وقال عمرو بن شأس :

مُدْمَجٌ سَابِغُ الضلوع طويلُ الشَّخْصِ عَبْلُ الشَّوَى مُمَرٌّ الأعالى

وقال أبو دؤاد الإيادى :

بعيدُ مَدَى الطَّرْفِ خَاظِي البَضيعِ مُمَرُّ الْمَطَا سَمْهَرِيُّ الْقَصَبْ [(١)]

جمع الأوصاف (أو التعقيب)

هذا وما قبله يسمى جمع الأوصاف، وسماه بعض الحذاق من أهل الصناعة التعقيب ـ العين قبل القاف ـ وأما التقعيب[(٢)] فمكروه فى الكلام .

وكان محمد بن موسى المنجم يحب التقسيم فى الشعر، وكان معجباً بقول العباس بن الأحنف :

وِصَالُكُمُ صَرْمٌ وَحُبُّكُمُ قِلًى وعَطْفكم صَدٌّ، وسلمكم حَرْبُ

ويقول : أحْسَنَ والله فيما قسم حين جعل كل شىء ضده، والله إن هذا التقسيم لأحسن من تقسيمات إقليدس، حكى ذلك الصولى . .

ومن مليح التقسيم قول داود بن سلم[(٣)] :

فى باعه طُولٌ، وفى وَجهه نورٌ، وفى العِرْنينِ منه شَمَمْ

فوصف بعض أحواله وقسمها كما فعل الأولون .

من التقسيم التقطيع

ومن أنواع التقسيم التقطيع، أنشد الجرجانى للنابغة الذبيانى :

لله عَيْنَاً من رأى أهل قبَّةٍ أضرَّ لمن عادى وأكثر نافعا

وأعظم أحلاماً وأكبر سيداً[(٤)] وأفضل مَشْفوعا إليه وشافعا

(١) فى عامة الأصول * . . . . خاطى البضع * وصوابه ما أثبتناه، والخاظى ـ بالخاء والظاء المعجمتين ـ الكثير اللحم المكتنزه، والبضيع ـ بفتح الباء وبعد الضاد ياء مثناة ـ هو اللحم، وقد أنشد ابن برى لدختنوس بنة لقيط :

يعدو به خاظى البضيع كأنه سمع أزل

(٢) فى عامة الأصول التعقيب ـ بتقديم العين المهملة على القاف المثناة كالذى قبله ـ وهو خطأ وتصحيف، والتقعيب فى الكلام مثل التقعير، وتقول : قعب فلان كلامه وقعره ـ بتضعيف العين فيهما ـ وهما بمعنى واحد .

(٣) فى المطبوعات كلها «داود بن مسلم» والتصحيح عن الأغانى ٥/١٥٣ بولاق والبيت من خمسة أبيات مدح فيها قثم بن العباس وكان منقطعا إليه . والبيت فى الأغانى

فى وجهه بدر، وفى كفه بحر، وفى العرنين منه شمم

(٤) فى الديوان (ص ٧٤) * . . وأكثر سيدا * بالثاء المثلثة

وسماه قوم ـ منهم عبد الكريم ـ التفصيل ، وأنشد فى ذلك :

بيضٌ مفارقنا ، تغلى مَرَاجِلُنَا   نَأسُو بأموالنا آثار أيدينا

وقال البحترى :

قِفْ مَشُوقاً ،أو مُسْعِداً ، أوحَزِيناً   أو مُعِيناً ، أو عاذراً [1] أوعذولا

فقطع وفصل كما تراه . وقال أبو الطيب :

فياشَوْقُ ماأَبْقَى،ويَالِى من النوى،   ويادَمْع ماأَجْرَى،وياقلب ماأَصْبَى

ففصل كما فعل أصحابه ،وجاء به على تقطيع الوزن ، كل لفظتين ربع بيت ..

وقال أيضاً :

لِلسَّبْيِ مانَكَحُوا ،والْقَتْلِ ماولدوا،   والنهب ماجمعوا ،والنار مازرعوا

الترصيع

وإذا كان تقطيع الأجزاء مسجوعا أو شبيها بالمسجوع فذلك هو الترصيع عند قدامة ، وقد فضله وأطنب فى وصفه إطنابا عظيما . . وأنشد أبيات أبى المثلم يرثى صَخْرَ الْغَيِّ :

لو كان للدهر مال عنـــد متلده   لـكان دهر صخر مَالَ قنيان

آبِى المضيمة ، نابٍ بالعظيمة ،متـــلاف الـكريمة،لاسقطوَلاَ ونوان

حَامى الحقيقة ، نَسَّالالوريقة ، معـــتاق الوسيقة ، جَلْد غَيْرُ ثُنْيَانِ [2]

رَبَّاء مَرْقَبة ، منَّاع مغلبـه   ركابُ سَلْهَبةٍ ، قطاع أَقْرَانِ [3]

(١) فى عامة الأصول « وغادرا » من الغدر ـ بالغين معجمة والدال مهملة ـ وهـذا تصحيف واضح ، وصوابه ما أثبتناه .

(٢) الحقيقة : الراية ، وما وجب على الرجل أن يدافع عنه ، والوريقة : أصلها الشجرة المورقة ، ولعله أراد القبيلة ، والوسيقة : الإبل ، والثنيان ـ بضم الثاء وسكون النون ـ ومثله الثنى ـ بكسر الثاء ـ ما تـكون منزلته بعد منزلة السيد .

(٣) رباء : صيغة المبالغة من « ربأ » إذا أشرف وصعد ، والمرقبة : المنظرة فى رأس الجبل ، أوهى الحصن ، والأخير أولى بالمرادمن البيت ، يريد أنه مقدم قومه =

هَبَّاط أودية ، حَمَّـال ألوية   شَهَّاد أندية ، سِرْحان فتيانِ
يعطيك مالا تكاد النفس تُسْلِمه   من التّلادِ وَهوبٌ غير مَنَّانِ

وللقدماء من هذا النوع ، إلا أنهم لا يكثرون منه كراهة التكلف . قال[1] أبو دؤاد يصف فرسا ، وقيل : بل رجل من الأنصار :

فالْعَيْنُ قادحة ، والرِّجْلُ ضَارِحَة ،   واليد سابحة ، واللوْنُ غِرْبِيبُ[2]
والشّدُّ منهمر ، والماء مُنْحَدِر ،   والقُصْبُ مضطمر، والمتن مَلْحوب[3]

وقال الكميت بن زيد فى ذلك :

كالنَّاطِقَاتِ الصَّادِقا   تِ الْوَاسِقَاتِ مِنْ الذَّخَائِرْ

= فى لقاء العـدو ، والمغلبة : مصدر غلبه يغلبه غلبا وغلبة ومغلبا ومغلبة ، والسلهبة ـ ومثله السلهب بلاهاء ـ يقال للفرس الذكر إذا عظم وطال وطالت عظامه .

(١) نسب الجوهرى الشطر الرابع لامرىء القيس فى مادة (ق ص ب) ونقله عنه صاحب اللسان ، ثم نقل عن ابن برى أن الصواب أنه لإبراهيم بن عمران الأنصارى ، وذكر خمسة أبيات منها البيتان ، وهما مع هـذه الأبيات مما أثبته ناشر ديوان امرىء القيس المطبوع فى ١٩٣٠ (ص ٣٥) .

(٢) ضارحة ـ بالضاد المعجمة والحاء المهملة ـ يريد أنها تضرح الحصى ، أى : تنحيه وتبعده ، وقيل : معناه أنها واقعة إلى الأمام . سابحة : تسير بلطف وخفة كمن يسبح فى الماء ، أى : أنه لا يجهد راكبه ولا يتعبه ، وغربيب : أسود ، وجمعه غرابيب .

(٣) الشد : العدو والجرى ، والقصب ـ بضم القاف وسكون الصاد المهملة ـ المعى ، وقيل : هو ما كان أسفل البطن من الأمعاء ، وقيل : المراد به ههنا الخصر وليس بعيداً مما قدمنا .

و إلى هذا ذهب أبو الطيب بقوله :

الناعماتِ القاتلات المحييـــا تِ المبْدِياتِ من الدَّلاَلِ غرَائبا

وقال توبة بن الحُمَيِّر ، وفيه التقسيم والترصيع :

لَطيفات أقدامٍ ، نبيلات أسْوُقٍ لفيفات أفخاذ ، دِقَاقٌ خُصُورُهَا

وقال مسلم بن الوليد صريع الغوانى :

كأنه قمر ، أوضَيْغَم هَصِر ، أوحَيّة ذكر ، أوعارضٌ هَطِلُ

وقال أيضا :

يورى بزنْدِك ، أو يسعى بجدك ، أو يَفْرِى بحدك ، كلٌّ غَيْرُ مَحْدُود

ومن كلام أبى تمام ، وكان يجيد التصنيع :

تجلىَّ به رُشْدِى ، وأثْرَتْ به يدى ، وفاض به ثمْدِى ، وأوْرَى به زَنْدِى

وقال أيضا وأحْسَنَ ماشاء :

تدبير معتصم ، بالله مُنْتَقِم ، لله مرتقب ، فى الله مرتغب

وقال أيضا فى غير هذا النمط :

عن ثامرٍ ضافٍ ، ونَبْتٍ قرارةٍ وَافٍ ، ونور كالمراجل خافى

المراجل : ثياب . . وقال كشاجم :

هلال فى إضاءتِهِ * حياء فى سماحته * شهاب فى اتِّقَادِهْ

ومن جيد ما للمحدثين قول ديك الجن :

حُرُّ الإهاب وَسِيمُه ، بَرُّ الإيا ب كريمه ، مَحْض النصاب صَمِيمُه

فأكثر البيت ترصيع كيف ما أدَرْته[1] . .

وكان المذهب الأول وهو المحمود أن يؤتى ببيت من هذا أو ببعض بيت ، كما قال امرؤ القيس :

(١) فى عامة الأصول « كيفما أردته .

وأَوتادُهُ ماذِيَّةٌ ، وعِمَادُهُ رُدَيْنِيَّةٌ ، فيها أَسِنَّةُ قَعضَبِ[١]

وكما قال امرؤ القيس[٢] :

كحلاء فى بَرَجٍ ، صفراء فى نَعَجٍ ، كأنَّها فِضَّةٌ قد مَسَّها ذَهَبُ[٣]

وأما ما هو شبيه بالمسجوع فقول امرىء القيس :

فَتُورُ القِيَامِ ، قَطُوعُ الـكلاَ مِ ، تَفْتَرُّ عَنْ ذِى غرُوبٍ أَشِرِ[٤]

وقوله * أَلَصُّ الضُّرُوسِ ، حَنِيُّ الضُّلوع[٥] *

فجاء فتور فى وزن قطوع ، وكذلك الضروس والضلوع ، وألص وحنى .

---

(١) الأوتاد : جمع وتد ، وهو ما تشد به الخيمة . والماذية : هى الدروع البيض وقيل : السلاح كله . والعماد : الخشب التى ترفع عليها الخيام . والردينية : الرماح المنسوبة إلى ردينة . وقعضب : رجل كان يصنع الأسنة .

(٢) لم أجد فى شعر امرىء القيس هـذا البيت ، ولا وجدته منسوبا إليه فيما بين يدى من المراجع ، وهذا البيت مشهور لذى الرمة ، وهو فى ديوانه (ص ١٢) من قصيدته التى أولها :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنه من كلى مفرية سرب

والعبارة المذكورة فى الأصل تفيد أنها من وضع النساخ ، فإن عادة مؤلف الكتاب أن يقول فى مثل هـذا الموضع : « وكقوله أيضا » ؛ لأن الشاهد السابق لامرىء القيس ، فتنبه ، وسيستدل به المؤلف مرة أخرى فى باب الاشتراك وينسبه لذى الرمة على الصواب .

(٣) البرج ـ بفتح الباء والراء جميعا ـ تباعد ما بين الحاجبين ، والنعج ـ بفتحتين أيضا ـ حسن اللون ، قال الجوهرى : « نعِج ينعج نعجا مثل طلب يطلب طلبا وامرأة ناعجة حسنة اللون » اهـ وقيل النعج : الابيضاض الخالص ، ويبعد أن يراد هنا .

(٤) فتور القيام : متراخية متكاسلة غير وثابة . قطوع الكلام : قليلته ، تفتر : تبسم ، ذى غروب : فم حر الأسنان رقيق الماء ، أشر : روى فى مكانه خصر

(٥) تمامه * تبوع طلوب نشيط أشر *

ثم أدخل المولدون فى هذا الباب أشياء عدوها تقطيعاً وتقسيما ، وذلك نحو قول أبى العميثل الأعرابى :

فاصدق وعفّ وجد وأنصف واحتمل واصفح ودَارِ وكافِ واحْلُمْ واشجع
والطف ولِنْ وتأنَّ وارْفُقْ واتَّئِدْ واحزم وجِدَّ وحامِ واحمل وادفع

وكقول ديك الجن :

احْلُ وامْرُرْ ، وضُرَّ وانفع ولِنْ وَاُخْشن وَرِشْ وَابْرِ وَانْتَدِبْ للمعالى

وقول أبى الطيب :

أقِلْ أنِلْ اقطع احمل عل سل أعد زِدْ هَشّ بَشّ تفضّلْ أدْنُ سُرَّ صِلِ

ثم زاد فى هذا وتباغض حتى صنع :

عِشِ ابق أسمُ سُدْ قُدْ جُدْ مُرِ انْهُ رِهْ فِهِ اسْرِ نَلْ
غِظِ ارمِ صُبِ احمِ اغْزُ اسْبِ رُعْ زَعْ دِلِ اثن بل

فهذه رقية العقرب كما قال ابن وكيع ، ولابد من شرحها . . قوله «عش ابق» دعاء له بالعيش والبقاء ، واسم : من السمو ، وسد : من السيادة : أى دم هكذا ، وقد : من قَوْد الخليل ، وجد : من الجودِ والسماح ، أو من الجَوْدِ وهو المطر الغزير ، مرانه : من الأمر والنهى ، رِهْ : من الوَرْيِ تثبت الهاء فيه أظنه فى الخط دون اللفظ ، على أنه ليس موضع وقف ، ولا يجب أن يكتب بلا هاء لئلا يخالف العادة وتقع كلمة على حرف واحد ، والورى : داء فى الجوف : أى اصنع ذلك بإعدائك وحسادك ، فه : من الوفاء ، واسر : من سرى الليل ، يصفه بالعزم والغارات ، ونل : من النيل والإدراك ، أى : نَلْ ماتحب ، وروى نُلْ [أى] أعط ، من النَّوْلِ ، ويقال : نُلْتُهُ إذا أعطيته ، وغظ : من غيظ الحسود ، ويروى « عظ » من الوعظ ، وارم : من رمى العدو بالمكايد وغيرها ، وصُب : من صاب المطرُ والسهمُ ، واحم : من حميت المكان ، واغز : من الغزو ، واسب : من السبى ، ورُعْ : من الروع ، وزع : من وزعت ، أى : كففت ، وَدِ : من الدية ، ولِ : من الولاية للأمور ، وقد يكون من

من المطر الوَلِيّ ، وإثن : من ثنى أضداده إذا رَدَّهم ، و بل : من الوابل ، وهذه غاية المقت والبغاضة و إن كان ولا بد فقوله أيضا :

دانٍ بعيدٌ ، مُحِبٌّ مبغض ، بهج أغر ، حلو ممر ، لَيِّنٌ شَرِسُ

ندٍ أبيٌّ غَرٍ وافٍ أخو ثقة جعد سَرِيٌّ نَهٍ نَدْبٌ رِضاً نَدُسُ

نَدٍ : من الندى ، وغَرٍ : من غرى به ، ونَهٍ : من النهى ، وأصل هذا كُلِّهِ من قول امرىء القيس :

أفادَ فَجَادَ ، وسَادَ فَزَادَ وَقَادَ فَذَادَ ، وَعَادَ فأفْضَلْ

٥٠— باب التسهيم

الاختلاف فى تسميته وأنواعه

وقدامة يسميه التوشيح . . وقيل : إن الذى سماه تسهيماً على بن هارون المنجم ، وأما ابن وكيع فسماه المطمع ، وهو أنواع : منه ما يشبه المقابلة ، وهو الذى اختاره الحاتمى ، نحو قول جَنُوبَ أختِ عَمْرِو ذى الكَلْبِ :

فأقسم يا عَمْرُو لو نَبَّهَاكَ إذاً نَبَّهَا منك دَاءً عُضَالا

إذاً نَبَّهَا لَيْثَ عِرِّيسَةٍ مُفيتاً مُفِيداً نُفُوساً ومالا[1]

وخرْقٍ تجاوزت مجهوله بوجْناءَ حرفٍ تَشَكَّى الكلالا[2]

---

(١) العريسة — بكسر العين المهملة وتشديد الراء — الشجر الملتف ، وهو مأوى الأسد فى خيسه ، ومنه قولهم * كمبتغى الصيد فى عريسة الأسد * ويقال « عريس » أيضا بلاتاء .

(٢) خرق — بفتح فسكون — المكان الواسع تتخرق فيه الرياح ، أرادت الفلاة . والوجناء : الناقة . والحرف : المهزولة ، ولا يقال جمل حرف ، وإنما يقال ناقة حرف ، شبهوها إذا كانت ضامرة من الهزال بالحرف من حروف الهجاء ، وهو الألف ، تشكى : أصله تتشكى ، فحذف إحدى تاءيه . والكلال : التعب والإعياء .

فكنتَ النهارَ به شَمْسَهُ وكنتَ دُجَى اللّيل فيه الهلاَلاَ

أردتُ قولها « مفيتاً نفوساً ومفيداً مالا » فقابلت مفيتاً بالنفوس ومفيداً بالمال ، وكذلك قولها فى البيت الأخير لما ذكرت النهار جعلته شمساً ولما ذكرت الليل جعلته هلالا لمكان القافية ، ولو كانت رائية لجعلته قمراً .

وسر الصنعة فى هذا الباب أن يكون معنى البيت مقتفيا قافيته ، وشاهدا بها دالا عليها كالذى اختاره قدامة للراعى ، وهو قوله :

وإن وُزِنَ الحَصَى فوزنتُ قومى وجدت حَصَى ضَرِيبتهم رَزِينا

فهذا النوع الثانى هو أجود من الأول للطف موقعه .

والنوع الثالث شبيه بالتصدير ، وهو دون صاحبيه ، إلا أن قدامة لم يجعل بينهما فرقا .. وأنشد للعباس بن مرداس :

هُمُ سَوَّدُوا هجناً وكلُّ قَبيلة يُبَيِّنُ عن أحْسابها مَنْ يَسُودُها

وقال نصيب الأكبر مولى بنى مروان :

وقد أيقنتُ أن ستبينُ لَيلى وتُحْجَبُ عنك إن نفع اليقينُ

وإن تأملت قوافى ما هذه سبيله لم تجد له من لطف الموقع ما لقافية الراعى وإنما اختير هـذا النوع على ما ناسب المقابلة والتصدير لأن كل واحد منهما مدلول عليه من جهة اللفظ : إما بالترتيب ، وإما باشتراك المجانسة ، والقافية فى بيت الراعى دالة على نفسها بالمعنى وحده ، فصار استخراجها أعجب وأغرب ، وتمكنها أشد وأوكد .

وقدحكى أن ابن أبى ربيعة جلس إلى ابن عباس رضى الله عنه ،فابتدأ ينشده:

* تَشُطُّ غداً دَارُ جيراننا *

فقال ابن عباس :

* وَللدَّارُ بَعْدَ غَدٍ أبْعَدُ *

فقال له عمر : هكذا صنعت ، فأنت ترى كيف طبق المَفْصِلَ ، وأصاب شاكلة الروى ، لما كان المعنى يقتضى زيادة البعد كلما طال العهد بأيام الموسم ، واجتنب « أشط » لأنه لا يتزن ولا يستعمل ، وعدا عن أن يقول « أبرح » وما شاكله رغبة فى قرب المأخذ ، وسلوكا لطريق الفصاحة ، وإتيانا بالمتعارف المعتاد المتعاهد .

ويحكى عن عَدِىِّ بن الرِّقَاع أنه أنشد فى صفة الظبية وولدها:

* تُزْجِى أغَنَّ كَأَنَّ إبْرَةَ رَوْقِهِ[1] *

فغفل الممدوح عنه، فسكت ، فقال الفرزدق لجرير : ما تراه يقول ؟ فقال : يقول :

* قَلَمٌ أصابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا *

وأقبل عليه الممدوح فأنشد كما قال جرير لم يُغَادِر حرفًا .. وقالت الخنساء :

ببيض الصِّفَاحِ وسُمْــرِ الرما ح بالبيض ضربًا وبالسمر وَخْزَا

وقالت أيضًا فى نحو ذلك :

ونلبس فى الحرب نَسْجَ الحديد ونلبس فى السِّلْمِ خَزًّا وقَزًّا

وقال حريث بن مُحَفِّض :

فإنْ يَكُ طَعْنٌ بالرُّدَيْنى يَطْعَنُوا وإنْ يكُ ضَرْبٌ بالمهند يَضْرِبوا

وقال ابن الدمينة ــ واسمه عبد الله بن عبيد الله [أحد بنى عامر[2]] الخثعمى:

وكُونِى على الواشين لَدَّاء شَغْبَةً كما أنا بالواشى ألَدُّ شَغُوبُ

---

(١) الروق ــ بفتح الراء وسكون الواو ــ القرن ، وإبرته : طرفه ، على التشبيه. (٢) فى الأصول « بن عبيد الله بن عبد الخثعمى »

وكونى إذا مالوا عليك صليبة كما أنا إن مالوا علىَّ صليب

فالبيتان جميعاً مُسَهَّمَان . وقال دعبل

وإذا عانَدَنا ذو نَخْوة غَضِبَ الروحُ عليه فعرج

فعلى أيماننا يجرى الندى وعلى أسيافنا تجرى المُهَجْ

ليس يجهل أحد بعد معرفة البيت الأول من هذين البيتين قافية الآخر منهما.

من جيد التسهيم

ومن جيد التسهيم قولُ بعضهم :

لو أننى أُعْطِيتُ من دَهْرِىَ المنى وما كل من يعطى المنى بمسدد

لقلت لأيام مضين : ألا ارجعى وقلت لأيام أتين : ألا ابعَدِى

وكذلك قول الآخر وهو مليح :

حبيبى غداً لا شك فيه مودعُ فوالله ما أدرى به كيف أصنع

فيا يومُ لا أدبرت هل لك مَحْبس ويا غدُ لا أقبلت هل لك مَدْفَع

إذ لم أشيِّعهُ تقطَّعتُ حَسْرَةً ووا كبدى إن كنت ممن يشيِّع

مأخذ التسهيم والتوشيح

أردت البيت الأخير .. وما أظن هذه التسمية إلا من تسهيم البرود ، وهو أن ترى ترتيب الألوان فتعلم إذا أتى أحدها ما يكون بعده . وأما تسميته توشيحًا فمن تَعَطُّفِ أثناء الوشاح بعضها على بعض وجمع طرفيه ، ويمكن أن يكون من وشاح اللؤلؤ والخرز ، وله فواصل معروفة الأماكن ، فلعلهم شبهوا هذا به ، ولا شك أن الموشَّحَات من ترسيل البديع وغيره إنما هى من هذا ، وبعض الناس يقول : إن التوشيج بالجيم ، فإن صح ذلك فإنما يجىء من «وَشَجَتِ العروقُ» إذا اشتبكت ، فكأن الشاعر شبك بعض الكلام ببعض.. فأما تسميته المُطْمع فذلك لما فيه من سهولة الظاهر وقلة التكلف ، فإذا حُووِل امتنع وبَعُدَ مَرَامُه .

(٥١) ــ باب التفسير

حد التفسير

وهو : أن يستوفى الشاعر شَرْحَ ما ابتدأ به مجملا ، وقلّ ما يجىء هذا إلا فى أكثر من بيت واحد ، نحو قول الفرزدق واختاره قدامة :

لقد جئت قوما لَوْ لَجأْت إليهمُ طريدَ دم أو حاملا ثقْلَ مَغْرم
لألفيتَ منهم معطيًا ومُطَاعنا وراءكَ شَزْراً بالوشيج المقوّم

هذا جيد فى معناه ، إلا أنه غريب مريب ؛ لأنه فسر الآخر أولا والأول آخراً ؛ فجاء فيه بعض التقصير والإشكال ، على أن من العلماء من يرى أن رد الأقرب على الأقرب والأبعد على الأبعد أصح فى الكلام .

وأكثر ما فى التفسير عندى السلامة من سوء التضمين لا أنه هو بعينه ما لم يكن فى بيت واحد أو شبيه به كالذى أنشده سيبويه :

خَوَّى عَلَى مُسْتَوِياتٍ خَمْسِ كِرْكِرَةٍ وَثَفِناتٍ مُلْسِ [1]

لأن هذا وإن كان كالبيت المصرع فهو بيتان من مشطور الرجز

من جيد التفسير

ومن التفسير الجيد قول[2] حاتم الطائى ، ويروى لعتيبة بن مرداس :

(١) يقال للناقة إذا بركت فتجافى بطنها فى بروكها لضمرها : قد خوت ــ بتشديد الواو ــ وقد كثر ذلك حتى صاروا يقولون الابل إذا خمصت بطونها وارتفعت : قد خوت ، والكركرة ــ بكسر الكافين بينهما راء مهملة ساكنة ــ رحى زور البعير والناقة ، وقيل : هو الصدر من كل ذى خف ، والثفنات : جمع ثفنة ، بفتح فكسر ــ وهى مايقع على الأرض من أعضاء البعير إذا استناخ كالركبتين ، وقيل : هو كل ماولى الأرض من كل ذى أربع إذا برك أو ربض ، وتعد الكركرة إحدى الثفنات ، وهن خمس .

(٢) ذكر صاحب اللسان (مادة ق س ب) عن ابن برى وقد أنشد البيت الثالث ، قال : « هذا البيت يذكر أنه لحاتم الطائى ، ولم أجده فى شعره » ا هـ

متى ما يجىء يوما إلى المال وارثى يَجِدْ جَمْعَ كَفٍّ غيرِ مَلأَى ولا صِفْرِ
يجــدْ فرسًا مثل العنان وصــارمًا حسامًا إذا ما هُزَّ لم يرض بالهَبْرِ (١)
وأسْمَــرَ خَطِّيًّا كأنَّ كُعُوبَهُ نَوَى القَسْبِ قَدْ أَرْبَى ذِراعًا عَلَى العَشْرِ (٢)

فهذا هو التفسير الصحيح السالم من ضرورة التضمين ؛ لأنه لم يعلق كلامه بلو كما فعل الفرزدق ، ولا بما يقتضى الجواب اقتضاء كليا ؛ فلهذا حسن عندى . .

ومثله قول عروة بن الورد :

وإن امرأ يرجو تراثى وإنَّ ما يصيرُ له منه غــداً لقليلُ
ومالىَ مال غير دِرْعٍ ومِغْفَرٍ وأبيضَ من ماء الحديدِ صقيلِ
وأسْمَــرُ خَطِّىّ القناةِ مُثَقَّفٌ وَأجردُ عريان السراة طويلُ

هكذا أنشدوه بالإقواء ، ويجوز أن يرفع على القطع والإضمار ، كأنه قال: هو صقيل، أو قال : ولى أبيض من ماء الحديد ، يعنى سيفه .

وقال ذو الرمة فى التفسير :

وليلٍ كجلباب العروس ادّرعته بأربعة والشَّخْصُ فى العين واحد
أحمُّ علافى ، وأبيض صارم وأعيس مَهْرِىّ ، وأروع ماجد

ففسر الأربعة ما هى ، ورفع على شرط ما قدمت من الإضمار ، كأنه قيل له : ما الأربعة التى شخصها فى العين واحد ؟ فقال : كذا وكذا وكذا ...

ومن التفسير ما يفسر الأكثر فيه بالأقل ، وهو من باب الإيجاز والاختصار:

---

(٢) الهبر ــ بفتح الهاء وسكون الباء ــ اللحم ، يريد أن سيفه لايقنع بالضرب فى اللحم حتى يصل إلى العظم .

(٣) القسب ــ بفتح فسكون ــ التمر اليابس ، قال الليث : ومن قاله بالصاد فقد أخطأ ، ونوى القسب : أصلب النوى . والقسب : الصلب الشديد . وأربى كأرمى .

وذلك ما أتَتْ فيه الجملة بعد الشرح ، نحو قول أبى الطيب :

من مبلغُ الأعراب أنىَ بعدها جالست رَسْطاليس والإسكندرا

ومللت نحْرَ عِشارها فأضافنى من ينحر البِدَرَ النُّضَار لمن قَرَى

وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكاً متبدياً متحضرا

ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الإلـه نفوسهم والأعصرا

نُسِقُوا لنا نَسْقَ الحساب مقدماً وأتى فذلك إذ أتيت مؤخرا

فقوله * نسقوا لنـا نسق الحساب مقدماً وأتى فذلك إذ أتيت * تفسير مليح قليل النظير فى أشعار الناس . .

وتعلقت به فى بعض مدح السيد أبى الحسن فقلت :

أتى بعد أهل العلى كجملة شىء شرح

وقد أتى به أبو الطيب فى بيت واحد فقال :

إذا عُدَّ الكرام فتلك عجل كما الأنواء حين تعد عام

فهذا الذى كنا نَرْغب فيه لكون المفسر والمفسر به فى بيت واحد .

ونظيرهُ قوله أيضاً :

مضى و بنوه وانفردتَ بفضلهم وألفٌ إذا ما جُمِّعَتْ واحِدٌ فَرْدُ

فجاء به أيضا فى بيت واحد .

وكذلك قول امرىء القيس :

فلو أنَّ ما أسعى لأدنى معيشة كفانى ـولم أطلب ـ قليل من المال

ومن قول عمرو بن معد يكرب الز بيدى :

فأرسَلْنَا رَبيئتنا فأوىْ فقال : ألا أولى خمس رُتُوعُ

رَبَاعية وقارحها وجحش وثالثة وهادية زَمُوعُ

فقسر ما هى ، وأنثها لغلبة التأنيث على اسم الدواب . .

وقال مالك بن خُرَيم ، وقيل : حزيم :

فإن يك شاب الرأس منى فإننى أَبَيْت على نفسى مناقبَ أربعا
فواحدة أن لا أبيت بغرة إذا ما سَوَام الحى حَوْلِى تضوعا
وثانية أن لا تُفَزَّعَ جارتى إذا كان جار القوم فيهم مُفَزَّعَا
وثالثة أن لا أصمِّت كابنا إذا نزل الأضياف حِرْصاً لنودعا
ورابعة أن لا أحجلَ قدرنا على لحمها حين الشتاء لنَشْبَعَا

«أحجل» أستر ، أجعلها فى حجلة لتخفى عن الجار رغبة أن نشبع ، ولكن أبرزها

وكتب أحمد بن يوسف — وفى رواية النحاس : عمرو بن مسعدة — عن المأمون « أما بعد فقد أمر أمير المؤمنين من الاستكثار من المصابيح فى شهر رمضان ؛ فإن فى ذلك أنساً للسابلة ، وضياء للمجتهدين ، ونَفْياً لمكامن الريب ، وتنزيهاً لبيوت الله عز وجل عن وَحْشَة الظلم » .

ومن جيد التفسير فى بيت واحد قول أبى الطيب :

فتى كالسحاب الجون يُخْشَى ويُرْتَجَى يُرَجَّى الحيا منه وتُخْشَى الصواعقُ

فإنه قد أحكمه أشَدَّ إحكام ، وجاء به أحسن مجىء ، حتى أربى على البحترى إذ يقول :

بأروع من طيٍّ كأن قميصه يُزَرُّ على الشيخين زيد وحاتم
سماحًا و بأسًا كالصواعق والحْيَا إذا اجتمعا فى العارض المتراكم

وقد رد الكلام جميعًا آخره على أوله . .

وأصل هذا من المعجز قول الله تعالى : (وهُوَ الذى يريكُمُ البرْقَ خَوْفًا وطمعًا).

وقال أبو الطيب أيضًا فى التفسير المستحسن :

إن كوتبوا أو لَقُوا أو حُورِبوا وُجِدُوا فى الخط واللفظ والهيجاء فُرْسَانَا

ففسر وقابل كلَّ نوعٍ بما يليق به ، من غير تقديم ولا تأخير ، كالذى وقع أولا فى بيتى الفرزدق . .

ومن التفسير قول كشاجم — واسمه محمود بن الحسين :

في فيها مِسْك ، ومَشْمولة صِرْف ، ومنظوم من الدر
فالمسك للنكهة والخمر للريـــقة واللؤلؤ للثغر

وهذا من مليح ما وقع للمحدثين .

وقال لقمان لابنه : إياك والكسل والضَّجَر ، فإنك إذا كسلت لم تؤد حقا ، وإذا ضجرت لم تصبر على حق .

(٥٢)- باب الاستطراد

حد الاستطراد

وهو : أن يرى الشاعر أنه في وصف شيء وهو إنما يريد غيره ، فإن قطع أو رجع إلى ما كان فيه فذلك استطراد ، وإن تمادى فذلك خروج ، وأكثر الناس يسمى الجميع استطراداً ، والصواب ما بينته . .

أوضح الإستطراد وأول من قاله

وأوضح الاستطراد قول السموأل وهو أول من نطق به حيث يقول :

ونحن أناسٌ لا نرى القتل سُبَّةً إذا ما رأته عامر وسلول
يُقَرِّب حبُّ الموت آجالَنَا لنا وتكرهه آجالهم فتطول

واتبعه الناس ، فقال الفرزدق وأجاد :

كأنَّ فقاح الأسد حول ابن مسمع إذا اجتمعوا[1] أفواه بكر بن وائل

ثم أتى جرير فأرْبَى وزاد بقوله :

لما وضعت على الفرزدق مِيسَمِي وَضَغَا البَعِيثُ جَدَعْتُ أنفَ الأخطل

فهجا واحداً واستطرد باثنين . .

وقال مخارق بن شهاب المازني يصف مِعْزَى :

ترى ضَيْفها فيها يَبِيت بغبطة وضيف ابن قيس جائع يَتَحَوَّبُ

فوفد ابن قيس هـذا على النعمان بن المنذر فقال : كيف المخارق بن شهاب

(١) في نسخة « حول بيوتهم إذا حلبوا » .

فيكم؟ فقال : سيد شريف حَسْبك من رجل يمدح تيسه ويهجو ابن عمه .

ومن جيد الاستطراد قول دعبل بن على الخزاعى ، ويروى لبشار بن برد وهو أصح :

خليلىّ من كَلْب أعِينا أخا كما ... على دهره ، إن الكريم معين
ولا تبخلا بخل ابن قزعة ؛ إنه ... مَخَافَةَ أن يُرْجَى نَدَاه حزين
إذا جئته فى القَرْط أغْلَقَ بابه ... فلم تلقه إلا وأنت كمين

ويروى * فى حاجة سد بابه * وأنشد البحترى أبو تمام لنفسه فى صفة فرس واستطرد يهجو عثمان بن إدريس الشامى :

وسابح هَطِلِ التَّعْدَاء هَتَّان ... على الجِرَاء أمين غير خوان
أظمى الفصوص وما تظمى قوائمه ... فخل عينيك فى ظمآن ريان
فلو تراه مشيحاً والحصى زِيَمٌ ... تحت السنابك من مَثْنى ووُحْدَان
أيقنتَ إن لم تَثَبَّتْ أن حافره ... من صخر تدمر أو من وجه عثمان

فقال له : أتدرى ما هذا من الشعر؟ قال : لا أدرى ، قال : هذا الاستطراد ، أو قال : المستطرد .

قال الحاتمى : وقد يقع من هذا الاستطراد ما يخرج به من ذم إلى مدح ، كقول زهير :

إن البخيل مَلُومٌ حيث كان ولكنّ الجواد على عِلاَّته هَرِمُ

فسمى الخروج استطراداً كما تراه اتساعاً ، وأنشد فى الخروج بالاستطراد من مدح إلى ذم قول بكر بن النطاح يمدح مالك بن طَوْق :

عرضتُ عليها ما أرادت من المنى ... لترضى ، فقالت:قم فجئنى بكوكبِ
فقلتُ لها : هذا التعنتُ كله ... كمن يتشهَّى لحم عنقاء مُغْرِبِ
سَلِى كلّ أمر يستقيمُ طِلاَبه ... ولا تسألِى يا درّ فى كل مذهب
فأقسِمُ لو أصبحت فى عزّ مالك ... وقدرتهِ أعيى بما رُمْتِ مطلبى

فـــتى شقيتْ أمواله بعُفَاتِهِ كما شقيت قيسٌ بأرماح تغلب

فهذا مليح : أوله خروج ، وآخره استطرادٌ ، وملاحته أن مالكا من بنى تغلب فصار الاستطراد زيادة فى مدحه ، وزعم قوم أنه يمدح مالك بن على الخزاعى ، ومما استطرد به أبو الطيب قوله فى هجاء كافور :

يموتُ به غَيْظاً على الدهر أهله كما مات غيظا فاتكٌ وشَبِيبُ

على أن هذا البيت قد يقع موقع غيره من أبيات هذا الباب ؛ إذ ليس القصد فيه مدحاً ولا هجاء للرجلين المذكورين ، ولـكن التشبيه والحـكاية لا غير .

وقيل : أصل الاستطراد أن يريك الفارس أنه فر ليـكر ، وكذلك الشاعر يريد أنه فى شيء فعرض له شيء لم يقصد إليه فذكره ولم يقصد قصده حقيقة إلا إليه .

من الاستطراد الإدماج

ومن الاستطراد نوع يسمى الإدماج ، وذلك نحو قول عبيد الله بن طاهر لعبد الله بن سليمان بن وهب حين وَزَرَ للمعتضد :

أبى الدهر من إسعافنا فى نفوسنا وأسعفنا فيمن نُحِبُّ ونـكرم
فقلتُ له : نعماك فيهم أتمها ودَعْ أمرنا ؛ إنَّ المهمَّ المقدم

وحكى أحمد بن يوسف الـكاتب أنه دخل على المأمون وفى يده كتاب من عَمْرو بن مَسْعَدة يردد فيه النظر ، فقال : لعلك فـكرت فى ترديدى النظر فى هذا الـكتاب ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : إنى عجبت من بلاغته واحتياله لمراده « كتبت كتابى إلى أمير المؤمنين أعزه الله ومَنْ قبلى مِنْ قواده وأجناده فى الطاعة والانقياد على أحسن ما يكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت أحوالهم » ألا ترى يا أحمد إدماجه المسألة فى الإخبار ، وإعفاءهُ سلطانه من

الإكثار ؟ ثم أمر لهم برزق ثمانية أشهر ، وهذا النوع أقل فى الكلام من الاستطراد المتعارف وأغرب .

٥٣ — باب التفريع

حد التفريع ومنزلته من الاستطراد

وهو من الاستطراد كالتدريج من التقسيم ، وذلك أن يقصد الشاعر وصفاً ما ثم يفرع منه وصفاً آخر يزيد الموصوف توكيداً ، نحو قول الكميت :

أحلامكم لسَقَام الجهل شافيةٌ كما دماؤكم يَشْفَى بها الْكَلِبُ(١)

فوصف شيئاً ثم فرع شيئاً آخر لتشبيه شفاء هذا بشفاء هذا . وقال ابن المعتز :

كلامُهُ أخْدَعُ من لحظه ووَعْدُه أكْذَبُ من طيفه

فبينا هو يصف خدع كلامه فرّع منه خدع لحظه ، ويصف كذب وعده فرّعَ كذب طيفه وقال أيضا يصف ساقى كأس :

فكأنَّ حُمْرة لونها من خده وكأن طيبَ نسيمها من نَشْرِهِ

حتى إذا صبّ المزاج تبسمت عن ثغرها فحسبته من ثغرهِ

مازال ينجزنى مواعدَ عينه فَمُهُ ، وأحسب ريقه من خمرهِ

البيتان الأولاَن من هذه الثلاثة تفريع ، والبيت الآخر ليس بتفريع جيد؛ لأن الخمرة نازلة عن رتبة الريق عند العاشق ، وحق التفريع أن يكون الآخر من الموصوفين زائداً على الأول درجة : فى الحسن إن قصَد المدح ، وفى القبح إن قصد الذم ، وهو نوع خفى إلا على الحاذق البصير بالصنعة .

ومثل بيت ابن المعتز قولُ البحترى :

---

(١) قال صاحب اللسان وأنشد هذا البيت : « قال اللحيانى : الرجل الكلب يعض إنسانا ، فيأتون رجلا شريفا فيقطر لهم من دم أصبعه فيسقون الكلب فيبرأ » اهـ .

وإذا تألق فى النَّدِىِّ كلامُــه الـــمصقولُ خلتَ لسانه من عَضْبِهِ

لأن حق العَضْبِ فى باب المدح أن اللسان أمضى منه . .

ومن التفريع الجيد قول الصنوبرى :

ما أخطأت نوناته(١) من صُدْغه شيئًا ، ولا ألفاته من قــــده

وكأنما أنفاسُه من شعـــــره وكأنما قرطاسُه من جلده

فانظر إليه كيف يزيده رتبة فى الجودة كلما فرع .

ووصف ابن شيرزاد جارية كاتبة : فقال كأن خطها أشكال صورتها ، وكأن بيانها سحر مقلتها ، وكأن سكينها غنج لحظها، وكأن مدادَها سواد شعرها ،وكأن قرطاسها أديم وجهها ، وكأن قامتها بعض أناملها ، وكأن مِقَطّها قلب عاشقها .

وشتان ما بين هذا الوصف وقول الآخر يهجو كاتبًا أنشده الصولى فى أبيات:

كأن دواته(٢) من رِيقِ فيه تُلَاقُ فَنَشْرُهَا أبداً كَرِيهُ

وقال كشاجم :

شيخٌ لنا من مشايخ الـكوفَهْ نسبته للعليـــــلِ موصوفه

لو بَدَّلَ الله قمــله غنما ما طمع الناس منه فى صوفه

ومن لطيف التفريع قول أبى الطيب يصف ليلا :

أقلبُ فيه أجفانى كأنى أعُدُّ بها عَلَى الدَّهْرِ الذُّنُوبَا

بينما هو يصف كثرة سهره وإدارة لحظه شبهها بكثرة ذنوب الدهر عنده . .

وقال فبرد :

ولونقصْتُ كما قد زِدْتَ من شرف على الورى لرأونى مثل شانيكا

---

(١) فى عامة الأصول « نوباته » وهو تحريف شنيع .

(٢) فى المصريتين « ذواته » وما أقبحه من تحريف .

هذا التفريع الملعون . . وقال محمد بن وهب :

طللان طالَ عليهما الأمد دَثَرا فلا عَلَمَ ولا نضد
لَبِسَا البلى فكأنما وَجَدَا بعدَ الأحبة بعض ما أجد

ومن المستحسن قول الخوارزمي أبي بكر محمد بن العباس :

سَمْحُ البديهةِ ليس يُمْسِكُ لفظهُ فكأنما ألفاظهُ من مالهِ
وكأنما عـزماته وسيوفهُ من حـدِّهن خلقن من إقباله
متبسمٌ في الخطْبِ تحسب أنه تحت العجاج مُلَثّمٌ بقصاله

وأخبث ماسمعته في هذا الباب قولُ ابن الرومي يهجو رجلا :

له سائسٌ ماهرٌ يجولُ على مَتْنه
ويطعنُ في دبره أفانينَ مِن طعنه
بأطولَ من قرنهِ وأغلظ من ذهنه

ومن التفريع أيضا قول أبي الطيب على غير هذا النظام :

أسـير إلى أقطاعه في ثيابه على طِرْفه من داره بحُسَامه
وما مَطَرَتْنيه من البيض والقنا وروم العِبِدَّى[1] هاطلات غمامه

فهذا تفريع تناوله من قول أبي تمام :

فقالوا : فما أولاك ؟ صِفْ بَعْضَ نَيْلِه فقلت لهم : من عنده كلُّ ما عندى

وأصله من قول أبي نواس :

* فكلُّ خَيْرٍ عِنْدَهُمْ مِنْ عِنْدِهِ *

يصف كلب صيد .

---

(١) العبدى — بتشديد الدال مفتوحة — العبيد ، جمع عبد .

٥٤ — باب الالتفات

حد الالتفات والاختلاف فى تسميته

وهو الاعتراض عند قوم ، وسماهُ آخرون الاستدراك ، حكاه قدامــة ، وسبيله أن يكون الشاعر آخذا فى معنى ثم يعرض له غيره فيعدل عن الأول إلى الثانى فيأتى به ، ثم يعود إلى الأول من غير أن يخل فى شىء مما يشد الأول ، كقول كُثَيِّر:

لَوَ اَنَّ الباخلينَ ، وأنتِ منهم، رَأوْكِ تَعَلَّمُوا منكِ المِطَالاَ

فقوله * وأنت منهم * اعتراض كلام فى كلام ، قال ذلك ابن المعتز ، وجعله بابا على حِدَتِهِ بعد باب الالتفات ، وسائر الناس يجمع بينهما .

قال النابغة الذبيانى :

ألا زَعَمَتْ بنو عبسٍ بأنِّى — ألا كَذَبُوا — كبيرُ السِّنِّ فَانِى

فقوله * ألا كذبوا * اعتراض ، ورواه آخرون للجعدى * ألا زعمت بنو كعب * وهو أشبه بالجعدى ؛ لأنه أعلى سنامنه ؛ فقوله * ألا كذبوا * اعتراض، وكذلك ما يجرى مجراه .

وأنشدوا فى الالتفات لبعض العرب :

فَظَلُّوا بيومٍ — دَعْ أخاكَ بمثله — على مشرع يروى ولما يصرَّد

فقولك * دع أخاك بمثله * التفات مليح .

وقال جرير يرثى امرأته أم حَزْرَةَ :

نعم القرينُ — وكُنْتِ عِلْقَ مَضِنَّةٍ — وَارَى بنعفِ بلِيةَ الأحجارُ

فقوله * وكنت علق مضنة * هو الالتفات .

وقال عوف بن محلم لعبد الله بن طاهر :

إن الثمانينَ — وبُلِّغْتَهــا — قد أحوجتْ سمعى إلى ترجمان

فقوله * وبلغتها * التفات ، وقد عده جماعة من الناس تتميما ، والالتفات

أشكل وأولى بمعناه ، ومنزلة الالتفات فى وسط البيت كمنزلة الاستطراد فى آخر البيت ، و إن كان ضده فى التحصيل ؛ لأن الالتفات تأتى به عفواً وانتهازاً ، ولم يكن لك فى خَلَدٍ فتقطع له كلامك ، ثم تصله بعدُ إن شئت ، والاستطراد تقصده فى نفسك ، وأنت تحيد عنه فى لفظك حتى تصل به كلامك عند انقطاع آخره ، أو تلقيه إلقاء وتعود إلى ما كنت فيه .

مجىء الالتفات آخر البيت

وقد جاء الالتفاتُ فى آخر البيت نحو قول امرىء القيس :

أبعدَ الحارثِ الملكِ بن عَمْرو ... له ملكُ العراقِ إلى عمانِ

مُجَاوَرَةً بنى شَمَجَى بن جَرْمٍ ... هواناً ما أتيح من الهوان

ويمنحها بنو شَمَجَى بن جرمٍ ... مَعيزَهُمُ ، حنانك ذا الحنان

فقوله * ما أتيح من الهوان * وقوله * حنانك ذا الحنان * الالتفات

وحكى عن إسحاق الموصلى أنه قال : قال لى الأصمعى : أتعرف التفات جرير؟ قلت : وما هو ؟ فأنشدنى

أتنسى إذْ تُوَدِّعُنا سليمى ... بعودِ بَشَامَة ، سُقِىَ البَشَامُ !

ثم قال : أما تراه مقبلا على شعره ، إذ التفت إلى البشام فدعا له ، وأنشد له عبد الله بن المعتز :

متى كانَ الخيامُ بذى طلوحٍ ... سُقيتِ الغَيْثَ أيتها الخيامُ

وأنشد له أيضا ابن المعتز :

طَرِبَ الحمام بذى الأراكِ فهاجنى ... لا زلتَ فى غللٍ وأيكٍ نَاضِرِ

لم يعدّ ابن المعتز إلا ما كان من هذا النوع ، وإلا فهو اعتراض كلام فى كلام

وقد أحسن ابن المعتز فى العبارة عن الالتفات بقوله « هو انصراف المتكلم من الإخبار إلى المخاطبة ، ومن المخاطبة إلى الإخبار » وتلا قوله تعالى : (حتى إذا كنتم فى الفلكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بريحٍ طيبةٍ) .

وأنشد غيره لأبى عطاء السندى يرثى يزيد بن عمر بن هُبَيرة :

وإنك لا تَبْعَدْ على متعهدٍ　　بلى كلُّ ما تحت التراب بعيد

وهذا هو الاستدراكُ، ومثله قول زهير :

حَيِّ الديارَ التى لم يبلها القدم　　بَلَى، وَغَيَّرَهَا الأرواحُ والدِّيَمُ

وكذلك قول جرير :

غداً بأجماع الحيِّ تَقْضِي لُبَانة　　فأقسم لا تُقْضَى لبانتنا غــداً

وأنشد ابن المعتز فى هذا النوع، وهو لبشار :

نبئت فاضحَ قومه يغتابنى　　عندالأمير، وَهَلْ علىَّ أمير؟

ومن مليح ماسمعته قول نُصَيْب :

وددتُ ـ ولم أخلق من الطير ـ أننى　　أعارُ جَنَاحَىْ طائر فأطيرُ

فقوله * ولم أخلق من الطير * عجب، ولما سمعتِ التى قيل فيها هذا البيت تنفست تنفساً شديداً، فصاح ابن أبى عتيق : أوه قد والله أجبته بأحسن من شعره، والله لوسمعك لنَعَقَ وطار، فجعله غراباً لسواده.

وأنشد الصولى للعباس بن الأحنف:

قد كنت أبكى وأنتِ راضيةٌ　　حذارَ هذا الصدودِ والغضبِ

إن تم ذا الهجر يا ظلوم، فلا　　تم، فما فى العيش من أرَبِ

وقال : سمعت ثعلبا يقول : ما رأيت أحداً إلا وهو يستحسن هذا الشعر.

ومن المليح أيضا قول القحيف[1] بن سليمان العقيلى :

أمنكم يا حنيفُ ـ نعم لعمرى ـ　　لِحَىَّ مخضوبةٌ ودمٌ سجال

يخاطب ابنه . . وقال عدى بن زيد العبادى وهو فى حبس النعمان يخاطب ابنه زيداً ويحرضه :

فلو كُنْتَ الأسيرَ، ولا تَكُنْهُ،　　إذاً عَلِمَتْ مَعَـــدٌّ ما أقول

(١) فى عامة الأصول « النحيف » بالنون ، وهو تحريف .

(٥٥)— باب الاستثناء

تسميته وحده

وابن المعتز يسميه توكيد المدح بما يشبه الذم ، وذلك نحو قول النابغة الذبيانى :

ولاَ عَيْبَ فيهم غير أنَّ سيوفهم ... بِهِنَّ فُلُولٌ من قِرَاعِ الـكتائب

فجعل فلول السيف عيباً ، وهو أوكد فى المدح . .

وقال النابغة الجعدى :

فتى كَمُلَتْ أخلاقهُ غَيْرَ أنه ... جَوَادٌ فَما يُبْقِى من المال باقيا

فاستثنى جوده الذى يستأصل ماله ، بعد أن وصفه بالـكمال . وبهذا الاستثناء ثم وزاد كمالا وتأكد حسنه . .

وكذلك قوله :

فتىً تم فيه ما يَسُرُّ صديقَه ... على أن فيه مايسوء الأعادِيَا

فـكأنه لما كان فيه مايسوء أعاديه لم يطلق عليه أنه يسر فقط ، وذلك زيادة فى ١٠حه ، وليس هذا الاستثناء على ما رتبه النحويون فتطلبه بحروف الاستثناء المعروفة ، وإنما سمى اصطلاحاً وتقريبا ، سماه هؤلاء المحدثون نحو الحاتمى وأصحابه ولم يسم حقيقة . .

من مليح هذا النوع

ومن مليح هذا النوع قول أبى هفان [و] قد تقدم به وَجَوَّدَغاية التجويد :

ولا عيبَ فينا غير أن سَمَاحنا ... أضرَّبنا ، والبأس من كل جانب

فأفنَى الردى أرواَحنا غيرَ ظالم ... وأفنَى النَّدَى أموالنا غيرَ عائب

فقوله إن السماح والبأس أضر بهم ليس بعيب على الحقيقة ، ولـكن توكيد مدح ، والمليح كل المليح قوله « غير ظالم ، وغير عائب » فهذا الثانى أعجب من الأول وألطف موقعاً . . وقال آخر :

ولا عيبَ فينا غيرُ عِرْقٍ لمعشر ِكرامٍ ، وأنا لا نخطُّ على النمل[1]

فقصر من جهة قوله * غير عرق لمعشر كرام * لأن سبيل هذا الباب أن يؤثر فيه بما يظن أنه عيب أو تقصير ، و إن كان على التحصيل فخراً وفضلا ، كالفُلُول فى سيوف النابغة الذبيانى ، و إتلاف المال فى شعر الجعدى ، وترك الخط على النمل فى شعر الآخر وأنهم لا يشفون صاحبها ، وهى داء واحدتها النملة ، وأما ذكر الكرم فلا وجه له ههنا .

ومن هذا الباب قول ابن الرومى :

لَيْس له عيبٌ سوى أنه لاتقع العين على شِبْهِهِ

فجعل انفراده فى الدنيا بالحسن دون أن يكون له قرين يؤسه عيباً ؛ فهو يزيد توكيد حسنه .

وقال حاتم الطائى :

وما تَشَكَّى جارتى غيرَ أننى إذا غاب عنها بَعْلُها لا أزورها

---

(١) قال ابن منظور : « النمل : قروح فى الجنب وغيره ، ودواؤه أن يرقى بريق ابن المجوسى من أخته ، تقول المجوس ذلك . . . ثم أنشد هذا البيت . . أى : لسنا بمجوس ننكح الأخوات . قال أبو العباس : وأنشدنا ابن الأعرابى هذا البيت ، وفسره أنا كرام ولانأتى بيوت النمل فى الجدب لنحفر على ماجمع لنأكله . . . وقال الجوهرى : النمل : بثور صغار مع ورم يسير ثم يتقرح فيسعى ويتسع ، ويسميها الأطباء الذباب ، وتقول المجوس : إن ولد الرجل إذا كان من أخته ثم خط على النملة شفى صاحبها . وفى الحديث : « لارقية إلا فى ثلاث : النملة والحمة والنفس » اهـ كلامه بحروفه . والتفسير الذى ذكره أولا ثم نقله بعد عن الجوهرى هو المطابق لما ذكره المؤلف هنا ، وهو الموافق لقول الشاعر * غير عرق لمعشر كرام * فإنهم كانوا يعدون غير العرب ليسوا من الكرام فى شىء ، ومنه تعلم أن اعتبار المؤلف ذكر الكرم مما لا وجه له فى الكلام غير سديد ، هذا ، وفى رواية ابن منظور للبيت * غير نسل لمعشر * ورواية المؤلف أقرب .

سيبلغها خيرى ويَرْجعُ أهلها إليها ولم تُقْصَرْ علىَّ سُتُورُها

لما كان فى ترك الزيارة إشكال بيَّنَ مراده .

ومن أصحاب التآليف من يعد فى هذا الباب ما ناسب قول الشاعر :

فأصبحتُ مما كان بينى وبينها سوى ذكرها كالقَابِضِ الماء باليَدِ

وقال الربيع بن ضبيع الفزَارى :

فَنِيتُ وما يَفْنَى صنيعى ومنطقى وكلُّ امرىء إلا أحاديثه فَانِى

وليس من هذا الباب عندى ، وإنما هو من باب الاحتراس والاحتياط؛ فلو أدخلنا فى هذا الباب كل ما وقع فيه استثناء لطال ، ولخرجنا فيه عن قصده وغرضه ولكل نوع موضع .

(٥٦) — باب التتميم

وهو التمام أيضاً ، وبعضهم يسمى ضرباً منه احتراساً واحتياطاً .

حد التتميم

ومعنى التتميم : أن يحاول الشاعر معنى،فلا يدع شيئاً يتم به حسنه إلا أورده وأتى به: إمامبالغة ، وإما احتياطاً واحتراسا من التقصير،وينشدون بيت[1] طرفة:

فَسَقى دِيارَكَ غيرَ مُفْسِدِهَا صَوْبُ الرَّبيع وَدِيمَةٌ تَهْمِى

لأن قوله*غير مفسدها*تتميم للمعنى،واحتراس للديار من الفساد بكثرة المطر .

ومثله قول جرير :

(١) من قصيدة له يهدد فيها المسيب بن علس الشاعر، ويمدح قتادة بن مسلمة الحنفى ، وقبله بأربعة أبيات :

أبلغ قتادة غير سائله منى الثواب وعاجل الشكم

والشكم : العوض والجزاء ، وقتادة هذا من أجواد العرب، وكان يقال له: غيث الضريك ، وكان قوم لمرفة قد أصابتهم سنة فأتوه فأحسن عطيتهم .

فسقاكِ ـ حيث حللتِ غير فقيدة ـ هَزِجُ الرواح وَدِيمة لا تُقْلِعُ

فقوله * غير فقيدة * تتميم لما أراد من دنوها وسقياها غير راحلة ولا ميتة إذ كانت العادة أن يدعى للغائب الميت بالسقى ؛ فاحترس من ذلك .

وقد عاب قدامة على ذى الرمة قوله:

ألا يا سْلَمِي يا دَارَ مَيٍّ على البِلَى ولا زَال مُنْهَلاً بجَرْعَائِكِ القطر

فإنه لم يحترس كما احترس طرفة ، فرد ذلك عليه بأن الشاعر قدم الدعاء بالسلامة للدار فى أول البيت ، وهذا هو الصواب . . وقال زهير :

من يَلْقَ يَوْماً عَلَى عِلاّته هَرِماً يَلْقَ السَّماحَةَ منه والنَّدَى خُلُقاً

قوله * على علاته * مبالغة وتتميم عجيب .

من التتميم فى القرآن الكريم

والأصل فى هذا قول الله عز وجل : (ويطعمونَ الطعامَ على حبهِ مسكيناً ويتيماً وأسيراً) فقوله (على حبه) هو التتميم والمبالغة فى قول مَنْ قال إن الهاء ضمير الطعام ، وإن كان كناية عن الله تعالى خرج المعنى عن هذا الباب ، وقال الله جل اسمه : (مَن عملَ صالحاً من ذكرٍ أوْ أنثى وَهُوَ مؤْمِنٌ فأولئكَ يَدْخُلونَ الجَنَّة) فتمم بقوله — (وهو مؤمنٌ) — .

من أمثلة التتميم فى الشعر

ومن أناشيد قدامة والحاتمى وغيرهما قول نافع بن خليفة الغنوى :

رجالٌ إذا لم يُقْبَلِ الحقُّ منهمُ ويعطوه عادوا بالسيوف القواضبِ

قال الحاتمى : فإن المعنى تم بقوله « ويعطوه » وإلا كان ناقصا .

ويجرى مجراه عندى قول عنترة العبسى :

أَثْنِي عَلَيَّ بما علمتِ فإننى سَهْلٌ مُخَالقتى إذا لم أُظْلَمِ

فقوله * إذا لم أظلم * تتميم حسن .

وقال آخر :

فلا تبْعَدَنْ إلا من السوء ؛ إننى إليكَ ـ وإن شَطّت بك الدارُ ـ نازع

فاستثناؤه « السوء » تتميم واحتراس جيد .

وقال أبو الطيب بن الوشاء :

لئن كان باقي عيشنا مثلَ مامَضَى فَلَلمَوْتُ إنْ لمْ ندخل النارَ أروحُ

وقال سُرَاقة البارقي يهجو رهط جرير :

صِغارٌ مقاريهم عِظَامٌ جُعُورهم بِطاء عن الدّاعى، إذا لم يكن أكْلاَ[1]

كأنه قال إذا لم يكن المدعو إليه أكلا.

وقال مريع بن وعوعة الكلابي وقد قتل رجلا نَهْشَليا :

وقلتُ لأصحابي : النَّجَاء ؛ فإنما مع الصبح ـ إن لم تَسْبِقُوا ـ جَمْعُ نَهْشَلِ

ويجري على هذه الأناشيد قول ابن محكان السعدي حين قدم للقتل :

ولستُ وإن كانت إليّ حبيبةً بباكٍ على الدنيا إذا ما توَلّتِ

فاستثنى * وإن كانت إلى حبيبة * استثناء مليحا ، ونوى التقديم والتأخير ؛ فلذلك جاز له أن يأتي بالضمير مقدما على مُظْهَره ، هكذا قال فيه أبو العباس المبرد ، ومن التتميم الحسن قول امرىء القيس :

على هيكل يعطيكَ قَبْلَ سؤالهِ أفَانِينَ جَرْيٍ غير كزٍّ ولا وانى

فقوله * قبل سؤاله * تتميم حسن لقوله « أفانين جرى » وقول أعشى باهلة[2] :

* وكل أمر سوى الفحشاء يأتمر[3] *

يقول : هو يُدَبِّرُ كل شيء سوى الفحشاء فإنه لا يدبرها .

---

(١) المقارى : جمع مقرى ـ بكسر الميم وسكون القاف وبعد الراء ألف مقصورة ـ وهو إناء يقرى فيه الضيف ، ويقال للجفنة مقراة . وقال ابن الأعرابى : المقارى : القدور ، وجعورهم : أراد أستاههم ، وعظم الاست مما يتهاجى به العرب .

(٢) يرثى أخاه لأمه المنتشر بن وهب الباهلى ، وكان بنو نفيل قد قتلوه .

(٣) صدره * لايصعب الأمر إلاريث يركبه * ولايصعب الأمر : لايجده صعبا .

(٥٧) — باب المبالغة

آراء الناس في المبالغة

وهى ضروب كثيرة . والناس فيها مختلفون : منهم من يُؤْثرها ، ويقول بتفضيلها ، ويراها الغاية القُصْوَى فى الجودة ، وذلك مشهور من مذهب نابغة بنى ذبيان ، وهو القائل : أشعر الناس من استجيد كذبه ، وضحك من رديئه ، هكذا أعرفه ، ورأيت بخط جماعة ـ منهم عبد الكريم والباغانى — من استجيد جيده ومطابقه وضحك من رديئه . وروى قوم من حديث النابغة ومطالبته حَسَّانَ ابن ثابت بالمبالغة ونسبته إياه إلى التقصير فى قوله :

لنَا الجفنَاتُ الغُرُّ يلمعن بالضحى وَأَسْيَافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدَةٍ دَمَا

ما هو مشهور عندهم مشهور فى كتبهم ، ومنهم من يعيبها وينكرها ، ويراها عيباً وهُجْنَة فى الكلام ، قال بعض الحذاق بنقد الشعر : المبالغة ربما أحالت المعنى ، ولَبَّسته على السامع ؛ فليست لذلك من أحسن الكلام ولا أفخره ، لأنها لاتقع موقع القبول كما يقع الاقتصاد وما قاربه ؛ لأنه ينبغى أن يكون من أهم أغراض الشاعر والمتكلم أيضا الإبانَةُ والإفصاح ، وتقريب المعنى على السامع ؛ فإن العرب إنما فُضِّلَتْ بالبيان والفصاحة ، وحلا منطقها فى الصدور وقبلته النفوس لأساليب حسنة ، وإشارات لطيفة ، تكسبه بيانا وتصوره فى القلوب تصويراً ، ولو كان الشعر هو المبالغة لكانت الحاضرة والمحدثون أشعر من القدماء ، وقد رأيناهم احتالوا للكلام حتى قربوه من فَهْم السامع بالاستعارات والمجازات التى استعملوها ، وبالتشكك فى الشبهين ، كما قال ذو الرمة :

فياظبيةَ الوَعْسَاء بينَ جلاجِلٍ وَبَيْنَ النّقا آ أَنْتِ أَمْ أَمّ سالم

فلو أنه قال * أنت أم سالم * على نفي الشك بل لو قال « أنت أحسن من الظبية » لما حل من القلوب محل التشكك . وكما قال جرير :

فإنكَ لوْ رأيتَ عَبيدَ تَيمٍ   وَتيماً قلتَ : أيُّهمُ العبيدُ

فلو قال « عبيدهم » أو « خير منهم » لما ظن به الصدق ، فاحتال فى تقريب المشابهة ؛ لأن فى قربها لطافة تقع فى القلوب وتدعو إلى التصديق .

وكذلك قول أبى النجم يصف عرق الخيل :

كأنه من عرَقٍ يُسَرْبَلُهْ   كَكُرْسفِ النَّدّافِ لولا بَلَلُهْ[1]

فإنه لو قال « إنه الكرسف » لم يكن فى حسن هذا ؛ لأنه يشهد بتقارب الشبهين إلى أن أوقع فى الشك . . والمبالغة فى صناعة الشعر كالاستراحة من الشاعر إذا أعياه إيراد معنًى حسن بالغ فيشغل الأسماع بما هو محال ، ويهول مع ذلك على السامعين ، وإنما يقصدها من ليس بمتمكن من محاسن الكلام أن تمكنه ، ولا يتعذر عليه ، وتنجذب كلما أرادها إليه ، انقضى كلامه .

وفيه كفاية وبلاغ، إلا أنه ــ فيما يظهر من فحواه ــ لم يرد إلا ما كان فيه بُعْد، وليس كل مبالغة كذلك ، ألا ترى أن التتميم إذا طلبت حقيقته كان ضرباً من المبالغة وإن ظهر أنه من أنواع الحشو المستحسن،وقد مرّ ذكره . وكذلك ما ناسب قول ابن المعتز يصف خيلا :

صَبَبْنا عليها ظالمينَ سِياطَنا   وطَارَتْ بها أيْدٍ سِراعٌ وأرْجُلُ[2]

وهذا عند جميع الناس من باب الحشو ، وهو عندى مبالغة ، وكذلك الإيغال ، وسيرد فى بابه إن شاء الله .

---

(١) الكرسف ــ بضم الكاف والسين بينهما راء مهملة ساكنة ــ القطن ، وهو الكرسوف أيضا ، وواحدته كرسفة . والنداف : الذى يضرب القطن بالمندف

(٢) انظر ص ٦٩ الآتية .

التقصى من المبالغة وحده

فمن أحسن المبالغة وأغربها عند الحذاق: التقصِّى، وهو بلوغ الشاعر أقصى ما يمكن من وصف الشيء، كقول عمرو بن الأيهم التغلبى:

وَنُكْرِمُ جارَنا ما دام فينا ... وَنُتْبِعه الكَرامةَ حيث كانا

فتقصَّى بما يمكن أن يقدر عليه فتعاطاه ووصف به قومه.

ترادف الصفات

ومن أغربها أيضاً ترادف الصفات، وفى ذلك تهويل مع صحة لفظ لا تحيل معنى، كقول الله تعالى: (أو كظلماتٍ فى بحرٍ لجىٍّ يغشاهُ موجٌ من فوقهِ موجٌ من فوقه سحابٌ، ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ).

الغلو

فأما الغُلوُّ فهو الذى ينكره مَنْ ينكر المبالغة من سائر أنواعها، ويقع فيه الاختلاف لا ما سواه مما بينت، ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه وعيبت الاستعارة، إلى كثير من محاسن الكلام: فمن أبيات المبالغة قول امرىء القيس:

كأن المدامَ وصوبَ الغمام ... وريحَ الخزامى ونَشْرَ القُطُرْ(١)

يُعَلُّ به بردُ أنيابها ... إذا غرَّد الطائرُ المستحر

فوصف فاها بهذه الصفة سَحَراً عند تغير الأفواه بعد النوم، فكيف تظنها فى أول الليل؟! ومثل ذلك قوله يصف ناراً وإن كان فيه إغراق:

نظرتُ إليها، والنجومُ كأنها ... مصابيحُ رُهْبانٍ، تُشَبُّ لِقُفَّالِ

يقول: نَظَرْتُ إلى نار هذه المرأة تشب لقفال والنجوم كأنها مصابيح رُهْبان، وقد قال:

---

(١) فى عامة الأصول « نشر العطر » بالعين المهملة، وهو تصحيف دعا إليه ذكر النشر، وإنما هو « نشر القطر » بقاف مثناة. والقطر ــ بضم فسكون وبضمتين ــ العود الذى يتبخر به، وقد قطر ثوبه ــ بتضعيف الطاء ــ وقطرت الجارية

تَنَوَّرْتها مِنْ أَذْرِعَاتٍ وأهلها ... بِيَثْرِبَ أدنى دارِها نَظَرٌ عالِ[1]

وبين المكانين بُعْدُ أيام ، وإنما يرجع القُفَّال من الغزو والغارات وَجْهَ الصباح ؛ فإذا رأوها من مسافة أيام وجه الصباح وقد خمد سَنَاها وكَلَّ موقدها فكيف كانت أول الليل ؟ ! ! وشبه النجوم بمصابيح الرهبان ؛ لأنها فى السحر يضعف نورها كما يضعف نور المصابيح الموقدة ليلها أجمع ، لاسيما مصابيح الرهبان ؛ لأنهم يكلون من سهر الليل فربما نعسوا ذلك الوقت ، وهذا مما أورده شيخنا أبو عبد الله .

وقال امرؤ القيس يصف فرساً :

لها ذَنَبٌ مثلُ ذَيْلِ العَرُوسِ ... تَسُدُّ به فرجَها من دُبُرْ

أراد طوله ؛ لأن العروس تجر ذيلها إما من الحياء وإما من الخيلاء .

وزعم الجاحظ أن قول غيلان ذى الرمة :

وَلَيْلٍ كجلْبابِ الْعَرُوسِ ادَّرَعْتُهُ ... بأَرْبعةٍ والشخصُ فى العين واحد

أراد به سُبُوغه لا لونه ، وأكثر الناس على خلاف قوله ، وأنا أرى أن هذا كقول عوف بن عطية بن الخَرِع التيمى من تيم الرباب يصف خيلا :

وَجَلَّلْنَ دَمْخًا قِنَاعَ العرو ... س تُدْنِى على حاجِبَيها الخِمَارَا

«دَمْخٌ» : جبل بعينه ، فأراد أن الخيل كسونه قناعا من الغبار هذه صفته .

ومن مُعْجِز المبالغة قول الله عز وجل : (سواءٌ منكم مَنْ أَسَرَّ القولَ ومَنْ جهرَ به ومن هو مستخفٍ بالليل وساربٌ بالنهار) فجعل من يُسِر القول كمن يجهر به ، والمستخفى بالليل كالسارب بالنهار ، وكل واحد منهما أشد مبالغة فى معناه وأتم صفة .

---

(١) انظر ص ٦٢ الآتية .

(٥٨) — باب الإيغال

حد الإيغال

وهو ضرب من المبالغة كما قدمت ، إلا أنه فى القوافى خاصة لا يَعْدُوها ، والحاتمى وأصحابه يسمونه التبليغ ، وهو تفعيل من بلوغ الغاية ، وذلك يشهد بصحة ما قلته ، ويدل على ما رتبته .

صفة أشعر الناس

وحكى الحاتمى عن عبد الله بن جعفر عن محمد بن يزيد المبرد قال : حدثنى التوزى قال : قلت للأصمعى : مَنْ أشعر الناس ؟ قال: الذى يجعل المعنى الخسيس بلفظه كبيراً ، أو يأتى إلى المعنى الكبير فيجعله خسيساً ، أو ينقضى كلامه قبل القافية ، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى ، قال : قلت : نحو من ؟ قال: نحو الأعشى إذ يقول :

كَناطِحٍ صَخْرَةً يوما ليفلقها فلم يَضِرْهَا وأوهى قَرْنَه الْوَعِلُ

فقد تم المثل بقوله : وأوهى قرنه ، فلما احتاج إلى القافية قال « الوعل » قال : قلت : وكيف صار الوعل مفضلا على كل ما ينطح ؟ قال : لأنه ينحط من قُنّة الجبل على قرنه فلا يضيره ، قال : قلت : ثم نحو من ؟ قال :[نحو]ذى الرمة بقوله :

قِفِ الْعِيسَ فى أطلالِ ميّةَ واسأَلِ رُسُوماً كأَخْلاقِ الرِّدَاء الْمُسَلْسَلِ

فتمم كلامه، ثم احتاج إلى القافية فقال « المسلسل» فزاد شيئاً ، وقوله :

أظنُّ الذى يجدى عليك سؤالها دموعا كتبديدِ الجمانِ المُفَصَّلِ

فتمم كلامه ، ثم احتاج إلى القافية فقال « المفصل » فزاد شيئاً أيضاً .

أول من ابتكر هذا النوع

وليس بين الناس اختلاف أن امرأ القيس أول من ابتكر هذا المعنى بقوله يصف الفرس :

إذا ما جَرَى شأْوَيْنِ وَابْتَلَّ عِطفُه تَقُولُ هزيز الريح مَرَّتْ بأَثْأَبِ

فبالغ فى صفته ، وجعله على هذه الصفة بعد أن يجرى شأوين ويبتلّ عطفه

بالعَرَقِ ، ثم زاد إيغالا فى صفته بذكر الأثأب ، وهو شجر للريح فى أضعاف أغصانه حفيف عظيم وشدة صوت ، ومثل ذلك قوله :

كأن عُيونَ الطَّيْرِ حَوْلَ خِبائنا وأرحُلِنا الجزعُ الذى لم يُثَقَّبِ

فقوله « لم يثقب » إيغال فى التشبيه ، واتبعه زهير فقال :

كأن فُتَاتَ العهنِ فى كلِّ منزل نزلْنَ به حَبُّ الْفَنَا لم يُحَطَّمِ

فأوغل فى التشبيه إيغالا بتشبيهه ما يتناثر من فُتَات الأرجوان بحب الْفَنَا الذى لم يحطم ؛ لأنه أحمر الظاهر أبيض الباطن ، فإذا لم يحطم لم يظهر فيه بياض البتة ، وكان خالص الحمرة ، وتبعهما الأعشى فقال يصف امرأة :

غَرَّاء فَرْعَاء مَصْقُولٌ عوَارِضُهَا تَمْشِي الْهُوَيْنَا كَمَا يَمْشِي الْوَجِي الوحِلُ

فأوغل بقوله « الوحل » بعد أن قال « الوجى » وكذلك قوله « الوعل[1] »

وكان الرشيد كثير العجب بقول صريع الغوانى:

إذا ما عَلَتْ مِنَّا ذؤابة شاربٍ تمشَّتْ بهِ مَشْيَ المقيد فى الوحْلِ

ويقول : قاتله الله! ما كفاه أن جعله مقيداً حتى جعله فى وحل، وأنا أقول: إنه بيت الأعشى[1] بعينه .

ومن الإيغال قول الطِّرِمَّاح العقيلى يصف فرساً بسعة المنخر :

لا يكتمُ الرَّبْوَ إلا رَيْثَ يخرجه من مَنْخِرٍ كوِجَارِ الثعلبِ الْخَرِبِ

فكونه كوجار الثعلب غاية فى المبالغة ، فكيف إذا كان خربا؟ .

ومن الإيغال الحسن قول الخنساء :

وإنَّ صَخْراً لتأْتمُّ الْهُدَاةُ به كأنَّهُ عَلَمٌ فى رأسهِ نارُ

فبالغت فى الوصف أشد مبالغة ، وأوغلت إيغالا شديداً بقولها « فى رأسه نار » بعد أن جعلته علماً ، وهو الجبل العظيم .

وأنشد الجاحظ :

ألوِّى حيازيمى بهن صبابةً كما تَتَلَوَّى الحية الْمُتَشَرِّقُ

(١) فى البيت الذى أنشده المؤلف أول التمثيل لهذا النوع .

فقوله « الحية المتشرق » إيغال ؛ لأنه أشد لتلوِّيه .

وكذلك قول جرير :

بات الفرزدق عائراً وكأنه قَعُوٌ تعاوره السقاةُ معار

وإذا كان مُعَاراً كان أشد لاستعماله وأقل للتحفظ عليه .

وقال النجاشي يذكر عبدَ الرحمن بن حسان :

لما أتاني ما يقول ودونه مسيرةُ شهرٍ للمطى المُفَرَّدِ

فأوغل بقوله « المفرد » إيغالا عجيبًا ؛ لأنه أسْيَرُ من المحمل .

وقال جميل :

إني لأكتمُ حبها إذ بَعْضُهُمْ فيمنْ يحبُّ كناشدِ الأغفال

« الناشد » طالب الضالة ، وإذا كانت غُفْلاً ليس فيها سِمَة كان أشد للبحث عليها ، وأكثر للسؤال والذكر .

ومن أحسن إيغال المحدثين قول مروان بن أبي حفصة :

هم القوم: إن قالوا أصابوا ، وإن دُعوا أجابوا ، وإن أعْطَوْا أطابوا وأجزلوا

فقوله « وأجزلوا » قد أتى به في نهاية الحسن .

وكذلك قول بشار بن برد :

وغَيْرَان من دون النساء كأنه أسامة ذو الشِّبْلَيْنِ حين يجوع

فقوله « حين يجوع » إيغال حسن .

وقال ابن المعتز :

وداع دعا والليلُ بيني وبينه فكنتُ مكان الظن منه وأعجلا

فقوله « وأعجل » زيادة وصف ، وإيغال ظاهر .

وقال أبو الطيب في رثاء أم سيف الدولة :

مَشى الأمراء حَوْلَيْهَا حُفَاة كأنَّ المروَ من زِفٍّ الرئال

« فالزف » : أصغر الريش وألينه ، ولا سيما ريش النعام ، ولم يرض بذلك حتى جعله زف الرئال ، شبه به المرو ـ وهو ما صغر من الحصى وحد ـ فهذا فوق كل مبالغة وإيغال .

من الإيغال الاستظهار

ومن هـذا نوع يسمى الاستظهار ، وهو قول ابن المعتز لابن طَبَاطَبَا العلوى أو غيره :

فأنتم بَنُو بِنْتِهِ دوننا ونحن بنو عمه المُسْلِمِ

فقوله « المسلم » استظهار ؛ لأن العلوية من بنى عم النبى عليه الصلاة والسلام أيضا أعنى أبا طالب ومات جاهليا، فكأن ابن المعتز أشار بحذقه إلى ميراث الخلافة.

وليس بين الإيغال والتتميم كبير فرق ؛ إلا أن هذا فى القافية لايعدوها ، وذلك فى حشو البيت .

اشتقاق الإيغال

واشتقاق الإيغال من الإبعاد ، يقال : أوغل فى الأرض ، إذا أبْعَدَ ، فيما حكاه ابن دريد ، وقال : وكل داخل فى شىء دخولَ مستعجل فقد أوغل فيه وقال الأصمعى فى شرح قول ذى الرمة :

كأن أصْوَاتَ من إيغَالِهِنَّ بنا أواخرِ الميس أصواتُ الفراريجِ

الإيغال : سرعة الدخول فى الشىء ، يقال : أوغل فى الأمر ، إذا دخل فيه بسرعة ، فعلى القول الأول كأن الشاعر أبعد فى المبالغة وذهب فيها كل الذهاب، وعلى القول الثانى كأنه أسرع الدخول فى المبالغة بمبادرته هـذه القافية .

وكلما [أ] كثرت من الشواهد فى باب فإنما أريد بذلك تأنيس المتعلم وتجسيره على الأشياء الرائعة. ولأريه كيف تصرّف الناس فى ذلك الفن، وقَلَّبُوا تلك المعانى والألفاظ

(٥٩) — باب الغلو

أسماؤه وميزته

ومن أسمائه أيضا الإغراق ، والإفراط ، ومن الناس من يرى أن فضيلة الشاعر إنما هى فى معرفته بوجوه الإغراق والغلو ، ولاأرى ذلك إلا مُحَالا؛ لمخالفته الحقيقة ، وخروجه عن الواجب والمتعارف . . وقد قال الحذاق : خير الكلام الحقائق ، فإن لم يكن فما قاربها وناسبها ، وأنشد المبرد قول الأعشى :

فَلَوْ أنَّ مَا أبْقَـيْنَ منى مُعَلَّقٌ بعـودِ ثُمَامٍ مَا تَأوَّدَ عُودُهَا

فقال : هذا متجاوز ، وأحسنُ الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه ، وأحسن منه ما أصاب الحقيقة فيه ، انقضى كلامه .

أصح الكلام

وأصح الـكلام عندى ما قام عليه الدليل ، وثبت فيه الشاهد من كتاب الله تعالى ، ونحن نجده قد قرن الغلو فيه بالخروج عن الحق ؛ فقال جل من قائل : (يا أهل الـكتاب لا تَغلُوا فى دينكم غيرَ الحقّ) .

تعريف الغلو لقدامة

والغلو عند قدامة : تجاوز فى نعت ما للشىء أن يكون عليه، وليس خارجا عن طباعه ، كقول النمر بن تَوْلَب فى صفة سيف شبه به نفسه :

تظلُّ تَحفِرُ عنه إنْ ضَرَبْتَ به بعد الذراعين والساقين والهادى

إذ ليس خارجا عن طباع السيف أن يقطع الشىء العظيم ثم يغوص بعد ذلك فى الأرض ، ولأن مخارج الغلو عنده على « تكاد » وعلى هذا تأول أصحاب التفسير قولَ الله تعالى : (وبَلَغَتِ القلوبُ الحناجِرَ) أى : كادت .

اختلاف الناس فى الإفراط

وقال الجرجانى فى كتاب الوساطة: والإفراطُ مذهب عام فى المحدثين، وموجود كثير فى الأوائل، والناس فيه مختلفون : من مستحسِنٍ قابل ، ومستقبح رادّ ، وله رسوم متى وقف الشاعر عندها ولم يتجاوز بالوصف حدها سَلِمَ ، ومتى تجاوزها اتسعت له الغاية ، وأدته الحال إلى الإحالة ، و إنما الإحالة نتيجة الإفراط ، وشعبة من الإغراق .

قول الحاتمى فى الغلو

وقال الحاتمى : وجدت العلماء بالشعر يعيبون على الشاعر أبيات الغلو والإغراق ، ويختلفون فى استحسانها واستهجانها ، ويعجب بعض منهم بها ، وذلك على حسب ما يوافق طباعه واختياره ، ويرى أنها من إبداع الشاعر الذى يُوجِبُ الفضيلة له ، فيقولون : أحْسَنُ الشعر أكْذَبُهُ ، وأن الغلو إنما يراد به المبالغة والإفراط ، وقالوا : إذا أتى الشاعر من الغلو بما يخرج عن

الموجود ويدخل فى باب المعدوم فإنما يريد به المثل وبلوغ الغاية فى النعت ، واحتجوا بقول النابغة ــ وقد سئل : مَنْ أشعر الناس ــ فقال : من استجيد كذبه وأضحك رديئه ، وقد طعن قوم على هذا المذهب بمنافاته الحقيقة ، وأنه لا يصح عند التأمل والفكرة ، انقضى كلامه .

من أبيات الغلو

ومن أبيات الغلو للقدماء قول مهلهل :

فَلَوْلاَ الريحُ أُسْمِعَ من بحُجْرٍ صَليلَ البيضِ تُقْرَعُ بالذُّكور

وقد قيل : إنه أكذب بيت قالته العرب ، وبين حُجْرٍ ــ وهى قصبة اليمامة ــ وبين مكان الوقعة عشرةُ أيام ، وهذا أشد غلواً من [قول] امرىء القيس[1] فى النار ؛ لأن حاسة البصر أقوى من حاسة السمع وأشد إدراكا . »

ومنها قول النابغة فى صفة السيوف :

تَقُدُّ السَّلُوقِيَّ المضاعَفَ نَسْجُه ويُوقِدْنَ بالصُّفَّاحِ نارَ الحباحب

وهو دون بيت امرىء القيس[1] فى تَنَوُّر صاحبة النار إفراطاً،ودون بيت النابغة قولُ النمر بن تَوْلَب فى صفة السيف أيضاً ،وقد أنشدته فيما مضى من هذا الباب[2]

واختار قوم على بيتى النابغة والنمر قولَ أبى تمام :

ويهتز مثل السيفِ لو لم تَسُلَّهُ يَدَانِ لَسَلَّته ظُباه من الغِمْدِ

ومن الغلو قولُ جرير :

فلو وُضِعَتْ فِقَاحُ بنى نُمَيرٍ على خَبَثِ الحديدِ إذا لذابا

لأنه شىء لا يذوب أبداً ، . وقد نعى على أبى نواس قوله :

وأَخَفْتَ أَهْلَ الشِّرْكِ حتى إنه لتخافك النُّطَفُ التى لم تُخْلَقِ

---

(١) هو قوله الذى أنشده من قبل (ص ٥٦ من هذا الجزء) :

تنورتها من أذرعات، وأهلها بيثرب ، أدنى دارها نظر عال

(٢) انظر ص ٦١ السابقة .

إذ جعل ما لم يخلق يخافه . . وكذلك قوله :

حتىّ الذى فى الرَّحْم لم يَكُ صُورَةً لِفُؤادِهِ من خَوْفِهِ خَفَقَانُ

من غلو المتنبي

وزعم بعض المتعقبين أن الذى كثر هذا الباب أبو تمام ، وتبعه الناس بعد، وأين أبو تمام مما نحن فيه ؟ فإذا صرت إلى أبى الطيب صرت إلى أكثر الناس غلواً ، وأبعدهم فيه همة ، حتى لو قَدَرَ ما أخْلى منه بيتاً واحدا ، وحتى تبلغ به الحال إلى ما هو عنه غنى ، وله فى غيره مَنْدُوحة ، كقوله :

يترشّفْنَ من فمى رشفاتٍ هُنَّ فيهِ أَحْلَى مِنَ التَّوْحِيدِ

و إن كان له فى هذا تأْويل ومخرج بجعله التوحيدَ غايةَ المثل فى الحلاوة بفيه .

وقوله :

لو كان ذو القرنينِ أعملَ رأيه لَمَّا أتى الظلماتِ صِرْنَ شمُوسا

أو كان صادف رأسَ عازرَ سيفُهُ فى يوم معركةٍ لأعْيا عيسى

أو كان لجُّ البحر مثْلَ يمينه ما انشقَّ حتى جاز فيه موسى

فما دعاه إلى هذا وفى الـكلام عوضٌ منه بلا تعلق عليه ؟ فـكيف إذا قال :

كأنِّى دَحَوْتُ الأَرْضَ من خِبْرَتِى بهَا كأنِّى بَنَى الإسكندرُ السدَّ من عزمى

فشبه نفسه بالخالق ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، ثم انحط إلى الإسكندر ، وربما أفسد أبو الطيب إغراقَهُ هـكذا ونقص منه بما يظنه إصلاحا له وزيادة فيه ، نحو قوله يصف شعره :

إذا قلته لم يمتنعْ من وصولهِ جِدَارٌ مُعَلًّى أوخباءٌ مطنب

فما وجه الخباء المطنب بعد الجدار المنيف ؟ بينا هو فى الثريا صار فى الثرى ! و إنما أراد الحاضرة والبادية ، وكذلك قوله :

تَصُدُّ الرياحُ الهُوجُ عنها مخَافَةً ويفزعُ منها الطيرُ أن يلقطَ الحَبا

فكم بين خوف الرياح الموج وصدودها ، و بين فزع الطير أن تلقط الحب؟ ولاسيما وأفزعُ الطير بهائمه التى تلقط الحب لضعفها وعدمها السلاح ، وأقل خيال أو تمثال يحمى مزروعات جمة ، وقد رجح صاحب الوساطة هذا البيتَ على قول أبى تمام :

فقد بثَّ عبدُ الله خوفَ انتقامِهِ ... على الليلِ حتى ما تَدِبُّ عقاربه

فاعتبروا يا أولى الأبصار .

ومما يشاكل قول أبى الطيب فى ألفاظه قول نصر الخابز أرزى[1] :

ذبتُ من الشوقِ فلو زُجَّ بى ... فى مقلةِ النائم لم ينتبه
وكانَ لى فيما مضى خاتم ... فالآن لو شئتُ تمنطقتُ بِهْ

فبين الإغراق والإغراق بَوْنٌ بعيد واختلاف شديد .

و إذا لم يجد الشاعر بداً من الإغراق ـ لحبه ذلك، ونزوع طبعه إليه ـ فليكن ذلك منه فى الندرة، و بيتا فى القصيدة إن أفرط ، ولا يجعل هِجِّيراه كما يفعل أبو الطيب .

أحسن الإغراق

وأحسن الإغراق ما نطق فيه الشاعر أو المتكلم بكَادَ أو ما شاكلها ، نحو كأنَّ ولو ولولا ، وما أشبه ذلك مما لم يناسب أبيات أبى الطيب المتقدم ذكرها فى البشاعة ، ألا ترى ما أعجب قول زهير :

لو كان يَقْعُدُ فوقَ الشمسِ من كرم ... قَوْمٌ بأحسابهم أو مجدِهم قَعَدُوا

فبلغ ما أراد من الإفراط ، و بنى كلامه عَلَى صحة .

ومما استحسنه الرواة ونص عليه العلماء قولُ امرىء القيس يصف سنانًا :

حملتُ رُدَيْنِيًّا كأنَّ شَبَاتَهُ ... سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بدُخَانِ[2]

(١) المشهور فى هذه النسبة « الخبزرزى » أو « الخبز أرزى » .

(٢) فى الديوان « كأن سنانه » وهو المحفوظ ، وهو الموافق لقول المؤلف « يصف سنانا » .

وإذا نظرت إلى قول أبى صخر :

تكاد يدى تَنْدَى إذَا مَا لَمَسْتُهَا وَيَنْبُتُ فى أطرافها الوَرَقُ النَّضْرُ

وقول أبى الطيب :

عجبتُ منْ أرْضٍ سَحَابُ أكُفِّهِمْ مِنْ فَوْقِهَا وصُخُورُهَا لاَ تُورِقُ

لم يخف عنك وجه الحكم فيهما ، على أن فى قول أبى الطيب بعض الملاحة والمخالفة لطبعه فى حب الإفراط وقلة المبالاة فيه ؛ إذ كان ممكنا أن يقول: إن الصخور أورقت ، ولغة القرآن أفْصَحُ اللغاتِ ، وأنت تسمع قول الله تعالى : (يكادُ البرقُ يَخْطَفُ أبصارَهم) وقوله : (إذا أخرجَ يدَه لم يكدْ يراها) وقوله : (يكادُ زيتُها يضىء ولولم تمسسه نارٌ)

اشتقاق الغلو

واشتقاق الغلو [من] المغالاة ، ومن غَلْوة السهم ، وهى مَدَى رَمْيته ، يقال : غاليت فلانا مغالاة وغِلاَء ، إذا اختبرتما أيكما أبعد غَلْوة سهم ، ومنه قول النبى عليه الصلاة والسلام : « جَرْىُ المُذْكِيات[1] غِلاء » وقد جاء فى حديث داحس « غلاء » و « غلاب » بالباء أيضا ، وإذا قلت : غَلاَ السعر غَلاَء ، فإنما تريد أنه ارتفع وزاد على ما كان ، وكذلك غَلَتِ القدر غَلْياً أو غَلَيَانًا ، إنما هو أن يَجيش ماؤها ويرتفع ، والإغراق أيضا أصله فى الرَّمْيِ ، وذلك أن تجذب السهم فى الوتَرِ عند النَّزْع حتى تستغرق جميعه بينك وبين حنية القوس ، وإنما تفعل ذلك لبعد الغرض الذى ترميه ، وهذه التسمية تدل على ما نحوتُ إليه وأشرتُ نحوه .

الإغراق

(٢) المشهور فى رواية هذا المثل : « جرى المذكيات غلاب » كما أشار المؤلف إليه ، والمذكية من الخيل : التى قد أتى عليها بعد قروحها سنة أوسنتان ، والغلاب : المغالبة . ومن رواه كالمؤلف أولا « غلاء » بالهمز فى آخره فإنما هو جمع غلوة ، يعنى أن جريها يكون غلوات ، ويكون شأوها بعيدا ، لا كالجذعان .

(٦٠) — باب التشكك

فائدة التشكك

وهو من مُلَح الشعر وطُرَفِ الكلام ، وله فى النفس حلاوة وحُسْنُ موقع ، بخلافُ ما للغلو والإغراق .

وفائدته الدلالة على قرب الشبهين حتى لا يفرق بينهما ، ولا يميز أحدهما من الآخر ، وذلك نحو قول زهير :

وَمَا أَدْرِى وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِى أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاء
فإن تكن النسَاء مُخَبَّآتٍ فَحُقٌّ لِكلِّ مُحْصَنَةٍ هِدَاء

فقد أظهر أنه لم يعلم أنهم رجال أم نساء ، وهذا أملح من أن يقول : هم نساء ، وأقرب إلى التصديق ؛ ولهذه العلة اختاروه كما تقدم القول فى بيت ذى الرمة :

أيا ظَبْيَةَ الوَعْسَاء بين جلاَجِلٍ وبين النّقا آأنت أم أمُّ سالم[1]

وبيت جرير

* فإنّكَ لو رأيْتَ عبيدَ تَيْمٍ[1] *

وبيت أبى النجم فى صفة عرق الخيل[1] .

وقال العَرْجِى[2] :

باللهِ يا ظَبيَاتِ القَاعِ قُلْنَ لنَا لَيْلاَىَ مِنْكُنّ أمْ لَيْلَى منَ البشر[2]

(١) انظر (ص ٥٣ و ٥٤) من هذا الجزء .

(٢) اضطرب العلماء فى نسبة هذا البيت ؛ فزعم قوم أنه لمجنون ليلى ، وكأنهم اغتروا بذكر ليلى فيه ، وقد بحثت جميع ديوانه فلم أجده ، وقد نسبه العينى كالمؤلف إلى العرجى ، ونسبه العباسى لأعرابى ولم يسمه ، ونسبه الباخرزى لبدوى سماه كاهلا الثقفى ، ونسبه قوم للحسين بن عبد الله (وانظر حواشينا الممتعة على شرح الأشمونى ج ١ ص ٢١٣) .

وإنما سلك طريق ذى الرمة .

وقال سَلْم بن عمرو الخاسر :

تَبَدَّتْ فَقُلْتُ الشَّمْسُ عِنْدَ طُلُوعِها ... بِجِلْدٍ غَنِيِّ اللَّوْنِ عن أَثَرِ الْوَرْسِ

فَلَمَّا كَرَرْتُ الطَّرْفَ قُلْتُ لصَاحِبي ... عَلَى مِرْيَةٍ : مَا هَا هُنَا مَطْلَعُ الشَّمْسِ

فأنت ترى كيف موقع هذا الشك من اليقين ؟ وكيف حلاوته فى الصدر وقبوله ؟ ؟ فإنه لو كان يقيناً ما بلغ هذا المبلغ .

وتناول هذا المعنى أبو زيد الوضاح بن محمد الثقفى فقال يمدح المستعين بالله :

وقائلة والليلُ قد نَشَرَ الدُّجى ... فَغَطَّى بها ما بين سَهْلٍ وقَرْدَدِ

أرى بارقاً يَبدو من الجَوْسَقِ الذى ... به حــلَّ مِيرَاثُ النبيِّ مُحَمَّدِ

فَظَلَّ عَذَارَى الحىِّ ينظِمْنَ تحته ... ظَفَارِيَةَ الجزعِ الذى لمْ يُسَرَّدِ

أضاءتْ به الآفاقُ حتى كأنَّما ... رأينا بِنِصْفِ الليل نورَ ضُحَى الْغَدِ

فقلتُ : هو البدرُ الذى تَعْرِفينهُ ... وإلا يكنْ فالنورُ من وجهِ أحمد

وأما قول أبى تمــام حين قصد عبد الله بن طاهر إلى خراسان يذكر شك رفقائه واستبعادهم الطريق :

يَقُولُ فى قُومِسٍ صَحْبِي وَقَدْ أَخَذَتْ ... مِنَّا السُّرَى وخُطَا المَهْرِيَّةِ القُودِ :

أَمَطْلَعَ الشمسِ تَبْغِى أنْ تَؤُمَّ بنا ؟ ... فقلت : كَلاَّ ولــكنْ مَطْلَعَ الجودِ

فقد صرف المعنى فيه عن وجهه ، وخالف فيه قصده ، ونسب ا.. ت إلى غيره ، وهو بعيد من قول سَلْم ، وليس ذكرهما جميعاً مطلع الشمس .. وة ، ولا عليه مُعَوَّل . . وقال ابن مَيَّادة :

وَأُشْفِقُ مِنْ وَشْكِ الْفِرَاقِ وإننى ... أَظُنُّ ـ لَمَحْمُولٌ عَلَيْه فراكبه

فوالله ما أدرى : أيغلبنى الهوى ... إذا جدَّ جِدُّ البين أم أنا غالبه ؟ !

فقوله فى البيت الأول « أظن » مليح جداً ، وكذلك قوله فى البيت الثانى

« ما أدرى أيغلبنى الهوى أم أنا غالبه » .

وأخذ هذا المعنى ابن أبى مية وزاده ملاحة فقال :

فديتكَ لم تشبع ولم ترومن هَجْرِى أيُسْتَحْسَنُ الهجرانُ أكْثَرَ من شهر

أرانى سأسلو عنك إن دام ما أرى بلا ثقةٍ، لكن أظن ولا أدرى

وقد أحسن أبو الطيب فى قوله :

أرِيقُكِ أمْ ماء الغَمَامةِ أم خَمْرُ؟؟ بِفِيَّ بَرُودٌ وَهْوَ فى كبدى جَمْرُ

لولا أنه كدر صفوه ومرر حلوه بما أضاف إليه من قوله :

أذَا الغُصْنُ أمْ ذَا الدِّعْصُ أمْ أنْتِ فِتْنَةٌ وَهَذَا الَّذِى قَبَّلْتُه البَرْقُ أمْ ثَغْرُ ؟

ولله در أبى نُوَاس إذ يقول :

ألا لا أرى مثلى آمترى اليَوْمَ فِى رَسْمِ تَغَصُّ به عَيْنِى وَيَلْفِظُهُ وَهْمِى

أتَتْ صُوَرُ الأشْياء بَيْنِى وبَيْنَهُ فَظَنِّى كَلَا ظَنَّ وَعِلْمِى كلا عِلْمِ

ويروى « وجهلى كلا جهل » .

وأول من نطق بهذا المعنى امرؤ القيس :

أول من نطق بهذا المعنى

لمن طللٌ دارسٌ آيُهُ أضرَّ بِهِ سالِفُ الأَحْرُسِ[1]

تنكَّرُهُ العَيْنُ من جانبٍ ويعرفه شَغَفُ الأنْفُسِ

وقال أعرابى فى معنى أبيات الوَضَّاح بن محمد :

أقُولُ والنجم قد مالَتْ مَيَاسِرُهُ إلى الغروبِ : تأمَّلْ نظرَةً حارِ

ألمحَةً من سَنَا بَرْقٍ رأى بصرى وَوَجْهُ نُعْم بدا لى أم سَنَا نَارِ

بل وجه نُعْمٍ بدا والليلُ مُعْتَكِرٌ فلاحَ من بَيْنِ حُجَّابٍ وأسْتارِ

(١) الطلل : ما شخص من آثار الديار ، دارس : عاف ، آيه : جمع آية ، والهاء ضمير الطلل ، وارتفاعه على أنه فاعل بدارس ، سالف : ماضى ، الأحرس : جمع حرس وهو الدهر .

٦١ ـ باب الحشو وفضول الكلام

أسماؤه وحده

وسماه قوم الاتكاء ، وذلك أن يكون فى داخل البيت من الشعر لفظ لا يفيد معنى ، وإنما أدخله الشاعر لإقامة الوزن ، فإن كان ذلك فى القافية فهو استدعاء ، وقد يأتى فى حَشْو البيت ما هو زيادة فى حسنه وتقوية لمعناه : كالذى تقدم من التتميم ، والالتفات ، والاستثناء ، وغير ذلك ، مما ذكرته آنفاً .

أمثلة من الحشو

من ذلك قول عبد الله بن المعتز[1] يصف خيلا :

صَبَبْنَا عليها ظالمـين سِيَاطَنَا ... فطارت بها أيدٍ سراعٌ وأرْجُلُ[1]

وقد مرّ ذكره فى باب[1] المبالغة ، فقوله « ظالمين » حشو أقام به الوزن ، وبالغ فى المعنى أشَدَّ مبالغة من جهته ، حتى علمنا ضرورة أن إتيانه بهـذه اللفظة التى هى حشو فى ظاهر الأمر أفضل من تركها ، وهذا شبيه بالتتميم ..

وقال الفرزدق :

ستأْتيك مِنِّى ـ إنْ بَقيتُ ـ قصائدٌ ... يُقَصِّرُ عن تحبيرها كلُّ قائل

فقوله « إن بقيت » حشو فى ظاهر لفظه ، وقد أفاد به معنى زائداً ، وهو شبيه بالالتفات من جهة ، وبالاحتراس من جهة أخرى ، فما كان هكذا فهو الجيد ، وليس بحشو إلاّ على المجاز ، أو بعد أن يُنْعَتَ بالجودة والحسن ، أو يضافا إليه ، وإنما يطلق اسم الحشو على ما قدمت ذكره ممـا لا فائدة فيه .

وقد أتى العَتّابى بما فيه كفاية حيث يقول :

إنّ حَشْوَ الكلام من لُكْنَةِ المر ... ء وإيجَازَهُ مِنَ التَّقْوِيم

فجعل الحشو لكنة ، وليس كل ما يحشى به الكلام لزيادة فائدة لكنه ،

(١) انظر (ص ٥٤) من هذا الجزء .

وإنما أراد ما لا حاجة إليه ولا منفعة ، كقول أبي صفوان الأسدى يذكر بازياً :

ترى الطَّيْرَ والوحشَ من خوفه حَوَاجِرَ منه إذا ما اغْتَـــدَى

فقوله « منه » بعد قوله « من خوفه » حشو لا فائدة فيه ، ولا معنى له ، وكذلك قول أبي تمام يصف قصيدة :

خذها ابْنةَ الفكرِ المهذبِ فى الدجى واللَّيْلُ أسْـــودُ حَالكُ الجلباب

فقوله « الدجى » حشو ؛ لأن فى القسم الثانى ما يدل عليه من زيادة استعارتين مليحتين ، فإن لم يكن فى القسيم الأول حشو كان القسيم الثانى بأسره فضلة.

وقال أبو الطيب فى نحو من ذلك :

إذا اعتلّ سيفُ الدَّولةِ اعْتَلَّتِ الأرض

وَمَنْ فَوْقَهَا والبأسُ والكَرَمُ المَحْض

فقوله « والبأس » حشو ؛ لأن قوله « ومن فوقها » دال على الإنس والجن جميعاً ، والبأس والكرم جميعا ، اللهم إلا أن يحمله على تأويلهم فى قول الله تعالى : (فيهما فاكهة ونخل ورمان) فأعادَ ذِكْرَهما وهما من الفاكهة لفضلهما، وقوله تعالى: (مَن كانَ عَدُوّاً للهِ وملائكتِه ورُسله وجبريلَ وميكالَ) فإن هذا سائغ وليس بحشو حينئذ .

ومن الحشو قول الكَلْحَبة اليربوعى :

إذا المرء لم يَغْشَ الكريهةَ أَوْشَكَتْ حِبالُ الْهُوَيْنَا بالْفَتَى أنْ تَقَطَّعَا

فقوله « بالفتى » حشو ، وكان الواجب أن يقول « به » لأن ذكر المرء قد تقدم ، إلا أن يريد فى قوله بالفتى الزراية والأطنوزة[1] فإنه يحتمل .

وقال زيد الخيل يخاطب كعب بن زهير :

(١) الأطنوزة : من الطنز ــ بفتح الطاء وسكون النون ، وفى آخره زاى ــ وهو السخرية ، وباب فعله نصر ، والرجل طناز ــ بالفتح وتشديد النون ــ قال صاحب المختار : « وأظنه مولدا أو معربا » اهـ .

يَقُولُ : أرى زيداً وقد كان معدماً أراه لَعَمْرِى قَدْ تَمَوَّلَ واقْتَنَى

فقوله « أراه لعمرى » حشو واستراحة يُسْتَغْنَى عنها بقوله « أرى زيداً »

من الكلمات التى يكثر بها الحشو

ومما يكثر به حشو الكلام « أضحى، وبات ، وظل ، وغدا ، وقد ، ويوماً» وأشباهها ، وكان أبو تمام كثيراً ما يأتى بهما ، ويكره للشاعر استعمال « ذا ، وذى ، والذى ، وهو ، وهذا ، وهذى » وكان أبو الطيب مولعاً بها ، مكثراً منها فى شعره ، حتى حمله حبه فيها على استعمال الشاذ وركوب الضرورة فى قوله:

لَوْ لم تكن مِنْ ذَا الْوَرَى اللَّذْ مِنْكَ هو عَقِمَتْ بِمَوْلِدِ نَسْلِها حَوَّاء

وكذلك يكره للشاعر قوله فى شعره « حقاً » إلا أن تقع له موقعها فى قول الأخطل :

فأَقْسَمَ المجدُ حَقًّا لا يُحَالفهم حتَّى يُحَالفَ بطنَ الرَّاحةِ الشَّعَرُ

فإن قوله ههنا « حقاً » زاد المعنى حسناً وتوكيداً ظاهراً .

ولقد أحسن عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فى قوله لابن المعتز :

ولو قُبِلَتْ فى حادث الدهر فدية لَقُلْنَا على التحقيق نحنُ فداؤه

فقوله « على التحقيق » حشو مليح فيه زيادة فائدة .

ومن الناس من يسمى هذا النوع من الكلام ارتفاداً ، وأنشد بعض العلماء قول قيس بن الخطيم :

قَضَى لها الله حينَ صَوَّرَهَا الـــخَالِقُ أن لا يُكِنَّهَا سَدَفُ

والاتكاء عنده والارتفاد هو قول الشاعر « صورها الخالق » لأن اسم الله تعالى قد تقدم .

ووجدت الحذاق يعيبون قول ابن الحدادية – وهى أمه ، واسمه قيس بن منقذ:

إنَّ الفؤَادَ قَدَ امْسَى هائماً كَلِفاً قَدْ شَفَّهُ ذِكْرُ سلمى اليومَ فانتكسا

لحشوه بـ« قد » فى موضعين من البيت ثم بـ« أمسى » وبـ« اليوم » على تناقضهما.

وعاب الحاتمى على الأعشى قوله :

فرميت غفلةَ قلبه عن شاته فأصبت حبةَ قلبها وطحالها

لأن تكرير « القلب » عنده حشو لا فائدة فيه ، وهذا تعسف من الحاتمى لأن قلبه غير قلبها ؛ فإنما كرر اللفظ دون المعنى ، ورأيت روايته فى أكثر النسخ « حبة قلبه وطحالها » وهو غلط ، ومن ههنا عابه فيما أظن ، ومن الناس من روى « فرميت غفلة عينه عن شاته » وهى رواية مشهورة صحيحة .

ونعَوْا على أبى العِيَالِ الهذلى قوله:

ذكرتُ أخى فعاودنى صُداعُ الرأسِ والْوَصَبُ

لأن « الصداع » من أدواء الرأس خاصة ، فليس لذكر الرأس معه معنى ؛ وعلى جميل قوله :

ومَا ذَكَرَتْكِ النَّفْسُ يا بُثْنَ مَرَّةً مِنَ الدَّهْرِ إلاّ كادَتِ النَّفْسُ تَتْلَفُ

فتكرير « النفس » ليس له وجه ههنا ، وللتكرير موضع يحسن فيه ، وسيرد إن شاء الله فى بابه .

من الحشو التفصيل

ومن الحشو نوع سماه قدامة التفصيل — بالفاء — وزعم قوم أنه بالعين كأنهم يجعلونه اعوجاجاً من قولهم : ناب أعْصَلُ ، وجعله آخرون بالعين وضاد معجمة ، كأن عندهم من : تعضل الولد ، إذا عَسُرَ خروجه واعترض فى الرحم ، وظاهر البيت الذى أنشده قدامة يدل على أنه التفصيل — بالفاء — وهو قول دريد ابن الصمة :

وَبلِّغْ نميراً — إنْ عَرَضْتَ — ابْنَ عَامِرٍ وأىَّ أخٍ فى النائبات وطالب

ويجرى هذا المجرى قول أبى الطيب، بل هو أقبح منه :

حَمَلْتُ إليه من لسانى حَدِيقَةً سَقَاهَا الحِيا سَقْىَ الرياضَ السحائبِ

لأن التفرقة بين النعت والمنعوت أسهل من التفرقة بين المضاف والمضاف إليه، وهما بمنزلة اسم واحد ، فإذا شئت أن تجعل بيت ابن الخطيم « حين صورها الخالق » من هذا النوع جاز لك ؛ فيكون التقدير قضى لها الله الخالق حين صورها .

٦٢— باب الاستدعاء

حد الاستدعاء

وهو ألاَّ يكون للقافية فائدة إلا كونها قافية فقط ، فتخلو حينئذ من المعنى كقول عدى القرشى ، أنشده قدامة:

وَوُقيتَ الحتوفَ مِنْ وَارِثٍ وا لٍ ، وَأبْقَاكَ صَالِحًا رَبُّ هُودِ

فإنه لم يأت لهود النبى عليه السلام ههنا معنى إلا كونه قافية .

وما أعجب السيد الحميرى فى قوله :

أقسم بالفجر و بالعشرِ والشفع والوتر ورب لقمان

فى منزلٍ محكم ناطق بنور آياتٍ و برهان

فالفجرُ فجر الصبح والعشرعشــرُ النحر ، والشفعُ نجيان

محمــدَ وابن أبى طالب والوتر رب العزة البانى

بانِى سَمٰواتٍ بنـاها بِلاَ تقديرِ إنس ولا جان

فانظر إلى قوله « رب لقمان » ما أ كثر قَلَقَه وأشدَّ ركا كته ! ! ! وأما قوله « البانى » فقد خرج فيه من حد اللين والبرد ، وتجاوز فيه الغاية فى ثقل الروح ، والله حسبه .

ومن أناشيد قدامة قول على بن محمد صاحب البصرة :

وسابغة الأذيال زَغْفٍ مفاضةٍ تـكنَّفَهَا مـنى نِجـادٌ مخطط

فلا أدرى معنى هذا الشاعر فى تخطيط النجاد ، وهذا أقل مافى تكلف القوافى الشارده إذا ركبها غير فارسها ، وراضها غيرُ سائسها .

٦٣ — باب التـكرار

متى يحسن؟ ومتى يقبح؟

وللتـكرار مواضع يحسن فيها ، ومواضع يقبح فيها ، فأ كثر مايقع التـكرار فى الألفاظ دون المعانى ، وهو فى المعـانى دون الألفاظ أقل ، فإذا تـكرر

اللفظ والمعنى جميعاً فذلك الخِذْلانُ بعينه ، ولا يجب للشاعر أن يكرر اسماً إلا على جهة التشوق والاستعذاب ، إذا كان فى تغزل أو نسيب . . كقول امرىء القيس ، ولم يتخلص أحد تخلصه فيما ذكر عبد الكريم وغيره ، ولا سَلِمَ سلامته فى هذا الباب :

دِيارٌ لسَلْمى عافياتٌ بذِى الخال ألحّ عليها كلُّ أسْحَمَ هَطّالِ
وتَحْسِبُ سلمى لا تَزالُ كعهدنا بوَادِى الْخُزَامَى أو على رَأْسِ أوعال
وتحسِبُ سلمى لا تَزالُ تَرَى طَلاً مِنَ الوحش أو بَيْضاً بمَيْثاءَ مِحْلال
لَيالِىَ سَلْمى إذ تُرِيكَ مُنَضَّداً[1] وَجِيداً كجيدِ الرِّيم لَيْسَ بِمِعْطالِ

وكقول قيس بن ذريح :

ألا لَيْتَ لُبْنَى لم تكن لىَ خُـلّةً وَلم تَلْقَنِى لُبْنَى وَلَمْ أدْرِ ماهِيَا

أو على سبيل التنويه به ، والإشارة إليه بذكر ، إن كان فى مدح كقول أبى الأسد :

ولائمةٍ لامَتْكَ يا فَيْضُ فى النـــدى فقلتُ لها : هَلْ يَقْدَحُ اللَّوْمُ فى البحر؟
أرادت لتثنى الفيضَ عن عادة الندى وَمَنْ ذَا الذى يَثْنِى السَّحَابَ عن القَطْرِ ؟!
كأنّ وفودَ الفيض يوم تحمّـلوا إلى الفيض لاقَوْا عنده ليـــلة القدر
مواقعُ جـــودِ الفيض فى كل بلدة مواقعُ ماء المزنـــِ فى البلد القَفْرِ

فتكرير اسم الممدوح ههنا تنويه به ، وإشارة بذكره ، وتفخيم له فى القلوب والأسماع.
وكذلك قول الخنساء :

وإنّ صَخْراً لمولانا وَسَيِّدُنا وإنْ صَخْراً إذا نَشْتُو لَنَحّارُ
وإنّ صَـخْراً لتأتمُّ الهُدَاة به كأنه عَلَمٌ فى رأســـه نار

---

(١) فى إحدى روايات الديوان « إذ تريك منصبا » وأراد ثغرا متسقا مستويا

أو على سبيل التقرير والتوبيخ . كقول بعضهم : •

إلى كم وكم أشياءِ مِنْـكُمْ تَرِيبُنى أُغَمِّضُ عنها لست عنها بذى عمى

فأما قول محمد بن مُنَاذر الصُّبَيْرى (١) فى معنى التكثير :

كم وكم كم كم كم وكم كم كم وكم قالَ لى : أنجِزَ حُرٌّ مَاوَعَدْ

فقد زاد على الواجب ، وتجاوز الحد .

ولما أنشدوا للصاحب أبى القاسم إسماعيل بن عباد قول أبى الطيب :

عَظُمْتَ فلما لم تُكَلَّمْ مَهَابَةً تواضَعْتَ،وهو العظم عظما عن العظم

قال : ما أكثر عظام هذا البيت مع أنه من قول الطائى :

تَعَظَمْتَ عَنْ ذاكَ التعَظُّم فيهمُ وأوْصَاكَ عظمُ القدر أن تَتَنَبَّلاَ

ومن المعجز فى هذا النوع قول الله تعالى فى سورة الرحمن : (فبأىِّ آلاء ربكما تكذِّبان) كلما عدّد منة أو ذكَّر بنعمة كرَّرَ هـذا . وقد كرر أبو كبير الهذلى قوله :

فإذا وذلك لَيْسَ إلا ذكْرُهُ وإذا مضى شىء كأنْ لم يفعل

على بعض الروايات فى سبعة مواضع من قصيدته التى أولها :

أزُهَيْرُ هَلْ عَنْ شيبةَ من مَعْدَل أم لا سبيلَ إلى الشبابِ الأول؟؟

كلما وصف فصلا وأتمه كرر هذا البيت .

أو على سبيل التعظيم للمحكى عنه، أنشد سيبويه :

لا أرَى المَوْتَ يَسْبقُ المَوْتَ شَىْء نَغَّصَ المَوْتُ ذَا الْغِنَى وَالْفَقِيرَا

أو على جهة الوعيد والتهديد إن كان عتاب موجع ، كقول الأعشى ليزيد ابن مسهر الشيبانى :

أبا ثَابِتٍ لا تَعْلَقَنْكَ رِمَاحُنَا أبا ثابتٍ أقْصِرْ وَعِرْضُكَ سَالِمُ

وَذَرْنَا وقَوْماً إن هُمُ عمدوا لنا أبا ثابتٍ وَاقْعُدْ فإنكَ طاعمُ !!

---

(١) فى عامة أصول هـذا الكتاب « البصيرى » بتقديم الباء ، وإنما هو « الصبيرى » بتقديم الصاد على الباء ــ نسبة إلى مواليه بنى صبير بن يربوع

أو على وجه التوجع إن كان رثاء وتأبيناً ، نحو قول متمم بن نويرة :

وقالوا : أتبكى كلَّ قبر رأيتَهُ ... لقبرٍ ثَوَى بين اللوَى فالدكادك ؟؟

فقلت لهم: إن الأَسى يَبْعَثُ الأسى ... دَعُونى فهـذا كله قبرُ مالك

وأَوْلىٰ ما تكرر فيه الكلام باب الرثاء ؛ لمكان الفجيعة وشدة القرحة التى يجدها المتفجع ، وهو كثير حيث التمس من الشعر وجد .

أو على سبيل الاستغاثة وهى فى باب المديح ، نحو قول العديل بن الفرخ :

بَنِى مِسْـمَعٍ لَوَلا الْإِلٰهُ وأَنتُمُ ... بَنِى مِسْمَعٍ لم يُنْـكِرِ الناسُ مُنْـكَرَا

ويقع التكرار فى الهجاء على سبيل الشهرة ، وشدة التوضيع بالمهجو، كقول ذى الرمة يهجو المرئِىَّ :

تسمى امرأ القيس بن سَعْدٍ إذا اعتزت ... وتأبى السبالُ الصُّهْبُ والأُنفُ الْحُمْرُ

ولكنَّا أصلُ امرىء القيس مَعْشَرٌ ... يَحِلُّ لهم لحم الخنـــازير وَالْخَمْرُ

نصاب امرىء القيس العبيد وأرضُهم ... مَر[(١)] المســاحى لا فلاةٌ ولا مصر

تَخَطَّى[(٢)] إلى الفَقْرِ امرؤ القيس؛ إنه ... سَوَاءٌ عَلَى الضَّيْفِ امْرُؤُ القيس والْفَقْرُ

تحب امرؤُ القيس القِرَى أن تنَاله ... وتأبى مقاريها إذا طلع الفجـر[(٣)] .

هل الناسُ إلا يا امرأ القيس غادرٌ ... ووافٍ وما فيكم وفاء ولا غـــدر؟

وكذلك صنع جرير فى قصيدته الدَّمَّاغة التى هجا بها راعى الإبل؛ فإنه كرر « بنى نمير » فى كثير من أبياتها .

ويقع أيضاً على سبيل الازدراء والتهكم والتنقيص ، كقول حماد عَجْرَد لابن نوح ، وكان يتعرب :

---

(١) فى الديوان « مجر المساحى » .

(٢) فى عامة الأصول « تخلى إلى القفر » بتقديم المثناة على الموحدة ، وكذا فى قافية البيت ، وهو تصحيف ، وما أثبتناه عن الديوان .

(٣) فى نسخة « إذا طلع النسر » .

يابْنَ نُوح يا أخا الْـــحِلْسِ ويا ابْنَ القَتَبِ[1]
ومن نشَـــــا والِدُهُ بين الربا والكُثُبِ
يا عـــربى يا عـربى يا عـــربى يا عـربى

ومن المعيب فى التكرار قولُ ابن الزيات :

أتعزِفُ أم تقيم على التصابى ؟ فقد كثرتْ مُناقلة العتاب
إذا ذكر السلوُّ عن التصابى نفرت من اسمه نفر الصعاب
وكيف يُلامُ مثلُكَ فى التصابى وأنتَ فتى المجانَةِ والشَّبَاب ؟!!
سأعزف إن عزفت عن التصابى إذا مالاح شيـــب بالغُراب
ألم ترنى عَدَلْتُ عن التصابى فأغرَتْنى الملامةُ بالتصابى ؟ ! !

فملأ الدنيا بالتصابى ، على التصابى لعنة الله من أجله ، فقد برد به الشعرُ ، ولا سيما وقد جاء به كله على معنى واحد من الوزن،لم يعدُ به عروض البيت،وأين هذا من تكريره على جهة التفخيم فى قوله للحسن بن سهل من قصيدة :

إلى الأمير الحسن استجدتُها أىّ مَزَارٍ وَمُنَــاخٍ وَمَحَلْ
أىّ مَزَار ومُنَــاخ ومحــل لخائفٍ وَمُسْتَرِيشٍ ذِى أَمَلْ

وهذا كقول امرىء القيس :

تَقَطَّعُ أسْبَاب اللُّبَانة وَالْهَوَى عَشِيَّةَ جَاوَزْنَا حَمَاةَ وَشَيْزَرَا
عَشية جاوزنا حمـــاة وشيزرا أخو الجهدلايلوِى علىمَنْ تَعَذَّرَا[2]

من تكرير المعانى

ومن تكرير المعانى قول امرىء القيس ، وما رأيت أحداً نبه عليه :

---

(١) هذه الأبيات من الرجز المجزو ، وقد حذف من صدر أولها سبب خفيف
(٢) يروى هــذا البيت هــكذا :
بسير يضج العود منه يمنه أخو الجهد لا يلوى على تعذرا
وحماة وشيزر : مدينتان من مدن الشام،والعود: المسن من الإبل ، يمنه : يضعفه أخوالجهد:السائق المجدوأرادبه نفسه، لا يلوى :لايلتفتأولا يبقى،تعذرا :قدمعذرا.

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت فى مصامها بأمراس كتان إلى صم جندل

فالبيت الأول يغنى عن الثانى ، والثانى يغنى عن الأول ، ومعناهما واحد ؛ لأن النجوم تشتمل على الثريا ، كما أن يذبل يشتمل على صم الجندل ، وقوله « شدت بكل مغار الفتل » مثل قوله « علقت بأمراس كتان »

و يقرب من ذلك وليس به قول كثير:

و إنى وتهيامى بعزة بعدما تخليت مما بيننا وتخلت
لكالمرتجى ظل الغمامة كلما تبوأ منها للمقيل اضمحلت
كأنى و إياها سحابة ممحل رجاها فلما جاوزته استهلت

إلا أن كثيراً تصرف ، فجعل رجاء الأول ظل الغمامة ليقيل تحتها من حرارة الشمس فاضمحلت وتركته ضاحياً ، وجعل الممحل فى البيت الثانى يرجو سحابة ذات ماء فأمطرت بعد ما جاوزته .

ومن مليح هذا الباب ما أنشدنيه شيخنا أبو عبد الله محمد بن جعفر لابن المعتز ، وهو قوله :

لسانى لسرى كتوم كتوم ودمعى بحبى نموم نموم
ولى مالك شفنى حبه بديع الجمال وسيم وسيم
له مقلتا شادن أحور ولفظ سحور رخيم رخيم
فدمعى عليه سجوم سجوم وجسمى عليه سقيم سقيم

باب منه

ذكر ابن المعتز أن الجاحظ سمى هذا النوع المذهب الكلامى .

قال ابن المعتز: وهذا باب ما علمت أنى وجدت منه فى القرآن شيئاً ، وهو ينسب إلى التكلف ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

قال صاحب الكتاب : غير أن ابن المعتز قد ختم بهذا الباب أبواب البديع الخمسة التي خصها بهذه التسمية ، وقدمها على غيرها ، وأنشد للفرزدق :

لكل امرىء نَفْسَانِ : نَفْسٌ كريمة وَأُخْرَى يُعاصيها الفتى ويُطيعُهَا

ونفسك من نفسيك تَشْفع للندى إذا قلَّ من أحرارهن شَفِيعُهَا

وأنشد لآخر ، ولا أظنه إلا إبراهيم بن العباس :

وَعَلَّمْتِنِي كَيْفَ الهوى وجَهِلْتِهِ وعَلَّمَكُمْ صَبْرِي على ظلمكم ظلمى

فأعلم مالِى عندكم فيميلُ بى هواى إلى جهلى وأُعْرِضُ عن علمى

وعاب على أبي تمام قوله :

فالمَجْدُ لا يرضى بأن ترضى بأن يَرْضَى المُؤَملُ منك إلاَّ بالرضا

وحكى أن إسحاق الموصلي سمع الطائي ينشد و يكثر من هذا الباب وأمثاله عند الحسن بن وهب ، فقال : يا هذا ، لقد شددت على نفسك .

وأنشد ابن المعتز لنفسه :

أسرفت فى الكتمان وذاك منى دهانى

كتمت حبك حتى كتمته كتمانى

فلم يكن لِىَ بُدٌّ من ذكره بلسانى

وهذه الملاحة نفسها ، والظَّرْفُ بعينه .

ومن هذا الباب نوع آخر هو أولى بهذه التسمية من كثير مما ذكره المؤلفون، نحو قول إبراهيم بن المهدى يعتذر إلى المأمون من وثوبه على الخلافة :

البرمنك وِطَاء العذر عندكَ لى فيما فعلتُ ، فلم تعذل ولم تَلُمِ

وقام علمك بى فاحتجَّ عندكَ لى مقامَ شاهدِ عدلٍ غيرِ مُتَّهَمِ

وكذلك قول أبي عبد الرحمن العطوى :

فَوَحَقِّ البيانِ يَعْضُدُه البُرْ هَانُ فِى مَأْقِطِ أَلَدِّ الخِصامِ
ما رأينا سوى الحبيبة شيئاً جمعَ الحسنَ كله فِى نظامِ
هى تجرى مجرى الإصابةِ فى الرأ ى ومَجْرَى الأرواح فى الأجسام

وقد نقلت هذا الباب نقلا من كتاب عبد الله بن المعتز ، إلا ما لاخفاء به عن أحد من أهل التمييز ، واضطرنى إلى ذلك قلة الشواهد فيه ، إلاَّ ما ناسب قول أبى نُوَاس :

سَخُنْتَ من شدة البرودةِ حَتَّـــى صِرْتَ عندى كأنك النَّارُ
لا يعجبُ السامعون من صفتى كذلكَ الثلجُ باردٌ حار

فهذا مذهب كلامى فلسفى . . وقوله أيضاً :

فيك خلافٌ لخلافِ الذى فيه خلافٌ لخلافِ الجميل

وأشباه ذلك مما فى هذا غِنًى عنه ودلالة عليه .

(٦٤) — باب نفى الشىء بإيجابه

هو من المبالغة ولا يختص بها

وهذا الباب من المبالغة ، وليس بها مختصاً ، إلا أنه من محاسن الكلام ، فإذا تأملته وجدت باطنه نفياً ، وظاهره إيجاباً . . قال امرؤ القيس :

عَلَى لاَحِبٍ لا يُهتَدَى بمناره إذاسَافَه العَوْدُ النباطِىُّ جَرْجَرَا[1]

فقوله « لا يهتدى بمناره » لم يرد أن له مناراً لايهتدى به ، ولكن أراد أنه لامنار له فيهتدى بذلك المنار .

وكذلك قول زهير :

---

(١) لاحب :هو الطريق الواضح . مناره : هو العلامة توضع على الطريق للهداية، وفى الحديث : «إن الدين صوى ومنارا كنار الطريق » سافه:شمه، والسوف الشم، والعود : المسن من الإبل . النباطى : الضخم ، جرجر : رغا وضج ، وأخرج جرته .

بأرض خَلاَء لايُسَدُّ وَصيدُها علىّ، وَمَعْرُوفى بهاغيرُمُنْكَرِ (١)

فأثبت لها فى اللفظ وصيداً ، و إنمـا أراد ليس لها وصيد فيسد على .

و يتّصل بهذا قول الز بير بن عبد المطلب يذ كر عميلة بن السباق بن عبد الدار ، وكان نديماً له وصاحباً :

صَبَحْتُ بهم طَلْقًا يُرَاحُ إلى الندى إذا ما انتشى لم تحتضره مفاقرُه

ضعيفاً بَحْثُ الـكأس قَبْضُ بنانِهِ كليلاً على وجهِ النديم أظافرُه

فظاهر كلامه أنه يَخْمِشُ وجه النديم ، إلا أن أظفاره كَلِيلة ، و إنما أراد فى الحقيقة أنه لايظفر وجه النديم ولا يفعل شيئاً من ذلك ، وكذلك قوله «لم تحتضره مفاقره» أى : ليس له مفاقر فتحتضره.

وقال أبو كبير الهذلى يصف هضبة:

وَعَلَوْتُ مُرْتَقِبًا (٢) على مَرْهُوبةٍ حَصَّاء لَيْسَ رقيبها فى مثمل

عيطاء مُعْنِقَةٍ يكون أنيسها وُرْقَ الحمام جميمُهَا لم يؤكل

يريد أنه ليس بها جميم فيؤكل ، يدل على ذلك قوله فى البيت الأول «حصّاء» وهى التى لا نبت فيها .

وقال أبو ذؤيب يصف فرساً :

متفلقٌ أنساؤها عن قانىء كالقرطِ صاوٍ غُبْرُهُ لا يُرْضَعُ

فلم يرد أن هناك بقية لبن لا يرضع ، لـكن أراد أنها لا لبن لها فيرضع.

والشاهد على جميع ماقلته فى شرح هذه الأشياء ما جاء فى تفسير قول الله عز وجل:

---

(١) الوصيد فى الأصل : فناء الدار والبيت ، ومنه قوله تعالى : (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) والأصيد لغة فيه حـكاها الفراء .

(٢) المرتقب : اسم المـكان من الارتقاب ، وهو الصعود فى رأس جبل أو حصن ، وضبطه فى اللسان على أنه اسم فاعل بكسر القاف ، وهو وجه ، والمثمل : الملجأ . والجميم : النبت الذى طال بعض الطول ولم يتم .

(لا يَسألونَ الناسَ إلحافاً) قالوا : ليس يقع منهم سؤال فيقع إلحافا : أى هم لا يسألون البتة .

المعيب من هذا الباب

والمعيب من هذا الباب قول كثير يرثى عزة صاحبته :

فَهلاَّ وَقَاكِ الموتَ مَنْ أَنْتِ زَيْنُهُ ومَنْ هُوَ أسوا منك دَلاًّ وأقْبَحُ ؟

لأنه قد أوهم السامع أن لها دلا سيئاً ، ولكن غيره أسوأ منه وأقبح ، فكيف إن كان القبح راجعاً عليها لا على دلها ، وليس هذا فى شىء من قوله تعالى : (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلا) لأن هذا لا إشكال فيه

(٦٥) — باب الاطراد

حده ومنزلته

ومن حسن الصنعة أن تطرد الأسماء من غير كلفة ، ولا حشو فارغ ؛ فإنها إذا اطردت دلت على قوة طبع الشاعر ، وقلة كلفته ومبالاته بالشعر .

أمثلته

وذلك نحو قول الأعشى :

أقَيْسَ بْنَ مَسْعُود بن قَيْسِ بن خَالِدٍ وأَنْتَ امْرُؤٌ ترجو شبابَك وائلُ

فأتى كالماء الجارى اطراداً وقلة كلفة ، و بين النسب حتى أخرجه عن مواضع اللبس والشبهة . .

ولما سمع عبد الملك بن مروان قول دريد بن الصمة :

قتلنا بعبد الله خيرَ لِدَاته ذُؤَابَ بن أسماء بن زيد بن قارب

قال كالمتعجب : لولا القافية لبلغ به آدم ، ورواه قوم « أبأت بعبد الله » .

وقال أبو تمام :

عبد المليك بن صالح بن علـــى بن قَسِيم النبى فى نَسَبِهْ

فهذا سهل العِنَان ، خفيف على اللسان ، و إن كانت الياء فى «المليك» ضرورة وتكلفاً .

وقال الحارث بن دوس الإيادى :

وَشَبَابٌ حَسَنٌ أَوْجُهُهُمْ من إيادِ بنِ نزار بن مَعَد

فاطردت ثلاثة أسماء لا كلفة فيها .

وقال أبو تمام فى قالب بيت الأعشى ، وإن نقص عنه اسما واحداً :

بنصر بن منصور بن بسام انفرى لنا شَظَفُ الأيامِ عن عيشة رغد

فأما من أتى بأكثر من هذا ومن الأول فقد قال بعضهم :

من يكنْ رَامَ حاجةً بَعُدَتْ عَنْـــهُ وَأَعْيَتْ عليه كلَّ العَيَاء

فلها أحمدُ المرجّى بنُ يحيى بْـــنِ معاذِ بنِ مسلمِ بنِ رَجاء

فجاء كلامه نَسَقاً واحداً ، إلاّ أنه قد شغل البيت وفصل بين الكلام بقوله « المُرَجّى » غير أن مجانسة رجاء هَوَّنَتْ خطيئته وغفرت ذنبه .

وقال الطائى :

عمرو بن كلثوم بنِ مالك بن عَتَّـــاب بن سهم سهمكم لا يسهم

فخاطب بذلك بنى عمرو بن غنم التغلبيين ، وهم بنو عم مالك بن طَوْق ، فانتظم له ما أراد من الأسماء ، إلا أنه ظاهر التكلف ، وقال فأتى بستة :

مناسبٌ تحسب من ضوئها منازلا للقمـــر الطالع

كالدلو والحوتِ وأشراطه والبطن والنجم إلى البالع

نوح بن عمرو بن حوّى بن عمـــرِو بن حوّى بن الفتى مانع

فأحكم التصنيع وقابل ستة بستة ؛ لان الأشراط منزلة ، وإن جمعها ، إلا أن «الفتى» ههنا غَضَّة مع بَرْد لفظ ورَكَاكة ، ما أحسن أبا هؤلاء كلهم يقال له الفتى وإن كنا نعلم أنه لم يرد فتاء السن ، ولكن الفتوة .

وجاء أبو الطيب فجاءك بالتعسف فى قوله لسيف الدولة :

فأنت أبو الهيجا ابن حَمْدَان يا ابنه تَشَابه مولودٌ كريم ووالدُ

وحمدان حمدونٌ وحمدون حارثٌ وحارث لقمانٌ ولقمان راشـــد

ففى هذا المعنى من التقصير أنه جاء به فى بيتين وأنه جعلهم أنياب الخلافة بقوله :

أولئك أنياب الخلافة كلها   وسائر أملاك البلاد الزوائد

وهم سبعة بالممدوح ، والأنياب فى المتعارف أربعة ، إلا أن تكون الخلافة تمساح نيل أو كلب بحر ؛ فإن أنياب كل واحد منهما ثمانية ، اللهم إلا أن يريد أن كل واحد منهم ناب الخلافة فى زمانه خاصة ؛ فإنه يصح ، وفيه من الزيادة على ما قبله أنه زاد واحداً فى العدد ، فإنه جعل كل ابن هو أبوه فى الخلافة إلى أن بلغ راشداً ، ولم يقصد إلى ذلك أحد من أصحابه ، وإنما مقت سعره هذا تكريره كل اسم مرتين فى بيت واحد ، وهى أربعة أسماء .

٦٦ — باب التضمين والإجازة

وهذا باب يختلط على كثير من الشعراء ممن ليس له ثقوب فى العلم ولا حذق بالصناعة ، كجماعة ممن وسم فى بلدنا بالمعرفة ، وينسب إليها مكذوباً عليه فيها ، كاذباً فيما ادعاه منها ، ولتعرفنهم فى لحن القول .

حد التضمين

فأما التضمين فهو قصدُك إلى البيت من الشعر أو القسيم فتأتى به فى آخر شعرك او فى وسطه كالمتمثل ، نحو قول محمود بن الحسين كشاجم الكاتب :

يا خاضبَ الشيبِ والأيامُ تظهره   هذا شبابٌ لعمرُ الله مصنوع

أذكرتنى قولَ ذى لُبٍّ وتجربةٍ   فى مثله لك تأديبٌ وتقريع

إن الجديدَ إذا ما زيد فى خَلَق   تبين الناسُ أن الثوبَ مرقوع

فهذا جيد فى بابه ، وأجود منه أن لو لم يكن بين البيت الأول والآخر واسطة ؛ لأن الشاعر قد دل بذلك على أنه متهم بالسَّرَقِ ، أو على أن هذا البيت غير مشهور ، وليس كذلك ، بل هو كالشمس اشتهاراً ، ولو أسقط البيت الأوسط

لكان تضميناً عجيباً لأن ذكر الثوب قد أخرج الثانى من باب الأول إلا فى المعنى ، وهذا عند الحُذّاق أفضلُ التضمين ، فإنما احتذى كشاجم قول ابن المعتز فى أبيات له :

ولا ذنب لى إن ساء ظنك بعدما وفَيْتُ لكم ، ربِّى بذلك عالم

وها أنا ذا مُسْتَعْتِبٌ متنصلٌ كما قال عباسٌ وأنفىَ راغم:

تحمَّلْ عظيمَ الذنب ممن تحبه وإن كنتَ مظلوماً فقل : أنا ظالم

وأبيات العباس بن الأحنف التى منها البيت المضمن هى قوله :

وصبٍّ أصاب الحُبُّ سَوْدَاءَ قلبه فأنحله ، والحبُّ داءٌ ملازم

فقلتُ له إذ مات وجداً بحبه مَقَالَةَ نُصْحٍ جانبتها المآثم:

تحمل عظيم الذنب ممن تحبه وإن كنتَ مظلوماً فقل: أنا ظالم

فإنك إن لم تحمل الذنب فى الهوى يفارقك من تهوى وأنفك راغم

غير أن شيخنا أبا عبد الله روى هذه الأبيات أيضاً لابن المعتز .

فهذا النوع من التضمين جيد ، وهو الذى أردنا من قبل ؛ وأجود منه أن يصرف الشاعر المضمنُ وجهَ البيت المضمَّنِ عن معنى قائله إلى معناه ، نحو قول بعض المحدثين ، ونسبه قوم إلى ابن الرومى :

يا سائلى عن خالد ، عَهْدِى به رَطْب العِجَانِ وكفه كالجلمدِ

كالأقحوانِ غداةَ غبِّ سمائه جَفَّتْ أعاليه وأسفلُه نَدِى

هكذا أعرفه ، وروى « عن جعفر » فصرفَ الشاعر قول النابغة فى صفة الثغر[1] :

(١) القادمة : ريشة فى مقدم الجناح ، وهى أربع قوادم ، أسف لثاته بالإثمد : أى : ذرت بالإثمد ، وكانوا يغرزون اللثة بالإبرة ثم يذرون عليها الإثمد ، والأقحوان : نبت له نوار أصفر وحواليه ورق أبيض ، شبه الأسنان ببياض ورقه.

تجلو بقادِمَتَىْ حمامةِ أيكةٍ ... بَرَداً أُسِفَّ لِثَاته بالإثمدِ
كالأقحوانِ غداة غب سمائه ... جفت أعاليه وأسفله ندى

إلى معناه الذى أراد .

ومن هذا المعنى أيضًا قول ابن الرومى بلا محالة :

وسائلةٍ عَنِ الحسنِ بن وهبٍ ... وعما فيه من كرمٍ وخيرِ
فقلتُ : هو المهذبُ غير أنى ... أراه كثير إرخاء الستور
وأكثر ما يُغَنِّيهِ فتاه ... حُسَيْنٌ حين يخلو بالسرير
فلولا الريحُ أُسْمِعَ من بحُجْرٍ ... صَليلَ البيض تقرعُ بالذكور

فالبيت الأخير لمهلهل ، فجاء قرع البيض بالذكور ههنا عجيبًا ، وإن كانت اللفظتان فى المعنى غير اللفظتين .

ومن الشعراء من يضمن قسيما نحو قول بعضهم ، أظنه الصولى :

خُلِقْتُ على باب الأمير كأننى ... قفانبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
إذا جئتُ أشكو طولَ ضيقٍ وفاقة ... يقولون : لا تَهْلِكْ أسى وتحمل
ففاضتْ دموعُ العين من سوءِ رَدِّهم ... على النحر حتى بَلَّ دمعىَ محملى
لقد طال تردادى وقصدى إليكم ... فَهَلْ عند رَسْمٍ دارسٍ من مُعَوَّلِ

ومنهم من يقلب البيت فيضمنه معكوسا ، نحو قول العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان لمسلمة بن عبد الملك :

لقد أنكرتنى إنكارَ خَوْفٍ ... يضم حشاك عن شتمى وذَحْلِى
كقولِ المرء عمرو فى القوافى ... لقيسٍ حين خالف كل عذل
عذيرَكَ من خليلك من مُرَادٍ ... أريد حياته ويريد قتلى

والبيت المضمن لعمرو بن معدى كرب الزبيدى ، يقوله لابن أخته قيس ابن زهير بن هبيرة بن مكشوح المرادى ، وكان بينهما بعد شديد وعداوة عظيمة ، وحقيقته فى شعر عمرو :

أريد حياته ويريد قتلى عَذِيرَكَ من خليلكَ من مراد

وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه إذا رأى ابن مُلْجَم تمثل بهذا البيت.

ومن التضمين ما يجمع فيه الشاعر قسمين من وزنين كقول على بن الجهم يُعَرِّضُ بفضل الشاعرة جارية المتوكل و بنان المغنى وكانا يتعاشقان فإذا غَنَّى بنان :

اسمعى أو خبرينا يا ديار الظاعنينا

غنت هى كالمجاوبة له عما يقول :

ألاَ حييتِ عَنّا يامدينا وهل بأسٌ بقول مسلمينا

فقال على منبهاً عليهما فى ذلك :

كلما غَنَّى بنانٌ اسمعى أو خبرينا

أنشدتْ فضل ألاَ حُيِّيتِ عنا يا مدينا

عارضَتْ مَعْنًى بمعنًى والندامى غافلونا

أحسنَتْ إذ لم تجاوِبْهُمْ ديارُ الظاعنينا

لو أجابتهم لَصِرْنَا آيةً للسائلينا

واستعاد الصوتَ مولا ها وحثَّ الشاربينا

قلتُ للمولى وقدْ دَا رَتْ حُمَيَّا الكاس فينا:

رُبَّ صَوْتٍ حسنٍ يُنْبِتُ فى الرأسِ قرونا

وأنشد ابن المعتز فى باب التضمين للأخطل :

ولَقدْ سما لِلْخُرَّمِيِّ فلم يقل يومَ الوغى لكن تضايقَ مُقْدَمِى

إشارة إلى قول عنترة العبسى :

إذ يَتَّقونَ بِىَ الأسنة لم أخِمْ عنهاولكنى تَضَايَقَ مُقْدَمِى

وهذا تضمين أنت ترى كيف هو ، وأنشد لآخر :

عَوَّذَ لَمَّا بتُّ ضيفاً له أقراصَه منىَّ بياسين
فبتُّ والأرضُ فِراشي وقد غنَّتْ «قفانبك» مَصارِيني

ومن التضمين ما يحيل الشاعر فيه إحالة ، ويشير به إشارة ، فيأتى به كأنه نظم الأخبار أو شبيه به ، وذلك نحو قول بعضهم فى معنى قول ابن المعتز * كما قال عباس وأنفى راغم * إنه لم يرد الأبيات المقدم ذكرها ، وإنما أراد قوله للرشيد حين هجرته ماردة :

لا بد للعاشق من وَقفَةٍ تكونُ بين الوصلِ والصرم
حتى إذا الهجرُ تمادى به راجعَ من يهوى على رغم

فهذا النوع أبعد التضمينات كلها ، وأقلها وجوداً ، وذلك نحو قول أبى تمام :

لعمرٌو مع الرَّمْضَاء والنارُ تلتظى أرقُّ وأحْفَى منك فى ساعة الكرب

أراد البيتَ المضروبَ به المثلُ :

المستَجِيرُ بعمرو عند كُرْبَتِهِ كالمستَجِيرِ من الرَّمْضَاء بالنارِ

وقد صنعتُ أنا فى معنى الهجاء :

عِرْسُهُ من غير ضير عرسُ زيد بن عمير
أبداً تَزْنِي فإن حاضَتْ تَقُدْ حبًّا لأير
ولها رجلان من نا قَةِ كَعْبِ بن زهير
هكذا تبنى المعالى ليس إلاَّ كل خير

« زيد بن عمير » هو الذى يقول فى زوجته :

تقود إذا حاضت، وإن طَهُرَتْ زَنَتْ فَهِي أبداً يُزْنَى بها وتَقُودُ

و « كعب بن زهير » يقول فى وصف ناقته :

تَهوى على يسرات وهى لاهية ذوابل وَقْعُهُنَّ الأرضَ تحْلِيل

فكانت هذه المرأة فى حاليها لا تقع رجلاها بالأرض : إما لكثرة مباضعة أو شدة مشى فى فساد .

ومن أنواع التضمين تعليق القافية بأول البيت الذى بعـــدها ، وقد تقدم ذكره .

حد الإجازة وأنواعها

وأما الإجازة فإنها بناء الشاعر بيتا أو قسيما يزيده على ما قبله ، وربما أجاز بيتاً أو قسيماً بأبيات كثيرة ، فأما ما أجيز فيه قسيم بقسيم فقول بعضهم لأبى العتاهية : أجز :

* بَرَدَ المـــاء وطابا *

فقال :

* حَبَّذَا المـــاء شرابا *

وأما ما أجيز فيه بيت ببيت فقول حسان بن ثابت وقد أرِقَ ذاتَ ليـلةٍ فقال :

مَتَارِيكُ أذْنَابِ الأمورِ إذا اعترت أخذنا الفروع واجتنبنا أصولَهَا

وأجْبَل ، فقالت ابنته : يا أبت ، ألا أجيز عنك ، فقال : أو عندك ذاك ؟ قالت : بلى ، قال : فافعلى ، فقالت :

مَقَاوِيل للمعروف خُرْسٌ عن الخنا كِرَامٌ يعاطون العشـــيرة سُولَهَا

قال : فحمى الشيخ عند ذاك ، فقال .

وقافية مثلِ السـنانِ ردفتها تناولتُ من جوِّ السماءِ نُزُولَهَا

فقالت ابنته :

يَرَاهَا الذى لاينطقُ الشعرُ عنده ويعجز عن أمثالها أن يقولهـا

وذكر أن العباس بن الأحنف دخـل على الذلفاء فقال : أجيزى عنى هذا البيت :

أهدى له أحْبَابُهُ أترجّةً فبكى وأشفق من عيافة زاجرِ

فقالت غير مفـكرة :

خافَ التلونَ إذ أتته لأنها لونان باطِنُها خلافُ الظاهرِ

فحلف لها بكل الأيمان ، وكانت تعزه ، لئن ظهر البيت إن دخلت منزلكم أبداً ، وأضافه إلى بيته .

وأما ما أجيز فيه قسيم بيت ببيت ونصف فقول الرشيد للشعراء : أجيزوا :

*الملكُ للهِ وَحْدَهْ *

[ف] قال الجماز :

* وللخليفة بَعْدَهْ *

وللمُحِبِّ إذا ما حبيبُه باتَ عِنْدَهْ

واستجاز سيف الدولة أبا الطيب قول عباس بن الأحنف :

أمِنّى تخافُ انتشارَ الحديثِ وحَظِّىَ فى سَتْرِهِ أوْفَرُ؟

فصنع القصيدة المشهورة :

هواكَ هوايَ الذى أضمرُ وسِرُّكَ سِرِّى فما أظهر

إلا أنه خرج فيها عن المقصد .

اشتقاق الإجازة

والإجازة فى هذا الموضع مشتقة المعنى من الإجازة فى السَّقْىِ ، يقال : أجاز فلان فلاناً ، إذا سقى له أو سقاه ، الشك منى ، وأما اللفظة فصحيحة فصيحة .

وقال ابن السكيت : يقال للذى يَرِدُ على أهل الماء فيستقى : مُسْتَجِيز ، قال القطامى :

وقالوا فُقَيمٌ قَيِّمُ الماء فاستجز عبادةَ ؛ إن المستجيزَ على قُتْرِ [1]

---

(١) قال شارح ديوانه : استجز : اطلب أن تسق إبلك ، يقال : أجزنا ، أى اسقنا ، ونجيزك : نسقيك . والجواز : الذى تشرب به من ماء قوم ثم تمر . وعلى قتر : أى على خوف ، ويقال : على خطر وحذر من ألا يسقى .

ويجوز أن يكون من « أجزت عن فلان الكأس » إذا تركْتَهُ وسَقَيْتَ غيره ، فجازت عنه دون أن يشربها ، قال أبو نُوَاس :

وقلتُ لساقينا أجِزْنا فلم أكن ليأبَى أميرُ المؤمنين وأشربا
فَجَوَّزَهَا عنى عُقَاراً ترى لها إلى الشَّرَفِ الأعلى شُعَاعا مُطنبا

وقد تقدم ذكر الإجازة التى فيها عيوب القوافى ، وذكرت اشتقاقها .

التمليط

ومن هذا الباب نوع يسمى التمليط ، وهو أن يتساجل الشاعران فيصنع هذا قسيما وهذا قسيما لينظر أيهما ينقطع قبل صاحبه ، وفى الحكاية أن امرأ القيس[1] قال للتوأم اليشكُرى : إن كنت شاعراً كما تقول فملط أنصاف ما أقول فأجزها ، قال : نعم ، قال امرؤ القيس :

أحَارِ تَرَى بُرَيْقاً هَبَّ وَهْناً

فقالَ التوأم : * كنارِ مجوسَ تستعر استعارا *

فقال امرؤ القيس : * أرقت له ونام أبو شريح *

فقال التوأم : *إذا ما قلت قَدْ هَدَأ استَطَارا *

ولا يزالان هكذا ، يصنع هذا قسيما وهذا قسيما إلى آخر الأبيات .

وقد تقدم[1] إنشادها فى باب أدب الشاعر من هذا الكتاب .

وربما ملّط الأبياتَ شعراءُ جماعةٌ ، كما يحكى أن أبا نواس والعباس بن الأحنف والحسين بن الضحاك الخليع ومُسْلم بن الوليد الصريع خرجوا فى متنزه لهم ومعهم يحيى بن المعلى ، فقام يصلى بهم ، فنسى الحمد وقرأ (قل هوَ الله أحدٌ) فأُرْتِجَ عليه فى نصفها ، فقال أبو نواس : أجيزوا :

أكثر يحيى غَلَطاً فى قل هو الله أحَدْ

---

(١) انظر الجزء الأول (ص ٢٠٢) .

فقال عباس :

قام طويلا ساهيا حتى إذا أَعْيا سجدْ

فقال مسلم بن الوليد :

يَزْحَرُ فى محرابه زَحِيرَ حُبْلَى بِوَلَدْ

فقال الخليع :

كأنمـــا لسانُهُ شُدَّ بِحَبْلٍ مِنْ مَسَدْ

وأنشدنى بعض أصحابنا هذه الأبيات على طريق الاستملاح لها والاستظراف بها ، وقال : هذا الذى يعجز الناس عنه ، فقلت : فما بال عباس وأبى نواس لم يقولا بعد البيت الأول :

وَنَسِيَ الحمـــدَ فما مَرَّتْ له على خَلَدْ

ولا سيما وقد كان ذلك حقيقة ، وكذلك جَرَتِ الحكاية ، فقال : ولمن البيت ؟ فقلت : لابن وقته .

اشتقاق التمليط

واشتقاق التمليط من أحد شيئين : أولها أن يكون من المِلاطَيْنِ ، وهما جانبا السنام فى مرد الكتفين ، قال جرير :

ظللْن حَوَالَىْ خِدْرِ أسماء ، وانتحى بأسماء مَوَّارُ المِلاَطَيْن أَرْوَحُ

فكأن كل قسيم مِلاَطٌ ، أى : جانبٌ من البيت ، وهما عند ابن السكيت العضدان . والآخر ــ وهو الأجود ــ أن يكون اشتقاقه من الملاط وهو الطين يدخل فى البناء يملط به الحائط مَلْطاً ، أى : يدخل بين اللبِنِ حتى يصير شيئاً واحداً . وأما المِلطُ ــ وهو الذى لا يبالى ما صنع ــ والأَمْلط الذى لا شَعْرَ عليه فى جسده ؛ فليس لاشتقاقه منهما وَجْه .

(٦٧) — باب الاتساع

حد الاتساع وسببه

وذلك أن يقول الشاعر بيتاً يتسع فيه التأويل ؛ فيأتي كل واحد بمعنى ، وإنما يقع ذلك لاحتمال اللفظ ، وقوته ، واتساع المعنى .

أمثلته

من ذلك قول امرىء القيس :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً كَجُلمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

فإنما أراد أنه يصلح للكر والفر ، ويحسن مقبلا مدبرا ، ثم قال « معاً » أي : جميعُ ذلك فيه ، وشبهه في سرعته وشدة جريه بجلمود صخر حطهُ السيلُ من أعلى الجبل ؛ فإذا انحط من عال كان شديد السرعة ، فكيف إذا أعانته قوة السيل من ورائه ؟ ؟

وذهب قوم — منهم عبد الكريم — إلى أن معنى قوله * كجلمود صخر حطه السَّيْلُ من عَلِ * إنما هو الصلابة ؛ لأن الصخر عندهم كلما كان أظهر للشمس والريح كان أصلب .

وقال بعضُ مَنْ فسره من المحدَثِينَ : إنما أراد الإفراط ، فزعم أنه يرى مقبلا ومدبرا في حال واحدة عند الكر والفر لشدة سرعته ، واعترض على نفسه ، واحتج بما يوجد عياناً ؛ فمثله بالجلمود المنحدر من قُنَّةِ الجبل ، فإنك ترى ظهره في النصبة على الحال التي ترى فيها بطنه وهو مقبل إليك ، ولعل هـــذا ما مر قط ببال امرىء القيس ، ولا خَطَرَ في وَهْمه ، ولا وقع في خَلَده ، ولا رُوعِهِ .

ومثله قول أبي نواس :

* ألا فَاسقِنِي خمراً وقل لي هي الخمر *

فزعم مَنْ فسره أنه إنمــا قال « وقل لي هي الخمر » ليلتذ السمعُ بذكرها كما التذت العينُ برؤيتها ، والأنفُ بشمها ، واليــدُ بلمسها ، والفمُ بذوقها ، وأبو نواس ما أظنه ذهب هذا المذهب ، ولا سلك هذا الشعب ، ولا أراه

أراد إلا الخلاعة والعبث الذى بنى عليه القصيدة ، ودليلُ ذلك أنه قال فى تمام البيت :

* وَلاَ تَسْقِنِى سِرًّا إذا أمكن الجهر *

ويروى « فقد أمكن الجهر » فذهب إلى المجاهرة ، وقلة المبالاة بالناس ، والمداراة لهم فى شرب الخمر بعينها التى لا اختلاف بين المسلمين فيها .

وقد ثبت أن المأمون ذم أخاه الأمين على المنابر ، وذكر فى مذامه أنه صحب شاعراً من أمره ومن قصته أنه يجاهر بالمعاصى ، ويقول فى قصيدة أولها كذا وأنشد البيت :

فَبِتْنَا يرانا اللهُ شَرَّ عصابةٍ نجر[1] بأذيالِ الفسوقِ ولا فخرُ

ومثل ذلك قول المفضل الضبى بين يدى الرشيد والكسائى حاضر فى معنى قول الفرزدق :

أَخَذْنَا بآفاق السَّماء عَلَيْكُمُ لَنَا قَمَرَاهَا والنُّجُومُ الطَّوَالِعُ

وقد سأل الأمين والمأمون : ما معناه ؟ فقالا : معناه فى قوله « قمراها » تغليب المستعمل عندهم ؛ لأن القمر أكثر استعمالا عند العرب من الشمس ، وكذلك قولهم « العمران » لما كان عُمَرُ أطول أياماً وأكثر تأثيراً ، فقال الرشيد : هكذا أخبرنا هذا الشيخ ، وأشار إلى الكسائى ، فقال المفضل : بل مراده بالقمرين جَدَّاكَ إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما ، وبالنجوم الطوالع أنت وآباؤك الطيبون ، فأعجب الرشيد بذلك ووَصَله ، والفرزدق ما قصد إلى شىء من ذلك [و] لا أراده ، ولا علم أن الرشيد بعده يكون أمير المؤمنين ، وإنما أراد أن كل مشهورٍ فاضلٍ فهو لنا عليكم ، ومنا لا منكم ، فنحن أشرف

(١) يروى * نجرر أذيال . . . .

بيتا ، وأظهر فضلا ، وأبعد صوتاً ؛ إلا أن التى جاء بها المفضل مُلْحَة أفادت مالا .

و يتعلق بهذا قول أبى الطيب يذكر الروم :

وَقَدْ بَرَدَتْ فَوْقَ اللُّقَانِ دِمَاؤُهُمْ ونحن أناسٌ نُتْبِعُ البارد السُّخنا[1]

أراد أنّا نُتْبِع البارد من الدماء سخنا ، كأنه يتوعدهم بقتل آخر ، فيكون قد أخذه من قول سُوَيْد بن كراع ـ وهى أمه ـ يصف كلابا وثوراً :

فهزَّ عليه الموتُ والموتُ دُونه على رَوْقِهِ منه مُذَابٌ وجَامِدُ[2]

وقال الأصمعى : يعنى بالمذاب الحار ، و بالجامد البارد ، ويجوز أن يكون أبو الطيب أراد: ونحن أناس نتبع البارد من الطعام سخنا ، وكذلك أيضاً عادتنا فى الدماء ؛ فيكون قد فرع .

وزعم قوم فى قوله يشفع لبنى كلاب إلى سيف الدولة :

وتملكُ أنفسَ الثقلين طراً فكيف تحوزُ أنفُسها كلاب

أنه لم يرد القبيلة ، و إنما أراد أن يجعلهم كلاباً على باب التحقير لقدرهم ، والتلطف لهم ، كما جعلهم فى البيت الأول ذئاباً سُرَّاقاً ، ولا أظن ذلك ، بل لا أحققه ؛ لأن فى القصيدة :

ولو غَيْرُ الأمير غَزَا كلاباً ثَنَاهُ عَنْ شموسهم ضَبَابُ

---

(١) اللقان : موضع ببلاد الروم . يريد أن دماء الروم التى أسالها سيف الدولة باللقان قد بردت ، وأراد بهذا الكناية عن تقادم عهده بغزوهم ، ثم ذكر أن عادته إتباع البارد من الدماء بالساخن

(٢) روقه : قرنه .

ولاقى دونَ ثأيهم طِعـــانا يُلاَقِى عِنْدَهَا الذِّئْبَ الغُرَابُ(١)

إلا أن يحملوا على الشاعر التناقض ، و ينسبوه إلى قلة التحصيل ؛ فذلك إليهم، على أن هذه القصيدة قليلة النظير فى شعره : تناسباً ، وطبعاً ، وصنعة ، ومثلها الرائية فى وزنها وذكر القصة بعينها .

(٦٨) — باب الاشتراك

أنواع الاشتراك

وهو أنواع : منها ما يكون فى اللفظ ، ومنها ما يكون فى المعنى ؛ فالذى يكون فى اللفظ ثلاثة أشياء : فأحدها : أن يكون اللفظان راجعين إلى حد واحد ومأخوذين من حد واحد ، فذلك اشتراك محمود ، وهو التجنيس ، وقد تقدم القول فيه ، والنوع الثانى : أن يكون اللفظ يحتمل تأويلين أحدهما يلائم المعنى الذى أنت فيه والآخر لا يلائمه ولا دليل فيه على المراد ، كقول الفرزدق :

وَمَا مِثْلُهُ فِى النَّاسِ إلاَّ مُمَلَّكاً أبُو أُمِّهِ حَىٌّ أبُوهُ يُقَارِبُهْ

فقوله « حى » يحتمل القبيلة ، و يحتمل الواحدَ الحىّ ، وهـذا الاشتراك مذموم قبيح ، والمليح [الذى] يحفظ لكُثَيِّر فى قوله يشبب :

لعمرى لقد حَبَّبْتِ كلّ قصيرةٍ إلىّ ، ومَا تَدْرِى بِذَاكِ القَصَائِرُ

(١) الثأى : جمع ثأية ، كراى وراية ، وهى حجارة تجعل حول البيوت يأوى إليها الراعى ليلا وفيها مبارك الإبل ومرابض الغنم . يقول : لو غزا كلابا غير الأمير لثناه ضباب عن شموسهم ، وكأنه يريد وصفهم بالقوة وشدة الذود عن حياضهم ، ولوجد دون وصوله إلى بيوتهم حربا عوانا يتفانى فيها جيشه حتى يجتمع على جثث صرعاه الوحوش وهى المراد بالذئاب والطيور وهى المعبر عنها بالغراب؛ فأما الوحوش فتأكل عظامهم وأما الطيور فتأكل لحومهم كما قال عنترة :

لى النفوس ، وللطير اللحوم ، وللوحش العظام ، وللخيالة السلب

عَنَيْتُ قَصِيرَاتِ الحِجَالِ ولمْ أُرِدْ قِصَارَ الخُطَا؛ شَرُّ النِّساء البَحَاتِرُ

فأنت ترى فطنته لما أحسّ باشتراك كيف نفاه ، وأعرب عن معناه الذى نحا إليه .

ومن نوع قول الفرزدق قول كشاجم يذكر الميدان :

عَمَرْتُهُ بِفِتْيَةٍ صِبَاحِ سُمْحٍ ، بأَعْرَاضِهِمُ شِحَاحِ

فنحن نعلم أنه أراد سمحٍ شحاحٍ بأعراضهم ، ولكن فيه من اللبس ماهو أولى من التأويل .

والنوع الثالث ليس من هـذا فى شىء ، وهو سائر الألفاظ المبتذلة للتـكلم بها ، لا يسمى تناولها سرقة ، ولاتداولها اتباعاً ؛ لأنها مشتركة لا أحد من الناس أولى بها من الآخر ، فهى مباحة غير محظورة ، إلا أن تدخلها استعارة ، أو تصحبها قرينة تُحْدِثُ فيهامعنى ، أو تفيد فائدة ، فهناك يتميز الناس ، ويسقط اسم الاشتراك الذى يقوم به العذر ، ولو غيرت اللفظة وأتِيَ بما يقوم مقامها كقول ابن أحمر :

بِمُقَلِّصٍ دَرَكِ الطريدَةِ ، مَتْنُهُ كَصَفَا الخَلِيقَةِ بالفَضَاء المُلْبِدِ[1]

فقوله « دَرَك الطريدة » وقول الأسود بن يَعْفُر :

بِمُقَلِّصٍ عَتِدٍ جَهِيرٍ شَدُّهُ قَيْدِ الأوابد والرهان جَوَادِ[1]

---

(١) قال فى اللسان : « وصخرة خلقاء بينه الخلق : ليس فيها وصم ولا كسر وأنشد البيت » اهـ .

(٢) فرس عتد ـ بكسر التاء الشاة أو فتحها ـ شديد تام الخلق سريع الوثبة معد للجرى ليس فيه اضطراب ولارخاوة .

جميعاً كقول امرىء القيس : * بمجردٍ قَيْدِ الأوابدِ هَيْكَلِ *

وكذلك قول أبي الطيب : * أجَل الظّليم وربْقَة السِّرْحَانِ *

فأما ما ناسب قول الأبيرد اليربوعى يرثى أخاه :

وَقَدْ كُنْتُ أستعفى الإلهَ إذا اشتكى ... من الأجرِ لى فيه ، وإن عَظُمَ الأجْرُ

وقول أبى نواس فى صفة الخمر :

تَرَى الْعَيْنَ تَسْتَعْفِيكَ مِنْ لمعانها ... وتَحْسِر حتى ما تُقِلُّ جُفُونَها

فهو من المشترك الذى لا يعد سرقة .

وقد نص عليه القاضى الجرجانى أنه من المنقول المتداول المبتذل .

الاشتراك فى المعانى وأنواعه

وأما الاشتراك فى المعانى فنوعان : أحدهما : أن يشترك المعنيان وتختلف العبارة عنهما ، فيتباعد اللفظان ، وذلك هو الجيد المستحسن ، نحو قول امرىء القيس :

كبِكْرِ الْمُقَانَاةِ الْبَيَاضَ بِصُفْرَةٍ ... غذَاهَا نَمِيرُ الْمَاء غَيْرَ محلل[1]

وقول غيلان ذى الرمة :

كَحْلَاء فِي بَرَجٍ صَفْرَاء فِي نَعَجٍ ... كَأَنَّهَا فِضَّةٌ قَدْ مَسَّهَا ذَهَبُ[2]

فوصفا[3] جميعاً لوناً بعينه : فشبهه الأول بلون بيضة النعام ، وشبهه الثانى بلون

---

(١) البكر : أول بيض النعامة ، والمقاناة : المخالطة ، يقال : مايقانينى خلق فلان ، أى : ما يشاكل خلقى ويخالط نفسى ، والبياض : مفعول للمقاناة ، ونائب الفاعل ـ وهو المفعول الأول ـ ضمير مستتر ، والنمير من الماء : الذى ينجع فى الشاربة وإن لم يكن عذبا ، وغير محلل : لم يحلل عليه فيكدر .

(٢) رواية الديوان « كحلاء فى دعج » وقد سبقت للمؤلف « كحلاء فى برج » وذلك فى (ص ٢٩) من هذا الجزء .

(٣) فى المطبوعتين « فوصفها » وليس بشىء .

الفضة قد خالطها الذهب يسيراً ولذلك قال «قد مسها»

ونحو قول عَبْدَةَ بن الطبيب يصف ثوراً وحشياً :

مُجْتَابُ نِصْعٍ جَدِيدٍ فَوْقَ نُقْبَتِهِ ... وَفِي الْقَوَائِمِ مِنْ خَالٍ سَرَاوِيلُ[1]

وقال الطِّرِمَّاح يصف ظِبَايا :

مُجْتَابُ شَمْلَةِ بُرْجُدٍ لِسَرَاتِهِ ... قَدْراً فَأَسْلَمَ مَا سِوَاهُ الْبُرْجُدُ[2]

فوصف الأول بياض الثور وسَوَادَ قوائمه وتخطيطها فشبه ظهره كأن عليه نِصْعاً جديداً ، وهو الثوب الأبيض ، وشبه ما فى قوائمه من السواد والتخطيط بسراويل من الخال ، وهو ضرب من الوَشْيِ .

وقال الثانى : إنه مجتاب شملة برجد ، يريد ماعلى الظَّلِيم من قرونه ، والبرجد: كساء أسود مُخَمَّل ، وجعل الشملة قدراً لسَرَاته دون رجليه وعنقه ؛ فدل على بياضهن

وقال عنترة :

صَعْلٍ يَعُودُ بِذِى الْعُشَيْرَةِ بَيْضَهُ ... كَالْعَبْدِ ذِى الْفَرْوِ الطَّوِيلِ الأَصْلَمِ[3]

---

(١) نصع ــ بكسر فسكون ــ ضرب من الثياب شديد البياض ، وعم بعضهم به كل جلد أبيض أوثوب أبيض ، قاله فى اللسان .

(٢) انظر (ج١ ص٢٩١و٢٩٨) من هذا الكتاب ، وقول المؤلف « وجعل الشملة قدراً لسراته » يدل على أنه بالراء المهملة من القدار ، وقد فسرناه هناك على أنه قدد بدالين ، وهذا الذى ذكرناه هناك رواية الأغانى ، وهى أولى .

(٣) الصعل : الصغير الرأس الدقيق العنق ، يعود : يأتى إلى بيضه ، كما تقول : عدت المريض . وذو العشيرة : موضع ، والأصلم : المقطوع الأذنين ، والظلمان كلها لا آذان لها ، قاله الخطيب ؛ وانظره مع كلام المؤلف .

فشبهه بعبد طويل عليه فرو أصلم ، أى : قصير الذيول ، و إنما خص الفرو لأنهم كانوا يلبسونه مقلوباً ، وجعله عبداً لبياض ساقيه وعنقه و إشرابهما الحمرة يعنى صفات الروم ، ولم تكن العبيد فى ذلك الوقت إلا بيضاً ؛ فهذا اشتراك فى وصف الظهر والقوائم واختلاف فى اللفظ والعبارة .

والنوع الثانى على ضربين : أحدهما : ما يوجد فى الطِّباع من تشبيه الجاهل بالثور والحمار ، والحسن بالشمس والقمر ، والشجاع بالأسد وما شابهه ، والسخىّ بالغيث والبحر ، والعزيمة بالسيف والسيل ، ونحو ذلك ؛ لأن الناس كلهم ــ الفصيحَ والأعجم والناطقَ والأبكم ــ فيه سواء ؛ لأنا نجده مركبا فى الخليقة أولاً .

والآخر ضرب كان مخترعا ، ثم كثر حتى استوى فيه الناس ، وتواطأ عليه الشعراء آخراً عن أول ، نحو قولهم فى صفة الخد « كالورد» وفى القد « كالغصن» وفى العين « كعين المَهَاة من الوحش » وفى العنق « كعنق الظبى ، وكإبريق الفضة أو الذهب» فهذا النوع وما ناسبه قد كان مخترعاً ، ثم تساوى الناس فيه ، إلا أن يولِّدَ أحدٌ منهم فيه زيادة ، أو يخصه بقرينة ؛ فيستوجب بها الانفراد من بينهم ، ومثل ذلك تشبيه العزم بهبوب الريح ، والذكاء بشُوَاظ النار ، وسيرد عليك من قوافى باب السرقات وما ناسبها كثير ، إن شاء الله تعالى .

(٦٩) ــ باب التغاير

حد التغاير وسببه

وهو أن يتضاد المذهبان فى المعنى حتى يتقاوما ، ثم يصحا جميعاً ، وذلك من افتنان الشعراء وتصرفهم وغَوْص أفكارهم .

أمثلة من التغاير

من ذلك قول بعض العرب المتقدمين يذكر قوماً بأنهم لا يأخذون إلا القَوَدَ دون الدِّية :

لاَ يَشرَبُونَ دِمَاءَهُمْ بِأَكُفِّهِمْ إنّ الدماء الشافياتِ تُكَالُ

وقال آخر وقد أخذ بثأره إلا أنه فيما زعم قَتل دون من قُتل له ، ويروى لامرأة حارثية :

فيقتل خير بامرىء لم يكن له بَوَاء ، ولكن لا تَكَايُلَ بالدم

ويروى « فى فتى لم يكن له وفاء » فالأول يقول : لا آخذ بالدم لبناً ، لكن آخذ دما بقدره ، فكان ذلك مكايلة ، والثانى يزعم أن قتيله قليلُ المثلِ والنظير، فتى لم يقتل به إلا نظيره بَعُدَ انتقامه ، وعَسُرَ إدراكه الثأرَ فقال : إن الدماء ليست مما يكايل به فى الحقيقة ، وقيل : إنما يعنى بذلك أن الإسلام لما جاء أزال المكايلة بالدم ؛ فكانوا لا يقتلون بالرئيس إلا رئيساً مثله .

ومن هذا الباب قولُ أبى تمام فى التكرم يفضله على الكرم المطبوع :

قَدْ بَلَوْنَا أبا سَعيدٍ حَديثاً وبَلونا أبا سَعيدٍ قديماً

وَوردناه سائحاً وقليباً وَرَعَيْناه بارضاً وَجميماً[1]

فعلمنا أنْ ليس إلاَّ بشِقِّ النَّفْسِ صارَ الكَريمُ يُدْعى كَريماً

وقال أبو الطيب فى خلافه :

لوْ كَفَرَ العَالَمُونَ نِعْمَتَهُ لمَا عَدَتْ نَفْسُه سَجَاياهَا

كالشَّمْسِ لا تَبْتَغِي بِمَا صَنَعَتْ تَكْرِمَةً عِنْدَهُمْ وَلاَ جَاهَا

وإلى هذا المذهب نحا السيد أبو الحسن فى قوله :

جَبْرُ الكَسِيرِ إذَا يُهاضُ جَنَاحُه لجَأُ المُطَرَّدِ مُسْتَغَاثُ المُرْمِلِ

---

(١) أراد بالسائح : النهر ، والقليب : البئر . والبارض : أول ما يظهر من نبت الأرض ، وقيل : هو أول ما يعرف من النبات وتتناوله النعم ، وقال الأصمعى : أول ما يظهر من البهمى بارض ؛ فإذا تحرك قليلا فهو جميم .

جَمَعَ الفضائلَ والمحامِدَ والْعُلاَ ... خُلُقٌ لَعمْرُ أبيكَ غَـيْرُ تَخَلُّقِ

وأصْلُ معنى قول أبى الطيب من قول بشار :

لَيْسَ يُعْطِيكَ لِلرَّجَاء وَلِلْخَوْ ... فِ وَلَـكِنْ يَلَذُّ طَعْمَ الْعطاء

وقال البحترى فى نحو ذلك :

لا يتعبُ النائلُ المبْذُولُ هِمَّتَهُ ... وَكَيْفَ يُتْعِبُ عَيْنَ النَّاظِرِ النَّظَرُ ؟!

وكان أبو الطيب لقدرته واتساعه فى المعانى كثيراً ما يخالف الشعراء ويغاير مذاهبهم ، ألا ترى إلى قول على بن العباس النوبختى ـ وهو فى رواية الجرجانى لابن الرومى ـ يصف القلم ويفضله على السيف ، وكتب بذلك إلى على بن مقلة فى قصيدة :

إنْ يَخْدُمِ القلمُ السيفَ الذى خَضَعتْ ... لهُ الرقابُ وَدَانَتْ خَوْفَهُ الأُممُ

كذَا قضى اللهُ للأقلامِ مذ بُرِيَتْ ... أنّ السُّيُوفَ لها مُذْ أُرْهِفَتْ خَدَمُ

فالموتُ ـ والَموْتُ لا شىْءٌ يُعَادِلهُ ـ ... مَا زَالَ يَتْبَعُ مَا يَجْرِى بِهِ الْقَلَمُ

وهذا كلام مُتْقَن البنية ، صحيح المعنى ، لا مَطْعَن فيه ، فجاء أبو الطيب فخالفه وذهب مذهباً آخر يشهد بصحته العيانُ ، ويصححه البرهان ، فقال :

حَتَّى رَجَعْتُ وأقْلَامِى قَوَائلُ لى : ... المجدُ للسيفِ ليسَ المجدُ للقلمِ

اكتب بذا أبداً قبل الـكتابِ بها[1] ... فإنما نحنُ للأسيافِ كالخدمِ

ومن التغاير قول الفرزدق يصف إبله ويفخر :

أَلم تَسْمَعَا يا ابْنَىْ حَـكيمٍ حَنِينَها ... إلى السَّيْفِ تَسْتَبْكى إذا لم تعقر

(١) بذا : اسم الإشارة عائد إلى السيف ، بها : الضمير عائد إلى الأقلام . ورواية الديوان ✻ اكتب بنا أبدا بعد الـكتاب به ✻ وهى التى تتفق مع البيت السابق (انظر الديوان : ج ٢ ص ٤١٣) .

فجعلها إذا لم تعقر حنت إلى السيف واستبكت ؛ لـكثرة عادتها ، وهذا غُلُوٌ مُفْرِط ، وكان فى مكان آخر يصفها بالجزع إذا رأت الضيف لعلمها أنها تنحر له :

تَرَى النِّيبَ مِنْ ضَيْفِي إذَا مَا رَأَيْنَه ضُمُوراً عَـلى جِرّاتِهَا مَا تُجِيزُهَا

فزعم أنها تخفى حِسَّها حتى إنها لا تجتر خوفا من النحر ، وهذا المعنى مأخوذ من بيتين مُدح بهما النبى صلى الله عليه وسلم ، وهما :

وأبيكَ حَقًّا إنَّ إبْلَ مُحَمَّدٍ عُزْلٌ نَوائحُ أنْ تَهُبَّ شمَالُ
وإذا رأيْنَ لدى الفِناء غَرِيبةً فَدُمُوعُهنَّ على الخدودِ سِجَالُ[1]

يقول : إذا هبت الشَّمَالُ — وهى من رياح الشتاء ، وعلامات المَحْل — أيقنَّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينحرهن للضيفان والجيران ؛ فهى نوائح لذلك ، وقوله * وإذا رأينَ لدى الفناء غريبة * أى : يعرفن بذلك أنها ناقة ضيف فتُذْرِى كلُّ واحدة دمعَهَا ، لاتدرى هل هى المنحورة ، وهذا من مليح الشعر ولطيف المدح ، وقَلَّ كل مديح لرسول الله صلى الله عليه وسلم

ومن مليح التغاير قولُ أبى الشِّيصِ :

أجدُ الملامةَ فى هَوَاكِ لذيذةً حُبًّا لِذِكْرِكِ ؛ فَلْيَلُمْنِى اللُّوَّمُ

وقول أبى الطيب فى عكس هذا :

أأحبه وأحبُّ فيه ملامةً ؟ إن الملامةَ فيه من أعدائه

وهذا عند الجرجانى هو النظر والملاحظة ، وهو يعده فى باب السرقات،قال : وأصله من قول أبى نُوَاس :

إذا غَادَيْتَنِي بِصَبُوحِ عَذْلٍ فَمَمْزُوجاً بِتَسْمِيَةِ الحبِيبِ

ولأبى العلاء المعرى مثـله من غير التزام :

---

(١) غريبة : أرادناقةغريبة كماقال المؤلف ، أوطائفة ، أونسمة ، أوماأشبهذلك.

لم يَبقَ غَـيْرُ العذْلِ من أسبابهم ... فأَحَبُّ من يدنو إلىَّ عَذُولُ
يغدوْ فلا مُسْتَخْبِرٌ عن حالهم ... غَـيْرى ، ولا مُسْتَخْبَرٌ مسـئول

(٧٠) — باب فى التصرف ، و نَقْد الشعر

متى يحوز الشاعر قصب السبق ؟

يجب للشاعر أن يكون متصرفاً فى أنواع الشعر : من جد وهَزْل ، وحلو وجَزْل ، وأن لا يكون فى النسيب أبرع منه فى الرثاء ، ولا فى المديح أنفذ منه فى الهجاء ، ولا فى الافتخار أبلغ منه فى الاعتذار ، ولا فى واحد مما ذكرت أبعد منه صوتاً فى سائرها ؛ فإنه متى كان كذلك حكم له بالتقدم ، وحاز قَصَبَ السَّبْقِ ، كما حازها بشار بن برد ، وأبو نواس بعده .

موازنة بين مسلم وأبى نواس

حكى الصاحب بن عباد فى صدر رسالة صنعها على أبى الطيب ، قال: حدثنى محمد بن يوسف الحمادى ، قال : حضرت بمجلس عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد حضره البحترى ، فقال : يا أبا عُبَادة ، أمُسْلم أشعر أم أبو نُوَاس ؟ فقال : بل أبو نواس ؛ لأنه يتصرف فى كل طريق ، ويبرع فى كل مذهب : إن شاء جد ، وإن شاء هَزَلَ ، ومسلم يلزم طريقاً واحداً لا يتعداه ، ويتحقق بمذهب لا يتخطاه فقال له عبيد الله : إن أحمد بن يحيى ثعلباً لا يوافقك على هذا ، فقال : أيها الأمير ، ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله ؛ فإنما يعرف الشعر من دُفع إلى مَضايقه ، فقال : وَرِيَتْ بك زِنَادى يا أبا عُبَادة ، إن حكمك فى عميك أبى نواس ومسلم وافق حكم أبى نواس فى عميه جرير والفرزدق ؛ فإنه سئل عنهما ففضل جريراً ، فقيل : إن أبا عبيدة لا يوافقك على هذا ، فقال : ليس هذا من علم أبى عبيدة ؛ فإنما يعرفه من دفع إلى مَضَايق الشعر ، وقد خالف البحترى أبا نواس فى الحـكم بين جرير والفرزدق ، فقدم الفرزدق ، قيل له : كيف تقدمه وجرير أشبه طبعاً بك منه ؟ فقال : إنما يزعم هذا من لا علم له بالشعر ، جرير

وبين جرير والفرزدق

لا يعدو فى هجائه الفرزدقَ ذِكْرَ القين وجعثن وقتل الزبير، والفرزدق يرميه فى كل قصيدة بآبدة ، حكى ذلك غير واحد من المؤلفين .

فإذا كان هذا فقد حكم له بالتصرف ، وبهذا أقول أنا ، وإياه أعتقد فيهما، وإذا لم يكن شعر الشاعر نمطاً واحداً لم يمله السامع ، حتى إن حبيباً ادعى ذلك لنفسه فى القصيدة الواحدة فقال :

الجِدُّ والهزْلُ فى تَوْشيعِ لُحْمَتِهَا
والنبلُ والسخفُ، والأشْجَانوالطربُ[1]

وقد قال إسماعيل بن القاسم أبو العتاهية :

لا يُصْلِحُ النَّفْسَ إذ كانتمُصَرَّفَةً إلاَّ التَّصَرُّفُ مِنْ حال إلى حالِ

وأنشد الصاحب لأبى أحمد يحيى بن على المنجِّم فى نقد الشعر :

ليحيى المنجم فى نقد الشعر

رُبَّ شِعْرٍ نَقَدْتُهُ مثل مَا يَنْــقُدُ رَأْسُ الصَّيَارفِ الدِّينَارَا

ثم أرسلته فكانت معانيــه وألفاظه مَعاً أبكارا

لو تأَتَّى لِقَالَةِ الشِّعر مَا أُسْــقِطُ منه حَلَّوْا به الأشعارا

إنَّ خيرَ الكلام مايستعيرُ النَّـــاسُ منه ولم يكن مُسْتَعارا

من عنده علم الشعر

وقال الجاحظ : طلبت علم الشعر عند الأصمعى فوجدته لا يحسن إلا غريبه فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه ، فعطفت على أبى عبيدة فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار ، وتعلَّقَ بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب : كالحسن بن وهب ، ومحمدبن عبد الملك الزيات .

قال الصاحب على أثر هذه الحكاية : فلله أبو عثمان ، فلقد غاص على سر الشعر ، واستخرج أرقّ من السحر.

---

(١) قال الآمدى : قوله « الجد والهزل فى توشيع لحتها » بيت فى غاية الحمق ، ومن يمدح وزيرا ، فلم يضمن قصيدته الهزل والسخف ؟ وإن كان هناك مايدل على هذا فلم نبه عليه واعترف به ؟ اهـ ، والتوشيع : من قولهم « وشعت البرد » إذا جعلت فيه ألوانا وطرائق .

وسأذكر بعد هذا الباب قطعة من أشعار الكتاب يظهر فيها مرماهم ، ويستدل بها على مغزاهم ، ويعرف حسن اختيار الجاحظ فيما ذهب إليه من تفضيلهم ، ويشهد لى بجودة المَيْز ، وفَرْط التثبت والإنصاف ، إن شاء الله تعالى .

(٧١) – باب فى أشعار الكتاب

والكتاب أرق الناس فى الشعر طبعاً ، وأملحهم تصنيعاً ، وأحلاهم ألفاظاً ، وألطفهم معانى ، وأقدرهم على تصرف ، وأبعدهم من تكلف .

من شعر إبراهيم الصولى

وقد قيل : الكتاب دَهَاقِينُ الكلام[1]، وما نزيدك على قول إبراهيم ابن العباس الصولى بين يدى المتوكل حين أحضر لمناظرته أحمد بن المدبر فقال ارتجالا :

صدَّ عنى وَصَدَّقَ الأقوالاَ وأطاعَ الْوُشَاةَ والعُذَّالاَ
أتراه يكون شَهْرَ صُدُودٍ وعَلَى وَجْهِهِ رأَيْتُ الْهِلاَلاَ

فطرب له المتوكل واهتز ووَصَله ، وخلع عليه وحمله ، وجدد له ولاية . وقيل له فى التلطف والاستعطاف أكثر من هذا ، وأى مدح أبرع وأبدع من قوله فى الفضل بن سهل :

لِفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ يَدٌ تَقَاصَرَ عنها المَثَل
فباطنها للندى وظاهرُها للقُبَلْ
* ونائلها للغنى وسَطْوَتُهَا لِلأَجَلْ

أليس هذا الماء الزلال ، والسحر الحلال ؟ ؟

ولقد أجاد ابن الرومى فى تناوله هذا المعنى حين قال :

مُقَبَّلُ ظهْرِ الكَفِّ ، وَهَّابُ بطنها له رَاحَةٌ فيها الحَطِيمُ وزَمْزَمُ

---

(١) الدهاقين : جمع دهقان –بكسر فسكون– وهو التاجر البارع ، وقال الشاعر:

إنما الدلفاء ياقوتة أخرجت من كيس دهقان

فظاهرُها للناس رُكْنٌ مُقَبَّلٌ وباطنها عَيْنٌ من الجود عَيْلَمُ[١]

إلا أن الأول أخف وزناً ، وأرشق لفظاً ومعنى . وهذان البيتان — وإن كانت فيهما زيادة — فإنما هما بإزاء البيت الأوسط من أبيات إبراهيم فقط . .

ومن تغزل إبراهيم قوله :

أراكَ فلا أردُّ الطرفَ كَيْلاَ يكون حجابَ رؤيتك الجفونُ

ولو أنى نظرتُ بكل عين لما استَقْصَتْ محاسنَكَ العيونُ

فهذا وأبيك البيان ، والخبر الذى كأنه العِيان .

وما أجد كل حلاوة وحسن طلاوة ، إلا دون قوا[٩] :

ابْتِدَاء بالتَّجَنِّى واقتضاء بالتَّظَنِّى

واشْتِفَاء بتَجَنِّيـــكَ لأعدائك منى

بأبى قل لى لكى أعْـــلَمَ لِمْ أعْرَضْتَ عنى

قد تمنى ذاك أعدا ئى ، فقد نالوا التمنى

وأما الهجاء فقد بلغ فيه أبعد الغايات بقوله فى محمد بن عبد الملك الزيات :

فـكن كيفَ شئتَ وَقلْ ماتشاء وَأرْعِدْ يميناً وأبْرِقْ شمالاً

نجا بكَ لؤمكَ مَنْجَى الذباب حَمَتْـــهُ مقاذيره أن ينالا[٢]

من شعر ابن الزيات

ومن شعر محمد بن عبد الملك الزيات قوله لأحمد بن أبى دؤاد ، وقد أمر الواثق أن يقوم جميعُ الناس لابن الزيات ، ولم يجعل فى ذلك رخصة لأحد ، وكان ابن أبى دؤاد يشتغل بصلاة الضحى إذا أحَسَّ بقدومه أنَفَةً من القيام إليه فى دار السلطان ، وامتثالا للأمر ، فصنع ابن الزيات :

صَلَّى الضحى لمـا استفاد عداوتى وأراه ينسكُ بعدَهَا ويَصُومُ

لاتعدِ مَنْ عـــداوةً مشئومةً تركتكَ تقعـدُ تارةً وتقومُ

ومن تغزله قوله ، وهو فى غاية العذوبة :

---

(١) عيـلم ـ بفتح العين المهملة وسكون الياء المثناة ـ أصله البحر والماء الـكثير ، والبئر الـكثيرة الماء .

(٢) فى كثير من الأصول « حمته مقاذره أن ينالا » بدون ياء .

قام بقلبي وقَعدْ لما نَفَى عنّي الجَلَدْ
يا صاحب القصْر الذى أسْهرَ عينى ورَقَدْ
وَاعَطَشِى إلى فمٍ يَمُجُّ خمراً من بَرَدْ
إن قُسّمَ الناسُ فَحَسْــبِى بك من كل أحدْ

وقال يرثى جاريته سلوانة ، وهى أم ولده عمر الأصغر :

يقول لِىَ الخلانُ: لو زُرْتَ قبرها فقلتُ: وهل غير الفؤاد لها قبرُ؟
على حين لم أحدث فأجْهلَ قدرها ولم أبْلُغِ السنّ التى معها الصبرُ

وقال أيضاً وأحسن ماشاء :

مالى إذا غبتُ لَمْ أذكر بواحدة وإن مرضتُ فطال السُّقم لَمْ أعدِ
ما أعْجَبَ الشىء ترجوه فتُحْرَمه قدكنت أحسب أنى قدملأتُ يدى

ومن شعره فى هذا الباب مقطعات متفرقة تغنى عن الإكثار منه ههنا .

من شعر الحسن بن وهب

وأما الحسن بن وهب فمن قوله :

لم تَنَمْ مُقْلتى لطولِ بكاها ولما جال فَوْقَهَا من قَذَاهَا
فالقذى كحلها إلى أن ترى وجــهَ سليمى، وكيف لى أن تراها ؟ !
أسْعَدَتْ مقلتى بإدمانها الدّمــعَ وهجرانِها الكرى مقلتاها
فلعينى فى كلّ حِينٍ دُمُوعٌ إنمـــا تستدرُّها عيناها

وقُدِّم إليه كانون ، ومعه قينة كان يهواها ، فأمرت بإبعاد الكانون، فصنع :

بأبى كَرِهْتِ النارَ حتى أبْعِدَتْ فعرفت ما مَعْناكِ فى إبعادها
هى ضرة لكِ بالتماع شُعَاعِها وبحسن صورتها لدى إيقادها
وأرى صنيعك بالقلوب صنيعها بأراكِها وسَيَالها وعَـرَادها
شَرَكَتْكِ فى كل الجهات بحسنها وصيانها وصلاحهـا وفسادها

ومن مليح الشعر قوله يمدح محمد بن عبد الله بن طاهر غِبَّ مطر :

هَطَلَتنــا السّماء هَطْلاً دِرَاكا جاوَزَ المَرْزُمَان فيــه السِّماكا

قلتُ للبرقِ إذ تألقَ فيــهِ : يازِنادَ السماء من أوْرَاكا[1]
أحبيباً أحببته فحكاكا ؟ فعسى ذاكَ أن يعودَ كذاكا
أمْ تَشَبَّهتَ بالأمير أبى العَبــاس فى جُودِه ؟فَلَسْتَ هُنَاكا

وهذا هو الكلام الكتابى ، السهل ، المرسل ، الحسن الطلاوة ، والظاهر الحلاوة .

ومن قوله يرثى حبيباً الطائى ، وكان صديقاً له جداً :

سقى بالموصلِ القبرَ الْغَريبا سحائبُ يَنْتَحِبْنَ به نحيبا
إذا أظللنه أطلقنَ فيه شعيب المزن يُتْبعها شعيبا
وَلَطَّمَتِ البروقُ له خدودا وَشَقَّقَتِ الرُّعودُ له جيوبا
فإنَّ تراب ذاكَ القبر يَحْوِى حبيباً كان يدعى لى حبيبا

وهى قصيدة كاملة أتيت بهذا منها معرضاً .

من شعر سعيد بن حميد الكاتب

ومن شعراء الكتاب سعيدُ بن حميد الكاتب ، وهو القائل فى طول الليل :

ياليْلُ ، بَلْ يا أبدُ أنائمٌ عنكَ غدُ؟
ياليلُ، لوتَلْقَى الذى ألقى بها أو أجِــدُ
قَصَّرَ من طولك أو أضْعفَ منك الجَلَدُ

ورواه قوم * أنحل منك الجسد * والأول عندى أصوب ، وعلى كل حال فمنه أخذ أبو الطيب قوله :

ألم يَرَ هذا الليلُ عَيْنَيْكِ رؤيتى فتظهرَ فيــــه رقةٌ ونحولُ

مالا يلزم الكاتب

وليس يلزم الكاتب أن يجارى الشاعر فى إحكام صنعة الشعر ؛ لرغبة الكتاب فى حلاوة الألفاظ وطيرانها ، وقلة الكلفة ، والإتيان بما يخف على

(١) تألق : لمع ، وزناد السماء : شبه به البرق ، وأوراك : من قولهم « ورى الزند » إذا قدحه ليخرج نارا .

النفس منها ؛ وأيضا فإن أكثر أشعارهم إنما يأتى تظرفا ، لا عن رغبة ولا رهبة ، فهم مطلقون مُخَلَّوْنَ فى شهواتهم ، مسامحون فى مذهبهم ؛ إذ كانوا إنما يصنعون الشعر تخيراً واستظرافاً ، كما قال كشاجم الكاتب :

ولئن شعرتُ فما تعمدت الهجاء ولا المديحهْ
لكنْ رأيتُ الشعرَ لِلْآداب ترجمةً فصيحهْ

وعلى هذا النمط يجرى الحكم فى أشعار الخلفاء ، والأمراء ، والمترفين من أهل الأقدار : لا يحاسبون فيها محاسبة الشاعر المبرز الذى الشعرُ صناعته ، والمديح بضاعته .

وقد أعرب أبو الفتح بن العميد وأغرب فى قوله :

فإن كانَ مَرْضِياً فقل : شعر كاتبٍ وإن كان مسخوطاً فقل :شعر كاتب[1]

ولو حاولتُ أن أذكر مَنْ علمت من شعراء الكتاب -سوى من ذكرت- لبُعْدَ الأمد ، وطالت الشقة ، واحتجت إلى أن أقيم لهذا الفن ديواناً مفرداً ؛ لكنى عوَّلت على ابن الزيات ، وابن وهب ؛ لإحالة الجاحظ فى الفضل عليهما ، وآنستهما باثنين ليسا بدونهما ، ولو لم آت بهذا الباب إلا بما بنيته عليه من ذكر أشعار السيد الرئيس أبى الحسن أيده الله لكان ذلك فوق الرضا والكفاية .

من شعر أبى الحسن

فمن ذلك قوله :

بَاكِرِ الرَّاحَ وَدَعْ عَنْكَ الْعَذَلْ وَاسْعَ فى الصِّحَّةِ مِنْ قَبْلِ الْعِلَلْ
واغتنم لذة يوم زائل فالمنايا ضاحكاتٌ بالأمل
ما ترى الساقى كشمسٍ طلعت تَحْمِلُ المريخ فى بُرْجِ الْحَمَلْ
مائساً كالغصنِ فى دِعْصِ نَقاً فاتِنَ المقلةِ زِينَتْ بالكَحَلْ

(١) انظر (ج ١ ص ٣٣٥) تجد للمؤلف تعليقا على هذا البيت .

وقوله أيضا يتغزل :

مَرَّ بنـــــا يَهْـتَزُّ فى مَشْيِهِ مثل اهتزَازِ الْغُصُنِ الرَّطْبِ
فمقلتى ترتعُ فى حُسْنه ومقلتاه أحْرَقتْ قلبى

قوله « أحرقت » وهما مقلتان كقول بعضهم ، وأنشده أبو الجراح فى طبقات الشعراء :

أشركت عيناه ظالمة فى دمى يا عُظْمَ ما جنت

فقال « ظالمة » وقال « جنت » لأن التثنية جمع فى الحقيقة ، والجماعة تخبر عنها كما تخبر عن الواحد : لمكان التأنيث ، والشاهد من قول القدماء قول أحدهم :

لِمَنْ زُحْلُوقَةٌ زلُّ بهَا الْعَيْنَانِ تَنْهَلُّ

فقال « تنهل » وكان حقه أن يقول « تنهلان » لـكن العلة ما قدمت .

ومن الموعظة الحسنة البالغة قوله :

أَمْنُ الزَّمان زَمَانَةُ العقلِ فاخْشَ الآله وحُلْ عَن الجهلِ
واعلم بأنكَ فى الحسابِ غداً تُجْزَى بما قَدَّمْتَ من فعلِ

ومن تشكى أحوال الناس وقلة ثقتهم وإنصافهم قوله :

أيارب ، إن الناسَ لاَ يُنْصِفُونَنى ولمْ يُحْسِنُوا قَرْضِى على حَسَنَاتى
إذا ما رأونى فى رَخَاء تَرَدَّدُوا إلىّ ، وأعدائى لَدَى الأزَماتِ
وَمَهْمَا أَكُنْ فى نِعْمَةٍ حَزِنُوا لهَا ذوو أنفسٍ فى شِدةٍ جَذِلاَت
ثقاتىَ ما دامتْ صِلاتى لديهمُ وإن عنهمُ أخَّرْتُها فعِداتى
سأمنعُ قلبى أن يَحِنَّ إليهمُ وأصرف عنهم قاليا لَحَظَاتى
وألْزِمُ نفسى الصَّبْرَ دأْبًا لعلنى أعاينُ ما أمَّلْتُ قَبْلَ مماتى
ألاَ إنما الدُّنيا كَفَافٌ وصِحَّةٌ وأمْنٌ ، ثلاَثٌ هُنَّ طِيبُ حَياتى

قوله « ثلاث » يعنى ثلاث خصال أو ثلاث أحوال ، كما قال طرفة :

* فَلولاَ ثلاثٌ هُنَّ من لَذَّة الفتى(١) *

ثم فَسَّرَهن فقال :

* فنهن سَبْقُ العاذلات بشربة(٢) *

* وكَرِّى إذا نادى المضاف مُجَنَّباً(٣) *

* وتقصــــير يوم الدجن(٤) *

والسبق والتقصير والكر كلها مذكرة ، لكن أراد ما قدمت .

ومن أحسن الأشعار قوله :

خليلىَّ ، إنْ لم تُسْعِدَانى فأَقْصرا فليسَ يُدَاوَى بالعتابِ المتيَّمُ
تريدَانِ منى النُّسْكَ فى غيرِ حينه وغُصْنِىَ رَيَّانٌ ورَأْسِىَ أسْحَمُ

وقوله فى قصيدة طويلة :

غَرَّاء واضِحةٌ يَنُوسُ بقُرْطُها جِيدٌ حَكَى جِيدَ الغزالِ الأعنقِ
صَدَّتْ فأغرَت بالسجوم مدامعى والعين تذرف بالدموع السُّبَّقِ
تشكو البعاد إذا بعدت تَصَبُّراً وإن ارتجعت إلى الزيارة تَفْرَقِ
ولقد يبيت أخو المودة لائمى فى حبها لوم الشفيق المشفق
حتى إذا طلعتْ فأبْصرَ شَخْصَهَا أخْزَى جهالة لائمى المستحمق
كم قد قطعت بوصلها من ليلة ونشرب صافية كلون الزئبق

---

(١) تمامه * وجدك لم أحفل متى قام عودى *

(٢) تمامه * كميت متى ماتعل بالماء تزبد * ويروى « سبق العاذلات »

(٣) مجنبا ـ بالجيم الموحدة ـ هكذا هو فى رواية ضعيفة ، والرواية الموثوق بصحتها « محنبا » بالحاء المهملة ، وتمام البيت * كسيد الغضا نبهته المتورد *

(٤) البيت بتمامه هكذا :

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الخباء المعمد

يسعى بها كالبدرِ ليلةَ تمِّهِ سَحَّارُ ألحاظٍ رخيمُ المنطقِ
آليتُ أتركُ ذا وتلكَ وهذهِ حتى يفارقَنى سوادُ المَفرِقِ

فلله سلامة هذا الطبع واندفاعه ، وقرب هذا اللفظ واتساعه ، ولله رقة معانيه وإرهافها ، وظهورها مع ذلك وانكشافها ، ولطف مواقعها من القلوب ، وسرعة تأثيرها فى النفوس ، وسيرد من شعره فيما بعد ما لاق بالمواضع التى يذكر فيها ، إن شاء الله تعالى .

(٧٢) — باب فى أغراض الشعر وصُنُوفه

وهو بَسْطٌ لما بعده من الأبواب ، وقد فرط البسط له ، وفرغ من مقدمته فى باب حد الشعر وتبيينه ، وأنا ذاكر هنا مالا بد منه .

الناشىء فى صناعة الشعر

تكلم قوم فى الشعر عند أبى الصقر إسماعيل بن بلبل من حيث لا يعلمون . فكتب إليه أبو العباس الناشىء :

لَعَنَ اللهُ صنعة الشعرِ ، ماذا من صنوفِ الجهالِ فيها لقينا؟
يؤثِرونَ الغريبَ منه على ما كان سهلاً للسامعين مُبينا
وَيرَوْنَ المحالَ شيئاً صحيحا وخسيسَ المقالِ شيئاً ثميناً
يجهلونَ الصواب منه ، ولا يدْ رُونَ للجهلِ أنَّهُمْ يجهلونا
فهُمُ عنـد من سوانا يلامو ن ، وفى الحق عندنا يُعْذرونا
إنما الشعر ما تناسب فى النظـ ـم ، وإن كان فى الصفاتِ فنونا
فأتى بَعْضُهُ يشاكلُ بعضاً قد أقامتْ له الصدورُ المُتُونَا
كلُّ معنى أتاكَ منه على ما تتمنَّى لو لم يكنْ أن يكونا
فتناهى عن البيانِ إلى أنْ كاد حسناً يبين للناظرينا
فكأن الألفاظ فيه وجوه والمعانى رُكِّبْن فيه عيونا

فائتا فى المرام حَسْبَ الأمانى فيجـــلِّى بحسنه المُنْشِدِينا
فإذا ما مدحْتَ بالشعر حرا رمتَ فيه مذاهبَ المسهبينا
فجعلتَ النسيبَ سَهْلاً قريبًا وجعلتَ المديحَ صِدْقًا مبينا
وتنكبتَ ما تهجَّنَ فى السمـــع ، وإن كان لفظه موزونا
وإذا ما قَرَضْتَهُ بهجـــاء عِفت فيه مذاهب المرفثينا
فجعلت التصريح منه دواء وجعلت التعريض داء دفينا
وإذا ما بكيت فيه على الغا دين يومًا للبين والظاعنينا
حُلْتَ دون الأسى وذلْتَ ما كا ن من الدمع فى العيون مَصُونا
ثم إن كنت عاتبا شبت فى الوعـــد وعيدا وبالصعوبة لينا
فتركت الذى عَتَبْتَ عليه حذِراً آمنا ، عزيزا مهينا
وأصحُّ القريض مافات َفى النظـــم ، وإن كان واضحا مستبينا
وإذا قيل أطمعَ الناسَ طرًّا وإذا ريم أعجز المعجزينا

وصية أبى تمام للبحترى

قال أبو عبادة الوليد بن عبيد البحترى : كنت فى حداثتى أروم الشعر ، وكنت أرجع فيه إلى طَبْع ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ، ووجوه اقتضائه ، حتى قصدت أبا تمام ؛ فانقطعت فيه إليه ، واتكلت فى تعريفه عليه ، فكان أول ماقال لى : يا أبا عبادة ، تخيَّر الأوقات وأنت قليل الهموم ، صِفر من الغموم ، واعلم أن العادة فى الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شىء أو حفظه فى وقت السَّحَر ، وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم ، فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقا ، والمعنى رشيقا ، وأكثر فيه من بيان الصَّبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق ، وإذا أخذت فى مدح سيد ذى أياد فأشْهِرْ مَنَاقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبِنْ معالمه ، وشرف مقامه ، وتقَاضَ المعانى ، واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزَّرِيَّة ، وكن

كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام ، وإذا عارضك الضجر فأرِحْ نفسك ، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر الذَّرِيعَةَ إلى حسن نظمه ؛ فإن الشهوة نعم المعين ، وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين : فما استحسنته العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله تعالى .

قال صاحب الكتاب : قد كنت أردت ذكر هذا الفصل فيما تقدم من باب عمل الشعر وشَحْذ القريحة له ، فلم أثق بحفظى فيه ، حتى صححته فأثبته بمكانه من هذا الباب[1] .

للناشىء أيضا فى الشعر

ومن قول الناشىء فى معنى شعره الأول :

الشعر ما قوَّمت زَيْغَ صدوره ... وشَدَدْتَ بالتهذيب أسْرَ متونه
ورأبت بالإطناب[2] شَعْبَ صُدوعه ... وفتحتَ بالإيجاز عُورَ عيونه
وجمعت بين قريبه وبعيده ... ووَصَلْت بين مجمِّه ومَعينه
فإذا بكيت به الديارَ وأهلَهَا ... أجريتَ للمحزون ماء شؤونه
وإذا مَدَحْتَ به جواداً ماجداً ... وَفَّيْتَهُ بالشكر حقَّ ديونه
أصفيته بنفيسه ورصينه ... وخصصته بخطيره وثمينه
فيكون جَزْلاً فى اتِّسَاق صنوفهِ ... ويكونُ سَهلاً فى اتفاق فنونه
فإذا أردتَ كناية عن ريبةٍ ... بايَنْتَ بين ظهوره وبطونه
فجعلتَ سامعه يشوب شكوكَهُ ... ببيانه وظنونَهُ بيقينه
وإذا عَتَبْتَ على أخٍ فى زلةٍ ... أدْمَجْتَ شِدَّتَهُ له فى لينه
فتركته مستأنساً بدَمَاثة ... مستيئساً لوعوثه وحُزُونه

(١) انظر ج ١ ص ٢٠٨ من هذا الكتاب .
(٢) يقال « رأب الشعب » و « رأب الصدع » فى معنى أصلح الفاسد .

وإذا نبذتَ إلى التى عُلِّقتها • إنْ صارَمَتْكَ بفَاتِنَاتِ شؤُونِهِ
تيَّمْتَها . بلطيفهِ ودقيقه وشغفتها بخبيــــــه وكمينه
وإذا اعتذرْت إلى أخ من زلّةٍ واشكت بين محيــلهِ ومبينه

وهذا حين أبدأ بالـكلام على هذه الأغراض والصنوف واحداً فواحداً ، إن شاء الله سبحانه وتعالى .

(٧٣) — باب النسيب

حق النسيب

حق النسيب أن يكون حلو الألفاظ رَسْلها ، قريب المعــانى سَهْلَها ، غير كَزّ ولا غامض ، وأن يُخْتَار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى، لين الإيثار[٢] ، رَطْبَ المـكسر ، شفّاف الجوهر ، يُطْرِب الحزين ، ويستخفُّ الرَّصِين .

روى أبو على إسماعيل بن القاسم ، عن ابن دريد ، عن أبى حاتم ، عن الأصمعى ، عن أبى عمرو بن العَلاَء ، عن راوية كثير[٣] قال : كنت مع جرير ــ وهو يريد الشام ــ فطرب ، وقال : أنشدنى لأخى بنى مليح ــ يعنى كثيراً ــ فأنشدته حتى انتهيت إلى قوله :

وأدْنَيتِنِى حتى إذا ما سبيتنى[٤] بِقَوْلٍ يُحِلُّ الْعُصْمَ سَهْلَ الأَبَاطح

(١) انظر نقد الشعر لقدامة ٤٢ الآستانة .

(٢) ربما قرئت « لين الأبشار » .

(٣) فى جميع أصول هــذا الـكتاب « عن رواته عن كثير » وهو خطأ ، وما أثبتناه عن الأمالى (ج ٢ ٢٢٨) وقد اعترضه البـكرى فى التنبيه ، قال « هذا الشعر لمجنون بنى عامر، لا لـكثير ، ولا أعلم أحدا رواه له ، وقد وقع لى فى ديوانه وبعد البيتين :

فما حب ليلى بالوشيك انقطاعه ولا بالمؤدى يوم رد المنائح

(٤) فى الأمالى « إذا ما استميتنى » والذى فى الأصل موافق لرواية البـكرى فى التنبيه .

تجافَيْتِ عنى حين لالِيَ حيلة[١] وخلَّفت ماخلّفتِ[٢] بين الجوانح

فقال : لولا أنه لا يحسن بشيخ مثلى النخير لنَخَرْتُ حتى يسمع هشام على سريره . .

وقيل لأبى السائب المخزومى : أترى أحداً لا يشتهى النسيب ؟ فقال : أما مَنْ يؤمن بالله واليوم الآخر فلا .

الفرق بين الغزل والنسيب

والنسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد . . وأما الغزل فهو إلف النساء، والتخلق بما يوافقهن ، وليس مما ذكرته فى شىء ؛ فمن جعله بمعنى التغزل فقد أخطأ ، وقد نبه على ذلك قدامة وأوضحه فى كتابه نقد الشعر[٣]

وقال الحاتمى : من حكم النسيب الذى يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجاً بما بعدهُ من مدح أو ذم ، متصلا به ، غير منفصل منه ، فإن القصيدة مثلها مثل خلق الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتَخَوَّنُ[٤] محاسنه ، وتُعَفِّى معالم جماله ، ووجدت حُذّاق الشعراء وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون من مثل هذه الحال احتراساً يحميهم من شوائب النقصان ، ويقف بهم على مَحَجَّة الإحسان .

من مختار نسيب المتقدمين

ومن مختار[٥] ما قيل فى النسيب قول المرار العدوى .

---

(١) فى الأمالى « حين لالى مذهب » وكذلك فى التنبيه (ص ١١٨)

(٢) فى التنبيه « وغادرت ما غادرت » والذى فى الأصل موافق لما فى الأمالى

(٣) انظر نقد الشعر ص ٤٢ .

(٤) تتخون محاسنه : أى تنقصها .

(٥) هذه الأبيات من قصيدة للمرار اختارها أبو العباس المفضل الضبى فى « المفضليات » وفى رواية المفضليات أبيات بين بعض هـذه الأبيات وبعض ؛ فلعل المؤلف لم يقصد إلى اختيار قطعة كاملة من القصيدة يقفو بعض أبياتها بعضا .

وَهْىَ هيفاء هضيمٌ كَشْحُهَا ... فَخْمَةٌ حيثُ يُشَدُّ المُؤْتَزَرْ
صَلْتَةُ الخدِّ طَوِيلٌ جِيدُهَا ... ضَخْمَةُ الثَّدْى(١) وَلَمَّا ينكسرْ
يُضْرَبُ السبعون فى خَلْخَالِهَا ... فإذا ما أُكْرِهَتْهُ يَنْكَسِرْ
لا تَمَسُّ الأرضَ إلا دُونها ... عن بَلَاطِ الأرْضِ ثَوْبٌ منعفِرْ
تطأ الخزَّ ولا تُكْرِمه ... وتُطِيلُ الذَّيْلَ مِنْهُ وَتَجُرْ
ثُمَّ تَنْهَدُّ عَلَى أَنْمَاطها ... مثلَ ما مال كثيب منقعِرْ
عَبِقُ العنبرِ والمسكِ بها ... فهى صفراء كعرجون العمرْ
أملحُ الناسِ إذا جَرَّدْتَهَا ... غيرَ سِمْطَيْنِ عليها وَسُورْ

قال عبد الكريم : هذه أملح وأشرف ما وقع فيه الوصف ، وهى أشبه بنساء الملوك .

وأنشد لغيره :

قليلة لحم الناظرين يزينها ... شبابٌ ومخفوض من العيش باردُ
أرادت لتنتاش الرواقَ فلم أقم ... إليه ، ولكن طأطأته الولائدُ
تناهى إلى لهوِ الحديث كأنها ... أخو سقطة قد أسلمته العوائد

وأنواع النسيب كثيرة ، وهذا الذى أنشدته أفضلها فى مذاهب المتقدمين ، وللمحدثين طريق غير هذه كثيرة الأنواع أيضا :

مما يختار من نسيب المحدثين

فما أختار من ذلك ما ناسب قول أبى نواس :

حَلَّتْ سعاد وأهلُها سَرِفَا ... قوماً عِدًى ومحلةً قُذُفَا
وكأن سُعْدى إذ تودِّعنا ... وقد اشْرَأَبَّ الدمعُ أن يكفَا
رَشأٌ تواصينَ القيانُ به ... حتى عَقَدْنَ بأذنه شَنَفَا

(١) رواية المفضليات « ناهد الثدى » .

لمسلم بن الوليد

فإن هذا فى غاية الجودة ونهاية الإحسان ، وماناسب قول مسلم بن الوليد :

أحِبُّ التى صَدَّتْ وقالت لِترْبها : دَعيه ، الثُرَيّا منه أقربُ من وَصْلى
أماتتْ وأحْيَتْ مُهْجتى فهْىَ عندها مُعَلَّقَةٌ بين المَواعيدِ والمَطْلِ
وما نِلتُ منها نائلاً غــيرَ أننى بشَجْوِ المحبين الأُلَى سَلَفُوا قبلى
بلى ، ربما وكَّلْتُ عيــنى بِنَظْرة إليها تزيدُ القلبَ خَبْلاً على خَبْل

للبحترى

ومن الجيد قول الوليد بن عبيد البحترى :

رَدَدْنَ ماخففتْ منه الخصورُ إلى ما فى المآزِرِ فاستثقلن أردافا
إذا نَضَيْنَ شُفُوفَ الرَّيطِ آونَةً قَشَرْنَ عن لؤلؤ البحرين أصدافا

والبحترى أرق الناس نسيبا ، وأملحهم طريقة ، ألا تسمع قوله :

إنى وإن جانبت بعضَ بطالَتى وتوهمَ الواشونَ أنىَ مُقْصِرُ
لَيَشُوقُنى سِحْرُ العيون المجتلى ويروقنى وَرْدُ الخدودِ الأَحْمَرُ

وشعره من هذا النمط ، لا سيما إن ذكر الطيف ؛ فإنه الباب الذى شهر به ،

لأبى تمام

ولم يكن لأبى تمام حلاوة توجب له حسن التغزل ، وإنما يقع له من ذلك التافه اليسير فى خلال القصائد ، مثل قوله :

بِتُّ أرعى الخدود حتى إذا ما فارقونى بقيت أرعى النُّجُوما

وقوله أول قصيدة :

أرَامَةُ ، كنتِ مألَفَ كل رِيمٍ لو استمتعت بالأنسِ المقيم
أدارَ البؤسِ ، حَسَّنَكِ التصابى إلىَّ فصرتِ جَنَّاتِ النعيم
ومِمّـــا ضَرَّمَ البُرَحَاءَ أنى شكوتُ فما شكوتُ إلى رحيم

للمتنبى

وأما أبو الطيب فمن مليح ماسمعت له قوله :

كثيباً توقانى العواذِلُ فى الْهوَى كما يَتَوَقَّى رَيِّضَ الخيل حازِمُهْ

قِفِى تغرم الأُولى من اللحظ مُهْجتى بثانية ، والمُتْلِفُ الشىء غارِمُهْ
سقاكِ وحيانا بك الله ، إنما على العيس نَوْرٌ والخدورُ كمائمُهْ

فقد جاء بأملح شىء وأوفاه من الظرافة والغرابة .

وقوله يذكر رَبْعَ أحبابه :

نزلنا عن الأكوارِ نمشى كَرَامَةً لمن بَانَ عَنْه أن نُلِمَّ به ركبا
نذمُّ السحاب الغرَّ فى فعلها به ونُعْرِض عنها كلما طلعت عَتْبَا

وقال فى ذكر الديار أيضاً :

ودُسْنَا بأخفافِ المَطِىِّ تُرَابَهَا فلا زلتُ أسْتَشْفِى بِلَثْمِ المناسِمِ
ديارُ اللواتى دَارُهُنَّ عزيزةٌ بسُمْرِ القنا يُحْفَظْنَ لا بالتمائم
حسانُ التثَنِّى يَنْقُشُ الوشىُ مثله إذا مِسْنَ فى أجْسَامِهن النواعِم
ويَبْسِمْنَ عَنْ دُرٍّ تَقَلَّدْنَ مثله كأن التراقى وُشِّحَتْ بالمباسم

ورد جماعة من الكتاب على العتابى ، وهو بحلب ، وفى يده رقعة ، وقد أطال فيها النظر والتأمل ، فقال : أرأيتم الرقعة التى كانت فى يدى ؟ قالوا : نعم ، قال : لقد سلك صاحبها واديا ما سلكه غيره ، فلله دره ، وكان فى الرقعة قول أبى نواس :

لأبى نواس أيضا

رَسْمُ الكَرَى بين الجفون مُحِيلُ عَفَّى عليه بُكًى عليك طويل
يا ناظراً ما أقلعتْ لحظاته حتى تَشَحَّطَ بينهن قتيل

أغزل بيت لابن أبى ربيعة

رَوَى الأصمعى عن أبى عمرو بن العَلاَء أنه قال : أغزل بيت قالته العرب قول عمر بن أبى ربيعة :

فتضاحَكْنَ وقَدْ قُلْنَ لها : حَسَنٌ فى كل عَيْنٍ من تَوَدّْ

لامرىء القيس

وكان الأصمعى يقول : أغزل بيت قالته العرب قول امرىء القيس :

وما ذَرَفَتْ عَيْنَاكِ إلاَّ لِتَضْرِبِى بسَهْمَيْكِ فى أعشار قَلْبٍ مُقَتَّلِ

وحكى عن الوليد بن يزيد بن عبد الملك أنه قال : لم تقل العرب بيتاً أغزل من قول جميل بن معمر :

لجميل

لــكلٍّ حديثٍ بينهنَّ بشاشةٌ وكلُّ قتيلٍ عندَهُنَّ شهيدُ

وفَضَّلَته بهذا البيت سكينة بنت الحسين بن علىّ رضوان الله عليهم ، وأثابته به دون جماعة من حضر من الشعراء .

للأحوص

وقال بعضهم : الأحوص من أغزل الناس بقوله :

إذا قلتُ إنى مُشْتَفٍ بلقائها وحُمَّ التَّلاقى بيننا زادنى سُقْمَا

لجميل أيضا

وقال غيره : بل جميل بقوله :

يَمُوتُ الهوى منى إذا ما لَقيتها ويَحْيَا إذا فارَقْتُهــــا فيعُودُ

لجرير

وقال آخر : بل جرير بقوله :

فلمَّا التقى الحيَّانِ أُلْقِيَتِ العصى ومات الهوى لما أصيبت مقاتلهْ

والأحوص عندهم أغزلهم فى هــذه الأبيات الثلاثة ؛ لزيادته سقماً إذا التقى بالمحبوب .

لأبى صخر

وقال الحاتمى : أغزل ما قالته العرب قول أبى صخر :

فَيَاحُبَّها زِدْنِى جَوًى كل لَيْـلَةٍ ويا سَلْوَةَ الأيام مَوْعِدُكِ الْحَشْرُ

لأبى نواس

وقال أبو عبيدة : ما حفظت شعراً لمحدث ، إلا قول أبى نواس :

كأَنَّ ثيابه أَطْلَعْــــنَ من أزراره قَمَرَا

يزيدُكَ وَجْهُهُ حسناً إذا ما زِدْتَهُ نَظَرَا

بعينٍ خَالَطَ التفتــــيرُ من أجفانها الْحَوَرَا

وخَدٍّ ســـــارىٍّ لو تَصَوَّبَ ماؤه قَطَرَا

الأسماء التى يتغزل الشعراء فيها

وللشعراء أسماء تخف على ألسنتهم وتحلو فى أفواههم ، فهم كثيراً ما يأتون

بها زوراً نحو : ليلى ، وهند ، وسَلْمى ، ودَعْد ، ولُبْنَى ،وعَفْرَاء ، وأرْوَى ، ورَيَّا ، وفاطمة ، وَمَيَّة ، وعُلْوَة ، وعائشة ، والرَّبَاب ، وجُمْل ، وزينب ، ونُعْم ، وأشباههن .

ولذلك قال مالك بن زغبة الباهلى ، أنشده الأصمعى :

وما كان طِبِّى حُبَّهَا غَيْرَ أَنَّهُ   يُقَامُ بسَلْمى للقوافى صُدُورُها(١)

وأما عَزَّة و بثينة فقد حماها كثير وجميل ، حتى كأنما حُرِّما على الشعراء . .

وربما أتى الشعراء بالأسماء الكثيرة فى القصيدة؛ إقامةللوزن،وتحلية للنسيب ، كما قال جرير:

أَجَدَّ رَوَاحُ القومِ؟بل لاتَ رَوَّحُوا   نَعَمْ كُلُّ مَن يُعْنَى بجُمْلٍ مُبَرَّح

ثم قال بعد بيت واحد :

إذا سَايَرَتْ أسْماءُ يوماً ظَعائناً   فأسماءُ من تلك الظعائن أملح(١)

ظَلِلْنَ حَوَالَيْ خِدْرِ أسماءفانتحى   بأسماء مَوَّارُ الملاطين أروح

مَحَاالقلبُعنأسْماوقدبَرَّحَتْ بِهِ   وما كان يَلْقى من تُمَاضِرَ أبرحُ

وأما قول السيد الحميرى :

ولقد تكونُ بها أوانس كالدمَى   هند وعَبْدَةُ والرباب وبَوْزَع

فإنه ثقيل من أجل بَوْزَع .

وأنكر هذه اللفظة عبد الملك بن مروان على جرير ، فما ظنك بالسيدالحميرى؟ وكلما كانت اللفظة أحْلَى كان ذكرها فى الشعر أشْهَى ، اللهم إلا أن يكون الشاعر لم يُزَوِّرْ الاسم ، و إنما قصد الحقيقة لا إقامة الوزن؛فحينئذ لاملامة عليه،مالم يجد فى الكنية مندوحة . .

وقال يزيد بن أم الحكم :

---

(١) الطب : العادة والسجية ، وقال الشاعر :

وما إن طبناجبن ، ولكن منايانا ودولة آخرينا

(٢) يروى * . . . ظعينة . . . من تلك الظعينة . . .

أمْسَى بأسماء هذا القلبُ مَعْمُودا إذا أقول صَحا يعتاده عيدا
كأنَّ أحورَ من غِزْلانِ ذى بقرٍ أهْدَى لعائشة العينين والْجيدَا

على أن بعضهم رواه « أهدى لها شَبَهَ العينين » وهو أجود لا محالة ، ومثل هذا كثير فى أشعار القدماء ، ولست أرى مثله من عمل المحدثين صوابا ، ولا علمته وقع لأحد منهم ، إلا ما ناسب قول السيد المتقدم آنفا ، وقول أبى تمام الطائى :

وإن رَحَلَت فى ظُعْنِهِمْ وحُدُوجهم زَيانبُ من أحبابنا وعواتك

من عيوب هذا الباب

ومن عيوب هذا الباب أن يكثر التغزل ويقل المديح ، كما يحكى عن شاعر أتى نصر بن سَيَّار بأرجوزة فيها مائة بيت نسيبا وعشرة أبيات مديحا ، فقال له نصر : والله ما أبقيت كلمة عَذْبة ولا معنى لطيفاً إلا وقد شغلته عن مديحى بنسيبك ، فإن أردت مديحى فاقتصد فى النسيب ، فغدا عليه فأنشده :

هَلْ تعرف الدَّارَ لأمِّ عَمْرو ؟ دَعْ ذا وَحَبِّرْ مدحةً فى نصر

فقال نصر : لا هذا ولا ذاك ، ولكن بين الأمريْنِ .

فأما مذهبه الأول فى طول النسيب وقصر المديح فإن نصيبا اتبعه فيه، ولكن ذاك منه إنما كان على اقتراح فى القصيدة التى مدح بها بنى جبريل ، وأما المذهب الثانى فانتحله أبو الطيب فى قوله :

واحَرَّ قلباه ممن قَلْبُهُ شَبِمُ ومن بجسمى وحالى عنده سَقَمُ

ثم خرج إلى المدح فى البيت الثانى .

ويعاب على الشاعر أن يفتخر أو يتعاطى [فوق] قدره ، كما أخذ على عباس قوله :

فإن تقتلونى لا تفوتوا بمهجتى مَصَالِيتَ قَوْمى من حَنِيفة أو عجل

وعيب على الفرزدق وهو صميم بنى تميم قوله :

يا أخت ناجيةَ بْنِ سامة إننى أخشى عليكِ بَنِىَّ إن طلبوا دمى

اللهم إلا أن يكون النسيب الذى يصنع مجازا كالذى فى بسط القصائد ، فإن ذلك لا بأس به ، ولا مكروه فيه .

وسمع ابنُ أبى عتيق قولَ ابن أبى ربيعة المخزومى :

بينما يَنْعَتْنَنِى أَبْصَرْنَنِى دُون قيد الميل يَعْدُو بى الأغَرّْ

قالت الكبرى : أتعرفْنَ الفتى؟ قالتِ الوُسْطَى : نعم ، هذا عمر

قالت الصغرى وقد تيمتها : قد عرفناه ، وهل يخفى القمر ! ؟

فقال له : أنت لم تَنْسُبْ بهن ، وإنما نَسَبْتَ بنفسك ، وإنما كان ينبغى لك أن تقول : قالت لى فقلت لها ، فوضعت خدى فوطئت عليه .

وكذلك قال له كثير لما سمع قوله :

قَالتْ لهـا أختها تعاتبها : لا تُفسِدِنَّ الطَّوَافَ فى عُمَرِ

قومى تَصَدَّىْ له لأبصره ثم اغمزيه يا أخْتُ فى خَفَرِ

قالت لهـا : قد غمزته فأبى ثم اسْبَطَرَّتْ تشتدُّ فى أثرى

أهكذا يقال للمرأة ؟ ؟ إنما توصف بأنها مطلوبة ممتنعة .

قال بعضهم ـ أظنه عبد الكريم ـ : العادة عند العرب أن الشاعر هو المتغزل المتماوت، وعادة العجم أن يجعلوا المرأة هى الطالبة والراغبة المخاطبة ،وهنا دليل كرم النَّحِيزَة فى العرب وغيرتها على الحرم .

وعاب كُثير على نُصَيب قولَه :

أهيمُ بدعدٍ ماحييت ، فإن أمت فيالَيْتَ شعرى مَنْ يهيم بها بَعْدِى

حتى إنه قال له : كأنك اغتممت لمن يفعل بها بعدك ، وهو لا يكنى . .

ومثل هذه الحكاية ما قاله بعض الكتاب ـ وقد دخل على على بن عبد الله بن جعفر بن إبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب وهو

محبوس ـ فقال: أين هذا الجعفرى الذى يَتَدَيَّثُ فى شعره ؟ قال على : فعلمت أنه يريدنى لقولى :

ولما بَدَا لى أنها لا تحبنى وأنَّ هَوَاها ليس عنى بمُنْجَلِي
تمنيت أن تَهوى سوایَ ، لعلها تذوق صبابات الهوى فترقَّ لى
فما كان إلا عَنْ قليل وأشغفت محبٍّ غَزَالٍ أدْعَجِ الطرف أكْحَل
وعذَّبها حتى أذاب فؤادها وذَوَّقَهَا طَعْمَ الهوى والتذلل
فقلت لها : هذا بهذا ، فأطرقت حَيَاءً ،وقالت: كل من عايب ابتلى

فقلت : أنا هو جعلت فداك ، وأنا الذى أقول فى الغيرة :

ربما سرنى صدودك عَنِّى وطِلاَبيك وامتناعُك منِّى
حَذَراًأنأكون مفتاحَ غيرى فإذا ماخلوت كنتِ التمنِّى

ويعاب ماناسب قول الآخر ، وهو جميل :

فلو تركَتْ عَقْلِى معى ماطلبتها ولكنْ طِلاَبيها لما فَاتَمن عَقْلِى

لأن الصواب قول عباس ، أو مسلم :

أبكى وقد ذهب الفؤاد ، وإنما أبكى لفقدك لا لِفَقْدِ الذاهب

طرد الخيال

فأما طرد الخيال والمجاراة فى المحبة فهو مذهب مشهور ، وقد ركبه جلة الشعراء ، ورواه رواة : منهم طرفة ، ولبيد ، ثم جرير ، ثم جميل ، فقال طرفة ، وهو أول من طرقه :

فَقُلْ لخيَالِ الحَنْظَلِيةِ يَنْقَلِبْ إليها،فإنى وَاصِلٌ حَبْلَ مَنْ وَصَلْ

وقال لبيد فى مثل ذلك :

فاقْطَعْ لُبانَةَ من تَعَرَّضَ وصلُه وَلَشَرُّ واصلِ خُلَّةٍ صَرَّامُهَا

يقول : اقطع المزار ممن تعرض وصله للقطيعة ـ ويقال : تعرض الشىء ، إذا فسد ، حكاه الخليل ـ فإن شر مَنْ وَصَلَكَ من قطعك بلا ذنب ، يريد

الذى تعرض وصله ، ومن الناس من رواه * ولخير واصل خلة صرامها *
يقول : إن خير مَنْ وصل الخلة من قطعها باستحقاق ، يعنى نفسه . .

وقال جرير

طَرَقَتْكَ صائدَةُ القلوب،وليس ذا   وَقْتَ الزيارةِ ، فَارْجِعِى بسلام

على أن قوما زعموا أنه كان مُحْرِماً ، فلذلك طرد الخيال ، كأنه تحرج وليس طرد عتب .

وقال جميل :

وَلَسْتُ ـ و إن عزَّتْ علىَّ ـ بقائلٍ   لها بعد صَرْمٍ : يا بُثَيْنُ صِليبِى

وجرى على سَنَنِ هؤلاء جماعة من المولدين ، واعتقدوا هذا المذهب قولا وفعلا ، حتى تعداه بعضهم إلى القتل ، مثل عبد السلام بن رغبان ، ونصر الخابز أرز[1] ومن شا كلهما من الشطار ، إلا أن أصل هـذا المذهب عند قدامة فاسد ، وعاب على نابغة بنى تغلب ـ واسمه الحارث بن عدوان ، أحد بنى زيد بن عمرو بن غنم بن تغلب ـ قولَه :

بَخِلْنَا لبخلِكِ لو تعملينَ   وكيفَ يَعيبُ بخيلٌ بخيلاً ؟

لأن الواجب عنده فى التغزل أن يكون على خلاف هذا ، وكل ما لا يليق بالمحبوب فهو مكروه فى باب النسيب .

من الأمانى غير المقبولة

قالت عزة لـكثير يوماً ـ ويقال بثينة ـ ما أردت بنا حين قلت :

وَدِدْتُ وبيتِ اللهِ أنكِ بَكْرَةٌ   وأَنِّى هجانٌ مُصْعَبٌ ثُمَّ نَهْرُبُ

كلانا به عَرٌّ فَمَنْ يَرَنَا يَقُلْ   على حُسْنِها جَرْباءُ تُعْدِى وأَجْرَبُ

نَكُونُ لذِى مالٍ كثيرٍ مُغَفَّلٍ   فلا هو يرعانا ولاَ نحنُ نُطْلَبُ

---

(١) هو الخبزرزى .

إذا ما وردنا مَنْهلاً صاحَ أَهلُهُ علينا ، فلا نَنْفكُّ نُرْمَى ونُضْرَبُ

لقد أردت بنا الشقاء ، أما وجدت أمنية أوطأ من هذه ؟ ! فخرج من عندها خجلا

وإنما اقتدى بالفرزدق حيث يقول ، وهذا من سوء الاتباع :

ألاَ ليتنا كُنَّا بعيرين لا نَرِدْ على حاضرٍ إلاّ نُشَلُّ ونُقْذَفُ

كلانا به عَرٌّ يُخَافُ قِرافُهُ على النَّاسِ مَطْلِيُّ الأشاعِرِ أخشفُ

بأرضٍ خـــلاءٍ وَحْدَنا وثيابُنا من الرَّيْطِ والديباجِ دِرْعٌ ومِلْحَفُ

ولا زاد إلاّ فَضلتانِ : سُلاَفةٌ وأبْيضُ من ماء الغمامةِ قَرْقَفُ

وأشلاءُ لحمٍ من حُبَارَى يَصيدُها إذَا نحنُ شِئْنا صاحبٌ متألِّفُ

لنا ما تَمَنَّيْنَا من العيشِ مادَعَا هَدِيلاً بنعمانٍ حَمائِمُ هُتَّفُ

وإذا كان بعيراً فما هذه الأمنية التى كلها للحيوان الناطق ؟ لولا أنه ردها إلى نفسه حقيقة ، وإلا فما أملح الجَمَلَ نَشْوَان يصيدُ الُحبَارى بالبازى.

ومعايب هذا الباب كثيرة ، وفيما قدمت منها دليل على باقيها .

اشتقاق التشبيب

واشتقاق التشبيب يجوز أن يكون من ذكر الشبيبة ، وأصله الارتفاع ، كأن الشباب ارتفع عن حال الطفولية ، أو رفَعَ صاحبه ، ويقال : شَبَّ الفرسُ ، إذا رفع يديه وقام على رجليه .

قال الجاحظ : يقال شَبَّتِ النار شبوباً ، وشَبَّ الفرس بيديه فهو يشب شبيباً ، ويقال : مالك عضاض ولا شباب ، انقضى كلامه .

ويجوز أن يكون من الجلاء ، يقال : شَبَّ الِخمَارُ وَجْهَ الجارية ، إذا جَلاَه ووصف ما تحته من محاسنه ؛ فكأن هذا الشاعر قد أبرز هذه الجارية فى صفته إياها وجَلاَها للعيون ، ومنه الشب الذى يجتلى به وجوه الدنانير ، ويستخرج غشها ، ومنها : شببت النار ، إذا رفعت سَنَاها وزدتها ضياء .

وأنشد الأصمعى لعكاشة بن أبى مسعدة :

* يَدْفَعُ عنها كل مَشْبُوب أغر *

قال : المشبوب الذى إذا رأيته فَزِعْتَ لحسنه . . قال ابن دريد : شببت فى الشعر شبيباً، مثل نسبت نسيباً ، والنسيب أكثر ما يستعمل فى الشعر .

(٧٤) — باب فى المديح

سبيل الشاعر فى المدح

وسبيل الشاعر ـ إذا مدح ملكا ـ أن يسلك طريقة الإيضاح والإشادة بذكره للممدوح ، وأن يجعل معانيه جَزْلة ، وألفاظه نَقِية ، غير مبتذلة سوقية، ويجتنب ـ مع ذلك ـ التقصير والتجاوز والتطويل ؛ فإن للملك سآمة وضجراً ، ربما عاب من أجلها ما لا يعاب ، وحَرَمَ من لا يريد حرمانه ، ورأيت عمل البحترى ـ إذا مدح الخليفة ـ كيف يُقلُّ الأبيات ، ويبرز وجوه المعانى ، فإذا مدح الكتاب عمل طاقته ، وبلغ مراده .

وقد حكى عن عمارة أن جَدَّهُ جريراً قال : يا بَنِيَّ ، إذا مدحتم فلا تطيلوا المادحة ؛ فإنه ينسى أولها ، ولا يحفظ آخرها ، وإذا هجوتم فخالفوا .

قال عبد الكريم : وهذا ضد قول عقيل بن عُلَّفة المرادى ، وحكى غيره قال : دخل الفرزدق على عبد الرحمن بن أم الحكم ، فقال له عبد الرحمن : أبا فراس ، دعنى من شعرك الذى ليس يأتى آخره حتى يُنْسَى أولُه ، وقال : قل فىَّ بيتين يعلقان بالرواة ، وأنا أعطيك عطية لم يعطكها أحد قط قبلى ، فغدا عليه وهو يقول :

وأنت ابنَ بَطْحَاوَىْ قُرَيْشٍ ، وإنْ تشأ
تَكُنْ من ثقيفٍ سَيْلَ ذى خَدِرٍ غَمْرٍ [1]

(١) فى الديوان « تنل من ثقيف سيل ذى حدب غمر » .

وأنت ابنُ سوّار اليدين إلى العلى
تكفت بك الشمسُ المضيئةُ للبدرِ [1]

فقال : أحسنت ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

كيف يمدح الملوك والسوقة

وإذا كان الممدوح ملكا لم يبال الشاعر كيف قال فيه ، ولا كيف أطنب ، وذلك محمود ، وسواه المذموم ، وإن كان سوقة فإياك والتجاوز به خطته ؛ فإنه متى تجاوز به خُطّته ؛ كان كمن نقَصه منها ، وكذلك لا يجب أن يقصر عما يستحق ، ولا أن يعطيه صفة غيره ؛ فيصف الكاتب بالشجاعة والقاضى بالحمية والمهابة ، وكثيرا ما يقع هذا لشعراء وقتنا ، وهو خطأ ، إلا أن تصحبه قرينة تدل على صواب الرأى فيه ، وكذلك لا يجب أن يمدح الملك ببعض ما يتجه فى غيره من الرؤساء ، وإن كان فضيلة .

وذلك مثل قول البحترى يمدح المعتز بالله :

لا العَذْلُ يَرْدَعُه ولا التّعنيفُ عن كرمٍ يَصُدُّهْ

فإنه مما أنكرهُ عليه أبو العباس أحمد بن عبد الله ، وقال : مَنْ ذا يعنف الخليفة على الكرم أو يصده ؟ هذا بالهجاء أولى منه بالمدح .

وعيب على الأخطل قولُه فى عبد الملك بن مروان :

وقد جعلَ اللهُ الخلافةَ منهمُ لأبيض لا عارى الخِوان ولا جَدْبِ

وقالوا : لو مدح بها حَرَسيًّا لعبد الملك لكان قد قَصَّرَ به .

قلت أنا : وإن كان فلا بد من ذكر الضيافة والقرى ، كقول ابن قيس الرقيات لمصعب بن الزبير :

يلبسُ الجيشَ بالجيوشِ ويسقى لبنَ البُخْتِ فى عِسَاسِ الخلَنْج

لأن هذا ـ وإن لم يَعُدُّ به مادحة العرب فى سقى اللبن ـ فقد زاده رتبة عرف بها أنه ملك . وأجود منه فى معناه قولُ حسان فى آل جَفْنَة :

(١) فى الديوان :

وأنت ابن فرع ماجد لعقيلة تلقت له الشمس المضيئة بالبدر

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ البريصَ عليهمُ بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحِيقِ السلسلِ

ويروى « مسكا » .

وعابوا على الأحوص قوله للملك :

وأراكَ تفعل ما تقول ، وبعضُهم مَذِقُ الحديث يقول مالا يفعلُ

فقالوا : إن الملوك لا تمدح بما يلزمها فعله كما تمدح العامة ، وإنما تمدح بالإغراق والتفضيل بما لا يتسع غيرهم لبذله .

ومن هذا النوع قول كثير :

رأيت ابن ليلى يعترى صلبَ ماله مسائلُ شَتّى من غنى ومُصْرِمِ

مسائلُ إن توجَدْ لديك تَجُدْ بها يداكَ ، وإن تُظْلَمْ بها تَتَظَلَّمِ

لأن هذا إنما يقع لمن دون الخليفة والملك ، وإنما أخذه من قول زهير فى هَرِم ابن سنان ، وليس بملك ، ولذلك حسن قوله :

هو الجواد الذى يعطيك نائلَه عَفْواً ، ويُظْلَمُ أحيانا فَيَظَّلِمُ

يريد أنه يُسأل أحيانا ما ليس قبله فيحتمله ، هـذا ، وقد قال الصولى فى شرح قول[1] حبيب :

لو يفاجى ركن المديح كثيرا بمعانيه خالهن[2] سبيا

طاب فيه المديح والتَذّ ، حتى فاقَ وَصْفَ الديارِ والتشبيبا

سألت عون بن محمد الكندى : لم خص كثيراً ؟ فقال : سمعته يقول: أمدح الناس زهير والأعشى ، ثم الأخطل وكثير .

---

(١) البيتان فى الديوان (ص ٢٦) بتقديم الثانى على الأول من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى .

(٢) رواية الديوان * لو يفادى ذكر المديح كثيرا * وكان فى الأصول كلها « بمعانيهن » وهو خطأ ، وبه ينكسر وزن البيت .

وحكى غير الصولى أن مروان بن أبى حفصة كان يقدم كثيراً فى المدح على جرير والفرزدق .

ومما قدم به زهير قوله :

لو كانَ يقعدُ فوقَ النجمِ من كرمٍ قومٌ بأوّلهم أو مجدهم قَعدُوا

قومٌ سِنَانٌ أبوهم حين تَنْسُبهُمْ طابوا وطابَ من الأولاد ما ولدوا

إنسٌ إذا أَمنوا ، جِنٌّ إذا فزعوا ، مُرَزَّأونَ بَهَالِيـلٌ إذَا جهدوا

مُحَسَّدُونَ على ما كانَ من نعمٍ لا ينزعُ اللهُ عنهم ماله حسدوا

ويروى * غُرٌّ بَهَاليل فى أعناقهم صَيَدُ * وقدّمه قدامة بن جعفر الكاتب فقال فى كتابه نقد الشعر : لما كانت فضائل الناس من حيث هم ناس ، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوانات ، على ما عليه أهل الألباب من الاتفاق فى ذلك ؛ إنما هى العقل والعفة والعدل والشجاعة ؛ كان القاصد للمدح بهذه الأربعة مصيبا ، وبما سواها مخطئاً .

فقال زهير :

أَخِي ثِقَةٍ لاَ يُهلِكُ الخَمرُ مالَهُ وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُهلِكُ المَالَ نَائِلُهْ

لأنه قد وصفه بالعفة لقلة إمعانه فى اللذات وأنه لا ينفد فيها ماله ، وبالسخاء لإهلاكه ماله فى النوال وانحرافه إلى ذلك عن اللذات ، وذلك هو العقل ، ثم قال :

تَرَاه إِذَا ما جِئْتَهُ مُتهلِّلاً كأَنَّكَ تُعْطِيه الَّذِى أنْتَ سَائِلُهْ

أراد أن فَرَحَه بما يعطى أكثرُ من فرحه بما يأخذ ، فزاد فى وصف السخاء منه : بأن جعله يَهَشُّ ، ولا يلحقه مَضض ، ولا تَكرُّهٌ لفعله . .

ثم قال :

فمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فى الحُرُوبِ ومثله لإنكارِ ضَيمٍ أو لِخَصمٍ يُجَادِلُهْ

فأتى فى هذا البيت بالوصف من جهة الشجاعة والعقل ، فاستوفى ضروب المدح الأربعة التى هى فضائل الإنسان على الحقيقة ، وزادها ما هو وإن كان داخلا فى الأربعة فكثير من الناس من لا يعرف وجه دخوله فيها حيث قال « أخى ثقة » فوصفه بالوفاء ، والوفاء داخل فى هـذه الفضائل التى قدمنا ، وقد تفنن الشعراء فيعدون أنواع الفضائل الأربع وأقسامها وكل داخل فى جملتها مثل أن يذكروا ثقابة المعرفة ، والحياء ، والبيان ، والسياسة، والصدع بالحجة ، والعـلم ، والحلم عن سَفَاهة الجَهَلة ،وغير ذلك مما يجرى هـذا المجرى ، وهى من أقسام العقل ؛ وكذكرهم القناعة ، وقلة الشهوة ، وطهارة الإزار ، وغير ذلك ، وهى من أقسام العفة ؛ وكذكرهم الحماية ، والأخذ بالثأر ، والدفع عن الجار ، والنكاية فى العدو ، وقتل الأقران ، والمهابة ، والسير فى المهامه والقفار الموحشة ، وما شاكل هذا ، وهو من أقسام الشجاعة ؛ وكذكرهم السماحة ، والتغابن ، والانظلام ، والتبرع بالنائل ، والإجابة للسائل ، وقِرَى الأضياف ، وما جانس هذه الأشياء ، وهى من أقسام العدل .

وأما تركيب بعضها من بعض فيحدث منها ستة أقسام : يحدث من تركيب العقل مع الشجاعة الصبر على الملمات ونوازل الخطوب ، والوفاء بالإيعاد ؛ وعن تركيب العقل مع السخاء البر ، و إنجاز الوعد ، وما أشبه ذلك ؛ وعن تركيب العقل مع العفة التنزه ، والرغبة عن المسألة ، والاقتصار على أدنى معيشة ، وما أشبه ذلك ؛ وعن تركيب الشجاعة مع السخاء الإتلاف ، والإخلاف ، وما جانس ذلك ؛ وعن تركيب الشجاعة مع العفة إنكار الفواحش ، والغيرة على الحرم ؛ وعن تركيب السخاء مع العفة الإسعاف بالقوت ، والإيثار على النفس ، وما شاكل ذلك .

قال : وكل واحدة من هـذه الفضائل الأربع المتقدم ذكرها وَسَطٌ بين طرفين مذمومين .

مدح أبو العتاهية عُمر بن العلاء[1] فأعطاه سبعين ألفا وخلع عليه حتى لم يستطع أن يقوم ، فغار الشعراء لذلك ، فجمعهم ثم قال : عجبا لكم معشر الشعراء ما أشد حسد بعضكم لبعض ، إن أحدكم يأتينا ليمدحنا فينسب فى قصيدته بصديقته بخمسين بيتا فما يبلغنا حتى تذهب لذاذة مدحه ورونق شعره ، وقد أتى أبو العتاهية فنسب فى أبيات يسيرة . ثم قال :

إنى أَمنتُ من الزمانِ ورَيْبِه لما عَلِقْتُ منَ الأميرِ حِبَالاَ
لو يستطيعُ الناسُ من إجلاله لَحَذَوْا له حُرَّ الخدودِ نِعَالاَ
إنَّ المطايا تشتكيك ؛ لأنها قَطَعتْ إليكَ سَبَاسِباً وَرِمَالاَ
فإذا وَرَدْنَ بنا وَرَدْنَ خفائفاً وإذَ صَدَرْنَ بنا صَدَرْنَ ثِقَالاَ[2]

ومن مليح ما لأبى العتاهية فى المدح قولُه :

فتى ما استفاد المال إلا أفاده سواه كأن المالَ فى كفه حلم
إذا ابتسم المَهْدِىُّ نادتْ يمينه : ألا من أتانا زائرا فله الحكم

وله أيضاً فى معنى بيتى الفرزدق اللذين صنعهما لعبد الرحمن بن أم الحكم[3] :

---

(١) كان عمر بن العلاء مولى عمرو بن حريث صاحب المهدى ممدحا ، ومدحه أبو العتاهية فأمر له بسبعين ألف درهم ، فأنكر ذلك بعض الشعراء ؛ وقال : كيف فعل هذا بهذا الكوفى ؟ وأى شىء مقدار شعره ؟ ! ! فبلغه ذلك ، فأحضر الرجل وقال : إن الواحد منكم ليدور على المعنى فلا يصيبه ، ويتعاطاه فلا يحسنه ، حتى يشبب بخمسين بيتا ، ثم يمدحنا ببعضها ، وهذا كأن المعانى تجمع له ، مدحنى فقصر التشبيب ، ثم قال . . . وذكر الأبيات التى أنشدها المؤلف ، هذه رواية الأغانى هذا ، وقد اتفقت نسخة الأغانى فى ترجمة أبى العتاهية (٣ / ١٤٤) وترجمة بشار (٣ / ٤٦) على أنه « عمرو » بفتح العين وبالواو ، مع ذكر أبيات لبشار فيه ستأتى فى ص ١٨٤ من هذا الجزء ولا تستقيم إلا بقراءته بضم العين وفتح الميم .

(٢) فى الأغانى (٣ / ١٤٤ بولاق) « فإذا وردن بنا وردن مخفة » وقال : أخذ هذا المعنى من قول نصيب :

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

(٣) انظر ص ١٢٨ و ١٢٩ من هذا الجزء .

فما مِثْلُ بَيْتَيْهِ فى العالمين أعزُّ بنـــاء ولا أرفعُ
فَبَيْتٌ بَنَاهُ له هَاشِمٌ وبيتٌ بنـــاه له تُبَّعُ
وَلَوْ حاولَ الدهرُ مافى يديه لعَادَ وعِرْنِينُهُ أجْدَعُ

ومن المديح المنصوص عليه قول زهير :

وفيهم مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهَا وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفِعْـلُ
وإن جئتهم أَلْفَيْتَ حولَ بُيُوتِهم مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بأحْلاَمِها الْجَهْلُ
عَلى مُـكْثِرِيهِمْ حَقُّ مَنْ يَعْتَرِيهِمُ وَعِنْدَ الْمُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ
سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِـكَىْ يُدْرِكُوهُمُ فَلَمْ يَفْعَلوا ولَمْ يُلِيمُوا ولَمْ يَالُوا
فَمَا كان من خَيْرٍ أَتَوْهُ فإنما تَوَارَثَهُ آباء آبائِهِـــم قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِّىَّ إلاَّ وَشِيجُهُ وَتُغْرَسُ إلا فى مَنَابِتِها النَّخْلُ

وكذلك أيضاً قوله :

مَنْ يَلْقَ يَوْماً عَلى عِلاَّتِهِ هَرِماً يَلْقَ السَّمَاحَةَ مِنْهُ والنَّدَى خُلُقَا
لَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ الرِّجالَ إذا مَا كَذَبَ اللَّيْثُ عَنْ أقْرانهِ صَدَقَا
يَطْعَنُهُمْ ما ارتموا حتى إذا طَعَنُوا ضَارَبَ حَتى إذا مَا ضَارَبُوا اعْتَنَقَا
فَضْلَ الجوادِ على الخيلِ البِطَاء فَلاَ يُعْطِى بذَلِكَ مَمْنُوناً وَلاَ نَزِقا
هَذَا ولَيْس كمن يَعْيَا بخطبته وَسْطَ النَّدِىِّ إذَا ما نَاطِقٌ نَطَقا
لو نال حَىٌّ من الدنيا بمَـكْرُمَةٍ أُفُقَ السماء لَنَالَتْ كَفُّهُ الأفُقَا

مايمدح به الـكاتب والوزير

وينبغى أن يكون قصد الشاعر فى مدح الـكاتب والوزير ما اختاره قدامة وغيره ، وكذلك ما ناسب حسن الروية ، وسرعة الخاطر بالصواب ، وشدة الحزم ، وقلة الغَفْلة ، وجودة النظر للخليفة ، والنيابة عنـه فى المُعْضِلاَت بالرأى أو بالذات ، كما قال أبو نواس :

إذا نَابَهُ أمْرٌ فإمَّا كَفَيْتَهُ وإمَّا عليــه بالـكَفِىِّ تُشِيرُ

وبأنه محمود السيرة ، حسن السياسة ، لطيف الحس ، فإن أضاف إلى ذلك البلاغة ، والخط ، والتفنن فى العلم ؛ كان غاية .

ما يمدح به القائد

وأفضل ما مدح به القائد : الجود ، والشجاعة ، وما تفرع منهما ، نحو التخرق فى الهيئات ، والإفراط فى النجدة ، وسرعة البطش ، وما شاكل ذلك .

ما يمدح به القاضى

ويمدح القاضى بما ناسب العدل والإنصاف ، وتقريب البعيد فى الحق ، وتبعيد القريب ، والأخذ للضعيف من القوىّ ، والمساواة بين الفقير والغنى ، وانبساط الوجه ، ولين الجانب ، وقلة المبالاة فى إقامة الحدود واستخراج الحقوق ، فإن زاد إلى ذلك ذكر الوَرَع ، والتحرج ، وما شاكلهما ، فقد بلغ النهاية .

وصفات القاضى كلها لائقة بصاحب المظالم ، ومن كان دون هذه الثلاث[1] الطبقات سوى طبقة الملك فلا أرى لمدحه وجها ، فإن دعت إلى ذلك ضرورة مدح كل إنسان بالفضل فى صناعته ، والمعرفة بطريقته التى هو فيها ، وأكثر ما يعول على الفضائل النفسية التى ذكرها قدامة ، فإن أضيف إليها فضائل عرضية أو جسمية : كالجمال ، والأبهة ، وبسطة الخلق ، وسعة الدنيا ، وكثرة العشيرة ؛ كان ذلك جيداً ، إلا أن قدامة قد أبىٰ منه ، وأنكره جملة ، وليس ذلك صوابا ، وإنما الواجب عليه أن يقول : إن المدح بالفضائل النفسية أشرف وأصح ، فأما إنكار ما سواها كَرَّةً واحدة فما أظن أحدا يساعده فيه ، ولا يوافقه عليه .

وقد كره الحذاق أن تمدح الملوك بما ناسب قول موسى شهوات وروى لغيره :

---

(١) هذا استعمال كوفى ، وقد قال عنه الزمخشرى : إنه « بمعزل عن الصواب » والصحيح عند البصريين أن يقال « ثلاث الطبقات » فيعرف المعدود ويضيف إليه العدد .

لَيْسَ فيما بَدَا لنا منك عَيْبٌ عابه الناسُ غَيْرَ أنكَ فانى[1]
أنْتَ نعم المتاع لو كنت تبقى غَيْرَ أن لابقاء للانسان

سليمان بن عبد الملك يعجبه جماله

وذكر عن سليمان بن عبد الملك أنه خرج من الحمام ، وهو الخليفة ، يريد الصَّلاَة ، ونظر فى المرآة فأعجبه جماله ، وكان حَسن الوجه ، فقال : أنا الملك الشاب ، ويروى « الفتى » فتلقته إحدى حظاياه ، فقال لها : كيف ترينى ؟ فتمثلت بالبيتين المتقدم ذكرهما ، فتطير بهما ورجع ، فحم فما بات إلا ميتاً تلك الليلة

وروى عن بعض الملوك أنه قال : ما لهؤلاء الشعراء قاتلهم الله ، ربما ذكروا شيئاً نحن أكثر ذكراً له منهم فينغصون به علينا أوقات لذتنا ! ! ؟ يعنى بذلك الموت .

مما يعاب على أبى تمام

ومن أشنع ما فى ذلك قول أبى تمام :

فَلْيَطُلْ عمره فلو مات فى طو س مقيما لمات فيها غريبا

فما الذى دعاه إلى ذكر الموت ههنا إلا النكد والنغاصة ؟.

مما يقدم قول كعب بن زهير فى الرسول

أجمع الناس على تقديم قول كعب بن زهير يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم :

تحمله الناقة الأدْماء مُعْتَجراً بالبردِ كالبدرِ جَلَّى لَيْلَةَ الظُّلَمِ
وفى عِطَافَيْهِ أو أثناء رَيْطَتِهِ مَا يَعْلَمُ اللهُ من دين ومن كَرَمِ

والجهال يروون البيت الأول لأبى دهبل الجمحى ، ويناسبه قول العجاج :

يَحْمِلْنَ كلَّ سُؤْدَدٍ وفَخْرِ يَحْمِلْنَ مَا نَدْرى وَمَالا نَدْرِى

قال الأصمعى : وأصله قول الحارث بن حلزة :

---

(١) البيتان فى الأغانى (٣ / ١٢٢ بولاق) منسوبين لموسى شهوات ، يقولهما فى عبد الله بن عمرو بن عثمان ، وكان موسى قد سأل بعض آل الزبير حاجة فدفعه عنها ، وقضاها له عبد الله بن عمرو بن عثمان من غير مسألة منه .

وفعلنا بهم[١] كما علم اللـــه وما إن للحائنين دِماء

قال : ولم يقل قطُّ شاعر «كما يعلم» أحسن من هذه الثلاثة المعانى[٢]

قال أبو العباس المبرد : من الشعراء من يجمل المدح ، فيكون ذلك وجهاً حسنا ؛ لبلوغه الإرادة مع خلوه من الإطالة ، وبُعْدِه من الإكثار ، ودخوله فى الاختصار .

الحطيئة

وذلك نحو قول الحطيئة[٣] :

تَزور فَتًى يُعْطِي على الحمدِ مَالَهُ وَمَنْ يُعْطِ أثمان المكارِم يُحْمَدِ
تزور فَتًى يُعْطى على الحمدِ مَالَهُ وَيَعْلَمُ أنَّ المرء غَيرُ مخلّدِ
يَرَى البُخْلَ لا يُبْقِى على المرء مَالَهُ وَيَعْلَمُ أنَّ المرء غَيرُ مُخَلَّدِ

ورواه غيره * أن المال غير مخلد * .

كَسُوبٌ ومتلافٌ إذا ما سألته تهلّلَ واهْتَزَّ اهْتِزَازَ المُهَنَّدِ
مَتَى تأتِه تَعْشُو إلى ضَوْءِ ناره تَجِدْ خَيْرَ نارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ

---

(١) سقط لفظ « بهم » من المصريتين ، وهو كما ترى ، وورد الشطر الثانى فيهما * وما إن للخائنين ذماء * على أن الخائنين بالخاء المعجمة جمع خائن ؛ وذماء بالذال معجمة أيضا ، والصواب أن الحائنين بالحاء مهملة جمع حائن وهو الهالك وفعله حان يحين حينا ، ودماء بكسر الدال مهملة ، والمعنى وفعلنا بهم فعلا بليغا لا يحيط به إلا علم الله تعالى ، ولا دماء للمتعرضين للهلاك ، أى : لم يطلب بثأرهم ودمائهم .

(٢) سبق (فى ص ١٣٥) الاعتراض على هذا التعبير .

(٣) هكذا وردت رواية الأبيات فى أصول هذا الكتاب ، والبيت الثانى منها لا وجود له فى الديوان (ص ٢٤)ولا معنى لبقائه قط؛ لأنه من زيادات النساخ لا غير إذ هو عبارة عن تكرير صدر الأول وعجز الثالث .

تصرف فى أبياته هذه فى أصناف المديح ، وأتى بجماع الوصف وجملة المدح على سبيل الاقتصار فى البيت الأخير .

للشماخ

ومثله قول الشَّمَّاخ :

رَأَيْتُ عَرَابَةَ الأَوْسِيَّ يَسْمُو إلى العلياء[1] منقطعَ القَرِينِ
إذا ما رايةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ باليمين

انتهى كلامه .

أفضل مامدح به الملوك

ومن أفضل ما مدح به الملوك وأكثره إصابة للغرض ما ناسب قول ابن هَرْمة للمنصور :

له لحظاتٌ عن حِفَافَىْ سريره[2] إذا كرَّها فيها عقابٌ ونائل
فأُمُّ الذى أَمَّنْتَ آمنة الردى وأم الذى أوعدت بالثُّكل ثاكل[3]

وقول أبى العتاهية فى مدح الهادى :

يضطربُ الخوف والرجاء إذا حَرَّكَ موسى القضيب أو فكرا

وكذلك قول الحزينِ الكنانى فى عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، وقد وفَدَ عليه بمصر ، ويروى للفرزدق فى على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وقيل: بل قالهافيه اللعينُ المنقرى ، وقيل : بل الأبيات لداود بن سَلْم[4] فى قُثَمَ بن العباس بن عبد الله بن العباس :

فى كفه خَيْزُرَانٌ ريحهُ عَبِقٌ مِنْ كفِّ أَرْوَعَ فى عِرْنِينه شَمَمُ
يُغْضِى حياء وَيُغْضَى من مَهَابته فما يُكَلَّمُ إلاَّ حِينَ يَبْتَسِمُ

الشعراء بباب المعتصم

اجتمع الشعراء بباب المعتصم فبعث إليهم : من كان منكم يحسن أن يقول مثل قول منصور النميرى فى أمير المؤمنين الرشيد :

---

(١) فى الديوان (ص ٩٦) « إلى الخيرات » .
(٢) المصريتين « خفافى » وهو تصحيف .
(٣) فى المصريتين « فأما . . وأما » وهو تحريف .
(٤) فى سائر الأصول « داود بن مسلم » تحريف ، وانظر ج ٢ ص ٢٥ من هذا الكتاب .

إن المكارم والمعروف أوديةٌ أَحَلَّكَ اللهُ مِنها حيثُ تجتمِعُ
إذا رَفَعْتَ امرأً فاللهُ رافعه ومن وضعت من الأقوام مُتَّضع
مَنْ لم يكن بأمين الله معتصما فليس بالصلواتِ الخمس ينتفع
إن أخلفَ الغيثُ لم تُخْلِفْ أناملهُ أو ضاقَ أمرٌ ذكرناه فيتسع

فليدخل ، فقال محمد بن وهب : فينا من يقول خيراً منه ، وأنشد :

ثلاثة تُشْرِقُ الدنيا ببهجتهم شَمسُ الضحى وأبو إسحاق والقَمَرُ[1]
يحكى أفاعيلَهُ فى كل نائلةٍ الغيثُ والليثُ والصَّمصامة الذكَرُ

فأمر بادخاله وأحسن صلته .

أمدح بيت

قالوا : لما حضرت الحطيئة الوفاة قال[2] : أبلغوا الأنصار أن أخاهم أمدح الناس حيث يقول :

يُغْشَوْنَ حَتَّى ماتهِرُّ كلابهم لايَسْألونَ عَنِ السَّوَادِ المقبل

قال ثعلب : بل قول الأعشى :

فَتًى لو يبارى الشَّمْسَ أَلْقَتْ قِناَعها أوِ القَمَرَ السَّارى لألقى المَقَالِدَا

أمدحُ منه .

وقال أبو عمرو بن العلاء : بل بيت جرير :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَن رَكِبَ المَطَايَا وَأَنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

أسْيَرُ ما قيل فى المدح وأسهله .

وقال غيره : بل قول الأخطل :

شُمْسُ العداوةِ حَتَّى يُسْتقادَ لهم وأعْظَمُ الناس أحلاماً إذا قَدَرُوا

وقال دعبل : بل قول أبى الطَّمَحَان القَيْنِى :

أضاءت لهم أحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ دُجَى اللَّيْلِ حَتَّى نظم العِقد ثاقبه[3]

(١) حفظى «تشرق الدنيا بطلعتهم» (٢) فى المصريتين «قالوا» وليس بشىء .
(٣) حفظى * ... حتى نظم الجزع ثاقبه *

قال : وقد تنازع فى هذا البيت ـ يعنى بيت أبى الطمحان ـ قوم ، وفى بيت حسان فى آل جفنة ، و بيت النابغة :

فإنك شمسٌ والملوك كواكبُ إذا طلعت لم يَبْدُ منهنَّ كوكبُ

و بيتُ أبى الطَّمَحان أشعرُها .

قال الحاتمى : بل بيت زهير :

تراه إذا ماجئتــه مُتَهَلِّلاَ كأنك تُعْطِيه الذى أنتَ سائله

وحكى على بن هارون عن أبيه أنه قال : أجمع أهل العلم على أن بيتى أبى نُوَاس أجود ما للمولدين فى المدح ، وهما قوله :

أنتَ الذى تأخذ الأيدى بحُجْزته إذا الزمان على أبنائه كَلَحَا

وكلتَ بالدهرِ عيْناً غَيْرَ غافـلة من جُودِ كفك تأسُو كلَّ ماجرَحَا

روى الحاتمى عن محمد بن عبد الواحد عن أحمد بن يحيى قال : سمعت ابن الأعرابى يقول : أمدح بيت قاله مولَّد قول أبى نواس :

تَغَطَّيْتُ من دَهْرى بظلِّ جناحه فعينى ترى دهرى وليس يرانى

فلو تسأل الأحداثُ عَنِّىَ مادَرَتْ وأين مكانى ماعرفن مكانى

قال صاحب الـكتاب : نحن إلى الإنصاف أحوج منا إلى المـكابرة والخلاف ، أبو نواس ذهب مذهباً لطيفاً يخرج له فيـه العذر والتأويل ، وإلا فما فى صفة الخمول أشد مما وصف ، لا سيما على رواية من روى :

* فلو تسأل الأيام عنى *

ومن جيد ما سمعته لمحدَثٍ ـ وأظنه لابن الرومى فى عبيد الله بن سليمان ابن وهب ، ورأيت من يرويه لأبى الحسين أحمد بن محمد الـكاتب ـ :

إذا أبو قاسمٍ جادَتْ لنا يَدُهُ لم يحمد الأجودان : البَحْرُ والمَطَرُ

ولو أضاءت لنـــا أنْوَارُ غُرَّته تضاءل النيران : الشَّمْسُ والقمر

وإن مضى رأيه أو حدُّ عزمته تأخر الماضيان : السيفُ والقَدَر
من لم يبت حَذِراً من خوفِ سَطْوته لم يدر ما المزعجان : الخوف والحذر
ينال بالظنِّ ما يَعْيَا العِيانُ به والشاهدان عليه العَيْنُ والأثر
كأنه وزمامُ الدهرِ فى يده يرى عواقب ما يأتى وما يَذَرُ

وقال خلف الأحمر : أغلب المدح أكثره مَلَقاً كقول زهير :

تَرَاهُ إذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً كأنك تُعْطيه الذى أنت سائلُهْ
أخو ثِقَةٍ لا يُهْلِكُ الخمرُ مالَهُ ولـكنه قد يهلك المالَ نائِلُهْ
غدَوْتُ عليه غَدْوَةً فوجدته قعوداً لديه بالصَّرِيمِ عواذلُهْ
يُفَدِّينهُ طَوْراً ، وطوراً يَلُمْنَهُ وأعيى فما يدرين أين مَخاتِلُهْ
فأعرضن منه عن كريم مُرَزَّإٍ عَزومٍ على الأمر الذى هو فاعلُهْ

وقال طُفَيلٌ الغنوى :

جزى الله عنا جعفراً حين أزلَقَتْ بنا نعلُنَا فى الواطئين فَزَلَّتِ
أَبَوْا أنْ يَمَلُّونا ولو أنَّ أُمَّنَا تلاقى الذى لاَقَوْهُ منا لَمَلَّتِ

وقال الأصمعى : أخلب الشعر قول حمزة بن بيض :

تقولُ لى والعُيونُ هاجعة : أَقِمْ علينا يوماً ، فـلم أُقِمِ
أى الوجوه انتجعت ؟ قلت لها : لا أى وجه إلا إلى الحكم
متى يقل حاجباً سُرَادِقِهِ هـذا ابنُ بيضٍ بالباب يبتسِمِ
قد كنتُ أسلمتُ فيك مُقْتبلا فهاتِ إذ حَلَّ أعطِى سَلَمِي

وسأل الرشيد المفضل الضبى : أى بيت قالته العرب أمدح ؟ فقال :

أغرُّ أبلجُ تأتمُّ الهداةُ به كأنه علمٌ فى رأسه نارُ

هكذا روايته فيه .

قال شرجبيل بن معن بن زائدة : كنت أسـير تحت قبة يحيى ابن خالد ، وقد حج مع الرشيـد ، وعديله أبو يوسف القاضى ، إذ

أتاه أعرابى من بنى أسد كان يلقاه إذا حج فيمدحه ، فأنشده شعراً أنكر يحيى منه بيتاً فقال : يا أخا بنى أسد ، ألم أنهك عن مثل هذا الشعر ؟ ألا قلت كما قال الشاعر :

بَنُو مَطَر يوم اللقاء كأنهم أُسُودٌ لها فى غِيل خفَّانَ أَشْبُلُ
هُمُ يَمْنَعُونَ الجارَ حَتَّى كأنما لِجَارِهِمُ بينَ السماكين منزل
بَهَالِيلُ فى الإسلام سادوا ولم يكن كأولهم فى الجاهلية أوّل
هُمُ القومُ إن قالوا أصابوا ، و إن دعوا أجابوا ، و إن أعطوا أطابوا وأجزلوا
ولا يستطيع الفاعلون فَعَالَهُمْ و إن أحسنوا فى النائباتِ وأجملوا

فقال أبو يوسف : لمن هذا الشعر أصلحك الله فما سمعت أحسن منه ؟ فقال يحيى : يقوله ابن أبى حفصة فى أبى هذا الفتى ، وأومأ إلىّ ، فكان قوله أسر إلى من جليل الفوائد ، ثم التفت إلىّ وقال : يا شرحبيل ، أنشدنى أجود ما قاله ابن أبى حفصة فى أبيك ، فأنشدته :

نِعْمَ المناخُ لراغبٍ ولراهبٍ ممن تصيبُ جَوَائح الأزمانِ
مَعْنُ بْنُ زائدةَ الذى زِيدتْ به شَرَفاً على شَرَفٍ بنو شَيْبانِ
إن عُــدَّ أيامُ اللقــاء فإنما يوماه يومُ نَدًى ويوم طِعَانِ
يكسو الأسِرَّةَ والمنــابرَ بَهْجَةً وَيَزِينُها بجَهارَةٍ وبَيانِ
تمضى أَسِنَّتهُ ويُسْفِرُ وجْهُهُ فى الحربِ عِنْدَ تَغَيُّرِ الألوَانِ
نفسى فداكَ أبا الوليد إذا بدا رَهَجُ السَّنابكِ والرماح دوانى

فقال يحيى : أنت لا تدرى جيد ما مدح به أبوك ، أجود من هذا قوله :

تَشَابه يوماه علينا فأشكلا فلا نحن ندرى أىُّ يوميه أفضَل
أيَوْمُ نَدَاهُ الْغَمْر ، أم يَوْمُ بأسِه ؟ وما منهما إلاّ أغرُّ مُحجَّل

مما عيب فى المديح

ومما أخذ على الكميت قوله يمدح النبى صلى الله عليه وسلم :

فاعتتب القول من فؤادِىَ والشعر إلى مَنْ إليه مُعْتَتَب
إلى السراجِ المنيرِ أحمدَ لا يَعْدِلنى رغبة ولا رَهَب
عنه إلى غيره ولو رفع النـاس إلىَّ العيونَ وارتقبوا
وقيل : أفرطتَ ، بل قصدتُ ، ولو عَنّفنى القائلون أو ثَلَبوا
إليكَ ياخيرَ من تضمنت الـأرض ولو عاب قولىَ العُيَبُ
لَجَّ بتفضيلك اللسَان ولو أكثِرَ فيك الضِّجَاج والصخب

قالوا : مَنْ هذا الذى يقول فى مَدْح النبى صلى الله عليه وسلم أفرطت ، أو يعنفه ، أو يثلبه ، أو يعيبه ، حتى يكثر الضجاج والصخب ؟ ! ! وهذا كله خطأ منه ، وجهل بمواقع المدح ، وقال من احتج له : لم يرد النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما أراد علياً رضى الله عنه ، فورَّى عنه بذكر النبى صلى الله عليه وسلم خوفاً من بنى أمية .

ومن الشعراء من ينقل المديح عن رجل إلى رجل ، وكان ذلك دأب البحترى ، وفعله أبو تمام فى قصائد معدودة ؛ منها :

* قَدْكَ اتّئِبْ أرْبَيْتَ فِى الْغُلَوَاء *

نقلها عن يحيى بن ثابت إلى محمد بن حسان ، فأما الذى قال : « هُنَّ بنياتى أنكحهن من شئت » فهو معذور إن لم يُثَبْ ، فأما إن أثيب فذلك منه قلة وفاء ، وفَرْطُ خيانة.

(٧٥) — باب الافتخار

يقال فيه ما يقال فى المديح

والافتخار هو المدح نفسه ، إلا أن الشاعر يخص به نفسه وقومه ، وكل ما حسن فى المدح حسن فى الافتخار ، وكل ما قبح فيه قبح فى الافتخار ؛ فمن أبياتِ الافتخار قول الفرزدق :

أفخر بيت قاله شاعر

إنَّ الذى سَمكَ السَّماءَ بَنَى لنَا ... بَيْتاً دَعَائِمُهُ أعزُّ وأطْوَلُ

قال أحمد بن يحيى : أفْخَرُ بيت قالته العرب قول امرىء[1] القيس:

ما ينكرُ الناسُ مِنَّا حين نملكهم ... كانُوا عَبيداً وكُنَّا نحنُ أربابا ؟

وقال دعبل بن على : أفخر الشعر قول كعب بن مالك :

و ببئرِ بدرٍ إذ يردُّ وجوهَهم ... جبريل تحتَ لوائنا ومحمد

وقال الحاتمى : قول الفرزدق :

تَرَى النَّاسَ إنْ سِرْنَا يسيرُون خَلْفَنَا ... وإنْ نَحْنُ أوْ مَأْنَا إلى الناسِ وَقَفُوا

قال : ويتلوه قولُ جرير :

إذا غَضِبَتْ عليكَ بَنُو تميمٍ ... حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وقال آخرون : بل بيت الفرزدق :

ونحن إذَا عَدَّتْ مَعَـدٌّ قديمَها ... مَكانُ النواصى من وُجُوهِ السوابِق

وقال غيرهم : بل قوله لجرير :

وإذا نظرتَ رأيتَ فَوْقَكَ دَارِماً ... والشَّمْسُ حَيْثُ تقطع الأبْصارَا

وقيل : بل قول ابن مَيَّادة ـ واسمه الرَّمَّاحُ بن أبرد ـ :

ولو أنّ قَيْساً قيسَ عيلانَ أقسمتْ ... على الشمس لم يَطْلُعْ عَلَيْكَ حِجَابُهَا

وأفخر بيت صنعه مُحْدَث عندهم بشار :

إذا ما غضبنا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً ... هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أوْقَطَرَتْ دَمَا

إذا ما أعرنا سَيِّداً منْ قَبِيلَةٍ ... ذُرَا مِنْبَرٍ صَـلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا

ويروى

* هتكنا سَمَاءَ الله أو مَطَرَتْ دَمَا *

---

(١) لم أجد هذا البيت فى ديوانه ، ولا عثرت عليه فيما نحله امرؤ القيس .

ومن جيد الافتخار قولُ بكر بن النَّطّاح الحنفى :

وَمَنْ يَفْتَقِرْ منا يَعِشْ بِحُسَامه ومن يفتقر من سائر الناس يَسْأَلِ
ونحنُ وُصِفْنَا دونَ كل قبيلةٍ ببأسٍ شَدِيدٍ فى الكِتاب المنزَّلِ
وإنَّا لنلهو بالحروب كما لَهَتْ فَتَاةٌ بِعِقْدٍ أوْ سِخَابِ قَرَنْفُلِ

يعنى قول الله عز وجل : (قلْ للمُخَلَّفِينَ من الأعرابِ سَتُدْعَوْنَ إلى قومٍ أولى بأس شديدٍ) فدعوا فى خلافة أبى بكر إلى قتال أهل الردة من بنى حنيفة ، وبسبب هذا الشعر وأشباهه طلبه الرشيدُ أشدَّ طلبٍ ، وقال : كيف يفتخر على مُضَر ومنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خير البشر ؟ فهذا افتخار بالشجاعة خاصة .

وممن افتخر بالكثرة أوس ابن مَغْرَاء قال :

ما تطلعُ الشمسُ إلاّ عند أولنا ولا تَغَيَّبُ إلاّ عند أُخرانا

مما أنكره قدامة

وقد أنكر قدامة أن يمدح الإنسان بآبائه دون أن يكون ممدوحاً بنفسه ؛ لأن كثيراً من الناس لا يكونون كآبائهم ، والذى ذهب إليه حسنٌ .

مما أنكره الجرجانى

وأنكر الجرجانى على أبى الطيب قوله :

ما بقومى شَرُفْتُ بلْ شَرُفُوا بى وبنفسى فَخَرْتُ لا بِجُدُودِى

وإنما أخذه من قول على بن جَبَلَةَ حيث يقول :

وما سَوَّدَتْ عِجْلاً مآثرُ غيرهمْ ولكن بهم سادتْ على غيرهم عِجْلُ

قال : وهذا معنى سوء يقصر بالممدوح ، ويغض من حَسَبه ، ويحقر منْ شأن سلفه ، وإنما طريقة المدح أن يجعل الممدوح يشرف بآبائه ، والآباء تزداد شرفاً به ؛ فجعل لكل واحد منهم حظاً فى الفخر وفى المدح نصيباً ، وإذا حصلت الحقائق كان النصيبان مقسومين ، بل كان الكل خالصاً لكل فريق منهم ؛ لأن شرف الوالد جزء من ميراثه ، ومنتقل إلى ولده كانتقال ماله ، فإن رعى وحرس ثبت

وازداد ، و إن أهمل وضُيِّم هلك وبَادَ . وكذلك شرف الوالد يعم القبيلة، وللولد منه القسم الأوفر ، والحظ الأكبر .

من المختار في الفخر

قال صاحب الكتاب : والذى يقع عليه الاختيار عندى ما ناسب قول المتوكل الليثى :

إنا و إنْ أحسابنا كَرُمَتْ لَسْنَا على الأحساب نتكل[1]
نَبْنِى كما كانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِى وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَافَعَلُوا

وقول عامر بن الطفيل الجعفرى :

فإنى و إن كنت ابنَ سيدِ عامر وفارِسَهاَ المشهور فى كل موكب
فمَا سَوَّدَتنى عامرٌ عنْ وِرَاثةٍ أَبى اللهُ أن أسْمُو بِأمٍّ ولا أبِ

ومن أفخر ما قال المولدون قول إبراهيم الموصلى يفتخر بولائه من خزيمة بن حازم النهشلى :

إذا مُضَرُ الحمراء كانت أرومَتِى وقامَ بمَجْدِى حازمٌ وابن حازم
عَطَسْتُ بأنْفِى شامِخًا وتَنَاوَلَتْ يَدَاىَ الثُّرَيَّا قَاعِداً غيْرَ قَائِمِ

من شعر أبى الحسن فى الفخر

ومن قول السيد أبى الحسن يفخر بقومه بنى شيبان :

يا آل شَيْبَانَ لاغارت نُجُومُكُمُ وَلاخَبَتْ نارُكُمْ مِنْ بَعْدِ تَوقِيدِ
أنتم دعائم هذا الملك مذ ركضت قُبْلُ الخيول لإبرام وتوكيدِ
المنعمون إذا ما أزمة أزمت والواهبون عَتِيقَاتِ المزاويدِ
سيوفكم أفقدت كسرى مَرازِبَهُ فى يَوْمِ ذى قَارَ إذْ جاءوا لموعودِ

وهذا هو الفخر الحلال غيرالمدعى فيه ولا المُنْتَحَل .

مما عابه الأصمعى

ومما عابه الأصمعى وغيره قول عامر بن معشر بن أسحم يصف أسيراً أسروه :

---

(١) فى نسخة « لسنا وإن أحسابنا كرمت . . . يوماً » .

فظل يخالس المذقاتِ فينا يُقَادُ كأنَّه جَمَلٌ رَبيقُ

وذلك بأنه وصف أسيرهم بأنه جائع يخالس القليل المذوق من اللبن ، وإنما ذلك من الجهد .

ومن أجود قصيدة افتخر فيها شاعر قصيدة السَّمَوْأل بن عادياء اليهودى(١) فإنها جمعت ضروب الممادح وأنواع المفاخر ، وهى مشهورة .

(٧٦) — باب الرثاء

الفرق بين الرثاء والمدح

وليس بين الرثاء والمدح فرق ؛ إلا أنه يخلط بالرثاء شىء يدل على أن المقصود بهِ ميت مثل « كان » أو « عدمنا به كيت وكيت » وما يشاكل هذا ليعلم أنه ميت .

سبيل الرثاء

وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع ، بين الحسرة ، مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام ، إن كان الميت ملكا أو رئيساً كبيراً ، كما قال النابغة فى حِصْنِ بن حُذَيفة بن بدر:

يَقُولون حِصْنٌ ثم تأبى نُفُوسُهُمْ وَكَيْفَ بحِصنٍ والجبالُ جُنوحُ
ولم تلفظ الموتى القبورُ ، ولم تَزُلْ نجومُ السماء ، والأدِيم صَحِيحُ
فعمَّا قليــــل ثم جاء نَعِيُّه فظلّ نَدِىُّ الحى وهْوَ ينُوحُ

فهذا وما شاكله رثاء الملوك والرؤساء الجِلّة ، وإلى هذا المعنى ذهب أبو العتاهية حين قال :

* مَاتَ الخَلِيفَةُ أيها الثقلانِ *

---

(١) التى أولها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

فرفع الناس رءوسهم ، وفتحوا عيونهم ، وقالوا : نَعاهُ إلى الجن والإنس ، ثم أدركه اللين والفَتْرة فقال :

* فـكأنّنى أفطَرْت فى رَمَضَانِ *

يريد : إنى بمجاهرتى بهذا القول كأنما جاهرت بالإفطار فى رمضان نهارا وكل أحد ينكر ذلك علىّ ، ويستعظمه من فعلى ، وهذا معنى جيد غريب فى لفظ ردىء غير مُعْرِب عما فى النفس.

المختار من جيد الرثاء

ومن أفضل الرثاء قول حسين بن مطير يرثى معن بن زائدة ، ويروى لابن أبى حَفْصَة :

فَيَا قبْرَ مَعْن ، كنت أوّلَ حُفْرَةٍ ... من الأرْض خُطّتْ للسَّماحَةِ مَضْجَعَا
ويا قبر معن ، كيف واريْتَ جودهُ ؟ ... وقد كان منه البر والبحرُ مُتْرَعَا
بلى قد وسعتَ الجودَ والجودُ ميت ... ولو كان حيًّا ضِقْتَ حتى تَصَدّعَا
فتى عِيشَ فى معروفه بعد موته ... كما كان بعد السيل مجراه مَرْتَعَا

وما قصر أبو تمام فى رثائه محمد بن حُمَيْد بالقصيدة التى يقول فيها :

ألاَ فى سبيل الله مَنْ عطلتْ له ... فِجَاج سَبيل الثغر وانثغر الثغرُ
فتى كلما فاضتْ عيُونُ قبيلة ... دماً ضَحِكَتْ عنه الأحاديثُ وَالنشرُ
وما مات حتى مات مضرب سيفه ... من الضَّرْبِ وَاعْتَلَّت عليه القنَا السُّمْرُ
فتى مات بين الطَّعن والضرب مِيتَةً ... تقوم مقام النصر إذ فاته النصرُ
وقد كان فوتُ الموت سهلا فردّهُ ... إليه الحفاظ المرُّ والْخُلُقُ الوَعْرُ
وَنَفْسٌ تخَافُ العَارَ حتى كأنما ... هو الكفر يوم الروع أوْ دُونَه الكُفْرُ
فأثبت فى مستَنقع الموت رِجْله[1] ... وقال لها من تحت أخمصك الحشرُ

وقد أجاد أيضا فى القصيدة التى رثى بها إدريس بن بدر السامى يقول فيها :

(١) فى نسخة « فى مستنقع الموت رحله » .

ولم أنس سَعْيَ الْجُودِ خَلْفَ سريره ... بأكْسَف بالٍ يَسْتَقِلُّ وَيَظْلَعُ
وتَكْبِيرَه خَمْساً عليــه مُعَالناً ... وإن كانَ تَكبيرُ الْمُصَلِّين أرْبَعُ
وما كنت أدرى ـ يعلمُ الله ـ قَبْلَها ... بأن النَّدى فى أهــله يتشيع

وليس فى ابتداءات المراثى المولدة مثل قوله :

أصمّ بك الناعى وَإِنْ كان أسْمَعَا ... وأصْبحَ مَغْنَى الْجُودِ بَعْدَكَ بَلْقَعَا

يرثى بها محمد بن حميد ، وجعل خاتمتها :

فإن ترم عن عمر تدانى به المدى ... فخانكَ حتى لم تجِــد عنه مَنْزعاً
فما كنْتَ إلاَّ السَّيْفَ لاقى ضَرِيبَةً ... فَقَطَّعَهــا ثمَّ انثَنى فتَقَطَّعَا

وأبو تمام من المعدودين فى إجادة الرثاء ، ومثله عبد السلام بن رغبان ديك الجن ، وهو أشهر فى هذا من حبيب ، وله فيه طريق انفرد بها ، وذلك أنه قتل جاريته واتهم بها أخاه ، ثم قال يرثيها :

يا مهجة جَثَمَ الحمــام عليها ... وجنى لها ثمر الردى بيديها
رَوَّيْتُ من دمها الترابَ ، وربما ... روّى الهوى شَفَتيَّ من شَفَتَيْها
حكمت سيفى فى مجال خناقها ... ومدامعى تجرى على خَدَّيها
فوَحقِّ نعليها لمــا وطئ الحصى ... شيء أعزُّ علىّ من نعليها
ما كان قَتْلِيها لأنى لم أكن ... أخشى إذا سقطَ الغبارُ عليها
لــكنْ بخلت على الأنام بحسنها ... وَأنِفْتُ من نظر العيونِ إليها

وقال أيضا فيها على بعض الروايات :

أشفقتُ أن يردَ الزمانُ بغدْرِهِ ... أوْ أبْتَلَى بَعْدَ الوصال بِهَجْرِهِ
فقتلته ، وله علىَّ كرامــة ... مِلْءُ الحَشَا ، وله الفؤادُ بأسرِهِ
قمرٌ أنا اُسْتخرجته من دَجْنِهِ ... لبَلِيَّتِى وزَفَفْتُهُ من خِــدْرِهِ
عَهْدِى بهِ مَيْتاً كأحْسَن نائم ... والحزنُ ينحرُ دمعــتى فى نحرِهِ

الذى أعرف « ينحر مقلتى » وهو أصح استعارة .

لو كان يدرى الميتُ ماذا بعـده بالحىِّ منهُ بكى لهُ فى قـبْرِهِ
غُصَصٌ تكادُ تفيضُ منْها نَفْسه ويكادُ يخرجُ قلبه من صَدْرِهِ

والرواية الأخرى أن المتهم بالجارية غلام كان يهواه قتله أيضاً ، فصنع فيه هذه الأبيات ، فصنعت فيه أخت الغلام:

ياويح دِيكِ الجن ، بل تبًّا له ماذا تَضَمَّن صَدْرُه من غَـدْرِهِ
قتلَ الذى يهوَى وعُمِّرَ بعـده يارَبِّ لا تَمْدُدْ له فى عُمْرِهِ

يكون الرثاء مجملا

ويكون الرثاء مجملا كالمدح المحمل فيقع موقعاً حسناً لطيفاً : كقول ابن المعتز فى المعتضد :

قَضَوْا ما قَضَوْا من أمره ثم قَدَّمُوا إماماً إمام الخـــير بين يديْهِ
وصَلَّوْا عليـــه خاشعين كأنهم صُفُوفٌ قِيامٌ للسلام عليـــهِ

وقال فى عبيد الله بن سليمان بن وهب :

قدِ استَوى الناسُ وماتَ الكمالْ وَصَاحَ صَرْفُ الدهر : أين الرجال!
هـــذا أبو العبـاس فى نعشه قوموا انظروا كيف تسير الجبال
يا ناصر المـــلك بآرائه بعـــدك للملك ليـالٍ طوَالْ

أرثى بيت

وذكر غير واحد أنَّ أرثى بيت قيل:

أرَادوا ليُخْفُوا قَبْرَهُ عَنْ عَدُوِّه فطيبُ تُرَابِ القبر دلَّ عَلَى القبرْ

من عادة القدماء فى الرثاء

ومن عادة القدماء أن يضربوا الأمثال فى المراثى بالملوك الأعزة ، والأمم السالفة ، والوعول الممتنعة فى قُلَل الجبال ، والأسود الخادرة فى الغياض ، وبحمر الوحش المتصرفة بين القفار ، والنسور ، والعقبان ، والحيات ؛ لبأسها وطول أعمارها ، وذلك فى أشعارهم كثير موجود لا يكاد يخلو منه شعر .

مذهب المحدثين فى الرثاء

قال أبو على : فأما المحدثون فهم إلى غير هذه الطريقة أميل ، ومذهبهم فى الرثاء أمثل، فى وقتنا هذاوقبله ، وربما جرَوْا على سنن مَنْ قبلهم اقتداء بهم وأخذاً بسنتهم كالذى صنع أبو أيوب فى رثائه أبا البيداء الأعرابى وخلف بن حيان الأحمر ومراثيه فيهما فائيتان وقافية مشهورات : إحداهن قوله :

لاَ تَئِلُ الْعُصْمُ فى الهضابِ ولا شَغْوَاءتغذُو فَرْخَيْنِ فى لجف

والثانية قوله : * لو كان حَىٌّ وائلا من التَّلَفْ *

والثالثة قوله فى أبى البيداء :

هَلْ مخطئ يَوْمَهُ عُفْرٌ بشاهقةٍ تَرْعَى بأَخْيَافِهَا شَثًا وطُبَّاقا

وكما صنع ابن المعتز يرثى أباه بالقصيدة اللامية المقيدة فى الرمل :

رُبَّ حَتْفٍ بين أثناء الأمـل وَحياةُ المَرْءِ ظِلٌّ مُنْتقِـــلْ

وهى أيضاً معروفة ، ولولا اشتهار هذه القصائد ، ووجودها ، وخيفة التطويل بها ؛ لأثبتها فى هذا الموضع .

لا يقدمون نسيبا على الرثاء

وليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيباً كما يصـنعون ذلك فى المدح والهجاء ، وقال ابن الكلبى — وكان علامة — : لا أعلم مَرْثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة :

أرَثَّ جَدِيدُ الحبلِ مِنْ أمِّ مَعْبَدِ بعافية وأخلفت كل موعـد ؟

وعن على بن سليمان ، عن أبى العباس الأحول ، أن القصيدة التى لأبى قحافة أعشى باهلة ، إنما هى لابنة المنتشر ، واسمها الدعجاء .

قال : وقال على بن سليمان : حدثنى أبى أن أولها :

هَاجَ الفوادَ عَلَى عِرْفانِهِ الذِّكَرُ وذكر خَوْدٍ على الأيام ما يَذَرُ

قد كُنْتُ أذكرها والدار جامعةٌ والدهرفيه هَلاَكُ الناسِ والشَّجَرُ

هكذا أنشده النحاس والذى أعرف « وذكرميت » وأعرف أيضاً « والدهر فيه هلاك الناس والغير » كذلك أنشدنيه الموصلى فى الأغانى ، ثم عطف النحاس فقال : هذان البيتان لا يُعْرَفَانِ فى أول هذه القصيدة ؛ ومما يزيد الاسترابة بهما أن المتعارف عند أهل اللغة أنه ليس للعرب فى الجاهلية مرثية أولها تشبيب إلا قصيدة دريد ، وأنا أقول : إنه الواجب فى الجاهلية والإسلام ، وإلى وقتنا هذا ، ومن بعده ؛ لأن الآخذ فى الرثاء يجب أن يكون مشغولا عن التشبيب بما هو فيه من الحَسْرَة والاهتمام بالمصيبة ؛ وإنما تغزل دريد بعد قتل أخيه بسنة ، وحين أخذ ثأره ، وأدرك طلبته . وربما قال الشاعر فى مقدمة الرثاء « تركت كذا » أو « كبرت عن كذا » و « شغلت عن كذا » وهو فى ذلك كله يتغزل ويصف أحوال النساء ، وكان الكميت ركاباً لهذه الطريقة فى أكثر شعره ؛ فأما ابن مُقْبِل فمن جَفَاء أعرابيته أنه رثى عثمان بن عفان رضى الله عنه بقصيدة حسنة أتى فيها على ما فى النفس ، ثم عطف وقال :

فَدَعْ ذا ، ولكن علقت حبل عاشق ... لإحدى شعاب الحين والقتل أريب

ولم تُنْسِنِى قَتْلَى قريشٍ ظعائناً ... تحمَّلْنَ حتى كادت الشمسُ تغرب

يطفنَ بغرِّيدٍ يعلُّ ذا الصبا ... إذا رامَ أُركوب الغوايَةِ أركبْ

من الهيفِ مبدان ترى نطفاتها ... بمهلكة أحراصهنَّ تذبذب

والنسيب فى أول القصيدة على مذهب دريد خير مما ختم به هذا الجلف ، على تقدمه فى الصناعة ، إلا أن تكون الرواية « ظعائن » بالرفع .

مما عيب فى الرثاء

ومما عيب به الكميت فى الرثاء قوله فى ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وبُورِكَ قبرٌ أنتَ فيهِ ، وبُورِكت ... بهِ - ولهُ أهْلٌ - بذلك يَثربُ

لقد غيَّبُوا برًّا وَحَزْماً ونائِلاً ... عشيةَ واراهُ الضريحُ المنصبُ

حكاه الجاحظ وغيره ، وأظن أن المراد بما عيب الثانى من هذين البيتين ، فأما الأول جيد .

ومن العجب أن يقول عبدة بن الطبيب فى تأبين قيس بن عاصم :

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ قَيْسُ بْنَ عاصمٍ ... وَرَحْمَتُهُ ماشــاءَ أن يَتَرَحَّمَا

تحيةُ منْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ نِعْمَةً ... إذا زارَ عن شَحْطٍ بِلادَكَ سَلَّمَا

فما كانَ قيسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحِدٍ ... وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهَدَّمَا

و يقول الكميت فى تأبين رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القول ، فهلا قال مثل قول فاطمة رضى الله عنها :

أُغْبَرَّ آفاقُ السَّماء وكُوِّرَتْ ... شَمسُ النَّهَارِ وأظْلَمَ الْعَصْرَانِ

فالأرضُ مِنْ بَعْدِ النبيّ كئيبةٌ ... أســفاً عليهِ كثيرة الرَّجفَانِ

فليبكهِ شَرْقُ البلادِ وغَرْبُهَا ... ولْيَبْكِهِ مُضَرٌ وكل يَمَانِى

وليبكهِ الطَّوْدُ الْمُعَظَّمُ جَوُّه ... والبيتُ ذو الأستار والأركان

يا خاتم الرُّسُــل المبارك صنوه ... صــلّى عليكَ مُنَزِّلُ القُرْآن

صلى الله عليه وسلم ، ورحم وكرم وعظم .

والنساء أشجى الناس قلوباً عند المصيبة ، وأشدهم جزعاً على هالك ؛ لما رَكَّبَ الله عز وجل فى طبعهن من الخَوَرِ وضعف العزيمة .

على الجزع يبنى الرثاء

وعلى شدة الجزع يبنى الرثاء ، كما قال أبو تمام :

لَوْلاَ التَّفَجُّعُ لادَّعَى هَضْبُ الحمى ... وَصَفَا الْمُشَــقَّرِ أنه مَحْزُونُ

فانظر إلى قول جَليلة بنت مرة ترثى زوجها كُلَيباً ، حين قتله أخوها جَسَّاس ، ما أشجى لفظها ، وأظهر الفجيعة فيه ! ! وكيف يثير كوامن الأشجان ، ويقدح شَرَرَ النيران ، وذلك :

يا ابنة الأقوام إن لُمْتِ فلا ... تَعْجَلى باللَّوْم حتى تسألى

فإذا أنتِ تبيّنتِ التى عندها اللّومُ فلومى واعْذلِى
إن تكن أختُ امرىءٍ ليمتْ على جزَعٍ منها عَلَيْهِ فافعلِى
فعلُ جسَّاسٍ على ضَنِّى بهِ قاطعٌ ظهرى ومُدْنٍ أجَلِى
لوْ بعَيْنٍ فُدِيَتْ عينى سِوَى أختها وانفقأَتْ لم أحْفِلِ
تحملُ العين قذَى العينِ كما تحمل الأمُّ قذَى ما تفتلى
إننى قاتلة مقتولة فلعل الله أنْ يرْتاحَ لى
يا قتيلاً قوَّضَ الدَّهْرُ بهِ سَقْفَ بَيْتَيَّ جميعاً من عَلِ
ورمانى فقدُه من كثَبٍ رَمْيَةَ المُصْمَى به المستأْصَلِ
هدمَ البيتَ الذى استحدثتُهُ وسَعَى فى هَدْمِ بيتى الأولِ
مَسَّنِى فَقْدُ كلَيْبٍ بلَظًى مِنْ وَرائِى وَلظى مُسْتَقْبِلِى
لَيْسَ منْ يبكى ليومَيْن كمن إنما يبكى ليوم ينجلى
دَرَكُ الثَّأرِ شافيهِ[(١)] وفى دركى ثأرىَ ثكْلُ المثكل
ليته كان دمى فاحتلبوا دِرَراً منه دمى من أكحلى

أشد الرثاء صعوبة

ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثى طفلا أو امرأة ؛ لضيق الكلام عليه فيهما ، وقلة الصفات ، ألا ترى ما صنعوا بأبى الطيب ـ وهو فحل مجود إذا ذكر المحدثون — فى قوله يذكر أم سيف الدولة :

صلاة الله خالقنا حَنُوطٌ على الْوَجْهِ المكفّن بالجمال

فقالوا : ماله ولهذه العجوز يصف جمالها ؟ وقال الصاحب بن عباد : استعارة حداد فى عرس ، فإن كان أراد الصاحب بالاستعارة الحنوط فقد والله ظَلَمَ وتعسّف ، وإن كان أراد استعارة الكفن بجمال العجوز فقد اعترض فى موضع اعتراض إلى

(١) يروى * يشتفى المدرك بالثأر . . * ويروى أيضا * درك الثأر لشافيه . . *

مواضع كثيرة فى هذه القصيدة ، على أن فيهما يمحو كلَّ زَلّةٍ ، و يعفِّى على كل إساءة

قال الصاحب بن عباد : واقد مررت على مرثية له فى أم سيف الدولة تدل مع فساد الحس على سوء أدب النفس ، وما ظنك بمن يخاطب ملكا فى أمه بقوله :

رِوَاقُ العزِّ فوقَكِ مُسْبَطِرٌّ ... ومُلْكُ علىٍّ ابنِكِ فى كمال

ولعل لفظة الاسبطرار فى مراثى النساء من الخذلان الصفيق الرقيق ، وأنا أقول : إن أشد ما هجَّنَ هذه اللفظة وجعلها مقام قصيدة هجاء أنه قرنها بفَوْقَك؛ فجاء عملا تاماً لم يبق فيه الافضاء .

الجمع بين التهنئة والتعزية

ومن صعب الرثاء أيضاً جمع تعزية وتهنئة فى موضع ، قالوا : لما مات معاوية اجتمع الناس بباب يزيد ، فلم يقدر أحد على الجمع بين التهنئة والتعزية ، حتى أتى عبيد الله بن همّام السَّلولى فدخل فقال : يا أمير المؤمنين، آجرك الله على الرزية ، و بارك لك فى العطية ، وأعانك على الرعية ، فقد رُزِئْتَ عظيما ، وأعطيت جسيما ، فاشكر الله على ما أعطيت ، واصبر على ما رزئت ، فقد فقَدْتَ خليفة الله ، وأعطيت خلافة الله ، ففارقت جليلا ، ووهبت جزيلا ؛ إذ قضى معاوية نَحْبه ، ووليت الرياسة ، وأعطيت السياسة ، فأورده الله موارد السرور ، ووفقك لصالح الأمور .

فاصبرْ يزيدُ فقد فَارَقْتَ ذا ثِقَةٍ ... واشْكُرْ حِبَاءَ الذى بالملك أصفاكا

لا رُزْءَ أصبح فى الأقوام نعلمهُ ... كما رُزِئْتَ ولا عُقْبَى كعُقْباكا

أصْبَحْتَ والىَ أمر الناس كلهم ... فأنتَ تَرْعاهمُ والله يرعاكا

وفى معاويةَ الباقى لنا خلفٌ ... إذا نُعِيتَ ولا نَسْمَعْ بمَنْعاكا[1]

فقتح للناس باب القول .

(١) فى عامة الأصول «إذا بقيت ولا نسمع بمعناكا» وهو تحريف ولا يتم معه معنى

وعلى هذا السَّنن جرى الشعراء بعده ؛ فقال أبو نواس يعزى الفضل بن الربيع عن الرشيد ، ويهنئه بالأمين :

تَعزّ أبا العباس عن خَيْرِ هَالِكٍ ... بأكْرَم حَيّ كان أوْ هُوَ كَائِنُ
حوادثُ أيام تَدُورُ صروفُهَا ... لَهُنّ مَسَاوٍ مَرّةً وَمَحَاسِنُ
وفى الحى بالميت الذى غيَّبَ الثرَى ... فلا المُلْكُ مَغْبُونٌ ولا الموت غَابِنُ

ويروى : * فلا أنت مغبون *

واتبعه أبو تمام بالقصيدة التى أولها :

* مَا للدُّمُوع تَرومُ كُلّ مَرَامِ *

يقولها للواثق بعد موت المعتصم ، صَرّفَ الكلام فيها كيف شاء ، وأطنب كما أراد ، واحتج فيها فأسهب ، وتقدم فيها على كل من سلك هذه الناحية من الشعراء ، وأراد ابن الزيات مُجارَاته فعلم من نفسه التقصير فاقتصر على قوله :

قد قلتُ إذ غَيَّبُوكَ واصطفقت ... عليك أيدٍ بالترب والطين
اذْهَبْ فنعم المُعِينُ كنتَ على الدُّ ... نيـــا وَنِعْمَ الظهير للدين
لن يَجْبُرَ اللهُ أمةً فقدتْ ... مثلكَ إلاّ بمثــل هارونِ

ما رثى به النساء

ومن جيد مارثى به النساء وأشجاه وأشده تأثيراً فى القلب وإثارة للحزن قول محمد بن عبد الملك هذا فى أم ولده :

ألا من رأى الطِّفْلَ المُفَارِقَ أمَّهُ ... بُعَيْدَ الكَرَى عيناه تَبْتَدِرَانِ
رَأى كلّ أمّ وَابْنَهَا غَيْرَ أمه ... يبيتان تحتَ الليل يَنْتَجيان[1]
وبات وَحِيداً فى الفراش تحثُّه ... بلابلُ قَلْبٍ دائِمِ الخفقَانِ

(١) فى الأصول « ينتحبان » وهو تصحيف

يقول فيها بعد أبيات :

ألا إن سَجْلاً واجدا قد أَرَقْتُهُ من الدمع أو سَجْلَيْنِ قد شَفيَانِى

فلا تَلْحَيَانِى إن بكيت ؛ فإنما أداوى بهذا الدمع ما تريانِ

وإن مكاناً فى الثرى خُطَّ لَحْدُهُ لمن كان فى قلبى بكل مكان

أحقُّ مكانٍ بالزيارة والهوى فهل أنتما إن عُجْتُ مُنْتَظِرَانِ

ومن أشجى الشعر رثاء قوله فى هذه القصيدة :

فهبنى عَزَمْتُ الصَّبْرَ عَنْهَا لأننى جَليدٌ ، فمَنْ بالصبر لابن ثَمانِ ؟ ؟

ضَعيفِ الْقُوَى لا يعرف الأجرَ حِسْبَةً ولا يأْتسى بالناس فى الحدَثانِ

ألا من أمنيه المنى فَأُعِدُّه لعـــثرة أيامى وصَرْفِ زمانى

ألا من إذا ما جئت أَكْرَمَ مجلسى وإن غِبْتُ عنه حاطَنِى وَرَعَانى

فلم أر كالأقدارِ كيف تصيبنى ولا مِثْلَ هذا الدهر كيف رمانى

فهذه الطريق هى الغاية التى يجرى حُذَّاق الشعراء إليها ، ويعتمدون فى الرثاء عليها ، ما لم تكن المرثية من نساء الملوك ، وبنات الأشراف ، وغير ذوات محارم الشاعر ؛ فإنه يتجافى عن هذه الطريقة إلى أرفع منها ، نحو قول أبى الطيب :

وَلَوْ أنَّ النِّساءَ كَمَنْ فَقَدْنَا[1] لَفُضِّلَتِ النساءُ على الرجال

وقوله فى هذه القصيدة :

مَشى الأمَرَاءُ حَوْلَيْهَا حُفَاةً كَأَنَّ الْمَرْوَ من زِفِّ الرِّئالْ

ونحو قوله لأخت سيف الدولة :

ياأُخْتَ خَيْرِ أخٍ ، يابنت خير أبٍ كِنَايةً بهما عن أشْرفِ النسبِ

أجِلُّ قَدْرَكِ أنْ تُدْعَىْ مُؤَنَّثَةً وَمَنْ يَصِفْكِ فَقَدْ سَمَّاكِ لِلْعَرَبِ

---

(١) يروى : ٭ ولو كان النساء . . . ٭

ورثاء الأطفال أن يذكر مخايلهم ، وما كانت الفراسة تُعْطِيه فيهم ، مع تحزن لمصابهم ، وتفجع بهم ، كالذى صنع أبو تمام فى ابنى عبد الله بن طاهر .

٧٧ — باب الاقتضاء والاستنجاز

ما يستوجبه الاقتضاء

حسب الشاعر أن يكون مدحه شريفاً ، واقتضاؤه لطيفاً ، وهجاؤه إن هجا عفيفاً ؛ فإن الاقتضاء الخشن ربما كان سبب المنع والحرمان ، وداعية القطيعة والهجران ، وقوم يدرجون العتاب فى الاقتضاء ، والاقتضاء فى العتاب ، وأنا أرى غير هـذا المذهب أصْوَبَ ؛ فالاقتضاء طلب حاجة ، وباب التلطيف فيه أجود ؛ فإن بلغ الأمر العتاب فإنما هو طلب الإبقاء على المودة والمراعاة ، وفيه توبيخ ومعارضة لايجوز معها بعد الاقتضاء ، إلا أن الناس خلطوا هذين البابين ، وساووا بينهما .

أحسن المختار فى الاقتضاء

فمن أحسن الاقتضاء ـ على ما تخيرته ، ونحوت إليه ـ قول أمية بن أبى الصلت لعبد الله بن جُدْعَان :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى حياؤك ؟ إنّ شِيمَتَكَ الحياء
وعِلْمُكَ بالحقوق وأنت فَرْعٌ لك الحسبُ المهذّبُ والسناء
خَليلٌ لا يغـيره صَباح عن الخلق الجميل ولا مَسَاء
فأرضُكَ كلُّ مكرمةٍ بَنَتْهَا بَنُو تيم وأنتَ لهـا سماء
إذا أثنى عليكَ المرءُ يوماً كَفَاهُ من تَعَرُّضِهِ الثناء
تبَارِى الريح مكرُمَةً وجوداً إذا ما الـكلب أَجْحَرَه الشتاء

فأنت ترى هذا الاقتضاء كيف يُلينُ الصخر ، ويستنزل القَطْر ، ويحُط العُصْمَ إلى السهل ؟ ؟

ومثله قول الآخر :

لأشكُرَنَّكَ مَعْروفاً هَمَمْتَ به إنّ اهتمامكَ بالمعروف معروف

ولا ألومكَ إن لم يُمْضِهِ قَدَرٌ فالشيء بالقَدَرِ المحتومِ مَصْروف

وأما ما ناسب قول محمد بن يزيد الأموى لعيسى بن فرخان شاه ؛ إذ يقول له مستبطئاً :

أبا موسى ، سقى أرْضَكَ دَانٍ مُسْبِل الْقَطْرِ
وزادَ الله فى قَدْرِكَ ما أخملتَ من قدرى
لقد كُنْتُ أرَجِّيكَ لما أخشى من الدهر
فقد أصبحتَ من أوْكَدِ أسبابى إلى الفقر
أترضى لى بأن أرضى بتقصيرك فى أمرى؟
وقد أفنيت ما أفنَيْتُ فى شكرك من عمرى
مواعيد كما أخبت سراب المهمهِ القفرِ
فمن يوم إلى يوم ومن شهر إلى شهر
فلم أحْصُلْ على قيمة ما قلَّمت من ظفرى
لعلَّ اللهَ أن يصنع لى من حيث لا أدرى
فألقاكَ بلا شكر وتلقانى بلا عذر
ولا أرجوك فى الحالين لا العسر ولا اليسر

فهذا هو العتاب المُمِضُّ ، والتوبيخ الذى دونه الجَلْدُ بالسوط ، بل بالسيف ! !

ومما صنعته فى العتاب على هذا الشكل بعد اليأس المستحكم على ما شرطته :

رَجَوْتُكَ للأمر المُهِمِّ وفى يدى بَقَايا أُمَنِّى النَّفسَ فيها الأمَانيا
فساوفتَ بى الأيام حتى إذا انقضت أواخر ما عندى قطعتَ رجائيا
وكنتُ كأنى نازفُ البِئْرِ طالباً لإجمامها أو يَرْجِعَ الماء طافيا
فلا هو أبقى ما أصاب لنفسه ولا هى أعطته الذى كان راجيا

ومن أملح ما رأيته فى الاقتضاء والاستبطاء قول أبى العتاهية لعمر بن العلاء[1] وابن المعتز يسمى هذا النوع مزحاً يراد به الجد ، وهو :

أصابتْ علينا جودكَ العين ياعمرْ فنحن لها نبغى التمائمَ والنشرْ
سنرقيك بالأشعار حتى تملها فإن لم تُفِقْ منها رقيناك بالسورْ

وكنت أنا صنعت فى استبطاء :

أحْسَنْتَ فى تأخيرها مِنَّةَ لو لم تُؤَخَّرْ لم تكنْ كاملهْ
وكيفَ لا يحسن تأخيرها بعد يَقِينِى أنها حاصلهْ؟؟
وَجَنَةُ الفردوس يُدْعى بها آجِلةً للمرء لا عاجلهْ
لكنما أضعف من همتى أيام عمرٍ دونها زائلهْ

والعتاب أوسع حداً من الاقتضاء ؛ لأنه يكون مثله بسبب الحاجات ، وقد يكون بسبب غيرها كثيراً ، والاقتضاء لا يكون إلا فى حاجة .

٧٨ — باب العتاب

عقبى العتاب

العتاب — وإن كان حياة المودة ، وشاهد الوفاء — فإنه باب من أبواب الخديعة ، يسرع إلى الهجاء ، وسبب وكيد من أسباب القطيعة والجفاء ، فإذا قل كان داعية الألفة ، وقَيْدَ الصحبة ، وإذا كثر خشن جانبه ، وثقل صاحبه

للعتاب طرائق

وللعتاب طرائق كثيرة ، وللناس فيه ضروب مختلفة ؛ فمنه ما يمازجه الاستعطاف والاستئلاف ، ومنه ما يدخله الاحتجاج والانتصاف ، وقد يعرض فيه المن والإجحاف ، مثل ما يشركه الاعتذار والاعتراف .

أحسن الناس طريقا فى العتاب

وأحسن الناس طريقاً فى عتاب الأشراف شيخ الصناعة وسيد الجماعة أبو عُبَادة البحترى الذى يقول :

يُرَيِّبنى الشىءُ تأتى به وأُكبِرُ قَدْرَكَ أن أستريبا

(١) انظر ص ١٣٣ السابقة ثم انظر ص ١٨٤ الآتية .

وأكره أن أتمـادى على سبيل اغـترار فألقى شَعُوبا
أكذّب ظنى بأنْ قد سَخِطتَ وما كنت أعهد ظَنِّى كَذُوبا
ولو لم تكن ساخطاً لم أكن أذمُّ الزمانَ وأشكو الخطوبا
ولا بدَّ من لومة أنتحِى عليك بها مخطئاً أو مصيبا
أيُصْبِح ورْدِىَ فى ساحتيـك طرقاً ومَرْعَاىَ مَحْلاً جديبا؟!
أبيعُ الأحِبَّـةَ بيعَ السَّوَامِ وآسى عليهـم حبيبا حبيبا
ففى كل يومٍ لنا موقفٌ يشقّقُ فيـه الوَدَاعُ الْجُيُوبا
وما كان سُخْطُك إلا الفراقَ أفاضَ الدموعَ وأشجى القلوبا
ولو كنت أعلم ذنباً لمـا تخالجنى الشكُّ فى أن أتوبا
سأصبرُ حتى ألاقى رضا ك إمَّا بعيـداً وإمَّا قريبا
أراقبُ رأيكَ حتى يَصِحَّ وأنظر عَطْفَك حتى يؤُوبا[1]

والذى يقول أيضاً :

البحترى فى العتاب أيضا

وأصيدَ إن نازعتهُ اللحظَ رَدَّه كليلاً، وإن راجعتهُ القولَ جَمْجَمَا
ثَنَاه العدى عنى فأصبح مُعْرِضاً وأوهمه الواشون حتى تَوَهَّمَا
وقد كان سَهْلاً واضحاً فتوَعَّرتْ رُبَاه وطَلْقاً ضاحكا فتجهَّمَا
أمتَّخِذٌ عِنْدِى الإساءةَ محسنٌ ومنتقمٌ منى امرؤٌ كان منعما ؟
ومكتسب فىَّ الملامة ماجـدٌ يرى الحمد غُنْماً والملامةَ مَغْرَمَا
يخوفنى من سوء رأيكَ معشرٌ ولاخوف إلا أن تجور وتظلمـا
أعيذك أن أخشاك من غير حادثٍ تَبَيَّنَ أو جُرْمٍ إليك تقدّما
ألست الْمُوَالِى فيك غُرَّ قصائدٍ هى الأنْجُم اقتادتْ مع الليل أنجما
ثناءٌ كأنَّ الروضَ فيه مُنَوّرٌ ضُحًا، وكأنّ الْوَشْىَ فيه مُنَمْنَمَا

(١) فى الديوان « حتى يثوبا » والمعنى واحد .

ولو أننى وَقّرْت شعرى وَقَارَهُ وأجللتُ مدحى فيك أن يَتَهَضَّما
لأكبَرْتُ أن أومى إليك بأصبع تضرُّعَ أو أدنى لمعــــذرةٍ فما
وكان الذى يأتى به الدهر هَيِّناً عَلَىَّ وَلَوْ كانَ الحِمَامَ المُقَدَّمَا
ولكننى أعْلِى مَحَلَّكَ أنْ أرى مُدِلاً وأستحييكَ أن أتعظما

فهذا عتاب كما قال :

عِتَابٌ بأطراف القوافى كأنَّهُ طِعَانٌ بأطراف القنا المُتَكَسِّرِ

للمؤلف فى العتاب

وقد نحوت أنا هـذا النحو فى كلمة عاتبت بها القاضى جعفر بن عبد الله الكوفى قلت فيها :

وقد كنت لا آتى إليك مُخَاتِلاً لديكَ ، ولا أثنى عليك تصنُّعَا
ولكنْ رأيتُ المدحَ فيكَ فريضةً علىَّ إذا كان المديحُ تطوُّعا
فقمت بما لم يخفَ عنك مكانُهُ من القولِ حتى ضاقَ مما توسعا
ولو غيرُكَ الموسومُ عنِّى بريبة لأعطيتُ منهامُدَّعِى القول ماادَّعَى
فلا تتخالَجْكَ الظنونُ فإنهـــا مآثمُ ، وَاتْرُكْ فِىَّ للصُّنْعِ مَوْضِعَا
فوالله ما طَوَّلْتُ باللومِ فيكم لساناً ، ولا عرَّضْتُ للذّمِّ مَسْمَعَا
ولا ملتُ عنكم بالودادِ ، ولا انطوَتْ حبالى ، ولا وَلَّى ثنائى ، مودِّعا
بلى ربما أكرمْتُ نفسى فلم تَهُنْ وأجللتها عنْ أنْ تَذِلَّ وتخضعا
ولم أرْضَ بالحظ الزهيد ، ولم أكنْ ثقيلا على الإخوانِ كَلّا مُدَفَّعَا
فبايَنْت لا أنَّ العداوةَ باينتْ وقاطعتُ لا أنَّ الوفاءَ تَقطعا
ألوذُ بأكنافِ الرجاء ، وأتقى شماتَ العدا ، إنْ لم أجِدْ فيكَ مَطْمَعَا

لأبى تمام فى العتاب

ومن معاتبات أبى تمام قوله لابن عبد الملك الزيات :

لئن هِمَمِى أوْجَدْنَنِى فى تقلبى مآلاً لقدْ أفقدننى منكَ مَوْئِلاَ
وإن رمت أمراً مُدْبِرَ الوجه إننى لأتْرُكُ حظا فى فنائك مُقْبِلاَ

و إن كنتُ أُخطو ساحة المحل إننى … لأَترك رَوْضاً من جَدَاكَ وَجَدْوَلاَ
كذلك لا يُلْقِى المسافرُ رَحْلَهُ … إلى منقل حتى يُخَلِّف منقـــلا
ولا صاحبُ التطوافِ يَعْمُرُ منهلا … ورَبْعاً إذا لم يُخْلِ رَبْعاً ومَنْهَلا
ومن ذا يدانى أو ينائى ؟ وهل فتى … يحلُّ عُرَى التَّرْحالِ أو يترحلا ؟
فمُرْنِى بأمرِ أخــوذِيّ فإننى … أرى الناس قد أثْرَوْا وأصبحتُ مُرْمِلاً
فسِيَّانِ عندى صادفوا لِىَ مَطْعناً … أعَابُ بهِ أو صادفوا لِىَ مَقْتَلاً

لأبى تمام فى العتاب أيضا

ومن قصيدة أخرى لأبى تمام :

تَقَطَّعتِ الأسبابُ إن لم تُغَرِّلها … قُوَى أو يصلها من يمينكَ واصلُ
سوى مَطْلَبٍ يُنْضى الرجاء بطوله … وتخلقُ إخلاق الجفون الوسائلُ
وقد تألفُ العينُ الدجى وَهْوَ قَيْدُهَا … ويُرْجَى شِفَاءُ السمِّ والسمُّ قاتلُ
ولى عِدَةٌ تمضى العُصور و إنها … كعهدك من أيام مِصْرَ كَحَائِلُ[1]
سِنُونَ قَطَعْنَاهُنَّ عَشْراً كأنَّما … قطعنا لقربِ العهدِ منها مراحلُ[2]
و إنَّ جزيلات الصنائع لامرىء … إذا ما الليالى نا كَرَتْهُ مَعَاقِلُ
و إنَّ المعـــالى يُسْتَرَمُّ بناؤها … سريعاً ، كما قد تسترم المنازلُ
ولو حاردت شَوْلٌ عذرتُ لقاحها … ولكن حُرِمْتُ الدَّرَّ والضَّرْعُ حافلُ
منحتكها تشفى الجَوَى وهْوَ لاَعِجٌ … وتبعث أشجان الفتى وَهْوَ ذَاهِلُ
تردُّ قوافيها إذا هى أرسلتْ ، … هَوَامِلَ مَجْدِ القوم وَهْىَ هَوَامِلُ
وكيف إذا حلَّيتها بحُلِيِّهَا … تكون وَهَذَا حُسْنُها وهى عاطلُ ؟؟!
أكابرَنا ، عطفاً علينا ؛ فإننا … بنا ظَمَأٌ بَرْحٌ وأنتم مَنَاهِلُ

وقال ابن الرومى لأبى الصقر إسماعيل بن بلبل يعاتبه فى قصيدة جيدة مختارة :

---

(١) فى الديوان (٢٥٩) « ولى همة تضنى العصور . . . لحامل » .
(٢) أى : كأن الذى قطعناه مراحل.

لابن الرومى يعاتب إسماعيل ابن بلبل

عَقيلَ الندى ، أطلق مدائحَ جمة خواسىَ حَسْرَى قد أبتْ أنْ تسرَّحا
وكُنْتَ متى تُنشدْ مديحاً ظلمته يكن لك أهجى كلّما كان أمدحا
عذرتك لو كانت سَمَاء تقشّعتْ سحائبها أو كان روضٌ تصوّحَا
ولكنها سُقْياَ حُرِمْت رَوِيهاَ وعارضها مُلْقٍ كلاكلَ جُنَّحَا
وأكْلأُ معروف حميت مَرِيعها وقد عادمنها الحزْنُ والسهل مَسْرَحَا
فيالك بحراً لم أجد فيه مَشْرَباً وإن كان غَيْرى واجداً فيه مَسْبَحاَ
مديحى عصَا مُوسى ، وذاك لأننى ضَرَبْتُ به بحر الندى فتضحْضَحا
فياليت شعرى إن ضَرَبْتُ به الصَّفَا أيحدث لى فيه جَدَاوِلَ سُيَّحاَ
كتلك التى أبدت ثرى البحر يابسا وَشَقَّتْ عُيُوناً فى الحجارة سُفَّحاَ
سأمْدَحُ بعض الباخلين لَعَلَّه إذا أطَّرَدَ المقياسُ أن يَتَسَمَّحاَ

فهذا هو الذى لا يبلغ جودة ، ولا يجارى سَبْقاً ، على أن البحترى قد تقدم إلى بعض المعنى فى قوله للفتح بن خاقان :

غَمَامٌ خَطَانِى صَوْبُهُ وَهْو مُسْبِلٌ وبَحْرٌ عَدَانى فَيْضُهُ وَهْو مُفْعَمُ
وبَدْرٌ أضاء الأرض شَرْقاً ومَغْرِباً ومَوْضع رَحلى منهُ أسود مظلم
وَمَا بَخِلَ الفَتْحُ بن خاقان بالندى ولكنها الأقدارُ تُعْطى وتَحْرِمُ

للمتنبى يعاتب سيف الدولة

وأما أبو الطيب فكان فى طبعه غلظة ، وفى عتابه شدة ، وكان كثير التحامل ، ظاهر الكبر والأنفَةِ ، وما ظنك بمن يقول لسيف الدولة :

يا أعدَل الناسِ إلا فى معاملتى فيكَ الخِصَامُ وأنْتَ الخصمُ والحَكَمُ
أعيذُها نظَرَاتٍ مِنْكَ صادِقَةً أنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ
وما انتفاعُ أخى الدنيا بناظرِهِ إذا استَوتْ عِنْدَهُ الأنوارُ والظُّلَمُ
أنا الذِى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعَتْ كلماتى مَنْ به صَمَمُ

أنامُ مِلْءَ جُفُونى عن شواردها ... ويَسْهَرُ الناس جرّاها ويختصم

وجَاهـلٍ مَدّهُ فى جهلهِ ضَحكى ... حتى أتتـهُ يَدٌ فرّاســة وفَمُ

إذا رَأيتَ نُيُوبَ اللّيْثِ بارزَةً ... فَلَا تظُنّنّ أنّ اللّيْثَ يَبْتَسِمُ

فهذا الـكلام فى ذاته فى نهاية الجودة ، غير أنه من جهة الواجب والسياسة غاية فى القبح والرداءة ، و إنما عَرّضَ بقوم كانوا ينتقصونه عنـد سيف الدولة و يعارضونه فى أشعاره ، والإشارة كلها إلى سيف الدولة ، ثم قال بعد أبيات :

يَا مَنْ يَعِزُّ علينا أنْ نفارقهم ... وِجْدَانُنَا كلّ شىء بعدكم عَدَمُ

ما كان أخْلَقَنا منكم بتـكْرِمةٍ ... لو أنّ أمْرَكُمُ مِن أمرنا أَمَمُ

إن كانَ سَرّكم ما قالَ حاسدُنا ... فما لجُرح إذا أرضـاكم ألمُ

و بيننا لو رَعيتُم ذَاكَ مَعْـرِفَةٌ ... إنّ المعارفَ فى أهْل النهى ذِمَمُ

كم تَطلبُون لنا عَيْباً فَيُعْجِزَكُمْ ... ويكرَه الله ما تأتون والـكرَمُ؟!

ماأ بعدالعَيْبَ والنقصانَ من شرَفى ... أنا الثّريا وذَان الشيبُ والهرَمُ

ليْتَ الغمامَ الذيعندى صوَاعِقهُ ... يُزِيلُهُنّ إلى مَنْ عنـدهُ الدِّيَمُ

أرى النّوَى يقتضينى كلّ مَرْحَلةٍ ... لا تَسْـتقل بها الْوَخّادة الرُّسُمُ

لئن تركن ضميراً عن مَيامننا ... ليحـدثَنّ لمن ودّعتهم ندم

و إنما قال أولا * ليحدثن لسيف الدولة الندم * ثم بدله ، وليس هذا عتابا ، لـكنه سباب ، و بسبب هذه القصيدة كاد يقتل عند انصرافه من مجلس إنشادها ، وهذا الغرور بعينه .

عتاب الأكفاء

فأما عتاب الأكفاء، وأهل المودات، والمتعشقين من الظرفاء ، فَبَابةٌ أخرى جارية على طرقاتها .

قال إبراهيم بن العباس الصولى يعاتب محمد بن عبد الملك الزيات ، وقد تغير عليه لما وَزَرَ :

للصولى يعاتب ابن الزيات

وكُنْتَ أخى بإخاء الزّمان فلما نَبا صِرْتَ حَرْباً عَوَانَا
وكُنْتُ أذمُّ إليكَ الزمانَ فأصْبَحْتُ فيك أذمُّ الزمانا
وكُنْتُ أعدُّكَ للنّائباتِ فها أنا أطلب منـك الأمانا

وهذا عندى من أشد العتاب وأوْجَعِهِ .

لأبى الحسن

ومن أكرم العتاب قولُ السيد أبى الحسن أدام الله سيادته وسعادته :

وإنى لأطرى كلّ خِلٍّ صَحِبْتُهُ وأنتَ ترى شتْمى بغـير حياء
ستعلم يوماً ما أسأتَ لصاحبٍ تَكَرُّمَ أخلاقى وحُسْنَ وفائى

لسعيد بن حميد

ومن مليح ما سمعتُ قولُ سعيد بن حميد يعاتب صديقاً له :

أقلِلْ عِتابك فالْبَقاء قليلُ والدّهْرُ يَعْدِلُ تارةً ويَميلُ
لم أبْكِ منْ زمنٍ ذَمَمْتُ صُروفه إلاّ بكيْتُ عليهِ حينَ يزول
ولـكل نائبـة ألمّتْ مُدّةٌ ولـكل حال أقبلتْ تحويل
فالمنتمونَ إلى الإخاء عصابة إن حُصِّلُوا أفناهُم التحصيلُ
ولعل أحداثَ المنيةِ والردى يوما ستصدع بيننَا وتحول
ولئن سبقتُ لتبكينّ بحسْرةٍ وليـكثرنّ عَلَيّ منك عويلُ
ولَتُفْجَعَنّ بمخلصٍ لك وَامِقٍ حَبْلُ الوفاء بحَبْلِهِ مَوْصُول
ولئن سَبَقْتَ، ولاَ سبقتَ، ليمضيَنْ مَنْ لا يُشاكله لَدَيّ خليلُ
وليذهبنّ بهاء كلِّ مروءةٍ وليُفْقَـدَنّ جمـالها المأهُول
وأراكَ تـكلف بالعتاب وَوُدُّنا صافٍ، عليْه منَ الوفاء دَليلُ
وُدٌّ بدَا لِذَوِى الإخاء جمالُهُ وبَدَتْ عليه بَهْجَة وقَبُولُ
ولعلّ أيّامَ الحياةِ قَصِـيرة فعلام يكثر عَتْبُنا ويطُولُ

إلى ههنا أومأ أبو الطيب بقوله :

ذَرِ النفس تأخُذْ وُسْعها قبل بَيْنها فمفـترق جاران دارُهما العُمْـرُ

وأشار إليه أيضا بقوله ، وأردتُ البيتَ الأخير :

زَوِّدِينا بحسن وجْهك ما دا م فَحُسنُ الوجوهِ حالٌ تحولُ

وصِلِينا نَصِلْكِ فى هذهِ الدنيا فإن المقام فيها قليلُ

والجميع من قول الأول :

ولقد علمتَ فلا تكن متجنيا أن الصدود هو الفراق الأول

حَسْبُ الأحبة أن يُفرِّق بينهم رَيْبُ المنون فما لنا نستعجلُ

إلا أن ابن حميد قد فنن و بين ، وشرح ما أجمل غيره بقوله « لئن سبقتُ أنا » « ولئن سبقتَ أنت ، ولا سبقت أنت » فله بذلك فضل بين، ورجحان ظاهر.

وما أحسن إيجاز الذى قال :

العمر أقصر مُدّةً مِنْ أن نُمحقَ بالعتاب

لبشار بن برد

وقال أبو المحدثين بشار :

إذا كنت فى كل الأمور معاتبا صديقَكَ لم تَلْقَ الذى لا تعاتبُه

فعِشْ وَاحِداً أوْ صِلْ أخاك فإنه مُقَارِف ذنبٍ مَرّةً ومُجانِبُه

إذا أنت لم تَشْرَبْ مِراراً على القَذى ظمئتَ ، وأىُّ الناس تصفو مَشَارِبُه

٧٩ — باب الوعيد والإنذار

كان العقلاء من الشعراء وذوو الحزم يتوعَّدُونَ بالهجاء ، و يُحَذِّرون من سوء الأُحْدُوثة ، ولا يُمْضُون القول إلا لضرورة لا يحسن السكوت معها .

لابن مقبل

قال ابن مقبل :

بنى عامر ، ما تأمرون بشاعر تخيَّر آيات الكتاب هجائيا؟

أأعفو كما يعفو الكريم فإننى أرَى الشَّغْبَ فما بيننا متدانيا

أمْ أغمِضُ بين الجلد واللحم غمضة بمِبرد رومى يَقُطُّ النواصيا

فأما سراقات الهجاء فإنها كلام تهاداه اللئام تهاديا

أمَ اخبِطُ خَبْطَ الفيل هامةَ رأسهِ بجَرْدٍ فلا يُبْقِى من العظم باقياً

وعندى الدهيم لو أحلُّ عقالها فتصبح لم تعدم من الجن حاديا

شبه لسانه بمبرد رومى لمضائه ، وشبه القصيدة التي لو شاء هجاهم بها بالدهيم وهى الداهية ، وأصل ذلك أن الدهيم ناقة عمرو بن زبّانَ الذُّهْلى التى حملت رءوس بنيه معلقة فى عنقها ، فجاءت بها الحى ، فضرب بها المثل للداهية .

لجرير

وقال جرير لبنى حنيفة ، وكان ميلهم مع الفرزدق عليه :

أبنى حنيفة أحكموا سفهاءكم إنى أخاف عليكم أن أغضبا

أبنى حنيفة إننى إنْ أهجكم أدع اليمامة لا توارى أرنبا

« أحكموا » كفوا ، من حكمة اللجام .

وقال أيضا لتيم الرباب رهط عمر بن لجأ :

يا تَيمُ تَيمَ عَدِىٍّ لاأبا لَكُمُ لا يلقينكُمُ فى سَوْأةٍ عُمَرُ

وكان على بن سليمان الأخفش فى صباه يعبث بابن الرومى لما يعلم من طيرته ، فيجعل من يقرع الباب عليه بكرة ويتسمى له بأقبح الأسماء ، فيمنعه ذلك من التصرف ، فقال يتوعده :

لابن الرومى

قولوا لِنَحْوِيِّنَا أبى حسن إنّ حُسَامى متى ضربْتُ مضى

وإنّ نَبلِى متى هَمَمْتُ بأنْ أرمِىَ نَصَّلْتُهَا بجمر غضى

لا تحسَبَنَّ الهجاء يحفل بالـرفعِ ولا خفضِ خافضٍ خفضا

ولا تخَلْ عَوْدَتى كبادئتى سأسعط السمَّ من عصى الحضضا

أعرف فى الأشقياء لى رجلاً لا ينتهى أو يصيرَ لى غرَضاَ

يُليحُ لى صفحَةَ السلامةِ والسِّـلمِ ، ويُخفى فى قلبه المرضا

يضحى مَغيظًا علىّ أنْ غضبَ ا   للهُ عليه ونلتُ منه رضا
وليس تُجْدِى عليه مَوْعِظتى   إن قَدّرَ الله حَيْنَهُ فقضى
كأننى بالشقىّ معتذراً   إذا القوافى أذقنهُ مَضَضَا
يَنْشُدُنى العهدَ يوم ذلك والـــعهْدُ خفار إذا له قبضا
لا يأمننّ السفيهُ بادرتى   فإننى عارضٌ لمن عرضا
عندى له السوطُ إن تلوَّمَ فى الـــسّير وعندى اللجامُ إنْ ركضا
أسمعت أنباء صِيتى أبا حسنٍ   والنصح لاشك نصح من مَحَضا
وَهْوَ مُعافًى من السهاد فلا   يَجْهَلْ فيَشْرَى فِراشه قضضا
أقسمتُ بالله لا غفرت له   إنْ وَاحدٌ منْ عروقه نَبَضَا

وكذلك قد فعل ، وقد مزقه بالهجاء كل ممزق ، وجعله مُثْلَة بين أصحابه ، على أن الأخفش كان يتجلد عليه ، ويُظْهِر قلة المبالاة به ، وهيهات ! وقد وسمه سمة الدهر ، وسامه سوم الخسف والقهر . ومما قلته فى هذا الباب :

للمؤلف فى الوعيد

يا مُوجعى شَتْماً على أنه   لوفَرَكَ البرغوثَ ما أَوْجَعَا
كلٌّ له من نفسه آفةٌ   وآفة النحلة أن تلسعا

وقلت من قصيدة خاطبت بها بعض بنى منْاد :

من يصحبِ الناسَ مَطْوِيّاً على دَخَلٍ   لا يَصْحَبوه ؛ فَخَلُّوا كلَّ تَدْخِيلِ
لا تستطيلوا على ضَعْفى بقوتكم   إنّ البعوضةَ قد تَعْدُو على الفيل
وجانبوا المَزْحَ ؛ إنّ الجدَّ يَتبعهُ   وَرُبَّ مُوجعةٍ فى إثر تقبيل

ومنها بعد أبيات لا تليق بالموضع خوف الحشو :

يا قوم لا يَلْقَيَنِّى منكُمُ أَحَدٌ   فى المهلكات ؛ فإنى غير مغلول
لا تَدْخلوا بالرِّضاَ منكم على غَرَرٍ   فتُخْرِجُوا الليثَ غَضْبَاناً من الغيل
إلاّ تكن حَمَلَتْ خيراً ضمائركم   أكُنْ تأبّطَ شراً ناكحَ الغُولِ

(٨٠) — باب الهجاء

خير الهجاء

يروى عن أبى عمرو بن العَلاَء أنه قال : خَيْرُ الهجاء ما تنشده العذراء فى خدرها فلا يقبح بمثلها ، نحو قول أوس :

إذا ناقةٌ شُدَّتْ برحلٍ ونمرقٍ ... إلى حَيِّكُمْ بَعْدِى فَضَلَّ ضَلاَلُهَا

واختار أبو العباس قول جرير :

لو أنّ تغلبَ جَمَّعَتْ أحْسَابَها ... يومَ التفاخرِ لم تَزِنْ مِثْقَالاَ

ومثل قوله :

فَغُضِّ الطَّرْفَ إنكَ من نُمَيْرٍ ... فَلاَ كَعْباً بَلَغْتَ ولا كِلاَبَا

الهجاء المقذع

و بين الاختيارين تناسب فى عفة المذهب ، غير أن بيت جرير الثانى أشد هجاء لما فيه من التفضيل ، فقد حكى محمد بن سَلام الْجُمَحِى عن يونس بن حبيب أنه قال : أشد الهجاء الهجاء بالتفضيل ، وهو الإقذاع عندهم .

عقوبة الهجاء فى الإسلام

قال النبى صلى الله عليه وسلم « من قال فى الإسلام هجاء مقذعا فلسانه هَدَر » ولما أطلق عمر بن الخطاب رضى الله عنه الحطيئة من حَبْسِه إياه بسبب هجائه الزبرقان بن بدر قال له : إياكَ والهجاء المُقْذِع ، قال : وما المُقْذِع يا أمير المؤمنين ؟ قال : المقذع أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف ، وتبنى شعراً على مدح لقوم وذم لمن تعاديهم ، فقال : أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم منى بمذاهب الشعر ، ولكن حَبَانى هؤلاء فمدحتهم وحَرَمنى هؤلاء فذكرت حرمانهم ولم أنل من أعراضهم شيئاً ، وصرفت مدحى إلى مَنْ أراده ورغبت به عمن كرهه وزَهِدَ فيه ، يريد بذلك قصيدته المهموزة التى يقول فيها:

وآنيتُ العَشاء إلى سُهَيْلٍ ... أو الشِّعْرَى فطال بى الإناء

أبلغ الهجاء

وهى أحبث ما صنع . وفيها أو من أجلها قال خلف الأحمر : أشد الهجاء أعفه وأصدقه ، وقال مرة أخرى : ماعف لفظه وصدق معناه ، ومن كلام صاحب الوساطة : فأما الهجو فأبلغه ماخرج مخرج التهزل والتهافت ، وما اعترض بين التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه ، وسَهُلَ حفظه ، وأسرع عُلُوقُه بالقلب ولصوقه بالنفس ، فأما القذف والإفحاش فسباب محض ، وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن .

ومما يدل على صِحّةِ ما قاله صاحب الوساطة وحُسْنِ ما ذهب إليه إعجابُ الحُذّاق من العلماء وفرسان الكلام بقول زهير فى تشككه وتهزله وتجاهله فيما يعلم:

وما أدرى وسوف إخال أدرى ... أقومٌ آل حِصْنٍ أم نســاء
فإن تــكُنِ النساء مُخَبَّئَاتٍ ... فَحُقّ لــكلٌ محضنةٍ هداء

و إن هذا عندهم من أشد الهجاء وأَمَضِّه .

ولما قدم النابغة بعد وقعة حِسْىٍ سأل بنى ذبيان : ما قلتم لعامر بن الطُّفَيْلِ وما قال لكم ؟ فأنشدوه ، فقال : أفحشتم على الرجل وهو شريف لا يقال له مثل ذلك ، ولــكنى سأقول ، ثم قال :

فإنْ يَكُ عامرٌ قد قال جهلاً ... فإنّ مَطِيَّةَ الجهل[1] السِّبَابُ
فــكنْ كأبيكَ أو كأبى بَرَاء ... تُصَادِفْكَ الحكومة والصواب[2]
فلا يذْهَبْ بلبك طائشات[3] ... من الخُيَــلاَءِ ليس لهن باب

---

(١) فى إحدى روايات الديوان * فإن مطية الجهل . . . وفيه « الشباب »
(٢) فى الديوان * توافقك الحكومة . . . .
(٣) فى الديوان * فلاتذهب بلبك طاميات * والطاميات : المرتفعات ، والخيلاء : التكبر والاختيال ، وقوله « ليس لهن باب » معناه لاينكشفن عنه ولا مفرج له منهن .

فإنك سوف تَحْلُمُ أو تناهى[1] إذا ماشبت أو شاب الغرابُ

فإن تـكن الفوارِس، يوم حِسْيٍ أصابوا من لقائك ما أصابوا

فما إن كان من سبب بعيد[2] ولـكن أدركوك وهم غِضَابُ

فلما بلغ عامراً ما قال النابغة شَقَّ عليه ، وقال : ما هجانى أحد حتى هجانى النابغة ، جعلنى القوم رئيساً ، وجعلنى النابغة سفيهاً جاهلا وتهكم بى !

وروى أن شاعراً مدح الحسين بن على رضى الله عنهما ، فأحسن عطيته ، فعوتب على ذلك ، فقال : أترون [أنى] خفت أن يقول إنى لست ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ابن علىّ بن أبى طالب ؟ ولـكن خفت أن يقول : لست كرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولست كعلىّ ، فيصدق ويحمل عنه ، ويبقى مخلداً فى الـكتب ، ومحفوظاً على ألسنة الرواة ، فقال الشاعر: أنت والله يا ابن رسول الله أعلم بالمدح والذم منى ، وقد وقع الحسن بن زيد بن الحسين بن على فى بعض ما قال جَدُّه ، قال فيه ابن عاصم المدينى ، واسمه محمد بن حمزة الأسلمى :

له حَقٌّ ، وليس عليه حقٌّ ومهما قال فالحَسَنُ الجميل

وقد كان الرسول يرى حقوقا عليه لأهلها وَهُوَ الرسول

مذاهب الشعراء فى الهجاء

وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود ، وترك الفحش فيه أصوب ، إلا جريرا فإنه قال لبنيه : إذا مدحتم فلا تطيلوا المادحة ، وإذا هجوتم فخالفوا ، وقال أيضا : إذا هجوت فأضحك . وسلك طريقته فى الهجاء سواء على بن العباس ابن الرومى ، فإنه كان يطيل ويُفْحِشُ ، وأنا أرى أن التعريض أهجى من التصريح ؛

(١) فى الأصول . .سوف تحكم . . والتصويب عن الديوان .

(٢) فى الديوان * فما إن كان من نسب بعيد *

لاتساع الظن فى التعريض ، وشدة تعلق النفس به ، والبحث عن معرفته ، وطلب حقيقته ، فإذا كان الهجاء تصريحًا أحاطت به النفس علما ، وقبلته يقينا فى أول وَهْلَة ، فكان كل يوم فى نقصان لنسيان أو مَلَل يعرض ، هذا هو المذهب الصحيح ، على أن يكون المهجو ذا قدر فى نفسه وحَسَبه ؛ فأما إن كان لا يوقظه التلويح ، ولا يؤلمه إلا التصريح ؛ فذلك ، ولهذه العلة اختلف هجاء أبى نواس ، وكذلك هجاء أبى الطيب فيه اختلاف ؛ لاختلاف مراتب المهجوين .

لربيعة الرقى فى الهجاء

فمن التفضيل فى الهجاء قول ربيعة بن عبد الرحمن الرقى :

لشتّان ما بَيْنَ اليزيدين فى الندى يَزيدِ سُلَيم والأغرِّ ابنِ حاتِمِ
فهمُّ الفتى الأزْدِىِّ إتلافُ مالهِ وهمُّ الفتى القيسىِّ جمع الدراهم
فلا يحسبُ التمتام أنى هَجَوْتهُ ولكننى فَضَّلْتُ أهل المكارم

لزياد الأعجم

ومن الاستحقار والاستخفاف قولُ زياد الأعجم :

فَقُمْ صاغراً يا شَيْخَ جَرْم فإنما يقال لشيخ الصدق : قُمْ غيرَ صاغرِ
فمن أنتمُ ؟ إنا نسينا مَنَ أنتمُ وريحكم من أى ريح الأعاصر ؟!!
أأنتم أولى جِئْتُمْ مع النّمل والدّبَا فطارَ ، وهذا شيخكم غيرُ طائر
قَضى الله خَلْقَ الناسِ ثم خُلِقْتُمُ بَقِيَّةَ خَلْقِ الله آخِرَ آخِرِ
فَلَمْ تسمعوا إلا عمن كان قبلكم ولم تدركوا إلا مدق الحوافرِ

للطرماح

وأخذ الطرماح منه هذا المعنى فقال :

وما خُلِقَتْ تَيْمٌ وعَبْدُ مَنَاتِها وضَبّة إلا بَعْدَ خَلْقِ القبَائِلِ

لجرير

ومن الاحتقار أيضاً قولُ جرير فى التيم :

ويُقْضى الأمْرُ حينَ تغيبُ تَيْمٌ ولا يُسْتَأْذَنونَ وَهُمْ شُهودُ
فإنكَ لو رأيت عبيد تيم وتَيْماً قلتَ : أيُّهُمُ العَبيدُ ؟

لأبى هفان فى التهكم

ومن مليح التهكم والاستخفاف قول أبى هفان :

سُلَيْمانُ مَيْمُونُ النقيبة حازمٌ ولٰكنه وَقْفٌ عليه الهَزائمُ
ألاَ عَوِّذُوهُ مِنْ توَالِى فُتُوحهِ عَساهُ تَرُدُّ العَيْنَ عنه التَّمائمُ

وفيه يقول ابن الرومى :

قِرنُ سليمان قد أضرَّ به شَوْقٌ إلى وجهـِـهِ سيتلفهُ
كَمْ يَعِدُ القرنَ باللقاء ؟ وكَمْ يكذب فى وعدهِ ويخلفه ؟
لاَ يَعْرِفُ القِرْنُ وَجْهَهُ ، وَيَرَى قَفَاهُ مِنْ فَرسَخٍ فَيَعْرِفُهُ

أخذ معنى البيت الأخير من قول الخارجى وقد قال له المنصور : أى أصحابى كان أشد إقداماً فى مبارز تـكم ؟ فقال : ما أعرف وجوههم ، ولـكن أعرف أقفاءهم ، فَقُلْ لهم يدبروا لأعرف .

أجود الهجاء

وأجود ما فى الهجاء أن يسلب الإنسان الفضائل النفسية وما تركب من بعضها مع بعض ، فأما ما كان فى الخِلْقَة الجِسْمية من المعايب فالهجاء به دون ما تقدم ، وقدامة لا يراه هجوا البتة ، وكذلك ما جاء من قبل الآباء والأمهات من النقص والفسادِ لا يراه عَيباً ، ولا يعد الهجو به صوابا ، والناس ــ إلا من لا يُعَدُّ قِلَّةً ــ على خلاف رأيه ، وكذلك يوجد فى الطباع [وقد جاء] ما أكد ذلك من أحكام الشريعة .

لأبى الحسن فى الهجاء

وقد جمع السيد أبو الحسن أنواع الفضائل وسلبها بعض مَنْ رأى ذلك فيه صوابا ، فقال :

وَخِلٍّ لا سبيلَ لصَرْمِ حَبْلِهِ تَعرَّضَ لى بحَتْفِ فَرْطَ جهله
رَدِئُ الظنَّ لا يأوِى لخلق ولا يُؤْوَى إليهِ لسوء فعـله
يُصَدِّقُ هاجِساً يغْرى ، ويُغْرَى بتكذيبِ العيانِ لضعف عقله
ويشنأ كلَّ ذى دينٍ وعلمٍ وأصل ثابت لفساد أصْـلِهْ

وكان السيد أبو الحسن فى هذا الباب الذى سلكه من الهجاء كما قال وَلِىُّ إحسانه :

إذا لم تجد بدأً من القولِ فانتصف ... بحــد لسان كالحسام المهندِ
فقد يدفعُ الإنسانُ عن نفسه الأذى ... بِمقْوَلِه ، إن لم يدافعه باليــدِ

أهجى بيت — ويقال : إن أهجى بيت قاله شاعر قول الأخطل فى بنى يربوع رهط جرير :

قوم إذا استنبح الأضيافُ كَلْبَهُمُ ... قالوا لأمهم : بُولِى على النارِ

لأنه قد جمع فيه ضروبا من الهجاء : فنسبهم إلى البخل بوقود النار لئلا يهتدى بها الضيفان ، ثم البخل بإيقادها إلى السائرين والسابلة ، ورماهم بالبخل بالحطب ، وأخبر عن قِلتها وأن بَوْلَةً تطفئها ، وجعلها بولة عجوز ، وهى أقل من بولة الشابة ، ووصفهم بامتهان أمهم وابتذالها فى مثل هذا الحال ، يدل بذلك على العقوق والاستخفاف ، وعلى أن لا خادم لهم ، وأخبر فى أضعاف ذلك ببخلهم بالماء ، وقال محمد بن الحسين بن عبد الله الأنصارى : إنه رماهم فى هــذا البيت بالمجوسية ؛ لأن المجوس لا ترى إطفاء النار بالماء ، ولا أدرى أنا كيف هذا والبول ماء غير أنه ماء نجس قذر ؟

وقيل لبنى كليب : ما أشد ما هُجِيتُمْ به ؟ قالوا : قول البعيث :

أَلَسْتَ كليبياً إذا سِيمَ خطةً ... أقر كإقرارِ الحليلةِ للبعلِ
وكلّ كليبى صَحيفةُ وجههِ ... أذل لأقدام الرجالِ من النعلِ

وكان النابغة الجعدى يقول : إنى وأوسا لنبتدر بابا من الهجاء ، فمن سبق منا إليه غلب صاحبه ، فلما قال أوس بن مغراء :

لعمركَ ما تَبلى سرابيلُ عامرٍ ... من اللؤمِ مادامتْ عليها جلودُها

قال النابغة : هذا والله البيت الذى كنا نبتدره . والذى أراه أنا على كل

حال أن أشد الهجاء ما أصاب الغرض ، ووقع على النكتة ، وهو الذى قال خلف الأحمر بعينه .

(٨١) باب الاعتذار

وينبغى للشاعر أن لا يقول شيئاً يحتاج أن يعتذر منه ، فإن اضطره المقدار إلى ذلك ، وأوقعه فيه القضاء ؛ فليذهب مذهباً لطيفاً ، وليقصد مقصداً عجيباً ، وليعرف كيف يأخذ بقلب المعتذر إليه ، وكيف يمسح أعطافه ، و يستجلب رضاه ، فإن إتيان المعتذر من باب الاحتجاج و إقامة الدليل خطأ ، لا سيما مع الملوك وذوى السلطان ، وحقه أن يلطف برهانه مدمجا فى التضرع والدخول تحت عفو الملك ، و إعادة النظر فى الكشف عن كذب الناقل ، ولا يعترف بما لم يجنه خوف تكذيب سلطانه أو رئيسه ، ويُحِيلُ الكذب على الناقل والحاسد ، فأما مع الإخوان فتلك طريقة أخرى

للأصبهانى فى الاعتذار

وقد أحسن محمد بن على الأصبهانى حيث يقول:

العذرُ يلحقه التحريف والكذب وليس فى غير ما يرضيك لى أرب

وقد أسأتُ فبالنُّعْمَى التى سَلَفَتْ إلا مَنَنْتَ بعفوٍ ما لهُ سَبَبُ

لإبراهيم بن المهدى

وقال إبراهيم بن المهدى للمأمون فى أبيات يعتذر إليه :

اللهُ يعلمُ ما أقولُ فإنها جهد الألية من مُقِرٍ خاضع

ما إن عصيْتكَ والغواة تمدنى أسبابها إلا بِنِيَّةِ طائع

لأبى على البصير

وقد سلك أبو على البصير مذهب الحجة و إقامة الدليل بعد إنكار الجناية ، فقال :

لم أجْنِ ذنباً فإن زَعَمْتَ بأنْ جَنَيْتُ ذنباً فغيرُ معتمدِ

قد تطرفُ الكفُّ عينَ صاحبها ولا يرى قطعها من الرّشَدِ

للمؤلف

ونحوت أنا هذا النحو فقلت :

لاَ يُبْعِدِ اللهُ أبا جَعْفرٍ دعابة بتُّ على نارها
وإن تأذيتُ فيا ربما تأذّتِ العينُ بأشفارها

اعتذارات النابغة الذبيانى

وأجَلُّ ما وقع فى الاعتذار من مشهورات العرب قصائدُ النابغةِ الثلاثِ : إحداهن :

* يادار مَيَّةَ بالعَلْياء فالسَّنَدِ[١] *

يقول فيها :

فلا لعمرُ الذى مَسَّحْتُ كعبتَهُ وما هُريقَ على الأنصاب من جَسَدِ
والمؤمنِ العائذاتِ الطَّيْرَ تَمْسَحُها رُكبانُ مكة بين الغيل والسند
ما قلت من سَيِّءٍ مما أُتيتَ به إذاً فلا رفعت سَوْطِى إلىَّ يدى
إذاً فعاقبنى ربى مُعَاقَبةً قرَّتْ بها عينُ من يأتيك بالحسد[٢]
إلا مقالة أقوام شقيتُ بها[٣] كانت مقالتهم قرعاً على الكبد
نُبِّئْتُ أن أبا قَابُوسَ أوعدنى ولا قَرَارَ على زأر من الأسد

والثانية :

* أرَسْماً جديداً من سعاد تَجَنَّبُ[٤] *

(١) عجزه * أقوت وطال عليها سالف الأمد *
(٢) فى الديوان « بالفند » وهو بفتحتين : الكذب.
(٣) فى الديوان . . . . شقيت بهم . . . . قرعا على كبدى .
(٤) لم أقف على هذا المطلع فى نسخ الديوان التى بين يدى ، ولا فى غيرها من المراجع ، وكل ماوقفت على قوله أن بعض الرواة يذكر هذه الأبيات من كلمة أولها :

أتانى ــ أبيت اللعن ــ أنك لمتنى وتلك التى أهتم منها وأنصب
فبت كأن العائدات فرشن لى هراسا به يعلى فراشى ويقشب

يقول فيها معتذراً من مدح آل جفنة ومحتجا بإحسانهم إليه :

حلفتُ فلم أتركْ لنفسك رِيبةً ... وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عَنّى خيانةً ... لمبلغك الواشى أغشُّ وأكذب
ولكننى كنت امرأً لىَ جانِبٌ ... من الأرض فيه مُسْتَرَادٌ ومهرب
ملوك وإخوان إذا مالقيتُهم ... أحَكَّمُ فى أموالهم وَأُقَرَّبُ
كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم ... فلم تَرَهُمْ فى شكرهم لك أذنبوا
فلا تَتْرُكَنِّى بالوعيد كأننى ... إلى الناس مَطْلِىٌّ به القار أجرب
وذلك أن الله أعطاك سَوْرَةً ... ترى كل مَلْكٍ دونها يتذبذب
فإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ ... إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ منهن كوكب

والثالثة :

* عفا ذو حسى من فَرْتَنَا فالفَوَارِعُ[1] *

يقول فيها بعد قسم قدّمه على عادته :

أَتُكَلِّفُنَى ذَنْبَ امرىءٍ وتركته ... كذى العُرّ يُكْوَى غيره وهو راتع
فإن كنت لا ذو الضِّغْنِ عنى مُكَذَّبٌ ... ولا حَلِفِى على البراءه نافع
ولا أنا مأمون بقول أقوله ... وأنت بأمرٍ لا محالة واقع
فإنّك كالليلِ الذى هو مدركى ... وإن خِلْتُ أن المنتأى عنك واسع

وقد تعلق بهذا المعنى جماعة من الشعراء : قال سَلْمُ الخاسِرُ يعتذر إلى المهدى :

لسلم الخاسر

إنى أعوذ بخير الناس كلهم ... وأنت ذاك بما نأتى ونجتنب
وأنتَ كالدَّهر مَبْثُوثًا حَبَائلُهُ ... والدَّهْرُ لامَلْجَأَ منهُ ولاهرَبُ
ولو ملكتُ عِنان الريح أصْرِفُهُ ... فى كل ناحية ما فاتك الطلَب

(١) تمامه * فشطا أريك فالتلاع الدوافع *

فليسَ إلا انتظارى مِنكَ عَارِفةً فيهامِنَ الخَوفِ مَنْجاةٌ ومُنقلَبُ

لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر

وقال عبيدالله بن عبدالله بن طاهر :

وإنى وإنْ حَدَّثتُ نَفْسِى بأنّنى أفُوتُكَ إنَّ الرَّأىَ مِنِّى لَعازِبُ

لِأنَّكَ لى مِثلُ المكانِ المُحيطِ بى مِنَ الأرضِ أنى استَنْهَضَتْنى المذاهِبُ

للمتنبى

و إلى هذه الناحية أشار أبو الطيب بقوله :

ولكنكَ الدُّنيا إلىَّ حبيبة فما عنك لى إلا إليك ذَهابُ

إلا أنه حرّف الكلم عن مواضعه .

لعلى بن جبلة

واختار العلماء لهذا الشأن قول على بن جَبَلَة :

وما لامرئٍ حاوَلتَهُ عَنْكَ مَهربٌ ولو رفعته فى السماء المطالعُ

بلى هاربٌ لا يَهتَدِى لمكانه ظَلامٌ ولا ضوء من الصبح ساطعُ

لأنه قد أجاد مع معارضته النابغة ، وزاد عليه ذكر الصبح ، وأظنه اقتدى بقول الأصمعى فى بيت النابغة : ليس الليل أولى بهذا المثل من النهار وفى هذا الاعتراض كلام يأتى فى موضعه من هذا الكتاب ، إن شاء الله تعالى .

وأفضل من هذا كله قول الله تعالى : (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) .

لأبى الهول الحميرى

ووجد الفضل بن يحيى على أبى الهول الحميرى فدخل إليه فأنشده :

كسانى وَعِيدُ الفَضْلِ ثوباً من البلى و إيعاده الموتُ الذى ما لَهُ رَدُّ

ومالى إلى الفضل بن يحيى بن خالد من الجرم ما يخشى على مثله الحقد

فَجُدْ بالرِّضا لا أبتغى مِنكَ غيرَهُ ورأيُكَ فيما كنتَ عوَّدْتَنى بَعْدُ

فقال له الفضل على مذهب الكتاب فى تحرير الخطاب : لا أحتمل والله قولك : « ورأيك فيما كنت عودتنى » فقال أبو الهول : لا تنظر أعزك الله إلى قصر باعى ، وقلة تمييزى ، وافعل بى ما أنت أهله ، فأمر له بمال جسيم ، ورضى عنه ، وقرَّبه .

اشتقاق الاعتذار

وفى اشتقاق الاعتذار ثلاثة أقوال : أحدها أن يكون من المحو ، كأنك محوت آثار المَوْجِدَةِ ، من قولهم : اعتذرتِ المنازلُ ، إذا دَرَسَتْ ، وأنشدوا قول ابن أحمر :

أمْ كنتَ تعرفُ آياتٍ فقدْ جَعَلتْ
أطلالُ إلفِكَ بالوَدْكاء تعتذِرُ [1]

والثانى : أن يكون من الانقطاع ، كأنك قطعت الرجل عما أمسك فى قلبه من الموجدة ، ويقولون « اعتذرت المياه » إذا انقطعت . وأنشدوا للبيد :

شُهُورُ الصَّيفِ واعتذَرتْ إليه نطاق الشيطين من السماء

والقول الثالث : أن يكون من الحَجْرِ والمنع . . . قال أبو جعفر : يقال « عذرت الدابة » أى جعلت لها عِذَاراً يحجزها من [2] الشِّرَاد ، فمعنى « اعتذر الرجل» احتجز ، وعذرته : جعلت له بقبول ذلك منه حاجزاً بينه و بين العقوبة والعَتْبِ عليه ، ومنه « تَعَذَّر الأمر » احتجز أن يُقْضَى ، ومنه « جارية عَذْرَاء » .

---

(١) قبل هـذا البيت قوله :

بان الشباب وأفنى ضعفه العمر لله درك أى العيش تنتظر ؟ !
هل أنت طالب شىء لست مدركه ؟ أم هل لقلبك عن ألافه وطر ؟

(٢) العذار ـ بوزن الكتاب ـ اللجام ، ويحجزها : يمنعها ، والشراد ـ بكسر الشين ـ النفار والجماح .

(٨٢) — باب سيرورة الشعر ، والحظوة فى المدح

الذين سار شعرهم فى الجاهلية وفى الإسلام

كان الأعشى أسْيَرَ الناسِ شعراً ، وأعظمهم فيه حظاً ، حتى كاد يُنْسِى الناسَ أصحابه المذكورين معه ؛ ومثله زهير ، والنابغة ، وامرؤ القيس ؛ وكان جرير نابغة الشعر مظفراً ، قال الأخطل للفرزدق : أنا والله أشعر من جرير ، غير أنه رُزِقَ من سيرورة الشعر مالم أرزقه ، وقد قلت بيتاً لا أحسب أن أحدا قال أهجى منه ، وهو :

قَوْمٌ إذا اسْتَنْبَحَ الأَضيافُ كلبَهُم قالوا لِأمهم : بُولِى على النار

وقال هو :

والتَّغْلَبِىُّ إِذَا تَنَحْنَحَ لِلْقِرَى حَكَّ اسْتَهُ وتمثَّلَ الأمثالا

فلم يبق سقَّاء ولا أمة حتى روته . قال الأصمعى : فحكما له بسيرورة الشعر

بين الخليع وأبى نواس

قال الحسين بن الضحاك الخليع : أنشدت أبا نواس قولى :

وشاطرِىّ اللسان مختلق التـ ـكريه شابَ الْمُجُونَ بِالنُّسْكِ

إلى أن بلغت إلى قولى :

كأنما نُصْب كأسه قمرٌ يكرعُ فى بعض أنجم الفلك

فنفر نَفْرَة منكرة ، فقلت : مالك فقد أفزعتنى ؟ ! ! فقال : هذا معنى مليح وأنا أحقُّ به ، وسترى لمن يروى ، ثم أنشدنى بعد أيام :

إذا عبَّ فيها شاربُ القوم خلتهُ يقبّلُ فى داجٍ من الليل كوكبا

فقلت : هذه مصالتة يا أبا على ، فقال : أتظن أنه يروى لك معنى مليح وأنا فى الحياة ؟ ! !

وأنت ترى سيرورة بيت أبى نواس كيف نُسِىَ معها بيت الخليع ، على أن له فضل السبق ، وفيه زيادة ذكر القمر ، وقد أربى ابن الرومى عليهما جميعاً بقوله :

أبصَرْته والـكأسُ بينَ فَمٍ منهُ وبيْنَ أناملٍ خَمْسِ
وكأنها وكأنَّ شاربها قمَرٌ يُقبّل عارِضَ الشّمْسِ

ولـكن بيت أبي نواس أملأ للفم والسمع ، وأعظم هيبة في النفس والصدر ولذلك كأن أشيَرَ .

وفي زماننا هذا قوم يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمٌّ نوره ولو كره الكافرون.

وليس في العرب قبيلة إلا وقد نيل منها ، وهجيت ، وعيرت؛ فحط الشعر بعضاً منهم بموافقة الحقيقة ، ومضى صفحاً عن الآخرين لما لم يوافق الحقيقة ، ولا صادف موضع الرمية .

قبائل لم يحك هجاؤهم إلا قليلا

فمن الذين لم يحك فيهم هجاء إلا قليلا على كثرة ماقيل فيهم : تميم بن مرة ، وبكر بن وائل ، وأسد بن خزيمة ، ونظراؤهم من قبائل اليمن .

قبائل شقيت بالهجاء

ومن الذين شَقُوا بالهجاء ، ومزقوا كل ممزَّقٍ على تقدمهم في الشجاعة والفضل أحياء من قيس : نحو غني و باهلة ابني أعْصَر بن سعد بن قيس عيلان ، واسم غني عمرة، وكانوا موالي عامر بن صعصعة :يحملون عنهم الديات والنوائب، ونحو محارب ابن خصفة بن قيس عيلان،وجَسْر بن محارب[1] حالفوا بني عامر بن ربيعة بن عامر ابن صعصعة على لوم الحلف، ومن ولد طابخة بن إلياس بن مضر: تَيْم وعُكْل ابنا عبد مَنَاة بن أد ، صادف الشعر سباء كان وقع عليهم في الجاهلية ، فاستهانت العرب بهم ، وانطبع الهجاء فيهم ، وعدي بن عبد مَنَاة ، كانوا قطينا لحاجب بن زُرَارة، وأراد أن يستملـكهم مِلْكَ رق بسجل من قبل المنذر، والحَبِطَات،وهم ولد الحارث ابن عمرو بن تميم ، وسمي الحارث الحَبِطَ لعظم بطنه ، شبهوه بالجمل الحبط ، وهو الذي انتفخ بطنه مما رعى الخَلاَ ؛ فأما سَلُول فقد قال فيهم أبو زياد

(١) في الأصول « حسى بن مخالف » وجسر بن محارب : ابن حصفة بن قيس عيلان .

الكلابى : كرام من كرام من صعصعة ، لم يحالفوا ، ولم يدخلوا فى صَغَار ، وإنما كلمة عامر بن الطفيل التى حدثت هى التى شأمتهم ، يريد قوله « أغُدَّة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية » قلت : أما عامر فقد قال هذه الكلمة حين دعا عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، فما يصنع بقول السموأل بن عادياء :

ونحن أناسٌ لا نَرَى القتل سُبَّةً   إذا ما رأتهُ عامرٌ وسلول

والسموأل فى زمان امرىء القيس ، و بين امرىء القيس ومَبْعَثِ رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وأربع وخمسون سنة

الذين حظوا بالمديح

قال الجاحظ : لم تمدح قبيلة قط فى الجاهلية من قريش كما مدحت مخزوم قال : وكان عبد العزيز بن مروان أحظى فى الشعرِ من كثير من خلفائهم ، قالَ : ولم يكن من أصحابنا وخلفائنا أحظى فى الشعر من الرشيد ، وقد كان يزيد بن مزيد وعمه معن بن زائدة ممن أحظاه الشعر ، ولا أعلم فى الأرض نعمة بعد ولاية الله تعالى أعظم من أن يكون الرجل ممدوحاً .

قلت أنا : أما هذه النعمة فقد أحلها الله مضاعفة عند السيد أبى الحسن ، وقَرَنَهَا منه بالاستحقاق ، فقرت مقرها ، ونزلت منزلها المختار لها ، وأحْيا الله لبنى شيبان حمداً لم يَشُبْهُ ذم ، وجوداً لم يعقبه فدم ، مما زاد على يزيد ، ولم يَدَعْ لمعن معنى فى الجود .

وقال غيره : كان عمر [1] بن العلاء مُمَدَّحاً ، وفيه يقول بشار بن برد :

---

(١) هذا الاسم قد وقع فى ترجمة أبى العتاهية من الأغانى (٣ / ١٤٤ بولاق) مع الأبيات السابق ذكرها فى ص ١٣٣ من هذا الجزء « عمرو بن العلاء » بفتح العين وسكون الميم وبالواو الفارقة ، وكذلك وقع فى ترجمة بشار بن برد من الأغانى (٣ / ٤٦) مع ثانى وثالث هذه الأبيات وبيتين من أبيات أبى العتاهية ، وكذلك فى مهذب الأغانى (٨ / ٤٨) ولكن أبيات بشار لا تستقيم إلا على قراءته بضم العين و فتح الميم وبدون واو ، وهو الصواب . وانظر — مع ذلك — ص ١٨٤ الآتية

قل للخليفة إن جئته نصيحا ولاخيرَ فى المتهم
إذا أيقظتك حروبُ العدا فنبه لها عُمَراً ثم نم
فتى لا يبيتُ على دمنةٍ ولا يشرب الماء إلا بدم
دعانى إلى عمرٍ جوده وقول العشيرة بحرٌ خضم
ولولا الذى زعموا لم أكن لأمدحَ ريحانةً قبلَ شم

وله يقول أبو العتاهية :

إن المطايا تشتكيك لأنها قطعتْ إليك سباسباً ورمالا

وقد مرت الأبيات فيما مضى من هذا الكتاب (١) .

قال أبو عبيدة : لم يمدح أحد قط بنى كليب غير الحطيئة بقوله :

لعمرك ما المجاور فى كليب بمقْصِىٍّ الجوَارِ ولا مُضَاع
هم صنعوا لجارهم وليستْ يد الخرقاء مثل يد الصَّنَاع
ويحرم سِرُّ جارتهم عليهم ويأكل جارهم أنفَ القصاعِ

مفاخر تميم

كانت قيس تفتخر على تميم ؛ لأن شعراءهم تضرب المثل بقبائل قيس ورجالها فأقامت تميم دهراً لا ترفع رءوسها حتى قال لبيد :

أبنى كليب كيف تنفى جعفرٌ و بنو ضبينة حاضرو الأجباب
قتلوا ابن عروةَ ثم لطُّوا دونه حتى يحاكمهمْ إلى جوَّابِ
يرعون مُنخرق اللديد كأنهم فى العزأسرة حاجبٍ وشهاب
متظاهرى حلق الحديد عليهم كبنى زُرَارة أو بنى عتَّاب
قومٌ لهمْ عرَفَتْ معَدٌّ فضلها والفضل يعرفه ذوو الألباب

وقال زبان بن منصور الفزارى :

فَجَاءوا بِجَمْعٍ مُحْزَئِلٍّ كأنَّهُمْ بنو دارم إذ كان فى الناس دارم

---

(١) فى (ص ١٣٣) من هذا الجزء .

فتكلمت تميم وافتخرت ؛ لمكان هذين الشاعرين للعظيمى القدر فى قيس، فدل هذا على أن قيساً أحظى بالمدح من تميم .

الأوابد من الشعر

والأوابد من الشعر الأبيات السائرة كالأمثال ، وأكثر ما تستعمل الأوابد فى الهجاء ، يقال : رماها بآبدة ، فتكون الآبدة هنا الداهية ، قال الجاحظ : الأوابد الدواهى ، ومنه أوابد الشعر ، حكاه عن أبى زيد ، وحكى : الأوابد الإبل التى تتوحَّشُ فلا يُقدر عليها [إلا] بالعَقْر ، والأوابد الطير التى تقيم صيفاً وشتاء ، والأوابد الوحش ؛ فإذا حملت أبيات الشعر على ما قال الجاحظ كانت المعانى السائرة كالإبل الشاردة المتوحشة ، وإن شئت المقيمة على من قيلت فيه لا تفارقه كاقامة الطير التى ليست بقواطع ، وإن شئت قلت : إنها فى بعدها من الشعراء وامتناعها عليهم كالوحش فى نفارها من الناس .

المجدودون فى التكسب بالشعر

وأما المجدودون فى التكسب بالشعر والحظوة عندالملوك فمنهم : سَلْم الخاسر مات عن مائة ألف دينار ، ولم يترك وارثا ، وأبو العتاهية صنع :

تعالى الله يا سَلْمَ بْنَ عمرٍو أذلَّ الحِرْصُ أعْنَاقَ الرِّجَالِ

وكان صديقه جدا ، فقال سلم : ويلى من ابن الفاعلة ، جمع القناطير من الذهب ونسبنى إلى ماترون من الحرص ، ولم يرد ذلك أبو العتاهية ، لكن دعاه يعجبه كما يفعل الصديق مع صديقه ، ومروان بن أبى حفصة : أُعْطِىَ مائة ألف دينار غير مرات ، وكان لا يقابل إلا بالكثير ، وهو لعمرى من ذوى البيوتات ، والمعرقين فى التكسب بالشعر ، وكان أبو نواس محظوظا لا يدرى ماوصل إليه ، لكنه كان مِتلافا سَمْحاً ، وكان يتساجل فى الإنفاق هو وعباس بن الأحنف وصريع الغوانى ، وكان البحترى مَلِيًّا قد فاض كسبه من الشعر ، وكان يركب فى موكب من عَبِيده ، وأبو تمام فما وفى

حقه مع كثرة ما صار إليه من الأموال ؛ لأنه تبذل ، وجاب الأرض ، وكذلك أبو الطيب .

(٨٣) — باب ما أشكل من المدح والهجاء

لرجل سعدى

أنشدنا أبو عبد الله محمد بن جعفر النحوى ، عن أبى على الحسين بن إبراهيم الآمدى ، لرجل من بنى عبد شمس بن سعد بن تميم :

تَضيّفَنِي وَهْنا ، فقلت : أسابقى إلى الزاد؟ شَلَّتْ من يَدَىَّ الأصابع

ولم تلق للسعدىِّ ضيفا بقفرةٍ من الأرض إلا وَهْوَ عُرْيَانُ جائع

لم يرد أنه يسبق ضيفه إلى الزاد فيكون قد هجا نفسه ، ولكنه وصف ذئبا لقيه ليلا ، فقال : أتسبقنى أنت إلى الأكل ؟ أى : تأكلنى ، شَلَّتْ إذن أصابعى إن لم أرمك فأقتلك فآكل من لحمك ! ! ثم قال على جهة المثل : لم تلق للسعدى —يعنى نفسه— ضيفا بقفرة لا مستعتب فيها — يعنى الذئب — إلا وهو جائع ، يقول : فهو لا يبقى علىّ لأنى بغيته .

مما أنشدوه

ومن أناشيدهم :

أَبوكَ الذى نُبِّئْتُ يَحْبِسُ خيله غداةَ الندى حتى يَجِفَّ لها البقل

قالوا : إذا أخذ مطر الصيف الأرض أنبتت بقلا فى أصول بقل قد يبس فذلك الأخضر هو النشر ، وهو الغمير ، فتأكله الإبل ، فيأخذها السُّهام ، ولا سهام فى الخيل ؛ فعابه بالجهل بالخيل.

وقال الأصمعى : هذا القول خطأ ، بل مدحه بمعرفة الخيل ؛ لأن النشر مؤذٍ لكل من يأكله وإن لم يكن ثم سُهام.

لسليمان ابن قنة

وقال سليمان بن قنة فى رثاء الحسين بن على رضى الله عنهما ، وذكر آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويروى للفرزدق :

أُولَئِكَ قَوْمٌ لم يَشِيموا سُيُوفهم ولم تكثر القتلى بها حين سُلَّتِ

أراد لم يغمدوا سيوفهم إلا بعد أن كثرت بها القتلى ، كما تقول : لم أضرِبك ولم تجن على إلا بعد أن جنيت على ؛ وقال آخرون : أراد لم يسلوا سيوفهم إلا وقد كثرت بها القتلى ، كما تقول : لم ألقك ولم أحسن إليك إلا وقد أحسنت إليك ، والقولان جميعاً صحيحان ؛ لأنه من الأضداد .

كعم الكلب

ويُنشدون قول الآخر :

هَجَمْنَا عليه وهو يَكْعَمُ كَلْبَهُ دَعِ الْكَلْبَ يَنْبَحْ إنما الكَلْبُ نابح

ويروى :

دُفِعْتُ إليــهِ وهو يَخْنُقُ كلبه ألا كُلُّ كلبٍ لا أبالَكَ نابحُ

قالوا : فالمدح أن يكون إنما يكعمه لئلا يَعْقِرَ الضيوف ، والذم أن يكون ذلك لئلا ينبح فيدل عليه الضيف ، وأنا أعرف هذا البيت فى هجاء مَحْضٍ للراعى هجا به الحطيئة ، وهو :

ألا قبحَ اللهُ الحطيئةَ ؛ إنهُ على كل من وافى من الناس سالحُ

ويروى : * على كل ضيف ضافَه فهو سالح *

هجمنا عليــه وهو يكعم كلبهُ دع الكلبَ ينبح إنما الكلبُ نابح

بكيتَ على مَذْقٍ خَبيثٍ قَرَيْتَهُ ألا كلَّ عَبْسِيٍّ على الزَّاد نابحُ

تجنب الجيوش

وأنشدنا أبو عبد الله :

تَجَنَّبُكَ الجيوشُ أبا خبيبٍ وجاد على منازلكَ السحابُ

ويروى : * أبا ربيب * قال : إن دعا له فإنما أراد أن يعافى من الجيوش ، وأن يجوده السحاب فتُخْصِبَ أرضه ، وإن دعا عليه قال : لا بقى لك خير تطمع فيه الجيوش ، فهى تتجنب ديارك لعلمهم بقلة الخير عندك ، ويدعو على محلته بأن تدرسها الأمطار .

وقال غيره : معناه جاد على محلتك السحاب فأخصبت ولاماشية لك ، فذلك أشد لهمك وغمك ، ويكون المعنى حينئذ كقول الآخر :

وخَيْفاءَ ألقى الغيثُ فيها ذراعهُ فسرَّت وساءَتْ كُلَّ ماشٍ ومصرم

أي : فسرت كل ماشية ، وساءت كل فقير .

ابنة الجبل

وأنشد [أبو عبد الله] أيضا :

إني على كل إيسارٍ ومَعْسَرَةٍ أدعو حبيشاً كما تدعى ابنةُ الجبل

وروى المبرد : * أدعـــو حنيفا *

يريد أنه يجيب بسرعة كالصَّدَى ، وهو ابنة الجبل ، وقيل : ابنة الجبل الصخرة المنحدرة من أعلاه ، وزاد أبو زيد في روايته بيتاً ، وهو :

إنْ تدعه مَوْهِناً يَعْجَلْ بجَابَتِهِ عارِي الأشاجع يَسْعَى غَيْرَ مُشْتَمِلِ

فهذا مدح لا محالة ، ومنهم من حمله على قول الآخر :

كأنِّي إذْ دَعَوْتُ بني حنيفٍ دعوتُ بدعوتي لهمُ الجبالا

ورواه قوم : * بني ســـليم *

فمن مدح جعله كالأول في سرعة الإجابة ، ومن ذَمَّ نسبهم إلى الثقل عن إجابته مثل الجبال .

ومن الدعاء الذي يدخل في هذا الباب قول الآخر :

تَفرَّقَتْ غَنَمي يَوْماً فَقُلْتُ لها : يا رَبِّ سَلِّطْ عَلَيْهَا الذِّئْبَ وَالضَّبُعَا

قيل : إنهما إذا اجتمعا لم يؤذيا ، وشغَلَ كلٌّ واحدٍ منهما الآخَرَ ، وإذا تفرقا آذيا ، وقيل : إن معناه في الدعاء عليها قتل الذئب الأحياء عَيْثاً ، وأكل الضبع الأموات ، فلم يبق منها بقية .

الثنيان

ومن لطيف ما وقع في هذا الباب قول النابغة الذبياني :

يَصُدُّ الشاعر الثُّنْيَانُ عَنِّي صُدُودَ الْبَكرِ عن قرمٍ هجَانِ

لم يرد أنه يغلب الثنيان ولا يغلب الفحل ، لكن أراد التصغير بالذى هاجاه ، فجعله ثانياً ، وقال الآخر :

وَمَنْ يَفْخَرْ بمثل أبى وَجَدّى يَجِئْ قَبْلَ السَّوَابِقِ وَهْوَ ثَانِى

أراد وهو ثان من عنانه ؛ لأنه يسبق متمهلا .

ذو فجرات

وقال ابن مقبل :

إذَا الرفاقُ أَنَاخُوا حَوْلَ مَنْزِلِهِ حَلُّوا بذى فَجَرَاتٍ زَنْدُهُ وَارِى

قال ابن السكيت « بذى فجرات » أى : يتفجر بالسخاء والعطاء ، ويدل على ما قال ابن السكيت أن لصيق هذا البيت :

جَمٌّ الْمَخَارِجِ ، أَخْلَاقُ الْكَرِيمِ لهُ ، صَلْتِ الْجَبِينِ ، كَرِيمِ الْخَالِ مِغْوَارِ

بيضة البلد

ومما يمدح به ويذم قولهم «هو بيضة البلد» فمن مدح أراد بها أصل الطائر ، ومن ذم أراد أنها لا أصل لها ، قالت أخت عمرو بن عبدود فى على بن أبى طالب رضى الله عنه لما قتل أخاها :

لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرٍو غَيْرَ قاتله لَقَدْ بَكَيْتُ عَلَيْهِ آخِرَ الْأَبَدِ

لَكِنَّ قاتله من لَا يُعَابُ به وَكَانَ يُدْعَى قَدِيماً بَيْضَةَ الْبَلَدِ

فهذا مدح كما تراه .

وقال الراعى النميرى يهجو عدى بن الرقاع العاملى :

لو كُنْتَ مِنْ أَحَدٍ يُهْجَى هَجَوْتُكُمُ يَا ابْنَ الرِّقَاعِ ، ولكنْ لَسْتَ مِنْ أَحَدِ

تأبَى قُضَاعَةُ أن تَرْضَى لَكُمْ نَسَباً وابنا نزارٍ ؛ فأَنْتُمْ بَيْضَةُ الْبَلَدِ .

وأنشد بعض العلماء :

وَإنّى لَظَلَّامٌ لأشْعَثَ بائِسٍ عَرَانَا ، ومَقْرُورٍ بَرَى مَالَهُ الدَّهْرُ

وَجَارٍ قريب الدار ، أو ذى جِنَايَةٍ غريبٍ بعيد الدار ليس له وَفْرُ

يظنه السامع هجا نفسه بظلم هؤلاء الذين ذكر ، وإنما مدحها بأنه يظلم

الناقة فينحر فصيلها من غير علة ولا داء ، إلا لضيافة هذا الأشعث ، والجار ، وأشباههما .

(٨٤) — باب فى أصول النسب وبيوتات العرب

أصل الأنساب

أول النسب بعد آدم صلى الله عليه وسلم من نوح عليه السلام ؛ لأن جميع من كان قبله قد هلك ، وإنما بقى من ولده سام ، وحام ، ويافث ؛ فولد يافث الصقالبة وبرجان والأشبان ، وكانت منازلهم أرض الروم ، من قبل أن تكون الروم ، ومن ولده الترك ، والخزر ، ويأجوج ومأجوج ؛ وولَدَ حام كوش وكنعان وقوط ؛ فأما قوط فنزل أرض الهند والسند فأهلُها من ولده ، وأما كوش وكنعان فأجناس السودان ، والنوبة ، والزنج ، والزغاوة ، والحبشة ، والقبط ، وبربر من أولادهما ؛ وولد سام إرم ، وإرفخشذ ، فعاد بن عوص بن إرم ، وطَسْم وجديس ابنا لاوذ بن إرم ، ومنهم العماليق ، ومنهم فراعنة مصر ، والجبابرة ، ومنهم ملوك فارس ، وأجناس الفرس كلها ولده ، وثمود بن عابر بن سام ، وماش بن إرم نزل ببابل ، و[من] ولده نمرود الذى فرق الله الألسنة فى زمانه ، وهو الذى بنى الصَّرْحَ ببابل ، ويقال : إن النبط من ولد ماش ؛ ويقال أيضاً : إنهم من ولد شاروخ بن فالغ بن إرفخشذ ، والأنبياء كلها عربيها وعجميها ، والعرب كلها يمنيها ونزاريها من ولد سام بن نوح ، حكى جميع ذلك ابن قتيبة ، ومن ولد إرفخشذ قَحْطَان بن عابر بن شالخ بن إرفخشذ ، وكان مسكن قحطان اليمن ، فكل يَمَانٍ من ولده ، فهم من العرب العاربة . ويقطن بن عابر ، وهو أبو جرهم ، وكانت مساكن جرهم اليمن ، ثم نزلوا مكة فسكنوا بها ، وتزوج إسماعيل صلى الله عليه وسلم امرأة منهم ؛ فهم أخوال العرب المستعربة .

طبقات العرب

قال الزبير بن بكار : العرب ست طبقات : شعب ، وقبيلة ، وعمارة ،

و بطن ، وفخذ ، وفصيلة : فمضر شعب ، ور بيعة شعب ، ومَذْحج شعب ، وحمير شعب ، وأشباههم، و إنما سميت الشعوب لأن القبائل تشعبت منها، وسميت القبائل لأن العمائر تقابلت عليها : أسد قبيلة ، ودودان بن أسد عمارة ، والشعب يجمع القبائل ، والقبيلة تجمع العمائر ، والعمارة تجمع البطون ، والبطون تجمع الأفخاذ ، والأفخاذ تجمع الفصائل : كنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقُصى بطن ، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة .

أصل تسمية الطبقات

وزعم أبو أسامة — فيما رأيت بخطه ، وقد عاصرته ، وكان علامة باللغة — أن تأليف هذه الطبقات على تأليف خَلْقِ الإنسان الأرفع فالأرفع ؛ فالشعب أعظمها ، مشتق من شعب الرأس ، ثم القبيلة من قبلته ، ثم العمارة ، قال : والعمارة الصدر ، ثم البطن ، ثم الفخذ ، ثم الفصيلة ، قال : وهى الساق ، أو قال: المفصل ، الشك منى أنا ، قال : والحى أعظم من الجميع ؛ لاشتمال هذا الاسم على جملة الإنسان.

وأما أبو عبيدة فجعل بعد الفخذ العشيرة ،قال : وهم رَهْطُ الرجل دنيا[1] ثم الفصيلة ، قال : دون ذلك بمنزلة المفصل من الجسد ، وهم أهل بيت الرجل، فأما البيوتات فكل يدعى لنفسه سابقة ، و يمتُّ بفصيلة ، غير أن الصحيح ما اتفق عليه العلماء ، وتداوله الرواة .

قال ابن الكلبى : كان أبى يقول : العدد من تميم فى بنى سعد ، والبيت فى بنى دارم ، والفرسان فى بنى يربوع ، والبيت من قيس فى غطفان ، ثم فى بنى فزَارة، والعدد فى بنى عامر ، والفرسان فى بنى سليم ، والعدد من ربيعة [فى بكر] والبيت والفرسان فى شيبان .

---

(١) فى الأصول « دينا » بتقديم الياء على النون ، والصواب العكس كما أثبتناه

مفاخر القبائل

قال ابن سلام الجمحى : كان يقال : إذا كنت من تميم ففاخر بحَنْظَلة ، وكاثر بسعد ، وحارب بعمرو ، وإذا كنت من قيس ففاخر بغَطَفَان ، وكاثر بهَوَازن ، وحارب بسُلَيم ، وإذا كنت من بكر ففاخر بشيبان ، وكاثر بشيبان ، وحارب بشيبان .

فرسان العرب

قال أبو عبيدة : ليس فى العرب أربعة إخوة أنجب ولا أعد ولا أكثر فرساناً من بنى ثعلبة بن عُكابة ، وكان يقال له : الأغر والحصن ، وبنوه شيبان ، وذُهْل ، وقَيْس ، وتَيْم الله . قال:ففارس غطفان الربيعُ بن زياد العبسى ،وفاتكها الحارث بن ظالم ، وحاكمها هَرِمُ بن قطبة[1] ، وجوادها هرم بن سنان المرى ، وشاعرها النابغة الذبيانى ، وفارس بنى تميم عتيب[2] بن الحارث بن شهاب أحد بنى يربوع ، وفارس عمرو بن تميم طريف بن تميم العنبرى ، وفارس دارم عمرو ابن عمرو بن عُدُس ، وفارس سعد فَدَكِيُّ بن أعبد المنقرى[3] ، وفارس الرباب زيد الفوارس بن حصن الضبى ، وفارس قيس عامر بن الطُّفَيْل ، وفارس ربيعة بِسْطَام بن قيس .

بيوتات العرب

قال أبو عبيدة : بيوت العرب ثلاثة : فبيت قيس فى الجاهلية بنو فَزَارَةَ ومركزه بنو بدر ، وبيت ربيعة بنو شَيْبَان ، ومركزه ذو الجدين ، وبيت تميم بنو عبدالله بن دارم ، ومركزه بنو زُرَارَةَ .

وقال أبو عمرو بن العلاء : بيت بنى سعد اليوم إلى الزِّبْرِقَانِ بن بدر من بنى بَهْدَلَة بن عوف بن كعب بن سعد ، وبيت بنى ضبة بنو ضرار بن

(١) ويقال « قطنة » انظر (ج ١ ص ٥٣) .
(٢) هكذا فى النسخ ، والمحفوظ « عتيبة » وشاهده قول الشاعر :
إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم بعتيبة بن الحارث بن شهاب
(٣) هو جد عمرو بن الأهتم لأمه ؛ فإن أم عمرو ميا بنت فدكى بن أعبد .

عمرو[١] الرَّدِيم ، و بيت بنى عدى بن عبد مناة آل شهاب من بنى ملكان ، و بيت التَّيْمِ آل النعمان بن جساس .

قال : وليس فى العرب جساس غيره .

قال الجمحى : فارس اليمن فى بنى زُبَيْد عمرو بن معدى كرب ، وشاعرها امرؤ القيس ، و بيتها فى كِنْدَةَ الأشعثُ بن قيس ، لا يُخْتَلَفُ فى هذا ، وإنما اختلف فى نزار .

قال : وأما الشرف [ف] ما كان قبل النبى صلى الله عليه وسلم إلى عهد النبى واتصل فى الإسلام .

قال أبو إياس البصرى : كان بيت قيس فى آل عمرو بن ظَرِب العَدْوَانى ، ثم فى غَنِيٍّ فى آل عمرو بن يربوع ؛ ثم تحول إلى بنى بدر ، فجاء الإسلام وهو فيهم .

وقال الأخفش على بن سليمان: فرعا قريش هاشمٌ وعبدُ شمسٍ ، وفرعا غَطَفَان بدر بن عمرو بن لوذان وسيار بن عمرو بن جابر ، وفرعا حنظلة رياح وثعلبة ابنا يربوع، وفرعا ربيعة بن عامر بن صعصعة جعفر و بكر ابنا كلاب ، وفرعا قضاعة عُذْرَة والحارثُ بن سعد .

(٨٥)ـ باب مما يتعلق بالأنساب

قال أبو عبيدة : قريش البطاح قبائل : كعب بن لُؤَى بن عبد مناف قريش البطاح و بنو عبد الدار وعبد العزى ابنا قصى ، و بنو زُهْرَة بن كلاب ، و بنو مخزوم ابن يَقَظَة ، و بنو تَيْم بن مرة ، و بنو جُمَح وسَهْم ابنا هصيص بن كعب، و بعض بنى عامر بن لؤى .

---

(١) قال المجد فى القاموس : « والرديم كأمير : لقب فارس منهم » اهـ .

قريش الظواهر

وقريش الظواهر : بنو محارب والحارث ابنا فِهْرٍ ، وبنو الأَدْرَم بن غالب ابن فهر ، وعامة بنى عامر بن لؤى، وغيره .

ألقاب لبعض القبائل

كان يقال : مازن غسان أرباب الملوك ، وحمير أرباب العرب ، وكندة كندة الملك ، ومذحج مذحج الطعان ، وهمدان أحلاس الخيل ، والأزد أسد البأس ، والذُّهلان : أحدهما ذُهْل بن شيبان بن ثَعْلَبة ويشكر ، والآخر ضبيعة وذهل بن ثعلبة ، واللهزمتان : إحداهما عِجْل وتيم اللات ، والأخرى قيس بن ثعلبة وعَنَزَة، وكلهم من بكر بن وائل ، إلا عنزة بن أسد بن ربيعة .

الأحابيش

الأحابيش : حلفاء قريش .

قال ابن قتيبة : هم بنو المُصْطَلَق ، والحياء بن سعد بن عمرو وبنو الهُونِ بن خزيمة : اجتمعوا بذنب حُبْشِىّ ــ وهو جبل بأسفل مكة ــ فتحالفوا بالله إنا ليَدٌ على غيرنا ما سَجَا ليلٌ وأوضح نهار، وما أرسى حبشى مكانه[1] .

وقال حماد الراوية : إنما سُمُّوا بذلك لاجتماعهم ، والتحابش : هو التجمع فى كلام العرب .

المطيبون

المطيبون : عبد مناف ، وزهرة ، وأسـد بن عبد العزى ، وتَيْم ، والحارث ابن فهر ، وعبد قُصَى .

الأحلاف

الأحلاف : مخزوم، وعدى ، وسَهم ، وجُمَح ، وعبد الدار .

سموا أولئك المطيبين لخلوق صنعته لهم أم حكيم فغمسوا أيديهم فيه ، وسموا الآخرون أحلافا لجزور نحروه ، فدافوا دمه فى جَفْنة فمسوه بأيديهم ولعقوا منه، وسموا «الأحلاف» و«لعَقَة الدم» .

الأراقم

والأراقم : جُشَم ، ومالك ، وعمرو بن ثعلبة ، ومعاوية ، والحارث ، بنو بكر ابن حبيب بن غنم بن تغلب بن وائل ، قال أبو على : ليس فى العـــرب نصرانى غيره .

---

(١) فى القاموس « ووضح نهار ، ومارسا ــ إلخ » .

البراجم

البراجم : خمسة بطون من بنى حنظلة : قيس ، وغالب ، وعمرو ، وكلفة ، والظليم ، وهو مرة ؛ تبرجموا على إخوتهم يربوع وربيعة ومالك ، وكلهم أبوهم حنظلة بن مالك بن زيد مَنَاة بن تميم بن مرة .

الثعلبات

الثعلبات : ثعلبة بن سعد بن ضبة ، وثعلبة بن سعد بن ذبيان ، وثعلبة بن عدى بن فزَارة ، وأضاف إليهم قوم ثعلبة بن يربوع .

الرباب

والرِّبَاب : هم ضبة بن أدبن طابخة ، وتيم ، وعدى، وعوف ـ وهو عُكْل ـ وثور ، وكل هؤلاء بنو عبد مناة بن أدبن طابخة[1] :

الأجارب

الأجارب : خمس قبائل من بنى سعد : وهم ربيعة ، ومالك ، والحارث ـ وهو الأعرج ـ وعبد العُزّى ، وبنو حمار .

الحرام

والحرام : بنو كعب بن سعد بن زيد مناة .

الضباب

الضِّبَاب : هم أربعة بطون من بنى كلاب : ضب ، وضُبَيْب ، وحِسْل ، وحُسَيْل ، بنو معاوية بن كلاب ، كذا زعم ابن قتيبة وغيره.

وقال أبو زيد الكلابى ، وهو أعلم بقومه : هم بنو عمرو بن معاوية بن كلاب ، وإنما سموا ضِبَابا لأنه سمى فيهم ضبا وحسلا وحسيلا ، فقال له الرجل وسمعه يهتف بهم : والله ما بنوك هؤلاء إلا الضِّبَاب ، فسمو الضباب إلى اليوم ؛ قال: ومن ولد عمرو بن معاوية بن كلاب : ضب ، وحسل ، وحسيل ، وحصن ، وحصين ، وخالد ، وعبد الله ، وقاسط ، والأعرف ، وتولب ، وشقيق ، وخزيم ، والوليد، وزهير ؛ فهؤلاء أربعة عشر لم تدرج منهم قبيلة ، وهم الضباب جميعاً .

---

(١) قال المرتضى : « والرباب أحياء ضبة ، وهم تيم وعدى وعكل ، وقيل: تيم وعدى وعوف وثور وأشيب ، وضبة عمهم . سموا بذلك لتفرقهم؛ لأن الربة الفرقة ولذلك إذا نسبت إلى الرباب قلت ربى ، فترده إلى واحده » اهـ .

الأكابر

الأكابر : شيبان ، وعامر ، وجليحة ، والحارث بن ثعلبة بن عُكَابة بن صعب ابن على بن بكر بن وائل .

بنو أم البنين

بنو أم البنين : عامر ، والطفيل ، وربيعة ، وعبيدة ، ومعاوية ، بنو مالك ابن جعفر بن كلاب ، هكذا عند أكثر الناس ، قالوا : وإنما اضطرت[1] القافية لبيدا فجعلهم أربعة وهم خمسة .

وقال أبو زيد الكلابى ، وهو أعلم بقومه : إن بنى أم البنين أربعة ، كما قال لبيد : ابتكرت عامراً ملاعب الأسنة، وثنت بالطفيل ، ثم تزوج عليها مالك سلامة السُّلَمِيَّة ، فغارت أم البنين وأسقطت له ثلاثة ذكوراً، وجاءت السلمية بثلاثة ، وهم : سَلمى ، وعبيدة ، وعتبة ، فأدار مالك الحيلة على أم البنين وأخيها زهير بن خِدَاش بن زُهَير ، حتى أخذ عليها حكما بأن لا تسقط ولداً وكانت حاملا فولدت معاوية مُعَوذ الحكماء[2] ، ثم ثَنَّتْ بربيعة أبى لبيد ، وزعم بعض شيوخه الذين أخذ عنهم أنه سمى معوذ الحكماء[2] من أجل أنه تولى حكما عن زهير بن عمرو على أخيه ، وروى أبيات معاوية التى من أجلها سمى معوذ الحكماء[2]

---

(١) فى قوله أمام النعمان بن المنذر :

نحن بنى أم البنين الأربعه ونحن خير عامر بن صعصعه

وانظر هذا الكتاب (ج ١ ص ٥١) .

(٢) معوذ الحكماء ــ بالذال المعجمة كما فى اللسان عن ابن برى ــ والذى فى القاموس وشرحه « معود الحكماء » بالدال مهملة ، ومنهم من يلقبه « معود الحلماء » جمع حليم ــ باللام ــ ومنهم من يلقبه « معود الحكام » والذى فى القاموس أولى ، قال : « ومعود الحكماء لقب معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب لقوله :

أعود مثلها الحكماء بعدى إذا ما الحق فى الأشياع نابا

ونابا : عرا ، ويروى فى مكانه « بابا » أى ظهر ، ويروى فى مكان الشطر الثانى

* إذا ما معضل الحدثان نابا» اهـ ، مع زيادات من الشرح ، وفيه بعض تصرف وانظر ص ٢٢١ الآتية

لزيد الخيل ، غير أنه لم ينشد البيت ، وزعم أنه ناقض بها طُفَيْلاً الغَنَوِىّ .

قال : وأم البنين بنت عمرو بن عامر فارس الضحياء .

الكملة

الكملة : بنو زياد العَبْسِيُّون ، وهم : أنس الحفاظ ، ويقال له أيضاً : أنس الفوارس ، وعمارة الوَهَّاب ، وربيع الكامل ، وقيس الجواد ، هكذا رويناه عن النحاس .

قال المبرد وغيره : ربيع الحفاظ ، وعمارة الوهاب ، وأنس الفوارس ، أمهم فاطمة بنت الْخُرشُبّ الأنمارية .

الحمس

الحمس : هم قريش ، وكِنَانة ، ومن دَانَ بدينهم من بنى عامر بن صعصعة .

قال أبو عمرو بن العلاء : الحمس من بنى عامر : كلاب ، وكعب ، وعامر ، بنو ربيعة بن عامر بن صَعْصَعَة ، وأمهم مجد بنت التيم الأدرم بن غالب بن فِهر ابن مالك ، وكانوا فى الجاهلية يتحمسون فى أديانهم ، أى : يتشددون ، لا يستظلون أيام مِنًى ، ولا يدخلون البيوت من أبوابها ، وقيل : سموا حُمْساً لشدة بأسهم ، ويعدون فى الحمس خزاعة .

العنابس

العنابس : حرب ، وأبو حرب ، وسفيان ، وأبو سفيان ، وعمرو ، وأبو عمرو ، بنو أمية بن عبد شمس .

الأعياص

والأعياص : العاص ، وأبو العاص ، والعيص ، وأبو العيص ، و بنوه أيضا

أم القبائل

أم القبائل : هند بنت تميم بن مر ، ولدت لعمرو بن قاسط تيم الله ، وأوس الله ، وعائذ الله ؛ وولدت لوائل بن قاسط بكراً ، وتغلب ، وعنزا ، وقيل : هو عنز بن وائل ؛ وولدت لعبد القيس بن قصى اللبوك بن عبد القيس ، و بعضهم يقول : اللبوء — بالهمز و بضم الباء — وفيه اختلاف بين العلماء .

الجمرات

الجمرات · جمرات العرب : ضبة ، وعبس ، والحارث بن كعب ؛ سموا بذلك

لأن أمهم الخشناء بنت مرة — فيما يقال — رأت فى المنام كأن ثلاث جمرات خرجت منها ، قال أبو عبيدة : فطفئت من الجمرات اثنتان : الحارث بن كعب حالفت فى غطفان ، وضبة حالفت الرِّبَاب وسعداً ، و بقيت عبس لم تطفأ؛ لأنها لم تحالف ، وأما الجاحظ فجعلها عبسا وضبة ونميراً . وأشار إلى أن فى تميم جماراً أيضا ، وصرح بذلك المفضل ، فقال : هم بنو يربوع ، وزعم الفرزدق أنهم بنو العَدَوِية ، نسبو إلى أمهم ، وهم زيد ، وصدى ، وجشيش، بنو مالك بن حنظلة ، وزعم آخرون أنهم بنو مالك بن خزيمة بن تميم بن جل بن عبد مناة بن أد ، غير أنهم جعلوا مكان جشيش يربوعا ، ومن الجمرات التى لم تطفأ عند بعضهم نمير ابن عامر بن صعصعة ؛ لأنهم لم يحالفوا أحدا من العرب .

قال الجاحظ : إنما قيل لكل واحد منها جمرة ؛ لأنهم تجمعوا حتى قووا على عدوهم واشتدوا ، قال : و يجوز أن يكون اشتقاقه من تجمير المرأة شعرها ، وإذا ضفرته قيل : قد جمرته ؛ وقال غيره : ومنه « خف مجمر » إذا كان مجتمعا شديداً .

بنو طهية — طُهَية بنت عَبْشَمْس بن سعد ولدت لمالك بن حنظلة عوفا ، وأبا سود ، وربيعة ، وآخر لم يعرفه ابن الكلبى ، فعرف أولادها بها .

الموالى — والموالى ثلاثة : مولى اليمين المحالف ، ومولى الدار المجاور ، ومولى النسب ابن العم والقرابة . قال الشاعر :

نبئت حَيًّا على نعمان أفردهم ... مولى اليمين ومولى الدار والنسب

(٨٦) — باب ذكر الوقائع والأيام

قد أثبت فى هذا الباب ما تأدى إلىّ من أيام العرب ووقائعهم ، مستخرجة من النقائض وغيرها ، ولم أشرط استقصاءها ، ولا ترتيبها ؛ إذ كان فى أقل مما

جئتُ به غِنًى ومَقْنَع ، ولأن أبا عبيدة ونظراءه قد فرغوا مما ذكرتُ ؛ فإنما هذه القطعة تَذْكِرة للعالم ،وذَرِيعة للمتعلم ،وزينة لهذا الكتاب، ووفاء لشرطه ،وزيادة لحسنه ؛ إذ كان الشاعر كثيراً ما يؤتى عليه فى هذا الباب ، وأنا أذكر ماعلمته من ذلك فى أقرب ما أقدر عليه من الاختصار إن شاء الله تعالى ، بعد أن أقدم فى صدره أيامَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ووقائعه مع المشركين ؛ لأنه أولى بالتقديم ، وأحق بالتعظيم ، ولما أرجوه من بركة اسمه ، وافتتاح القصص بذكره .

مغازى الرسول

غزارسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة «وَدَّانَ» على رأس الحول من الهجرة، ثم غزا عيرا لقريش بعد شهر وثلاثة أيام ، ثم غزا فى طلب كرز بن حفص حتى بلغ بدراً بعد عشرين يوماً ، ووجهت القبلة إلى الكعبة ، ثم غزا «بدراً» فكان يوم بدر لستة عشر يوما خلت من شهر رمضان من سنة اثنتين ، وكان المشركون يومئذ تسعمائة وخمسين رجلا ، والمسلمون ثلاثمائة و بضعة عشر رجلا ، فقتل من المشركين خمسون رجلا ، وأسر أربعة وأربعون ، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا .

يوم أحد : كان فى شوال من سنة ثلاث . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعمائة ، وقريش فى ثلاثة آلاف ، وفى هذه الغزوة استشهد حمزة رضى الله عنه .

يوم الخندق : كان فى سنة أربع

يوم بنى المصطلق وبنى لَحيَان : فى شعبان سنة خمس

يوم خيبر : فى سنة ست

وكان يوم « مُؤْتَةَ » فى سنة ثمان ، واستشهد فيه زيدُ بن حارثة أمير الجيش ، وجعفرُ بن أبى طالب أمير الجيش أيضاً بعده ، وعبدُ الله بن رَوَاحة

أمير الجيش بعدهما ، وقام بأمر الناس خالد بن الوليد ، وكانوا فى ثلاثة آلاف .

وكان فتح مكة فى شهر رمضان سنة ثمان ، و بعده بخمس عشرةَ ليلةً سار إلى « حُنَيْن » فى شوال ، ولقىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع هَوَازِن فى شوال للنصف منه ، فانهزم المسلمون ، وكان الذين ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم : على بن أبى طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، والفضل بن العباس بن عبد المطلب ، وأبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وابنه، وأيمن بن عبد الله ، وهو ابن أم أيمن ، واستشهد ذلك اليوم ، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وأسامة بن زيد بن حارثة ، وفى رواية أخرى أبو بكر ، وعمر ، وعلى ، والعباس ، وابنه ، وأبو سفيان بن الحارث ، وربيعة بن الحارث ، وأيمن ، وأسامة ، ثم رجع الناس من وقتهم ، وانهزم المشركون ، وكانت الكَرَّةُ عليهم لله ولرسوله .

ثم سار بعد حنين إلى « الطائف » فحاصرها شهراً، ولم يفتتحها ، وغزا بلد الروم فى رجب من [سنة] تسع؛ فبلغ تَبُوكَ وبَنَى بها مسجداً ،وهو بها إلى اليوم وفتح الله عليه فى سفره ذاك « دومة الجندل » على يدى خالد بن الوليد ، وكل هذا مختصر من كتاب ابن قتيبة ، و إياه قلدت فيما رأيت من هذه الطريقة ، والله المستعان ، وعليه توكلت

يوم إراب

وهذه أيام العرب : يوم « إراب »[1] لبنى ثعلبة بن بكر : رئيسهم الهذيل بن حسان ، على بنى رياح بن يربوع ، وكان الهذيل سبى نساء بنى

(١) إراب ــ بكسر الهمزة و آخره باء موحدة ــ قال ياقوت : بخط اليزيدى فى شرحه « إراب ماء لبنى رياح بن يربوع بالحزن » ا هـ .

رياح ، والتقى بهم على إراب ، وقد سبقه بنو رياح إليه ليمنعوهم الماء ، حتى يرد السبى ، فأقسم الهذيل: لئن رددتم إليناماء فارغاً لنأتينكم فيه برأس إنسان تعرفونه فاشتروا منه بعض السبى ، وأطلق البعض .

يوم نعف فشاوة

يوم «نعف فشاوة» لبسطام بن قيس رئيس بنى شيبان ، على بنى يربوع ، قتل فيه بجيراً ، وأسر أباه أبا مليل ، ثم منَّ عليه من وقته ، وترك له مليلا ولده ، وكان أسيراً عنده بعد أن كَسَاه وحَمَله .

يوم نجران

يوم « نجران » للأقرع بن حابس فى قومه بنى تميم ، على اليمن ، هزمهم وكانوا أخلاطا ، وفيهم الأشعث بن قيس ، وأخوه ، وفيهم ابن باكور الكلاعى الذى أعتق فى زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه أربعة آلاف أهل بيت فى الجاهلية أسروا .

يوم الصمد

يوم « الصمد »[1] وهو يوم « طلح » ويوم « بلقا » ويوم « أود » ويوم «ذى طلوح» كلها يوم واحد ، لبنى يربوع على بنى شيبان ورئيسهم الحَوْفَزَانُ، ورئيس اللهازم أبجر بن بجير[2] العجلى .

يوم طخفة

يوم طخفة[3] وهو أيضاً يوم «ذات كهف» ويوم «خزاز» فى قول بعضهم لبنى يربوع والبراجم على المنذر بن ماء[4] السماء ، أسروا فيه أخاه حَسَّان ، وابنه قابوس ، وجُزَّتْ ناصية قابوس ، وكان ذلك بسبب إزالة الرِّدَافة عن عوف بن عَتَّاب الرياحى

---

(١) الصمد ـ بفتح فسكون ـ أصله الصلب من الأرض .

(٢) الذى فى ياقوت « أبجر بن جابر العجلى » .

(٣) طخفة ـ بكسر الطاء ويروى بفتحها مع سكون الخاء ـ موضع بعد النباج وبعد إمرة ، فى طريق البصرة إلى مكة ، وقال الأصمعى : جبل أحمر طويل حذاءه بئر ومنهل .

(٤) فى ياقوت « على قابوس بن المنذر بن ماء السماء » .

يوم المروت

يوم « المروت »[١] : وهو يوم « إرم الكلبة » نقًا قريب من النباج ، لبنى حنظلة وبنى عُمرو بن تميم ، على بنى قُشَيْر بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، وكان الذكر فيه لبنى يربوع ، وإنما أغارت قُشَيْر على بنى العنبر فاستنقذ بنو يربوع أموال بنى العنبر وسَبْيهم من بنى عامر

يوم مليحة

يوم « مليحة »[٢] : لبنى شيبان على بنى يربوع ، رئيسهم[٣] بِسْطَام بن قيس ، وقتل ذلك اليوم عصمة بن النجار ، فلما رآه بسطام قال : ما قتل هذا إلا لتشكل رجلا أمه ، فقتل به يوم العظالى قاتله الهبش بن المقعاس

يوم اللوى

يوم « اللوى » : لفزارة على هوازن ، وفيه قتل عبد الله بن الصمة ، وأثخن أخوه دُرَيْد

يوم الصليفاء

يوم « الصُلَيفاء[٤] » : لهوازن على فَزَارة وعَبْس وأشْجَع، وفيه قتل دريد بأخيه ذؤاب بن أسماء .

يوم الهباءة

يوم «الهَبَاءة[٥]» : وهو « يوم الجفر » لعبس على ذبيان ، وفيه قَتَلَ حذيفة

---

(١) المروت — بفتح الميم وتشديد الراء مضمومة وبعد الواو تاء مثناة — إسم نهر ، وقيل : واد بالعالية كانت فيه الوقعة .

(٢) مليحة — على زنة المصغر — اسم جبل فى غربى سلمى أحد جبلى طيىء ، وبه آبار كثيرة وملح ، وقيل : مليحة موضع فى بلاد تميم .

(٣) هو رئيس بنى شيبان .

(٤) كذا هو فى الأصول ، وليس صحيحا ، وإنما الصحيح « الصلعاء» بالعين المهملة بعد السلام . قال أبو محمد الأسود : أغار دريد بن الصمة على أشجع بالصلعاء وهى بين حاجر والنقرة » اه من ياقوت ، والصليفاء : يوم غير هـذا .

(٥) الهباءة : هى أرض ببلاد غطفان كانت فيها الموقعة ، وجفر الهباءة : مستنقع فى هذه الأرض .

ابن بدر وأخوه حَمَل سيدا بنى فزارة ، وكان يقال لحذيفة «ربّ معدّ» .

يوم عراعر

يوم «عُرَاعِر[(١)]» : لعَبْس على كلب وذبيان ، وفيه قتل مسعود بن مصاد الكلبى ، وكان شريفاً .

يوم الفروق

يوم «الفَرُوق[(٢)]» : بين عبس و بنى سعد بن زيد مناة ، قاتلوهم فمنعت عبس أنفسها وحريمها ، وخابت غارة بنى سعد ، وقيل لقيس بن زهير — و يقال عنترة — : كم كنتم يوم الفَرُوق ؟ قال : مائة فارس كالذهب ، لم نكثر فنفشل ولم نقل فنذل .

يوم شعب جبلة

يوم « شعب جَبَلَة[(٣)] » : قال أبو عبيدة : كانت عظام أيام العرب ثلاثة : يوم كلاب ربيعة ، ويوم شعب جبلة ، ويوم ذى قار ، وكان يوم الشعب لبنى عامر ابن صعصعة وعبس حلفائهم على الحليفين أسد وذبيان ، ورئيسهم حصن بن حذيفة يطلب عبساً بدم أبيه ، وتطلب عبس بن بغيض بدم أبيهم ، ومعهم معاوية بن الجون الكندى فى جمع من كِنْدَةَ ، وعلى بنى حنظلة بن مالك والرباب رئيسهم لقيط بن زُرارَة يطلب بدم مَعْبَد أخيه ، ويَثْرِبِىّ بن عدس ومعهم حسان بن الجون أخو معاوية — وقيل : بل عمرو بن الجون — وحسان بن مرة الكلبى أخو النعمان ابن المنذر لأمه .

وقال غير أبى عبيدة : كان مع أسد وذبيان معاوية بن شرحبيل بن الحارث

---

(١) عراعر — بضم العين المهملة الأولى وكسر الثانية — ماء لكلب بناحية الشأم .

(٢) الفروق — بفتح الفاء — عقبة دون هجر إلى نجد بين هجر ومهب الشمال .

(٣) قال ياقوت : « جبلة — بالتحريك — اسم لعدة مواضع : منها جبلة — ويقال : شعب جبلة — الموضع الذى كانت فيه الوقعة المشهورة بين بنى عامر وتميم وعبس وذبيان وفزارة . وجبلة هذه هضبة حمراء بنجد بين الشريف — مصغرا — والشرف . والشريف : ماء لبنى نمير . والشرف : ماء لبنى كلاب .

ابن عمرو بن آكل المُرَار ، ومع بنى حنظلة والرِّبَاب حسان بن عمرو بن الجون فى جموع من كندة وغيرهم ، فأقبلوا إليهم بوضائع كانت تكون مع الملوك بالحيرة وغيرها ، وهم الرابطة ، وجاءت بنو تميم فيهم لقيط وحاجب وعمرو بن عمرو ، ولم يتخلف منهم إلا بنو سعد ؛ لزعمهم أن صعصعة هو ابن سعد ، ولم يتخلف من بنى عامر إلا هلال بن عامر وعامر بن ربيعة بن عامر ، وشهدت غَنِى وباهلة وناس من بنى سعد بن بكر وقبائل بجيلة إلا قشيراً ، وشهدت بنو عبس بن رفاعة ابن بهثة بن سُلَيم عليهم مرداس بن أبى عامر أبو العباس بن مرداس صاحب النبى صلى الله عليه وسلم ، وشهد معهم نفر من عُكْل ، فانتهى جميع أهل الشعب يومئذ ثلاثين ألفاً .

وجاء الآخرون فى عدد لا يعلمه إلا الله عز وجل ، ولم يجتمع قط فى الجاهلية جمع مثله ، فانهزمت تميم وذبيان وأسد وكندة ومن لَفَّ لَفَّهم ، وقتل لقيط بن زرارة ، طعنه شريح بن الأحوص ، فحمل مرتَثًّا فمات بعد يوم أو يومين ، وأسر حسان بن الجون ، أسره طفيل بن مالك ، وأسر معاوية بن الحارث بن الجون ، أسره عوف بن الأحوص ، وجَزَّ ناصيته وأطلقه على الثواب ، ولقيه قيس بن زهير فقتله ، وأسر حاجب بن زرارة ، أسره ذو الرقيبة مالك بن سلمة بن قشير ، وأسر عمرو بن عمرو بن عدس ، أسره قيس بن المنتفق ، فجز ناصيته وأطلقه على الثواب ، وكان يوم جَبَلَة قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة ، وقبل مولد النبى صلى الله عليه وسلم بسبع عشرة سنة ، وفى يوم الشعب ولد عامر ابن الطُّفَيل ، هكذا روى محمد بن حبيب عن أبى عبيدة ، وروى عنه غيره خلاف ذلك .

يوم أقرن

يوم « أقرن » : لبنى عبس على بنى تميم ، وبخاصة بنى مالك بن مالك بن حنظلة ، وفى هذا اليوم قتل عمرو بن عمرو بن عدس ، وابنه شُرَيح ، وأخوه ربعى ، وكان عمرو بن عمرو خرج مراغماً للنعمان بن المنذر ، فسبى سبياً من

عبس ، وغنم مالا ، وابتنى بجارية من السبي ، فأدركته عبس فكان من أمره ما كان .

يوم زبالة

يوم « زُبَالَةَ »(1) : لبنى بكر بن وائل ، وبخاصة بنى شيبان وبنى تيم الله ، رئيسهم بسطام ، على بنى تميم ورئيسهم الأقرع بن حابس ، أسر فيه الأقرع وأخوه فراس ، واستنقذهما بِسْطَام بعد أن حكم عليه عمران بن مرة بمائة ناقة .

يوم جدود

يوم « جَدُود »(2) : لبنى سعد بن زيد مَنَاة على بنى شيبان ، وكانت بنو شيبان أغارت مع الْحَوْفَزَانِ على سعد ، فأدركهم قيس بن عاصم المنقرى فقتلهم واستنقذ ما كان فى أيديهم ، وفاته الحوفزان لصَلاَبة فرسه ، فلما يئس من أسره حفزه بالرمح فى خزانة وركه فانتقضت عليه بعد حول فمات منها ، وسالمت فى هذا اليوم بنو يربوع الجيش على تمر أخذوه منهم وفَضْل ثياب ، فعيرتهم بذلك منقر .

يوم الكلاب الأول

يوم « الكُلاَب الأول » لسلمة بن الحارث بن عمرو الْمَقْصُور ، ومعه بنو تغلب والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مَنَاة والصنائع ، على أخيه شرحبيل

---

(1) زبالة ـ بضم الزاى ـ قال ياقوت : « منزل معروف بطريق مكة من الكوفة ، وهى قرية عامرة بها أسواق بين واقصة والثعلبية ، وقال أبو عبيد السكونى : زبالة بعد القاع من الكوفة ، وقبل الشقوق ، فيها حصن وجامع لبنى عاضرة من بنى أسد . ويوم زبالة من أيام العرب ، قالوا : سميت زبالة بزبلها الماء أى بضبطها له ، وقال ابن الكلبى : سميت زبالة باسم زبالة بنت مسعر امرأة من العمالقة نزلتها » اهـ .

(2) جدود ـ بفتح الجيم ـ اسم موضع فى أرض بنى تميم قريب من حزن بنى يربوع على سمت اليمامة . . . وكانت فيه وقعتان مشهورتان عظيمتان من أعرف أيام العرب اهـ من ياقوت .

ابن الحارث بن عمرو ومعه بكر بن وائل بن حنظلة بن مالك و بنو أسد وطوائف من بنى عمرو بن تميم،والرباب ، ولم يكونوا ذلك الوقت يدعون رباباً ، وإنما تَرَبَّبُوا بعد ذلك ، حكاه أبو عبيدة ، فقُتِلَ شرحبيل : قتله أبو حنش عاصم ابن النعمان الُجشَمِى ، ويقال : بل قتله ذو الثنية حبيب بن عتبة الجشمى ، وكانت له سن زائدة ، وهو أخو أبِى حَنَشٍ لأمه ، وهى سلمى بنت عدى بن ربيعة أخى مهلهل ، هكذا أثبتوا فى هذا الموضع أن عديا أخو مهلهل ، ويسمى الـكُلاَب الأول أيضاً .

يوم الشعيبة (الـكلاب الثانى)

يوم « الشُّعيبة[1] » [وهو] يوم « الـكلاب الثانى » لبنى تميم و بنى سعد والرَّبَاب رئيسهم قيس بن عاصم ، على قبائل مَذْحِج فى نحو اثنى عشر ألفاً رئيسهم زيد بن المأمور ؛ وهو مذحج وهَمْدَان وكندة ، وفى هـذا اليوم أسر عبد يَغُوثَ بن وَقَّاص الحارثى وهُتِمَ فم سمى بن سنان ، بعـد أن أسر رئيس كندة : هَتَمَه قيس بن عاصم بقوسـه ، وانتزع عبد يغوث من يدى الأهتم بعـد أن شرط المأسور لموصله إليه مائة ناقة من الإبل ، انتزعته التيم فقتلوه برئيسهم النعمان بن جساس ، وكان قد قتل ذلك اليوم ، وسمى الـكلاب الثانى أيضاً .

يوم حر الدوابر

يوم « حر الدوابر » قال أبو عبيدة : لم يشهد من تيم إلا الرباب وسعد خاصة ، وكان الفَنَاءُ من الرباب لتيم ، ومن سعد لمقاعس

يوم ذى بيض

يوم « ذى بيض » أغار الحوفزان على بنى يربوع فسَبَى نسوةً منهم ، فأصرختهم بنو مالك بن حنظلة ، واستنقذوا النسوة ، وأسروا الحوفزان : أسره حنظلة بن بشر بن عمرو ، وزعم قوم أن هذا اليوم يوم « الصمد » .

(١) شعيبة ــ بضم ففتح ــ واد أعلاه من أرض كلاب ، ويصب فى سد قناة ، وهو واد

يوم عاقل

يوم « عاقل » : لبنى حنظلة على هَوَازن ، وفيه أسر الصِّمَّة بن الحارث ابن جُشَم ، وهزم جيشَهَ ، وكان الذى أسره الجعد بن الشماخ أحد بنى عدى ابن مالك بن حنظلة ، ثم أطلقه بعد سنة ، وجز ناصيته على أن يثيبه ، فأتاه على الثواب فضرب الصمة عنقه ، ثم غزا بنى حنظلة ثانية فأسره الحارث ابن نبيه المجاشعى ، وأَسَرَ رجلٌ من بنى أسد ـ وكان نزيلا عنـد ابن أخت له فى بنى يربوع ـ ابناً للصمة ، فافتدى الصمة نفسه ، ومضى مع ابن نبيه فى فداء ابنه إلى الأسدى النازل فى بنى يربوع ، فطعنه أبو مرحب بالسيف فقتله ؛ لشىء كان بينهما عند حرب بن أمية ، فبنو مجاشع تُعَيّر بذلك .

يوم عينين

يوم « عَيْنَيْنِ[1] » : لبنى نَهْشَل على عبد القيس ، منعوا فيه بنى منقر وقد خرجوا مُمْتَارِين من البحرين ، فعرضت لهم عبد القيس ، واستغاثوا ببنى نهشل فحموهم واستنقذوهم .

يوم قلهى

يوم « قَلَهَى[2] » : منعت بنو ثعلبة بن سعد بن ذبيان بنى عبس الماء وغلبتهم عليه بعـد إصلاح فَزَارة ومرة ، حتى أخذوا دية عبد العزى بن حِذَار ومالك بن سبيع .

يوم بزاخة

يوم « بُزَاخَةَ » : لبنى ضبة على محرّق الغسانى وأخيه فارس مودود ، أغاروا

---

(١) عينين ، هذا هو صوابه على صورة مثنى العين ، ووقع فى الاصول خطأ « عنين » قال أبو عبيدة : عينان بهجر ، وكان بها بين بنى منقر وعبد القيس وقعة وفيها يقول الفرزدق :

ونحن كففنا الحرب يوم ضرية ... ونحن منعنا يوم عينين منقرا

(٢) قلهى ـ بفتح القاف والـلام جميعا فيما ذكر سيبويه ، وذكر غيره أن الـلام ساكنة ـ وفيه وفى هذا اليوم يقول معقل بن عوف الثعلبى :

تظل دماؤهم ، والفضل فينا ، ... على قلهى ونحكم ماتريد

على بنى ضبة ببزاخة فى طوائف من العرب من إياد وتغلب وغيرهما ، فأدركتهم بنو ضبة ، فأسَرَ زيد الفوارس مُحرِّقا ، وأسر أخاه حنش بن الدلف ثم قتلاهما بعد أن هزم مَنْ كان معهما ، وقتل معهما عدة .

يوم إضم

يوم « إضم » : لبنى عائذة بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة على الحارث ابن مُزَيْقيَا الملك الغَسَّانى ، وهو عمرو بن عامر ، وفيهم كان ملك غسان بالشام فى آل جَفْنَةَ ... علثة بن عمرو بن عامر قتل بنى عائذة قتلا ذريعاً ، وفى ذلك اليوم قتل الرديم ، وحمل رجل من بنى عائذة بن قيس يدعى عامر بن ضامر فقال : والله لأطعنن طعنة كمنخر الثور النعر ، ثم قصد ابن مُزَيْقيا فطعنه فقتله وانهزم أصحابه هزيمة فاحشة ، وزعم قوم أن هذا اليوم هو يوم « بزاخة » .

وقال آخرون : بل كانت الواقعة مع عبد الحارث من ولد مزيقيا ، وزعم غيرهم أيضا أنها مع مزيقيا نفسه لا مع ولده ، والله أعلم .

يوم نقا الحسن

يوم « نقا الحسن[1] » : الحسن شجر ، سمى بذلك لحسنه ، وقيل : هو جبل ، وهـذا اليوم لبنى ثعلبة بن سعد بن ضبة على بكر بن وائل ، وفيه قتل بسطام بن قيس : قتله عاصم بن خليفة أخو بنى صباح ، وكان رجلا أعْسَرَ فأصاب صُدْغه الأيسر حتى نجم السنان من الصدغ الأيمن .

يوم أعيار

يوم « أعيار » : وهو أيضاً يوم « النقيعة » لبنى ضَبَّة على بنى عَبْس ، وفيه قتل عمارة الوهاب : قتله شرحاف بن المثلم بابن عم له يدعى مفضالا كان عمارة قد قتله وانطوى خبره ، ثم سمع شرحاف ذكره على شراب ، وكان حينئذ غلاما ، فحين شَبَّ أخذ بثأر ابن عمه يوم النقيعة ، واستنقذت بنو ضبة إبلها من عبس ، وقد كانوا أدركوهم فى المَرَاعِى .

---

(١) فى العقد الفريد (ج ٣ ص ٩٠) « بلقاء الحسن » .

يوم رحرحان الأول

يوم « رَحْرَحَان الأول » : غزا يثربى بن عُدُس بن زيد بن عبد الله بن دارم بنى عامر بن صعصعة ، وعلى بنى عامر قريط بن عبيد بن أبى بكر ، وقتل يثربى .

يوم رحرحان الثانى

يوم « رحرحان الثانى » : لبنى عامر بن صعصعة ، ورئيسهم الأحْوَصُ ، على بنى دارم ، وفى ذلك اليوم أسر مَعْبَد بن زُرَارة : أسره عامر بن مالك وأخوه طفيل وشاركهما فى أسره رجل من غنى يقال له : أبو عميرة عصمة بن وهب وكان أخا طفيل من الرضاعة ، وفى أسرهم مات معبد ، شَدُّوا عليه القِدَّ و بعثوا به إلى الطائف خوفا من بنى تميم أن يستنقذوه ، كان هذا كله بسبب قتل الحارث بن ظالم المرى من مرة بن سعد بن ذبيان خالدَ بن جعفر غدراً عند الأسود بن المنذر — وقيل : عند النعمان — والتجائه إلى زرارة بن عدس ، فلما انقضت وقعة رَحْرَحَان جمع لَقِيط بن زُرَارة لبنى عامر وألَّبَ عليهم ، وكان بين يوم رحرحان وغزوة جَبَلة سنة واحدة

يوم ضرية

يوم «ضَرِيَّة» : اختلفت سعد والرباب على بنى حنظلة ، وكان بنو عمرو ابن تميم حالفوا بكر بن وائل ، فضاقت حنظلة بسعد والرباب ، فساروا إلى عمرو ابن تميم فردوهم وحالفوهم ، ثم جمعوا لسعد والرباب ورئيسُهم يومئذ ناجية بن عقال ، ورئيس سعد والرباب قيس بن عاصم ، فقال ابن خفاف لسعد والرباب : مَنْ لعيال عمرو وحنظلة إن قتلتم مقاتلتهم ؟ قالوا : نحن ، قال : فمن لعيالكم إن قتلوا مقاتلتكم ؟ قالوا : هم ، قال : فدعوهم لعيالهم وليدعوكم لعيالكم ، وتكلم الأهتم بمثل ذلك ورجال من أشراف سعد ، وساروا إلى عمرو وحنظلة إلى النسار من حمى ضرية ، فأجابهم ناجية بن عقال والقعقاع بن معبد بن زرارة وسنان بن علقمة بن زرارة إلى الصلح ، وأبى ذلك مالك بن نُوَيْرة

يوم النسار

يوم « النِّسَار » : وذلك أن عامر بن صَعْصَعَة ومن معهم من هوازن

انتجعوا بلاد سعد والرباب ، وهم يمتون إليهم برحم ؛ لأنهم يزعمون أن صعصعة أبا عامر هو ولد سعد بن زيد مناة بن تميم .

وقال آخرون : إنما غضبوا على سعد لما أنهب المعزى بعكاظ ، فلحق ببنى أمه ولد معاوية بن بكر وهوازن ، وكان سعد قد فارقها بعد أن ولدت له صعصعة وتزوجها معاوية بن بكر فضمن سعد والرباب الأهتم ، واسمه سنان بن سمى بن سنان ، وقيل : سمى بن سنان ، وضمن هوازن مرةبنهبيرة ، فسرقت خيل لذى الرقيبة ، ثم اعترفت بعد ذلك بيسير عند الحنيف بن المنتجف ، اعترفها بعض القشيريين ، فضربه القشيرى على ساعده ، وضربه الحنيف فقتله ، فأرادت هوازن القَوَدَ من الرباب ، فطلبهم بذلك ضامن سعد ، فأبت الرباب إلا الدية، ففارقتهم سعد ، وضافرت هوازن، فاستمدت بنو ضبة أسداً وطيئاًوالتقوا بالنسار ، فعبأت أسد لسعد والرباب لهوازن ، فانهزمت هوازن وسعد ، وكان حامى أدبار بنى عامر يومئذ قدامة بن عبد الله القشيرى ، فرماه ربيعة بن أبىّ ــ وكان أرمى الناس ــ فقتله ، فلما رأت ذلك بنو عامر منه وسائر هوازن سألوا أن يؤخذ منهم شطور أموالهم وسلاحهم، وقبل ذلك منهم، وهذا يوم «المشاطرة»ويوم«النسار» وهو من مذكورات أيام العرب فى الجاهلية ، وبنو ضبة تزعم أن هذا اليوم قبل يوم جبلة ، وأبو عبيدة لا يشك أنه بعده .

يوم الصرائم

يوم « الصرائم »[1] وهو أيضاً يوم « الجرف » لبنى رياح بن يربوع على بنى عبس ، وفى هذا اليوم أسر الحكم بن مروان بن زنباع العبسى ، أسره

---

(١) قال ياقوت : الصرائم : موضع كانت فيه وقعة بين تميم وعبس ، قال شميت ابن زنباع :

وسائل بنا عبسا إذا ما لقيتها على أى حى بالصرائم دلت
قتلنا بها صبرا شريحا وجابرا وقد نهلت منا الرماح وعلت

أسيد بن حياة السليطى ، وأسر بنو حميرى بن رياح زنباعاً وفروة ابنى مروان ابن زنباع ، واستنقذوا جميع ما أصابته عبس لربيعة بن مالك بن حنظلة وأسرفوا ذلك اليوم فى قتل بنى عبس

يوم الغبيط

يوم « الغبيط[1] » : لبنى يربوع على بنى شيبان ، وكان الشيبانيون قد غزوهم متساندين على ثلاثة ألوية : الحوفزان بن شريك ، والأسود أخوه ، وبسطام بن قيس ، وفى هذا اليوم أسر الأسود بن الحوفزان وزيد بن الأسود ابن شريك ، وحمى بسطام آخر القوم حتى حسبوه قتل وأسر ، ورثاه بعضهم بمراثٍ عِدَّة ، وزعم سعد عن أبى عبيدة أن يوم الغبيط هو يوم « الأياد » ويوم « العُظَالى » سمى بذلك لأن بسطام بن قيس وهانىء بن قبيصة ومفروق ابن عمرو والحوفزان بن شريك تعاظلوا على الرياسة .

وقال مرة أخرى : لم يشهد الحوفزان يوم العظالى ، قال : وهو أيضاً يوم « الإفاقة » ويوم « أعشاش » ، ويوم «مليحة» .

يوم ذى نجب

يوم « ذى نَجَب »[2] لبنى يربوع على بنى عامر ، وفيه قتل حسان بن معاوية بن آكل المُرَار الملك ، قتله حشيش بن نمران من بنى رياح بن يربوع ، وقيل : بل هو عمرو بن معاوية — أعنى المقتول — وأما حسان فأسر ، أسره

---

(١) قال ياقوت : غبيط الفردوس : فى ديار بنى يربوع ، وفيه يوم لبنى يربوع دون مجاشع ، وفيه يقول جرير :

ولا شهدت يوم الغبيط مجاشع ولانقلان الخيل من قلتى نسر

(٢) قال ياقوت : نجب ــ بفتح أوله وثانيه ــ موضع كانت فيه وقعة لبنى تميم على بنى عامر بن صعصعة . . . وفيه يقول سحيم بن وثيل الرياحى :

ونحن ضربنا هامة ابن خويلد يزيد ، وضرجنا عبيدة بالدم

بذى نجب إذ نحن دون حريمنا على كل جياش الأحارى مرجم

دريد بن المنـــذر ، وكانت بنو عامر أتت به تغزو بنى حنظلة بن مالك بعد يوم جبلة بعام ، فتنحى لهم بنو مالك بن عمرو بن عمرو بن عدس ، وتركوا فى صدورهم بنى يربوع ، فهزمت بنو عامر هزيمة عظيمة ، وأسر يومئذ يزيد بن الصَّعِق ، وقتلت بنو نَهْشَل خليف بن عبيد الله النميرى ، وأسر زيد بن ثعلبة المصـــان ، وهو عامر بن كعب بن أبى بكر بن كلاب ، وقتل خالد بن ربعى النهشلى عمرو ابن الأحوص ، وكان رئيس بنى عامر يومئذ .

يوم خزازى

يوم «خزازى»[1] : ويقال : «خزاز» واختلف فيه : فقال قوم : كان رئيس نزار فيه كليب بن ربيعة . وقال آخرون : رئيسهم زرارة بن عدس ، وقال آخرون : بل ربيعة بن الأحوص ، وقد أنكر أبو عمرو بن العلاء جميع ذلك والذى ثبت عنده أنه قال : هو يوم لنزار على ملك من ملوك اليمن قديم لا يعرف مَنْ هو منهم ، وأما ربيعة فيقول : لا شك أنه يوم «خزاز» لكليب بن ربيعة على مَذْحِج وغيرهم من اليمن ، وكان بعقب يوم السُّلاَّن ، فجمع كليب جموع ربيعة ، فاقتتلوا ، فانهزمت مذحج والذين معهم من اليمن .

يوم ملزق

يوم «ملزق[1]» وهو أيضاً يوم «الشُّوَبَانِ» كان لبنى تميم على عبس

(١) قال ياقوت : ويوم خزاز كان بعقب السلان . وخزاز وكير ومتالع : أجبال ثلاثة بطخفة ، ما بين البصرة إلى مكة : فمتالع عن يمين الطريق للذاهب إلى مكة ، وكير عن شماله ، وخزاز بنحر الطريق ، إلا أنها لا يعر الناس عليها ثلاثتها .

(٢) ملزق — الأكثرون على كسر الميم وفتح الزاى وآخره قاف ، وفيه يقول أوس بن مغراء :

ونحن بملزق يوما أبرنا فوارس عامر لما لقونا

وعامر بعد أن قاتلتْ تميم جميع مَنْ أتى بلادها من القبائل ، وهم إياد ، وبلحارث بن كعب ، وكلب ، وطيء ، وبكر ، وتغلب ، وأسد ، كانوا يأتونهم حياً حياً فتقتلهم تميم وتنفيهم عن البلد ، وآخِرُ من أتاهم بنو عبس وبنو عامر .

يوم الوندة

يوم « الوندة » وهى بالدَّهْنَاء ، أغارت بنو هلال على نَعَمٍ بنى نَهْشَل . فأنزلتهم بنو نهشل بالوندة ــ وهى بالدهناء ــ فما أفلت من بنى هلال إلا رجل واحد يقال له : فراس طواف ؛ وقيل أواب .

يوم فيف الريح

يوم « فيف[1] الريح » ، ورأيته بخط البصرى « فيفا » مقصوراً فى مواضع من كتاب نوادر أبى زياد الكلابى .

وأنشد أبو زياد لعامر بن الطفيل :

وبالفَيْفَا من اليمن استثارت قبائل كان ألْبَهم فخاروا

الفيفا : جبل طويل من جبال خثعم يقال له : فيفا الريح ، وكان الصبر فيه والشرف لبنى عامر ، وقد اجتمعت كلها إلى عامر بن الطُّفيل على قبائل مَذْحِج ، وقد غزتهم مذحج فى عدد عظيم من بنى الحارث بن كلب وجَعْفى وزبيد وقبائل سعد العشيرة ومراد وصدى ونهد ، ورئيسهم الحصين بن يزيد الحارثى ، واستغاثوا بخَثْعَم ، فجاءت شهران وناهس وأكلب عليهم أنس بن مدرك ، وأسرع القتل فى الفريقين ، فافترقوا ، ولم تغنم طائفة منهم طائفة ،

(١) فيف الريح ــ بفتح الفاء وسكون الياء ــ بأعالى نجد . قال ياقوت : وهو يوم من أيامهم ، فقئت فيه عين عامر بن الطفيل ، فقأها مسهر الحارثى بالرمح ، وفيه يقول عامر :

لعمرى ، وما عمرى على بهين ، لقد شان حر الوجه طعنة مسهر

وفى هذا اليوم أصيبت عين عامر ، وزعم عبد الكريم وغيره أن يوم فيفا الريح هو يوم « طلح »

يوم ذى بهدى

يوم «ذى[1] بَهْدَى» : لبنى يربوع على تغلب ، أسروا فيه الهذيل ، قال جرير للأخطل يعيره بذلك :

هل تعرفون بذى بَهْدَى فوارسَنَا   يوم الهذيلُ بأيدى القوم مقتسر

يوم البشر

يوم « البشر[2] » لبنى كلاب على الأراقم ، ورئيس قيس يومئذ الجَحَّافُ ابن حكيم الكلابى، وكان سبب ذلك تعيير الأخطل إياه

يوم الرغام

يوم « الرغام » لبنى ثعلب بن يربوع ، ورئيسهم عتيبة بن الحارث بن شهاب ، أغار فيه على بنى كلاب فأطرد إبلهم ، وقتل يومئذ أخوه حنظلة ، قتله الحَوْثَرَةُ ، وأسر الحوثرة ذلك اليوم ، فدفع إلى عتيبة فقتله صبراً بأخيه ، وانهزم الكلابيون بعد أن أسرع فيهم القتل والأسر

---

(١) قال ياقوت : بهدى بوزن سكرى ، ويقال ذو بهدى : قرية ذات نخل باليمامة ، وقيل : هما موضعان متقاربان ، ويوم ذى بهدى من أيامهم . قال ظالم بن البراء الفقيمى :

ونحن غداة يوم ذوات بهدى   لدى الوتدات إذ غشيت تميم
ضربنا الخيل بالأبطال حتى   تولت وهى شاملها الكلوم
بضرب يلقح الضبعان منه   طروقته ويلجئه الأروم

(٢) البشر — بكسر فسكون — اسم جبل يمتد إلى الفرات من أرض الشام، وكانت بنو تغلب قد قتلت عمير بن الحباب السلمى ، فاتفق أن قدم الأخطل على عبد الملك بن مروان والجحاف بن حكيم جالس عنده ، فقال الأخطل :

ألاسائل الجحاف هل هو ثائر   بقتلى أصيبت من سليم وعامر

فخرج الجحاف مغضبا يجر مطرفه ، فكانت الوقعة بسبب ذلك . انظر ياقوت .

يوم المراميت

يوم «المراميت[١]» للضباب ، وهم معاوية بن كلاب ، على إخوته بنى جعفر ابن كلاب ، وكان هذا اليوم فى زمن عبد الملك بن مروان ، وكذلك يوم البشر

يوم الوقيط

يوم «الوقيـــظ» كان فى فتنة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وهو للهازم ، رئيسهم أَبْجَر بن بُجَيْر ، على بنى مالك بن حَنْظَلة ، فأما بنو عمرو بن تميم فأنذرهم ناشب بن بَشَامة العنبرى ، فدخلوا الدَّهْناء فنجوا ، وفى هــذا اليوم أسر ضرار بن القعقاع بن معبد ، أسره الفزر الشيبانى ورجل من تَيْم اللاَّتِ ، فجزَّتْ تيم اللات ناصيته ، وخَلَّته تحت الليل مضارة للفزر ، ويسمى أيضا هــذا اليوم يوم «الحنو»

يوم جزع طلال

يوم «جزع طلال» لفزارة ورئيسهم عُيَينة بن حِصْن بن حذيفة بن بدر ، على التيم وعدى وعكل وثور أطحل بنى عبد مناة ، وأخذ يومئذ شريك ابن مالك بن حذيفة من التيم وعكل أربعين امرأة ثم أطلقهن ، وأخذ خارجة ابن حصن نفرا من التيم فأطلقهم بغير فِدَاء ، ثم أغارت فزارة بعد ذلك عليهم ورئيسهم عيينة ، فقتلوا التيم قتلا ذَرِيعًا وأخذوا منهم مائة امرأة فقسمهن عيينة فى بدر ، وجعلهن مع أزواجهن الأسارى ينقلن الخرى هُونًا لهم ، ثم أطلق الجميع بعد ذلك بغير فداء ، وأغارت عليهم بعد ذلك بنو غيظ بن مرة ، ورئيسهم زيد ابن شيبان بن أبى حارثة ، فقتلوا التيم وعديًا وسبوا سبيًا كثيرًا لم يردوا منه شيئًا ، فنعَى هذا كله عليهم جرير

يوم أوارة الأول

يوم «أوارة» الأول : لتغلب والنمر بن قاسط مع المنذر بن ماء السماء ،

---

(١) قال ياقوت : هراميت آبار مجتمعة بناحية الدهناء ، كان بها يوم بين الضباب وجعفر ، زعموا أن لقمان بن عاد احتفرها ، وقال أبو أحمد : وكان القتال بسبب بئر أراد أحد أن يحتفرها .

على بكر بن وائل مع سلمة بن الحارث ، واسم سلمة معدى كرب ، وهو أيضاً الغَلْفَاءُ بعد قتل أخيه شرحبيل ، والذى قتل سلمة الغلفاء بن عمرو بن كلثوم ، عرفه فحمل عليه حتى قنّعه السيفَ ، وكان سبب هزيمة بكر بن وائل، وحلف المنذر يومئذ ليقتُلَنَّ بكراً على رأس أوارة حتى يلحق الدم بالحضيض ، فشفع لهم مالك بن كعب العجلى ، وقال للمنذر : أنا أخرجك من يمينك ،فصب المـاء على الدم فلحق الأرض ، و بر يمين المنذر ، فـكفّ عن القتل ، وكان مالك هذا رضيع المنذر

يوم أوارة الأخير

يوم « أوراة » الأخير : كان لعمرو بن هند على بنى دارم ، وذلك أن ابنا له كان مُسْتَرْضَعاً عند زرارة بن عدس اسمه أسعد ، وكان قد تَعَبَّنَّاه فعبث بناقة لأحد بنى دارم يقال له سويد ، فخرق ضَرْعَها ، فشد عليه فقتله ، وأتى الخبر زرارة ، وهو عند عمرو ، وكان كالوزير له ، فلحق بقومه وأدركه الموت على عقب ذلك ، فغزا عمرو بنى دارم ، وحلف ليقتلن منهم مائة ، فقتل منهم تسعة وتسعين ، وأتم المائة برجل من البَرَاجِمِ ، وفى حكاية أخرى أنه أحْرَقَهم، وبذلك تشهد مقصورة ابن دريد وشعر الطِّرِمَّاح ، وزعم أبو عبيدة أن من زعم أنه أحرقهم فقد أخطأ ، وذُكِرَ [له] شعر الطرماح ،فقال : لاعلم له بهذا ، واستشهد بقول جرير :

أينَ الذينَ بسيفِ عَمْرٍو قُتِّلوا أمْ أينَ أسْعَدُ فيكمُ المسترضَعُ

يوم زرود الأول

يوم « زرود » الأول : لشيبان مع الحوفزان ، على بنى عبس ، وأثْخِنَ ذلك اليوم عمارة الوهاب جِرَاحًا ، غير أنه سلم فلم يمت منها

يوم زرود الآخر

يوم «زَرُود» الآخر : أغار حزيمة بن طارق التغلبى على بنى يربوع ، فاستاق النَّعَمَ ، فأدركوه ، فأسره أُسيد بن حناءة السليطى وأنيف بن جبلة الضبى وكان ثقيلا فى بنى يربوع ، وردوا الغنيمة من أيدى التغلبيين

يوم تثليث

يوم « تثليث » غزت سُلَيم مع العباس بن مِرْدَاس مرادا ، فجمع لهم عمرو بن معدى كرب ، فالتقوا بتثليث ، فصبر الفريقان ولم تظفر طائفة منهم بالأخرى ، وفى ذلك اليوم صنع العباس قصيدته السينية ، وهى إحدى المنصفات .

يوم ذى علق

يوم « ذى علق » كان بين بنى عامر و بنى أسد ، وفى هذا اليوم قتل ربيعة أبو لَبِيدٍ .

يوم العذيب

يوم « العذيب » : كان لبنى سعد بن زيد مَنَاة وعَنَزة ، على مذحج وحمير ، وكان رأس اليمن الأصهب الجعفى ، بعث إليه النعمان ينكر عليه بلوغ سعد وعنزة العذيبَ ، فحشد لهم ولقيهم ، فقتلوه ، قتله الأحمر بن جندل ، وانهزمت اليمانية هزيمة شديدة ، وأخذ منهم مال كثير وسبى

يوم الصفقة

يوم « الصفقة » : وهو أيضاً يوم « المُشَقَّر » كان على بنى تميم بسبب عير كسرى التى كان يُجِيزُها هوذة بن على السحيمى ، فلما سارت ببلاد بنى حنظلة اقتطعوها برأى صعصعة بن ناجية جد الفرزدق ، فكتب كسرى إلى المُكَعْبِر عامِلِهِ على هَجَر فاغتالهم ، وأراهم أنه يعرضهم للعطاء و يصطنعهم ، فكان أحدهم يدخل من باب المشقر فينزع سلاحه و يخرج من الباب الآخر فيقتل ، إلى أن فَطِنُوا ، وأصفق الباب على مَنْ حصل منهم ؛ فلذلك سميت الصفقة ، وشفع هوذة فى مائة من أساراهم فتركوا له ، فكساهم وأطلقهم يوم الفصح وكان نصرانيا .

يوم ذى قار

يوم « ذى قار » : كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو لبنى بكر بن وائل وقادمة بنى شيبان و بعدهم بنو عجل ، على الأعاجم جنود كسرى ومن معهم من العرب رئيسهم إياس بن قبيصة الطائى ، وكان مكان النعمان بن المنذر بعد قتل كسرى إياه ، وتحت يديه طيىء و إياد وبَهْرَاء وقضاعة

والعِبَاد وتغلب والنمر بن قاسط ، قد رأس عليهم النعمان بن زرعة — أعنى النمر وتغلب — وكان سبب يوم « ذى قار » طلب كسرى تركة النعمان ابن المنذر، وكان النعمان قد تركها وترك ابنا له و بنتا عند هانىء بن قبيصة بن هانىء بن مسعود الشيبانى ، فمنع رسول كسرى من الوصول إلى ما طلب ؛ وكتب كسرى إلى قيس بن مسعود بن قيس بن خالد ، وكان عاملا له على الطف ، بأن يعين إياسا ، فأنفذ إلى قومه ليلا ، وحرّضهم على القتال ، وتواطأت العربُ على العجم ، فطارت إياد عن العجم حين تشاجرت الرماح كأنهم مهزمون ، وقتل الهامرز بن خلا بزر عامل كسرى ، وأسر النعمان ابن زرعة التغلبى ، و بسبب ماصنع قيس بن مسعود استدرجه كسرى حتى أتاه فقتله .

يوم الفجار الأول

يوم « الفجار » الأول : كان بين كنانة بن خزيمة و بين عجز هوازن ، بسوق عكاظ أول يوم من ذى القعدة ، و بذلك سمى فجارا ؛ لأنهم فجروا فى الشهر الحرام ، وكان سبب ذلك أن بدر بن معشر الكنانى كان يستطيل على من ورد عكاظ فيمد رجله و يقول : أنا أعز العرب ؛ فمن كان أعز منها فليضربها بالسيف فضربها الأحمر بن هوازن من بنى نصر بن معاوية ، وكان بين القبيلتين تشاجر دون أن يقع بينهما دماء ، وليس هذا الفجار عند ابن قتيبة ، وقد ذكره أبو عبيدة .

يوم الفجار الثانى

يوم « الفجار » الثانى : كان بسبب فتيان من غزية قريش وكنانة رأوا امرأة وَضِيئة من بنى عامر بن صَعْصعة بسوق عكاظ ، فسألوها أن تُسْفِر لهم ، فأبت ، فحلّ أحدهم ذيلها إلى ظهر درعها بشوكة ، فلما قامت انكشفت ، فقالوا : منعتنا رؤية وجهك وأريتنا دبرك !! فصاحت : يَالَ عامرٍ

فتهايجوا ، وجرت بين الفريقين دماء يسيرة ، حملها الحارث بن أمية ، وليس هذا الفجار أيضا عند ابن قتيبة ، وقد ذكره أبو عبيدة .

يوم الفجار الثالث

يوم « الفجار » الثالث : كان بسبب دَيْنٍ كان لأحد بنى نصر على أحد [بنى] كنانة ، فأتى النصرى بقرد فقال : من يبيعنى مثل هذا بمالى على فلان ؟ فمر أحد بنى كنانة فقتل القرد ، فتصايح الفريقان ، ثم سكنوا ، وكان هذا سبب الأمر العظيم من قتل البَرَّاض الكنانى عُرْوَةَ الرَّحَّال بن عيينة بن جعفر بن كلاب واتبعت هوازن قريشاً ، وكانوا قد أدركوهم بنخلة ، حتى دخلوا الحرم ، وجَنَّهم الليل ، ثم ألتقوا بعد حول فكانت الوقعة أيضا عليهم ، وهو يوم « شمطة » ثم التقوا أيضا بعد حول ، فكانت الكرة على هوازن وفى ذلك اليوم سموا بنى أمية العنابس لما فعل حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان من تقييدهم أنفسهم حتى يَظْفَروا أو يُقْتَلوا ، هذه رواية أبى عبيدة ، وأما ابن قتيبة فجعل ما جرى بين النصرى والكنانى هو الفجار الأول ، وقال فى آخره : ولم يكن بينهم قتال ، إنما كان ذلك القتال فى الفجار الثانى ، وجعل سبب الفجار الثانى أن عيينة بن حصن ابن حذيفة أتى سوق عكاظ فرأى الناس يتبايعون ، فقال : أرى هؤلاء مجتمعين بلا عهد ولا عَقد ، ولئن بقيت إلى قابل ليعلمن ، فغزاهم من قابل ، وأغار عليهم، قال : فهذا الفجار الثانى ، والحرب فيه بين كنانة وقيس ، والدائرة على قيس عيلان

يوم الجفار

يوم « الجفار » : للأحاليف فى ضبة و إخوتها الرباب وأسد وطيء ، على بنى تميم ، واستحر القتل يومئذ فى بنى عمرو بن تميم فقتلوا قتلا ذريعا .

يوم الصريف

يوم « الصريف » : كانت هذه الوقعة فى أيام الرشيد ، وهى لبنى ضبة على بنى حنظلة ، وفى ذلك يقول شاعرهم ، وأظنه من ولد جرير :

صَبَرَتْ كُلَيْبٌ لِلطِّعَانِ وَمَالِكٌ يوم الصريفِ وَفَرَّت الأحمال

و « الأحمال » : بطون من بنى حنظلة .

وقد أوفيت بما عقدت به فى صدر هذا الكتاب من إثبات ما انتهى إلىّ من أيام العرب ، مجتهداً فى اختصارها ، بريئا مما وقع فيها من الاختلاف ، وإنما عهدة ذلك على الرواة .

مفاخر بنى شيبان

وسأذكر من مفاخر بنى شيبان لمعاً أختم بها هذا الباب كما بدأته ؛ لأنى لو تقصّيت ذلك لأفنيت العمر دون تقضى الجزء الذى لا يتجزأ منه قلة ، لكنى ذهبت فيهم وفى سيدهم أبى الحسن مذهب أبى الطيب فى إخوتهم بنى تغلب وفى سيدهم على بن حمدان حيث يقول :

ليتَ المدائح تستوفى مدائحه فما كليب وأهل الأعصرِ الأول
خُذْ ماتراه ودَعْ شيئا سمعتَ به فى طلعة الشمس مايغنيك عن زُحَلِ

وفود ربيعة عند النعمان ابن المنذر

قال أبو عبيدة : قدم على النعمان بن المنذر وفود ربيعة ومضر بن نزار ، وكان فيمن قدم عليه من وفود ربيعة بسطامُ بن قيس والحوفزانُ بن شريك البَكْرِيّان ، وفيمن قدم عليه من وفد مصر من قيس عيلان عامر بن مالك وعامر بن الطُّفَيْل ، ومن تميم قيسُ بن عاصم والأقرعُ بن حابس ، فلما انتهوا إلى النعمان أكرمهم وحَبَاهم ، وكان يتخذ للوفود عند انصرافهم مجلساً : يطعمون فيه معه ، ويشربون ، وكان إذا وضع الشراب سقى النعمان، فمن بدىء به على أثره فهو أفضل الوفد ، فلما شرب النعمان قامت القينة تنظر إلى النعمان من الذى يأمرها أن تسقيه وتفضله من الوفد ، فنظر فى وجهها ساعة ثم أطرق ثم رفع رأسه وهو يقول :

اسْقِى وُفُودَكِ مما أنتِ ساقيتى فابْدَىْ بكاس ابن ذى الجدين بِسْطَام
أغَرُّ ينميه من شيبانَ ذو أنَفٍ حامى الذمارِ وعن أعراضها رامى
قد كان قيسُ بنُ مسعودٍ ووالدُه تبــدا الملوك بهم أيام أيامى
فأرضوا بما فعلَ النعمانُ فى مُضَرٍ وفى ربيعة من تعظيم أقوام
همُ الجماجمُ والأذنابُ وغيرهمُ فأرْضَوْا بذلك أو بُوءوا بإرغام

فقال عامر بن الطفيل :

كان التبابعُ فى دهرٍ لهم سلفٌ وابن المُرَار وأملاكٌ على الشام
حتى انتهى الملك من لخم إلى مَلك بادى السنان لمن لم يرْمِه رامى
أنحى علينـــا بأظفار فَطوَّقنا طَوْقَ الحمـــام بإتعاس و إرغام
إن يمكنِ الله من دَهْر نساء به نتركك وَخْدَك تدعو رَهْطَ بسطامِ
فانْظُرْ إلى الصَّيدِ لم يحموك من مضر هلْ فى ربيعةَ إن لم تدعنا حامى ؟؟

فأجابه بسطام بن قيس فقال :

لعمرى لئن ضَجَّتْ تميم وعامرٌ لقد كنتُ يوماً فى حلوقهمُ شَجَى
أرونى كمسعود وقيس وخالدٍ وعمرو وعبد الله ذى الباع والنَّدَى
وكانوا على أفناء بكر بن وائل ربيعا إذا ماسال سائلهم جدى
فَسِرْتُ على آثارهم غير تاركٍ وَصيَّتهم حتى انتهيت إلى مَدَى

مفاخرة عند معاوية بين عامرى وشيبانى

قال : وافتخر رجلان بباب معاوية بن أبى سفيان : أحدهما من بنى شيبان ، والآخر من بنى عامر بن صعصعة ، فقال العامرى : أنا أعد عليك عشرة من بنى عامر ، فعد علىّ عشرة من بنى شيبان ، فقال الشيبانى : هات إذا شئت ، فقال[1] العامرى : خذ عامر بن مالك مُلاَعب الأسنة ، والطفيل بن مالك قائد هوازن وفارس قرزل ، ومعاوية بن مالك معوذ الحكماء[2] ، وربيعة بن مالك فارس ذى علق ، وعامر بن الطُّفَيل ، وعلقمة بن عُلاَثة ، وعتبة بن سنان ، ويزيد بن الصَّعِق ، وأربد بن قيس ، وهو أربد الحتوف ، فقال الشيبانى : خذ قيس بن مسعود رهينة بكر بن وائل ، و بسطام بن قيس سيد فتيان ربيعة ، والحوفزان ابن شريك فارس بكر بن وائل ، وهانىء بن قبيصة أمين النعمان بن المنذر ،

(١) لم يذكر العامرى عشرة فيما ذكر المؤلف ، وإنما هم تسعة .
(٢) انظر ص ١٩٦ من هذا الجزء .

وقبيصة بن مسعود وافد المنذر ، ومفروق بن عمرو حاضن الأيتام ، وسنان بن مفروق ضامن الدمن ، والأصم عمرو بن قيس صاحب رءوس بنى تميم ، وعمران ابن مرة الذى أسر يزيد بن الصعق مرتين ، وعمرو بن النعمان ، فَتَلاَ حَيّاً ، فخرج حاجب معاوية فصادفهما على تلك الحال ، فدخل على معاوية فأخبره بالقضية ، فدعا بهما ، فلما دخلا عليه نَسَبهما ، فانتسبا له ، فقال معاوية : عامر أفخر هوازن ، وشيبان أفخر بكر بن وائل ، وقد كفا كما الله المؤنة ، هذان رجلان من غير قومكما عندى يحكمان بينكما : عدى بن حاتم ، وشريك بن الأعور الحارثى ، احكما بينهما ، ثم قال معاوية للشيبانى : من يعبى لعامر بن مالك ؟ قال الأصم بن أبى ربيعة الذى قتل من تميم مائة رجل على دم ، فقال معاوية للرجلين : ما تقولان ؟ قالا : رَجَحَ الأصم على عامر بن مالك ، قال معاوية : فمن يعبى لعامر ابن الطفيل ؟ قال الشيبانى : الحوفزان بن شريك ، قال الحكمان : رجح الحوفزان ، قال : فمن يعبى لعلقمة بن عُلاَثة ؟ قال الشيبانى : بسطام بن قيس ، فقالا : رَجَحَ بسطام ، قال معاوية : فمن يعبى لعتبة بن سنان ؟ قال الشيبانى : مفروق بن عمرو ، فقالا : رَجَحَ مفروق ، قال معاوية : فمن يعبى للطفيل بن مالك ؟ فقال الشيبانى : عمران بن مرة ، فقالا : رَجَحَ عمران بن مرة ، فقال معاوية : فمن يعبى لمعاوية بن مالك ؟ قال الشيبانى : عوف بن النعمان ، فقالا : رجح عوف بن النعمان ، قال معاوية : فمن يعبى لعوف بن الأحوص ؟ قال الشيبانى : قبيصة بن مسعود ، فقالا : رجح قبيصة ، قال : فمن يعبى لربيعة بن مالك ؟ قال : هانىء بن قبيصة ، فقالا : رجح هانىء بن قبيصة ، قال معاوية : فمن يعبى ليزيد ابن الصعق ؟ قال : سنان بن مفروق ، فقالا : رجح سنان بن مفروق ، قال : فمن يعبى لأربد بن قيس ؟ قال : الأسود بن شريك ، فقال معاوية للشيبانى : فأين نسيت قيس بن مسعود ؟ قال : أصلحك الله ! قيس ليس من هذه الطائفة فاتهم كانت بعدنا طويلا ، فقال العامرى فى ذلك :

أعدُّ إذا عددتُ أبا بَرَاء فـكان علا على الأقوام فضلا
وكان الجعفريُّ أبو عليّ إذا ما هاجتِ الهيجاء علاَّ
ووالده الذى حُدِّثتَ عنه طفيلٌ خَيرنا يَفَعاً وطِفلاَ
وكان معودُ الحـكم المبارِى رياحَ الصيف أعلى القوم فعلا
وقد أورتْ زنادُ أبى لبيدٍ ربيعةَ يومَ ذى عَلَقٍ فأبلى
وعلقمة بن أحوص كان كهفاً كلابيا رحيبَ الباع سَهْلاَ
وعُتْبَةُ والأغرُّ يزيدُ ، إنى رأيتهما لـكلّ الفخر أهلا
وعَوْفاً ثم أرْبَدَ ذا المعالى كفى بهما عليكَ ندى وَبَذْلاَ
أولئك من كلاب فى ذُرَاها وَخَيْرُ قرومها حَسَباً ونُبلاَ

فقال الشيبانى مجيباً له :

أعدُّ إذا عددتُ أبا خفافٍ وعمرانَ بن مرةَ والأصما
وهانئاً الذى حُدِّثْتَ عنه وكان قبيصةُ الأنفَ الأشمّا
ومفروقاً وذا النَّجَدَاتِ عَوْفاً وبِسْطَاماً ووالدَه الخِضَمّا
وأسود كان خير بنى شريك ولم يكُ قرنهُ كَبْشا أجمّا
أولئك من عكابة خير بكر وأكرم من يليكَ أباً وأمّا
وأفضل من ينصُّ إلى المعالى إذا ما حَصَّلُوا خالاً وعمّا
وأكثر قومهمْ بالشرِّ طَوْفاً وأبعد قومهمْ فى الخير هما

فقال معاوية للحكمين : ما تقولان ؟ قالا : شيبان أكرم الحيين ، فقال معاوية : وذاك قولى ، فأكرمهما وحَبَاهما ، وفضل الشيبانى على العامرى .

حديث ذى الجدين

قال : وكان من حديث ذى الجدين أن الملك النعمان قال : لأعطين أفضل العرب مائة من الإبل ، فلما أصبح الناس اجتمعوا لذلك ، فلم يكن قيس بن مسعود فيهم ، وأراده قومه على أن ينطلق ، فقال : لئن كان يريد بها غيرى لاأشهد ذلك

وإن كان يريدنى بها لأعْطِيَنّهَا ، فلما رأى النعمان اجتماع الناس قال لهم : ليس صاحبها شاهداً ، فلما كان من الغداة قال له قومه : انطلق ، فانطلق ، فدفعها إليه الملك ، فقال حاجب بن زرارة : أبيت اللعن ، ما هو أحق بها منى ، فقال قيس ابن مسعود : أنافره عن أكرمنا قعيدة ، وأحسننا أدب ناقة ، وأكرمنا لئيم قوم ، فبعث معهما النعمان من ينظر ذلك ، فلما انتهوا إلى بادية حاجب بن زرارة مروا على رجل من قومه ، فقال حاجب : هذا ألأم قومى ، وهو فلان بن فلان ، والرجل عند حَوْضه ومَوْرد إبله ، فأقبلوا إليه ، فقالوا : ياعبد الله ؛ دعنا نستقى ؛ فإنا قد هلكنا عطشا وأهلكنا ظهورنا ، فتجهم وأبى عليهم ، فلما أعياهم قالوا لحاجب: اسفر ، فسفر فقال : أنا حاجب بن زرارة ، فدعنا فلنشرب ، قال : أنت ؟ فلا مرحباً بك ولا أهلا ، فأتوا بيته ، فقالوا لامرأته : هل من منزل يا أمة الله ؟ قالت: والله مارب المنزل شاهد ، وما عندنا من منزل ، وراودوها على ذلك فأبت ، ثم أتوا رجلا من بكر بن وائل على ماء يورد ، قال قيس : هذا والله ألأم قومى ، فلما وقفوا عليه قالوا له مثل ما قالوا للآخر فأبى عليهم ، وهم أن يضربهم ، فقال له قيس بن مسعود : ويلك أنا قيس بن مسعود ، فقال له : مرحباً وأهلا ، أورد ، ثم أتوا بيته ، فوجدوا فيه امرأته وقدرها يئط ، فلما رأت الركب من بعيد أنزلت القدر و بردت ، فلما انتهوا إليها قالوا : هل عندك يا أمة الله من منزل؟ قالت : نعم أنزلو فى الرحب والسعة ، فلما نزلوا طعموا وارتحلوا ، فأخذوا ناقتيهما ، فأناخوها على قريتين للنمل ؛ فأما ناقة قيس بن مسعود فتضورت وتقلبت ثم لم تنز ، وأما ناقة حاجب فمكثت وثبتت ، حتى إذا قالوا قد اطمأنت طفقت هاربة ، فأتوا الملك فأخبروه بذلك ، فقال له : قد كنت ياقيس ذا جد ، فأنت اليوم ذو جدين فسمى بذلك ذا الجدين ، وقيل : إنما سمى بذلك لأسيرين أسرهما مرتين ، وقيل : بل سَبَقَ سَبْقَيْن ، هكذا جاءت الرواية .

والذى أعرف أنا أن ذا الجدين إنما هو عبد الله بن عمرو بن الحارث بن همام ،

سُمِّيَ بذلك لأنه اشترى كعب بن مَامَةَ من أيدى قوم من عنزة أسروه ، فكتم نفسه ، وعَرَفه عبدُ الله [وأظهر] أنه لم يشتره عن معرفة ، فوهبه كلَّ ما لقى فى طريقه من إبل أبيه بعُبْدانها ، وكانت سوداً وحمرا وصُهْباً ، و بلغ به إلى أبيه فأجاز له ذلك ، وأعطاه قبته بما فيها ، فلما أتى الحِيرَةَ قال بعض من رآه لصاحبه : إنه لذو جَدٍّ ، قال الآخر : بل هو ذو جَدَّين ، فسمى بذلك .

(٨٧) — باب فى معرفة ملوك العرب

وأنا أذكر فى هذا الباب من ملوك النواحى مَنْ أخذه حِفْظِى ، وبلغته روايتى ، على شريطة الاختصار والتلخيص ، بحسب الطاقة والاجتهاد ، إن شاء الله تعالى .

ملوك اليمن

ملوك اليمن : قال ابن قتيبة وغيره : أول من حُيِّى بتحية الملوك « أَبَيْتَ اللَّعْنَ » و « أنعم صباحاً » يَعْرُبُ بن قَحْطَان ، فولد له يشجب ، وولد ليشجب سبأ ، وقيل : إنه أول من سَبَى السبْىَ من ولد قحطان . واسمه عبد شمس ، وقيل : عامر ، وأول الملوك المتوجين من ولده حمير بن سبأ مَلَكَ حتى مات هرما ، ولم يزل الملك فى ولد حمير لا يعدو ملكهم اليمن ، حتى مضت قرون ، وصار الملك إلى الحارث الرائش ، وبينه و بين حمير خمسة عشر أباً ، فخرج من اليمن ، وغزا وجَلَبَ الأموال ، فرَاشَ الناسَ ، و بذلك سمى الرائش ، وفى عصره مات لقمان صاحب النسور ، وهو لقمان الذى بعثته عاد ليستسقى لها بمكة ، وكان مُلْكُ الرائش مائة وخمسة وعشرين سنة ، وذكر نبينا صلى الله عليه وسلم ، وأنشد ابن قتيبة :

وأحمدُ إسمهُ ، ياليْتَ أنى　　أعَمَّرُ بَعْدَ مبعثه بعام

ثم أبْرَهَةُ ذو المنار بن الرائش ، وكان ملكه مائة وثلاثا وثمانين سنة ، ثم أفريقس بن أبرهة ، وهو الذى بنى أفريقية ، و به سميت ، وكان ملكه

مائة وستين سنة ؛ ثم العبد بن أبرهة ، وهو ذو الأذعار ، سمى بذلك لقوم سباهم مُنْكَرِى الوجوه تزعم العرب أنهم النسناس ، وكان ملكه خمسا وعشرين سنة ، ثم هدهاد بن شرحبيل بن عمرو بن الرائش ، وهو أبو بلقيس ، ملك سنة واحدة ثم بلقيس إلى أن أسلمت على يَدَىْ سليمان صلى الله عليه وسلم ، ثم ناشر بن عمرو ابن يعفر بن شرحبيل ، وكان ملكه خمساً وثمانين سنة ، ثم شمر بن أفريقس ، وهو الذى أخرب مدينة سمرقند ، و به سميت سمركند ، ومعنى كند أخربها ، وهو الذى يسمى شمر يرعش ؛ لارتعاشٍ كان به ، وكان ملكه مائة وسبعا وثلاثين سنة ، ثم ابنه الأقرن بن شمر يرعش ، وكان ملكه ثلاثا وخمسين سنة ، ثم تُبَّع الأكبر بن الأقرن ، وكان ملكه مائة وثلاثا وستين سنة ، ثم ابنه كليكرب ؛ ولم يغز حتى مات ، وكان ملكه خمسا وثلاثين سنة ، ثم تبع بن كليكرب وهو أبو كرب تبع الأوسط، وكان يغزو بالنجوم ويعمل أعماله كلها بأحكامها ، ويقال : إنه آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو القائل فيه :

شهدتُ على أحمدٍ أنه	رسولٌ من الله بارى النَّسَمْ
فلو مُدَّ عُمْرِى إلى عُمْرِهِ	لَكُنْتُ وزيراً له وابْنَ عَمْ

ثم حسان بن تبع الأوسط ، وهو الذى غزا جديسا وقتل اليمامة التى سميت بها جَوُّ اليمامة ، ثم عمرو بن تبع أخو حسان ، وكان ملكه ثلاثا وستين سنة ، ثم عبد كلال بن مثوب ، وكان على دين عيسى يستر إيمانه ، وكان ملكه أربعا وسبعين سنة ؛ ثم تبع بن حسان وهو الأصغر ، وكان الحارث بن عمرو بن حُجْر جد امرىء القيس ابن أخيه ، وتبع هو الذى عقد الحلف بين ربيعة واليمن ، وهو الذى أدخل فى اليمن دين اليهود ثمانية وسبعين سنة ، ثم أخوه لأمه مرثد بن عبد كلال ، وقيل : مزيد ، وكان ملكه إحدى وأربعين سنة ، ثم ابنه ربيعة بن مرثد ، ملك سبعا

وثلاثين سنة ، ثم أبرهة بن الصباح ، ملك ثلاثا وسبعين سنة ، وكان يكرم معداً ويعلم أن الملك كائن في بني النَّضْرِ بن كنانة ، ثم حسان بن عمرو بن تبع بن كليكرب ، ملك سبعاً وثلاثين سنة ، ومدحه خالد بن جعفر بن كلاب لما شفّعه في أسارَى من قومه ، ثم ذو الشناتر ، واسمه نجيعة ينوف ، ولم يكن من أهل بيت المملكة ، لكنه من أبناء المَقَاول ، قتله ذو نُوَاس ، وكان غلاماً من أبناء الملوك حَسَنَ الوجه له ذؤابتان ، أراده ذو الشناتر على نفسه فوَجَأه بخنجر كان قد أعدّه له فقتله ، ورضيته حمير لنفسها لما أراحها من ذى الشناتر ، وذو نواس صاحب الأخدود الذى ذكره الله عز وجلّ ، وكان يهوديا ، فَخَدَّ الأُخْدُودَ لقوم من أهـــل نجران تنصروا على يد قَيْلٍ من آل جفنة ، وعلى أيام ذى نواس دخلت الحبشة اليمن ، واقتحم البحر منهزما فغرق ، وكان ملكه ثمانيا وستين سنة ، وقام بعده ذو جدن فهزمته الحبشة ، فاقتحم البحر فهلك ، وملك اليمن أبرهة الأشرم ، وهو الذى زحف إلى مكة بالفيل فهلك جيشه ، وابتلى بالأكلة ، فحمل إلى اليمن فهلك بها ، وملك بعده ابنه يكسوم فساءت سيرته باليمن ، فاستجاش سيف بن ذى يزن كسرى ، فجيّش له جيشاً عظيما ، وقد مات يكسوم ، وولى بعده مسروق أخوه ، وهو أيضاً أخو سيف لأمه ، فقتلته الحبشة ، وسبيت نساؤهم ، فقام سيف ملكا من قبل كسرى حتى غَدَره خُدّامه من الحبشة ولم يجتمع ملك اليمن لأحد بعده ، ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكشفت به الظلمة ، واهتدت بهديه الأمة ، واستقر الملك فى نصابه ، بعد الخلفاء الأربعة من أصحابه ، ممن وجبت طاعته ، وصحت بيعته ، وأنا واقف عند الشبهة ، قائل فى هذا بما قالت به الجماعة ، فقد تنازع اسم أمير المؤمنين من لا يصلح له ، ولا يسلم إليه ؛ فلذلك أعرضت عن ذكر من لم أذكره ، ولولا ذلك لذكرت كل واحد وزمانه ، ومنتهى عمره ، إلى وقتنا هذا ، وما توفيقى إلا بالله .

ملوك الشام

ملوك الشام : كانت بالشام سليح[(١)] وهم من غسّان ، ويقال : من قُضَاعة وأول ملوكهم النعمان بن عمرو بن مالك ، ثم من بعده ابنه مالك ، ثم من بعد مالك ابنه عمرو ؛ إلى خروج مُزَيْقيا - وهو عمرو بن عامر - من اليمن فى قومه من الأزد ، وسمى مُزَيْقيا لأنه كان يمزق كل يوم حلة لا يعود إلى لباسها ثم يهبها ، ويسمى عامر ماء السماء ؛ لأنه كان يجىء فى المَحْلِ فينوب عن الغيث بالرفد والعطاء [وهو] ابن حارثة[(٢)] الغطريف ، بن امرىء القيس البطريق ، بن ثعلبة البهلول ، بن مازن قاتل الجوع ، بن الأزد[(٣)] ، ومعه رجل يقال له جذع بن سنان ، فنزلوا بلاد عَكّ ، فقتل جذع ملك بلاد عَكّ ، فافترقت الأزد والملكُ فيهم حينئذ ثعلبة بن عمرو بن عامر ، فانصرف عامله فحارب جرهم فأجلاهم عن مكة ، واستولوا عليها زماناً ثم أحدثوا الأحداث ، وجاء قُصَى بن كلاب فجمع معداً - وبذلك سمى مُجَمِّعاً - واستعان ملك الروم فأعانه ، وحارب الأزد فغلبهم ، واستولى على مكة دونهم ، فلما رأت الأزد ضيق العيش بمكة ارتحلت ، وانخزعت خزاعة لولاية البيت - وبذلك سميت - فصار بعض الأزد إلى السَّوَاد فملكوا عليهم مالك بن فهم أبا جَذيمة الأبرش ، وصار قوم إلى يثرب ، وهم الأوس والخزرج ، وصار قوم إلى عمان ، وصار قوم إلى الشام ، وفيهم جذع بن سنان ، فأتاه عامل الملك فى خَرْج وجَبَ عليه فدفع إليه سيفه رهناً ، فقال الرومى : أدخله فى كذا من أم الآخر ، فغضب جذع وقَنَّعَه فقتله ، فقيل : خُذْ من جِذْع ما أعطاك[(٤)] ، وسارت مثلا ، وولوا الشأم ، فكان أولهم الحارث بن عمرو مُحَرِّق ، سمى بذلك لأنه أول من حَرَّقَ العرب فى ديارها ، وهو الحارث الأكبر ، ويكنى أبا شَمِر ، ثم ابنه الحارث بن أبى شمر الغسانى ، وهو الحارث الأعرج ، وأمه مارية ذات

(١) فى بعض الأصول « سليخ » بالخاء المعجمة .

(٢) فى بعض الأصول « جارية » .

(٣) فى الأصول « من الأزد بن الأزرد » وليس بشىء .

(٤) انظر المثل رقم ١٢٤١ من مجمع الأمثال للميدانى (١/٢٣١ بتحقيقنا) .

القُرْطَيْن ، وهى مارية بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية الـكندى ، وأختها هند الهنود امرأة حُجْر آكل المُرَار الكندى ، و إلى الحارث الأعرج زَحَفَ المنذر الأكبر فانهزم جيشه ، وقتل ، ثم الحارث الأصغر بن الحارث الأكبر ، وهو ولد الحارث الأعرج [ثم] عمرو بن الحارث ، وكان يقال له : أبو شمر الأصغر ، وله يقول نابغة بنى ذبيان :

عَلَيَّ لِعَمْرٍو نِعْمَةٌ بَعْدَ نعمةٍ لوالدِهِ لَيْسَتْ بذاتِ عقاربِ

والنعمان بن الحارث هو أخو الحارث الأصغر ، وله يقول النابغة :

هـــذا غُلَامٌ حَسَنٌ وجهُهُ مُسْتَقْبِلُ الخـيرِ سَرِيعُ التمام

وللنعمان هذا ثلاثة بنين : عمرو ، وحُجْر ، والنعمان ، ومن ولد الأعرج أيضاً المنذر ، والأيهم أبو جَبَلَة ، وجَبَلَة آخر ملوك غسان ، كان طوله اثنى عشر شبراً ، وهو الذى تنصَّرَ فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ملوك الحيرة

ملوك الحيرة : أولهم مالك بن فَهْم بن عمرو بن دَوْس بن الأزد ، مَلَكَ العرب بالعراق عشرين سنة ، ثم ابنه جَذِيمة بن مالك ، وهو الأبرش ، وهو الوَضَّاح ، كان ملـكه ستين سنة ، ثم عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة اللخمى ، ويقال : إن نصراً هو الساطرون صاحب الحضر ، وهو جرمقانى من أهل الموصل ، وقيل : بل هو من أشلاء قنص بن معد بن عدنان ، وعمرو هذا هو ابن أخت جذيمة الأبرش وفيه قيل : « شَبَّ عمرو عن الطَّوْق » ثم امرؤ القيس ابن عمرو بن عدى ، ويقال : بل الحارث بن عمرو ، و إنه الذى يدعى محرقاً ، ثم النعمان بن امرىء القيس ، وهو النعمان الأكبر الذى بنى الخوَرْنَق ، ثم المنذر بن امرىء القيس ، وهو المنـذر الأكبر بن ماء السماء أخو النعمان الأكبر ، ثم المنذر بن المنـذر ، وهو الأصغر ، ثم أخوه عمرو بن المنذر ،

وهو عمرو بن هند ، ويسمى محرقا ؛ لأنه حرق بنى تميم ، وقيل : بل حرق نخل اليمامة ، ثم النعمان بن المنذر صاحب النابغة الذبيانى ، وهو آخر ملوك لَخْمٍ ، ثم ولى بعده إياس بن قبيصة الطائى ، ثم ابنه أشهر ، واضطرب ملك فارس وضعفوا ، وكانت ملوك الحيرة من تحت أيديهم ، وأتى الله عز وجل بالإسلام فعز أهله بالنبى صلى الله عليه وسلم .

٨٨ — باب من النِّسْبَة

الأرحبية قال ابن دريد : الإبل الأَرْحَبِيَّةُ منسوبة إلى أرحب بن همدَان .

خفية أُسْدُ خَفِيّة[١] وأسد خَفَّان[٢] وهما أَجَمَتَان من العذيب على ليلة .

اليزنية الرماح اليزنية : منسوبة إلى ذى يزن الملك ، ويقال الأيزنية ، قال ذو الرمة :

أرين الذى استودعن سَوْدَاء قلبه هوًى مثل شكٍّ الأَيْزَنِيِّ النَّواجِمِ[٣]

هكذا جاءت الرواية فى هذا البيت .

الفرعونية الدروع تنسب إلى فرعون . قال راشد بن كثير :

بكل فِرْعَوْنيَّة لونُهَا مثل بصيص البغشة الغادية

---

(١) خفية — بفتح أوله وكسر ثانيه وياء مشددة مثناة — أجمة فى سواد الكوفة ، بينها وبين الرحبة بضعة عشر ميلا ، ينسب إليها الأسود ، فيقال : أسد خفية ، وانظر ياقوت .

(٢) خفان — بفتح أوله وتشديد ثانيه وآخره نون — موضع قرب الكوفة يسلكه الحاج أحيانا ، وهو مأسدة ، قيل : هو فوق القادسية ، وانظر ياقوت .

(٣) وقع فى الأصول * أين الذى . . . . . الأزانى النوجم * وهو تصحيف ، والتصويب عن الديوان .

وتنسب إلى داود ، وسليمان ، وتبّع ، ومحرق ، يريدون بذلك القِدَمَ وجودة الصنعة .

الزغرية

الكنائن الزُّغَرِيّة : منسوبة إلى زغر[1] وهو موضع بالشام تعمل فيه كنائن حمر مذهبة .

قال أبو دؤاد يصف فرساً :

كَكِنانة الزُّغَرِىِّ زَيَّنَها من الذهبِ الدلاص

السمهرى

السَّمْهَرِى : الرمح الشديد ، يقال : اسمهرَّ الأمر ، إذا اشتد .

الأتحمية

الأتحمية : برود منسوبة إلى أتحم[2] باليمن .

القعضبية

القَعْضَبِيّة : ضرب من الأسِنَّة ، تنسب إلى قَعْضَب ، رجل قشيرى كان يعملها ، وكذلك الشَّرْعَبِيّة أيضا . قال الأعشى :

وَلُدْنٌ من الخَطِّىِّ فيها أسنة ذخائر مما سَنَّ أبزى وشَرْعَبُ[3]

الشرعبية

والشرعبية أيضاً من الثياب الحارية فى قول امرىء القيس :

فلما دخلناها أضفنا ظهورنا إلى كل حارىٍّ جديدٍ مُشَطَّبِ[4]

قال الأصمعى : احْتَبَوْا بحمائل سيوفهم

---

(١) زغر ــ بضم ففتح ــ قرية بمشارف الشام .

(٢) وقال المرتضى : « قال شيخنا : والياء فى الأتحمى ليست للنسب على الأصح » اهـ .

(٣) فى الديوان (ص ١٣٨) « فيه أسنة »

(٤) فى الديوان (ص ٢٠) « فلما دخلناه » ومعنى « أضفنا » أسندنا . والمشطب : المخطط ، على مافسره أبو عبيدة .

قال أبو عبيدة : ما نسبت إلى الحيرة سيوف قط ، وإنما يريد الرحال كما قال الآخر : .

مشدودة برحال الحِيرَةِ الجُدُدِ[(١)]

العلافية والهالكى

قال ابن الكلبى : أول من اتخذ الرحال علاف ، وهو زبان بن جرم ؛ فلذلك قيل للرحال « علافية » وأول من عمل الحديد من العرب الهالك ابن مراد بن أسد بن خزيمة ؛ فلذلك قيل لبنى أسد القيون ، وقيل لكل حداد : هالكى .

قال أبو عبيدة : أجود السهام التى صنعتها العرب فى الجاهلية سهام بلام ، وسهام يثرب ، وهما بلدان قريبان من حجر اليمامة ، وأنشد الأعشى :

* بسهام يثرب أم سهام بلام *[(٢)]

السلوقية

سَلُوق : قرية باليمن ، وإليها تنسب الكلاب والدروع .

المشرفى

سيف مَشْرفى : منسوب إلى مشرف ، وهى قرية باليمن كانت السيوف تعمل بها ، وليس قول من قال إنها منسوبة إلى مشارف الشام أو مشارف الريف بشىء عند العلماء ، وإن قاله بعضهم .

السريجية

والسيوف السريجية : منسوبة إلى سريج[(٣)] رجل من بنى أسد ، قال محمد ابن حَبِيبَ : هو أحد بنى معرض بن عمرو بن أسد بن خزيمة ، وكانوا قيونا .

---

(١) هذا عجز بيت للنابغة الذبيانى ، وصدره * والأدم قد خيست فتلا مرافقها * والأدم : البيض من النوق . وخيست : ذللت ، فتلا : بانت عن آباطها مرافقها والرحال : جمع رحل ، وهو شبه السرج ، الجدد : جمع جديد .

(٢) لم يذكر ياقوت بلاما ، والذى فيه وفى القاموس وشرحه ، « وبيلمان موضع باليمن أو بالهند أو بالسند منه السيوف البيلمانية الجيدة » ا هـ .

(٣) فى الأصول « الشريجية . . . شريج » وهو تحريف .

الحطمية — الدروع الحُطَمية : منسوبة إلى حطمة بن محارب بن عمرو بن وديعة بن لُكيز[1] بن عبد القيس بن أفصى .

وقال ابن الكلبي : هى منسوبة إلى حطم ، وهو أحد بنى عمرو بن مرثد من بنى قيس بن ثعلبة ، وقال الأصمعى : لا أعلم ما تنسب إليه .

الخطية — الخط : جزيرة بالبحرين تنسب إليها الرِّمَاحُ ، قال الأصمعى : ليست تنبت الرماح لكن سفن الرماح ترفأ إلى هذا الموضع فقيل للرماح خطية .

الدارى — والمسك الدّارِىُّ : منسوب إلى دارين ، يعنى عطاراً بالبحرين ، زعم ذلك أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادى ، والأكثر المشهور عند العلماء أن دارين وغزة موضعان بالشام .

فحول إبل النعمان — عصفور ، وداعر ، وشاعر ، وذا الكلبتين: فحول إبل النعمان بن المنذر .

عصافير النعمان : أولاد عصفور الفحل ، وهو أكرم فحل للعرب فيما يزعمون .

العصفورية — والقسى العصفورية : منسوبة إلى رجل يسمى عصفوراً ، حكاه الجاحظ . وأنشد لابن بشير :

عطف السيات بواقعٌ فى بذلها ⁂ تُعزَى إذا نُسِبت إلى عصفور

يعنى قِسِىّ البندق ، دَعَا بها على حَمَام جاره .

الماسخية — ويقال للقسى أيضاً « الماسخية » منسوبة إلى رجل من الأزد ، واسمه ماسخة هو أول من عملها .

خيار الإبل — والإبل العسجدية والعبدية والعمانية : إبل ضربت فيها الوحوش .

والإبل الشذقمية والجديلية عن غيره منسوبة إلى شُذقم وجديل ، وهما فحلان مشهوران .

الأخدرية — الحمر الأخدرية: منسوبة إلى حمار يسمى أخدر ، وقيل : هو فرس كان لبعض الملوك ، أظنه أزدشير بن بابك ، توحش فضرب فى عانة[2] فنسبت أولاده إليه ، وهو

(١) فى الأصول « بكير » تصحيف (٢) العانة : القطيع من الأتن ، هنا .

أقرّ ما الحمر ، هكذا تزعم العرب ، والعادة أن يكون ما تناتج منه بغالا . فأما الكداد لحمار معروف من الوحشية نتج . قال الفرزدق :

حمار لهم من بنات الكداد يدهمجُ بالوطب والمزود

أول من أنتج البغال

والبغال يزعمون أن قارون أول من أنتجها ؛ فهى تُنْسَب إليه ، وقيل : بل أنتجها قبله أفريدون .

(٨٩) — باب العتاق من الخيل ومذكوراتها

مراكب رسول الله

وأول ما أذكر منها خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومراكبه ، جريا على العادة فى التبرك باسمه : فمنها « السَّكْب » وهو فرسه يوم أحد ، حكاه ابن قتيبة ، ومنها « المرتجز » وكان له فرس يقال «اللزاز » وفرس يقال له « الضرب» وفرس يقال له « اللجيف » وفرس يقال له «الورد» وزاد غير ابن قتيبة فرساً يقال له « سحة » وكانت بغلته يقال لها « دلدل » وكان حماره يقال له « يعفور » وكانت ركائبه « القُصْوَى » و « الجدعاء » و « العَضْبَاء » .

خيل غنى

وهذه خيل العرب : قال ابن قتيبة عن أبى عبيده : الغراب والوجيه ولاحق ومذهب ومكتوم كانت كلها لغنى .

أعوج

وقال أحمد بن سعد الكاتب : كان أعوج أولا لكندة ، ثم أخذته سليم ، ثم صار لبنى عامر ، ثم لبنى هلال ، قال ابن حبيب : رُكِبَ رطبا فاعوجت قوائمه وكان من أجود خيل العرب ، وأمه سبل كانت لغنى ، وأم سبل البشامة ، كانت لجعدة ، ولهم أيضا الفياض .

عدة من فحول الخيل

قال ابن سعد : والوجيه ولاحق لبنى سعد ، قيل : وحلاب لبنى تغلب ، والصريح لبنى نهشل ، وزعم غيره أنه كان لآل المنذر ، وجلوى لبنى ثعلب ابن يربوع ، وذو العقال لبنى رياح بن يربوع ، وهو أبو داحس ، وكان داحس

والغبراء لبنى زهير ، وهى خالة داحس ، وأخته من أبيه ذى العقال ، [و] قرزل والخطار والحنفاء لحذيفة بن بدر ، وهى أخت داحس من أبيه وأمه ، [و] قرزل آخر للطفيل بن مالك ، [و] حذفة لخالد بن جعفر بن كلاب ، وحذفة أيضا لصخر بن عمرو [بن] الشريد ، [و]الشقراء لزهير بن جذيمة العبسى ، والزعفران لبسطام ابن قيس ، والوديقة ونصاب وذو الخمار لمالك بن نويرة ، والشقراء أخرى لأسيد ابن حناءة السليطى ، والشيط لأنيف بن جبلة الضبى ، والوجيف لعامر بن الطفيل والكلب والمزنوق والورد له أيضاً ، والخنثى فرس لعمرو بن عمرو بن عدس ، [و]الهداج فرس الريب بن شريق السعدى ، وجزة فرس يزيد بن سنان المرى فارس غطفان ، والنعامة للحارث بن عُبَاد ، وابن النعامة لعنترة ، والنحام فرس السليك بن السلكة السعدى ، والعصا فرس جذيمة بن مالك الأزدى ، والهراوة لعبد القيس بن أفصى ، واليحموم فرس النعمان بن المنذر ، وكامل فرس زيد الخيل ، والربد فرس الحوفزان ، وأبو الزعفران فرس بسطام ، والعَرَادة[1] فرس الكَلْحَبة اليربوعى ، انتهى كلام أحمد بن سعد

وعن ابن دريد : القطيب فرس كان للعرب ، وكذلك البطين واللعاب والعباءة فرس حَرِّى بن ضَمْرَة النَّهْشلى ، والمدعاس فرس النواس بن عامر المجاشعى ، وصهباء فرس النمر بن تَوْلَب ، وحافل فرس مشهور ذكره حرب بن ضرار فى قوله :

كميت عبناة السراة نمى بها ... إلى نسب الخيل الصريح وحافل

والمسجدى لبنى أسد ، والشموس فرس زيد بن حذاق العبدى ، والضيف لبنى تغلب ، وهراوة الغراب فرس الريَّان بن حويص العنبرى ، يقال : إنها جاءت سابقة طول أربع عشرة سنة فتصدق بها على العُزّاب يتكسبون عليها فى السباق والغارات ، والحرون فرس تنسب إليه الخيل ، وكان لمسلم بن عمرو بن أسيد الباهلى

(١) فى الأصول « والجمالة » وانظر (أنساب الخيل ٤٧) .

والزليف فرس مشهور ، وهو من نسل الحرون ، ومناهب فرس تنسب إليه الخيل أيضا ، قال الشمردل .

لأخـــل ثلاثة سمينا مناهبا والضيف والحرونا

والعلهان: فرس أبى مليك عبد الله بن الحارث اليربوعى .

ومن أقدم الخيل زاد الراكب ، وَهَبه سليمان عليه السلام لقوم من الأزد كانوا أصهاره .

وكان إسماعيل عليه السلام أول من ذَلَّلَ الخيل وركبها ، وكانت قبلُ من سائر الوحوش .

(٩٠) — باب من المعانى المحدثة

بمن يصح الاستشهاد وسره

قال أبو الفتح عثمان بن جنى : المولدون يستشهد بهم فى المعانى كما يستشهد بالقدماء فى الألفاظ ، والذى ذكره أبو الفتح صحيح بين ؛ لأن المعانى إنما اتسعت لاتساع الناس فى الدنيا ، وانتشار العرب بالإسلام فى أقطار الأرض ، فمصّرُوا الأمصار ، وحضروا الحواضر ، وتأنقوا فى المطاعم والملابس ، وعرفو بالعِيَانِ عاقبة مادلتهم عليه بَدَاهَةُ العقولِ من فضل التشبيه وغيره ، وإنما خَصَصْتُ التشبيه لأنه أصعب أنواع الشعر ، وأبعدها متعاطًى ، وكل يصف الشىء بمقدار مافى نفسه من ضعف أو قوة ، وعجز أو قدرة ، وصِفَةُ الإنسان مارأى يكون لا شك أصْوَبَ مَن صفته مالم ير ، وتشبيهه ما عاين بما عاين أفضل من تشبيهه ما أبصر بمـا لم يبصر ، ومن هنا يحكى عن ابن الرومى أن لائمـاً لامه فقال : لم لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ قال : أنشدنى شيئاً من قوله الذى استعجزتنى فى مثله ، فأنشده فى صفة الهلال :

فانظر إليه كزورقٍ من فضةٍ قد أثقلتهُ حمولة من عَنْبَرِ

فقال : زدنى ، فأنشده :

كأنَّ آذَرْيُونَهَا والشَّمسُ فيه كاليَهْ

مَداهن من ذَهَبٍ فيها بقايا غاليهْ

فصـــاح : واغَوْثاه ، يا لله ، لا يكلفُ الله نفساً إلا وسعها ، ذلك إنما يصف ماعُونَ بيته ؛ لأنه ابن الخلفاء ، وأنا أى شىء أصف ؟ ولـكن انظروا إذا وصفت ما أعرف أين يقع الناس كلهم منى ؟ هل قال أحد قط أملح من قولى فى قوس الغمام :

صفة قوس قزح لابن الرومى

وقـــد نَشَرَت أيدِى السحاب مَطَارِفاً
على الأرض دُكْناً وهى خُضْرٌ على الأرض

يطرِّزُها قوسُ الغمام بأصفر ... على أحمرٍ فى أخضرٍ وَسْطَ مُبْيَضّ

كأذيال خَوْدٍ أقبلت فى غَلَائل ... مُصَبَّغة والبعض أقصرُ من بعض

وصف الرقاقة وخبازها له

وقولى فى قصيدة فى صفة الرقاقة :

ما أنس لا أنس خَبّازاً مررت به ... يَدْحُو الرقاقة وَشْكَ اللمح بالبصر

ما بين رؤيتها فى كفه كُرَةً ... وبين رؤيتها زهـــراء كالقمر

إلا بمقدار ما تَنْـــدَاحُ دائرة ... فى صفحة الماء يُرْمَى فيه بالحجر

وهذا كلام إن صح عن ابن الرومى فلا أظن ذلك أمراً لزمه فيه الدرك ؛ لأن جميع ما أراه ابن المعتز أبوه وجده فى ديارهم — كما ذكر أن ذلك علة للاجادة وعذر — فقد رآه ابن الرومى هنالك أيضاً ، اللهم إلا أن يريد أن ابن المعتز ملك قد شغل نفسه بالتشبيه فهو ينظر ماعون بيته وأثاثه فيشبه به ما أراد ، وأنا مشغول بالتصرف فى الشعر طالباً به الرزق : أمدح هذا مرة ، وأهجو هذا كرة ، وأعاتب هذا تارة ، وأستعطف هذا طوراً ، ولا يمكن أن يقع أيضاً عندى تحت هذا ، وفى شعره أيضاً من مليح التشبيه مادونه النهايات التى لا تبلغ ، وإن لم يكن التشبيه غالباً عليه كابن المعتز .

ولم أدُلَّ بهذا البسط كله على أن العرب خلت من المعانى جملة ، ولا أنها

أفسدتها ، لكن دلت على أنها قليلة فى أشعارها ، تكاد تحصر لو حاول ذلك محاول ، وهى كثيرة فى أشعار هؤلاء ، وإن كان الأولون قد نهجوا الطريق ، ونصبوا الأعلام للمتأخرين .و إن قال قائل : مابالكم معشر المتأخرين كلما تمادى بكم الزمان قلّت فى أيديكم المعانى ، وضاق بكم المضطرَبُ ؟ قلنا : أما المعانى فما قلّت غير أن العلوم والآلات ضعفت ، وليس يدفع أحد أن الزمان كل يوم فى نقص ، وأن الدنيا على آخرها ، ولم يبق من العلم إلا رَمَقُهُ معلقاً بالقدرة ، ما يمسكه إلا الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه .

تكثر المعانى كلما تقدم العصر

و إذا تأملت هذا تبين لك مافى أشعار الصدر الأول الإسلاميين من الزيادات على معانى القدماء والمخضرمين ، ثم مافى أشعار طبقة جرير والفرزدق وأصحابهما من التوليدات والإبداعات العجيبة التى لا يقع مثلها للقدماء ، إلا فى الندرة القليلة والفلتة المفردة ، ثم أتى بشار بن برد وأصحابه فزادوا معانى ما مرت قط بخاطر جاهلى ولا مخضرم ولا إسلامى ، والمعانى أبداً تتردد وتتولد ، والكلام يفتح بعضه بعضاً

منزلة ابن الرومى فى توليد المعانى

وكان ابن الرومى ضنيناً بالمعانى ، حريصاً عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن ، و يصرفه فى كل وجه ، و إلى كل ناحية ، حتى يميته ويعلم أنه لا مطمع فيه لأحد ، ثم نجد من بعده [مَنْ] لا ينتهيه فى فى الشعر ، بل لا يعشره ، قد أخذ المعى بعينه فولّد فيه زيادة ، ووجّه له وجهة حسنة ، لا يشك البصير بالصناعة أن ابن الرومى مع شَرَهه لم يتركها عن قُدْرة ، ولكن الإنسان مبنى على النقصان .

وسأورد عليك من معانى المتقدمين ، وأنظرها بأمثالها من أقوال المولدين لا أعْدُوهاَ ليتبين البرهان ، هذا ، على أنى ذممت إلى المحدثين أنفسهم فى أماكن من هذا الكتاب ، وكشفت لهم عَوَارهم ، ونعيت لهم أشعارهم ، ليس هذا جهلا بالحق ، ولا ميلا إلى بنيات الطرق ، لكن غضاً من الجاهل المتعاطى ، والمتحامل الجافى ، الذى إذا أعطى حقه تعاطى فوقه ، وادّعى على الناس الحسد ،

وقال : أنا ولا أحد ، وإلى كم أعيش لكم ؟ وأىُّ علم بين جنبى لو وجدت له مستودعاً ؟ فإذا عورض فى شعره بسؤال عن معنى فاسد أو مُتَّهم ، أو طولب بحجة فى لحنة أو شاذ ، أو نوظر فى كلمة من ألفاظ العرب مُصَحَّفة أو نادرة ، قال : هكذا أعرف ، وكأنما أعطى جوامع الكلم ، حاشَ لله ! وأستغفر الله ، بل هو العمى الأكبر ، والموت الأصغر ، وبأى إمامٍ يرضى ، أو إلى أى كتاب يرجع ، وعنده أن الناس أجمعين بضعة منه ، بل فضلة عنه ، فهو كما قال حَمّادُ عَجْرَدٍ فى يونس بن فروة :

أما ابنُ فروةَ يونسُ فكأنه من كبرهِ أيرُ الحمار القائمُ
ما الناس عندكَ غير نفسكَ وحدها والناس عندكَ ما خلاكَ بهائمُ

بشار يبين سبب تفوقه

وأين من ذكر من بشار بن برد حين قيل له : بم فُقْتَ أهل عصرك وسبقْتَ أبناء عصرك : فى حسن معانى الشعر ، وتهذيب ألفاظه ؟ قال : لأنى لم أقبل كل ما تورده علىّ قريحتى ، ويناجينى به طبعى ، ويبعثه فكرى ، ونظرت إلى مغارس الفِطَنِ ، ومعادن الحقائق ، ولطائف التشبيهات ، فسرت إليها بفكر جيد ، وغريزة قوية ، فأحكمت سَبْرَهَا ، وانتقيت حُرَّها ، وكشفت عن حقائقها ، واحترزت عن متكلفها ، ولا والله ما ملك قِيَادِى الإعجاب بشىء مما آتى به .

وكم فى بلدنا هذا من الُخفَاشِ قد صاروا ثعابين ، ومن البَغَاثِ قد صاروا شواهين ، إن البغاث فى أرضنا يستنسر ، ولولا أن يُعْرَفوا بعد اليوم بتخليد ذكرهم فى هذا الكتاب ، ويدخلوا فى جُمْلة من يعد خطله ، ويحصى زلله ؛ لذكرت من لحن كل واحد منهم وتصحيفه وفساد معانيه وركاكة لفظه ما يدلك على مرتبته من هذه الصناعة التى ادَّعَوْهَا باطلا ، وانتسبوا إليها انتحالا ، وقد بلغنى أن بعض مَنْ لا يتورع عن كذب ، ولا يستحيى من فضيحة ، زعم أنى أخذت عنه

مسائل من هذا الكتاب لو سئل عنها الآن ما علمها ، والامتحان يقطع الدعوى ، كما قال بعض الشعراء :

من تحلّى بغير ما هو فيه فَضَحَ الإمتحانُ مايدعيه

وكنت غنياً عن تهجين هذا الكتاب بالإشارة إلى مَنْ أشرت إليه أنفاً من ذكره ، وعُزُوفاً بهمتى عن الانحطاط إلى مُسَاواته ، ولكن رأيت السكوت عنه عجزاً وتقصيراً ، كما قال أبو تمام :

تَرْكُ اللئيمِ ولم يُمَزَّقْ عرضــه نَقْصٌ على الرجل الكريم وَعَارُ

وكما قال أبو الطيب ، وقد استحق المعنى عليه :

إذا أتتِ الإساءة من وضيعٍ ولم أَلُمِ المسىء فمن أَلُومُ ؟

ثم أعود إلى التّشطير فأطرح عن المحدث المولد ما كان من جنس تشبيه النعامة للطرماح[1] ، وصفة الثور الوحشى له أيضاً ، وصفة مغارز ريش النعامة إذا أمرط للشماخ، ومثل بيت العنكبوت فيما يمتد من لُغَام الناقة تحت لحييها فى شعر الحطيئة؛ وتشبيه الذباب بالأجذم ، ولحيى الغراب بالجَلَمَ لعنترة ، وأشباه هذا مما انفردَتْ به الأعراب والبادية كعادتها ، كانفرادها بصفات النيران ، والفَلَوَات الموحشة ، وورود مياهها الآجنة ، وتَعَسُّف طرقاتها المجهولة ، إلى غير ذلك مما لا يعرف عياناً؛ إذ كان المحدث غير مأخوذ به ، ولا محمول عليه ، ألا ترى إلى أبى نواس — وهو مُقَدَّم فى المحدثين — لما وصف الأسد وليس من معارفه ، ولعله ما شاهده قط إلا مرة فى العمر إن كان شاهده ؛ دخل عليه الوهم فجعل عينيه بارزة وشبههما بعيون المخنوق ، وقام عنده أن هذا أشنع وأشــبه بشَتَامة وجة الأسد ، وذهب عنه من صفة أبى زبيد وغيره لغؤور عينيه مما هو أعلم به ممن أخذ عليه ، وأكثر ظنى — والله أعلم — أن أبا نواس إنما رَجَعَ بالصفة

(١) انظر التشبيهات العقم التى أوردها المؤلف فى الباب الأربعين (ج ١ ص ٢٩٦ من هذا الكتاب) .

إلى الرجل المشبه بالأسد ، وجعل ازورار عينيه و بروز جفنيه من علامات الغيظ والحنق على أقرانه فى الحرب .

وكذلك لما تعاطى الأعرابى أبو نُخَيْلَةَ[1] ما لا يعرف قال :

* ولم تَذُقْ من البُقُولِ الفُسْتُقَا *

فجعله بقلا[2] على ما فى نفسه من لعاع البقل .

على أن المحدثين قد شاركوا القدماء فى كل ما ذكرته أيضاً ، إلا أن أولئك أولى به ، وأحق بالتقدمة فيه ، كما خالطوهم فى صفات النجوم ومواقعها ، والسحب وما فيها من البروق والرعود ، والغيث وما ينبت عنه ، و بكاء الحمام ، وكثير مما لا يتسع له هذا الباب ، ولكنى أفرد له كتاباً قائماً بنفسه أذكر فيه ما انفرد به المحدثون ، وما شاركهم فيه المتقدمون ، وآتى ها هنا من هذين النوعين بما يسد خَلَّةَ المفتقر إلى سماعه من المبتدئين .

ما جاء فى طول الليل

قال النابغة يذكر طول ليله :

كلينى لهمٍّ يا أميمة ناصب	وليل أقاسيه بطىء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقضٍ	وليس الذى يرعى النجوم بآيب

وقال أبو الطيب فى وزنه ورويه :

أعيدوا صَبَاحِي فَهْوَ عندالكواعب	وَرُدُّوا رقادى فهو لحظ الحبائب
فإن نهارى ليلةٌ مدلهمةٌ	على مقلة من فقدكم فى غياهب

فأنت ترى ما فيه من الزيادة وحُسْنِ المَقْصِد ، على أن بيتى النابغة عندهم فى غاية الجودة .

---

(١) فى أكثر الأصول « أبو جبلة » وهو تصحيف ، وقبل هذا البيت قوله : *جارية لم تأكل المرققا* (٢) ويجعله بعضهم «ولم تذق من النقول» جمع نقل ، بالنون.

ما جاء فى حلق الشعر

وقال يزيد بن الطَّثْرِية حين حلق أخوه ثورٌ جُمَّته :

فأصبح رأسى كالصخيرة أشرفت　　عليها عقابٌ ثم طارت عقابها

وهذا البيت من أفضل الأوصاف وأحسنها بياناً عند قدامة وغيره

وقال بعض المتأخرين ، وأحسبه الزيادى ، فى غلام حلقت وَفْرَتُه :

حلقوا رأسه ليكسوه قُبْحاً　　غيرة منهم عليه وشُحَّا

كان صُبْحاً عليه ليلٌ بَهيمٌ　　فَمَحَوْا ليلَهُ وأَبْقَوْهُ صُبْحَا

وقال رؤبة بن العجاج :

أمست شَوَاتِى كالصَّفاة صَفْصَفَا　　فصارَ رأسى جَبْهة إلى القَفَا

فقال ابن الرومى وأحسن ما شاء :

يجذب من نقرته طرة　　إلى مدى يقصر عن نيله

فوجهه يأخذ من رأسه　　أخْذَ نهارِ الصيف من لَيْلِهِ

ولو تتبعت هذا لأطلت فى غير موضع الإطالة .

مما انفرد به بشار

فأما ما انفرد به المحدثون فمثل قول بشار :

يا قَوم أُذْنى لبعض الحىِّ عاشقة　　والأُذْنُ تعشق قبلَ العين أحياناً

قالوا: بمن لا ترى تهذى؟ فقلت لهم :　　الأُذْنُ كالعين تُوفِى القلبَ ما كانا

وكرره فقال :

قالت عقيل بن كعب إذ تعلقها　　قلبى وأمسى به من حبها أثرُ :

أنّى ولم ترها تهذى ؟ فقلت لهم:　　إن الفؤاد يرى ما لا يرى البصر

وقوله أيضاً :

وكيف تناسى من كأن حديثه　　بأذنى ـ وإن غيبت ـ قُرْطٌ مُعَلَّقٌ

واختراعاته كثيرة ، واشتهاره بذلك يغنى عن الإنشاد له .

وكقول أبى نواس ، وقد ذكر المبرد أنه لم يُسْبَقْ إليه ، وهو :

مما انفرد به أبو نواس

أيها الرائحان باللوم لوما لا أذوق المنام إلا شميما

نالنى بالملام فيها إمام لا أرى لى خلافه مستقيما

فاصرفاها إلى سواى فإنى لست إلا على الحديث نديما

كبر حظى منها إذا هى دارت أن أراها أو أن أشم النسيما

فكأنى وما أزين منها قعدى يزين التحكيما

كل عن حمله السلاح إلى الحر ب فأوصى المطيق أن لا يقيما

« القعدية » : فرقة من الخوارج ترى الخروج وتأمر به ، وتقعد عنه .

وقوله أيضاً :

بنينا على كسرى سماء مدامة مكللة حافاتها بنجوم

فلو رد فى كسرى بن ساسان روحه إذاً لاصطفانى دون كل نديم

وهذا المعنى أيضاً لم يتناوله أحد قبله .

وكذلك قوله :

قد قلت للعباس معتذراً من ضعف شكريه ومعترفاً :

أنت امرؤ جللتنى نعماً أوهت قوى شكرى فقد ضعفا

فإليك منى اليوم تقدمة تلقاك بالتصريح منكشفا

لا تسدين إلى عارفة حتى أقوم بشكر ما سلفا

وقال أيضاً فى صفة النساء الخمارات ، ويروى لابن المعتز :

وتحت زنانير شددن عقودها زنانير أعكان معاقدها السرر

فهذا تشبيه ما علمت أنه سبق إليه .

وقال أيضاً :

لست أدرى أطال ليلى أم لا كيف يدرى بذاك من يتقلى ؟

لو تفرغت لاستطالة ليلى ولرعى النجوم كنت مخلا

ومعانى أبى نواس واختراعاته كثيرة .

ما انفرد به أبو تمام

وأكثر المولدين معانى وتوليدا ــ فيما ذكره العلماء ــ أبو تمـام ، غير أن القاسم بن مهرويه[1] قد زعم أن جميع ما لأبى تمام من المعانى ثلاثه : أحدها قوله :

وإذا أراد الله نشرَ فضيلة طُوِيَتْ أتاح لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعالُ النار فيما جاوَرَتْ ما كان يعرفُ طِيبُ عَرْفِ العودِ

والثانى قوله :

بنى مالك، قد نَبَّهَتْ خاملَ الثرى قبُورٌ لـكم مستشرفات المعالم
غوامض قيد الـكف من متناولٍ وفيها عُــلاً لا يرتقى بالسلالم

والثالث قوله :

يأبى على التصريدِ إلا نائلاً إن لم يكنْ محضاً قرَاحاً يمذقِ
نزراً كما استكرهت عائر نفحة من فأرةِ المسك التى لم تفتقِ

أكثر الشعراء اختراعا ابن الرومى

وأنا أقول : إن أكثر الشعراء اختراعا ابن الرومى ، وسيأتى برهان ذلك فى الـكتاب الذى شرطت تأليفه إن شاء الله سبحانه . ولا بد هاهنا من نبذ يسيرة أشغل بها الموضع : منها قوله :

عينى لعينكَ حينَ تنظر مَقْتَلُ لـكنّ لحظك سَهْمُ حَتْفٍ مرسلُ
ومن العجائبِ أن مَعْنى واحداً هُوَ منكَ سَهْمٌ وَهْوَ منى مقتل

وقوله فى عتاب :

توددْتُ حتى لم أدع مُتَوَدَّدا وأفنيتُ أقلامى عتابا مُرَدَّدَا
كأنىَ أستدعى بك ابن حنيةٍ إذا النزع أدناه من الصدرِ أبعدا

وقوله فى أبيات يتغزل فيها ، وإن كان قد كرر المعنى :

نظرت فأقصَدَتِ الفؤادَ بلحظها ثم انثنتْ عنهُ فظل يهـيم
فالموت إن نظرت وإن هى أعرضتْ وقع السهام ونَزْعُهــنّ أليم

(١) انظر الموازنة للآمدى (ص ١١٤ بتحقيقنا) وفى الأبيات بعض اختلاف لا يغير المعنى .

وقوله ولم أسمع أحسن منه فى معناه :

وما يعتريها آفة بَشَرِيَّةٌ من النوم إلا أنها تتبختر
وغَيْرُ عَجِيبٍ طيبُ أنفاسِ رَوْضَةٍ مُنَوَّرَةٍ باتتْ تُرَاحُ وتُمْطَرُ
كذلك أنفاس الرياض بسحرةٍ تطيب ، وأنفاس الورى تتغير

(٩١) — باب فى أغاليط الشعراء والرواة[١]

ولابد أن يؤتى على الشاعر المفلق ، والعالم المتقن ؛ لما بنى عليه الإنسان من النقص والتقصير ، وخير ما فى ذلك أن يرجع المرء إلى الحق إذا سمعه ، ولا يتمادى على الباطل لَجَاجة وأَنَفَةً من الخطأ ؛ فإن تماديه زيادة فى الخطأ الذى أنف منه .

بين مسلم وأبى نواس

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن جعفر النحوى ، عن أبى على الآمدى ، عن على ابن سليمان الأخفش ، عن محمد بن يزيد المبرد ، قال : تلاحى مسلم بن الوليد وأبو نواس ، فقال [مسلم] : ما أعلم بيتاً لك يخلو عن سقط ، فقال أبو نواس : اذكر شيئاً من ذلك ، فقال : بل أنشِدْ أنت أى بيت شئت ، فأنشد أبو نواس :

ذكر الصَّبُوحَ بسحرة فارتاحا وأَمَلَّهُ دِيكُ الصباح صياحا

فقال مسلم : قف عند هذا ، لم أمَلَّه ديك الصباح ، وهو يبشره بالصبوح ، وهو الذى يرتاح إليه ؟ فقال أبو نواس : فأنشدنى أنت ، فأنشده :

عَاصَى الشَّبَابَ فراحَ غَيرَ مُفَنَّدِ وأقامَ بينَ عزيمةٍ وتَجَلُّدِ

فقال أبو نواس : ناقضت ، ذكرت أنه راح ، والرواح لا يكون إلا بالانتقال من مكان إلى مكان ، ثم قلت «وأقام» فجعلته منتقلا مقيما فى حال ، هذا متناقض .

(١) ألف المرزبانى كتابه « الموشح » فى مآخذ العلماء على الشعراء ، وألف العسكرى كتاب التصحيف والتحريف ، فيما ورد فى عبارات الرواة ورواياتهم من التحريف .

قال أبو العباس : وكلا البيتين صحيح ، ولكن مَنْ طلب عيباً وجده ومن طلب له مخرجا لم يفته .

مأخذ للأصمعى على زهير ورده

قال الأصمعى : وأخطأ زهير فى قوله « كأحمر عادٍ[1] » ولا أدرى لم خطأه وقد سمع قول الله عز وجل * (وأنه أهلك عاداً الأولى) * فهل قال هذا إلا وثم عاد أخرى ؟ وهى هلكت بالنمل من ولد قحطان . قال قيس بن سعد ابن عبادة :

* سراويل عادِيٍّ نمته ثمود *

وكان يقال لثمود « عاد الصغرى » .

مأخذ له على الشماخ

وخطأ الشماخ [فى قوله] فى وصف ناقته :

* رَحَى حَيْزُومِهَا كرحَى الطَّحِينِ[2] *

ظنه يصفها بالكبر ، وهو عيب لا محالة ، وإنما وصفها بالصلابة لا غير .

مأخذ للآمدى على البحترى

وأخذ ابن بشر الآمدى على البحترى قوله :

---

(١) هذه قطعة من بيت لزهير يقع فى معلقته ، وهو بتمامه :

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ، ثم ترضع فتفطم

ومحصل اعتراض الأصمعى أن قوله «كأحمر عاد» فيه نسبة قدار عاقر ناقة ثمود إلى عاد ، وهو مالا يصادقه عليه العارفون بالأنساب والتاريخ ، وقد أجيب عن هذا الاعتراض بما ذكره المؤلف من أن عادا يسمى به جماعاتان ، وأنه يقال لثمود « عاد الأخرى » بدليل الآية ، وأنصار الأصمعى لايقرون هذا الجواب ويزعمون أن « الأولى » فى قوله تعالى (عادا الأولى) معناه السابقة التى كانت قبل ثمود ، وليس يدل على أن هناك عادين . ومحصل هذا أن الوصف أتى به للايضاح لا للاحتراز .

(٢) صدره * فنعم المرتجى ركدت إليه * والمرتجى : الذى يرجى لنوائب الدهر . وركدت إليه : بركت عنده . ورحى حيزومها : كركرتها ، شبهها بالرحى فى الصلابة ، لافى العظم ؛ لأنه مما يعاب فى الإبل ، وسيذكر لك المؤلف ذلك

هَجَرَتْنَا يَقْظَى وكادتْ عَلَى مَذْ هَبِهَا فى الصُّدود تَهْجُر وَسْنَى

قال : هذا غلط[١] ؛ لأن خيالها يتمثل له فى كل أحوالها ، يقظى كانت، أوْ وَسْنَى أو ميتة ، والجيد قوله :

أَرُدُّ دُونَكِ يَقْظَانًا ويأذَنُ لى عَلَيْكِ سُكْر الكرى إن جئتُ وَسْنَانَا

وأنا أقول : إن مراده أنها لشدة هجرها له ونحوها[٢] عليه لا تراه فى المنام إلا مهجوراً ، ولا تراه جملة ، فالمعنى حينئذ صحيح لا فساد فيه ، ولا غلط ، ولعل الرواية «وكادت[٣]» وهذا موجود فى كلام الناس اليوم ، ومثله يقولون « فلان لا يرى لى مناماً صالحاً » وليس بين بيتى البحترى تناسب من جهة المعنى جملة واحدة ؛ لأنه أولا يحكى عنها ، وثانياً يحكى عن نفسه ، بلى إن فى اللفظ اشتراكاً ظاهراً .

وفى كتاب عبد الكريم من المأخوذ على أبى تمام قوله :

مها الوحش إلا أن هَاتَا أوانسٌ قَنَا الخطِّ إلا أن تلك ذوابل

قال : فيه غلط من أجل أنه نفى عن النساء لين القنا ، وإنما قيل للرماح « ذوابل » للينها وتثنيها ، فنفى ذلك أبو تمام عن قدود النساء التى من أكمل أوصافها اللين والتثنِّى والانعطاف .

قلت أنا : أما أبو تمام فقوله الصواب ؛ لأنهم يقولون « رمح ذابل » إذا كان شديد الكعوب صلباً ، وهو الذى تعرف العرب ، ومنه قولهم « ذبلت شفتاه » إذا يبستا من الكرب أو العطش أو نحوهما ، فأما كلام المعترض فغير معروف إلا عند المولدين ؛ فإنهم يقولون « نوارةٌ ذابلة » وليسوا بقدوة ؛ على أن كلامهم راجع إلى ماقلناه ، إنما ذلك لقلة المائية وابتداء اليبس ، وإنما نقل عبد الكريم كلام ابن بشر الآمدى[٤] .

(١) انظر كتاب الموازنة للآمدى (ص ٣١٤ من الطبعة الثانية بتحقيقنا) .
(٢) كذا ، ولعله « وحنوها عليه » (٣) هى كذلك فى جميع نسخ ديوانه
(٤) انظر الموازنة ١٣٠ .

مأخذ على جرير ورده

قال الأصمعي[1] : قرأتُ على أبي محرز خلف بن حيان الأحمر شِعْرَ جرير ، فلما بلغت إلى قوله :

وليل كابهام الحبارى محبب إلىّ هواه غالب لى باطلُه
رزقنا به الصيد الغَزير ولم نكن كمَنْ نَبْلُه محرومةٌ وحبائله
فيالكَ يَوْماً خَيْرُهُ قبلَ شره تغيَّبَ واشيهِ وأقصر عاذلُه

قال خلف : ويحه ، ماينفعه خير يؤول إلى شر ؟ فقلت : هكذا قرأته على أبي عمرو بن العلاء ، قال : صدقت ، وكذا قال جرير ، وكان قليل التنقيح لألفاظه ، وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا كما سمع ، قلت : فكيف يجب أن يكون قال : الأجود أن يكون « خيره دون شره » فاروه كذلك ، وقد كانت الرواة قديماً تصلح أشعار الأوائل ، فقلت : والله لا أرويه إلا كذا .

قلت أنا : أما هذا الإصلاح فمليح الظاهر ، غير أنه خلاف الظاهر ، وذلك أن الشاعر أراد أنه كان ليلة فى وصال ، ثم فارق حبيبه نهاراً ، وذلك هو الشر الذى ذكر ، والراوية جعله لم يفارق فغير عليه المعنى ، إلا أن تكون الرواية * ويوم كابهام الحبارى * فحينئذ .. على أن « دون » تحتمل ماقصد ، وتحتمل معنى قبل ؛ فهى لفظة مشتركة ، وتكون أيضا بمعنى بعد ؛ لأنها من الأضداد ، ولكن فى غير هذا الموضع .

مأخذ على بشامة ابن الغدير

وخطأ الأصمعى بشامة بن الغدير فى قوله يصف راحلته :

وصَدْر لها مهيع كالخليفِ تخال بأنّ عليه شليلا

لأن من صفة النجائب قلة الوبر .

مأخذ على كعب ابن زهير

وخطأ أيضا كعب بن زهير فى قوله يصف راحلته :

* فَعْمٌ مُقَيَّدُهَا ضَخْمٌ مُقَلَّدها *

لأن النجائب دقيقات المذابح .

(١) انظر الوشح للمرزبانى ١٢٥ .

ونبه أبو الفضل بنُ العميد على البحترى فى بيت كسره ، وهو قوله :

مآخذ على البحترى

ولماذا تَتَبَّعُ النفسُ شيئاً جعلَ اللهُ الفردوسَ منه جزاء

قال ننشده :

* جعل الله الخُلْدَ منه جزاء *

ليستقيم ، حكى ذلك الصاحب بن عباد . . وأنشد له أيضا :

أبا غالب بالجود تذكر واجبى إذا ماغنىُّ الباخلين نَسِيهِ

وزعم أنه لحن ، ولست أرى به بأسا ، هذا الشاعر أسكن الياء لما يقتضيه بناء القافية ، فإذا أسكنَ الياء وما قبلها مكسور لم تسكن الهاء إلا مكسورة إتباعاً لما قبلها ، لا سيما وهى طَرَفٌ ، وقد فعلوا مثل هذا فى وسط الكلمة . . وقال رؤبة :

* كَأَنَّ أيْدِيهِنَّ بالْقَاعِ الْقَرِقْ *

ولم يقل أيديهنَّ بالضم استثقالا ، وأيضا فكأنه ـ أعني البحترى — نوى الوقوف ، ثم جر القافية كعادتهم فى تحريك الساكن أبداً إلى الجر

وأنشد الصاحب بن عباد قال : أنشدنى على بن المنجم ، قال : أنشدنى أبو الغوث لأبيه :

وأحقُّ الأيام بالأنس أن يؤ ثر فيه يوم المهرجان الكبير

وأنا أقول : إن أبا الغوث جاء من قبله الخذلان فى هذه الرواية ، فويل للآباء من أبناء السوء ، ودع المثل القديم ، ولا أظن البحترى قال إلا :

وأحقُّ الأيام بالأنسِ أنْ تؤ ثره يومُ المهرجانِ الكبير

وأخذ الأحمر على المفضل روايته فى قول امرىء القيس :

مأخذ على المفضل فى رواياته

* نَمَسُّ بأعرافِ الجيادِ أكُفَّنا *

وما هو إلا « نمش » أى : نمسح ، والمشوش المنديل .

وكذلك قول المفضل :

و إذا ألم خَيَالُهَا طرقتْ عينى فماء شُجونها[1] سَجْمُ

و إنما هو « طرفت » بالفاء .

وأخذ عليه الأصمعى فى قول أوس :

* تصمت بالماء تَوْلَباً جَدَعا *[2]

و إنما هو « جدعا » بدال مكسورة غير معجمة ، ولأمر ما قال ذو الرمة لموسى بن عمرو : اكتب شعرى ، فالكتاب أعجب إلى من الحفظ ؛ لأن الأعرابى ينسى الكلمة قد تعب فى طلبها ليلة ، فيضع فى موضعها كلة فى وزنها ، ثم ينشدها الناس ، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاما بكلام .

مآخذ على الفرزدق،وعلى الأخطل

قال الأخطل : أخطأ الفرزدق حيث قال :

أبنى غُدَانة إننى حَرَّرْتُكُمْ فوهبتكم لِعَطِيَّة بن جِعَال

لولا عطيةُ لاجتدعت أنوفكم من بين ألأمِ أوْجُهٍ وسبالِ

كيف يكون وهب له وهو يهجوهم هذا الهجاء ؟ فانبرى له فتى من بنى تميم فقال : وأنت الذى قلت فى سويد بن منجوف[3] :

فما جِذْع سوءٍ خرَّقَ السوس بَطْنَه لما حملته وائلٌ بمطيق

أردت هجاءه فزعمت أن وائلا تعصب به الحاجات ، وقَدْرُ سويدٍ لا يبلغ ذلك عندهم ، فأعطيته الكثير ، ومنعته القليل ، وأردت أن تهجو حاتم بن النعمان الباهلى ، وأن تصغر شأنه ، وتضع من قدره ؛ فقلت :

وَسَوَّدَ حاتماً أنْ لَيْسَ فيها إذا ما أوقدَ النيرانَ نارُ

(١) أحسبه * . . . فماء شؤونها . . . *

(٢) صدره * ودات هدم عار نواشرها * وقد عاب قوم على أوس هذا البيت ؛ لأنه سمى الصبى « تولبا » وإنما هو ولد الحمار .

(٣) انظر الموشح للمرزبانى ١٣٣ وما بعدها .

فأعطيته السؤدد من قيس الجزيرة ، ومنعته مالا يضر منعه ؛ وأردت أن تمدح سماكا الأسدى فقلت : .

نعمَ المجيرُ سماكٌ من بنى أسد بالطّفّ إذ قَتَلَتْ جيرانَهَا مُضَرُ
قد كنتُ أحسبُه قينا وأنبؤُه فالآن طـــير عن أثوابه الشررُ[1]

فانصرف الأخطل خجلا .

قال الحسن لعلىّ بن زيد : أرأيت قول الشاعر :

لولا جريرٌ هلكتْ بجيله نعم الفتى وبئست القبيلة

مدحه أم هجاه ؟ قال : مدحه وهجا قومه ، فقال الحسن : ما مُدِحَ من هُجِىَ قومُهُ .

معذرة عن النابغة

وقال من اعتذر للنابغة فى قوله :

فإنك كالليـلِ الذى هو مدركى وإن خِلْتُ أن المنتأى عنك واسع

إنما قدم الليـل فى كلامه لأنه أهْوَلُ ، ولأنه أول ، ولأن أكثر أعمالهم إنما كانت فيه ؛ لشدة حر بلدهم ، فصار ذلك عندهم متعارفاً .

معذرة عن زهير

وكذلك اعترفوا لزهير [فى قوله] يصف الضفادع[2] :

يخرجنَ من شَرَبات ماؤها طَحِلٌ على الجذوع يخفنَ الْغَمَرَ والغرقا

فقال : لم يرد أنها تخاف الغرق على الحقيقة ، ولـكنها عادة من هرب من الحيوان من المـاء ، فـكأنه مبالغة فى التشبيه ، كما قال الله عز وجل : (وإن كان مَكْرُهمْ لتزولَ منه الجبال) وقال : (وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ) والقول فيهما محمول على « كاد » هكذا ذكر الحداق من المفسرين ، مع أنا نجد الأماكن البعيدة القعر من البحار لا تقربها دابة ، خوفاً على نفسها من الهلـكة ، فـكأنه أراد المبالغة فى كثرة ماء هذه الشربات ، وإنمـا اقتدى فيه بقول أوس بن حجر :

فباكرن جونا للعلاجيم فوقهُ مجالسُ غرقى لا يُحَـلَّأُ ناهله

(١) فى الأصول « فأنبؤه » (٢) انظر الموازنة ص ٣٥ .

مأخذ على أبي نواس

وعند القاضى الجرجانى من غلط أبى نواس فى الوزن قوله :

رأيتُ كلَّ من كان أحمقاً معتوهاً   فى ذا الزمانِ صار المقدَّم الوجيها

يارب نذل وضيع نوهته تنوهيها   هجوتهُ لكيما أزيدَه تشويها

ولم يقل أبو نواس — فيما علمتُ — إلا « رب وضيع نذل » وهذا أفرط فى التعصب والحمية على أبى نواس وغيره لمن لا يُجْرَى فى حَلْبتهم ولا يُشَق غبارهم .

(٩٣) — باب ذكر منازل القمر

سر ذكر المؤلف لهذا الباب

ولما رأيت العرب — وهم أعلم الناس بهذه المنازل وأنوائها ؛ لأنها سقف بيوتهم ، وسبب معايشهم وانتجاعهم — غلطوا فيها فقال أحدهم : من الأنجم العزلُ والرامحة .. وقال امرؤ القيس .

إذا ما الثُّرَيَّا فى السماء تَعَرَّضَتْ(١)

فأتى بتعرض الجوزاء ، ورأيت كل من عُنى بالنجوم من المحدثين واستوفى جميع المنازل مخطئاً ، لا شك فى خلافه ؛ لأنه إنما يصف نجوم ليلة سهرها ، والنجوم كلها لا تظهر فى ليلة واحدة ، ولذلك قلت أنا احتياطاً فى الليل من نسيب قصيدة مدحت بها السيد أبا الحسن أدام الله عزه :

قد طالَ حتى خلتهُ   من كل ناحيةٍ وَسَطْ

وتكررت فيـــه المنا   زلُ مِنْهُ لا مِنِّى الغلط

وجب أن أذكر هذه المنازل وأنواءها ، واختلاف الناس فيها ، وعولت فى ذلك على ما ذكره أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجى ، مجتهداً فيما استطعت من البيان والاختصار ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) عجزه * تعرض أثناء الوشاح المفصل * وهو بيت من معلقته .

أجزاء السنة وما يتبعها

السنة أربعة أجزاء ، لكل جزء منها سبعة أنْوَاء ، لكل نَوْء ثلاثة عشر يوماً ، إلا نَوْء الجبهة فإنه أربعة عشر يوماً ، زيد فيه يوم لتكمل السنة ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً ، وهو المقدار الذى تقطع الشمس فيه بروج الفلك الاثنى عشر ، لكل برج منزلتان وثلث منزلة ، وكلما نزلت الشمس منزلة من هذه المنازل سترته ؛ لأنها تستر ثلاثين درجة : خمسة عشر من خلفها ، ومثلهامن أمامها ، فإذا انتقلت عنها ظهرت ، هكذا قال الزجاجى .

النوء

وإذا اتفق أن تطلع منزلة من هذه المنازل بالغداة ويغرب رقيبه فذلك النوء لا يتفق لكل منزلة إلا مرة واحدة فى السنة ، وهو مأخوذ من « ناء ينوء » إذا نَهَضَ متثاقلا ، والعرب تجعل النوء للغارب ؛ لأنه ينهض للغروب متثاقلا ، وعلى ذلك أكثر أشعارها ، وتفسير بعض العلماء فى قوله تعالى : (ما إنَّ مفاتحهُ لتنوء بالعصبة أولى القوة) أى : تميل بهم إلى الأرض ، وهذا التفسير أوجه من قول من جعل الكلمة من المقلوب ، قال : وبعضهم يجعله للطالع ، وهذا هو مذهب المنجمين ؛ لأن الطالع له التأثير والقوة ، والغارب ساقط لا قوة له ولا تأثير . قال المبرد : النوء على الحقيقة للطالع من الكوكبين ، لا الغارب ، وهذه المنازل كلها يطلع بها الفلك من المشرق ، ويغرب فى المغرب ، كل يوم وليلة ، وتلك دورة من دورانه .

الربع الأول من السنة الربيع

الربع الأول من السنة ، وابتداؤه من سبعة عشر يوما من آذار ، وبعضهم يجعله فى عشرين يوما منه ، فيستوى حينئذ الليل والنهار منه ، ويطلع مع الغداة فرع الدَّلْو الأسفل ، وهو المؤخر ، ويسقط العوّاء ، وإليها ينسب النوء ، وهى تمد وتقصر ، وصفتها خمسة كواكب كأنها أَلِفٌ معطوفة الذنب إلى اليسار ،

العواء

وبذلك سميت ، وتقول العرب : عويتُ الشىء ، إذا عطفته ، وقال آخرون : بل هى كأنها خمسة أكلب تعوى خلف الأسد ، قال ابن دريد : هى دبر الأسد ، والعواء فى كلامهم الدبر .

نوء السماك

النوء الثانى : السِّماك ، وهما سما كان : أحدهما السماك الأعزل ، نجم وقاد، شبهوه بالأعزل من الرجال ، وهو الذى لا سلاح معه ، وهو منزل القمر ، والآخر : كوكب تقدمه آخر ، شبهوه بالرمح ، وهما ساقا الأسد ، وسمى سما كا لعلوّه ، ولا يقال لغيره إذا علا سماك ، هكذا قال سيبويه مما حكى الزجاجى عن أبى إسحاق الزجاج ، غير أنه قال فى الأعزل : وقيل إنما سمى أعزل لأن القمر لا ينزل به .

وأنا أقول : القول الآخر خلاف ما عليه جميع الناس ، ورؤية العين تدركه على غير ما يزعم الزاعم .

الغفر

النوء الثالث : الغفر ، وهو ثلاثة كواكب غير زُهْر ، وبذلك سميت ، من قولك : غَفَرْتَ الشىء ، إذا غطّيته ، ومنه سميت الغفارة التى تلبس ، وقيل : إنما سمى غفراً من الغفرة ، وهى الشعر الذى فى طرَف ذَنَب الأسد ، وقال أبو عبيدة : الغفر كل شعر صغير دون الكثير ، وكذلك هو فى الريش ، وقال قوم : هو من النكس فى المرض ، يقال : أغفر المريض ، إذا نكس، كأن النكس غطاء العافية .

الزبانان

النوء الرابع : الزبانان ، كوكبان مفترقان ، وهما قَرْنَا العقرب ، وقيل : يداها ، وسميا زبانين لبعد كل واحد منهما عن صاحبه ، من قولهم : زَبَنْتُ كذا ، إذا دفعته لتبعده عن نفسك ، ومنه اشتقاق الزّبانية ؛ لأنهم يدفعون أهل النار إليها .

الإكليل

النوء الخامس : الإكليل ، ثلاثة كواكب على رأس العقرب ، وبذلك سميت إكليلا .

القلب

النوء السادس : القلب ، كوكب أحمر وقاد : جعلوه للعقرب قلباً ، على معنى التشبيه .

الشولة

النوء السابع : الشولة ، كوكبان أحدهما أخفى من الآخر ، وهما ذَنَبَا العقرب ،

وذنب العقرب شائل أبداً ، فشبه به ، هذا قول بعضهم ، و بعضهم يجعل الشولة الإبرة التي فى ذنب العقرب ، وهم أهل الحجاز ، وهو أصح على مذهب من زعم أنهما كوكبان فقط .

الربع الثانى من السنة الصيف

الربع الثانى : الصيف ، أولُ أنوائه « النعائم » وهى ثمانية كواكب نيرة : أربعة منها فى المجرّة تسمى الواردة ، وأربعة خارجةمنها تسمى الصادرة ، وشبهت بالخشبات التى تـكون على البئر يعلق بها البكرة والدلاء .

البلدة

الثانى من الصيف « البلدة » وهى فرجة لطيفة لا شىء فيها ؛ لكن بجوارها كواكب تسمى القلادة ، و إنما قيل لتلك الفرجة البلدة تشبيها بالفرجة التى بين الحاجبين ، إذا لم يكونا مقرونين ، يقال منه : رجل أَبْلَدُ ، و يقال : بل شبهت بالبلدة ، وهى باطن الراحة كلها ، وقيل : باطن ما بين السبّابة والإبهام .

سعدالذابح

الثالث منه « سعد الذابح » وهما نجمان صغيران : أحدهما مرتفع فى الشمال معه كوكب آخر يقال هو شاته التى تذبح ، والآخر هابط فى الجنوب .

سعدبلع

الرابع منه « سعد بُلَعَ » وهما كوكبان صغيران مستويان فى المجرة ، شبها بفم مفتوح ، يريد أن يبتلع شيئاً ، وقيل : إنما قيل بلع كأنه بلع شاته ، و بُلَعَ غير مصروف ؛ لأنه معدول من بالع ، مثل زُفَر وقُثم ، وسعدٌ مضاف إليه .

سعد السعود

الخامس منه « سعد السعود » وهما كوكبان : أحدهما أنور من الآخر ، سمى بذلك لأن وقت طلوعه ابتداء كال الزرع وما يعيش به الحيوان من النبات .

سعد الأخبية

السادس منه «سعد الأخبية» وهما كوكبان عن شمال الخباء ، والأخبية أربعة كواكب : واحد منها فى وسطها يسمى الخباء ؛ لأنها على صورة الخباء ، وزعم ابن قتيبة أنه سمى بذلك لطلوعه وقت انتشار الحيات والهوام ، وخروج ما كان مختبئاً .

فرع الدلو الأعلى

السابع : فرع الدلو الأعلى ، وهو المقدم ، و بعضهم يسميه العرقوة العليا تشبيها

بمرقوة الدلو ، وهما كوكبان مفترقان نيران ، وقيـل له « دلو » لأنه تأتى فيه الأمطار العظيمة ، ويقال : بل سميا بذلك لأنهما مثل صليب الدلو الذى يفرغ منه الماء .

ربع السنة الثالث الخريف

الربع الثالث : الخريف ، أول أنوائه « فرع الدلو الأسفل » وصورته كوكبان مضيئان بينهما بعد صالح يتتبعان المرقوة العليا .

الحوت

ثم الحوت ، وهو كوكب أزهر نير فى وسط السمكة .

الشرطان

ثم الشرطان ، وهما كوكبان مفترقان مع الشمال ، منهما كوكب دونه فى القدر ، وسميا شرطين لأن سقوطهما علامة ابتداء المطر واتصاله ، وكل من جعل لنفسه علامة فقد شرطها ، ومنه سمى الشُّرَط ؛ لأن لهم علامة عرفوا بها .

البطين

ثم البطين : وهو ثلاثة كواكب طُمس خَفِيَّات ، وهو بطن الحمل ، إلا أنه قد صغر .

الثريا

ثم الثريا ، وهو النجم، وصورتها ستة كواكب متقاربة حتى كادت تتلاصق ، وأكثر الناس يجعلها سبعة ، وقد جاء الشعر بالقولين جميعا ، سميت بهذا لأن مَطَرَهَا عنه تـكون الثروة وكثرة العدد والغنى ، وهى تصغير ثَرْوَى ، ولم ينطق بها إلا مصغرة .

الدبران

ثم الدبران ، كوكب وَقَّاد على أثر نجوم تسمى القلاص ، وقيل له «دبران» لأنه دبر الثريا ، أى : جاء خلفها ، ويقال له أيضاً « الراعى » و « التالى » و « التابع » و « الحادى » على التشبيه .

الهقعة

ثم الهقعة ، سميت بهذا تشبيها بالدائرة التى تـكون عند عقب الفارس فى جنب الفرس ، وصورتها ثلاثة أنجم صغار متقاربة كآثار رءوس أصابع ثلاث فى ثرى إذا جمعت الوسطى والسبابة والإبهام ، وهى رأس الجوزاء .

الربع الرابع الشتاء

الرابع: الشتاء، وهو آخر أرباع السنة، وأول أنوائه «الهنعة» سميت بذلك لأنها كوكبان مقترنان كل واحد منهما منعطف على صاحبه، من قولك: هنعه، إذا عَطَفَ بعضَه على بعض، واقترانهما في المجرة بين الجــوزاء والذراع المقبوضة.

الذراعان

ثم الذراعان، وهى ذراع الأسد المبسوطة والمقبوضة: كوكبان نَيِّرَان بينهما كواكب صغار تسمى الأظفار.

النثرة

ثم النثرة، وهى لطخة لطيفة بين كوكبين، وهى عندهم ما بين فم الأسد وأنفه، ومن الإنسان فرجة ما بين الشار بين حِيَالَ وَتَرَةِ الأنف، وقيل: إنما سميت نثرة لأنها كقطعة سحاب نثرت.

(الطرف) عينا الأسد

ثم الطرف، عينا الأسد، وهما كوكبان صـغيران بينهما نحو قامة فى مَرْأى العين.

الجبهة

ثم الجبهة، أربعة كواكب معوجة، في اليماني منها بريق، وهى جبهة الأسد عندهم.

الزبرة

ثم الزبرة، نجمان يرى أحــدهما أكبر من الآخر، ويقال لهما «الخرتان» كأنهما نَفَذَا إلى جوف الأسد، والعيان يبطل ذلك، كما قال الزجاجى.

الصرفة

ثم الصرفة، كوكب وقاد عنـده كواكب طُمْس، سمى بذلك لانصراف البرد لسقوطه.

فهذه عدة المنازل وصفاتها، وإنما أضيفت إلى القمر دون الشمس، وحظهما فيه واحد؛ لظهورها معه، وتسمى نجوم الأخذ، كأن الأرض تأخذ عنها بركات المطر، وقيل: لأخذ الشمس والقمر سَمْتَهما في سيرها.

(٩٣) — باب فى معرفة الأماكن والبلدان

حد الحجاز

قال أبو عبيدة : الحِجَاز هو ما بين الْجُحْفَة وجبل طيء ، وإنما سمى حجازاً لأنه حَجَز ما بين نجد والغَوْر ، وحكى ابن قتيبة عن الرياشى عن الأصمعى : إذا خلفت حِجْراً مُصْعِداً فقد أنجدت ، فلا تزال مُنْجِداً حتى تنحدر من ثنايا ذات عِرْقٍ ، فإذا فعلت فقد أتْهَمْتَ إلى البحر ، فإذا عرضت لك الحِرَارُ وأنت مُنْجِد فتلك الحجاز ، وإذا تَصَوَّبْتَ من ثنايا العَرْج واستقبلك المَرْخ والأراك فقد أتهمت ، وسمى حجازاً لأنه حجز ما بين نجد وتهامة ، فأما محمد بن عبد الله الأسدى فقال : حد الحجاز الأول بطن نَخْلة وظهر جدة ، والحد الثانى مما يلى الشام شَغْبَى(١) وبَدَا ، والحد الثالث مما يلى تهامة بدر والسقيا ورهاط وعكاظ ، والحد الرابعساية [و] ودان ، ثم تنحدر إلى الحد الأول بطن نخل .

الجزيرة

وأما الجزيرة فإنها ما بين دِجْلَةَ والفُرَات والموصل ، والسوادان : سواد البصرة والأهواز ودست ميسان وفارس ، وسواد الكوفة كسكر إلى الزاب وحلوان إلى القادسية.

جزيرة العرب

وجزيرة العرب قال أبو عبيدة : هى فى الطول ما بين حَفِيرِ أبى موسى إلى أقصى اليمين ، وفى العَرْضِ ما بين يَبْرِين إلى السماوة .

وقال الأصمعى : هى ما بين نَجْرَان والعُذَيْب، حكاه ابن قتيبة عن الرياشى،

---

(١) فى الأصول « شعب » بالعين المهملة ، وصوابه ما أثبتناه ، وفيه وفى « بدا » يقول كثير :

وأنت التى حببت شغبى إلى بدا إلى ، وأوطانى بلاد سواها

قال : وحكى عنه أبو عبيدة أنها فى الطول من أقصى عدن إلى ريف العراق، وفى العرض من جدة وما والاها من طراز البحر إلى طراز الشام .

العراق

وقيل : سمى العراق تشبيهاً بعراق المَزَادة ، وهو موضع الخَرْز المستطيل فى أسفلها ، وقال بعضهم : هو جمع عِرْق ؛ لاشتباك عروق النخل والشجر فى تلك الأرض ، وقيل : إن اسمه كان بالفارسية « إيران شهر » أى : أسفل الأرض، فعربت .

الشام واليمن

وأما الشام واليمن فمن اليد اليمنى واليد الشؤمى ، وهى الشِّمال ؛ لأن الذى يستقبل الشمس تكون اليمن عن يمينه والشام عن شماله ، ويقال « شأم » بالهمز والتخفيف ، ومنهم من جعل الشام جمع شامة ، وهى النكتة تكون فى الجسم سوداء أو نحو ذلك ، وكذلك فى الأرض .

قال ذو الرمة :

وإن لم تكونى غيرَ شَامٍ بقَفْرَةٍ تجرُّ بها الأذيال صيفية كدرُ

(٩٤) — باب من الزجر والعيافة

الفرق بين الفأل والطيرة

وعنهما يكون الفأل والطِّيَرَةُ ، وبين الطيرة والفأل فَرْقَانِ عند أهل النظر والمعرفة والحقائق ؛ وذلك أن الفأل تقوية للعزيمة ، وتحضيض على البغية ، وإطماع فى النية ؛ والطِّيَرة تكسر النية ، وتصد عن الوجهة ، وتَثْنِى العزيمة ، وفى ذلك ما يعطل الإحالة على المقادير .

الرسول يحب الفأل ويكره الطيرة

وقد تفاءل النبى صلى الله عليه وسلم ونَهَى عن الطِّيَرَة فى قوله : « لا عَدْوَى ، ولا طِيَرَةَ ، ولا هامة ، ولا صَفَر » وقد تقدم ذكرها ، وقيل فى الهامة : إنها هذه المعروفة .

اشتقاق الطيرة

والطيرة من أحد شيئين : مشتقة إما من الطيَرَان ، كأن الذى يرى ما يكره أو يسمع يطير ، كما قال بعضهم :

عَوَى الذئبُ فاستأنستُ للذئب إذ عوَى
وَصَوّتَ إنْسَانٌ فَكِدْتُ أطيرُ

و إما من الطير ، وهو الأصل والمختار من الوجهين ، هكذا ذكر الزجاجي.

الزجر عند العرب

وكانت العرب تزجر الطير والوَحْش ؛ فمن قال بالقول الأول احتج بأن الوحش يُطَيَّر بها ، وزجرت مع الطير ، ومن قال بالقول الثانى قال : إنما كان الأصل فى الطير ، ثم صار فى الوحش ، وقد يجوز أن يغلب أحد الشيئين على الآخر فيذكر دونه و يرادان جميعاً .

أنشد الجاحظ :

ما يعيفُ اليومَ فى الطير الروَح من غُرَابِ البَيْنِ أو تيسٍ بَرَح

قال : فجعل التيس من الطير ؛ إذ قدم ذكر الطير وجعله من الطير فى معنى التطير ، والعرب تتطير بأشياء كثيرة : منها العطاس[1] ، وسبب تطيرهم منه دابة يقال له العاطوس يكرهونها ، والغراب أعظم ما يتطيرون به ، والقول فيه أكثر من أن يُطْلَب عليه شاهد ، ويسمونه حاتماً ؛ لأنه يحتم عندهم بالفراق ، ويسمونه الأعور على جهة التطير بذلك ؛ إذ كان أصح الطير بصراً ، ويقال : سمى أعور لقولهم : « عَوَّرْتُ الرجلَ عن حاجته » إذا

---

(١) وفيه يقول امرؤ القيس :

وقد أغتدى قبل العطاس بهيكل شديد،منيع الجيب ، نعم المطلق

أراد أنه يتنبه للصيد قبل أن يتنبه أحد لئلا يسمع عطاسا فيتشاءم به ؛ وكانوا إذا عطس من يحبونه قالوا له : « عمرا وشبابا » وإذا عطس من يبغضونه قالوا له « وريا وقحابا » والورى — بفتح فسكون — داء يصيب الكبد فيفسدها ؛ وكان الرجل منهم إذا عطس قال : « بكلابى » وكان تشاؤمهم بالعطسة الشديدة أشد .

رددته عنها ، وقد اعتذر أبو الشِّيصِ للغراب وتَطَيَّرَ بالإبل — وإن كان غيره سبقه إلى المعنى — فقال :

النَّاسُ يَلْحَوْنَ غرا بَ البينِ لما جهلوا
وما على ظهــــر غرا بِ البينِ تُطوَى الرحلُ
ولا إذا صــاحَ غرا بٌ في الديار احتملوا
ما فرَّق الأحبابَ بعــــد الله إلا الإبلُ
وما غــرابُ البينِ إ لاَّ ناقةٌ أو جَمَلُ

هكذا رويته ، وبعضهم يجعل الشعرَ * ماقرب الأحباب * وبعده * والناس يلحون . . * بواو مكان الهمزة يعطف بها

وقال آخر فملح وظرف :

زعموا بأنَّ مَطِيَّهُمْ عَوْنُ النوى والمؤذناتُ بِفُرْقَةِ الأحبــاب
لو أنها حَتْفِي لما أبغضــــتها ولهابهم سَـبَبٌ من الأسباب

مما يتطيرون به

ويتطيرون بالصُّرَد ، ومن أسمائه الأخْيَل ، والأخْطَب ، ويقال : الأخيل الشقراق ، ويقال : بل طائر يشبهه ، والولق أيضاً الصرد ، قال[1] زبان بن منظور الفَزَاري في حديث له كان مع نابغة بني ذبيان — وقد تطير من جَرَادة سقطت عليه فرجع من الغزو ومضى زبان فظفر وغنمَ :

(١) روى المؤلف هذه القصة معكوسة ، ولم يصب في ضبط أعلامها . والصواب فيها أن النابغة الذبياني كان يسير مع زياد بن سيار يريدان الغزو ، فرأى زياد جرادة ، فقال : حرب ذات ألوان ، ثم رجع ، ومضى النابغة في سبيله ، فلما رجع غانما قال:

يلاحــظ طيرة أبدا زياد لتخبره ، وما فيها خبير
أقام كأن لقمان بن عاد أشار له بحكمته مشير

وبعد هذين البيتين البيتان اللذان رواهما المؤلف (وانظر ديوان النابغة ص٦٥).

تعلّم أنه لا طــيرَ إلاّ على مُتَطَيرٍ ، وهى الثبورُ
بلى شىء يوافق بعض شىء أحايينا ، وباطله كثيرُ

يقولها فى أبيات لا أقف على(1) جملتها .

وقال شاعر قديم لزبان أيضاً :

لا يمنعنك من بِغَــــا ء الخير تَعْقَادُ التمــائمْ
لا ، والتشــاؤمُ بالعُطا س ولا التيامنُ بالمقاسمْ
ولقد عدوت وكنتُ لا أعــدُو على وَاقٍ وحاتمْ
وإذا الأشائمُ كالأيا من ، والأيامنُ كالأشائمْ
قــــدخُطّ ذلك فى الزبو ر الأولياتِ القدائمْ

ويتشاءمون بالثور الأعضب ، وهو المــكسورُ القَرْنِ .

وقال الـكميت ينفى الطير ويدفعها عن نفسه :

ولا أنا مِمّنْ يزجرُ الطيرَ هَمُّهُ أصاحَ غرابٌ أم تعرّض ثعلب
ولا السانحاتُ البارحات عشيّةً أمرّ صحيحُ القرن أم مرّ أعضب

والبيت الأول من هذين يشبه بيت الأعشى الذى أنشده الجاحظ .

ومن أمثال العرب «فلان كبارح الأروى» وفيه قولان : أحدهما أن الأروى يُتَشَاءم بها ، فإذا كانت بارحا فقد عظم الأمر ، والآخر أنها إنما تــكون فى قرون الجبال ، ولا تكاد تــكون سانحة ولا بارحة .

السانح والبارح

وفى السانح والبَارح اختلاف : قال عمرو بن العلاء : سأل يونس رؤبة عن السانح والبارح ، فقال : السانح ما ولاك ميامنه ، والبارح ما ولاك مياسره ،

(1) انظر الهامشة التى قدمناها فى الصفحة السابقة .

قال ابن دريد : السانح يتيمن به أهل نجد ويتشاءمون بالبارح ، ويخالفهم أهلُ العالية فيتشاءمون بالسانح ويتيمنون بالبارح .

قال الشاعر الهذلى يذكر امرأته :

زَجَرْتُ لها طير السنيح فإن يكن هواك الذى تهوى يصبك اجتنابها

قال : والسانح: الذى يلقاك ومیامنه عن ميامنك ، والبارح الذى يلقاك وشمائله عن شمائلك ، والجابه والناطح : اللذان يستقبلانك ، والقعيد : الذى يأتيك من ورائك .

قال صاحب الكتاب : الكارس الذى ينزل عليك من الجبل ، حكاه الثعالبى ، قال أبو جعفر النحاس : السنيح عند أهل الحجاز : ماأتى عن اليمين إلى اليسار ؛ والبارح عندهم: ما أتى من اليسار إلى اليمين ، وهم يتشاءمون بالسانح ، و يتيمنون بالبارح ، وأهل نجد بالضد من ذلك ، والسانح عندهم هو البارح عند أهل الحجاز .

وقال المبرد : السانح : ما أراك مياسره فأمكن الصائد ، والبارح : ما أراك ميامنه فلم يمكن الصائد إلا أن ينحرف له .

وقد يتطيرون من البازى والغراب وأشياء كثيرة من جهة التسمية ، و يتيمن بها آخرون .

من مليح الزجر

ومن مليح ما رأيت فى الزجر والعيافة ، قال الصولى : كان لأبى نواس إخوان لا يفارقهم ، فاجتمعوا يوماً فى موضع أخفوه عنه ؛ ووجّهوا إليه برسول معه ظهر قرطاس لم يكتبوا فيه شيئاً ، وحزموه بزير وختموه بقار ، وتقدموا إلى رسولهم أن يرمى بالكتاب من وراء الباب ، فرمى به، فلما رآه استعلم خبرهم فعلم أنه من فعلهم وتعرف موضعهم وأتاهم فأنشدهم :

زجرت كتابكم لما أتانى كزَجْرِ سَوَانح الطير الجوارى

نظرت إليه مخـــزوماً بزير ... على ظهر ، ومختوماً بقـــار

فقلتُ : الزير مُلْهِية ومُــلْهٍ ... وقلت : القار من دن العقار

وقلت : الظهر أهيف ذو جمال ... تركّبَ صُدْغُه فوق العذار

فجئت إليـكم طرباً وشوقاً ... فما أخطأت داركم بدارى

فـكيف ترونني وترون زَجْرِى ... ألَسْتُ من الفلاسفة الـكبار ؟!

(٩٥) — باب ذكر المعاظلة والتثبيج

حقيقة المعاظلة واشتقاقها

العظال فى القوافى : التضمين ، حكاه الخليل بن أحمد ، وزعم قدامة أن المعاظلة سوء الاستعارة ، وهو عندهم مشتق من التداخل والتراكب ، ومنه « تعاظلت الجراد والـكلاب » وأنشد قدامة بيتَ أوس بن حَجَر :

وذات هِدْمٍ عارٍ نواشِرُهَا ... تُصْمِتُ بالمـاء تَوْلَبا جدعا [1]

لأنه قد أساء الاستعارة عنده ؛ لجعله الطفل تولبا ، وهو ولد الحمار .

التثبيج

وأما التثبيج فهو طول الـكلام واضطرابه ، ولا يقال « كلام مثبج » حتى يكون هكذا ، ويقال : رجل مثبج الخلْقِ ، إذا كان طويلا فى اضطراب ، والتثبيج عند الصولى فى الخط ألا يكون بيِّنا ، وكذلك هو الـكلام .

رأى آخر فى المعاظلة

وزعم قوم أن المعاظلة تداخل الحروف وتراكبها ، كما عيب على كعب بن زهير قوله :

تجلو عوارِضَ ذى ظَلْمٍ إذا ابتسمت ... كأنه مُنْهَلٌ بالراح مَعْلُولُ

وعاب ابن العميد حبيباً لقوله :

كريم متى أمْدَحْه أمدحه والورى ... معى ، ومتى مالمته لمته وحدى

بالتـكرير فى « أمدحه أمدحه » مع الجمع بين الحاء والهاء فى كلة ، وهما معاً من حروف الحلق ، وقال : هو خارج عن حد الاعتدال ، نافر كل النفار ، حكى ذلك عنه الصاحب بن عباد .

(١) انظر ص ٢٥٠ السابقة .

وزعم آخرون أنها تركيب الشىء فى غير موضعه ، كقول الكميت ابن زيد : رأى ثالث فى المعاظلة

وقد رأينا بها حُوراً مُنَعّمَةً بيضاً تَكامَلَ فيها الدَّلُّ والشَّنَبُ

وهذا البيت مما عابه عليه نصيب .

ومثله عندى قول أبى الطيب :

يحمل المسك عن غدائرها الريـــح ويَفْتَرُّ عن شنيب[1] بَرُودِ

(٩٦) — باب الوَحْشى المتكلّف، والركيك المُسْتَضْعَف

الوَحْشى من الكلام : ما نفر عنه السمع ، والمتكلف : ما بَعُد عن الطبع ، والركيك : ماضعفت بنيته ، وقَلّتْ فائدته ، واشتقاقه من الرَّكَّةِ ، وهى المطر الضعيف ، وقيل : من الركّ ، وهو الماء القليل على وجه الأرض . الوحشى من الكلام والتكلف والركيك

وأنشد النحاس

تهادى كموم الرَّكّ يقطعه الحيا بأبطحَ سهلٍ حين تمشى تأوّدَا

و«فلان ركيك» أى : ضعيف العقل ، ويقال للوحشى أيضا : حُوشِيٌّ ، كأنه منسوب إلى الحوش ، وهى بقايا إبل وَبَارٍ بأرض قد غلبت عليها الجن فعمرتها ونفت عنها الإنس ، لا يطؤها إنسى إلا خَبَلُوه.

قال رؤبة :

* جَرّتْ رجالاً من بلادِ الحوش *

و إذا كانت اللفظة خَشِنة مستغربة : لا يعلمها [إلا] العالم المبرز ، والأعرابى القحُّ ؛

---

(١) فى الأصول « عن شنب » وهو تصحيف ، والشنيب : الثغر الذى فيه الشنب ، وهو حدة الأسنان ، وقيل : الرقة والعذوبة . والبرود — بفتح الباء — البارد

فتلك وَحْشِية ، وكذلك إن وقعت غير موقعها ، وأتى بها مع ما ينافرها ، ولا يلائم شكلها .

أبو تمام وولعه بالوحشى والمتنبى

وكان أبو تمام يأتى بالوَحْشِى الخشن كثيراً و يتكلف.

وكذلك أبو الطيب كان يأتى بالمستغرب ليدل على معرفته ، نحو قوله :

* كل آخائهِ كرام بنى الدنيا ولٰكنَّهُ كريمُ كرامِ *

وهذا مع غرابته وتكلفه غير محمول على ضرورة يكون فيها عذر ؛ لأن قوله « كل إخوانه » يقوم مَقَامه بلا بغاضة .

أمثلة من التكلف

ومن التكلف قول إبراهيم بن سيار للفضل بن الربيع ، ويروى أيضاً لإبراهيم بن شبابة :

هبنى ظلمتُ وما ظلمتُ بلى ظلمـــت أقرُّ كى يزداد طَوْلُكَ طولا
إن كان جُرْمِى قد أحاط بحرمتى فأحِطْ بجرمى عَفْوكَ المأمُولا

فتبارك الله كأنهما لم يخرجا من ينبوع واحد .

قال إبراهيم بن المهدى لِعبد ٱلله بن صاعد كاتبه : إياك وتَتَبُّعَ الوَحْشى من الـكلام طمعاً فى نيل البلاغة ؛ فإن ذلك هو العِيُّ الأكبر ، عليك بما سهل مع تجنبك ألفاظ السفل .

من كلام أبى تمام فى البلاغة

وقال أبو تمام يمدح الحسنَ بن وَهْب بالبلاغة :

لم يتبع شنع اللغات ، ولا مَشَى رَسْفَ المقيدِ فى طريق المنطق
ينشقُّ فى ظُلَمِ المعانى إن دَجَتْ منه تباشيرِ الـكلام المفـــلقِ

وقال على بن بسام :

ولاخيرَ فى اللفظِ الـكريهِ استماعُهُ ولافى قبيح اللَّحْنِ والقصدُ أزْيَنُ

أسباب إشكال الـكلام

قال على بن عيسى الرمَّانى : أسباب الإشكال ثلاثة : التغيير عن الأغلب كالتقديم والتأخير وما أشبهه ، وسلوك الطريق الأبعد ، و إيقاع المشترك ، وكل

ذلك اجتمع فى بيت الفرزدق :

وما مثلهُ فى الناسِ إلا مملكاً أبو أمــهِ حىٌّ أبوه يقاربه

فالتغيير عن الأغلب سوء الترتيب ؛ لأن التقدير « وما مثله فى الناس حى يقارب به إلا مملكا أبو أمه أبوه » يريد بالملكِ هشامَ بنَ عبدِ الملك ، والممدوح هو إبراهيم بن هشام خال هشام بن عبد الملك ؛ وأما سلوك الطريق الأبعد فقوله « أبو أمه أبوه » وكان يُجْزِئه أن يقول « خاله » وأما المشترك فقوله « حى يقار به » لأنها لفظة « حى » تشترك فيها القبيلة والحى من سائر الحيوان [المتصف] بالحياة ، قال : و إذا تفقدت أبيات المعانى رأيتها لا تخرج عن هذه الأسباب الثلاثة .

للبحترى فى وصف البلاغة

وحكى الصولى قال : أنشدنى بعض الكتاب عن أحمد بن يحيى ثعلب قول البحترى للحسن بن وهب :

و إذا دَجَتْ أقلامهُ ثم انتحت بَرَقَتْ مصابيحُ الدجى فى كُتْبِهِ
فاللفظُ يقربُ فهمه من بعدهِ منَّا ، و يبعد نَيْـــلهُ فى قر بهِ
حكمٌ سحائبها خـــلالَ بنانه هطَّالةٌ ، وقليبها فى قلبـــهِ
كالروض مؤتلفاً بحمرةِ نورهِ و بياض زهرته وخضرة عُشْبِهِ
وكأنها والسمعُ معقودٌ بهـا وجه الحبيب بدا لعين محبـــه

واستعادها أبو العباس حتى فهمها ، ثم قال : لو سمع الأوائل هــذا الشعر لما فَضَّلوا عليه شعراً .

(٩٧) — باب الإحالة والتغيير

وهذه لمح أتيت بهـــا تدل من عرَفَها على رداءتها ، وتدعو إلى كراهتها واجتنابهـا ، وقد وقعت فى أشعار الجلّة من المتقدمين ، والتمس لهم فيها العذر لأنهم أرباب اللغة وأصحاب اللسان ، وليس المولد الحضرى منهم فى شىء

أمثلة من الإحالة

فمن الإحالة قولُ ابن مقبل :

أما الأداةُ ففينا ضمرٌ صَنَعٌ جودٌ حواجز بالألبادِ واللجمِ
ونسج داود من بِيض مُضَاعفةٍ من عهدعادٍ، و بعدَ الحيِّ من إرم

فكيف يكون نسج داود من عهد عاد؟ اللهم إلا أن يريد فينا ضمر صنع من عهد عاد؛ فذلك له على سبيل المبالغة ، مع أن الإحالة لم تفارقه ، وكم بين قيس عيلان و بين عاد ، فضـلا عن بنى العجلان ؟ !

وقال عبد الرحمن بن حسان :

وإنْ مالَ الضجيع بِهاَ فَدِعْصٌ من الكُثْبَانِ مُلْتَبِدٌ مَهِيلُ

قالوا : وكيف يكون ملتبداً مَهيلا ؟ هذا مستحيل متناقض ، والذى عندى فيه أنه صواب ؛ لأنه إنما أراد بالْتِبَاده صلابة ملمس العجيزة ، وأنها غير مسترخية وجعله مهيلا لارتعاده واضطرابه من العظم ، كما قال ابن مقبل :

يمشينَ هَيْلَ النَّقَاسالتْ جَوَانِبُهُ يَنهاَلُ طوراً، و ينهاهُ الثّرى حِيناَ

فقد جعله مرة ينهال ، ومرة ينهاه الثرى والثنى الذى فيه . .

أمثلة من التغيير

وقال جميل فى التغيير :

لاحسنها حُسْنٌ ، ولا كدلالها دَلٌّ ، ولا كوقارها توقيرُ

فحذف كاف التشبيه فصار المعنى كأنه ليس حسنها حسنا [1] ، وقد يغيرون اللفظ كما قال النابغة :

ونَسْج سُلَيمٍ كُلَّ قَضَّاء ذائلِ [2]

وهذا أسهل من قول الآخر :

---

(١) هذا فى قولها « لا حسنها حسن » لأنه يريد لا مثل حسنها حسن ، أو نحوه

(٢) فى الأصل « ذابل » بالباء موحدة ، وفى الديوان « ذائل » بالهمز ، وصدر هذا قوله * وكل صموت نثلة تبعية * والصموت : الدرع الثقيلة التى=

مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ أَبِى سَلَّامِ

وهذا كثير يخرج منه فى هذا الموضع ما ذكرت .

(٩٨) باب الرخص فى الشعر

هل يجوز للمولد ارتكاب الضرورة ؟

وأذكر هنا ما يجوز للشاعر استعماله إذا اضْطُرَّ إليه ، على أنه لا خير فى الضرورة ، على أن بعضها أسهل من بعض ، ومنها ما يسمع عن العرب ولا يعمل به ؛ لأنهم أتوا به على جِبِلَّتهم ، والمولد المحدث قد عرف أنه عيب ، ودخوله فى العيب يلزمه إياه .

مثل من الضرورات

فمن ذلك قصر الممدود على مذاهب أهل البصرة والكوفة جميعا ، وله ـ على ما أجاز الكوفيون ـ وصل ألف القطع ، وهو قبيح . . قال حاتم طيء :

أبوه أبى ، والأمهاتُ أُمَّهَاتُنَا فأنعمْ فداكَ اليومَ أهلى ومعشرى

قال بعضهم : إنما الرواية « والأم من أمهاتها »

وله تخفيف المشدد فى القافية ، وأما فى حشو البيت فمكروه جداً ، وحذف التنوين لالتقاء الساكنين ، وربما حذفوا النون الساكنة . . كما قال :

فلست بآتِيهِ ولا أستطيعُهُ وَلَاكِ اسْقِنِى إن كان ماؤكَ ذا فضل [1]

وأن يحذف للألف واللام أو الإضافة ما يحذف للتنوين مثل قول خُفَاف :

= إذا صبت لم يسمع لها صوت . والنثلة ـ ومثلها النثرة ـ الواسعة من الدروع ، والقضاء : الدرع المسحورة الخشنة المس من جدتها لم تنسحق بعد . والذائل : الطويلة الذيل ، ويقال : درع ذائل وذائلة .

(١) البيت للنجاشى (انظر كتاب سيبويه ج ١ ص ٩) . وأصل الكلام : « ولكن اسقى » لكنه لما اضطر حذف نون « لكن » تشبيها لها بالتنوين

كَنَوَاحِ ريش حمامة نجــــدية ومسحت بِاللِّثَتَيْن عَصْفَ الإثمد(١)

وأن يحذف حرفا من الـكلمة كقول العجاج :

* قَواطنًا مكةَ من وُرْق الحَمِي *(٢)

وحرفين كقول عَلْقَمة بن عبدة :

* مُفَدَّم بسَبَا الـكتان مَلْثُومُ *(٣)

يريد بسبائب الـكتان ، وأن يحذف من المـكنى فى الوصل ما يحذف منه فى الوقف . . كقول الشاعر :

* سأجعلُ عينيه لِنفْسِهِ مَقْنَعاً *(٤)

وأقبح منه أن يحذف من المـكنى المنفصل كقول الآخر :

فَبَيْنَاهُ يَشْرِى رَحْلَهُ قال قائل : لمنْ جَمَلٌ رِخْوُ المِلَاطِ نَجِيبِ؟

وأقبح من ذلك أن يحذف الألف من ضمير المؤنث . . أنشد قطرب :

أما تقولُ به شاةٌ فيأ كلها أو[أن] تبيعهَ فى بعض الأرا كيب

أراد « تبيعها » فحذف الألف ، قال : ولا يجوز استعمال هذا للمحدث

---

(١) أراد « كنواحى ريش – إلخ » فحذف الياء مع الإضافة ضرورة تشبيها بحال الإفراد والتنوين وحال الوقف ، يصف شفق امرأة فشبههما بنواحى ريش الحمامة فى رقتهما ولطافتهما وحوتهما ، وأراد أن لثاتها تضرب إلى السمرة فكأنها مسحت بالإثمد .

(٢) أراد « الحمام » فغيرها إلى ماترى ، وفى ذلك وجوه أحسنها أن يكون قد حذف الميم الثانية للضرورة ثم قلب الألف ياء بعد كسر الميم الأولى .

(٣) صدره * كأن إبريقهم ظبى على شرف *

(٤) هذا عجز بيت لمالك بن خريم الهمدانى ، وصدره * فإن يك غثا أو سمينا فإننى * أراد « لنفسهىْ » فحذف الياء ضرورة . وصف ضيفا فهو يقول : سأقدم إليه ماعندى غثا كان أو سمينا ، وأحكمه فيه ليختار أفضل ماترى عيناه فيقنع بذلك .

لشذوذه وقبحه ، ويجوز له حذف الياء والواو من المضمر المذكر لكثرته واطراده ، وللشاعر أن يحذف اسم « ليتِ » إذا كان مضمراً . . أنشد المفضل لعدىّ ابن زيد :

فليتَ دفعتَ الهمَّ عنىَ ساعةً   فبتنا على ما خيلتَ نَاعِمَىْ بال

يريد « ليتك »وله حذف الفاء من «افتعلته» من التقوى وماتصرف منها ، أنشد المفضل لخداش بن زهير :

تَقُوهُ أيهـــا الفتيانُ؛ إنى   رأيتُ اللهَ قد غلبَ الجدودا

وأنشد أبو زيد الأنصارى :

إنَّ المنيةَ بالفتيانِ ذاهبـــةٌ   وإن تَقُوهَا بأرماحٍ وأدراعِ

وحذف الفاء من جواب الجزاء كما قال :

يا أقرَعُ بْنَ حابسٍ يا أقرعُ   إنك إن يُصْرَعْ أخُوكَ تُصْرَعُ[1]

قال سيبويه : تقديره[1] إنك إن يُصرع أخوك فتصرع .

ومثله أيضاً :

مَن يفعل الحسناتِ اللهُ يشكرها   والشر بالشرّ عنـــد الله مثلان

يريد « فالله يشكرها » وهــذا أبين من الأول ، وحذف النون من تثنية « الذى » وجمعه

---

(١) فى الأصول * إنك إن تصرع أخاك تصرع * وهو غير رواية سيبويه وغيره من النحويين ، ولذلك أثبتنا روايتهم ، وفيما نقله المؤلف عن سيبويه خطأ غير وجه الكلام وجعل المعنى فاسدا ، وعبارة سيبويه (ج ١ ص ٢٣٦) هكذا «أراد إنك تصرع إن يصرع أخوك» ومعنى هذا أن جواب الشرط محذوف ، وجملة « تصرع » مع نائب الفاعل فى محل رفع خبر إن .

قال الأخطل :

أبنى كُلَيْبٍ إنَّ عَمَّىَّ اللَّذَا قَتَلاَ الْمُلُوكَ وفَكَّكَا الأَغْلاَلاَ

وأنشد سيبويه :

وإنَّ الَّذِى حَانَتْ بِفَلْجٍ دِمَاؤُهُمْ هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يا أُمَّ خَالِدِ

أراد « الذين » وعلى هذا قال أبو الطيب :

ألستَ من القوم الذى من رماحهم نَدَاهُمْ ، ومن قَتْلاَهُم مُهْجَةُ البُخْلِ

ويجوز أن يكون جعل « الذى » للجماعة والواحد كما جعل « مَنْ » وقد حكى ذلك الزجاجى .

قال ابن قتيبة فى قول الله عز وجل : (كمثل الذى أستوقدَ ناراً فلما أضاءتْ ما حوله ذهب الله بنورهمْ وتركهمْ فى ظلماتٍ لا يبصرون) : إن « الذى » ههنا بمعنى الذين ، والله أعلم .

وحذف الياء من « الذى » فمنهم من يسكن الذال بعد الحذف ، ومنهم من يدَعُها مكسورة على لفظها ، أنشد البصريون والكوفيون جميعاً :

فَظلْتَ فى شَرٍّ من اللَّذْ كِيدَا كَمَنْ تَزَبَّى زُبْيَةً فَاصْطِيدَا

ويروى * كاللذْ تزبى زبيةً فاصطيدا * فجمع بين اللغتين[1] . ونظير هذا حذف الياء من « التى » وإسكان التاء ، وأنشدوا :

فَقُلْ لِلَّتْ تَلُومُكَ : إنَّ نَفْسِى أَرَاهَا لاَ تُعَوَّذُ بالتَّمِيمِ

وحذف الياء والتاء من « اللواتى » ، أنشد الزجاجى :

---

(١) كلا ، بل هى لغة واحدة ؛ فإن ذال الكلمتين فى الشطر الأول والثانى على الرواية الثانية — وهى المشهورة المعروفة فى أكثر كتب النحو والأدب — ساكنة ، يعلم ذلك من له أدنى مسكة بعلم .

جَمَعْتَها مِنْ أَيْنُقٍ غِـــزَارِ مِنَ اللَّوَا شرفنَ بالصِّرَارِ

وحذف الموصول وترك الصلة . كما قال يزيد بن مُفَرِّغ :

عَدَسْ ما لِعَبَّادٍ عَلَيْكِ إِمَارَةٌ نَجَوْتِ وَهٰذَا تحملين طليقُ

أراد « وهذا الذى تحملين » فحذف[١] .

وحذف اسم « إن » و «لـكن» .كما قال :

ولـكنَّ مَنْ لاَ يَلْقَ أَمْراً يَنُوبُهُ بِعُدَّتِهِ يَنزِلْ به وَهْوَ أَعْزَلُ

فحذف الهاء من « لـكنه » لأنه قد جازى بمن ، ولو أعمل فيها « لـكن » لم يجز أن[٢] يجازى بها .

ومثله قول الآخر[٣] :

إنَّ مَنْ يَدْخُلِ الـكنيسةَ يوماً يَلْقَ فيهـــا جآذرا وظباء

أرادَ « إنه » . ويبدلون من الحروف السالمة حروف المد واللين ، وأنشدوا :

---

(١) فى كلام المؤلف خطأ ، وبيان الموضوع أن الـكوفيين ذهبوا إلى جواز مجىء أسماء الإشارة أسماء موصولة مع اتصال حرف التنبيه بها ، واستشهدوا على ذلك بهذا البيت فقالوا : إن « هذا » اسم موصول بمعنى الذى ؛ فليس هو من حذف الموصول وإبقاء صلته عندهم ، والبصريون يمنعون مجىء « هـذا » وغيره من أسماء الإشارة مع حرف التنبيه أسماء موصولة ، وعندهم أن « هذا » اسم إشارة مبتدأ ، وخبره « طليق » فى آخر البيت ، وجملة « تحملين » فى محل نصب على الحال ، أى وهذا طليق حال كونه محمولا عليك ؛ فتخريجه للبيت لا يوافق أحد المذهبين .

(٢) أى : لأن أسماء الشرط لها الصدارة فى الـكلام فـلا يعمل ما قبلها فيها ، ومن الذى تستحقه أن يتأخر عنها ما يعمل فيها نحو قوله تعالى : (أياما تدعوافله الأسماء الحسنى) وهنا لا يمكن ذلك ؛لأن « لـكن» حرف ، وهو لا يعمل متأخرا فلذلك تقدم « لـكن » وقدر اسمه ضمير شأن ، وجملة الشرط والجواب فى محل رفع خبر « لـكن » فافهم ذلك .

(٣) ينسب للأخطل .

لها أشارير من لحم تُتَمِّره من الثعالى ووخز من أرانيها

أراد « من الثعالب » « ومن أرانبها » ويلينون الهمزة ، وذلك كثير جدا جائز فى المنثور والفصيح ، وله حذف ألف الاستفهام ، كما قال الأخطل :

كَذَبَتْكَ عَيْنُكَ أم رأيت بواسطٍ غَلَسَ الظلامِ من الرَّبَابِ خَيَالاَ

وهذا ردىء فى المنثور جداً .

ونقصان الجموع عن أوزانها لضرورة القافية كما قال رؤبة :

* حتى إذا بلَّتْ حلاقيم الحُلقْ *

يريد « الحُلُوق » وترك صرف ماينصرف ؛ لأنه يحذف منه التنوين وهو يستحقه ، وهو غير جائز عند البصريين ، إلا أنه قد جاء فى الشعر . قال عباس بن مرداس يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وما كان حِصْنٌ ولا حَابِسٌ يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ فى مَجْمَعِ

وعلى هذا المذهب قال أبو نواس :

عبَّاسُ عباسٌ إذا احتدم الوغا والفَضْلُ فَضْلٌ والربيعُ ربيعُ

ويروى * إذا حضر الوغا * والفراء يرى ترك الصرف لعلة واحدة ، وهى التعريف ، والبصريون يخالفونه فى ذلك ويأبونه .

ومن أقبح الحذف حذف حركة الإعراب للضرورة، وأنشدوا لامرىء القيس :

فاليوم أَشرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ إثمًا مِنَ اللهِ وَلاَ وَاغِلِ

ومثله للفرزدق :

رُحْتِ وفى رِجْلَيْكِ ما فيهما وَقَدْ بَدَاهَنْكِ مِنَ المِئْزَرِ

وزعم قوم أن الرواية الصحيحة فى قول امرىء القيس * اليوم أُسْقَى * وبذلك كان المبرد يقول ، وقال الآخرون: بل خاطَبَ نفسَه كما يخاطب[1] غيره ،

(١) يريد أن قوله « اشرب» فعل أمر مبنى على السكون ، وليس فعلا مضارعا فورد على هذا أن الهمزة فى « أشرب » همزة قطع ، ونحن نعلم أن همزة أمر الثلاثى همزة وصل ، فقيل: إن الرواية «فاليوم فاشرب» وقد أشار المؤلف إلى هذا الجواب .

قال : فاليوم فأشْرَبْ ، وفى بيت الفرزدق * وقد بدا ذَاكِ من المئزر * كناية عن الهن ، وهذا مما يسمع ويحكى ، ولا يقاس عليه البتة .

هذا صدر جيد مما علمته يجوز للشاعر من الحذف والنقصان .

ضرورات الزيادة

والذى يجوز له من الزيادات أنا ذاكرمنه أيضاً ماوسعته قدرتى، إن شاء الله تعالى:

فمن ذلك صرف مالا ينصرف ، وإجراء المعتل مجرى الصحيح ؛ فيعرب فى حال الرفع والخفض ، تقول : هذا القاضىُ ، ومررت بالقاضىِ ، وزيد يَقْضِىُ ويَغْزُوُ ، ولا يجوز فى المنثور من الكلام ، وعلى هذا قول قيس ابن زهير :

ألم يأتيكَ والأنباء تنمى بما لاقت لَبُونُ بنى زياد

كأنه يقول فى الرفع يأتيُك بضم الياء ، فلما جزمها أسكنها.

ومنهم من يبدل من الياء همزة ، وهو القليل ، فيقول : القاضىْ ، والغازىْ ، وأنشد :

يا دارَ سلمى بدكاديك البُرَقْ سقياً وإن هيجتِ شوق المُشْتَئِقْ

همز الياء ، وليس أصلها الهمزة .

وله إظهار التضعيف كقوله :

يشكو الوَجَى من أظللٍ وأظلل

وإنما هو « الأظلّ » وهو باطن خف البعير.

وتثقيل المخفف فى وصل الكلام على نية من يقف على التثقيل ، وأنشدوا :

ببازِلٍ وجناء أو عَيْهَلّ كأنّ مَهْوَاهَا عَلَى الكلْكَلّ

موقع كَفَّىْ راهبٍ يُصَلّى

فثقل «العيهل» وهى السريعة ،و «الكلكل» فى صلة الشعر،وهما مخففتان

وله إدخال النون الخفيفة أو الثقيلة فى الواجب ، وإنما تدخل فيما ليس بواجب ، نحو الأمر والنهى والاستفهام . قال القطامى :

وهمُ الرجالُ ،وكلُّ ذلك منهمُ يحزنَّ فى رَحْبٍ وفى مُتَضَيِّقِ

وأنشدوا لآخر ، وهو جَذِيمة الأبرش:

رُبَّمَا أُوفَيْتُ فى عَلَمٍ تَرْفَعَنْ ثوْبِى شمَالاتُ

وله إدخال الفاء فى جواب الواجب ، والنصب بها على إضمار « أن » . قال طرفة :

لنا هَضْبَة لا يَنْزِلُ الذلُّ وَسْطَهَا ويأوى إليها المستجيرُ فيُعْصَما

فنصب بالفاء على الجواب .

وقال آخر :

سأترك مَنزلى لبنى تميمٍ وألحَقُ بالحجاز فأستريحا

وقَطْعُ ألف الوصل لأنه زيادة حركة ، والجزم بحرف وحرفين ، وأكثر من ذلك ، وقد مضى فيما تقدم من هذا الكتاب .

وزيادة حرف فى المجموع نحو قول الشاعر :

تَنفى يَدَاهاَ الحصى فى كل هاجرةٍ نَفْىَ الدَّراهيمِ تنقادُ الصياريفِ

فزاد ياء فى « الدراهم » وياء فى « الصيارف » إن لم تكن الرواية تختلف، على أن الدراهم لا يضطر فيها إلى زيادة الياء ؛ إذ كان الوزن يقوم دونها ، وإن قيل فى بعض اللغات « دِرْهَام » .

وله على مذاهب الكوفيين خاصة مد المقصور ، وقد ألزم ابن ولادٍ البصريين مده على مذهب سيبويه فى امتناع الحركة

ويجوزله التقديم والتأخير ، كما قال العُجَيْر السَّلولى :

وما ذاك إن كان ابنُ عمى ولا أخى ولكن متى ما أملك الضرَّ أنفعُ

بالرفع ، أراد ولـكن أنفع متى ما أملك الضر ، ولا أدرى ما الفرق بين هذا وبين * إن يُصْرَعْ أخوكَ تصرع * حيث فرقوا بينهما[1] غير أنا نسلم لهم كما سلم من هو أثقب منا حسا وأذكى خاطرا

وقال عمرو بن قميئة :

لما رأت ساتيدَما استعبرتْ لله درُّ اليومَ مَنْ لاَمَهَا

وهذه أشباه من القرآن وقعت فيه بلاغة وإحكاماً لا تصرفا وضرورة ، وإذا وقع مثلها فى الشعر لم ينسب إلى قائله عجز ولا تقصير ، كما يظن من لا علم له ولا تفتيش عنده :

الإخبار عن واحد من اثنين

من ذلك أن يذكر شيئين ثم يخبر عن أحدهما دون صاحبه اتساعا ، كما قال الله عزَّ وجلَّ : (وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها) . أو يجعل الفعل لأحدهما ويشرك الآخر معه ، أو يذكر شيئاً فيقرن به ما يقاربه ويناسبه ولم يذكره ، كقوله تعالى فى أول سورة الرحمن : (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وقد ذكر الإنسان قبل هذه الآية دون الجان ، وذكر الجان بعدها .

وقال المثقب العبدى :

فما أدرى إذا يممتُ أرضا أريد الخيرَ أيُّهُمَا يلينى

أألخيرُ الذى أنا أبتغيه أم الشرُّ الذى هو يبتغينى

فقال « أيهما » قبل أن يذكر الشر ؛ لأن كلامه يقتضى ذلك .

حذف جواب القسم وغيره

وأن يحذف جواب القسم وغيره ، نحو قوله عز وجل : (ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم) وقوله : (والنازعات غرقا) إلى قوله : (يوم ترجف الراجفة) فلم يأت بجواب ؛ لدلالة الـكلام عليه ، وقال عز وجل :

---

(١) قد عرفت مما نقلناه لك عن سيبويه أن مخرجيهما فى العربية واحد ، فلا محل لما قال .

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤفٌ رحيم) أراد « لعذبكم » أو نحوه
ومن هذا قول امرىء القيس :

ولو أنها نفسٌ تَمُوتَ جَمِيعَةً ولـكنها نفسٌ تَسَاقَطُ أنفسا

وقد تقدم ذكره .

إضمار مالم يجر له ذكر.

ومن ذلك إضمار مالم يذكر كقوله جل اسمه : (حتى توارت بالحجاب) يعنى الشمس ، وقوله : (فأثرن به نقعاً) ولم يجر للوادى ذكر
وقال حاتم طيىء :

أماوىَّ ، ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وضاقَ بها الصَّدْرُ؟

يعنى النفس ، وأنشد ابن قتيبة عن الفراء :

إذا نُهِىَ السفيه جرى إليه وخالف ، والسفيه إلى خلاف

يعنى « جرى إلى السَّفَه »

حذف « لا » وزيادتها

وحذف « لا » من الكلام وأنت تريدها ، كقوله تعالى (كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم) وزيادة « لا » فى الكلام كقوله سبحانه (ومايشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون) فزاد « لا » لأنهم لا يؤمنون ، هذا قول ابن قتيبة ، وقال جل اسمه : (ما منعك أن لا تَسْجُدَ) أى : ما منعك أن تسجدَ ، قال : وإنما تزاد « لا » فى الكلام لإباء أو جَحْد ، وقال : (لِئَلاَّ يعلم أهلُ الكتاب أن لايقدرونَ على شىء من فضل الله) أى : ليعلمَ .

وقال أبو النجم :

* فما ألوم النجمَ أن لا تسهرا *

يريد « أن تسهرا » .

حذف المنادى

وحذف المنادى كقوله تعالى : (ألاّ يا اسجدوا لله) كأنه قال « ألا يا هؤلاء اسجدوا لله » وقال ذو الرمة فى مثل ذلك :

الا يا سلمى يا دارَمىّ على البلى ولا زال مُنْهلاً بجَرْعائك الْقَطْر

خطاب الواحد كالاثنين والجماعة

وأن يخاطب الواحد بخطاب الاثنين والجماعة ، أو يخبر عنه ، كقوله تعالى : (إنّ الذين ينادونك من وراء الحجرات) و إنما كان رجلا واحدا ، وقوله (ألقيا فى جهنم) و إنما يخاطب مالـكا خازن النار ، وقيل : بل أراد ألقِ ألقِ ، فثنى[1] الفعل ، وقوله : (فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى) فخاطب الاثنين بخطاب الواحد ، وقوله : (فقد صَغَتْ قلوبكما) وقوله : (وألقى الألواح) وهما لوحان فيما زعم المفسرون ، حكاه ابن قتيبة ؛ وأن يصف الجماعة بصفة الواحد كقوله : (و إن كنتم جُنُباً) .

مجىء المفعول بلفظ الفاعل وعكسه

ومن غرائب هذا الباب أن يأتى المفعول بلفظ الفاعل ، كقوله تعالى : (لاعاصم اليوم من أمر الله) أى : لا معصوم ، وكذلك قوله : (من ماء دافق) أى : مَدْفوق ، وقوله : (فى عِيشَةٍ راضية) أى : مَرْضِى بها ، وقوله : (وجعلنا آية النهار مُبْصِرة) أى : مُبْصَرٌ فيها ، وأن يأتى الفاعل بلفظ المفعول به كقوله تعالى : (إنه كان وعده مَأْتِيّاً) أى آتياً .

وقد جاء الخصوص فى معنى العموم فى قوله تعالى: (يا أيها النبىُّ إذا طلقتم النساء) وجاء العموم بمعنى الخصوص فى قوله: (يا أيها الرسُلُ كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً)

الحمل على المعنى

ومن الحمل على المعنى قوله تعالى : (وكذلك زين لـكثير من المشركين قتلُ أولادِهم شركاؤُهم) كأنه قيل : مَنْ زينه ؟ فقيل : شركاؤهم .

والحمل على المعنى فى الشعر كثير ، ومن أنواعه التذكير والتأنيث ، ولا يجوز أن تؤنث مذكراً على الحقيقة من الحيوان ، ولا أن تذكر مؤنثاً .

---

(١) وقيل : الألف هى نون التوكيد الخفيفة ، عاملها فى الوصل معاملتها فى الوقف ، ولنا فى هذا الموضوع بحث طويل ووجوه كثيرة من الاستدلال فى شرحنا على المعلقات .

قال ابن أبى ربيعة المخزومى :

فكان مِجَنِّى دون من كنت أتقى ثَلَاثُ شُخُوصٍ كاعبان ومُعْصِرُ

فأنث الشخوص على المعنى . وكل جمع مكسر جائز تأنيثه وإن كان واحدهُ مذكراً حقيقياً .

ومما أنث من المذكر حملا على اللفظ قول الشاعر ، أنشده الكسائى :

أبوك خليفة وَلَدَتْهُ أخْرَى وأنت خليفة، ذاك الكمال

ومثل هذا فى الشعر كثير موجود .

٩٩ — باب السرقات ، وماشا كلها

لا يدعى السلامة منه أحد .

وهذا باب متسع جداً ، لا يقدر أحد من الشعراء أن يَدَّعى السلامة منه ، وفيه أشياء غامضة ، إلا عن البصير الحاذق بالصناعة ، وأخر فاضحة لا تخفى على الجاهل المغفل ، وقد أتى الحاتمى فى «حلية المحاضرة» بألقاب محدثة تدبرتها ليس لها محصول إذا حققت : كالاصطراف ، والاجتلاب ، والانتحال ، والاهتدام ، والإغارة ، والمرافدة ، والاستلحاق ، وكلها قريب من قريب ، وقد استعمل بعضها فى مكان بعض ، غير أنى ذاكرها على ما خيلت فيما بعد .

رأى الجرجانى

وقال الجرجانى — وهو أصح مذهبا ، وأكثر تحقيقا من كثير ممن نظر فى هذا الشأن — : ولست تعد من جهابذة الكلام ، ولا من نُقَّادِ الشعر ، حتى تميز بين أصنافه وأقسامه ، وتحيط علما برتبه ومنازله ، فتفصل بين السَّرَق والغصب وبين الإغارة والاختلاس ، وتعرف الإلمام من الملاحظة ، وتفرق بين المشترك الذى لا يجوز ادعاء السرقة فيه والمبتذل الذى ليس واحد أحَقَّ به من الآخر ، وبين المختص الذى حازه المبتدى فملكه واجتباه السابق فاقتطعه .

السرقة عند عبد الكريم

قال عبد الكريم : قالوا : السَّرَقُ فى الشعر مانقل معناه دون لفظه ، وأبعد

فى أخذه ، على أن من الناسّ من بعد ذهنه إلا عن مثل بيت امرىء القيس وطرفة[1] حين لم يختلفا إلا فى القافية ؛ فقال أحدهما « وتحمل » ، وقال الآخر « وتجلد » ومنهم من يحتاج إلى دليل من اللفظ مع المعنى ، ويكون الغامض عندهم بمنزلة الظاهر ، وهم قليل .

فيم تكون السرقة ؟

والسرق أيضاً إنما هو فى البديع المخترع الذى يختص به الشاعر ، لافى المعانى المشتركة التى هى جارية فى عاداتهم ومستعملة فى أمثالهم ومحاوراتهم ، مما ترتفع الظنة فيه عن الذى يُورِده أن يقال إنه أخذه من غيره.

قال : واتكال الشاعر على السرقة بلادة وعجز ، وتَرْكه كل معنى سُبِقَ إليه جَهْل ، ولكن المختار له عندى أوسط الحالات .

أنواع السرقة

وقال بعض الحذاق من المتأخرين : مَنْ أخذ معنى بلفظه كما هو كان سارقاً، فإن غَيَّرَ بعض اللفظ كان سالخا ، فإن غير بعض المعنى ليخفيه أو قَلَبه عن وجهه كان ذلك دليل حذقه .

وأما ابن وكيع فقد قدم فى صدر كتابه على أبى الطيب مقدمة لا يصح لأحد معها شعر إلا الصدر الأول إن سلم ذلك لهم ، وسماه « كتاب المنصف » مثل ماسمى اللديغ سليما، وما أبعد الإنصاف منه .

الاصطراف

والاصطراف : أن يعجب الشاعر ببيت من الشعر فيصرفه إلى نفسه ، فإن

---

(١) هما بيتان متشابهان وقعا فى معلقتى امرىء القيس وطرفة بن العبد : أما بيت امرىء القيس فقوله :

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون : لا تهلك أسى وتحمل

وأما بيت طرفة فقوله :

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون : لا تهلك أسى وتجلد

فأنت ترى أن البيتين لم يختلفا إلا فى القافية كما حكى المؤلف .

بقية أنواع السرقة

صرفه إليه على جهة المثل فهو اختلاب واستلحاق ، وإن ادعاه جملة فهو انتحال ، ولا يقال «منتحل» إلا لمن ادَّعى شعراً لغيره وهو يقول الشعر ، وأما إن كان لا يقول الشعر فهو مُدَّعٍ غير منتحل ، وإن كان الشعر لشاعر أخذ منه غلبة فتلك الإغارة والغصب ، وبينهما فرق أذكره فى موضعه إن شاء الله تعالى ، فإن أخذه هبة فتلك المرافدة ، ويقال : الاسترفاد ، فإن كانت السرقة فيما دون البيت فذلك هو الاهتدام ، ويسمى أيضاً النسخ ، فإن تساوى المعنيان دون اللفظ وخفى الأخذ فذلك النظر والملاحظة ، وكذلك إن تضادا ودل أحدهما على الآخر ، ومنهم من يجعل هذا هو الإلمام ، فإن حول المعنى من نسيب إلى مديح فذلك الاختلاس ، ويسمى أيضاً نقل المعنى ، فإن أخذ بنية الكلام فقط فتلك الموازنة ، فإن جعل مكان كل لفظة ضدها فذلك هو العكس ، فان صح أن الشاعر لم يسمع بقول الآخر — وكانا فى عصر واحد — فتلك المواردة ، وإن ألف البيت من أبيات قد ركب بعضها من بعض فذلك هو الالتقاط والتلفيق ، وبعضهم يسميه الاجتذاب والتركيب ، ومن هذا الباب كَشْفُ المعنى والمحدود من الشعر ، وسوء الاتباع ، وتقصير الآخذ عن المأخوذ منه ، وسأورد عليك مما رويته أو تأدى إلى فهمه لكل واحد من هذه الألقاب مثالا يعرفه العالم ، ويقتدى به المتعلم ، إن شاء الله تعالى .

الاصطراف على ضربين

أما الاصطراف فيقع من الشعر على نوعين : أَحَدُهما : الاجتلاب ، وهو الاستلحاق أيضاً كما قدمت ، والآخر : الانتحال ؛ فأما الاجتلاب فنحو قول النابغة الذبيانى :

وصهباء لا تُخْفِي القذى وَهْوَ دونها ... تصفقُ فى راووقها حين تقطبُ

تمززتها والديكُ يدعو صباحَهُ ... إذا ما بنو نعشٍ دَنَوْا فتصوَّبوا

فاستلحق البيت الأخير فقال

وإجانةٍ رَيَّا السرورِ كأنهـــا إذا غمستْ فيها الزجاجةُ كوكبُ
تمززتها والديك يدعو صبـاحه إذا ما بنو نعشٍ دَنَوْا فتَصَوَّبُوا

وربما اجتلب الشاعر البيتين على الشريطة التى قدمت ؛ فلا يكون فى ذلك بأس ، كما قال عمرو ذو[1] الطوق :

صددت الـكأْسَ عنا أمَّ عمرو وكان الـكأْسُ مجراه اليمينا
وما شرُّ الثـلاثةِ أمَّ عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا

فاستلحقهما عمرو بن كلثوم ؛ فهما فى قصيدته ، وكان عمرو بن العلاء وغيره لا يرون ذلك عيباً ، وقد يصنع المحدثون مثل هذا .

قال زياد الأعجم :

أشَمُّ إذا ما جئتَ لِلْعُرْفِ طالبا حَبَاكَ بما تحوى عليـه أنامـلُهْ
ولو لم يكن فى كفه غَـيْرُ نَفْسِهِ لجَادَ بها فَلْيَتَّقِ اللهَ سـائـلُهْ

ويروى هذا لأخت يزيد بن الطَّثْرِية ، واستلحق البيت الأخير أبو تمام فهو فى شعره .

وأما قول جرير للفرزدق وكان يرميه بانتحال شعر أخيه الأخطل بن غالب :

ستعلمُ من يكون أبوه قينًا ومن كانت قصائدهُ اجتلابا

فإنما وضع الاجتلاب موضع السَّرَقِ والانتحال لضرورة القافية ، هكذا ذكر العلماء من هؤلاء المحدثين ، وأما الجمحى فقال : من السرقات ما يأتى على سبيل المثل ليس اجتلاباً ، مثل قول أبى الصَّلْتِ بن أبى ربيعة الثقفى :

تلك المـكارمُ لا قَعْبَانِ من لَبَنٍ شِـيبَا بماء فَعَادَا بَعْدُ أبْوَالاَ

ثم قاله بعينه النابغة الجعدى لما أتى موضعه، فبنو عامر ترويه للجعدى، والرواة مجمعون أنه لأبى الصَّلْتِ؛ فقد ذهب الجمحى فى الاجتلاب مذهب جرير أنه انتحال، ولم أر محدثا غيره يقول هذا القول .

الانتحال

والانتحال عندهم قول جرير :

(١) هو عمرو بن عدى ، ابن رقاش أخت جذيمة الأبرش .

إن الذين غَـدَوْا بِلُبِّكَ غادَرُوا وَشَـلاً بِعَيْنِكَ لا يَزَالُ مَعِينَا
غَيَّضْنَ مِنْ عَبَرَاتِهِنَّ وقُلْنَ لى : ماذا لقيتَ من الهـوى ولقينا ؟

فإن الرواة مجمعون على أن البيتين للمَعْلُوط السعدى انتحلهما جرير ، وانتحل أيضًا قول طُفَيْل الغنوى :

ولما التقى الحَيَّانِ أُلْقِيَتِ العَصَى وماتَ الهوى لما أصيبت مقاتله

ولذلك قال الفرزدق :

إن تذكروا كَرمى بلؤم أبيكمُ وأوابدى تَتَنَحَّلوا الأشْـعَارَا

وكانا يتقارضان الهجاء ، ويعكس كل واحد منهما المعنى على صاحبه، وليس ذلك عيبًا فى المناقضات ، ولما قال الفرزدق فى بنى ربيع :

تمنت ربيع أن يجىء صغارها بخـير ، وقد أعْيا ربيعا كَبارها

أخذه البَعِيثُ بعينه فى بنى كُليب رهط جرير فقال الفرزدق :

إذا ما قلتُ قافيـة شَرُوداً تنحّلها ابنُ حَمْراء العِجانِ

يعنى البعيث ؛ وكان ابن سُرّية .

وأما قول البحترى :

رَمَتْنِي غُوَاةُ الشِّعْرِ مِنْ بَيْنِ مُفْحَمٍ ومُنْتحِـلٍ مالم يَقُـلْهُ ومُدّعِى

فيشهد لك بما قدمت ذكره ؛ لأنه قسمهم ثلاثة أقسام : مفحم قد عجز عن الـكلام وصلا عن التحلى بالشعر غير أنه يتبع الشعراء ؛ والآخر منتحل لأجود من شعره ، والثالث مدع جملة لا يحسن شيئا .

الإغارة

والإغارة : أن يصنع الشاعر بيتا ويخترع معنى مليحا فيتناوله مَنْ هو أعظم منه ذكراً وأبعد صوتا ، فيروى له دون قائله ، كما فعل الفرزدق بجميل وقد سمعه ينشد :

تَرى النَّاسَ ما سِرْنا يَسيرُونَ خَلْفَنَا وإنْ نَحْنُ أَوْمَأْنا إلى النَّاسِ وَقَفُوا

فقال : متى كان المُلْكُ فى بنى عُذْرَةَ ؟ إنما هو فى مُضَرَ وأنا شاعرها ، فغلب الفرزدق على البيت ، ولم يتركه جميل ولا أسقطه من شعره .

وقد زعم بعض الرواة أنه قال له : تجافَ لى عنه، فتجافى جميل عنه ، والأول أصح ؛ فما كان هكذا فهو إغارة ، وقوم يرون أن الإغارة أخذ اللفظ بأسره والمعنى بأسره ، والسَّرَقُ أخذ بعض اللفظ أو بعض المعنى ، كان ذلك لمعاصر أو قديم .

الغصب

وأما الغصب فمثل صنيعه بالشمردل اليربوعى ، وقد أنشد فى محفل :

فما بَيْنَ مَنْ لم يُعطِ سَمْعاً وطاعةً ... وبين تميم غَيْرُ حَزِّ الحلاقم

فقال الفرزدق: والله لتدَعَنَّه أو لتدعَنَّ عرْضَكَ، فقال: خذه لا بارك الله لك فيه.

وقال ذو الرمة بحضرته : لقد قلت أبياتاً ، إن لها لعروضاً و إن لها لمراداً ومعنى بعيداً ، قال : وما قلت ؟ فقال : قلت :

أحِينَ أعاذَتْ بى تميمٌ نِسَاءها ... وَجُرِّدْتُ تجريدَ اليمانى من الغمدِ

وَمَدَّتْ بَضَبْعَىَّ الرِّبابُ ومالكٌ ... وعمرٌو وسالت[1] من ورائى بنو سَعْدِ

ومن آل يربوع زهاء كأنه ... دجى الليل محمود النكاية والرفد

فقال له الفرزدق : إياك و إياها لا تعودَنَّ إليها ، وأنا أحق بها منك ، قال: والله لا أعود فيها ولا أنشدها أبداً إلا لك

وسمعت بعض المشايخ يقول : الاصطراف فى شعر الأموات كالإغارة على شعر الأحياء ، إنما هو أن يرى الشاعر نفسه أولى بذلك الكلام من قائله .

---

(١) فى الديوان « وشالت » وبعد الأبيات الثلاثة التى رواها المؤلف قوله :

تمنى ابن راعى الإبل شتمى، ودونه ... معاقل صعبات طوال على العبد

معاقل لو أن النميرى رامها ... رأى نفسه فيها أذل من القرد

المرافدة

وأما المرافدة فأن يعين الشاعر صاحبه بالأبيات يهبها له ، كما قال جرير لذى الرمة : أنشدنى ما قلت لهشام المرئى[1] ، فأنشده قصيدته :

نَبَتْ عيناكَ عنْ طَلَلٍ بِحُزْوَى ... مَحَتْـهُ الرِّيحُ وامتنح القطارا

فقال : ألا أعينك ؟ قال : بلى بأبى وأمى ، قال : قل له :

يَعُدُّ الناسبونَ إلى تميم ... بُيُوتَ المجدِ أربعَةً كِباراً
يعدُّون الرِّبَابَ وآلَ سعدٍ ... وعمراً ثم حنظلةَ الخيارا
ويهلك بينها المرئىُّ لَغْوا ... كما ألغيتَ فى الدِّية الحوارا

فلقيه الفرزدق فاستنشده ، فلما بلغ هذه قال : جيد ، أعده ، فأعادهُ ، فقال : كلا والله ، لقد عَلَـكهن من هو أشد لحيَيْنِ منك ، هذا شعر ابن المراغة .

واسترفد هشام المرئى جريراً على ذى الرمة فقال فى أبيات :

يُمَاشى عَدِيًّا لؤمها ما تجنـــه ... من الناس ما ماشتْ عديًّا ظلالُهَا
فقـــلْ لعدىٍّ تستعنْ بنسائها ... علىَّ فقد أعيا عَدِيًّا رجالهـــا
أذا الرمّ ، قد قلدتُ قومك رمةً ... بطيئًا بأيدى العاقدينَ انحلالها

ويروى * بأيدى المطلقين * فقال ذو الرمة لما سمعها : يا ويلتا ، هذا والله شعر حنظلى ، وغلب هشـام على ذى الرمة بعد أن كان ذو الرمة مستعلياً عليه .

وقد استرفد نابغة بنى ذبيان زهيراً فأمر ابنه كعباً فرفده .

والشاعر يسـتوهب البيت والبيتين والثلاثة وأكثر من ذلك ، إذا كانت

---

(٢) فى الأصول « المرى » وهو خطأ ، وصوابه « المرئى » كما أثبتناه ، وهشام أحد بنى امرىء القيس بن سعد مناة ، هذا ، ورواية الديوان (ص ٣٣) فى البيت الثانى * يعدون الرباب لهم وعمرا * وسعدا ثم . . . ورواية البيت الثالث فى غير هـذا الـكتاب * ويسقط بينها المرئى . . . *

شبيهة بطريقته ، ولا يعد ذلك عيبا ؛ لأنه يقدر على عمل مثلها ، ولا يجوز ذلك إلا للحاذق المبرز .

الاهتدام

والاهتدام نحو قول النجاشى :

وكنت كذى رجلين رجل صحيحة ورجل رمَتْ فيها يَدُ الحدثان

فأخذ كثير القسمَ الأولَ واهتدم باقى البيت فجاء بالمعنى فى غير اللفظ ، فقال:

* ورجل رَمَى فيها الزمانُ فَشَلَّتِ *

النظر والملاحظة

وأما النظر والملاحظة فمثل قول مهلهل :

أنبضوا معجس القسىِّ وأبرقـــنا كما توعد الفحولُ الفحولاَ

نظر إليه زهير بقوله :

يطعنهم ما ارتَمَوْا حتى إذا اطّعَنُوا ضارب حتى إذا ماضار بوا اعْتَنَقَا

وأبو ذؤيب بقوله :

ضَرُوبٌ لهاماتِ الرجالِ بسيفه إذا حَنَّ نَبعٌ بينهم وشريحُ

الإلمام

والإلمام : ضرب من النظر ، وهو مثل قول أبى الشيص :

أجدُ الملامَةَ فى هواكِ لذيذةً

وقول أبى الطيب :

* أأحبه وأحبُّ فيه ملامة *

البيت ، وقد تقدم[1] ذكرهما فى التغاير .

الاختلاس

وأما الاختلاس فهو قول أبى نُوَاس :

مَلِكٌ تَصَوّرَ فى القلوبِ مِثَالُه فكأنه لم يَخْلُ مِنْهُ مَكَانُ

اختلسه من قول كُثَيِّر :

---

(١) انظر (ص ١٠٣) من هذا الجزء ، وفيها تمام بيتى أبى الشيص والمتنبى .

أُرِيدُ لأنسَى ذِكرَها فكأنّما تَمَثَّلُ لِي لَيْلَى بكُلِّ سبيلِ

وقولُ عبد الله بن مصعب :

كأنكَ كُنتَ محتكما عليهم تَخَيَّرُ فى الأبوةِ ما تشاء

ويروى * كأنك جئت محتكما عليهم * اختلسه من قول أبى نواس :

خُلِّيتَ وَالحُسْنَ تأخذُهُ تنتقى منه وتنتخبُ

فاكْتَسَتْ منه طرائفَهُ ثُمَّ زَادتْ فَضْلَ ما تَهَبُ

أردت البيت الأول .

ومن هذا النوع قولُ امرىء القيس :

إذا ما ركبنا قال وِلْدَانُ حَيِّنَا تَعالَوْا إلى أن يأتِنَا الصَّيْدُ نَحطِب[1]

نقله ابن مقبل إلى القدح فقال :

إذَا امْتَحَنَتْهُ من مَعَدٍّ عِصابَةٌ عدارية[2] قبل الإفاضةِ يقدح

نقله ابن المعتز إلى البازى فقال :

قد وثقَ القومُ له بما طَلَبْ فهو إذا عَرَّى لصيد واضطرب

عروا سكاكينهمُ من القُرُبْ[3]

نقلته أنا إلى قوس البندق فقلت :

طيرٌ أبابيلُ جاءتنا فمَا بَرِحَتْ إلاَّ وأقواسُنَا الطيرُ الأبابيلُ

تَرْميهِمُ بحَصَى طَيْرٍ مُسَوَّمَةٍ كأنَّ معدنها للرمى سِجِّيلُ

تَغدُو على ثِقَةٍ منا بأطيبها فالنارُ تقدحُ والطنجيرُ مغسول

الموازنة

والموازنة مثل قول كثير :

تقولُ مَرِضْنَا فما عُدْتَنَا وكَيْفَ يَعُودُ مَرِيضٌ مريضاً

وازن فى القسم الآخر قول نابغة بنى تغلب :

---

(١) فى الديوان « ولدان أهلنا » . (٢) فى نسخة « غدارابة » .

(٣) فى ديوان ابن المعتز (٤ / ٧) « فهو إذا جلى » وفى نسخة منه « فهو إذا حلى » وفى نسخة فى ثالث هذه الأبيات « سلوا سكاكينهم » .

بَخِلْنَا لبُخْلِكِ قد تعلمينَ وكَيْفَ يَعيبُ بَخِيلٌ بخيلا؟

العكس

والعكسُ قولُ ابن أبى قيس ، ويروى لأبى حفص البصرى :

ذهب الزمانُ برهطِ حَسَّانَ الأولى كانت مَنَاقبهم حديثَ الغابرِ

وبقيتُ فى خلف يَحُلُّ ضُيُوفُهُمْ منهم بمنزلة اللئيم الغـــــادر

سود الوجوه لئيمةٍ أحسابهم فُطْسِ الأنوف من الطراز الآخر

وقد عاب ابن وكيع هذا النوع بقلة تمييز منه أو غفلة عظيمة .

المواردة

وأما المواردة فقد ادعاها قوم فى بيت امرىء القيس[1] وطرفة ، ولا أظن هذا ممـا يصح ؛ لأن طرفة فى زمان عمرو بن هند شابٌّ حول العشرين ، وكان امرؤ القيس فى زمان المنذر الأكبر كهلا واسمه وشعره أشهر من الشمس ؛ فكيف يكون هذا مواردة ؟ إلا أنهم ذكروا أن طرفة لم يثبت له البيت ، حتى استحلف أنه لم يسمعه قط فحلف ، وإذا صح هذا كان مواردة ، وإن لم يكونا فى عصر ، وسئل أبو عمرو بن العلاء: أرأيت الشاعرين يتفقان فى المعنى ويتواردان فى اللفظ لم يلق واحد منهما صاحبه ولم يسمع شعره ؟ قال : تلك عقول رجال توافت على ألسنتها ، وسئل أبو الطيب عن مثل ذلك فقال : الشعر جادة ، وربما وَقَعَ الحافر على موضع الحافر .

الالتقاط والتلفيق

وأما الالتقاط والتلفيق فمثل قول يزيد بن الطَّثْرِية :

إذا ما رآنى مُقْبِلاً غَضَّ طرفه كأن شعاعَ الشمسِ دونى يقابله

فأوله من قول جميل :

إذا ما رأونى طالِعاً من ثَنِيَّةٍ يقولون: من هذا ؟ وقد عَرَفُونِى

(١) ذكرناها أول الباب فانظر (ص ٢٨١) من هذا الجزء.

ووسطه من قول جرير :

فَغُضَّ الطرفَ إنكَ من نُمَيْرٍ فلاَ كعباً بَلَغْتَ ولاَ كلابا

وعجزه من قول عنترة الطائى[١] :

إذا أبصرتنى أعرضتَ عنى كأن الشمس من حولى تَدُورُ

كشف المعنى

فأما كَشْفُ المعنى فنحو قول امرىء القيس :

نمشُّ بأعراف الجياد أكفنا إذا نحن قمنا عن شواء مضهب

وقال عبدة بن الطبيب بعده :

ثُمَّتَ قمنا إلى جُرْدٍ مُسَوَّمَة أعرافهن لأيدينا منادِيلُ

فكشف المعنى وأبرزه .

الشعر المجدود

وأما المجدود من الشعر فنحو قول عنترة العبسى :

* وكما عَلِمْتِ شَمَائِلِي وتَكَرُّمِي *[٢]

رزق جدا واشتهاراً على قول امرىء القيس :

وشمائلى ما قد علمت ، وما نَبَحَتْ كِلابكِ طَارِقاً مِثْلِي

متى يكون الآخذ أولى بالمعنى ؟

ومنه أخذ عنترة ، والمخترع معروف له فضله ، متروك له من درجته ، غير أن المتبع إذا تناول معنى فأجاده ــ بأن يختصره إن كان طويلا ، أو يبسطه إن كان كزاً ، أو يبينه إن كان غامضاً ، أو يختار له حسن الكلام إن كان سَفْسَافاً ، أو رشيق الوزن إن كان جافيا ــ فهو أولى به من مبتدعه ، وكذلك إن قلبه أو صرفه عن وجه إلى وجه آخر ، فأما إن ساوى المبتدع

(١) هو عنترة بن عكبرة الطائى ، وهى أمه ، وأبوه الأخرس بن ثعلبة : فارس شاعر ، ذكره الآمدى فى المؤتلف والمختلف .

(٢) صدره * وإذا صحوت فما أقصر عن ندى *

فله فضيلة حسن الاقتداء لا غيرها ، فإن قصر كان ذلك دليلا على سوء طبعه ، وسقوط همته ، وضعف قدرته .

فما أجاد فيه المتبع على المبتدع قول الشماخ :

إِذَا بَلَّغْتنى وحَمَلْتِ رَحْلِي عَرَابَةَ فاشْرَقِى بِدَمِ الْوَتِينِ

فقال أبو نواس :

أقولُ لناقتى إذ بَلَّغَتْنِي لَقَدْ أصْبَحْتِ منى باليمين

فلم أجْعَلْكِ للغربان نحلا ولاقلتُ «اشرقى بدمِ الوتين»

وكرره فقال :

وإِذَا الْمَطِيُّ بنا بَلَغْنَ مُحَمَّداً فظهورهُنَّ على الرجال حَرَامُ

قرَّبْنَنا من خيرمن وَطِىءالْحَصَى فلها علينا حُرْمَةٌ وَذِمَامُ

ومما يتساوى فيه السارق والمسروق منه قول امرىء القيس * فلو أنها نفسٌ [(١)] * البيتَ ، وقول عبدة بن الطبيب * فما كان قيس [(٢)] * البيت .

سوء الاتباع

وسوء الاتباع أن يعمل الشاعر معنى رديا ولفظاً رديا مستهجنا ثم يأتى من بعده فيتبعه فيه على رداءته ، نحو قول أبى تمام :

باشَرْتُ أسبابَ الْغِنَى بمدائحٍ ضَرَبتْ بأبوابِ الملوكِ طُبُولاَ

فقال أبو الطيب :

إذا كانَ بعْضُ الناسِ سَيْفاً لِلدَّوْلَةِ فَفِي النَّاسِ بُوقاتٌ لَهَا وَطُبُولُ

---

(١) هذه قطعة من بيت سبق ذكره مرارا ، وهو بتمامه :

فلو أنها نفس تموت جميعة ولكنها نفس تساقط أنفسا

(٢) هذه قطعة من بيت ، وهو بتمامه :

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

وسبق ذكره مرارا أيضا .

فسرق هذه اللفظة لئلا تفوته .

ومما قصر فيه الآخذ عن المأخوذ منه قولُ أبى دهبل الجمحى فى معنى بيت الشماخ:

يا ناقُ سِيرى وأشرقى بدمٍ إذا جئتِ المُغِيرَهْ
سَيُثِيبُنِى أُخْرَى سِوَا كِ ، وتلكَ لى منه يسيره

فأنت ترى أين بلغت همته ؟ ؟

مما يعد سرقا وليس بسرق

ومما يعد سرقا وليس بسَرَقٍ اشتراكُ اللفظ المتعارف كقول عنترة :

وخَيْلٍ قَدْ دَلَفْتُ لها بخيلٍ عليها الأُسْدُ تَهتصرُ اهتصارا

وقول عمرو بن معدى كرب :

وخَيْلٍ قد دلفتُ لها بِخَيْلٍ تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ

وقول الخنساء ترثى أخاها صخراً :

وخَيلٍ قد دلفتَ لها بخيل فَدَارَتْ بَيْنَ كَبْشَيْهَا رَحَاهَا

ومثله :

وخيل قد دَلفت لها بخيل تَرَى فُرْسانَهَا مِثْلَ الأُسُودِ

وأمثال هذا كثير .

أولى الشاعرين بالمعنى

وكانوا يقضون فى السرقات أن الشاعرين إذا ركبا معنى كان أولاهما به أقدمهما موتا ، وأعلاهما سنا ، فإن جمعهما عصر واحد كان ملحقا بأولاهما بالإحسان ، وإن كانا فى مرتبة واحدة روى لهما جميعا ، وإنما هذا فيما سوى المختص الذى حازه قائله ، واقتطعه صاحبه ، ألا ترى أن الأعشى سبق إلى قوله :

وَفِى كُلِّ عامٍ أنتَ جَاشِمُ غَزْوَةٍ تَشُدُّ لأقصاها عَزِيمَ عَزَائِكَا[1]
مُوَرِّثَةٍ مَجْداً ، وفى الأصل رِفْعَةً لما ضاع فيها من قروء نسائكا[2]

(١) روى أبو عبيدة * . . . حاشم رحلة *

(٢) فى الديوان (ص ١٢) * مورثة مالا وفى المجد . . . * وروى أبو عبيدة * . . . . وفى الذكر رفعة * ولو ضاع . . . .

فأخذه النابغة فقال :

شُعَبُ الْعُلاَفِيَّاتِ بَيْنَ فُرُوجِهِمْ وَالْمُحْصَنَاتُ عَوَازِبُ الأَطْهَارِ(١)

و بيت النابغة خير من بيت الأعشى باختصاره ، و بما فيه من المناسبة بذكر الشعب بين الفروج وذكره النساء بعد ذلك ، وأخذه الناس من بعده ، فلم يغلبه على معناه [أحد] ، ولا شاركه فيه ، بل جعل مقتدياً تابعاً ، وإن كان مقدماً عليه فى حياته ، وسابقاً له بمماته .

وقال أوس بن حجر :

كأنّ هرا جنيباً عند غرضتها والتف ديكٌ برجليها وخنزيرُ

فلم يقر به أحد ، وكذلك سائر المعانى المفردة والتشبيهات العُقْم تجرى هذا المجرى .

نظم النثر وحل الشعر

وأجل السرقات نظم النثر وحل الشعر ، وهذه بلجة منه . قال نادب الإسكندر « حركنا الملك بسكونه » فتناوله أبو العتاهية فقال :

قَدْ لَعَمْرِى حكيت لى غُصَصَ المَوْ تِ وَحَرَّكْتَنِى لَهَا وسَكَنْتَا

وقال أرساطاطاليس يندبه « قد كان هذا الشخص واعظاً بليغاً ، وما وعظ بكلامه عظة قط أبلغ من موعظته بسكوته » وقال أبو العتاهية فى ذلك :

وكانت فى حياتك لى عِظاتٌ فَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيًّا

وقال عيسى عليه السلام : تعملون السيئات وترجون أن تُجَازَوْا عليها بمثل ما يُجَازَى به أهلُ الحسنات ، أجل لا يُجْتَنَى الشوكُ من العنب .

---

(١) شعب : جمع شعبة ، وهى فرج بين أعواد الرحل ، ومن السرج مابين قربوسه ومؤخرته . والعلافيات : رحال منسوبة إلى حى من اليمن اسمه علاف (وانظر ص ٢٣٢ السابقة). والمحصنات : يعنى نساءهم. عوازب : بعيدات . الأطهار : جمع طهر . يريد أنهم دائما على صهوات الخيل فوق السروج أو فوق رحال الإبل ؛ فلا يشتغلون عن الغزو بنسائهم .

فقال ابن عبد القدوس :

إذا وَتَرْتَ امرأً فاحْذَرْ عَدَاوَتَه مَنْ يزْرَعِ الشوكَ لا يَحْصُدْ به عِنَبَا

وأخذ الكتاب قولهم « قدمت قبلك » من قول الأقرع بن حابس ، ويروى لحاتم :

إذا ما أتى يومٌ يُفَرِّقُ بيننا بِمَوْتٍ فكن أنت الذى تتأخر

وقولهم « وأتم نعمته عليك » من قول عدى بن الرقاع العاملى :

صَلَّى الإلَه على امرىء وَدَّعتُهُ وأتَمَّ نِعْمَتَهُ عليه وزادها

فما جرى هذا المجرى لم يكن على سارقه جناح عند الحذاق ، وفى أقل ما جئت به منه كفاية .

(١٠٠) — باب الوصف

أكثر الشعر يرجع إلى الوصف

الشعر إلا أقلَّه راجِعٌ إلى باب الوصف ، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه ، وهو مناسب للتشبيه ، مشتمل عليه ، وليس به ؛ لأنه كثيراً ما يأتى فى أضعافه ، والفرق بين الوصف والتشبيه أن هذا إخبار عن حقيقة الشىء ، وأن ذلك مجاز وتمثيل .

أحسن الوصف

وأحسن الوصف ما نعت به الشىء حتى يكاد يمثله عياناً للسامع ، كما قال النابغة الجعدىُّ يصف ذئباً افترس جُؤْذَراً :

فبات يذكيه بغير حديدة أخو قنص يمسى ويصبح مفطرا
إذا ما رأى منه كراعا تحركت أصاب مكان القلب منه وفرفرا

فأنت ترى كيف قام هذا الوَصْفُ بنفسه ، ومَثَّلَ الموصوف فى قلب سامعه . قال قدامة : الوصف إنما هو ذكر الشىء بما فيه من الأحوال والهيئات ،

ولما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعانى كان أحسنهم وصفا مَنْ أتى فى شعره أكثر المعانى التى الموصوفُ بها مركب فيها ، ثم بأظهرها فيه ، وأولاها به ، حتى يحكيه و يمثله للحس بنعته .

وقال بعض المتأخرين : أبلغ الوصف ما قلب السمع بصَراً . وأصل الوصف الكشف والإظهار ، يقال : قد وصف الثوبُ الجسمَ ، إذا نمَّ عليه ولم يستره ، ومنه قول ابن الرومى :

إذَا وصفَتْ مافوق مَجْرَى وِشَاحِها غَلائلُهَا رَدَّتْ شَهَادَتَهَا الْأُزُرُ

إلا أن من الشعراء والبلغاء مَنْ إذا وصف شيئاً بالغ فى وصفه ، وطلب الغاية القُصْوَى التى لا يعدوها شيء : إن مدحا فمدحا ، و إن ذما فذما .

تفاضل الناس فى الوصف

والناس يتفاضلون فى الأوصاف ، كما يتفاضلون فى سائر الأصناف : فمنهم من يجيد وصف شيء ولا يجيد وَصْفَ آخر ، ومنهم من يجيد الأوصاف كلها و إن غلبت عليه الإجادة فى بعضها : كامرىء القيس قديما ، وأبى نُوَاس فى عصره ، والبحترى وابن الرومى فى وقتهما ، وابن المعتز ، وكشاجم ؛ فإن هؤلاء كانوا متصرفين مجيدين الأوصاف ، وليس بالمحدث من الحاجة إلى أوصاف الإبل ونعوتها ، والقِفَار ومياهها ، وحُمُر الوحش ، والبقر ، والظلمان[1] ، والوُعُول ؛ ما بالأعراب وأهل البادية ؛ لرغبة الناس فى الوقت عن تلك الصفات ، وعلمهم أن الشاعر إنما يتكلفها تكلفا ليجرى على سَنَنِ الشعراء قديما ، وقد صنع ابن المعتز وأبو نواس قبله ومن شاكلهما فى تلك الطرائق ما هو مشهور فى أشعارهم : كرائية الحسن فى الخصيب ، وجيمية ابن المعتز المردفة فى الضرب الثانى من الكامل .

والأوْلَىٰ بنا فى هــذا الوقت صفات الخمر والقيان وما شاكلهما ، وما كان مناسباً لهما كالكئوس والقنانى والأباريق ، وتفاح التحيات ، وباقات الزهر

(١) الظلمان : جمع ظليم ، وفى الأصول «والظلمات» وأعتقد أنه تحريف ما أثبت

إلى ما لابد منه من صفات الخدود ، والقدود ، والنهود ، والوجوه ، والشعور ، والريق ، والثغور ، والأرداف ، والخصور ، ثمّ صفات الرياض والبرك والقصور ، وما شا كل المولّدين ؛ فإن ارتفعت البضاعة فصفات الجيوش وما يتصل بها من ذكر الخيل ، والسيوف ، والرماح ، والدروع ، والقِسِيّ ، والنبل ، إلى نحو ذلك من ذكر الطبول ، والبُنُود ، والمنحرفات ، والمنجنيقات ، وليس يتسع بنا هذا الموضع لاستقصاء ما فى النفس من هذه الأوصاف ؛ فحينئذ أدل على مظانها دلالة مجملة ، وأذكر مما قل شكله وعز نظيره شواهدَ وأمثلةً يعرف بها المتعلم كيف العمل فيها ومن حيث المسلك إليها ، إن شاء الله تعالى .

ذكر شعراء اشتهروا فى وصف أشياء

أما نعَّات الخيل فامرؤ القيس ، وأبو دؤاد ، وطُفَيل الغَنَوِى ، والنابغة الجعدى ، وأما نعَّات الإبل فطَرَفة فى معلقته من أفضلهم ، وأوس بن حَجَر ، وكعب بن زهير ، والشماخ ، وأكثر القدماء يجيد وصفها ؛ لأنها مراكبهم ، ألا ترى رؤبة لما غلط فى وصف الفرس كيف قال : أدْنِنِي من ذَنَبِ البعير ، وكان عُبَيد بن حُصَين الراعى النميرى أوصَفَ الناس للابل ، ولذلك سمى راعيا ، وأما الحمر الوحشية والقِسِيّ فأوصف الناس لها الشماخ ، شهد له بذلك الحطيئة والفرزدق ، وهذان يجيدان صفات الخيل والقِسِيّ أيضاً والنبل ، وأما الخمر فمن أوصاف الأعشى والأخطل وأبى نُوَاس وابن المعتز ، ولأبى نواس أيضاً وابن المعتز الصيد والطرد ، فما شئت من هذه الأوصاف فالتمسها حيث ذكرتُ ، ومن الأوصاف القليلة المثل قول رؤبة يصف الفيل :

وصف فيل

أجردُ الخَصْرِ طويل النَّابَيْنْ مشرب اللحى صغير الفقمين[1]

---

(١) لا يتفق هذا ووزن الرجز ، وقد وقع فى نسخة :

أبيض كالحصن طويل النابين مشرف اللحى صغير العينين

ولم أجد هذا البيت فى ديوان أراجيزه .

* عليه أذنانِ كفضل الثوبين *

وقال آخر يصفه، أنشده عبد الكريم :

من يركب الفيل فهذا الفيلُ   إن الذى يحمـــله محمولُ

على تهاويلَ لهـــا تهويلُ   كالطَّوْد إلاَّ أنه يجـــول

* وأذُنٍ كأنها منديلُ *

هكذا أنشده، و بين البيتين الأخيرين أبيات كثيرة أسقطتها، وقد أنشدها غلام ثعلب عنه عن ابن الأعرابى .

في وصف الفيل أيضا

وقال عبد الكريم فجمع ما فرقاه وزاد عليهما :

وأضخمَ هندىّ النجار تُعِدّهُ   ملوكُ بنى ساسان إن رابها أمرُ

من الورق لا من ضر به الورق ترتعى   أضاخ ولا من ضر به الخمس والعشر

يجىء كطَوْد جائل فوق أربع   مُضَبَّرة لمتْ كما لمت الصخر

له فخذان كالـكثيبين لبـــدا   وصدرٌ كما أوفى من الهَضْبَةِ الصَّدْرُ

ووجهٌ به أنف كراووق خمرة   ينالُ به ما تدركُ الأنمل العشر

وأذْنٌ كنصف البرد يسمعه الندا   خفيا وطرف ينقصُ الغيب مزورٌّ

ونابان شقًّا لا يريك سواهما   قناتين سمراوين طَعْنُهما نَـثْرُ

له لونُ ما بين الصباح وليـــله   إذا نطق العصفور أو غلس الصقر

في وصف زرافة

وصنعت أنا فى زرافة أتت فى الهدية من مصر إلى مولانا خلد الله ملـكه من قصيدة طويله :

وأتتك من كَسْب الملوك زَرَافهٌ   شتى الصفات لـكونها أثناء

جمعت محاسنَ ماحكت فتناسبت   فى خلقها وتنافت الأعضاء

تحتثهـــا بين الخَوَافق مشية   بادٍ عليهـــا الـكبرُ وَالْخُيَلاَء

وتمدُّ جيــداً فى الهواء يزينها ... فــكأنه تحت اللِّوَاء لواء
حُطَّتْ مآخرها وأشْرَفَ صدرها ... حتى، كأنَّ وُقُوفَهَا إقعاء
وكأن فِهْرَ الطيب ما رجَمَتْ به ... وجه الثرى لو لمت الأجزاء
وتخيرتْ دون الملابسِ حُلَّةَ ... عَيَّتْ لصنعةِ مثلها صَنْعاء
لوناً كلون الزبل إلاَّ أنهُ ... جَلِّى وجزعَ بعضهُ الجلاء
أو كالسحاب المكفهرة خيطت ... فيـهِ الْبُرُوقُ ، وميضها إيماء
أو مثل ماصدئت صفائحُ جَوْشَنٍ ... وَجَرَى على حافاتهنَّ جلاء
نعم التجافيف التى ادَّرَعَتْ به ... منْ جلدها لو كان فيـه وقاء

وصنعت أنا أيضاً :

ومجنونة أبداً لم تكن ... مُذَلَّلَةَ الظهر للرَّاكبِ
قد اتصل الجيد من ظهرها ... بمثل السَّنامِ بلا غَارِبِ
مُلمَّعةً مثـل ما لمَّعتْ ... بحِنَّاء وَشْيٍ يَدُ الـكاعب
كأنَّ الجوارىَ كَنَّفْنَهَا ... لخالخَ من كل جانبِ[؟](١)

في وصف اسطرلاب

وقال كشاجم يصف اصطرلاباً :

ومستديرٍ كجرم البـدر مسطوح ... عن كل رابعة الأشكال مصفوح
صُلْب يُدَارُ على قطب يُلَيِّنهُ ... تمْثَال طَرْفٍ بشكم الحذق مشبوح
مثل البنان وقد أوفتْ صفائحهُ ... على الأقاليم فى أقطارهــا الفيح
كأنما السَّبْعَةُ الأفلاك مُحْدِقَةٌ ... بالماء والنـــار والأرضين والريح
تنبيك عن طالعِ الأبراج هيئتُه ... بالشمس طوراً وطوراً بالمصابيح
وإن مَضَتْ ساعةٌ أو بعضُ ثانية ... عَرَفْتَ ذاك بعـلم منهُ مشروح
وإن تَعَرَّضَ فى وقت يقدِّرهُ ... لك التشكك جلاَّه بتصحيح

(١) كذا ، وليس عندنا بمستقيم.

عميزٌ فى قياسات النجوم لنا بين المشائيم منها والمناجيح
له على الظهر عينا حكمة بهما يحوى الضياء ويجنيه من اللوح
وفى الدوائر من أشكاله حكم تلقح الفهم منا أى تلقيح
لا يستقل لما فيها بمعرفة إلا الحصيف اللطيف الحس والروح
حتى ترى الغيب عنه وهو منغلق الـ أبواب عمن سواه جد مفتوح
نتيجة الدهر والتفكير صورّه ذوو العقول الصحيحات المراجيح

وقال أيضا يصف تخت حساب الهندسة :

وقلم مداده تراب في صحف سطورها حساب
يكثر فيه المحو والإضراب من غير أن يسوّد الكتاب
حتى يبين الحق والصواب وليس إعجام ولا إعراب
فيه ولا شك ولا ارتياب

في وصف بركار

وقال يستهدى بركارا :

جُدْلى ببركارك الذى صنعت فيه يدا قينة أعاجيبا
ملأم الشفرتين معتدل ماشين من جانب ولا عيبا
شخصان فى شكل واحد قدرا وركبا فى العقول تركيبا
أشبه شيئين فى اشتباههما بصاحب لا يمل مصحوبا
أوثق مسماره وغيب عن نواظر الناقدين تغييبا
فعين من يجتليه تحسبه فى قالب الاعتدال مصبوبا
وضم شطريه محكم لهما ضم محب إليه محبوبا
يزداد حرصاً عليه مبصره ما زاده بالبنان تقليبا
فقوله كلما تأمله طوبى لمن كان ذاله طوبى

ذو مُقْلة بصرته مذهبة ... لم تأله زينــة وتذهيباً
ينظر منه إلى الصواب به ... فلا يزال الصواب مطلوبا
لولاه ماصحَّ شكْلُ دائرة ... ولا وجدنا الحساب محسوبا
الحق فيه. فإن عدلت إلى ... سواه كان الحساب تقريباً
لوعَيْنُ إقليدس به بَصُرَتْ ... خر له بالسجود مكبوباً
فابعثه واجْنُبْه لى بمســطرة ... تلق الهوى بالثناء مجنوبا
لا زلْتَ تجدى وتجتدى حكما ... مستوهباً للصديق موهوبا

في وصف البنكام

وقال فى صفة البنكام :

روح من الماء فى جسم من الصُّفُرِ ... مؤتلف بلطيف الحس والنظر
مستعبر لم يَغِبْ عن إلفه سَكَنٌ ... ولم يبت قَطُّ من طعن على حذر
له على الظهــــر أجفان مُحَجَّرَة ... ومقلة دمعها يجرى على قَدَرِ
تنشا له حركات فى أســــافله ... كأنها حركات الماء فى الشجر
وفى أعاليــــه حسبان يُفَصِّلُهُ ... للناظرين بلا ذهن ولا فكر
إذا بكى دار فى أحشائه فَلَكٌ ... خافى المسير وإن لم يبك لم يَدُرِ
مترجم عن مواقيت تخبرنا ... عنها فيوجد فيها صادق الخبر
تقضى به الخمس فى وقت الوجوب ، وإن ... غَطَّى على الشمس سِتْر الغيم والمطر
وإن سَهِرْتُ لأسبابٍ تؤرقنى ... عَرَفْتُ مقدار ما ألقى من السهر
مُحَرِّرٌ كل ميقاتٍ تخيره ... ذوو التخير للأسفار والحَضَر
ومخرج لك بالإجراء ألطفها ... من النهار وقوس الليل والسحر
نتيجة العــلم والأفــكار صَوَّره ... يا حبذا بدعُ الأفــكار فى الصور

وقال يصف زرمانج آبنوس :

في وصف زرمانج

نعم المعين على الآداب والحكم صحائف حاك الألوان كالظلم
لاتستمد مداداً غير صبغتها فَسِرُّ ذى اللب منها غير مكتتم
خفت وجفت فلم تدنس لحاملها ثوبا ولم يَخْشَ منها نَبْوَة القلم
وأمكن المحوفيها الكف فاتسعت لما تضمن من نثر ومنتظم
حليتها بلجين وانتخبت لها وقاية من ذَكِيِّ العود لا الأدم
فالكم يعبق منها حين تودعه عَرْفا تَنَسَّمَ منها أطيب النسم
لو كنَّ ألواح موسى حين يغضبه هارونُ لم يلقها خوفا من الندم

وله من قصيدة ذكر فيها طاووسا مات له :

في وصف طاووس

رُزِئْتُهُ روضَـةً يَرُوقُ ، ولم نَسْتَمِعْ بروض يمشى على قدم
جَثْلَ الذُّنابَى كأنَّ سندسةً زُرَّتْ عليه مَوْشِيَة العلم
مُتَوَّجًا خلقة حَبَاه بها ذو الفِطَرِ المعجزات والحكم
كأنه يزدجردُ مُنْتَصِبا يبنى فَيُعْلِى مآثِرِ العجم
يُطْبِق أجفانه ويَحْسِرُ عن فَصَّيْنِ يستصبحان فى الظلم
أَدَلَّ بالحسن فاستذال له ذيلا من الكبر غير مُحْتَشِم
ثم مَشَى مِشْيَةَ العروس ؛ فمن مستظرف معجب ومبتسم

فهذا طرف مما شرطته كافٍ ، يرى به المتعلم نهج هذه الطريقة ، إن شاء الله تعالى .

(١٠١) باب الشطور ، و بقية الزحاف

حد الشطور

القول فى الشطور على أحد وجهين : إما أن يراد بالشطر نصف البيت ، وإما أن يراد به القصد ، وذلك أنهم إذا ذكروا الشطور فربما أنشدوا أبياتا كاملة ، وليست أقسمة ؛ فيكون هـذا من قوله تعالى : (فَوَلِّ وَجْهكَ شطرَ

المسجدِ الحرام) وكذلك القَسيمُ أيضاً : يجوز أن يكون نصف البيت ، ويجوز أن يكون بمعنى الحظ من الوزن ؛ لأن الحظ يقال له قَسِيم وقِسم .

قال جرير :

أَتارِكَةٌ أَكْلَ الخَزِيرِ مُجاشِع   وقد خَسَّ إلا في الخزيرِ قَسِيمُها

يريد حظها . وقالت ابنة[1] المنذر بن ماء السماء :

بِعَيْنِ أُبَاغَ قَاسَمْنا المَنَايَا   فَكَانَ قَسِيمُها خَيْرَ القَسِيم

وهذا حين أبدأ بذكر الشطور على مذهب الجوهرى لقلة حشوه .

الطويل

الطويل : مثمن قديم ، مسدس محدث ، أجزاؤه « فَعُولن مفاعيلن » ثمانى مرات[2] وزحافه : القَبْض ، الثلم ، الثرم ، الكف ، الحذف . ومسدسه أن يحذف منه مفاعيلن الآخرة من كل قسم .

المديد

المديد : مثمن محدث ، مسدس قديم ، مربع قديم ، أجزاؤه « فاعلاتن فاعلن » ثمانى مرات[2] وعلى ذلك أنى محدثه ، و بيت مربعه السالم :

بُؤْسَ لِلْحَرْبِ التى   غَادَرَتْ قَوْمِى سُدَى

قال : وهذا شعر قديم ، إلا أن الخليل لم يذكره . زحافه: الخبن ، الكف، الشكل ، القَصْر ، الحذف ، الصلم .

البسيط

البسيط : مثمن قديم ، مسدس قديم ، مربع محدث ، أجزاؤه « مستفعلن فاعلن » ثمانى مرات[2] ومسدسه « مستفعلن فاعلن مستفعلن » مكررة ، قال :

---

(١) الذى فى ياقوت أن هذا البيت لابنة فروة بن مسعود ترثى أباها ، وكان قد قتل بعين أباغ ـ بضم الهمزة ، وفى آخره غين معجمة ـ وبعد هذا البيت :

وقالوا سيدا منكم قتلنا   كذاك الرمح يكلف بالكريم

(٢) صوابه « أربع مرات » .

وله مسدس آخر يسميه الخليل السريع ، وقد نقص منه « فاعلن » الأولى والثالثة و بيته المربع المحدث :

دَارٌ عَفَاهَا الْقِـــدَمْ   بَيْنَ الْبِـــلَى وَالْعَدَمْ

زحافه : الخبن ، الطَّيُّ ، الخبل ، القطع ، الإذالة ، التخليع . ومعنى التخليع : قطع « مستفعلن » فى العروض والضرب جميعاً .

الوافر

الوافر : مسدس قديم ، مربع قديم ، أجزاؤه « مفاعلتن » ست مرات ، ولم يجىء عن العرب فى مسدسه بيت صحيح . زحافه : العصبُ ، القطف ، النقص ، العقل ، العضب ، القصم ، العقص ، الجم .

الكامل

الكامل : مسدس قديم ، مربَّع قديم ، أجزاؤه « متفاعلن » ست مرات ، زحافه : الإضمار ، الوقص ، الخزل ، القطع ، الخرم ، الترفيل ، الإذالة

الهزج

الهزج : مسدس محدث ، مربع قديم ، أجزاؤه « مفاعيلن » أربع مرات ، بيته المسدس المحدث :

أَلاَ هَلْ هَاجَكَ الأَظْعانُ إذ بانوا   و إذ صَاحَتْ بِشَطِّ الْبَيْنِ غِرْبَانُ

زحافه : الخزم ، الكف ، القبض ، الخزب ، الشتر ، الحذف .

الرجز

الرجز : مسدس ، مربع ، مثلث ، مُثَنًّى ، كله قديم ، موحد محدث ، أجزاؤه « مستفعلن » ست مرات ، زحافه : الخبن ، الطى ، الخبل ، القطع ، الفرق ، الوقف ؛ ومعنى قوله الفرق : أن يفرق الوتد المجموع فى حشو مسدسه فيعود مستفعلن مستفعنل — بتقديم النون — فيكون وزنه مفعولات .

قال : وهو الذى يسميه الخليل المنسرح ، ولم يجىء ضربه إلا مَطْوِيًا ، وفى صدر مربعه ، قال : وهو الذي يسميه الخليل المقتضب ، وفى ضرب مثناه ومثلثه إلا أنه ساكن اللام ؛ لأن آخر البيت لا يكون إلا متحركاً ، وذلك هو الوقف .

الرمل — الرمل : مسدس قديم ، مربع قديم ، أجزاؤه « فاعلاتن » ست مرات ، زحافة : الخبن ، الكف ، الشكل ، الحذف ، القصر ، الإسباغ .

الخفيف — الخفيف : مسدس قديم ، مربع قديم ، أجزاؤه « فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن » مكرر ، ومربعه « فاعلاتن مستفعلن » قال : وقد ركب منه مربع آخر ، وهو الذى يسميه الخليل مجتثاً ، وقد نقص منه « فاعلاتن » الأولى والرابعة . زحافه : الخبن ، الكف ، الشكل ، الحذف ، القطع ، التشعيث ، الإسباغ ، الطى .

المضارع — المضارع : مربع قديم لا غير ، أجزاؤه « مفاعلن فاعلاتن » مكرر ، ولم يجىء عن العرب فيه بيت صحيح . زحافه : القبض ، الكف ، الحذف ، الشتر ، الخبن .

المتقارب — المتقارب : مثمن قديم ، مسدس مربع محدث ، أجزاؤه « فعولن » ثمانى مرات . زحافه : القبض ، الثلم ، الثرم ، القصر ، الحذف ، البتر ، وبيت مربعه المحدث :

وَقَفْنَا هُنَيَّهْ بِأَطْلالِ مَيَّهْ

المتدارك — المتدارك : مثمن قديم ، مسدس محدث ، أجزاؤه « فاعلن » ثمانى مرات ، وبيته السالم من مثمنه :

لَمْ يَدَعْ مَنْ مَضَى لِلَّذِى قَدْ غَبَرْ فَضْلَ عِلْمٍ سِوَى أَخْذِهِ بِالأَثَرْ

وشعر عمرو الجنى مخبون . زحافه : الخبن ، القطع ، الإذالة ، الترفيل . .

وهذا شرح الألقاب عن أبى زهرة النحوى وغيره . كل ما حذف ثانيه الساكن فهو مخبون ، وكل ما حذف رابعه الساكن منه فهو مطوى ، وما حذف خامسه الساكن فهو مقبوض ، وماحذف سابعه الساكن فهو مكفوف ، وما حذف ثانيه ورابعه الساكنان فهو مخبول ، وما حذف ثانيه وسابعه الساكنان

فهو مشكول ، وما حذف ثانيه المتحرك فهو موقوص ، وما حذف خامسه المتحرك فهو معقول ، وما حذف سابعه المتحرك فهو مكشوف عند الخليل ، ولم يعتد به الجوهرى ، وما حذف رابعه الساكن وأسكن ثانيه المتحرك فهو مخزول ، وما أسكن ثانيه المتحرك فهو مُضْمَر ، وما أسكن خامسه المتحرك فهو معصوب ، وما أسكن سابعه المتحرك فهو موقوف ، وما حذف ساكن سببه وأسكن متحركه فهو مقصور ، وإن كان هذا العمل فى وَتِدٍ فهو مقطوع ، وكل سبب زيد عليه حرف ساكن ليس من الجزء الذى هو فيه فهو مُسَبَّغ ، وإن كان ذلك فى وتد فهو مُذَيَّل ؛ فإن زيد على الوتد حرفان فهو مُرَفَّل ، وكل ما حذف منه وتد مجموع فهو أحَذُّ ، فإن حذف وتد مفروق فهو أصْلَم ، وإذا حذف من الجزء سبب وأسكن المتحرك الذى يليه فهو مقطوف ، وكل وتد مجموع كان فى مبتدأ البيت فحذف أولُ الوتد فهو مخروم ، وإن كان ذلك فى « فعولن » فهو أثْلَم ، فإن كان فيه مع الخرم قبض فهو أثرم ، وإن كان الخرم فى « مفاعلتن » فهو أعضب وإن كان مع ذلك عصب فهو أقصم ، وإن كان فيه مع الخرم قبض فهو أعقص ، وإن كان فيه مع الخرم عَقْل فهو أجَمُّ ، وإذا خرمت « مفاعيلن » فهو أخرم وإذا كَفَفْته مع ذلك فهو أخرب ، وإذا خرمته وقبضته فهو أشتر ، وما ذهب منه جزآن من العروض والضرب فهو مَجْزُو ، وما يذهب منه شطره فهو مشطور ، وما ذهب ثلثاه فهو مَنْهُوك ، وما سلم من الزحاف — وهو يجوز فيه — فهو سالم ، وماسلم من الخرم فهو موفور ، وما استوفى دائرته فهو تام ، وما استوفى أجزاء دائرته وكان فى بعض الأجزاء نقص فهو وَافٍ ، وكل جزء كان فى ضرب أو عروض فكان بمنزلة الحشو فهو صحيح ، وإن خالف الحشو فهو معتل ، ومخالفة الحشو: أن يدخل فيه من النقص والزيادة مالا يدخل الحشو ، أو يمتنع من النقص

الذى يدخل الحشو ، والمعتدل على أربعة أوجه : ابتداء ، وفصل ، وغاية ، واعتماد . وقد شرحتها فيما تقدم .

(١٠٢) — باب بيوتات الشعر والمُعْرِقِينَ فيه

بيت أبى سلمى

منها فى الجاهلية بيتُ أبى سُلْمى : كان شاعراً واسمه ربيعة ، وابنه زهير كان شاعراً ، وله خؤولة فى الشعر : خاله بَشَامَةُ بن[1] الغدير ، وكان كَعْب و بُجَير ابنا زهير شاعرين ، وجماعة من أبنائهما .

بيت حسان بن ثابت

ومن المخضرمين حَسَّان بن ثابت بن المنذر بن حرَام ، وهو وأبوه وجده وأبو جده شعراء ، وابنه عبدالرحمن شاعر ، وسعيد بن عبد الرحمن شاعر ، ذكر ذلك المبرد

بيت النعمان بن بشير

وبعد هذين بيت النعمان بن بشير ، وبنوه : أبان ، وبشير ، وشبيب ، وابنته حميدة ، ومن بنى بنيه عبد الخالق بن عبد الواحد ، وعبد القدوس بن عبدالواحد ابن النعمان ، وأم النعمان عمرة بنت رَوَاحة شاعرة ، وخالُهُ عبد الله بن رواحة أحد شعراء النبى صلى الله عليه وسلم .

بيت نهشل بن حرى

ومن المعرقين فى الشعر — عن عبد الكريم — نَهْشَل بن حَرِّىٍّ بن ضمرة بن جابر بن قطن ، ستة ليس يتوالى فى بنى تميم مثلهم شعراً وشرفاً وفعالا .

وعن ابن قتيبة القاسم بن أمية بن أبى الصَّلْتِ ، وهو القائل :

قوم إذا نزل الغريبُ بدارهم   تركوه رَبَّ صَوَاهل وقيان

وربيعة بن أمية عن غير ابن قتيبة .

بيت جرير

ومن بيوتات الشعر فى الإسلام بيت جرير : كان هو وأبوه عطية وجده الخَطَفَى شعراء ، وكان بنوه و بنو بنيه شعراء . . قال أبو زياد الكلابى :

---

(١) فى الأصول «أسامة بن العذير» وهو تصحيف من وجهين ، وصوابه ماأثبتنا

رأيت باليمامة نوحا و بلالا ابنَيْ جرير وهما يتسايران ولهما جمال وهيئة وقدر عظيم، وأشعر من باليمامة يومئذ حَجْناء بن نوح بن جرير ، وكان عقيل بن بلال شاعراً، وعمارة ابنه شاعراً ، أدرك الطائى حبيباً ولقيه المبرد .

ابن رؤبة بن العجاج

ومن المعرقين عُقْبة بن رؤبة بن العجاج .

بيت أبى حفصة

ومن البيوتات بيت أبى حفصة : كان مروان شاعراً ، وجماعة بيته شعراء يضربون بألسنتهم أنوفَهم ، حكاه الجاحظ ، وكان يحيى جد مروان شاعراً يهاجى اللَّعِينَ المنقرى ، وجريراً ، وأكثر أهل بيته شعراء رجالا ونساء .

بيت أبى عيينة

و[بيت] أبى عيينة بيت شعر : منهم محمد و بنوه أبو عيينة وعبد الله وداود وعباد بن داود لقبُه المخرق لقوله :

أما المخرِّقُ أعراضَ اللئام كما كان المرزق أعراض اللئام أبى

بيت الرقاشيين

و بيت الرقاشيين منهم عبد الصمد بن الفضل وابناه الفضل والعباس ، وأكثرهم شعراء .

بيت اللاحقيين

و بيت اللاحقيين : كان حَمْدَان شاعراً ، وابنه ، وأبوه أبان شاعرا ، وجده عبد الحميد شاعرا ، ولاحق أبو عبد الحميد شاعر ، و إليه نُسِبُوا، وهو مولى الرقاشيين ، وأكثر أهل هذا البيت شعراء .

بيت أمية الكاتب

و بيت أمية الكاتب ذكرهم دعبل ، وهم أمية و إخوته : على ، ومحمد ، والعباس وسعيد ، ومن أولاد هؤلاء أبو العباس بن أمية وأخواه على وعبد الله ، وابن عمهم محمد بن على بن أبى أمية .

بيت رزين

و بيت رزين بيت شعر ، منهم عبد الله شاعر ، وابنه أبو الشِّيصِ شاعر ، واسمه محمد ، ومنهم على شاعر ، وَابناه دعبل وَعلى شاعران .

بيت حميد

و بيت حميد بن عبد الحميد : كان حميد شاعرا ، وَبنوه أهرم وَأبو عبد الله وَأبو نصر وَأبو نَهْشَل شعراء ، ذكرهم دعبل

الفرق بين المعرق وذى البيت

والفرق بين المُعْرِقِ وبين ذى البيت أن المعرق مَنْ تكرر الأمر فيه وفى أبيه وفى جده فصاعدا ، ولا يكون مُعْرِقًا حتى يكون الثالثَ فما فوقه ، وعلى هذا فسر قول أبى الطيب :

العارض الهتنُ ابن العارض الهتنِ ابـ ـن العارض الهتن ابن العارض الهتن

قالوا : إنما أراد أنه مُعْرِق ، وزاد واحداً على الشرط المتعارف ، وإنما أخذه أبو الطيب من قول محمد بن عبد الملك الزيات :

ما كان يندرنا ويؤمن سربنا ويجيرنا من شر كل مخيفة

إلا مقامُ خليفة لخليفة لخليفة لخليفة لخليفة

يعنى الواثق بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور ، فصدق وحسن فى معناه ، ونقص المتنبى بواحد بعد سرقته .

وذو البيت من عم الأمرُ جميعَ أهلِ بيته أو أكثرهم ، فهذا فرق بينهما .

من الشعراء الإخوة

ومن الإخوة ومن لم يعرق : لبيد وأخوه لأمه أربد ، والشماخ وأخواه جَزْء ويزيد ــ وهو مُزَرِّد ــ وبنو ابن مقبل وهم عشرة إخوة ، تميم ، وفضالة وحيان : ورفاعة ، وويرة ، والمضاء ، وأعقد ، وعبد الله ، وخفاف ، وأبو الشمال ، وأم تميم ابنة أمية بن أبى الصلت ، وفى أولاد إخوته المذكورين آنفا شعر ؛ وقيس ابن عمرو النجاشى وأخوه خديج ، وعمرو بن أحمر وأخواه سنان وسيَّار ، وغيلان ذو الرمة وإخوته : أوفى ، ومسعود ،وهشام ، وحرقاس، شعراء خمستهم ، ومسلم ابن الوليد وأخوه سليمان الكفيف ، وأشجع السُّلَمى وأخوه أحمد .

الثنيان من الشعراء

وأما الشاعر ابن الشاعر فقط فيقال له « الثُّنْيَان » حكاه عبد الكريم عن غيره ، وهو كثير لو أخذنا فى ذكرهم لطالت مسافة الباب .

(١٠٣) — باب حكم البسملة قبل الشعر

الاختلاف فى جواز كتابتها

قال أبو جعفر النحاس : اختلف العلماء فى كَتْبِ « بسم الله الرحمن الرحيم » أمام الشعر ؛ فكره ذلك سعيد بن المسيب والزهرى ، وأجازه النخعى ، وكذا يروى عن ابن عباس ، قال : أُكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » أمام الشعر وغيره ؛ قال أبو جعفر : ورأيت على بن سليمان يميل إلى هذا ، وقال : ينبغى أن يكتب أمام الشعر « بسم الله الرحمن الرحيم » لأنه يجىء بعده « قال فلان » وما أشبه ذلك . . قلت أنا : إنما هذا فى الشعر إذا دُوِّنَ ، فأما قصيدة رفعها الشاعر إلى ممدوحه فلا يكتب قبلها اسم قائلها ، لكن بعدها ، وإذا كان الأمر هكذا فلا سبيل إلى كتاب البسملة ؛ لأن العذر حينئذ ساقط .

(١٠٤) — باب أحكام القوافى فى الخط

ياء الوصل وواوه

إذا صارت الواو الأصلية والياء الأصلية وصلا للقافية سقطت فى الخط كما تسقط واو الوصل وياؤه ، مثل واو « يغزو » للواحد ، و (يغزوا) للجماعة إذا كانت القافية على الزاى ،ألا ترى أنهم أسقطوها فى اللفظ فضلا عن الخط . .

قال الراجز :

* كريمة قَدْرُهُمُ إذا قَدَر *

يريد « إذا قدروا » قال أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن السمين وقد سألته عن هذا : لايجوز حذف هذه الواو إلا فى أشد ضرورة ، للعرب لا للمولدين ؛ لأنها علامة جمع وإضمار ؛ لحذفها يلتبس بالواحد ، قال : وهذا مذهب سيبويه والبصريين ، ومثل واو « يغزو » وياء « يقضى » للغائب « وتقضى »

للمؤنثة الغائبة والمذكر المخاطب . وكذلك ياء ﴿ القاضي والغازي ﴾ إذا كانا معرفين بالألف واللام ، هـذا هو الوجه ، فإن كتب بإثبات الواو واليـاء فعلى باب المسامحة ، والأجود أن تـكون الواو واليـاء خارجاً فى الغرض ، وكذلك ياء الضمير نحو ﴿ غلامى ﴾ إذا كانت القافية الميم فالوجه سقوط الياء ، فإن كتبت مسامحة ففى الغرض كما قدمت ، وقد أسقطها بعضهم فى اللفظ . نحو أنشدنى أبو عبد الله للأعشى :

ومنْ شَانِىءٍ كاسِفٍ وجهُهُ إذا ما انْتَسَبْتُ له أنْكَرَنْ

قال : يريد « أنكرنى » فحذف الياء ، فأما ما يكون مُنَوَّناً نحو « قاض ، وغاز » أو مجزوماً نحو « لم يقض ، ولمْ يغز » فلا يجوز أن يثبت فيهما الياء والواو على المسامحة ؛ لأنهما سقطا بالتنوين والعامل . . ومن العرب من يقول « هذا الغاز ، ومررت بالقاض » بغير ياء ، وهذا تقوية لمذهب مَنْ حذفها فى الخط إذا كانت وَصْلا للقافية .

وإن كان فى قوافى قصيدة ما يكتب بالياء وما يكتب بالألف كتبا جميعا بالألف لتستوى القوافى ، وتشتبه صورتها فى الخط .

(١٠٥) — باب النسبة إلى الروى

كيف تنسب إلى ما كان على حرفين

إذا قلت قصيدة فنسبتها إلى ما [كان] على حرفين قلت هذه قصيدة بائية وحائية ، وكذلك أخواتهما ، وإن شئت جعلت الهمزة واواً فقلت : باوية ، وكان أبو جعفر الرقاشي ينسب إلى ما كان على حرفين يقول : هذا يبوىٌّ ، ويَتَوِى ، وكذلك أخواتهما ، إلا «ما» و «لا» فإنه يقول : مَوَوِى ، ولَوَوِىّ على فَعَلِى ، وتقول على هذا القول : قصيدة مووية ولووية ، قال ثعلب : ما كان على ثلاثة أحرف الأوسط ياء فليس فيه إلا وجه واحد ، تقول : سينت سيناً ، وعينت عيناً ، إذا كتبت سينا وعيناً ، فيقول على هذا : قصيدة مسينة ومعينة

وسينية وعينية ، وكذلك قصيدة ميمية ، ولا تقول « مؤومة » فإنه خطأ ، وتقول في الواو وهي على ثلاثة أحرف الأوسط ألف بالياء لا غير ؛ لكثرة الواوات ، فتقول : وَوَّيْتُ واواً حسنة ، وبعضهم يجعل الواو الأولى همزة لاجتماع الواوين فيقول : أويت واواً حسنة ، فالقصيدة على هذا واوية ومؤواة وسوواة ، وقال بعضهم في « ما » و « لا » من بين أخواتهما : مويت ماء حسنة ، ولويت لاء حسنة ، بالمد ؛ لمكان الفتحة من ماولا .

(١٠٦) — باب الإنشاد وما ناسبه

الوقف بالترنم

ليس بين العرب اختلاف — إذا أرادوا الترنم ومَدَّ الصوت في الغناء والحداء — في إتباع القافية المطلقة ، مثلَها من حروف المد واللين في حال الرفع والنصب والخفض ، كانت مما ينون أو مما لا ينون ، فإذا لم يقصدوا ذلك اختلفوا : فمنهم من يصنع كما يصنع في حال الغناء والترنم ؛ ليفصل بين الشعر والكلام المنثور ، وهم أهل الحجاز ، ومنهم من ينون ما ينون ومالا ينون : إذا وصل الإنشاد أتى بنون خفيفة مكان الوصل لجعل ذلك فصلا بين كل بيتين فينشد قول النابغة :

يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ فَالسَّنَدِ

منوناً إلى آخر القصيدة ، لا يبالي بما فيه ألف ولام ، ولا مضاف ، ولا بفعل ماض ، ولا مستقبل ، وهم ناس كثير من بني تميم .

الوقف على لغة قيس وأسد

ومنهم من يجري القوافي مجراها ولولم تكن قوافي فيقف على المرفوع والمكسور موقوفين ويعوض المنصوب ألفا على كل حال ، وهم ناس كثير من قيس وأسد ، فينشدون :

لا يبعد الله جيراناً لنا ظعنوا ... لم أدر بعد غداة البين ما صنع

يريد « ما صنعوا » . وكذلك ينشدون :

ففاضتْ دموع العين منى صبابة على النحر حتى بل دمعى محمـل

فإذا وصلوا جعلوه كالـكلام وتركوا المدة لعلمهم أنها فى أصل البناء .

قال سيبويه : سمعناهم ينشدون :

* أقلىَّ اللَّوْمَ عاذِلَ وَالْعِتَاب *

إذا كان منوناً أثبتوا تنوينه ووصلوه كما يفعلون بالـكلام المنثور .

الوقف بإشباع الحركة

ومن العرب مَنْ فى لغته أن يقف على إشباع الحركة : فتجر الضـمة واواً ، والـكسرة ياء ، والفتحة ألفاً ، فينشد هذا كله موصولا من غير قصد غناء ولا ترنم .

ومنهم من فى لغته أن لايعوض شيئاً من النصب فهو ينشد هذا كله موقوفاً من غير اعتقاد تقييد ، وإذا كان الشـعر مقيداً كان تنوينه بإزاء إطلاقه ، فهو غير جائز ؛ لأن الشعر المقيد يكسر بتنوينه كما يكسر بإطلاقه ، ما خلا الأوزان التى قدمنا القول فيها أنها من بين ضروب الشعر يجوز إطلاقها وتقييدها .

ويحكى عن رؤبة أنه أنشد قصيدته القافية المقيدة منونة، فرد ذلك الزجاجى وأنكره ، وذكر أنه وَهَم من السامع ، وأن الوجه فيه أن من العرب من يزيدبعد كل قافية «إن» الخفيفة المـكسورة إعلاماً بانقضاء البيت ، فينشد :

وقاتِمِ الأعماق خاوى المخترقْ اِنْ مُشْتَبِهُ الأعلام لمّاعُ الْخَفَقْ اِنْ

* يكلُّ وَفْدُ الريح منْ حيث انْخرَقْ اِنْ *

الوقف بنقل الحركة

وإذا كان ماقبل حرف الروى ساكناً — وكانت لغة مُنْشِدِه الوقوفَ على المضموم والمـكسور — بنقل الحركة كما أنشد أعرابى من بنى سنبس قول ذى الرمة :

* وَلاَ زالَ مُنْهَلاًّ بجرعائك القَطُرْ *

ــ بضم الطاء وإسكان الراء لما وقف ــ حكى ذلك عبد الكريم ، وعلى هذا قال الآخر :

* أنا ابن ماوية إذ جد النفرْ *

أراد « النفر » بالخيل .

وأنشد أبو العباس ثعلب :

أرَتْنِيَ حِجْلاً على ساقها فهشّ الفؤاد لذاك الحِجِلْ

فقلت ولم أخفِ من صاحبي: ألا بأبي أصلُ تلك الرِّجِلْ

وقال : ثَقَّلَ لاضطرار القافية .

ومما يدخل فى شفاعة هذا الباب : الغناء ، والحداء ، والتغبير ، قال الشاعر :

تغنَّ بالشعر إمّا كنتَ قائله إن الغناء لهذا الشعر مِضْمَارُ

ويقولون : فلان يتغنى بفلان أو بفلانة ، إذا صنع فيه شعراً .

قال ذو الرمة :

أحِبُّ المكانَ القفرَ من أجلِ أننى به أتَغَنَّى باسمها غَيْرَ مُعْجِمِ

وكذلك يقولون : حَدَا به ، إذا عمل فيه شعراً .

قال المرار الأسدى:

ولو أنى حَدَوْتُ به أرفأنّتْ نعامته وأبْصَرَ ما يقولُ

أنواع غناء العرب

وغناء العرب قديماً على ثلاثة أوْجه : النصب ، والسناد ، والهزج .

فأما النصب فغناء الركبان والفتيان ، قال إسحاق بن إبراهيم الموصلى : وهو الذى يقال له المرائى ، وهو الغناء الجنابى ، اشتقه رجل من كلب يقال له جناب ابن عبد الله بن هبل ، فنسب إليه ، ومنه كان أصل الحداء كله ، وكله يخرج من أصل الطويل فى العروض .

وأما السناد فالثقيل ذو الترجيع ، الكثير النغمات والنبرات ، وهو

على ست طرائق : الثقيل الأول ، وخفيفه ، والثقيـل الثانى ، وخفيفه ، والرمل ، وخفيفه .

وأما الهزج فالخفيف الذى يرقص عليه ، ويمشى بالدفّ والمزمار فيطرب ، ويستخف الحليم ، قال إسحاق : هذا كان غناء العرب حتى جاء الله بالإسلام ، وفتحت العراق ، وجلب الغناء الرقيق من فارس والروم ، فغنوا الغنـــاء المجزأ المؤلف بالفارسية والرومية ، وغنوا جميعاً بالعيـدان والطنابير والمعازف والمزامير .

فرق ما بين العرب والعجم

قال الجاحظ : العرب تقطع الألحان الموزونة على الأشعار الموزونة ، والعجم تمطط الألفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل فى وزن اللحن فتضع موزوناً على غير موزون .

أول من حدا

ويقال : إن أول من أخذ فى ترجيعه الحداء مضر بن نزار ؛ فإنه سقط عن جمل فانكسرت يده فحملوه وهو يقول : وايداه ، وايداه ، وكان أحسن خلق الله جرماً وصوتا ، فأصغت الإبل إليه وجدت فى السير ، فجعلت العرب مثالا لقوله هايدا هايدا يحدون به الإبل ، حكى ذلك عبد الـكريم فى كتابه .

وزعم ناس من مضر أن أول من حدا رجل منهم ، كان فى إبله أيام الربيع ، فأمر غلاماً له ببعض أمر ، فاستبطأه ، فضربه بالعصا ، فجعل ينشد فى الإبل ويقول : يايداه ، يايداه ، فقال له : الزم الزم ، واستفتح الناس الحداء من ذلك الوقت .

وذكر ابن قتيبة أنهم قالوا ذلك للنبى صلى الله عليه وسـلم ، وحكى الزبير ابن بكار فى حديث يرفعه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لقوم من بنى غفار سمع حاديهم بطريق مكة ليـلا فمال إليهم : إن أباكم مضر خرج إلى بعض رعاته فوجدها قد تفرقت ، فأخذ عصا فضرب بها كف غلامه ، فعدا

الغـلام فى الوادى وهو يصيح : وايداه ، وايداه ، فسمعت الإبل ذلك فعطفت ، فقال مضر : لو اشتق مثل هذا لا نتفعت به الإبل واجتمعت ، فاشتق الحداء .

التغبير

وأما التغبير فهو تهليل أو تردد صوت ، بقراءة أو غيرها ، حكى ذلك ابن دريد ، وحكى أبو إسحاق الزجاجى قال : سألنى بعض الرؤساء : لم سمى التغبير تغبيرا ؟ قلت : لأنه وضع على أنه يرغب فى الغابر — أى : الباق ، أى : يرغب فى نعيم الجنـــة وفيما يعمل للآخرة — وقال غيره : إنمـا قيل له تغبير لأنه جعل ما يخرج من الفم بمنزلة الغبار ، فعرض الجوابان على أحمد ابن يحيى ، فاستجاد جوابى .

يقال للمراسل فى الغناء : المثالى ، حكاه غلام ثعلب

١٠٧ — باب الجوائز والصلات

اشتقاق الجائزة وأصلها

قال أبو جعفر النحاس : أصل الجائزة أن يعطى الرجل ما يجيزه ليذهب إلى وجهه ، وكان الرجل إذا ورد ماء قال لقيمه : أجزنى ــ أى : أعطنى ماء حتى أذهب لوجهتى وأجوز عنك ــ فـكثر حتى جعلت الجائزة عطية .

قال الراجز :

يا قيم المـاء فدَتْكَ نفسى أحْسِنْ جَوَازى وأقِلَّ حَبْسى

أول من سن الجوائز .

قال ابن قتيبة : أصل الجائزة والجوائز أن عبد عوف بن أصرم من بنى هلال بن عامر بن صعصعة ولى فارس لعبد الله بن عامر ، فمر به الأحنف بن قيس فى جيشه غازيا إلى خراسان ، فوقف لهم على قنطرة الـكر فجعل ينسب الرجل فيُعْطيه على قدر حسبه ، فكان يعطيهم مائة مائة ، فلما كثروا عليه قال : أجيزوهم ، فأجِيزُوا ؛ فهو أول من سن الجوائز .

قال الشاعر :

فِدًى للأكرمين بنى هلال ... على علاّتهم عَمّى وَخَالِى
هُمُ سَنُّوا الجوائز فى مَعَدٍّ ... فصارت سُنَّة أخرى الليالى

البدرة

والبدرة : عشرة آلاف درهم ، سميت بذلك لوفورها ، قال بعضهم : ومنه سمى القمر ليلة أربع عشرة « بَدْراً » لتمامه وامتلائه من النور ، ويقال : لمبادرته الشمسَ ، وقيل : بل البَدْرة جلدة السَّخْلة إذا فُطِمت والجذع من المعز يملأ مالا ، فسمى المال « بُدْرَةً » باسم الوعاء مجازا .

الصلة

والصِّلَةُ : ما أخذه الرجل من السلطان أول ما يتصل به ، ثم كثر ذلك حتى قيل لهبة الملك « صِلَة » .

وهذه أبيات كنت صنعتها للسيد أبى الحسن أدامَ الله عزهُ ختمت بها الكتاب لما جاء موضعها :

إن الذى صاغت يدى وفمى ... وجَرَى لسانى فيه أو قَلَمِى
ممـا عنيت لسَبْك خالصه ... واخترته من جَوْهر الكلِم
لم أهْـدِه إلا لتكْسُوَهُ ... ذكراً تُجَدِّده على القدم
لسنا نزيدك فضـل معرفة ... لكنهنَّ مصائدُ الكرم
فاقبل هدية مَنْ أشَدْتَ به ... ونَسَخْتَ عنه آيَة العـدم
لا تحسب الدنيا أبا حسنٍ ... تأتى بمثلِكَ فائقَ الهمم

الحمد لله الذي بنعمته تكمل الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد أشرف الكائنات ، وعلى آله وصحبه نجوم الهداية وأعلام الدِّرايات ، وسلم تسليما كثيراً .

وبعد ، فقد نجز كتاب « العمدة ، فى محاسن الشعر وآدابه » لأبى على الحسن بن رشيق الأزدىّ : المولود فى سنة ٣٩٠ من الهجرة (١٠٠٠ م) المتوفى فى ذى القعدة من سنة ٤٥٦ من الهجرة (١٠٦٤ م) بعد أن صَقَله التحقيق ، وجَلاَهُ حُسْن الوَضع ، وزانه رَوْنق الطَّبْع ، وبعد أن قضيتُ نصف حَوْل فى المراجعة ومغاودة النظر ، وقضيت من بعد ذلك ثلاثة أشهر فى الإشراف على طبعه ؛ لا يحملنى على تجشُّم هذه الأهوال إلا الرغبة الصادقة فى خدمة العربية ، والحرص على أن تكون كتبها صحيحة المعنى جميلة الرُّوَاء .

وإنى أتضرع إلى الله تعالى أن يثيبنى على هذا بمقدار إخلاصى فيه لوجهه ؛ فهو حسبى ونعم الوكيل .

محمد محيى الدين عبد الحميد

فهرس الجزء الثانى، من كتاب

« العمدة ، فى محاسن الشعر ونقده »

لأبى على الحسن بن رشيق ، القيروانى ، الأزدى

ص	الموضوع

تمت — بحمد الله تعالى واهب القوى والقدر — فهرست الموضوعات الواردة فى الجزء الثانى من كتاب « العمدة ، فى صناعة الشعر ونقده » لابن رشيق القيروانى ، مفصلة غاية التفصيل . والحمد لله رب العالمين ، وصلاته وسلامه على إمام المتقين ، سيدنا محمد ختام المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين

